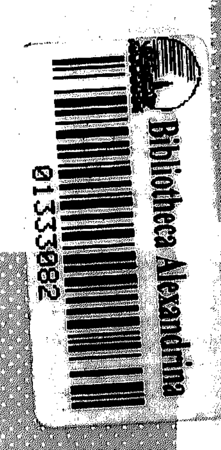
الكتب التاريخية

تاريخ المغرب العربي

٢

تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبنى مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد



الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه



0,282

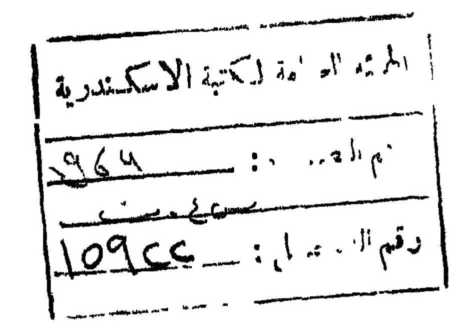
تاريخ المغرب العربي

الجزء الثاني

تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبني مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الإسكندرية سابقاً
أستاذ بكلية الآداب جامعة الكويت





الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ المغرب العربي

الجزء الثاني

تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبني مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الإسكندرية سابقا
أستاذ بكلية الآداب جامعة الكويت



الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب

"قرآن كريم / سورة يوسف"
آية ١١١

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب

«قرآن كريم / سورة يوسف»
آية ١١١

المقدمة

هذا هو الجزء الثانى من كتابنا : « تاريخ المغرب العربى » من الفتح الى قيام الدولة الفاطمية ، وهو يتناول الفترة الخاصة بدول الأغالبة ، والرستميين ، والمداريين ، والأدارسة حتى قيام الدولة الفاطمية ، واعلان خلافة المهدى عبيد الله .

وهنا أود أن أضيف هامشا الى موضوع المصادر . ففى الفترة التى كنا نقدم فيها الكتاب الى المطبعة ، وفقت الدكتورة نبيلة حسن ، مدرسة التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، الى كشف هام فى مصادر تاريخ الأندلس . فلقد تعرفت على الجزء من كتاب « المقتبس » لابن حيان مما يعالج تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠ هـ الى سنة ٢٣٢ هـ ، وذلك بين المخطوطات المصورة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

ولقد أطلعتنا على المخطوط الثمين وتزودنا منه ببعض النصوص الخاصة بالعلاقة بين دول المغرب (العدوة) ، فى تلك الفترة ، وبين الأندلس . وكنا قد اكتفينا بالاشارة الى بعضها مما يوجد بالفرنسية فى كتاب الأستاذ ليفى بروفنسال فى « تاريخ أسبانيا الاسلامية » .

ومع تهنئتى للدكتور نبيلة حسن بكشفها الهام ، أرجو أن تتم منه الفائدة ، فيتيسر لها اخراج المخطوطة الثمينة محققة مدروسة فى وقت قريب.

وبهذه المناسبة أحب أن أكرر ما سبق أن سجلته من الشكر فى المقدمة (ج ١ ص ١٠ ـ ١١) لكل من عاونني فى اخراج هذا الكتاب ، من : الدكتورة نبيلة حسن ، والدكتور محمدعبدالعال أحمد ، الى الأستاذين محمد عبد العزيز ويوسف شكرى ، وكذلك الناشر السكندرى الأستاذ جلال حزى .

والأمل أن يوفقنا الله فى اخراج الجزء الثالث من الكتاب ، فى : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب : من الأئمة وخلفائهم فى المغرب ، الى الهجرة الهلالية ـ انه نعم المولى ونعم النصير .

سعد زغلول عبد الحميد

الكويت فى ١٩٧٩/٣/٨

المقدمة

هذا هو الجزء الثاني من كتابنا « تاريخ المغرب العربي » من الفتح الى قيام الدولة الفاطمية ، وهـــو يتناول الفترة الخاصــــة بدول الأغالبة ، والرستميين ، والمداريين ، والأدارسة حتى قيام الدولة الفاطمية ، واعلان خلافة المهدي عبيد الله ٠

وهنا أود أن أضيف هامشا الى موضوع المصادر ٠ ففي الفترة التي كنا نقدم فيها الكتاب الى المطبعة ، وفقت الدكتورة نبيلة حسن ، مدرسة التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، الى كشف هام في مصادر تاريخ الأندلس ٠ فلقد تعرفت على الجزء من كتاب « المقتبس » لابن حيان مما يعالج تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠ هـ الى سنة ٢٣٢ هـ ، وذلك بين المخطوطات المصورة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ٠

ولقد أطلعتنا على المخطوط الثمين وتزودنا منه ببعض النصوص الخاصة بالعلاقة بين دول المغرب (العدوة) ، في تلك الفترة ، وبين الأندلس ٠ وكنا قد اكتفينا بالاشارة الى بعضها مما يوجد بالفرنسية في كتاب الأستاذ ليفي بروفنسال في « تاريخ اسبانيا الاسلامية » ٠

ومع تهنئتي للدكتورة نبيلة حسن بكشفها الهام ، أرجو أن تتم منه الفائدة ، فيتيسر لها اخراج المخطوطة الثمينة محققة مدروسة في وقت قريب٠

وبهذه المناسبة أحب أن أكرر ما سبق أن سجلته من الشكر في المقدمة (ج ١ ص ١٠ ــ ١١) لكل من عاونني في اخراج هذا الكتاب ، من : الدكتورة نبيلة حسن ، والدكتور محمدعبدالعال أحمد ، الى الأستاذين محمد عبد العزيز ويوسف شكري ، وكذلك الناشر السكندري الأستاذ جلال حزي ٠

والأمل أن يوفقنا الله في اخراج الجزء الثالث من الكتاب ، في : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب : من الأئمـــة وخلفائهم في المغرب ، الى الهجرة الهلالية ــ انه نعم المولى ونعم النصير ٠

سعد زغلول عبد الحميد

الكويت في ١٩٧٩/٣/٨

محتويات الجزء الثانى

الفصل الأول

محتويات الجزء الثانى

المقدمة

الفصل الأول

قيام الأغالبة فى القيروان ، ص ٢٥

الفصل الثانى

صقلية الأغلبية . واستقرار العرب فى جنوب ايطاليا ، ص ١٨٧

صقلية . كما عرفها الكتاب العرب : البلاد والسكان

فتح الأغالبة لصقلية

الفصل الثالث

الدولة الرستمية ، ص ٢٨٧

الفصل الرابع

الفصل الخامس

انتقال الملك الى بيت عمر بن ادريس :

الفصل السادس

الخريطة السياسيه الحضاريه لبلاد المغرب
فى أواخر القرن الـ ٣ هـ/٩ م ص ٨٠٤

الفصل السابع

قيام الدولة الفاطمية

الاشكال والخرائط

تاريخ المغرب العربي
من الفتح إلى قيام الدولة الفاطمية

الجزء الثاني

١ ـ دولة الأغالبة في افريقية : من ابراهيم الأول الى زيادة الله الثالث (١٨٤ هـ/٨٠٠ م ـ ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م)

٢ ـ صقلية الأغلبية : من الفتح الى نهاية الأغالبة (٢١٢ هـ/٨٢٧ م ـ ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م)

٣ ـ امامة الرستميين في تاهرت وجبل نفوسة (١٦١/٧٧٧ م ـ ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م)

٤ ـ امامة بني واسول المدراريين الصفرية في سجلماسة (١٤٠ هـ/٧٥٧ م ـ ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م)

٥ ـ مملكة الأدارسة في فاس والمغرب الأوسط (١٧٢ هـ/٧٨٩ م ـ ٣٠٥هـ/ ٩١٧ م)

٦ ـ خريطة المغرب السياسية الحضارية أواخر القرن الـ ٣ هـ/٩ م

٧ ـ قيام الدولة الفاطمية وتوحيد المغرب تحت راية المهدي : « خليفة الله ، أمير المؤمنين » (٢٨٠ هـ/٧٩٧ م ـ ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م)



انقسام المغرب إلى أربع دول

بقيام دولة الأغالبة انقسم المغرب بين ثلاث دول كبرى : أقدمها دولة الرستميين الخوارج في المغرب الأوسط ، وأوسطها دولة العلويين الأدارسة في المغرب الأقصى ، وأحدثهـا دولة الاغالبة السنية في افريقية والمغرب الأدنى بصرف النظر عن دولة سجلماسة الصحراوية وهي الرابعة • وكان ذلك بداية عهد جديد بالنسبة للمغرب العربي • فعلى عكس ما كان يظن من أن قيام ثلاث دول تعتنق مذاهب سياسية دينية متعادية قد يزيد في اضطراب المغرب ، عرفت البلاد نوعا من الاستقرار بفضل ذلك الوضع الجديد ، ترتب عليه زيادة انتشار الاسلام في البلاد ، وأدى الى ما يمكن أن يسمى بعصر النهضة •

فرغم ما في التفتت من عوامل الضعف ، ورغم ما في التقسيم من أسباب الخلاف والفرقة فان الوضع الجديد عمل على أن يكون لكل من الأقاليم الثلاثة شخصيته الذاتية وطابعه المميز ، وأوجد نوعا من اللامركزية في القيام بالعمل الحضاري الذي كان هدف العروبة والاسلام • فلقد أسهم كل من الأقاليم بنصيبه في هذا العمل ، وقام به جنبا الى جنب مع الآخرين — من غير قصد — خير قيام • ولقد ساعد على ذلك — رغم ما بين هذه القوى الثلاث من المنافسة — أنها لم تعدم أوجها من الشبه فيما بينها : من ذلك أنهـا مشرقية الأصل ، ولهذا الامر أهمية كبرى • فرغم استقلالها السياسي عن الخلافة ، فانها ظلت مرتبطة بالمشرق عن طريق تيار من الهجرة المستمرة ، الذي كان يحمل من المشرق الى المغرب نخبا ممتازة من أقارب الأسر الحاكمة ومن بني جلدتها ، ومن أعوانها ومعتنقي أفكارها السياسية والمذهبية • هذه الهجرة كانت تؤكد الاتصال بين المغرب المتطرف وبين مركز الخلافة وبلاد العرب ، تماما كما كان الحال بين المشرق العباسي وبلاد الأندلس الأموية — رغم ما بين الأسرتين من العداء المرير •



الفصل الأول

قيام الأغالبة فى القيروان

من إبراهيم الأول إلى زيادة الله الثالث

(١٨٤هـ/٨٠٠م - ٢٩٦هـ/٩٠٨م)



ابراهيم بن الأغلب .

مؤسس الدولة الأغلبية هو ابراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي . ووالده الأغلب الذي كان من جند مصر أصله من أهل مرو الروذ ، بمعنى أنه كان من الجند العربي الخراساني الذي وفد مع القوات العباسية الى مصر . وأصبح من جندها(١) . ودخل الاغلب افريقية في قوات محمد بن الاشعث سنة ١٤٤ هـ/٧٦١ م ، وعهد اليه المنصور بولاية افريقية في أواخر سنة ١٤٨ هـ/أواخر ٧٦٥ م وأوائل ٧٦٦ م ، ومات بضربة سهم في سنة ١٥٠ هـ/٧٦٧ م ، ولهذا عرف بـ « الشهيد »(٢) . وكان ابراهيم حين مات والده ابن عشر سنين(٣) . ولا نعرف ما اذا كان في القيروان في ذلك الوقت أم في مصر ، اذ يذكر الكتاب أنه قضى صباه في الدرس والتحصيل بالفسطاط ، وأنه كان يحضر مجالس فقيه مصر الأشهر الليث بن سعد . وقد أعجب الليث بجد ابراهيم واجتهاده ، وبما تميز به من الصفات حتى قال يوما عنه . « ليكونن لهذا الفتى شأن »(٤) . وعندما بلغ مبلغ الشباب دخل في جند مصر ، وكان عليه أن يسير الى المغرب مثل والده ،

---

(١) البلاذري ، ط. ليدن ، ص ٢٣٣ .

(٢) نفس المصدر ، انظر فيما سبق ج ١ ص ٢٤٧ وما بعدها (وعن لقب الشهيد ، ص ٢٢ ص ٣٥٠) .

(٣) توفي ابن الأغلب سنة ١٩٦ وعمره ٥٦ سنة كما سنرى ، وهذا يعني انه ولد حوالي سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م .

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٢ (يقول النص ان ابراهيم سمع من الليث واعطاه زوجته أم جلاجل) ، وقارن الرقيق ، ص ٢١٢ – ٢١٣ (حيث النص : « ليكونن لهذا نبأ وشأن » الى جانب تفصيلات عن اختلافه الى الليث لطلب العلم ، واهدائه جلاجل عند خروجه الى المغرب) .

فشد رحاله الى افريقية تاركا أهله بمصر(٥) ٠

أما عن تاريخ وصول ابراهيم بن الأغلب الى المغرب ، وبداية خدمته العسكرية هناك ، فهو من الأمور الغامضة ٠ واذا كان الرقيق يورد رواية تقول انه سار مباشرة من مصر وبصحبته زوجته الى اقليم الزاب أثناء ولاية الفضل بن روح ، أى فيما بين سنتي ١٧٧ هـ — ١٧٩ هـ ، وانه لقى من الفضل وسوء مجاورته شيئا عظيما ، فانه مما يشكك في صحة هذه الرواية ما يورده الرقيق نفسه بعدها ، من : انه خلف أهله بمصر عند مسيره الى المغرب(٦) ٠ هذا ، الى جانب أننا لا نجد ذكرا لابراهيم بن الاغلب في أحداث بلاد الزاب التي شارك فيها الفضل بن روح ، وهو الأمر المستغرب بالنسبة لضابط من أعيان جند مصر ، له عراقة ابراهيم — لو أنه كان وقتئذ في الزاب ٠

ومن الأمور المستغربة أيضا أن يكون ابن الأغلب ، وهو يستقبل الأربعين من عمره ، في ولاية هرثمة بن أعين حوالى سنة ١٧٩ هـ ، قائدا لجماعة صغيرة من الجند تقوم بأعمال الشغب ٠ فهذا ما يفهم من رواية أحمد ابن ناقد ، مولى بني الأغلب التي ينقلها البلاذرى ، والتي تقول ان ابراهيم كان من وجوه جند مصر وأنه أغار وبصحبته ١٢ (اثنا عشر) رجلا على بيت المال بالقيروان ، فأخذوا مقدار أرزاقهم لم يزيدوا عليها شيئا ، ثم انهم هربوا الى الزاب ٠ وتمكن ابراهيم من السيطرة على من كان هناك من الجند ، كما اكتسب ود أهل الناحية ، وبذلك تغلب على الزاب ، وآلت اليه الرياسة هناك ٠ وبفضل مناوراته الذكية ، من : ملاطفة هرثمة ، واهدائه الهدايا ، واعتذاره عما بدر منه بحسن نية ، وتمسكه بالطاعة ، نجح في الحصول منه — رسميا — على ولاية الزاب(٧) ٠

---

(٥) انظر ابن عذارى الذى يذكر بيتين من الشعر لابراهيم فى زوجته وقد تركها بمصر :

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة   الا وذكرك يثني دائما عنقي
ولا ذكرتك الا بت مرتقبا   أرعى النجوم كأن الموت معتنقي

وقارن الرقيق (ص ٢١٣) الذى يذكر البيتين ، رواية محمد بن الوكيل ، مع اختلاف فى الشطرة الثانية من البيت الأول حيث « يلوى » بدلا من « يثني » ، وفى الشطرة الأولى من البيت الثاني : « كنت » بدلا من « بت » وفى الشطرة الثانية : « الليث » بدلا من « الموت » .
ابن عذارى : البيان ، ج ١ ص ٤٩ ٠

(٦) الرقيق ، ص ٢١٣ ٠

(٧) البلاذرى ، ص ٢٣٣ ٠

والحقيقة انه رغم ما يمكن أن يشوب هاتين الروايتين اللتين انفرد بهما كل من البلاذرى والرقيق من الشـــوائب ، فانه يمكن أن تكمل احداهما الاخرى ، من : حيث دخول ابراهيم بن الأغلب الى المغرب فى عهد الفضل بن روح ، ووصوله الى ولاية الزاب بفضل شجاعته وحسن تدبيره — ان ثم نقل وصوليته — على عهد هرثمة الذي كان يحسن الظن فيه ٠

وهكذا لا نجد ابراهيم بن الأغلب فى النصوص الاخرى الا قائدا من كبار القواد ، له ولاية الزاب الهامة من قبل الخليفة هارون الرشيد نفسه ، وذلك على عهد ابن مقاتل العكى(٨) ٠ ولا باس أن يكون ذلك قد حدث اثر تدخله في مصلحة ابن مقاتل ، كما رأينا(٩) ٠

والذى يفهم من النصوص ان ولاية ابراهيم لم تتم بسهولة ، وانمـــا تحققت بعد صراع مرير بين الوالى السابق محمد بن مقاتل العكى ، الذى كان يستند الى حسن علاقته بجعفر بن يحيى البرمكي ، وبين ابراهيم الذى عمل على اكتساب تأييد رجال الخلافة فى افريقية ٠ فهناك رواية تقول انه عندما أعاد ابن الأغلب الى الولاية محمد بن مقاتل ، كتب صـــاحب البريد بافريقية وهو يحيى بن زياد الى هارون الرشيد بحسن بلاء ابن الأغلب فى سبيل الخلافة — وقرأ الرشيد تقرير صاحب البريد على أخصـــائه ، كمـــا استشار هرثمة بن أعين والى افريقية السابق ، فأكد له اخـــلاص ابراهيم للخلافة وعرفه بحب الناس له ، فكان ذلك سببا فى أن عين الرشيد بن الأغلب واليا للبـــلاد(١٠) ، وذلك فى ١٢ من المحـــرم سنة ١٨٤ هـ/٢٠ فبراير سنة ٨٠٠م(١١) ٠ وهناك رواية أخرى لابن الاثير تقول ان ابن الاغلب كان قد كتب الى الخليفة — بناء على رغبة أهل البلاد — يطلب منه ولاية افريقية ، وانه عرض على الرشيد الاســـتغناء عن المعونة السنوية التى كانت تقدمهـــا مصر الى افريقية ومقدارها ١٠٠ (مائة) ألف دينار ، وانه تعهد على العكس

---

(٨) الرقيق ، ص ٢١٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٢ ، الحلة السيراء ج ١ ص ٩٣ ٠
(٩) أنظر ليما سبق ، ج ١٠ ص ٣٩٣ وما بعدها ٠
(١٠) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ج ٦ ص ٦٣ ، النويرى ، ١٠٤ ب (الترجمـــة ، ابن خلدون ، ج ٤ص ٣٦٨) ، وقارن أصل الرواية فى الرقيق ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٥ : حيث اسم صاحب البريد : ابن زياد مرة ، وابن الفضل ٠ وعن ولاية ابراهيم ، قال الرشيد : « أرجو ان أكون قد رميتها (افريقية) بحجرها » ٠
(١١) انظر العيون والحدائق ، ج ٣ ص ٣٠٢ ٠

من ذلك بدفع ٤٠ (أربعين) ألف دينار سنويا الى بيت مال الخلافة(١٢) • ويمكن التوفيق بين الروايتين اذا اعتبرنا ان اتصال ابن الأغلب بالرشيد كان عن طريق عمال الخلافة مثل صاحب البريد •

والظاهر ان ابن مقاتل عرف الاتصالات التي كان يقوم بها ابن الأغلب من خلف ظهره ، وانه حاول القيام بعمل مضـــاد يضمن له الاستمرار في الولاية برغم ما كان يظهره له ابن الأغلب من الرعاية والعطف • فعندما وصل تقلية الرشيد لابن الأغلب أسرع هـــذا الى ابن مقاتل يطلب منه الا يتعجل بالخروج من القيروان ، ويسمح له بالبقاء طالما شاء الى ان يتم جهاز الرحيل • ولكن ابن مقاتل خرج بعد أيام الى طرابلس ، وهناك لقى مبعوثا أتى من بغداد هو حماد السعودي ، يحمل رسالتين الى القيروان ، فاغتنم الفرصـــة وزيف رسالة ثالثة تقضى بخلع ابراهيم بن الأغلب وتقليده هو الولاية من جديد • وأتبع ابن مقاتل ذلك برسالة أخرى من لدنه يعلن فيها قرب وصـــوله الى القيروان ، ويأمر ابن الأغلب بالرجوع الى الزاب ، ويدعـو أحد أعوانه وهو سهل بن حاجب الى القيام بأمر الولاية نيـــابة عنه والى حين حضوره(١٣) • وأغلب الظن أن ابن مقاتل كان يأمل خلال فترة انتظاره في طرابلس ان يمكن جعفر البرمكي من تسوية الأمر مع الخليفة ، وهي الأمنية التي لم تتحقق

فعندما علم الناس بذلك اضطربوا ، وطلبوا الى ابن الأغلب ان يحتفظ بالولاية ، وأن يكتب الى الخليفة يعلمه بافتراء ابن مقاتل واختلاقه • ورغم أن ابن الأغلب وافقهم على صحة تزييف ابن مقاتل اعتمـــادا على علاقته القوية بجعفر بن يحيى البرمكي ، فانه جمـــع رجاله وعـــاد بهم الى ولايته الأولى بالزاب(١٤) ، وذلك في ١٩ ربيع الآخر/١٨ مايو ، وترك سهل بن جعفر واليا بالنيابة ورجلا آخر يعرف بأبي عزيز كصاحب للشرطة(١٥) •

---

(١٢) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٢ — ٦٣ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٦) •

(١٣) انظر العيون والحدائق ، ج ٣ ص ٣٠٢ ، النويري ، ص ١٠٤ ب (الترجمة ، ابن خلدون ، ج ١ ص ٣٩٨ — ٣٩٩) ، وقارن الرقيق ، ص ٢٢٠ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٩٤ •

(١٤) انظر العيون والحدائق ، ج ٣ ص ٣٠٢ ، النويري ، ص ١٠٤ ب (الترجمـــة ، ابن خلدون ، ج ١ ص ٣٩٩) وقارن الرقيق ص ٢٢٠ •

(١٥) انظر العيون والحدائق ، ج ٣ ص ٣٠٢ (حيث النص على أن ابراهيم سار الى مدينة تهودة) •

ولما وصلت أنباء العكى الى الرشيد غضب . وكتب اليه يؤنبه على سوء صنيعه ويطلب اليه العودة سريعا « غير محمود الفعال » ، فعاد ابن مقاتل الى المشرق . وفى نفس الوقت كتب الرشيد رسالة ثانيــة بتولية ابراهيم ابن الأغلب ، سار بها الرسول الى الزاب ، فعاد ابراهيم من جديد الى القيروان فى ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ/٩ يوليـــة سنة ٨٠٠ م ، وتسلم الحكم من سهل بن حاجب الذى بقى فى النيابة أكثر من شهرين(١٦) .

ومع انه من الجائز الشك فى صحة الرواية الخاصة بمؤامرة العكى ، لطابعها القصصى أولا ، ولأنها ثانيا لم ترد الا فى الرقيق الذى ينقله النويرى مما يحتمل ان الرواية تكرر هنا خطأ عودة ابن مقاتل الى القيروان بعد طرده على يدى التميمى(١٧) ، فاننا نعتقد أن المقصود بها هو اظهار محبة ابراهيم ابن الأغلب فى قلوب الناس ، وان اختياره لحكم البلاد كان استجابة لرغبة شعب افريقية . كما يفهم من رواية ابن الأثير(١٨) ، وهذا أمر لم يكن معروفا الا فيما ندر . وهو يعنى ان ابراهيم بن الأغلب نجح فى اكتساب محبة أهل افريقية كما نجح فى كسب رضاء الخلافة عنــدما عرض الاستغناء عن المعونة الآتية من مصر ، بل ودفع مبلغ سنوى من المال الى الخليفة . وهذا الأمر الاخير يعنى أن ابن الأغلب بين للخلافة أن بلاد افريقية يمكن أن تنتعش وتتقدم اقتصاديا – مثل ولايات الخلافة الغنية – اذا ما تهيأت لها الادارة الرشيدة .

العباسية (القصر القديم) عاصمة جديدة لافريقية :

بدا ابراهيم بن الاغلب ولايته بعمل يعتبر فى حقيقته سمة من سمات الدول الجديدة ، أو شعارا من شعارات كبار الحكام : ذلك هو بنـــاء مدينة ملكية أو عاصمة جديدة . بدأ هذا العمل فى نفس السنة التى ولى فيها أى فى سنة ١٨٤ هـ/٨٠٠ م حسب رواية البكرى وابن الأثير(١٩) ، أو فى السنة التى تليها (١٨٥ هـ/٨٠١ م) كمـــا يقول ابن عذارى(٢٠) . ونعتقـــد أن

---

(١٦) النويرى ، ص ١٠٥ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٢٠ ، والعيــون والحدائق ، ج ٣ ص ٣٠٢ .

(١٧) انظر فيما سبق ، ص ٣٩٣ – ٣٤٩ .

(١٨) انظر فيما سبق ، ص ٣٠ وهـ ١٢ .

(١٩) البكرى ، ص ٢٨ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ ، ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٤٧ .

(٢٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٢ .

الروايتين صحيحتين وان البناء بدأ في السنه الأولى وتم في السنة الثانيه .
ولا شك في أن ابن الأغلب تمعن في دروس الماضي ، وانه أخذ العبرة من اضطرابات القيروان ، التي كانت تموج بأهلها وعسكرها ، فرأى أن يبتعد عنها قليلا . ووقع اختياره على قطعة من الارض على ثلاثة أميال في الجنوب الشرقي من القيروان ، وكانت لجماعة من بني طالوت فاشتراها منهم(٢١) .
وبعد أن تم البناء أطلق ابن الأغلب على مدينته الجديدة اسم العباسية(٢٢) .
تيمنا باسم الأسرة الخلافية ، ولتكون قرينة للهاشمية أول عاصمة عباسية قبل بغداد(٢٣) ، هذا ولو انها عرفت أيضا باسم القصر القديم(٢٤)
ولا تعرف ان كانت هذه التسمية الأخيرة قد ظهرت منذ بناء المدينة [illegible] ظهرت في وقت متأخر عن ذلك . وفي الحالة الأولى تكون العباسيه قد بنيت في موضع قلعة قديمة كانت في أرض بني طالوت وفي الحالة الثانية تكون التسمية قد أطلقت على العباسيه بعد ان قامت قصور جديدة بجوارها كما سيحدث بعد بناء قصور رقادة على أيام ابراهيم الثاني بن احمد (بن محمد ابن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب) وهو عاشر الأغالبة سنة ٢٦٣ هـ ٧٦ - ٨٧٧ م(٢٥) .

ويرجع بعض للبكري الذي يمدنا بتفصيلات لا بأس بها عن طبيعة بناء العباسية . ويمكن القول انها احتوت - عموما - على قصر الأمير وما يلحق به من الدواوين ودار سك النقود ومساكن حاشيته والمسجد الجامع . أما عن صومعة هذا الجامع (اي مئذنته) فيصفها الجغرافي الأندلسي بانه « لم ير أحكم منها ، ولا أحسن منظرا » فلقد كانت الصومعه مستديرة الشكل - كما هو الحال بالنسبة لمآذن العراق - مبنية بالآجر والعمد في سبع طبقات(٢٦) . وتأتي بعد ذلك معسكرات الحرس . ويحيط بكل هذا الأسوار

---

(٢١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٢ ، وقارن الرقيق ص ٢٢٢ والبكري ، ص ٣٨ (على ٣ أميال قبل القيروان) .

(٢٢) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ج ٦ ص ٦٢ .

(٢٣) عن هاشمية العراق انظر البلاذري ، طبعة ليدن ١٨٦٦ ، ٢٨٧

(٢٤) الرقيق ، ص ٢٢٢ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٣ . وقارن ابن ابي دينار (ص ٤٧) الذي يسميها بالقصر فقط .

(٢٥) انظر فيما بعد (بناء رقادة - عهد ابراهيم بن احمد) ص ١١٦ .

(٢٦) انظر البكري ، ص ٢٨ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٢٢ (حيث هناك اشارات الى القصر والمتنزه حوله ، والمسجد الذي بناه فيه) ، وقارن النويري ، ص ١٠٥ الترجمة ، في ملحق ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٠ .

القوية المحصصة لحمايتها . ثم ان ابراهيم بن الأغلب أحاط الأسوار بخندق فيما بعد ، عندما ثار به قائده عمران بن مجالد (بعد سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٨ م)(٢٧) . وينص البكرى على انه كان لتلك الأسوار خمسة أبواب ، اثنان منها فى الجانب القبلى ، وهما : باب الرحمة ، وباب الحديد ، واثنان فى الجانب الشرقى ، وهما : باب غلبون وباب الريح ، وباب واحد من الجانب الغربى ، هو باب السعادة ، مقابل المقبرة الكبيرة خارج الأسوار . وفى وسط المدينة كانت توجد رحبة كبيرة واسعة عرفت باسم « الميدان » ، ربما كانت تستخدم لعرض الفرسان(٢٨) .

وهكذا اتسعت العباسية وأخذت تنافس القيروان بحماماتها الكثيرة ، وفنادقها ، وأسواقها الجمة ، ومواجل الماء العظيمة التى كانت تمير القيروان ، أوقات القحط ، عندما تفرغ صهاريجها العديدة من الماء(٢٩) .

وموضع القصر القديم معروف حاليا ، وان كان فى شكل تل صغير أو كدية : طوله حوالى ٥٠ مترا وعرضه حوالى ٣٠ مترا . ولقد أظهرت الحفائر الحديثة على طول الواجهة الشمالية الغربية وجود قاعات متجاورة ، وسراديب وحفر دائرية تحت الأرض . وقاعدة البناء والجدران من اللبن ، أما الآجر فكان يستخدم فى انشاء القباب وأسقف الدور العلوى من البناء . وهذا الجزء المكتشف يدل ببساطته على أنه كان مخصصا للمخازن ومساكن الخدم . أما المبانى الفاخرة فقد نهبت من أجل اقامة مبان جديدة(٣٠) .

وفى الوقت الذى بدأ فيه ابراهيم بن الأغلب البناء كان يعمل فى الخفاء على تحقيق هدفه من انشاء العباسية ، وهو العمل على التحرر من تسلط العسكر المشاغب والتمكن من مدافعتهم اذا تطلب الأمر ، وذلك بالاعتصام بقلعته الجديدة . ولكى يحقق هدفه هذا فى هدوء اعتنى بالجند وأخذ يداريهم حتى يضمن طاعتهم ، وكان يتحمل فى سبيل ذلك سوء أخلاقهم وشراسة طباعهم ، بينما أخذ فى شراء السودان بحجة استخدامهم فى الصناعة تخفيفا على الناس من أعبائها ومشقاتها . ثم انه بدأ الخطوة الثانية فى سبيل

---

(٢٧) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ . وعن ابن مجالد انظر فيما بعد ص ٣٦ وما بعدها .

(٢٨) انظر البكرى ، ص ٢٨ .

(٢٩) البكرى ، ص ٢٨ .

(٣٠) ج. مارسيه كتاب الفن الاسلامى (بالفرنسية) ، ج ١ ص ٤١ - ٤٢ .

استخدام السودان في عسكره فاشترى آخرين ، وخصصهم لحمل سلاح الجند ، وأوهم هؤلاء ان في ذلك اكراما لهم(٣١) . وهو في الحقيقة كان يدرب السودان على استخدام السلاح ، كما كان يجرد الجند منه · فعندما تم بناء العباسية أخذ ينقل اليها السلاح والعدد(٣٢) ، ثم انه انتقل اليها في جنح الليل بأهله وحرمه وعبيده(٣٣) · ولقد أسكن عبيده هؤلاء — وهم الذين أصبحوا حرسه الخاص الذي يضع فيه ثقته — حوله ، كما أسكن معه أيضا أهل الثقة من جنده(٣٤) · وبذلك أصبحت العباسية مقرا لابراهيم ، ومعسكرا لقواته ، مثلها في ذلك مثل كل المدن العربية الحديثة التي بنيت من قبل : كالكوفة والبصرة ثم واسط بالعراق ، والفسطاط ثم العسكر في مصر ، وفي المغرب مثل : القيروان وتاهرت وسجلماسة وفاس(٣٥) ·

اقرار ابراهيم بن الأغلب للأمور في افريقية :

ثورة خريش الكندي في تونس :

حدث ما كان يخشاه ابراهيم بن الأغلب من عسكر افريقية ، وكان العباسية عند حسن ظنه بها ، فقامت بدورها في المحافظة على كيان المملكة الناشئة خير قيام · ففي سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ تعرض ابن الأغلب لثورة خطيرة في تونس قادها والي المدينة العربي وزعيم « الأبناء » · حريش بن عبد الرحمن ابن خريش الكندي ، صهر الحسن بن حرب الكندي(٣٦) · ولا يذكر الكتاب

---

(٣١) أنظر الرقيق ، ص ٢٢٢ ، وقارن النويري ، ص ١٠٥ والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ملحق ٢ ص ٤٠ ·

(٣٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٣ ·

(٣٣) أنظر الرقيق ، ص ٢٢٢ ، وقارن النويري ، ص ١٠٥ أ والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ملحق ٢ ص ٤٠٠ ·

(٣٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٣ ، النويري ، ص ١٠٥ أ والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ملحق ٢ ص ٤٠٠ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٢٢ ·

(٣٥) عن تاهرت وسجلماسة وفاس انظر الفصول الخاصة بها فيما بعد ··

(٣٦) أنظر الحلة السيراء لابن الأبار ، ترجمة رقم ٣٢ ، ج ١ ص ١٠١ ، وهـ ٢ : حيث يشير حسين مؤنس الى أن الاسم في شكل خريش واضح تمام الوضوح على عكس ما هو موجود في النويري وابن خلدون في شكل « حمديس » · كما أشار الى القرائن التي ترجح فعلا اسم خريش مثل اكتفاء ابن عذاري بذكر لقب الرجل وهو الكندي ، ثم أبيات الشعر (ص ١٤٠) التي يرد فيها الاسم في شكل خريش ، مما يؤكد صحته اذ لا يستقيم مع اسم حمديس · والظاهر أن المسئول عن تحريف اسم خريش الى حمديس هو الرقيق الذي نقل عنه النويري =

شيئا عن سبب هذه الثورة اذ يكتفون بأن الكندى نزع السواد - شعار العباسيين - مما يعنى أنها ثورة مناهضة للخلافة أو لجندها فى افريقية ، ولا بأس أن تكون اشارته الى على بن أبى طالب(٣٧) تعنى أن للثـــورة لونا شيعيا ، ونجح فى اجتذاب كثير من الاتباع من العرب والبربر(٣٨) • وسير ابراهيم بن الأغلب قائده عمران بن مجالد لقتال الثائر ، وتم اللقاء عنـــد سبخة تونس ، وانتهى بكارثة بالنسبة للثـــوار ، فرغم انهزامهم أخذتهم سيوف الجند الأغلبى : فبقى منهم عشرة آلاف رجل مصرجين بدمائهم فى أرض المعركة ، منهم الكندى نفسه(٣٩) ودخل عمران تونس وانتقم من أنصار خريش فقتلهم ، وأقر الأمور فى المدينة(٤٠) •

=وابن خلدون (أنظر الرقيق ، ص ٢٢٤) • ومما يسترعى الانتباه ان الرقيق يصف خريشا الكندى بأنه من « أبناء العرب » ، ومؤرخ القيروان يستخدم كلمة « الأبناء » كثيرا عند كلامه عن عساكر تلك الفترة وحروبها • ومع أن ابن الأبار يكاد يشرح معنى « الأبناء » عندما يقول ان الكندى لم يكن من الجند بل من أبناء العرب الذين كانوا بافريقية قبل المسودة (العباسيين)، فان الذى نفهمه من روايات الرقيق ان كلمـــة « الأبناء » كانت تعنى وقتئذ : « أبناء الجنـــد الذين ولدوا فى افريقية سواء كانوا من العرب البلديين ، أى عرب الفتوح الأولى ، كما يقول ابن الأبار ، أو من الوافدين بعد ذلك ، من أهل الشام أو الخراسانية • وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٦١ وص ١٧٦ (عن ثورة تمام بن تميم بأنه من الأبناء) •

وعن تاريخ ثورة الكندى ، أنظر الرقيق ، ص ٢٢٥ ، (حيث سنة ١٨٦ هـ) ، ابن الأثير، أحداث سنة ١٨١ هـ ، ج ٦ ص ٦٣ ، النويرى ، ص ١٠٥ ب والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠١ ، وقارن ابن عذارى (ج ١ ص ٩٢) الذى يضعها ضمن أحداث سنة ١٨٥ هـ ، ولو انه يتبع ذلك بقوله : انه كانت لابن الأغلب مع الكندى وقائع وافقت محاربة المأمون للأمين بعد موت الرشيد أى بعد سنة ١٩٣ هـ • ونعتقد ان ابن عذارى يخلط هنا بين ثورة الكندى هذه وثورة عمران بن مجالد فيما بعد (أنظر الصفحة التالية) •

(٣٧) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٠٢ •

(٣٨) ابن الأثير : أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ ، النويرى ، ص ١٠٥ ب والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ملحق ٢ ، ص ٤٠٠ ، وأنظر الرقيق ، ص ٢٢٤ •

(٣٩) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ (يسمى قائد ابراهيم هنا « عمران بن مخلد » ، وهو فى الرقيق ، ص ٢٢٤ وما قبلها ، من حيث ينقل بن الأثير « عمران بن مخالد ») • أما عن هول القتال ، وعدد القتلى ثم افناء الثوار فى تونس حسبما وصفه ابن الأغلب للرشيد) فانظر الرقيق ص ٢٢٥ ، النويرى ص ١٠٥ ب والترجمة (فى ابن خلدون) ص ٤٠٠ - ٤٠١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٦ •

(٤٠) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ ، النويرى ، ص ١٠٥ ب والترجمة (فى ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠١ ، وفى مقاتل أصحاب خريش تعمل رواية الرقيق (ص ٢٢٥) قل انهم كانوا يصيحون : « بغداد بغداد » ، فلا والله لا اتخذ لكم طاعة بعد اليوم أبدا • ، مما يرجح ان يكون للثورة طابع مذهبى شيعى معاد للعباسيين ، وعن مشاركة حمزة بن السبال ؛

ثورة الجند فى طرابلس :

ولقد سببت مدينة طرابلس — القريبة من مواطن الاباضية فى جبل نفوسة وأرض هوارة ورنانة — كثيرا من المتاعب لابن الاغلب . فقد كان الطرابلسيون يشكون من الولاة وكان ابراهيم يستجيب لهم فيعـــزل من لا يرضون عنه . وفى سنة ١٨٩ هـ/٨٠٥ م ثار أهل طرابلس بواليهم سفيان ابن المضاء (الذى ولى المدينة للمرة الرابعة) وألجأوه الى المسجد الجامع ثم انهم سمحوا له بالخروج بالأمان ، ولما لم يمض على ولايته شهر واحـــد . والظاهر أن جند طرابلس وليس أهلها هم الذين قاموا بتلك الثورة اذ أن الجند هم الذين جعلوا أمر المدينة الى ابراهيم بن سفيان التميمى بدلا من ابن المضاء . ويقول ابن الاثير ، الذى ينفرد بذكر تلك الأحداث : ان الخلاف وقع بعد ذلك بين «الأبناء» بطرابلس وبين قوم من بنى أبى كنانه وبنى يوسف حتى فسدت طرابلس . والظاهر أن المقصود بالأبناء : هم أبناء الجند الذين ولدوا فى افريقية ، ولم ينخرطوا فى سلك العسكرية ، سواء كانوا من العرب البلديين أو من الوافدين على البلاد بعد ذلك ، من : أهل الشام أو من أهل خراسان ، كما سبقت الاشارة(٤١) . فعندما بلغت ابراهيم أنباء تلك الفتنة استدعى الأبناء وخصومهم الى القيروان فى ذى الحجة من نفس السنة/نوفمبر ٨٠٥ م ، وهناك سألوه العفو فأجابهم وعادوا الى بلدهم(٤٢) .

ثورة عمران بن مجالد — « الوزير » :

أما أخطر الثورات التى تعرض لها ابن الأغلب فهى التى قام بها قائده ووزيره عمران بن مجالد الربيعى — قاهر خريش الكندى — بالاشتراك مع عامر بن المعمر بن سنان التيمى صاحب الشرطة ووالى قسطيلية السابق ، وعمرو بن معاوية القيسى ، أحد فرسان قيس وسادتها فى الاسلام ، وذلك سنة ١٩٤ هـ/٨١٠ م على ما يظن(٤٣) . والظاهر أن عمران شعر بقوته بعد

= المعروف بالحرون ، قائد ابراهيم وصديقه وواليه على طبنة ، فى حرب خريش وما قاله فيها من الشعر . انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٤١) انظر ص ٣٤ وص ٣٦ .

(٤٢) ابن الأثير ، سنة ١٨٩ ، ج ص ٧٧ .

(٤٣) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٩٤ ، ج ٦ ص ٩٥٠ (حيث يذكر مع عمران : خريش ابن التونسى ، والغالب الظن ان المقصود بذلك ثورة خريش الكندى السابقة) . وانظر الحلة السيراء ، ترجمة ٣٥ ، ج ١ ص ١٠٤ ، وترجمة ٣٦ ص ١٠٦ (عن عامر) وترجمة ٣٩ ص ١١٠ (عن عمرو) .

الخدمات الكبيرة التي أداها لابن الأغلب ، وأنه كان يطمح في أن يكون له مركز ممتاز بالنسبة للأمير . والنويري الذي ينقل عن الرقيق ، يعلل فتور العلاقة بين ابن الأغلب وابن مجالد بأسباب شخصية ، وذلك منذ بناء القصر القديم : فقد خرج ابراهيم يوما الى مصلى روح ومعه عمران الذي أخذ يجاذبه أطراف الحديث وابراهيم لا يستمع اليه اذ كان منصرفا كلية الى التفكير في سكنى قلعته الجديدة (القصر القديم)(٤٤) وربما كان الأقرب الى الصحة أن عمران أحس بما يشكله المقر الجديد لابراهيم من التباعد أو الانفصال بين الجيش وبين الأمير ، الذي لن يصبح واقعا تحت رحمة قواده . هذا ، كما يمكن التفكير في أن ابن الأغلب أخذ يهمل شئون الجند وخاصة ما يتعلق منها بدفع الرواتب ، وذلك بعد أن استغنى عن الاموال التي كانت تاتيه من الخلافة ، كما سنرى بعد قليل .

وهكذا بدأ عمران يتغير وأخذ يتآمر على بن الأغلب، وانتهى الأمر بأن أعلن الثورة ، واجتذب كثيرا من الأنصار منهم أهل القيروان التي نجح في الاستيلاء عليها في ١٠ من رجب ١٩٤ هـ/١٩ ابريل سنة ٨١٠ م ، وبلغ الأمر الى درجة أنه غلب على معظم بلاد افريقية(٤٥) . وحاول عمران اكساب ثورته نوعا من الشرعية باجتذاب فقيه « افريقية المشهور أسد بن الفرات الى جانبه ، وحاول أن يكرهه على ذلك ، ولكن ابن الفرات هدده باعلان رأيه في الفتنة علانية ، وهو : « ان القاتل والمقتول في النار » ، فتركه(٤٦) .

ولم يكن لابراهيم بن الأغلب من ملاذ الا في العباسية ، فخندق حولها واعتصم بأسوارها(٤٧) . واستمرت الثورة طوال عام راحت البلاد خلاله نهبا للاضطراب والفوضى . فكانت خيل ابراهيم تغير حتى حوائط القيروان وتقتل من يصادفهـا في الطريق ، وكانت خيـل عمران تغير عـلى بلاد ابراهيم(٤٨) .

---

(٤٤) النويرى ، ص ١٠٦ أ ، والترجمة (ابن خلدون) ج ، ص ٤٠١ .

(٤٥) ابن الأثير ، الحدث سنة ١٨١ ، ج ٦٣ وسنة ١٩٤ ، ج ٦ ص ٩٥ ، النويرى ، ص ١٠٦ أو الترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٢ .

(٤٦) ابن الأثير ، سنة ١٩٤ ، ج ٦ ص ٩٥ ، وانظر ترتيب المدارك ، للقاضي عياض ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٤٧٨ ، تراجم أغلبية ، ص ٦٨ ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١٠٥ .

(٤٧) ابن الأثير ، الحدث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ .

(٤٨) النويرى ، ص ١٠٦ أو الترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٢ .

واخيرا بى العرج مملا فى الأموال التى أرسلها الرشيد الى ابن الأغلب لدفع مرتبات الجند(٤٩) • ولا شك فى أن ابن الاغلب كان فى أشد الحاجة الى النقود ، اذ انه بمجرد ان علم بمسيرتها اليه أسرع وجعل ابنه عبد الله يسلمها فى طرابلس(٥٠) ، خشية أن تقع بين أيدى خصومه في بلاد القيروان • وكان لنبأ وصول المال أثر السحر فى قلوب الجند الثائر الذين فكروا في تسليم عمران • وعندما سار ابراهيم بالخيل والرجال والعبيد نحو أسوار القيروان ، ونادى مناديه يدعو كل من اسمه فى ديوان أمير المؤمنين الى الحضور لتسلم عطائه ، لم يأمن عمران البقاء مع رجاله ، فترك القيروان ليلا وسار الى بلاد الزاب ، وبصحبته عمرو بن معاوية وعامر بن المعمر(٥١) • وأسرع ابراهيم الى القيروان فدخلها ، وانتقم من المدينة فخلع ابوابها وثلم اسوارها(٥٢) حتى لا تعود الى الثورة •

وهكذا أكدت العباسية حسن ظن ابن الأغلب بها ، فقد حققت له الظفر على خصومه وثبتت أقدام اسرته فى البلاد • وبناء على ذلك ، وبعد أن شعر بالاطمئنان ، أخذ فى زيادة عمرانها • فاقطع آله ومواليه الاقطاعات فى داخل أسوارها ، وبذلك اصبحت الضاحية الملكية عاصمة للبلاد بدلا من القيروان ففيها استقبل ابراهيم رسل الخليفة هارون الرشيد ، كما استقبل رسل شرلمان الذين أتوا يبحثون عن رفات القديس سبريان ، وفيها عقد سنة ١٨٩ هـ/٨٠٥ م الهدنة مع بطريق صقلية قسطنطين لمدة عشر سنوات وتم الاتفاق على فداء الاسرى(٥٣) •

أما عن عمران فانه ظل فى الزاب الى وفاة ابراهيم سنة ١٩٦ هـ/ ٨١٢ م وولاية ابنه عبد الله الذى اعطاه الأمان ، واسكنه معه فى القصر

---

(٤٩) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ ، النويرى ، ص ١٠٦ او الترجمة (ابن خلدون) ج ١٠٦ ص ٤٠٢ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٦ •

(٥٠) النويرى ، ص ١٠٦ أو الترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٢ •

(٥١) النويرى ، ص ١٠٦ ب والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٢ (حيث عامر بن المعتمر بدلا من عامر بن المعمر وهى قراءة الحلة السيراء (ج ١ ص ١٠٥) ، وقارن ابن الاثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ •

(٥٢) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ ، النويرى ، ص ١٠٦ ب والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٢ •

(٥٣) حسن حسنى عبد الوهاب ، الورقات ، قسم ١ ص ٣٥٧ •

القديم ، ولكنه تخلص منه بعد قليل عندما علم بتآمره ، كما يقال[٥٤] :
وهكذا حكم ابراهيم بن الأغلب افريقية مدة ١٢ (اثنتى عشرة) سنة ، فقمع أهل الشر بها ، وضبط أهلها[٥٥] ، فلم تعرف افريقية - كما يقول الرقيق - واليا أعدل ، ولا أحسن سياسة ، ولا أرفق بالرعيـة ولا أضبط للأمـور منه[٥٦] ٠

ولقد ثبت ابن الأغلب أقدامه في افريقية وبدأ يتطلع الى المغرب الأقصى حيث ادريس بن ادريس العلوى ، ونجح فى استمالة واحد من أكبر أعوانه هو بهلول بن عبد الواحـد زعيم مطغرة حتى اضطر ادريس الى استعطافه وسؤاله الكف عنه[٥٧] ٠ وتأكد مركز ابن الأغلب في البلاد حتى أنه بعد وفاة الرشيد سنة ١٩٣ هـ/٨٠٩ م ترك الأمين افريقيـة له ، فأقره فى ولايتها ٠

وتوفى ابراهيم بن الأغلب فى أواخر شوال سنة ١٩٦ هـ/أوائل يوليه ٨١٢ م ، وله من العمر ٥٦ (ست وخمسون) سنة ، بعد ولاية استمرت أكثر من ١٢ سنة ، بدأت بعهد الرشيد اليه بافريقية سنة ١٨٤ هـ/٨٠٠ م ، واستمرت بعد ذلك باقرار الخليفة المأمون له فى سنة ١٩٣ هـ/٨٠٩ م ٠

---

(٥٤) وفى ذلك يقال : أن الفقيه يحيى بن سلام صاحب التفسير غضب لذلك لأنه كان وسيطا فى أخذ الأمان لعمران ٠ فلما قتله عبد الله ، قال : « لا أسكن بلدا أخفر فيه العهد على يدى » ، ثم انه خرج الى مصر حيث مات ٠ أنظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٠٥ ٠

(٥٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٢ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٠٥ ٠

(٥٦) النويرى ، ص ١٠٦ والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٣ ، وانظر الرقيق ، ص ٢١٢ ٠

(٥٧) ابن الأثير ، سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ (النويرى ، ص ١٠٥ ب) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ ، ج ٦ ص ١١٩ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١١١ وص ١٠٩ حيث ترجمة ابراهيم بن محمد الشيبى التى انفذه ابن الأغلب رسولا الى الخليفة الرشيد ، وبعث صحبته برسل بهلول بن عبد الواحد المدغرى ٠ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٢٥ : حيث الاشارة الى انه بعد أن استقامت الأمور لابراهيم بن الأغلب وبلغه استفحال ملك ادريس بن ادريس ، دعا كبـار مستشاريه وهم : صاحب البريد يحيى بن زياد ، والقاضى عبد الله بن عمر بن غانم ، وابن عوانه الكلبى ، وشاورهم فى أمر ادريس ، فاشاروا عليه بان يدعه طالما وادعه وأن يرضى لنفسه وله بالسلامة ، اما ما يقال من أنه شارك فى التخلص من ادريس الأول بن عبد الله ومن مولاه راشد بعده ، فاغلب الظن أنه موضوع للرفع من شأن عميد الأسرة الأغلبية بالنسبة للخلافة ببغداد - انظر فى ذلك ما يأتى فى دولة الادارسة ٠ وانظر ابن الخطيب ، اعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ١٢ (حيث النص على أن ادريس بن عبد الله كتب اليه يستكفيه عن ناحيته ، ويذكره بقرابته من الرسول (ص) ، فاجابه عن كتابه ووادعه ، ولم تجر بينهما حرب الا ما ذكر من سعى يأتى التعريف به عند ذكر الادارسة ٠٠٠) ٠

ولاية أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب (١٩٦ - ٢٠١ هـ/ ٨١٢ - ٨١٧ م) :

باقرار المأمون ولاية ابراهيم بن الأغلب بعد وفاة الرشيد بطوس (٣ جمادى الآخرة ١٩٣ هـ/١٤ ابريل ٨٠٩ م) ثبتت الأسرة الأغلبية أقدامها فى أفريقية • ومنذ ذلك الحين صارت افريقية ملكية وراثية فى الاغالبة من بنى ابراهيم بن الأغلب ، الذى خلفه ابنه عبد الله الذى عرف بـ « الجميل »(٥٨) •

وكان أبو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب فى طرابلس التى ولاه أبوه اياها للمرة الثانية اثر اضطراب أحوالها نتيجة لاضطراب الجند الأغلبى من جهة ، وتهديد الخوارج من بربر هوارة من أتباع عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم لناحيتها من جهة أخرى • وكان ابراهيم بن الأغلب اضطر الى اعادة ابنه عبد الله الى طرابلس مرة ثانية ، بعد أن كان عهد بولايتها الى سفيان بن المضاء الذى ظهر عجزه فى مقاومة البربر ، فهزمهم عبد الله واستقر فى المدينة ، وجدد تحصيناتها فبنى سورها(٥٩) • وهكذا أثبت عبد الله جدارته كرجل دولة ، وكانت وصية ابراهيم عند وفاته أن تكون الامارة بعده له • وبينما كان عبد الله فى طرابلس قام أخوه زيادة الله بأخذ البيعة من رؤساء الجند ، وأرسل يحطره بالامر(٦٠) • فاضطر الى عقد الصلح مع أباضية عبد الوهاب بن رستم ، اعترف لهم فيه بالسيادة على ظواهر المدينة(٦١) • ورجع أبو العباس الى القيروان فى صفر من السنة التالية ١٩٧ هـ/أكتوبر ٨١٢ م ، وتسلم السلطة ، وأخطر الخلافة فى بغداد بالأمر ، فأتته الموافقة على ولايته على افريقية ، فى السنة التى بعدها ١٩٨ هـ/٨١٣ م ، من الخليفة المأمون الذى كان قد تخلص من أخيه الأمين(٦٢) •

---

(٥٨) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٣ •

(٥٩) ابن الأثير ، سنة ١٩٦ ، ج ٦ ص ٢٧٠ •

(٦٠) ابن الأثير ، سنة ١٩٦ ، ج ٦ ص ٢٧٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٥ •

(٦١) هذا ما يفهم من روايات ابن خلدون : (ج ٤ ص ١٩٧ - حيث القراءة : فصالحهم على أن يكون البلد والبحر لعبد الله وأعمالهـا لعبد الوهاب) ، (ج ٦ ص ١٢١ - حيث القراءة : وصالح عبد الوهاب على أن تكون الصباحية (الاقاليم الساحلية) لهم (أى للأغالبة ، وانصرف الى نفوسة (نفوسة)-ولحق عبد الله بالقيروان) • وانظر الشماخى ، ص ١٦١ • وانظر فيما بعد ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ (حيث رواية ابن الصغير التى تنص على أن الامام عبدالوهاب حاصر طرابلس) •

(٦٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٥ •

سوء تفاهم بين أفراد الأسرة ، ومحاولة اصلاح مالى :

استمرت ولاية أبى العباس عبد الله لمدة خمس سنوات وشهرين ، لا يذكر له الكتاب أثناءها الا عملين : أحدهما خاص بمسألة اساءته الى أخيه زيادة الله ، الذى كان قد أخذ له البيعة عند وفاة والدهما ابراهيم ، وأدار شئون المملكة الى حين عودته من طرابلس ، بعد حوالى أربعة أشهر • ونظن أن هذه المسألة متعلقة بالحساسيات بين أفراد الأسرة الأغلبية(٦٣) • وثانيهما خاص باصلاح نظام الضرائب ، وكان يهدف منه الى تثبيت مال الخراج السنوى بأن جعله ضريبة مالية ثابتة ، حتى لا يخضع دخل الخزانة الى أهواء سنوات الخصب وسنوات الجدب ، مما يضمن له صرف رواتب العسكر ، الذين كانوا يسببون للدولة الكثير من المتاعب ، بطريقة منتظمة • فقد كانت الضريبة المعتادة هى العشر من الحب الذى تنتجه الأرض ، فجعل عبد الله الضريبة ثمانية دنانير على كل زوج تحرث من البقر(٦٤) •

معارضة الفقهاء للاصلاح المالى :

واعتبر التقليديون من المالكية هذا الاصلاح المالى خروجا على السنة ، ووجها من وجوه الظلم الشنيعة التى تعرف عندهم ، فى مجال الضرائب ، بالمغارم ، مما كان سببا فى سخط الناس ، واعلانهم التضرر من تلك الضريبة المبتدعة ، ومطالبتهم بالغائها والعودة الى نظام العشر المعتاد •

---

(٦٣) وفى ذلك تقول الروايات ان عبد الله حمل فى امارته على أخيه زيادة الله حملا شديدا ، وكان يتنقصه ، ويأمر ندماءه باطلاق السنتهم بسبه ، وزيادة الله مع ذلك يظهر له التعظيم والتبجيل والصنع الجميل ، ولا يظهر له تغيرا — انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٥ ، نهاية الأرب ، المخطوط ، ص ١٠٧ أ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٨ • وهذا ما يذكرنا بما كان يفعله الهادى بأخيه الرشيد ، عندما كان وليا لعهده ، وكان الهادى يطمع فى أن يكون ابنه موسى الغلام الصغير وليا لعهده بدلا من الرشيد — انظر ابن الأثير ، سنة ١٧٠ هـ •

(٦٤) إختلف الكتاب فى تقدير ضريبة العشر المالية التى ثبتها أبو العباس بن ابراهيم ، فقدرها ابن عذارى بـ ٨ (ثمانية) دنانير للقفيز من الأرض ، أصاب أم لم يصب : أى ان حملت الأرض أم لم تحمل (ج ١ ص ٩٥) • أما ابن الأثير فيقدرها بثمانية عشر دينارا على الفدان فى كل سنة (سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٢٩) • ولما كان القفيز مكيالا يكاد يعادل الأردب أو يزيد قليلا — بالنسبة للحب — فلا نعرف كيف كان يقدر بالنسبة لمساحة الأرض اذا كانت رواية ابن عذارى سليمة • ولما كان الفدان من مقاييس مساحة الأرض الزراعية فى مصر ولما كان مبلغ الـ ١٨ دينارا المفروضة عليه حسب رواية ابن الأثير ، تعتبر ضريبة باهظة فقد أخذنا برواية نهاية الأرب — وهى للرقيق أصلا — التى جعلت مقياس تلك الضريبة ليس مساحة الأرض نفسها ، بل للمساحة التى يمكن لزوج من البقر حراثتها (النويرى ، المخطوط ص ١٠٧ أ) • وهذا أمر معقول بالنسبة للأرض المروية بماء المطر •

وكان الفقهاء والعباد من مشايخ البلاد دورهم في الاحتجاج على هذا الاجراء المالي الجديد ، وذلك أن الرواية تقول ان جماعة من الصالحين من جزيرة شريك أتوا الى القيروان ، وعلى رأسهم صالح افريقية وقتئذ ، حفص ابن حميد ، حيث سمح لهم بمقابلة الأمير الأغلبي الذي كان مقيما في القصر القديم ، فوعظوه في أمر الدين ومصالح المسلمين(٦٥) ، كما شكوا اليه ثقل تلك الضريبة(٦٦) • وتقول الرواية ان الأمير المعجب بجماله استخف بجماعة الصالحين واستهان بهم ، فلم يستمع الى نصحهم • وبذلك عاد حفص بن حميد واخوانه نحو القيروان ، في غرة ذي الحجة من سنة ٢٠١ هـ/٩ يونية ٨١٧ م ، غير راضين عن لقاء أبي العباس • وفي وادي القصارين ، على طريق العاصمة ، قال لهم حفص : « قد يئسنا من المخلوق ، فلا نيأس من الخالق ! فاسألوا المولى وتضرعوا اليه في زوال ظلمه عن المسلمين ! فانه سمح في الدعاء ، فقد أذن في الاجابة »(٦٧) •

وتوضأت الجماعة وساروا الى مصلى روح حيث دعوا الله بعد الصلاة : أن يكف عن المسلمين جور أبي العباس ، وأن يريحهم من أيامه • ولم يكن من الغريب أن تستجاب دعوة العباد الصالحين ، فأصيب الأمير الجميل الذي كان معتبرا من أجمل أهل زمانه ، بقرحة تحت أذنه لم يستطع أن يقاوم ضرها الا لخمسة أيام فقط ، كما غيرت لون بشرته البيضاء حتى انه عندما مات ، متأثرا بها في اليوم السادس ، وكشفت عنه ثيابه للغسل ، كان كأنه عبد أسود • واعتبر الناس أن ذلك كان عقابا من الله للأمير الظالم ، وان السواد الذي حل بجسمه الجميل كان نتيجة طبيعية لسوء فعاله(٦٨) •

---

(٦٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٥ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٧ •

(٦٦) انظر النويري ، نهاية الارب ، حيث يقول ان حفص بن حميد كلم الأمير أبا العباس ، فكان فيما قال له : ايها الأمير اتق الله في شبابك وارحم جمالك ، واشفق على بدنك من النار • ترمي بكل زوج تحرث ثمانية دنانير ؟ فازل ذلك عن رعيتك ، وخذ فيهم بكتاب الله وسنة نبيه صلعم ، فان الدنيا زائلة عنك ، كما زالت عن غيرك (المخطوط ، ص ١٠٧ أ) • وقارن مخطوط دار الكتب ، ص ٢٩ حيث الجملة الأخيرة زائدة فيه • ويضيف ابن الأثير ان من بين ما وجهته جماعة الصالحين الى الأمير الأغلبي ، قول الله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » (سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٢٩) (انظر سورة الرعد : ١١ •

(٦٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٦ ، النويري ، المخطوط ، ص ١٠٧ ب ، ابن الأثير ، ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٢٩ •

(٦٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٦ ، النويري ، المخطوط ، ص ١٠٧ ب ، وقارن ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٢٩ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٧ •

زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب (٢٠١ ـ ٢٢٣ هـ/٨١٧ ـ ٨٣٧ م) :

سياسة قوية : قوامها العنف والقسوة :

توفي أبو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب في ٦ من ذي الحجة سنة ٢٠١ هـ/٢٤ يونية ٨١٧ م ، بعد ولاية لم تزد عن خمس سنوات الا بشهرين ، وبويع أخوه زيادة الله ــ الذي كان أول من سمي « زيادة الله » في الاسلام ، كما كان ابراهيم بن المهدي أول من سمي « هبة الله »(٦٩) ــ بالامارة بعد ١٦ يوما ، وذلك في يوم ٢٢ من ذي الحجة/١٠ يوليه • ولما كان زيادة الله قد لقي معاملة سيئة من أخيه المتوفي ، مما اعتبرناه صدى لنوع من النزاع الصامت بين أفـــراد الأسرة الأغلبية ، كان من الطبيعي أن يلقى المقربون من الأمير عبد الله ما يسمى في المصطلح السياسي « المعاملة بالمثل » • ظهر ذلك في خوف أخي زيادة الله ، وهو الأغلب بن ابراهيم وكان شقيقا لعبد الله من نفس الأم ، من انتقام زيادة الله وخروجه مستأذنا للحج سنة ٢٠٢ هـ/٨١٨ م ، وفي صحبته ابنا أخيه الأمير الراحل ، وهما : أبو فهر محمد ، وأبو الأغلب ابراهيم اللذان كانا صغيرين ، وهو يزمع عدم العودة الى افريقية ، اذ استقر مع ولدي أخيه في مصر بعـــد أداء الفريضة(٧٠) • والظاهر أن زيادة الله استعظم ذلك فكتب الى أخيه يستعطفه ويستميله ، فعاد مع ابني عبد الله الى القيروان ، حيث صـــار الأغلب مكرما من زيادة الله ، مقربا منه ، كما يقول النويري(٧١) •

---

(٦٩) النويري ، المخطوط ، ص ١٠٧ ب ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٣ و ص ١٦٦ (حيث الاشارة الى أن أمه هي « جلاجل » ، جارية الليث بن سعد ــ التي سبقت الاشارة اليها في هـ ٤ ص ٢٧) •

(٧٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٧ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٧ ــ حيث يقول أن الأغلب خرج مع أبناء أخيه الثلاثة ، وهم : أبو العباس محمد ، وأبو محمد بهر (فهر) ، وابراهيم أبو الأغلب •

(٧١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١١٢ أ ــ حيث تقول الرواية ان زيادة الله : « أكرمه وأحسن اليه • وجعل أمور دولته بيده » ، مما يمكن أن يفهم منه أن الأغلب كان يشغل منصب الوزير لدى أخيه زيادة الله ، وهذا ما تنص عليه رواية ابن خلدون (ط بيروت ، ج ٤ ص ٤) التي تبرر استدعاء زيادة الله له بما واجهه من الحروب • وهذا ما لا تقرره رواية ابن عذارى التي أخذنا بها ، والتي تؤيدها رواية أخرى لابن خلدون (ج ٤ ص ١٩٧) ينص فيها على أن الوزير هو ابن عم زيادة الله وقائده « غلبون » • فابن عذارى (ج ١ ص ٩٧) يذكر قصة خروج الأغلب وولدي أخيه عبد الله ثم عودتهم الى افريقية ، ولكنه يضيف الى ذلك أن وزير زيادة الله كان ابن عمه غلبون • وغلبون الوزير هذا هو الأغلب بن عبد الله بن الأغلب ابن سالم الذي عرف هو وبنوه ببني عبد الله ، وكان من قواد زيادة الله في حرب الطنبذي ، =

ونحن لا نعرف كيف يقرر ابن الأثير : أن زيادة الله « بقى أميرا رضى البال وادعا ، والدنيا عنده آمنة »(٧٢) ، الا اذا كان يقصد بذلك طول مدة حكمه ، وأن الأغالبة حققوا فى عهده عملا عظيما بفتح صقلية على يدى قاضى افريقية الشهير أسد بن الفرات • ولما كان أسد قد ولى القضاء سنة ٢٠٣ هـ/ ٨١٩ م ، الى جانب القاضى أبى محرز (محمد بن عبد الله بن قيس الكنانى) حتى أصبح لافريقية قاضيان لأول مرة وهو الأمر الذى لم يعهد من قبل(٧٣) ، فان وصوله الى قيادة الجند يعنى ازدهار العلم ، والمكانة السامية التى كانت للعلماء فى ذلك العصر – وفى ذلك يقال ان زيادة الله نفسه كان أفصح أهل بيته لسانا وأكثرهم أدبا(٧٤) •

والحقيقة أن الحوليات التاريخية الافريقية تسجل عددا من الاضطرابات الداخلية ، من جانب الجند ومن جانب العامة ، وتنص على أنه لم يبق بين يدى زيادة الله فى بعض الأحيان الا العاصمة القيروان ، وبعض الأقاليم القليلة • وفى ذلك يقال أن أسباب الاضطراب كانت ترجع الى سياسة الأمير العنيفة : اذ استبد بالناس واستخف بالجند ، وخاف على نفسه منهم فحصن القصر القديم واحتمى به •

ثورة ابن الصقلية ، وعصيان عمرو القيسى :

ففى سنة ٢٠٧ هـ/٨٢٢ م ، أى بعد ست سنوات من ملكه ، كان سوء سيرته فى الجند سببا فى ثورة قام بها قائد من قوادهم ، اسمه : زياد بن سهل ، ويعرف بابن الصقلية ، الذى خرج فى موضع يعرف بفحص أبى صالح غير بعيد من باجة التى ضرب عليها الحصار • ولكن ثورة ابن الصقلية انتهت بسهولة على يدى قائد زيادة الله ، سالم بن سوادة الذى فك حصار باجة ، وقتل كثيرا من أصحاب القائد الثائر ، وغنم أموالهم(٧٥) • ومع أن الكتاب

= كما يأتى (ص ٤٦ ، وانظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨١) • ولا بأس فى ان يكون الامر قد اختلط على الرقيق• الذى ينقله النويرى (وابن خلدون) ، عندما قال ان الأغلب صارت اليه أمور دولة أخيه زيادة الله ، فظن أنه غلبون وهو اسم شهرة الوزير – حسب الطريقة المغربية الأندلسية – فى تحوير اسم الأغلب الى غلبون •

(٧٢) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٢٩ •

(٧٣) نفس المصدر •

(٧٤) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٣ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ١٦ •

(٧٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٧ ، ابن الأثير ، سنة ٣٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٢٩ ، ابن خلدون ، ط بيروت ، ج ٤ ص ١٦٧ •

يتسرون سوء سيرة زيادة الله في الجند واستخفافه بهم بسبب عدم انتظامهم ، موثوبهم على الأمراء قبله ، فان رواية ابن عذارى تنص على أن عنفه مع الجند ، واغلاظه لهم ، وسفكه لدمائهم — خاصة عندما كان يسكر — كانت السبب في قيام العامة بالثورة ، في نفس السنة (٢٠٧ هـ/٨٢٣ م)(٧٦) •

ومع أنه لم تكن لثورة العامة هذه أصداء ملموسة ، فان ابن عذارى ربط بينها وبين ثورة الزعيم القيسي عمرو بن معاوية ، صاحب عمران بن مجالد في ثورة سنة ١٩٤ هـ/٨١٠ م • كان عمرو واليا لزيادة الله على منطقة القصرين ، فأعلن العصيان في سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣ م ، وغلب على الناحية ، وغمس ولديه : حبابا وسجمان في الفتنة ، رغم نصح أكبرهما له ، وهو حباب ، وتخويفه اياه من عواقب الفتنة • فلقد قال حباب لوالده : « انك دخلت في أمر عظيم ، وعرضت نفسك للهلاك ، ولست من رجال هذا الأمر ، ولا ينفعك عدد ولا عدة ••• » ، فكانت نتيجة تلك النصيحة الغالية أن تعرض حباب للتنكيل من والده ، الذي ضربه مائتي سوط ، كما تقول الرواية ، وتمادى عمرو القيسي في الخلاف(٧٧) •

ولم تطل ثورة القصرين اذ سرعان ما قبل القيسي وولداه الاستسلام على الأمان عندما سار اليهم بالقوات الأغلبية موسى بن هارون ، مولى ابراهيم ابن الأغلب(٧٨) ، وجاء بهم الى زيادة الله الذي أمر بحبسهم في بيت وزيره وابن عمه الأغلب بن عبد الله المشهور بغلبون الى أن يرى فيهم رأيه • وسرعان ما راح الثلاثة ضحية القيل والقال من جانب المقربين من الأمير ، ممن كانوا يفسرون أحداث السياسة بناء على التحزبات العرقية والعصبيات القبلية • فقد راجت شائعات تقول ان الأمير لم يقتص من عمرو بن معاوية لأنه قيسي ، ولأن العصبية القيسية قوية في مصر حتى أن زيادة الله خشي أن يثبتوا بعمه (الوالي) بمصر اذا نزل مكروه بقائده المخالف ، مما أثار زيادة الله فتخلص من السجناء ، الذين نزلوا على الأمان ، بطريقة شنيعة(٧٩) •

---

(٧٦) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٦ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ص ١٠٧ ب •

(٧٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٧ — ٩٨ ، النويرى ، ص ١٠٨ أ ، وانظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١١٠ (حيث اسم ابن عمرو الثاني : « سكتان » وليس سجمان) •

(٧٨) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ٢٠٨ أ •

(٧٩) انظر ابن عذارى (ج ١ ص ٩٨) الذي يشير الى أن أبا عمار المضحك هو الذي أخبر زيادة الله بذلك ، فما كان من الأمير الا أن طلب من وزيره وابن عمه غلبون أن ينقل المحبوسين الثلاثة الى سجن القصر حيث ملأ بقتل عمرو بن معاوية بيديه ثم ثنى بقتل ابنه —

ردود الفعل لسياسة العنف :

ثورة الطنبذى :

ولما كان العنف لا يولد الا العنف ، كما هو معروف ، لم يكن من الغريب أن تؤدى تلك القسوة التى لا تعرف الانسانية أو الرحمة الى ثورة كبرى كادت تودى بالدولة الأغلبية الفتية • وكان قائد تلك الثورة واحدا من كبار رؤساء الجند الأغلبى ، هو منصور بن نصر الطنبذى ، الذى شق عصا الطاعة على زيادة الله فى السنة التالية ، سنة ٢٠٩ هـ/٨٢٤ م •

وكان منصور الطنبذى من ولد دريد بن الصمة ، ولقب « الطنبذى » الذى حمله نسبة الى قصر كان له فى منطقة المحمدية قرب مدينة تونس(٨٠) • كان منصور واليا على مدينة طرابلس عندما وصلته أنباء الفاجعة التى حلت بعمرو بن معاوية القيسى وابنيه حباب وسجمان ، فتأثر لأبناء عصبيته ، ودعا بنى تميم فى طرابلس الى الوقوف الى جـانبه للأخذ بثـأر بنى عمومتهم القيسية(٨١) • وعندئذ كتب صاحب الخبر ، أى صاحب البريد ، الى زيادة الله بما يزعمه منصور الطنبذى من اثارة بنى تميم ضد الأمير الأغلبى الذى عزل منصورا فى التو واللحظة ، وأمره بالقدوم عليه فى القيروان حيث وضعه

= حباب رغم طلبه أن تكون معارضته لوالده شفيعا له لدى الأمير الذى شك فى أن يصبح حباب مخلصا له • أما الابن الأصغر ، وهو سجمان ، فانه فضل الموت على الحياة عندما شاهد راس والده واخيه فوق الترس الذى قدم اليـه ، ليراهما • وتضيف الرواية الى تلك المشـاهد المأساوية مشهدا لا يقل قسوة وضراوة ، اذ تقول ان زيادة الله جلس يشرب والرؤوس الثلاثة امامه على الترس • وعن الأغلب بن عبد الله بن الأغلب وبنيه من بنى عبد الله الذين شاركوا فى حـرب الطنبذى انظر ص ٤٣ و هـ (٧١) • اما عن أحـوال مصر فى تلك الفترة فكانت مضطربة أيما اضطراب • فالصراع على أشده بين الأندلسيين المتغلبين على ثغر الاسكندرية وبين عبد العزيز الجروى المتغلب على ثغر تنيس ثم أبنائه من بعد مقتله سنة ٢٠٥ هـ • وكان السرى بن الحكم الذى تغلب على الفسطاط يقف موقف المتفرج من هذا الصراع حتى وفاته سنة ٢٠٥ هـ ، حيث خلفه ابنه أبو النصر • أما الخلافة التى خلصت للمأمون منذ ١٩٨ هـ ، فقد وقفت موقف المترقب المنتظر من المتصارعين بصرف النظر عن موقفهم منهـا الى أن أرسلت عبد الله بن طاهر الى مصر سنة ٢١٠ هـ • انظر للمؤلف ، تاريخ الاسكندرية من الفتح ••• ، فى كتاب تاريخ الاسكندرية ، ط الاسكندرية ، ١٩٦٥ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٦ •

(٨٠) الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٢ ، النويرى ، المخطوط ، ص ١٠٨ أ ، ابن الأثير ، من ٢٠١ هـ • ج ٦ ص ٣٣٠ •

(٨١) انظر النويرى ، المخطوط ، ص ١٠٨ أ (حيث قال منصور : « يابنى تميم لو ان لى بكم قوة ، أو آوى الى ركن شديد ») ، وقارن الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٨٣٢ •

تحت رقابته . ولما كان منصور الطنبذي على علاقة طيبة بالوزير غلبون (الأغلب بن عبد الله بن الأغلب)(٨٢) ، فان هذا الأخير أصلح ما بين منصور وبين زيادة الله الذى صفح بعد قليل عن الطنبذى ، وسمح له بالعودة الى موطنه فى منطقة تونس حيث نزل بقصره المعروف هناك بـ « طنبذة » فى اقليم المحمدية .

وفى المحمدية لم يركن منصور الى الهدوء بل أخذ يراسل قواد الجند ، و « يذكر لهم ما يلقون من زيادة الله ، وما فعل بعمرو بن معاوية وابنيه ، ويخوفهم أن يفعل بهم وبأولادهم ما فعله بعمرو »(٨٣) . وعندما تيقن زيادة الله مما يضمره الطنبذى استعرض جنده ، وانتخب منهم خمسمائة فارس سيرهم جريدة بقيادة قائده محمد بن حمزة نحو تونس لمفاجأة منصور ، والقبض عليه ، ثم العودة به موثقا الى القيروان(٨٤) .

يوم دار الصناعة : الغدر بجند القيروان في تونس :

وعندما وصل محمد بن حمزة الى تونس لم يكن منصور الطنبذى هناك ، بل كان فى قصره طنبذة بالمحمدية . وهنا دخل ابن حمزة الى دار الصناعة فى تونس ، ورأى أن يستخدم المداراة فى اقناع منصور بالعودة معه الى القيروان ، فأرسل اليه قاضى تونس ، وهو شجرة بن عيسى ، على رأس وفد من ٤٠ (أربعين) رجلا من مشايخ أهل تونس يناشدونه الطاعة ، ويعرفونه بما فى ذلك من الحظ فى دينه ودنياه ، ويدعونه الى الرجوع معهم الى تونس حيث محمد بن حمزة(٨٥) .

ورأى منصور الطنبذى بدوره أن يحتال على قائد زيادة الله ، فأعرب للقاضى شجرة بن عيسى ومن معه من المشايخ أنه لم يخلع يده من الطاعة ،

---

(٨٢) ابن الأثير ، سنة ٢٠٢ ، ج ٦ ص ٣٣١ .

(٨٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٨ ب

(٨٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٨ ب ، وقارن الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٢ – ٣٨٣ (حيث النص على ٣٠٠ فارس فقط) . ومحمد بن حمزة هنا هو ابن حمزة بن السبال المعروف بالحرون ، الذى كان من كبار قواد ابراهيم بن الأغلب (انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ٣٨٦ ، وعن والده الحرون ، ص ١٠٧ – ١٠٨ . وفيما سبق ، ص ٣٥ وهامش ٤١ ، ومقبله فى ج ١ ص ٣٩٤ (حيث شارك الحرون فى حروب تمام بن تميم) .

(٨٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٨ ب ، وانظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٩ ، ابن الأثير سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٣٠ .

ولا أحدث حدثا ، ووعدهم بأن يسير معهم الى محمد بن حمزة فى تونس ، ومن هناك الى الأمير فى القيروان ، ولكن على أن يقيموا معه تلك الليلة حتى يقوم بحق الضيافة ازاء عسكر ابن حمزة .

وفعلا أسرع الطنبذى فأرسل هدية الى عسكر القيروان فى تونس ، مكونة من عدد من البقر والغنم وأحمال من النبيذ ، كما لم ينس أن يرسل اليهم العلف لدوابهم ، وأرسل مع الهدية كتابا الى محمد بن حمزة يخبره أنه قادم فى الغداة مع القاضى شجرة . وأطمأن محمد بن حمزة الى مقالة منصور وأقام هو ورجاله لأنفسهم وليمة عظيمة ، أكلوا فيها حتى الشبع من لحوم البقر والغنم ، وشربوا من الخمر حتى الثمالة . وهكذا ، بينما كان عسكر القيروان فى مدينة تونس منكبين على الطعام والشراب فى ذلك المساء ، كان الطنبذى يقبض على القاضى ومن معه ، ويحبسهم فى قصره ، ويستخدم دوابهم فى حمل المزيد من رجاله وأشياعه ، ويزحف خفية بهم الى تونس . وعندما اقترب الطنبذى من دار الصناعة فى هدوء الليل ، أمر بطبوله فضربت ، وعندئذ كبر أصحابه تكبيره رجل واحد وهم ينقضون على ابن حمزة ومن معه .

وانقلبت دار صناعة السفن فى تلك الليلة الموافقة لـ ٢٥ من صفر سنة ٢٠٩ هـ/٢٦ يونية ٨٢٤ م ، من حانة عظيمة الى ميدان قتال : بين الجند من أصحاب ابن حمزة ومن انضم اليهم بالحجارة من عامة تونس ، وبين أصحاب منصور الطنبذى . وانتهت المعركة بمقتل معظم السكارى من رجال جند القيروان ، فلم ينج منهم الا من ألقى بنفسه فى البحر ، وسبح بعيدا عن دار الصناعة(٨٦) .

والظاهر أن الطنبذى أراد أن يعطى ثورته شكل عمل انتقامى أو أخذا بالثار لمقتل عمرو بن معاوية والى القصرين وابنيه حباب وسجمان ، اذ انه قتل والى تونس : اسماعيل بن سفيان بن سالم ، وهو من بيت الأغالبة ، كما قتل ابنه محمدا . هذا ، ولو أن الرواية تقول انه فعل ذلك تحت ضغط أصحابه الذين طلبوا اليه أن يؤمن لهم الا يستميله السلطان بدنياه وماله ، وأن عليه أن يخضب يديه بدم أصحاب زيادة الله اذا أراد أن يثقوا فيه ،

---

(٨٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٩ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٨ ب ، ١٠٩ أ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ ، ج ٦ ص ٢٣٠ ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٢ .

ويبقوا الى جانبه(٨٧) ٠

وعندما وصل الخبر الى زيادة الله ، وجه عسكرا كبيرا من أشداء رجاله بقيادة ابن عمه الوزير غلبون (الأغلب بن عبد الله بن الأغلب) ، وشيعهم بنفسه بعد أن طلب منهم ألا يتراخوا فى قتال العصاة ، بل انه هدد من ينهزم منهم بالقتل(٨٨) ٠ والظاهر أن تهديد زيادة الله لرجاله أتى بنتيجة عكسية . اذ تقول الرواية التى ينقلها النويرى عن الرقيق : « فكان ذلك مما ساءت به نفوس القوم حتى هموا بالوثوب على غلبون » ولم يمنعهم من ذلك الا نصيحة بعض كبار قوادهم ، وهو جعفر بن معبد ، الذى قال لهم : « لا تحملكم اساءة زيادة الله فيكم أن تغدروا بمن أحسن اليكم ، وفك رقابكم » ٠ وتفسر الرواية ذلك بأن غلبون كان يعتنى بأمر القواد عند زيادة الله(٨٩) ٠

ثورة منصور الطنبذى تستشرى :

وهكذا خرج غلبون فى العاشر من ربيع الأول من ٢٠٩ هـ/٨ يولية ٨٢٤ م(٩٠) ، على رأس جيش كثيف يحوى صناديد العسكر ووجوه الرجال، ولكنهم لم يكونوا خالصى النية ، بل كانوا يضمرون الغدر ، كما تقول رواية النويرى : فعندما وصلوا الى سبخة تونس كاتبوا رجال منصور ، ووعدوهم بالانهزام أمامهم وقت اللقاء(٩١) ٠ هذا ، ولو أن رواية ابن عذارى تنص على أن عسكر القيروان فعل ما فى طاقته ، وأنهم اقتتلوا ورجال منصور الطنبذى مليا ، وأن الهزيمة التى لحقت ، فى ٢٠ ربيع الأول/١٨ يولية ، برجال زيادة الله كانت نتيجة حملة عظيمة نظمها الطنبذى ، ولم يستطع غلبون ورجاله الصمود أمامها(٩٢) ٠

---

(٨٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٩ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ ، ج ٦ ص ٣٣١ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٩ أ ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٧ ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٣ ٠

(٨٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٩ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ ، ج ٦ ص ٣٣١ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩ أ ، وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨١ (عن بنى عبد الله بن الأغلب ومشاركتهم فى حرب الطنبذى) ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨ ٠

(٨٩) نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩ أ ٠

(٩٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٩ ٠

(٩١) النويرى ، نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩ أ ٠

(٩٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٣١ (الذى يحدد الهزيمة بالعاشر من ربيع الأول ، وهو تاريخ المسيرة عند ابن عذارى الذى يحدد الهزيمة بعشر بقين من ربيع الأول ، وهو ما أخذنا به) ٠

وخشية أن ينفذ زيادة الله ما كان قد توعدهم به من القتـــل ، انفض قواد غلبون من حوله بعد أن وعدوه بالعودة الى القيروان اذا أخذ لهم الأمان من زيادة الله ـ انشاء الله . وبينما عاد غلبون الى القيروان ، وهو يعتذر لزيادة الله عن الهزيمة ، ويحلف أن رجـــاله نصحوا واجتهدوا ، وان الهزيمة اكانت قضاء من عند الله لا يرد(٩٣) ، كان بعض القواد قد انصرفوا الى أطـــراف البلاد ، يتغلبون عليها ، حتى « اضطربت افريقية ، فصارت نارا تتقد » ، كما يقول نص النويرى(٩٤) . كما انضم آخرون الى عسكر منصور الطنبذى ، « وأعطوه أزمة أمورهم ، وولوه على أنفسهم »(٩٥) .

« ملوك الطوائف » بافريقية :

وازاء اختلال الأمور وتفاقم حركات التمرد ، وأمام نصائح ابن عمه ووزيره غلبون ، رأى زيادة الله ان يحاول استعادة ثقة قواده الثوار ، فكتب اليهم ما كانوا قد طلبوه من الأمان ، فبعثه اليهم فى الصكوك . ولكنهم لم يثقوا بأمانه ، وظلوا على ما كانوا عليه من شق عصا الطاعة(٩٦) . وهكذا خرجت كثير من المدن عن حكم زيادة الله ، واستبد بها القواد الذين دخلوا فى طاعة الطنبذى ، مثـــل : باجة ، والجـــزيرة ، وصطفورة ، وبنزرت ، والأربس ، وغيرها(٩٧) ، مما يمكن ان يشبه بحكم ملوك الطوائف .

وبذلك قويت جموع الطنبذى بمن توافد عليه من كل جهة ومكان ، حتى أنه فكر فى غزو القيروان بجيش جعل قيادته الى بعض قواده ، وهو عامر بن نافع الذى نجح فى الحاق الهزيمة بالجيش الـــذى سيره زيادة الله اليهم ، وعقد لواءه لابن عمه محمد بن عبـــد الله بن الأغلب ، أخى الوزير غلبون . والظاهر أن هزيمة الجيش الأغلبى أمام قوات عامر بن نافع كانت شنيعة ، اذ انجلت المعركة عن سقوط عدد كبير من كبـــار قواد الأغالبة ، مثل : محمد بن غلبون ، وعبد الله بن الأغلب ، ومحمد بن حمزة الزاوى ،

---

(٩٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ .
(٩٤) نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩ ب ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠
(٩٥) انظر ابن عـــذارى ، ج ١ ص ١٠٠ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩ ب (وهما ينقلان من مصدر واحد ربما كان الرقيق) ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٠٢ هـ ، ج ٦ ص ٣٣١ .
(٩٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩ ب .
(٩٧) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٣١ ، وقارن ابن خلدون ج ٤ .

وعيرهم ، كما قتلت الرجالة عن آخرهم ، حسب مبالغة رواية النويري(٩٨) ·

والظاهر أن هذا النصر الكبير شجع منصورا الطنبذي ، وقوى قلبه على محاولة أخذ القيروان ، وانهاء حكم زيادة الله · ولا بأس أن يكون عساكر الأغالبة الذين انضموا الى الطنبذي كانوا يحثون هذا الأخير على الذهاب الى القيروان حيث كانت عيالاتهم وذراريهم · ذلك رغم ما تقوله رواية الرقيق — على ما نظن — من أن هذا الأمر حدث بعد انهزام عسكر الطنبذي أمام قوات زيادة الله نحو تونس ، كما يأتي(٩٩) · وهذا لا يمنع أن يكون ذلك قد حدث في المرتين جميعا ·

والمهم أن الطنبذي حشد رجاله في تونس ، وخرج منها نحو القيروان حيث وصل في ٥ من جمادى الأولى سنة ٢٠٩ هـ/٢ سبتمبر ٨٢٤ · وتقول الرواية : ان القاضيين أبا محرز وأسد بن الفرات خرجا الى منصور حيث جرى بينهم حديث كان القاضيان يهدفان من ورائه الى اقناع منصور بحقن الدماء ، والعودة الى الطاعة ، بينما كان الطنبذي يسعى الى ضم قاضيي القيروان الى جانبه ، ولكن المحادثات لم تنته الى اتفاق ما(١٠٠) · وانتهى الأمر بأن عسكر منصور قرب القيروان حيث حفر خندقا حول معسكره(١٠١) ، بينما زحف زيادة الله على رأس قواته من القصر القديم (العباسية) حيث اتخذ موضعا له بين القيروان والقصر ، وحفر هو الآخر خندقا حول معسكره(١٠٢) ·

---

(٩٨) نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٩ ب ، وقارن ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ · حيث يؤخذ على الرواية الاضطراب الزمني من حيث عدم تسلسل الأحداث تسلسلا منطقيا · وعن عامر بن نافع الذي ينتسب الى قبيلة مذحج ، والذي خدم أقاربه العباسيين الأوائل ، وكان منهم عامر بن اسماعيل بن عامر بن نافع قاتل مروان بن محمد ، وابنه يحيى بن عامر الذي خدم المأمون ووقف ضده عندما رفض مبايعة على الرضا بولاية العهد حتى دفع حياته ثمنـــا لذلك ـ انظر الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٨٣ و هـ ٣ لحسين مؤنس ·

(٩٩) انظر فيما بعد ص ٥٦ ·

(١٠٠) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ ، وقارن مدارك القاضي عياض ، ص ٤٧٩ ، وتراجم أغلبية (تحقيق محمد الطالبي ، تونس ١٩٦٨) ، ص ٦٩ (حيث تقول الرواية ان الطنبذي عندما قال للقاضيين : أخرجا معنا ، أما تعلمان ان هذا ظلم المسلمين : قال أبو محرز وقد خاف منه · نعم ، واليهود والنصارى · أما أسد فقال له : قد كنتم أعوانا له وأنتم وهو على مثل هذه الحال) ، وانظر المالكي ، ج ١ ص ١٧٦ ·

(١٠١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ ·

(١٠٢) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٩ ب (حيث يقول ان زيادة الله نزل بين السماطين والقصر) ، وقارن ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ (حيث النص على حصار زيادة الله في العباسية) ·

وبذلك تحولت الحرب بين منصور وزيادة الله الى حرب خنادق بدلا من حرب الميادين المكشوفة . واستمرت الحرب سجالا بين الجانبين : يوم لهذا ويوم لذاك . وخلال تلك المناوشات انضم أهل القيروان الى جانب الطنبذى ضد أميرهم ، فكانت مكافأتهم على ذلك أن عمر منصور سور القيروان — الذى كان خربه ابراهيم بن الأغلب — حتى تستطيع الصمود فى المقاومة . واستمر الحال على هذا المنوال طوال أربعين يوما(١٠٣) ، ثم لم يبق بين يدى زيادة الله فيها ، من افريقية كلها الا : الساحل ، ومدينة قابس ، ونفزاوة ، وطرابلس التى تمسكت بطاعته(١٠٤) . وهكـذا ملك منصور معظم بلاد زيادة الله وبلغ به الأمر الى حد أن ضرب السكة باسمه(١٠٥) ، رمز الامارة والسيادة .

صنف من الرجال تزيده الشدائد صلابة :

زيادة الله يطاول الطنبذى على ابواب القيروان :

والظاهر أن زيادة الله كان من ذلك النوع من الرجال الذين لا تزيدهم الشدائد الا صلابة واصرارا . فبينما كان الجند من المتمردين ، وممن انضموا الى صفوف منصور الطنبذى يكتبون الى زيادة الله : « أن ارحل حيث شئت عن افريقية ، ولك الأمان فى نفسك ومالك ، وما ضمه قصرك »(١٠٦) ثم كان هو لا ييأس بل يعد العدة لمواصلة الكفاح .

مابين الانتصار فى القيروان والهزيمة فى سبيبة :

فلقد جمع حشدا عظيما من أصحابه ، عبأهم تعبئة جيـدة فى هيئة القتال ، من : قلب وميمنة وميسرة ، ومن فرسان ورجالة ، وزحف بهم نحو

---

(١٠٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ ؛ ج ٦ ص ٣٣١ .

(١٠٤) انظر ابن الأثير ، سـنة ٢٠١ هـ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ أ (حيث لم يبق بين يدى زيادة الله الا السـاحل وقابس) ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨ .

(١٠٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ . وانظر حسن حسنى عبـد الوهاب ، الورقات ، ج ١ ص ٤٣٠ (حيث الاشارة الى وصـول درهم فضة من نقود الطنبذى ، يوصف بأنه مثل الأغلبى تماما ، غير انه بدل بكلمة « غلب » رمز الأغالبة كلمة « عدل » ، وفيه اسم « منصور ابن نصر » ، وتاريخه ٢٢٠ هـ/٨٢٥ م) .

(١٠٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ (حيث ذكر عقب هزيمة منصور الآتية) ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ .

منصور ، وهم خلق كثير • وارتاع الطنبذى عنـــدما رأى قوات زيادة الله واستهول جمعهم ، اذ كان يظن أن الضعف والوهن هو صـــفة زيادة الله المميزة • ورغم ذلك فقد تقدم الطـنبذى الى لقـــاء العسكر الأغلبى ، وانتهى القتال الشديد بانهزام منصور الى قصره بتونس ، بينما لاذ رجاله بالفرار فى كل وجه ، بعد أن بقى الكثير منهم مجندلين فى أرض المعركة ، وذلك فى منتصف جمادى الأخرى سنة ٢٠٩ هـ/١٢ أكتوبر ٨٢٤ م(١٠٧) •

وقرر زيادة الله الانتقام من أهل القيروان الذين انضموا الى عـــدوه ــ والذين كانوا قد فعلوا مثل ذلك على عهد والده ابراهيم ، عندما خـــرج عليه عمران بن مجالد ــ بل وشجعه قواده على ذلك لولا تدخل أهل الورع والدين • فاكتفى من ذلك بهدم ســـور القيروان ، الذى ساعد الطنبذى فى ترميمه ، حتى سواه بالأرض بعد أن نزع أبوابه(١٠٨) ، الا أنه لم يعرض لعيال الجند من المتمردين أو ذراريهم ، ممن كانوا قد تركوهم فى القيروان •

وكانت هزيمة قوات الطنبذى أمام القيروان حاسمة من حيث أنهـــا قررت فشل مخطط منصور فى الاستيلاء على افريقية ، بعد أن دب الانشقاق بين صفوف أتباعه ، مثل : عبد السلام بن المفرج ، وعامر بن نافع الذى كان قد عاد الى بلدته سبيبة • ولقد أراد زيادة الله أن يستغل الفرصة ، فيبدأ بالقضاء على أقوى أعوان منصور من المنشقين ، وهو عامر بن نافع ، فأعد جيشا كبيرا سير على رأسه ابن عمه محمد بن عبد الله بن الأغلب ، يعاونه بعض أفراد الأسرة الأغلبية ، وعدد من كبار القواد • وتم اللقاء قرب سبيبة بين الجند الأغلبى وبين رجال عامر بن نافع فى ٢٠ محرم سنة ٢١٠ هـ/٤ مايه ٨٢٥ م ، وانتهى بهزيمة نكراء لجيش زيادة الله ، اذ قتل قائده : محمد ابن عبد الله بن الأغلب ، بينما تمادت هزيمة الرجال حتى القيروان(١٠٩) •

---

(١٠٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ •

(١٠٨) انظر ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٣٢ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ : الذى يقول أن زيادة الله عفا عن أهل القيروان ، والنويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٩ ب • حيث تقول الرواية أن زيادة الله قال لأصحابه : « انى عاهدت الله ان ظفرت ان اعفو واصفح • فعفا عنهم » •

(١٠٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٠٢ هـ ج ٦ ص ٣٣٢ (حيث يقول ان محمد بن عبد الله بن الأغلب لم يقتل بل عاد منهزما بمن معه الى القيروان) •

وكان من الطبيعي أن تثير الكسرة المؤلمة الهم والغم في نفس زيادة الله(١١٠) ، وأن تشجع منصورا الطنبذي على العودة مرة ثانية من تونس الى القيروان ، أمام الحاح الجند الذين كانوا يرغبون في نقل عيالاتهم من القيروان .

وتقول الرواية أن زيادة الله أخذ في جمع الرجال ، ولم يبخل في سبيل ذلك في بذل المال ، بينما كان الطنبذي يزحف نحو القيروان حيث ضرب الحصار على زيادة الله في قصره بالعباسية لمدة ١٦ (ستة عشر) يوما ، ولكن دون قتال . وفي هذه الأثناء استعاد الجند من الثوار نساءهم وأولادهم من القيروان ثم ان الطنبذي عاد بعساكره الى تونس(١١١) .

علاقة غريبة بالخلافة وسط دوامة الاضطراب :

ووسط دوامة الاضطراب هذه تجد الخلافة التي بدأت أمورها تستقر في المشرق بعد ثبات موقف المأمون في بغداد ، واستقرار الأمور في الشام ثم في مصر التي كان قد سار اليها عبد الله بن طاهر بن الحسين ، تبعث الى زيادة الله رسلها طالبة منه تأكيد طاعته ليس للخلافة فقط ، بل ولعبد الله بن طاهر الذي آلت اليه ادارة القسم الغربي من بلاد الخلافة ، وذلك بالدعاء على منابره للطاهري .

ولا ندري ان كان رجال ديوان بغداد أرادوا انتهاز فرصة المصاعب التي كانت تحيط بزيادة الله لكي يحصلوا منه على تأكيد الطاعة للخلافة وتجديد البيعة للمأمون ، أم أن الخلافة كانت تقصد بذلك تقديم تأييدها المعنوي للأمير الأغلبي في صراعه مع الثوار من قواد عسكره — فالمعروف أن زيادة وقف الى جانب المأمون أثناء ادعاء ابراهيم بن المهدي الخلافة عقب مقتل الأمين ، وهو الأمر الذي حمده له المأمون « فكاتبه وشكر له فعله »(١١٢) .

ولا بأس أن يكون زيادة الله قد فهم مقصد الخلافة على هذين الوجهين

---

(١١٠) انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٦ : حيث الاشارة الى ما أثارته هزيمة صبيبة من الخوف في نفس زيادة الله ب الشاعر — حتى أنه أنشد ، بعد أن دخلت عليه أمه جلاجل تصبره وتسهل عليه الأمر ، أبياتا منها :

أمنت صبيبة كل قرم باسل ... ومن العبيد جلاجلا أبطالا
فلذا ذكرت مصابنا بصبيبة ... فابكي جلاجل وانتحبي اعوالا

(١١١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ، ابن الأثير سنة ٢٠١ ج ٦ ص ٣٣٢ .

(١١٢) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ١٦ .

جميعا • فهو اذ يعرب عن طـاعته للخـلافة ، يحرص فى نفس الوقت على استقلاله ، ويرفض ، بعنف ، الدعاء لابن طاهر ، واصفا اياه بـ « عبد خزاعة » ، كما يعبر — عن طريق هديته من الدنانير الادريسية — عن وقوفه بالمرصاد لأعداء الخلافة العباسية من العلويين فى المغرب • ولكنه بعد سورة الغضب يعمل على استرضاء الخلافة فى خطاب ثان اتبعه خطابه الأول(١١٣) •

حدث ذلك حوالى سنة ٢١٠ هـ/٨٢٥ م ، وقتما كان ابن طاهر فى مصر ، أى قريب الوقت الذى كان زيادة الله يعانى من حصر خصومه له قرب القيروان والعباسية ، وحينما كان الامـير الأغلبى لا يجـد له خلاصا من همومه الا باغراقها فى الخمر •

انتقال الصراع الى الجنوب التونسى ، حيث عامر بن نافع :

وخلال ذلك الحصار تحرج موقف زيادة الله مرة أخرى ، وخاصة عندما عاود قواد الجند من المتمردين الحاحهم عليه فى الخروج من افريقيـة بالأمان على نفسه وماله ، حتى أنه بدأ يشاور أقاربه وأخصاءه فى الأمر • وكان ممن استشارهم قائده سفيان بن سوادة الذى أفهمه أن الأمر لم يكن بالدرجة التى يتصورها من السوء ، وطلب اليه أن يمكنه من النظر فى ديوان الجيش • وعندما قدم له زيادة الله سجل العسكر انتقى سفيان بن سـوادة مائتى فارس ، ممن يثق بهم ، فاغدق عليهم بالمال ليعدوا أنفسهم خير اعداد ، وخرج بهم الى اقليم نفزاوة(١١٤) • وكان هدف ابن سوادة الا يحارب فقط بفرسانه الذين اختارهم من صناديد الأبطال ، بل أن يكونوا نواة لجيش يستنفره من البربر والعرب لمواجهة عامر بن نافع الذى كان يزمع قصد ذلك الاقليم • ووصل ابن سوادة على رأس فرسانه الى نفزاوة التى كان على ولايتها القائد عبد الصمد بن جناح الباهلى(١١٥) ، ودعا أهل الاقليم من البربر فأجابوه ، واجتمع اليه خلق كثير من زنانة وغيرهم من القبائل •

ونجح سفيان بن سوادة فى فتح الاقليم بلدا بلدا حتى وصل الى حدود

---

(١١٣) الحلة السيراء ج ١ ص ١٦٦ ، وانظر فيما بعد ، ص ٦٤ •

(١١٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ أ ، ابن الاثير ، سنة ٢٠١ هـ ج ٦ ص ٣٢٢ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ (حيث يجعل عدد من انتقاهم سوادة مائة فارس فقط) ، انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٣ •

(١١٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ أ •

قسطيلية حيث كان عامر بن نافع قد وصل فعلا(١١٦) ٠

وفي قسطيلية حشد عامر بن نافع العبيد من السودان ، حتى جمع منهم ألف أسود من العاملين في فلاحة الأرض ، وذلك أن سلاحهم الذى حملوه كان يتكون من الفؤوس والمساحى ، وضمهم الى رجاله ٠ ومن قسطيلية اتجه عامر نحو نفزاوة حيث اتخذ مدينة تقيوس مركزا لقيادته(١١٧) ٠ وعندئذ خرج سفيان بن سوادة بقواته الى لقاء عامر ، وانتهى القتال الدامى بهزيمة الجند المتمردين أصحاب عامر ، وقتل أعداد كبيرة منهم ٠ وانسحب عامر الى قسطيلية حيث اندفع في جباية أموالها دون رأفة بأهلها ، طوال ثلاثة أيام بلياليها قبل أن يخرج بأحمال المال بعد أن ترك بها من يضبطها من رجاله(١١٨) ٠

ورغم ما يقوله بن عذارى من أن عامر بن نافع خرج من قسطيلية يريد القيروان ، فالواضح من النصوص أنه خرج منها متماديا في الهزيمة نحو تونس حيث بقية الجند المتمرد مع منصور الطنبذى ٠ وذلك أنه ما أن خرج من قسطيلية حتى استصرخ أهلها ابن سوادة الذى سار اليهم برجاله ، فملك الاقليم وولى عليه أعوانه لضبطه واقرار الأمن والنظام فيه(١١٩) ، ثم انه بمجرد استقراره في اقليم تونس ، مهد الفتنة ، قام الصراع بينه وبين منصور الطنبذى ٠

ظروف مواتية لزيادة الله :

الصراع بين منصور الطنبذى ، وعامر بن نافع في تونس :

كان من الطبيعى أن يقوم الصراع بين الطنبذى ، وبين قائده ابن نافع الذى كان يعتبر نفسه ندا لرئيسه ، ولا يقبل أن يعامله منصور معاملة التابع ٠ وكانت تلك المحاسدة تظهر ، عادة ، وهما في مجالس الشراب

---

(١١٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ أ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ج ٦ ص ٣٣٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ٠ وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨ حيث النص على أن قتال نافع في نفزاوة ثم استيلاء سفيان على قسطيلية كان في سنة ٢٠٩ هـ ، أى عقب هزيمة منصور الطنبذى مباشرة ٠

(١١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ٠

(١١٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٣٣ ٠

(١١٩) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ٢ ج ٦ ص ٣٣٣ ٠

حيث تأخذهما نشوة السكر(١٢٠) • وأثر توعد منصور لعامر ذات مرة رأى هذا الأخير أن يبدأ هو بالتخلص من منصور ، فاستمال الجند الى جانبه ، وأسرع من تونس ، لمفاجأة منصور وهو فى قصره بالمحمدية ، وضرب عليه الحصار الذى طال حتى فنى ما كان فى الحصن من الماء • وجرى السفراء بين الجانبين وانتهى الأمر الى أن عرض منصور أن يسمح له بالخروج على الأمان فى بعض السفن الى المشرق ، وأجابه عامر الى ذلك(١٢١) •

عامر يغدر بمنصور :

ولكن الطنبذى عندما تأمل فى الامر مع أصحابه استمع الى نصيحة من أشار عليه بالا يخضع لضيم عامر بن نافع ، وأنه يمكنه الالتجاء الى مدينة الأربس حيث له كثير من الأعوان • ونفذ منصور تلك النصيحة فخرج من قصر طنبذة مستخفيا أثناء الليل الى الاربس ، وتحصن بها • وعندما عرف عامر فى صباح اليوم التالى بتلك الخديعة سار فى اثر منصور الى الأربس ، وضرب عليه الحصار • ومع طول الحصر ضج أهل المدينة ، وكلموا منصورا فى الخروج من مدينتهم ، فطلب منهم أن يمهلوه بعض الوقت حتى ينظر فى أمر خلاصه(١٢٢) •

وأرسل منصور الى بعض كبار قواد ابن نافع • وهو عبد السلام ابن المفرج اليشكرى ، فطلب الاجتماع به • وعندما حضر عبد السلام كلمه الطنبذى من أعلى السور ، فعدد له أياديه البيضاء على الجند ، وطلب منه الوساطة لكى يحصل من عامر على الأمان وعاهده على أن يسير الى المشرق • ونجح عبد السلام بن المفرج فى الحصول على الأمان لمنصور على أن يخرج فى صحبة بعض فرسان عامر الى تونس حيث يأخذ أهله وحاشيته ، ويسير بهم الى المشرق(١٢٣) ، فى بعض السفن(١٢٤) •

والحقيقة أن عامر بن نافع عندما أسعف الطنبذى بالأمان كان يدبر

---

(١٢٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ، وانظر الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٤ •

(١٢١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ أ ، ابن الاثير ، سنة ٢١١ هـ ج ٦ ص ٤٠٤ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨ •

(١٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٢ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ ب ، ابن الأثير ، سنة ٢١١ هـ ، ج ٦ ص ٤٠٥ •

(١٢٣) ابن الأثير ، سنة ٢١١ هـ ، ج ٦ ص ٤٠٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٢ ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٥ •

(١٢٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ ب •

الغدر به ، حتى لا تتكرر منه خديعته السابقة في المحمدية · وذلك أن عامرا أمر صاحب خيله الذي صحب منصورا في السفينة من تونس بأن يعرج به على جزيرة جربة ، وهناك كان عليه أن يأمر بحبسه لدى الوالي ، وهو ابنه حمديس بن عامر(١٢٥) · وتم لعامر ما أراد ، فحبس منصور الطنبذى وأخوه حمدون(١٢٦) في جربة ·

وعندما علم القائد عبد السلام بن المفرج الذي توسط في الأمان ، وهو بباجة ، بغدر عامر ، ثارت ثائرته ، هو وأصحابه ، وقبضوا على هاشم أخي عامر ، وكان واليا على باجة ، وهددوا نافعا بقتل أخيه هاشم ان لم يطلق سراح منصور · ورفض عامر التهديد ، بل وهدد بدوره عبد السلام وأصحابه من الجند بسوء العاقبة ان نفذوا تهديدهم · وانتهى الأمر بأن أفرج عبد السلام عن هاشم بن نافع بينما أرسل عامر الى ابنه حمديس في جربة يطلب منه أن يضرب عنق كل من منصور وأخيه حمدون(١٢٧) ·

نهاية منصور الطنبذى

الحكم عليه بالاعدام :

وأحضر حمديس بن عامر الطنبذى وأخاه حمدون ، في ساحة الاعدام حيث قرىء عليهما ، كما يحدث في المحاكمات الحديثة ، كتاب عامر بتنفيذ العقوبة العظمى فيهما ، وهي الموت بالسيف دون مراجعة ، أي استئناف ·

وكانت نهاية تعسة بالنسبة لبطل الأمس الذي كان ينازع أمير افريقية ملكه ويضرب عليه الحصار ، ويطلب اليه أن يخرج من البلاد ، اذ أنه عندما سمع منصور بالحكم العظيم ، طلب — بشجاعة تليق بمثله — دواة وقرطاسا ليكتب وصيته ، ولكن خانته شجاعته اذ لم يستطع الكتابة ، واكتفى بأن قال شفويا ، على كل حال : « فاز المقتول بخير الدنيا والآخرة »(١٢٨) · وهذا ما يذكرنا برد أسد بن الفرات على تهديد عمران بن مجالد ، ابان ثورتا

---

(١٢٥) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ ب (حيث قرنه بدلا من جربه) ابن الأثير سنة ٢١١ هـ ، ج ٦ ص ٤٠٥ (حيث يقول ان والى جربة كان لنا لعامر وليـ ابنا له) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٢ ·

(١٢٦) ابن الأثير ، سنة ٢١١ هـ ، ج ٦ ص ٤٠٥ ·

(١٢٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٢ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ ب ·

(١٢٨) ابن الأثير ، سنة ٢١١ هـ ج ٦ ص ٤٠٥ ، وقارن الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١٤ (حيث النص الأخير : « فاز المقتول ·· » ، وليس « فاز المقتول ··· ») ·

على ابراهيم بن الأغلب ، اياه ان لم يخرج معه ، بانه ان لم يكف عمران عنه ، ليبادين في حق تلك الثورة ، ان : « القاتل والمقتول في النار »(١٢٩) .

نتائج مقتل الطنبذى فى صفوف الجند المتمرد :

د - المنافسون الجدد لعامر بن نافع :

وهكذا انتهى منصور الطنبذى الى القتل بيدى أكبر أعوانه عامر بن نافع ، الذى ظن أن الأمور استقامت له في تونس ، بعد أن تخلص من قائده ومنافسه الكبير ، وان ظهر له منافس جديد هو الآخر ، في شخص قائده الموتور : عبد السلام بن المفرج الذى استقل باقليم باجة .

ويفهم من النصوص التى أوردها كل من النويرى وبن الابار أنه كان من السهل على زيادة الله التنبؤ بفشل حزب عامر اثر ذلك . فعندما علم بنهاية منصور ، كتب الى عامر بن نافع يدعوه الى الطاعة ، « ويحذره عاقبة منصور الطنبذى قتينه » ، ويبذل له الأمان ومن معه ، ويعده « بأنه معيده الى ما كان عليه مع أبيه ابراهيم بن الأغلب وأخيه عبد الله بن ابراهيم » . ورد عليه نافع برسالة بليغة ، وهو يعدد له مساوىء أفعاله ، ويقول فى آخر كتابه : « ما بينى وبينك هوادة حتى تضع الحرب أوزارها ، ويحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين »(١٣٠) .

وفعلا لم يمر مقتل منصور الطنبذى وأخيه حمدون دون ردود فعل عنيفة بين الجند الأغلبى المتمرد ، وخاصة بين المضرية منهم ، الذين وجدوا على عامر فنافروه وحاربوه ، وانضموا الى جانب عبد السلام بن المفرج الذى رفع راية الأخذ بالثار للمقتول المظلوم . وانتهت المنافرة بخروج بن المفرج من باجة حيث كان قد استقر ، نحو تونس لحرب عامر ، وانتهى القتال بظفر عبد السلام وانهزام عامر الى جربة حيث كان ابنه حمديس(١٣١) .

---

(١٢٩) انظر فيما سبق ، ص ٣٧ و هـ ٤٦ .

(١٣٠) النويرى ، المخطوط ، ج ٢١ ص ١١٠ ب ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٤ — ٣٨٥ (حيث نص الرسالة فى اولها وآخرها) .

(١٣١) أنظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ ب (حيث قرئه بدلا من تجربة) ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢١١ هـ ، ج ٦ ص ٤٠٥ (الذى لا يذكر تلك الحرب ويكتفى بالاشارة الى لقاء عامر بتونس) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٣ (الذى لا يشير الى تلك الأحداث) .

تحسن الموقف بالنسبة لزيادة الله :

قرار فتح صقلية ، ووفاة عامر بن نافع :

وبذلك تفرق شمل الجند الأغلبي المتمرد مما حسن موقف زيادة الله ، حتى أنه اتخذ قراره الخطير بفتح صقلية في سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ، أي أثناء تلك الثورة العارمة • وفي السنة التالية (٢١٣ هـ/٨٢٨ م) اعتل عامر علته التي مات فيها(١٣٢) • وقبل أن يموت عامر بن نافع على فراشه ، حسب رواية بن عذارى (١٣٣) ، استدعى أولاده ، كما تنص رواية النويري ، وقال لهم : « يابني ما رأيت في الخلاف خيرا ، فاذا أنا مت ودفنتموني ، فلا تعرجوا على شيء حتى تلحقوا بزيادة الله فهو من أهل بيت عفو ، وأرجو أن يسر بكم ويقبلكم أحسن قبول »(١٣٤) •

ولقد نفذ أبناء عامر وصية والدهم بعد وفاته ، فأتوا زيادة الله طائعين مستأمنين ، كما جعل الجند يتسللون اليه ويستأمنون ، وهو يؤمنهم ويحسن اليهم(١٣٥) •

نهاية الفتنة :

وهكذا حق لزيادة الله أن يقول عندما بلغه نبأ وفاة عامر بن نافع : « الآن وضعت الحرب أوزارها » • واذا كان النويري قد أخذ هذا التصريح بنصه الحرفي فجعل القضاء على عبد السلام بن المفرج لا يتطلب وقتا طويلا ولا مجهودا كبيرا من العسكر الأغلبي الذي ضيق عليه الحصار في باجة ، حتى انتهى الأمر بموته عطشا(١٣٦) ، فمن الواضح أن الأمر لم يكن كذلك • فابن الأبار يعلق على تصريح زيادة الله عن نهاية الحرب بنهاية عامر ، بقوله : « فكان كذلك : لم يزل أمر الجند مدبرا حتى انقضت الحرب وطفئت الثائرة ،

---

(١٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٣ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢١١ هـ ج ٦ ص ٤٠٥ (الذي يحدد موت عامر بن نافع بسنة ٢١٤ هـ/٨٢٩ م ـ وهو ما يأخذ به ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨) •

(١٣٣) البيان ، ج ١ ص ١٠٣ •

(١٣٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ ب ، ١١١ أ ، وانظر الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٥ •

(١٣٥) النويري ، المخطوط ، ص ١١١ أ •

(١٣٦) النويري ، المخطوط ، ص ١١١ أ •

وصمت له افريقية(١٣٧) ، مما يعنى ان القضاء على ذيول الفتنة تطلب بعض الوقت ، وأنه لا بأس أن يكون التخلص من عبد السلام قد حدث فى سنة ٢١٨ هـ/٨٣٢ — ٨٣٣ م ، كما تنص بعض الروايات •

والحقيقة انه توجد اشارات فى ابن الأثير ، وابن خلدون تشير الى مقتل عبد السلام بن المفرج فى سنة ٢١٨ هـ/٨٣٢ — ٨٣٣ م ، اثر اشتراكه فى ثورة جزيرة شريك التى قام بها فضل بن أبى العنبر ، كما يأتى • وهذا يعنى ، كما ينص ابن خلدون ، ان عبد السلام بن المفرج استقر فى باجة لمدة خمس سنوات تالية على وفاة عامر بن نافع(١٣٨) ، وهو الأمر المقبول ، سواء كان ذلك بتقليد من الأمير زيادة الله أم بالتغلب على الاقليم(١٣٩) •

والمهم أنه بوفاة عامر انتهت تلك الفتنة التى طـالت الى أكثر من ١٣ (ثلاثة عشر) عاما ، واستقامت الأمـور لزيادة الله ، ابتـداء من سنة ٢١٣ — ٢١٤ هـ/٨٢٨ — ٨٢٩ م • ولا بأس فى أن يكون زيادة الله قد بدأ حركة التهدئة منذ سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ، عندما وجه أنظاره نحـو غزو صقلية ، حيث كان يمكنه أن يوجه نشاط جنده المتمرد الى الجهاد بدلا من اثارة الفتنة فى البلاد(١٤٠) •

اضطرابات خفيفة بين الجند ، وخاصة فى تونس :

وهذا لم يمنع بطبيعة الحال من قيام بعض الفتن فى البلاد ، مما استطاع زيادة الله أن يقضى عليه بسهولة • ففى حوليات ابن عذارى ، مثلا : ذكر لفتنة وقعت سنة ٢١٦ هـ/٨٣١ م بافريقية بين رئيسين من رؤساء الجند ، هما : مطيع السلمى ، واسماعيل بن الصمصامة ، انتهت بهزيمة مطيع وقتله ، وفرار أصحابه(١٤١) • وفى سنة ٢١٨ هـ/٨٣٣ م عادت منطقة تونس الى

---

(١٣٧) الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٥ •

(١٣٨) ابن الأثير ، سنة ٢١٨ هـ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨ •

(١٣٩) وهنا يجب أن نشير الى انه لا يشكك فى تلك الرواية الا ما ينص عليـه ابن خلدون — بعدها — من ان غزو صقلية كان فى سنة ٢١٩ هـ/٣٣ —٨٣٤ م التالية ، بدلا من سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ، وكان هناك نوعا من العلاقة بين الحادثين ، مما يسمح بالنظر فى رواية النويرى التى بدأنا بها ، والتى تكاد تربط بين وفاة كل من عامر بن نافع وعبد السلام حوالى سنة ٢١٣ هـ — ٢١٤ هـ •

(١٤٠) انظر الفصول الخاصة بفتح صقلية ، ص ٢١٠ وما بعدها •

(١٤١) البيان ج ١ — ص ١٠٤ •

الاضطراب من جديد ، عندما ثار بجزيرة شريك قائد من قواد الجند اسمه فضل بن أبى العنبر ، ونجح فى هزيمة العسكر الذى وجههم اليه زيادة الله ، فتغلب على المنطقة ، وأعلن الاستقلال بها(١٤٢) • ولقد استجاب عبد السلام ابن المفرج لطلب المعونة من قبل الفضل ، فخرج من باجة الى جزيرة شريك • ولكن الرجلين لم يستطيعا مواجهة القوات الاغلبية ، وانتهى الأمر بمقتل عبد السلام بن المفرج ، كما سبق ، بينما انهزم الفضل الى تونس وامتنع بها • وسير زيادة الله جيشا كثيفا الى تونس بقيادة ابن عمه ، والى صقلية ، أبى فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب ، ففر الفضل من تونس ، كما نجح فى الافلات كثير من عسكره • واقتحم العسكر الأميرى المدينة ، وقتلوا كثيرا من أهلها ، وهرب آخرون(١٤٣) • والظاهر أن الفقهاء كان لهم دورهم فى تلك الثورة ، عن طريق قيامهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكـــر ، اذ يذكر ابن عـــذارى — بهذه المناسبة — قتل عباس بن الوليد الفقيه الصالح(١٤٤) •

العفو عن المتمردين :

وفى السنة التالية (٢١٩ هـ/٨٣٤ م) أعلن زيادة الله العفو عن كل من شارك فى تلك الثورة ، وأفلت من تونس • فاستجاب له أهل المنطقة ، وركن الاقليم الى الهدوء والسكينة(١٤٥) •

وكان من بين من استأمن عبد الرحمن وعلى ابنا أبى سلمة، وأبو العزاف، وكانوا شعراء فصحاء ، فمدحه عبد الرحمن بقصيدة ارتاح لهـــا الامير • وعندما قام شاعر الأمـــير : يعقوب بن يحيى ، يحرضه على بنى ســـلمة وأبى العزاف ، بأبيات يقول فيها :

تسمع أيهـــا الملك المعـــان ... قوافى فى معـــانيها البيـــان
يتم أمان من خضب العـــوالى ... وليس لشـــاعر أبـدا أمـــان
لأن قـــوافى الأشـــعار تبقى ... على الأيام مـــا بقى الـــزمان
وقد يرجى لجرح السيف برء ... ولا برء لمـــا جـــرح اللسان

---

(١٤٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ١٠٥ ، ابن الأثير ، سنة ٢١٨ هـ (حيث يحدد مكان الموقعة بمدينة اليهود بالجزيرة ، ويذكر مقتل عبد السلام) ، ابن خلدون ، ط بيروت . ج ٤ ص ٤٢٣ (حيث الاسم « فضل بن أبى العين ») •

(١٤٣) نفس المصادر •

(١٤٤) نفس المصادر — حيث يذكر ابن الأثير ان الفقيه عباس بن الوليد لم يكن مشاركا فى الثورة الا بعد أن اقتحم العسكر الأغلبى داره •

(١٤٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٥ ، وانظر ابن خلدون ، ط بيروت ، ج ٤ ص ٤٢٤ •

لم يلتفت اليه زيادة الله وأمضى لهم أمانهم ٠

ولما سأل أبا العزاف : لماذا لم يستأمن قبل هذا الوقت ؟ قال الرجل : « أيها الأمير ! كنت مع قوم حمقى ، يولون كل يوم واليا ويعزلون آخر ، فرجوت أن تكون لى معهم دولة » ٠ فضحك زيادة الله ، وقال . « قد عفوت عنك »(١٤٦) ٠

تقويم زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب :

شخصية مزدوجة : رقة تغلفها الغلظة :

رغم ما يقوله الكتاب من أن زيادة الله كان قاسيا مستبدا بالجند سفاكا لدمائهم ، وخاصة عندما يسكر ، وهم يريدون بتلك الاضافة الثانية سيئة أخرى يضمونها الى الأولى ، فالظاهر أن قسوته لم تكن الا ســـتارا يخفى وراءه شخصية رقيقة ٠ وهذا ما عبرت عنه الرواية التى ينقلها ابن عذارى ، عندما قيل ان منصورا الطنبذى استهول ما رآه عندما خرج زيادة الله اليه فى الجيش الكثيف ، اذ لم يعرف فيه الا الضعف والوهن(١٤٧) ٠

وتظهر رقة زيادة الله من تلك الحكايات الطريفة التى تروى أفعالا له ، تدل على عفوه وصفحه وحلمه ٠ فهو يتأثر كثيرا لما فعلته والـــدته السيدة « جلاجل » ، عندما طبخت الفول بيصارا وأرسلته الى أخت عامر بن نافع بعد هزيمته حتى تبر بقسمها وهى تريد أن تسخر منها : لأن أخت عامر كانت قد أقسمت لتجعلن « جلاجل » تطبخ لها الفول بيصارا بمعنى أنهـــا كانت تتوقع انتصار أخيها ، واذلال أم زيادة الله — وهو الأمر الذى كان يستعظمه العرب ٠ وما كان من زيادة الله الا أن قال لوالدته : « قد ساءنى ما فعلت يا أم . ان الاستطالة مع القدرة لؤم ودناءة ، وقد كان أولى بك أن تفعلى غير هذا » ٠ وتنبهت أم زيادة الله الى المعانى النبيلة التى كان يقصدها زيادة الله بذلك الدرس ، فقالت له : « نعم سأفعل ما يرضيك ويحسن الأحدوثة عنا ، وبعثت اليها (أى الى أخت نافع) بكسوة وصلة وألطاف ٠ ورفقت بها حتى قبلت ذلك ، وطابت نفسها »(١٤٨) ٠

---

(١٤٦) ابن عذارى ج ١ ص ١٠٥ ٠

(١٤٧) أنظر فيما سبق ، ص ٥٣ ٠

(١٤٨) النويرى ، نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١ ب — ١١٢ أ ٠ وعن السيدة جلاجل ، أنظر فيما سبق هـ ٤ ص ٢٧ ٠

وهو عندما يعفو عن ثوار تونس الشعراء من آل ابى سلمة وشريكهم في الفتنة أبى العزاف ، يقبل اعتذار الأخير اللطيف ، رغم ما فيه من المرارة . ثم هو لا يستمع الى ضعينة شاعره الذى كان يحسدهم لأنهم منافسون له في الشعر ، من غير شك(١٤٩) .

زيادة الله شاعرا :

وهذا ما يؤكد رقة الأمير الذى كان شـــاعرا ، وكان يحمى الشـــعر والشعراء بمعنى أنه كان حاميا للغة العربية التى كان احد العارفين بها . وفى ذلك تقول رواية النويرى المأخوذة عن الرقيق : «انه « كان من أفصح أهل بيته لسانا وأكثرهم بيانا ، وكان يعرب كلامه ولا يلحن من غير تشادق ولا تقعير »(١٥٠) . والى جانب ذلك كان زيادة الله يقول الشعر الحسن الجيد ، ولو أن النويرى لم ينتحب من أشعاره الا أبيات كان قد ذيل بها خطابا وجهه الى الخليفة المأمون ، ردا على طلب للخليفة استاء له أمير القيروان ، وكان ذلك وهو فى حالة سكر ، وهى :

أنا النـــار فى أحجارها مستكنة   فان كنت ممن يقدح الزند فاقدح

أنا الليث يحمى غيله بزئـــيره   فان كنت كلبا حان موتك فانبح

أنا البحر فى أمواجـــه وعبـــابه   فان كنت ممن يسبح البحر فاسبح(١٥١)

وعندما تنبه الأمير الرقيق الحاشية من سكره ، استهول ما فعله فبعث فى طلب الرسول ، ولكن دون جدوى . وحينئذ كتب كتابا لطيفا ثانيا يليق بمقام الخليفة المأمون . وكان رد خليفة بغداد ، الذى كان أديبا محبا للفلسفة ، على الخطاب الثانى ، وأجاب فيه كل ما طلبه الأمير القيروانى المغرم بالخمر والشعر(١٥٢) .

---

(١٤٩) انظر فيما سبق ، ص ٦٢ .

(١٥٠) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١١١ ب وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٣ .

(١٥١) نفس النهاية والحلة . ومما يستحق التنبيه أن ابن الأبار ينص على ان زيادة الله كتب هذا الشعر وهو غضبان من طلب الخلافة اليه أن يدعو فى الخطبة لعبد الله بن طاهر بن الحسين (انظر فيما سبق ، ص ٥٤) . ولقد أخذنا قراءة الحلة للبيت الثانى من الشعر . وهو يوجد فى نهاية الأرب على الوجه التالى .

أنا الليث يحمى عليه غيله بزئيره   فان كنت كلبا خان يومك فانبح

(١٥٢) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١١ ب ، الحلة السـيراء ، ج ١ ص ١٦٣ ، ١٦٥ . حيث يذكر ابن الأبار له شعرا فى الحرب والحزن عن هزيمته فى وقعة سبيبة =

ما بين فسقه وورعه :

وهكذا اذا ظهر زيادة الله يظهر المتمزق بين القسوة والرقة ، فقد كان أيضا ذا شخصية منقسمة على نفسها ، ما بين الفسق - اذا اعتبرنا أن غرامه بالخمر نوع من الفسق ، وهو ما يمكن أن يكون وألا يكون حسب واقع العصر - والتدين . وفي مشاعره الدينية تقول الرواية انه كان يقول لخاصته : انى لأرجو رحمه الله ، وما أرانى الا أفوز بها اذا قدمت عليه يوم القيامة ، وقد عملت أربعة أشياء :

بنيت المسجد الجامع بالقيروان ، وأنفقت عليه ٨٦ (ستة وثمانين) ألف دينار ، وبنيت قنطرة باب أبي الربيع ، وقصر المرابطين بسوسة ، ووليت القضاء أحمد بن أبي محرز(١٥٣) .

وهكذا تظهر أعمال الورع والتقوى ، في نظر أهل ذلك العصر ، في أربعة أشياء ، هي :

١ - بناء المساجد ، وهي بيوت الله التي لا يعمرها الا من آمن بالله واليوم الآخر .

٢ - بناء القناطر لجلب الماء من الجبل البعيد ، وهذا من الأشياء ذات المنفعة العامة للناس ، مثلها في ذلك مثل شق القنوات والأنهـــار للسقيا والزرع ، وبناء الجسور والقناطر لعبورها . وكل ذلك من الامور التي يحض عليها الدين ، الذي يهدف الى صلاح الناس في دنياهم أيضا قبل أخراهم .

٣ - بناء الحصون والربط من أجل اقامة المجاهدين من العباد ، فالجهاد وثيق الصلة بالدين ، حتى أنه اعتبر سادس قواعد الاسلام . والجهاد والدين

= (انظر فيما سبق ، ص ٥٣ و هـ ٥) ، وحيث يذكر له نموذجين آخرين من الشعر أحدهما في النسيب ، ومنه :

بالله لا تقطعن بالهجر أنفاسى	فانت تملك انطباقى بواخراس
صدوة طرفك عن طرفى اذا التقيا	مجرعى كاس ارغام واتعاس

والآخر في وصف تفاحة ، ومنه :

ولابسة ثوب اصفرار بلا جسم	تنم بانفـــاس الحبيب لشيم
تجمع تشتوى لديهـــا وعاشق	فلو نظر يرنو اليها وذو شيم

(١٥٣) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١١ أ . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ والمالكى ج ١ ص ٣٠٨ ، والبكرى ، ص ٣٥ .

سارا فى افريقية ، منذ أيام الأغالبة ، متلازمين بفضل العلماء العباد من أهل البلاد ، الذين اعتبروا الجهاد عبادة • والمثل لهم أسد بن الفرات قاضى افريقية على أيام زيادة الله ، وقائد حملة صقلية •

٤ ــ اسناد القضاء الى ذوى الفضل من الفقهاء والعلماء ، فالقضاء كان الخطة الثانية بعد الامارة ، والقاضى هو الحكم الذى يمثل العدل • والعدل أساس الملك ، كما قال الحكماء منذ أقدم العصور •

ابو محرز قاضيا :

اذا كان زيادة الله قد اعتبر أن تولية القضاء لأحمد بن أبى محرز ــ الذى عرف بشدة تقاه ــ من أعمال البر العظيمة التى يأمل أن يجزيه الله عنها خيرا ، فانه يحق له أن يعتبر أن تولية والد أحمد ، وهو محمد بن عبد الله بن قيس الكنانى ، الذى عرف بكنيته أبى محرز ، منصب القضاء فى القيروان من أعمال البر أيضا • ولقد ولى أبو محرز القضاء فى سنة ١٩٠ هـ/٨٠٦ م ، على ما يرجح ، وذلك عقب وفاة القاضى ابن غانم (عبد الله بن عمر الرعينى) الذى كان قد ولى القضاء برضاء الخليفة الرشيد منذ ولاية روح بن حاتم (فى رجب سنة ١٧١ هـ/يناير ٧٨٨ م) وطوال عشرين سنة حتى أيام ابراهيم بن الأغلب(١٥٤) •

وأبو محرز معروف بين فقهاء القيروان بأنه كان من الكوفيين ، أى ممن يأخذون بمذهب أهل العراق من أصحاب أبى حنيفة الذين يعتمدون القياس والرأى فى استنباط الأحكام ، على عكس جمهرة فقهاء القيروان على أيامه ، ممن كانوا مالكية من أهل الحديث ، الذين يأخذون بسنن أهل المدينة التى نشرها فى المغرب تلاميذ امام دار الهجرة ، الذين شدوا الرحال الى مصر والحجاز ، وتلقوا العلم على مالك بن أنس نفسه •

---

(١٥٤) تنص الرواية على ان ابن غانم توفى فى ربيع الآخر سنة ١٩٠ هـ/فبراير ــ مارس ٨٠٦ م على أيام ابراهيم بن الأغلب الذى حزن لوفاته وبكى عليه ، هو وصاله ابو عقال • ولقد رجحنا ان تكون ولاية أبى محرز فى نفس السنة ، وذلك انه هناك رواية اخرى تضيف الى ذلك احتمال أن تكون وفاة ابن غانم سنة ١٩٦ هـ/٨١٢ م ، وهى سنة وفاة ابراهيم بن الأغلب نفسه •• انظر الرقيق ، ص ٢٢٨ ، المدارك للقاضى عياض ، ص ٣٢٥ ، تراجم اغلبية (عن المدارك) ، ص ٢٠٠ (عن وفاة ابن غانم) ؛ ص ٢٠٣ (عن ولاية أبى محرز بعد ابن غانم) • وانظر فيما سبق ، ج ١ ، ص ٣٧٤ و هـ ١٠٧ •

ومن هؤلاء كان أئمة ذلك العصر ، مثل : علي بن زياد التونسي ، الذى يعتبر أول من أدخل موطأ مالك افريقية(١٥٥) ، وعابد القيروان البهلول ابن راشد ، الذى قال فيه مالك : « هذا عابد بلده »(١٥٦) ، وعبد الله بن فروخ الفارسي ، الذى كان يكاتب مالكا(١٥٧) ، وأسد بن الفرات الذى سمع الموطأ عن مالك وغيره(١٥٨) ، والذى أدخل كتب الأسدية الى مصر وافريقية ، وفيها أجوبة مالك ـ عن طريق ابن القاسم المصري ـ على آلاف المسائل التى أجاب عنها تلاميذ أبي حنيفة(١٥٩) فكأنها كانت في الفقه المقارن ، كما نقول الآن .

ما بين أبي محرز وأسد بن الفرات :

والى جانب ترجمة أبي محرز ، الذى اعتز زيادة الله بتولية ابنه أحمد القضاء ، بين تراجم المالكية في افريقية ، فان أخباره توجد متناثرة في تراجم فقهاء ذلك العصر وأمرائه ، وخاصة في ترجمة أسد بن الفرات الذى ولاه زيادة الله القضاء الى جانب أبي محرز في سنة ٢٠٣ هـ/٨١٨ م ، فكانت أول سابقة في تولية القضاء لرجلين معا(١٦٠) .

والحقيقة أنه اذا كان أسد أكثر علما وفقها من أبي محرز ، فقد كان أبو محرز أشد من أسد رأيا وصوابا(١٦١) ، كما كان أبو محرز أكثر احسانا للعربية ، مقلا في كلامه(١٦٢) . وهكذا كان أبو محرز ، قبيل أن يلي القضاء ، يستفتى في القيروان ، هو وأسد بن الفرات ، وزكرياء بن محمد بن الحكم اللخمي ، ومن في طبقتهم من الفقهاء والعلماء(١٦٣) .

والمعروف عن أبي محرز أنه كان رفيقا لينا في أحكامه ، يميل الى الأناة

---

(١٥٥) المدارك ، ص ٣٢٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٢١ .

(١٥٦) المدارك ، ص ٣٣١ ، تراجم اغلبية ، ص ٢٨ . وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٩١ وهـ ١٧٤ .

(١٥٧) المدارك ، ص ٣٤٠ ، تراجم اغلبية ، ص ٤١ . وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٧٤ وهـ ١٠٦ .

(١٥٨) المدارك ، ص ٤٦٥ ، تراجم اغلبية ، ص ٥٣ ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ١٧٤ .

(١٥٩) المدارك ، ص ٤٦٩ ، وما بعدها ، تراجم اغلبية ، ص ٥٧ ـ ٥٩ .

(١٦٠) المدارك ، ص ٤٧٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٥ (تؤرجح الرواية ولاية أسد ما بين سنة ٢٠٣ هـ وسنة ٢٠٤ هـ) ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ١٨٥ .

(١٦١) المدارك ، ص ٤٧٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٥ ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ١٨٩ .

(١٦٢) المدارك ، ص ٤٧٩ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٩ .

(١٦٣) المدارك ، ص ٤٩١ ، تراجم اغلبية ، ص ٨٤ .

والتروى فى فتاواه ، ويأخذ طريق التساهل والعفو . ولقد ظهر تساهله فى ميله الى التسامح مع الجند المتمردين على زيادة الله فى ثورة الطنبذى الخطيرة . وذلك أنه بينما كان فقيه ، مثل : عبد الله بن أبى حسان اليحصبى يريد الوقوف بصلابة ضد الثوار بعد هزيمتهم ، لأنهم كانوا قد أغاروا على منازله وانتهبوها ، واضطروه الى الاستخفاء ، فيقول لزيادة الله ، الذى نصحه العلماء بالعفو ورغبوه فيه : ان العفو مفسدة ، ولن يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، كان أبو محرز يقول : العفو أقرب للتقوى(١٦٤) . وهو لذلك يتصدى لابن أبى حسان اليحصبى ، ويقول له : أمن أجل شويهاتك أو رميكاتك تستحل دماء المسلمين(١٦٥) .

ومثل هذا كان رأى أبى محرز فيمن يرمى بتهمة الزندقة — التى صارت جريمة سياسية فى كثير من الأحيان — مهما كان حال صاحبها : أن يستتاب . وهو يوبخ الفقيه أبا زكريا بن الحكم عندما يقول : ان رأى أهل العلم أنه يقتل اذا كان مظهرا للاسلام ، وأن كان هو نفسه لا يأخذ بهذا الرأى ، ويرميه بالحمق لأن كلامه هذا يجرىء الأمير — وهو زيادة الله الذى كان حاضرا مجلس الفتوى — على سفك الدماء(١٦٦) . وهو هنا يمثل فقهاء افريقية ، فى ذلك العصر ، ممن كانوا لا يهابون السلاطين ، ولا يخشون فى الله لومة لائم . فهو يقف الى جانب أسد بن الفرات ضد الرجل ، الذى أراد أن يتملق زيادة الله ، فقال له : أنه رأى فى المنام كأن جبريل وقف بين يديه ومعه نور — رغم سعادة الأمير بتلك الرؤيا الكاذبة(١٦٧) . وكان أبو محرز يميل الى التأنى أيضا قبل نقض الهدنة مع الروم عندما أتوا يطلبونها قبل حملة صقلية ، ولو أن زيادة الله أخذ برأى ابن الفرات فى شرعية خرق الهدنة(١٦٨) .

---

(١٦٤) المدارك ، ص ٤٨٣ ، تراجم أغلبية ، ص ٧٤ (حيث تقول الرواية ان اليحصبى كان سىء الرأى فى الجند حتى انه نظم فى ذلك شعرا يقول فيه :

أباح طغام الجند جهلا حريمنا	وشقوا عصا الاسلام من كل جانب
وعاثوا وثاروا فى البلاد سفاهة	وظنوا بأن الله غير معاقب
وما عجب بعض الأعاجم ضلة	برارا وقحطان الكرام المناسب
ولكن من قوم اليمن ا اعتزازهم	مبغضا فهم فيها لاحدى العجائب

وقارن المالكى ، ج ١ ص ٢٠٣ (حيث أبيات الشعر مختلفة بشكل بين) . وعن اليحصبى مؤرخا ، انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٤ .

(١٦٥) المدارك ، ص ٤٨٣ ، تراجم اغلبية ، ص ٧٤ — ٧٥ .

(١٦٦) المدارك ، ص ٤٧٥ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٤ ، وقارن المالكى ، ج ١ ص ١٩١ .

(١٦٧) المدارك ، ص ٤٧٨ — ٤٧٩ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٨ .

(١٦٨) المدارك ، ص ٤٧٦ ، تراجم أغلبية ، ص٦٦ ، وانظر فيما بعد عن فتح صقلية ص ٢١٢ .

واذا كان أبو محرز ممن يقول بعدم تحريم النبيذ ، فانه كان يقول بذلك عن قناعة ، حسب رأى أهل العراق ، ولم يكن يقوله تملقا للأمير الذى كان مغرما بالشراب ، والذى كان يعقد المناظرات فى أمر شراب النبيذ بين أبى محرز ، الذى كان يحله ، وبين أسد ، الذى كان يراه حراما(١٦٩) ٠

أسد بن الفرات :

وهكذا فاذا حق لزيادة الله أن يتخذ توليته القضاء لأحمد بن أبى محرز شفيعا له يوم الحساب ، فقد كان من حقه أيضا — الذى نقرره له — أن يعتز بتوليته القضاء قبل ذلك لوالد أحمد ثم تولية أسد بن الفرات أيضا الى جانب أبى محرز(١٧٠) فأسد بن الفرات الذى تفقه على مالك بن أنس ، وتعلم فى العراق على تلاميذ أبى حنيفة ، كان يواجه زيادة الله بتحريم الخمر ، كما كان يقف ضد مقالة المعتزلة بخلق القرآن(١٧١) ٠ وكان كثير منهم ، مثل أبى محرز ، من أصحاب المذهب الحنفى الذى أصبح على أيام الخليفة المأمون المذهب الرسمى للخلافة ، فى : بغداد وفى البلاد التابعة لها كمصر وافريقية ٠ وفوق هذا وذاك كان أسد بن الفرات أحد الشجعان على علمه وفقهه(١٧٢) ٠ فأسد بن الفرات ربط فى شخصه بين العلم والتدين والجهاد ، وهى الأمور التى شغف بها زيادة الله ٠

ولقد كانت وفاة أسد بن الفرات — التى استعظمها أبو محرز ، حتى قال : « اليوم مات العلم »(١٧٣) — فى صقلية سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م(١٧٤) ، وتبعه أبو محرز فى السنة التالية (٢١٤ هـ/٨٢٩ م)(١٧٥) ٠

---

(١٦٩) المدارك ، ص ٤٧٥ ، ص ٤٨٤ ، تراجم أغلبية ، ص ٦٥ ، ٧٥ ، وقارن قطب السرور للرقيق ، ص ٤٨٦ — ٤٨٩ (حيث تضم الرواية أسد بن الفرات الى جانب أبى محرز فى تحليل النبيذ ، وهو الأمر الذى لم يذكر أبدا عن أسد) ٠

(١٧٠) انظر المالكى ، ج ١ ص ١٨٥ (حيث النص على أن الوزير على بن أسد هو الذى سعى فى ولاية أسد ، وكان يود عزل أبى محرز) — وانظر الصفحة ٦٧ ، وهـ ١٦٠ ٠

(١٧١) المدارك ، ص ٤٧٣ — ٤٧٤ ، تراجم أغلبية ، ص ٦٢ — ٦٣ ، وقارن المالكى ، ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٢ ٠

(١٧٢) المدارك ، ص ٤٧٦ ، تراجم أغلبية ، ص ٦٦ ، المالكى ، ج ١ ص ١٨٨ — وهذا ما نشير اليه عند الكلام عن فتح صقلية

(١٧٣) المدارك ، ص ٤٧٥ (رواية عمران بن أبى محرز) ، تراجم أغلبية ، ص ٦٤ ٠

(١٧٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ ٠

(١٧٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ ٠

أحمد بن أبي محرز :

ولا ندري من الذي ولي القضاء ، بعد أبي محرز ، وذلك أن الحوليات لا تذكر لنا تولية أحمد بن أبي محرز لقضاء افريقية ، التي اعتز بها زيادة الله الا في سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٤ م ، ثم تفاجئنا بوفاته في السنة التالية (٢٢١ هـ/ ٨٣٥ م) كقاض لصقلية ، بعد ولاية لم تدم الا حوالي تسعة أشهر فقط ، جمع فيها بين قضاء افريقية وقضاء صقلية على ما يظن(١٧٦) ·

والمهم أن أحمد بن أبي محرز الذي عرف بأنه لا يخشى في الله لومة لائم ، كان من التقوى والورع بحيث أنه كان عازفا عن تقليد القضاء الذي لم يقبل ولايته الا مكرها(١٧٧) · ولهذا قالت بعض الروايات انه لم يحكم بحكم حتى مات(١٧٨) ، رغم ما تنص عليه روايات أخرى من أنه تحرى غاية العدل في اجراءاته القضائية : فلم يقبل وكالة أقارب الأمير أو حشمه أو من يلوذ به · هذا ، الى جانب اشارات أخرى الى انصافه والى وقوفه بصلابة أمام الوزير على بن حميد عندما أراد مساندة بعض المتخاصمين ، واجبـــاره الوزير على البراءة من محسوبه ، وذلك في حضرة زيادة الله ، وأمام الملأ من الناس ، مما كان له رجة عظيمة بالقيروان(١٧٩) ·

والذي يستأثر بعناية الكتاب في وفاة ابن أبي محرز ، الذي كان كثير البكاء غزير الدمعة ، انه أوصى أخاه عمران بن أبي محرز أن يكتم موته حتى يكفنه ، ويصلي عليه خوفا أن يكفنه زيادة الله ويصلي عليه · ونفذ عمران الوصية ، ولم يدر فتيان زيادة الله بالامر الا بعد أن حمل نعش القـــاضي الورع — الذي أراد أن يهرب ميتا من زيادة الله بعد أن عجز عن الهروب منه حيا — خارج داره · وهنا اكتفى خلف الفتى بذر الكثير من المسك الذي كان أحضره على جثمان القاضي ، ورجع الى القصر بما كان معه من الأكفان · وهكذا

---

(١٧٦) انظر بن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ ، المالكي ، ج ١ ص ٣٠٥ · هذا ولو أن رواية أبي العرب (ط · تونس ، ص ١٦٧) تقول انه ولي بعد وفاة والده أبي محرز ، مما يعني أن خطة القضاء ظلت شاغرة لحوالي ست سنوات منذ وفاة أبي محرز ، وهو الأمر المستبعد ، رغم ما تقوله رواية المالكي (ج ١ ص ٣٠٦) من أن الناس كانوا ممتنعين عن ولاية القضاء عندما أجبر زيادة الله أحمد بن أبي محرز على قبولها ·

(١٧٧) المالكي ، ج ١ ص ٣٠٥ ·

(١٧٨) ابو العرب ، ط · تونس ، ص ١٦٧ ، المالكي ، ج ١ ص ٣٠٥ ·

(١٧٩) المالكي ، ج ١ ص ٣٠٦ — ٣٠٨ ·

يتمكن زيادة الله من اللحاق بالجنازة الا عند المصلى خارج المدينة ، حيث فصلى عليه وحضر دفنه . وتقول الرواية انه بعد أن عزى الأمير عمران القاضي أحمد ، قال : يا أهل القيروان لو أراد الله لكم خيرا ، لما خرج أبي محرز من بين أظهركم(١٨٠) .

وهكذا حق لزيادة الله أن يعتز بقاضيه أحمد بن أبي محرز ، وتؤكد دق رأيه شهادة سحنون فيما بعد ، فقد كان اذا تكلم فيمن تقدمه من قضاة ، فذكر له أحمد بن أبي محرز ، لم يتكلم فيه الا بخير لفضله(١٨١) .

مال زيادة الله العمرانية :

رباط سوسة :

والحقيقة انه على عكس ما قد يتوهمه الناظر السريع في حياة زيادة الله أنها كانت حياة رجل متمزق بين العنف والبحث عن اللذة ، حتى أن قاضيه ان يخاف أن يكفنه بأثواب من عنده أو أن يصلي على جنازته ، نجد أن المتأمل حياته يكتشف خلف ستار هذا المظهر الخداع رجلا قد وهب نفسه لأعمال بر ، وعلى رأسها الجهاد . ففي سنة ٢٠٦ هـ/٨٢١ م بدأ ببناء واحد من أكبر حصون المرابطين من العباد المجاهدين في سوسة ، وهو رباط سوسة لشهور ، الذي أصبح بعد سنوات قليلة قاعدة لأكبر عملية غزو بحرية قام بها العرب فيما وراء البحار ، وهي فتح صقلية وايطاليا ، كما صار صنوا رباط المنستير الذي أصبح أكبر رباطات السواحل المغربية : حتى اعتبر عتبة من عتبات الجنة ، وحتى أصبحت الاقامة فيه لمدة يوم وليلة أعظم أجرا من الحج أو الانقطاع الى الصلاة والصوم . وبذلك مزج علماء افريقية الأغلبية بين العلم والتدين والجهاد ، بطريقة لم تعرف في غير افريقية من بلاد الاسلام .

ورباط سوسة(١٨٢) ، كما وصلنا ، أشبه بحصن مربع الشكل ، طول ضلعه حوالي ٤٠ مترا ، تدعم جدرانه الأربعة ثمانية أبراج : ٤ (أربعة) منها

---

(١٨٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٦ ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ٣٠٩ (حيث النص على أن عمران هو ابن القاضي أحمد وليس أخاه) .

(١٨١) أخبار العرب ، ط . تونس ، ص ١٦٧ .

(١٨٢) انظر البكري ، ص ٣٥ (حيث يصفه بأنه « محرس عظيم كالمدينة » سور متقن يعرف بمحرس الرباط ، وهو مأوى للأخيار والصالحين ، داخله حصن ثان يسمى « القصبة » ، وهو بجوفي المدينة متصل بدار الصناعة بسفح الجبل الذي هي في سنده) .

في رواق أبيساء ، و ٤ (أربعة) في وسط كل من حوائطه الأربعة • والأبراج مستديرة الشكل عدا اثنين منها فلهما شكل مربع ، وأحدهما يقع في الركن الجنوبي الشرقي حيث توجد في أعلاه منارة مربعة الشكل ، يظن أنها أقيمت من أجل ارسال الاشارات الضوئية التي كان يتبادلها جند المحارس ، والثاني في وسط الجدار الجنوبي حيث الباب الوحيد للرباط • وكانت تعلو برج هذا الباب قبة ذات شرفات (جوسق) ، ربما كانت تستخدم كمئذنة للجامع الذي يقع في الدور العلوي من هذا الجانب من الرباط •

أما الفناء المربع في داخل الحصن ، فهو أشبه بصحن الجامع الكبير ، وتحيط بجوانبه وراء الأروقة غرف العباد وصوامعهم • الموزعة في الدور الأرضي على جوانب الحيطان الأربعة ، بينما هي موزعة في الدور العلوي في ثلاثة اتجاهات فقط • اذ الحقيقة أن المسجد ، الذي يتكون من أحد عشر رواقا رأسيا على حائط القبلة ، وبلاطتين عرضيتين ، يشغل الجزء العلوي المواجه للحائط الجنوبي للرباط ، وهو حائط القبلة(١٨٣) •

قنطرة باب أبي الربيع :

والى جانب مجهودات زيادة الله في بناء رباط سوسة للعباد المجاهدين ، بنى قنطرة باب أبي الربيع في القيروان ، التي كانت ساقية عظيمة تحمل الماء من الجبل القريب عبر الوادي ، على ارتفاع شاهق بفضل حناياها أو أقواسها الكبيرة ، مما كان له أثره في العمارة الاسلامية في افريقية وسائر بلاد المغرب والأندلس • وذلك أنه كانت توجد في افريقية نماذج لهذا النوع من السواقي المحمولة على القناطر منذ أيام الرومان ، كما كان الحال كذلك في الأندلس ، مثل . قناطر ماردة التي بقيت لنا أجزاء منها(١٨٤) •

---

(١٨٣) أنظر ج• مارسيه ، مختصر الفن الاسلامي ، ج ١ ص ٤٧ — ٤٩ ، شكل ٢٠ ص ٤٨ (تخطيط بجسم رباط سوسة) • السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج٢ ص ٢٤٩ وما بعدها •

(١٨٤) عن قناطر باب تونس المزدوجة قرب القيروان أنظر ج • مارسيه ، مختصر الفن الاسلامي (بالفرنسية) ، ج ١ ص ٥٣ ، وعن قناطر ماردة أنظر ج ١ ص ٢٣٠ — ٢٣١ حيث الاشارة الى إحتمال تاثيرها على الأقواس المزدوجة في جامع قرطبة • وعن معارضة هذا الرأى أنظر احمد فكرى ، المدخل لمساجد القاهرة ومدارسها ، ص ١٣ — ١٤ ، حيث يقرر المؤلف إن أقواس جامع قرطبة المزدوجة عمل عربي مبتكر لا علاقة له بقناطر ماردة وأنظر شكل ١ ، ص ١٥ •

وهكذا ظل زيادة الله مهتما باعمار البلاد ، مجتهدا فى تحقيق أسباب الحياة الطيبة لشعبه ، رغم ما واجهه من المصاعب ، وما عاناه من التجارب التى تمثلت فيما رآيناه من الفتن . وحسن رعاية زيادة الله لمصالح شعبه يعتبر من مبادىء الاسلام الأساسية التى تنص عـلى مسئولية كل راع عن رعيته ، وذلك أن الرعية هى أصل رخاء الدولة ، اذ : « المال رزق تجمعه الرعية — كما قال فلاسفة السياسة — والرعية عبيد يتعبدهم العدل(١٨٥) .

مسجد القيروان الجامع :

ويأتى بناء المسجد الجامع فى القيروان — الذى اختطه عقبة لاول مرة سنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م ، ثم جدده حسان سنة ٨٤ هـ/٧٠٣ م ، ووسعه بشر ابى صفوان سنة ١٠٥ هـ/٧٢٥ م ، وبنى منارته ثم جدده بعده يزيد بن حاتم سنة ١٥٧ هـ/٧٧٤ م ليتوج أعمال زيادة الله ، وليصبح أثرا باقيا الى اليوم من آثار الأغالبة(١٨٦) .

ففى شهر جمادى الآخرة من سنة ٢٢١ هـ/مايه — يونيه ٨٣٦ م(١٨٧) ، قام زيادة الله فأمر بهدم بناء المسجد العتيق — حاشا المحراب ، محراب عقبة — بعد أن لم يعد مناسبا ، من حيث السعة أو من حيث الفخامة ، بمدينـة القيروان التى أصبحت أعظم عواصم المغرب . كما لم يعد مناسبا بالمملكة الأغلبية التى وطدت أقدامها فى افريقية وأصبح بلاطها منافسا لبلاط الخلافة فى بغداد . وأعاد زيادة الله البناء بالصخر والآجر والرخام ، تاركا محراب عقبة القديم بعد أن كساه كله بالرخام المخرم المنقوش بالكتابة وبغيرها من الزخرف ، من أسفله الى أعلاه(١٨٨) .

ولم يبخل زيادة الله فى النفقة عليه ، مما بلغ ٨٦ (ستة وثمانين)

---

(١٨٥) كتاب السياسة فى تدبير الرياسة . فى الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الاسلام ، تحقيق عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ١٩٥٤ ، فصل العدل ، ص ١٢٧ .

(١٨٦) ومن الأخبار الطريفة الخاصة بتلك التحديدات التى طرأت على الجامع منذ بناء عقبة ، ما كانت تثيره بين العصبيتين العربيتين الكبيرتين المضرية والقحطانية . هذا ما يفهم من ترجمة الفقيه عبد الله بن أبى حسان اليحصبى (اليمنى) الذى كان مقربا من زيادة الله . فبعدما قام زيادة الله باصلاحاته فى جامع القيروان مازحه قائلا : « عاد المسجد حضريا » . ويشرح صاحب المدارك ذلك بأن عقبة قرشى وزيادة الله تميمى فهما مضريان . هذا ، كما قال له زيادة الله مرة اخرى : « صيرنا آثاركم من الجامع » (المدارك ، ص ٤٨٤) .

(١٨٧) النويرى ، فى ترجمة ابن خلدون ، ج ٩ ، ص ٤١٢ .

(١٨٨) الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ١٦٣ ، وقارن وصف البكرى (الذى يعتبر أقدم نص كامل وصلنا عن بناء الجامع) ، ص ٢٤ .

ألف دينار . ويغلب الظن أنه هو الذي جلب له الأساطين الجميلة المجزعة بالبياض والسواد الشديدين(١٨٩) من المعابد القديمة والكنائس من أنحاء افريقية ، ومنها الساريتان الحمراوان اللتان توجدان قبالة المحراب ، واللتان وصفتا بأنه لا مثيل لهما في العالم(١٩٠) ، وان سبب حلهما الى حسان ابن النعمان(١٩١) .

ومسجد القيروان الجامع الحالي الذي اتفق على أنه بقي لنا كما تركه زيادة الله — بصرف النظر عن بعض التوسعات في بيت الصلاة ، مما يمكن أن يكون قد تحدث في فترات تالية لعهد زيادة الله — يشغل مساحة مستطيلة طوله حوالي ١٣٥ مترا ، وعرضه ٨٠ مترا ، ويحوى كلا من بيت الصلاة المغطى ، والصحن المكشوف . وبيت الصلاة يحوى ١٧ (سبعة عشر) رواقا طولية تمتد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، والرواق الأوسط منها أكثر اتساعا وأعلى ارتفاعا ، وتقوم على طرفيه الشمالي والجنوبي قبتان . والخط المستقيم بين القبتين يمثل اتجاه القبلة بالنسبة لاهل القيروان . وبلاطة المحراب العريضة تحمل على طرفيها قبتين هي الأخرى . أما الصحن فهو متسع جدا ، وتحيط به من جهاته الأربعة أروقة مزدوجة ، باستثناء الجهة الشمالية حيث تقطع المنارة تلك الأروقة .

أما المنارة فهي عبارة عن ثلاثة أبراج مربعة الشكل ، الواحد منها فوق الآخر . والثالث منها ، وهو العلوي ، تعطيه قبة مضلعة بديعة . ويلاحظ أن أضلاع البرج الأول ، الذي يظن أنه بني في خلافة هشام بن عبد الملك ، ليست رأسية ، بل هي تنحرف نحو الداخل في اتجاه القمة . وعرض هذا البرج الرئيسي ، ٥ر١٠ مترا ، وارتفاعه ١٩ مترا . أما ارتفاع المنارة بأدوارها الثلاثة فيبلغ حوالي ٢٥ مترا(١٩٢) .

والمنارة بكتلتها الضخمة ، وقامتها العريضة ، وهي قائمة في طرف الصحن المدثر بغلالة الأروقة تضفي على المكان زينة ذات جلال أخاذ . وبيت

---

(١٨٩) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٣ ، وقارن البكري ، ص ٢٤ .

(١٩٠) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٣ — ١٦٤ .

(١٩١) البكري ، ص ٢٤ ، وقارن الاستبصار ، ص ١١٤ (حيث يصفهما بالخضراوان ، وان كان البكري يذكر العمود الأخضر الذي اشتراه يزيد بن حاتم بمال جزيل — ص ٢٣) .

(١٩٢) انظر جورج مارسيه ، مختصر الفن الاسلامي (بالفرنسية) ، ج ١ ص ٢٦ — ٢٧ (حيث المقارنات مع معلومات البكري ، ص ٢٣) ، وقارن أحمد فكري ، المدخل لمساجد القاهرة ومدارسها ، ٣٠٢ — ٣٠٩ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٤٣٢ وما بعدها .

الصلاة ، كما يقول جورج مارسيه ، بغاية أعمدته التي لا تعد ولا تحصى ، وبأورقته التي يأتيها الضوء هاذئا من خلال الأبواب ، تحدث في النفس شعورا قويا ساحرا(١٩٣) .

وهكذا حق لزيادة الله الأول بن ابراهيم بن الأغلب أن يموت راضيا ، راجيا ثواب ربه ، في يوم الثلاثاء ١٤ رجب سنة ٢٢٣ هـ/١١ يونية ٨٣٨ م ، وله من العمر (واحد وخمسون) سنة ، بعد ولاية حافلة بجلائل الأعمال والخطوب ، استمرت لأكثر من ٢١ سنة(١٩٤) . وخلفه في ملك افريقية أخوه الأغلب أبو عقال .

أبو عقال الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب المعروف بخزر : (٢٢٣ - ٢٢٦ هـ/ ٨٣٨ - ٨٤١ م) :

الأمن على عهد الأغلب :

آل ملك افريقية بعد وفاة زيادة الله الأول الى أخيه الأغلب ، الذي كان في الخمسين من عمره ، والذي كانت قد آلت اليه أمور دولة زيادة الله منذ عودته من مصر ، كما تقول رواية النويري ، وان لم تشر بعد ذلك الى أي نشاط له(١٩٥) .

ولم يستمر حكم الأغلب أبي عقال الا أقل من ثلاث سنوات تمتعت البلاد خلالها بفترة من الأمن والاستقرار ، كما يقول الكتاب ، اذا استثنينا تلك الحملة التي وجهها في سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٨ م بقيادة قائده عيسى بن ريعان الأزدي ، ضد قبائل لواتة وزواغة ومكناسة من الخوارج في اقليم الجريد . ولقد انتهت الحملة بقتل تلك القبائل قتلا ذريعا ، حتى قيل أن عيسى أفناهم عن آخرهم ، فيما بين مدينتي قفصة وقسطيلية (توزر)(١٩٦) ، قبل أن

---

(١٩٣) أنظر جورج مارسيه ، مختصر الفن الاسلامي (بالفرنسية) ، ج ١ ص ٢٧ .

(١٩٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ، ترجمة ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٠ ، وقارن الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١٦٤ .

(١٩٥) انظر فيما سبق ، ص ٤٣ وص ٧١ - حيث الاشارة الى انه جعل أمور دولته الى الأغلب . أما عن عدم الاشارة الى نشاط الأغلب فيمكن ان يفسر بأن الأغلب كان قد رضي من أخيه العتيد بالسكوت عنه . الا اذا كان الأمر قد التبس على بعض الكتاب فخلطوا بين الأغلب ابن ابراهيم بن الأغلب وبين ابن عمه الوزير الأغلب بن عبد الله بن سالم المشهور بغلبون .

(١٩٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨٨ (الذي ينص على انهم خوارج) .

يعود بمغانمهم وأسلابهم ، كما يقول ابن الأثير(١٩٧) .

والحقيقة أن رواية كل من ابن الأثير ، وابن عذارى ، وابن خلدون ، والنويرى ، عن عهد أبى عقال ، تكاد تكون نفس الرواية على شىء من الاختصار أو الاسهاب ، فى بعض الفقرات ، ممـــا يوحى بأنهـــا منقولة عن الرقيق القيروانى ، وان كان ابن عذارى يذكر فى أحداث حملة سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٨م. ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان (الذى وصلتنا قطعة منه فى تاريخ الموحدين) .

خـــزر :

عرف أبو عقال الاغلب بلقب خزر ، مع أنه من المعروف أن تحريف اسم الأغلب على الطريقة المغربية الأندلسية هو « علبون » ، كما هو الحال بالنسبة لوزير زيادة الله وابن عمه الاغلب بن عبد الله بن الأغلب . ونحن لا نعرف الظروف التى أعطى فيها الاغلب لقب حرز الذى يعطيه الكتـــاب اياه(١٩٨) ، وهو من الأسماء المغربية المشهورة عند الزناتيين ، والتى تحرف عندهم فى شكل « خزرون » ، مما يحتمل معه أن يكون الاسم قد أعطى له محاباة للزناتية . ولا بأس أن يكون أعطى له للتفرقة بينه وبين ابن عمه الوزير غلبون .

العودة الى ضريبة العشر :

وخلال فترة حكمه القصيرة استتب الأمن بين الناس واستقرت أمور الجند بفضل الاجراءات التى اتخذها الاغلب ، والتى يشير اليها الكتاب سريعا عندما يقولون انه غير أحداثا كثيرة كانت قبله(١٩٩) . وابن الأثير يفسر تلك الأحداث التى غيرها بأنها كانت من المظالم(٢٠٠) ، مما يعنى أنها كانت تتعلق بالضرائب الثابتة التى قررها الأمير عبد الله بدلا من العشر الذى كان يمثل

---

(١٩٧) ابن الأثير ، سنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٣ — والنص هنا لا يذكر الا أنه سير سرية فى سنة ٢٢٤ هـ .

(١٩٨) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٧ ، النويرى - المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ أ ، الترجمة ج ١ ص ٤١٤ ، وقارن ابن الأثير سنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٣ حيث الكنية أبو عفان بدلا من أبى عقال (وهى من تحريف النساخ — أما اسم خزر فلا يذكره) .

(١٩٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٧ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ أ — ١١٢ ب ، الترجمة ج ١ ص ٤١٤ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٨ .

(٢٠٠) ابن الأثير سنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٣ .

الضريبة القانونية المعروفة بخراج الأرض ، والتي كانت تدفع عينا ، حسبما تحمله الأرض من الغلات(٢٠١) .

ضبط الجند والعمال :

أما عن الجند فتقول الرواية انه أحسن اليهم بمعنى أنه أجزل لهم العطاء ودفعه اليهم في مواعيده المقررة ، فكان ذلك سببا في قطع شغبهم ، كما تشير الرواية أيضا الى أن انقطاع الحروب في أيامه كانت من أسباب أمنهم .

أما عن عماله ونوابه في الأقاليم فقد كف أيديهم عن التطاول على أموال الناس ، وعما كانوا يرتكبونه من المظالم عن طريق زيادة رواتبهم ، ودفعها لهم في أوقاتها المقررة أيضا(٢٠٢) .

منع النبيذ :

والى جانب ذلك قام أبو عقال الأغلبي باجراء كان فيه ارضاء لمشايخ القيروان وعلمائها وعبادها ، كما كان له أثره الطيب في قلوب الناس ، وذلك أنه منع عمل النبيذ والخمر في القيروان(٢٠٣) ، بل وعاقب أيضا على بيعه وشربه(٢٠٤) ، بعد أن كان بعض فقهاء الحنفية يبيحونه، وبعد أن كان زيادة الله يعقد المناظرات في تحليل النبيذ وتحريمه(٢٠٥) .

وهكذا انتهت ولاية الأغلب الذي توفي في يوم الخميس ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٢٦ هـ/فبراير ٨٤١ م راضيا ، مرضيا عنه من الكتاب الذين شبهوه بجده وسميه الأغلب ، ليس من حيث الاسم فقط ، بل ومن حيث الخلق والخلق كذلك(٢٠٦) وخلفه ابنه أبو العباس محمد .

---

(٢٠١) انظر فيما سبق ، ص ٤١ ــ ٤٢ .

(٢٠٢) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٧ ، ابن الأثير ، سنة ٢٢٣ ، ج ٦ ص ٤٩٢ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ب ، الترجمة ج ١ ص ٤١٤ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٨ .

(٢٠٣) ابن الأثير ، سنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٢ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٣ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٤١٤ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٨ .

(٢٠٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٧ .

(٢٠٥) انظر فيما سبق ، ص ٦٩ .

(٢٠٦) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٤١٥ .

أبو العباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٦ هـ - ٢٤٢ هـ/ ٨٤١ - ٨٥٦ م) :

معالم العهـــد :

خلف الاغلب فى امارة افريقية ابنه أبو العباس محمـــد الذى بقى فى الملك مدة زادت على ١٥ (خمس عشرة) سنة ، كانت أهم أحداثها الداخلية مشاركة أخيه أحمد له فى الأمور ، ثم قيامه بانقلاب عليه استمر أكثر من سنة ، استعاد بعدها محمد سلطانه - وهى الأمور التى تدخل فى النزاع بين أفراد الأسرة المالكة من أجل الحكم .

أما عن أحوال البلاد فكانت هادئة مطمئنة ، لم يعكر صفوها الا بعض الاضطرابات التى قام بها قواد الجند فى المنـــاطق الثائرة دائمـــا ، وهى الزاب ، وتونس - وكان ذلك كرد فعل طبيعى لأزمة الحكم التى ثارت بين الأخوين . وعلى المستوى الدينى والادارى كان عهد أبى العباس محمد بن الأغلب ، هو عصر عظماء العلماء العباد ، مثل : أبى محمد عبد الله بن أبى حسان اليحصبى (توفى سنة ٢٢٧ هـ/٨٤٢ م) والبهلول بن عمر بن صالح (توفى سنة ٢٣١ هـ/٨٤٦ م) ، والامام سحنون بن ســـعيد (الذى ولى القضاء سنة ٢٣٣ هـ/٨٤٧ م ، وتوفى سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م) . أما عن السياسة الخارجية على عهد محمد بن الأغلب ، فقد تمثلت فى استمرار الفتوح فى صقلية ، وهو الأمر الذى خصصنا له فصولا تالية .

وأهم مصادرنا الأساسية هنا هو ابن عذارى الذى يهتم أكثر ما يهتم بالفتوح فى صقلية . أما ابن الأثير فروايته مبتورة بشكل غير عادى ، اذ لا يذكر الا خبر بناء مدينة أو حصن فى المغرب الأوسط قرب تاهرت ، قبل ذكر تاريخ وفاة الأمير بشكل تفصيلى ، وذكر أيام حكمه بالسنوات والأشهر والأيام ، مما يرجح أنه لخص مصدره ، وهو الرقيق ، تلخيصا مقتضبا ، الا اذا كانت النسخة التى وصلتنا من ابن الأثير ناقصة . وهذا يظهر من مقارنة رواية ابن الأثير برواية النويرى ، الذى ينقل هنـــا من الرقيق مباشرة . ورواية النويرى مليئة بالتفصيلات العجيبة فيما يتعلق بالصراع بين الأميرين الأخوين ، وهو الأمر الذى لا نجد له أثرا فى ابن الأثير . وهـــذا ما جعلنا نشكك فى أن تكون النسخة التى بين أيدينا من كتاب الـكامل قد وصلتنا كاملة . وهذا لا يمنع من أن يكون صاحب الكامل قد انتخب من الروايات ما رآه مناسبا ، وهو أهل لذلك .

ملك محدود المواهب ، حسن الطالع :

وأول ما يوصف به أبو العباس محمد بن الأغلب ، الذى كان فى الواحدة والعشرين من عمره عندما تولى الملك ، هو قلة العلم ، فهو ضعيف فى العربية ، ولا يعرف التفرقة بين المذاهب الكبرى ، كالحنفية والمالكية ، بل هو لايعرف موضوعها أصلا(٢٠٧) ، ولكنه كان مع ذلك مظفرا فى حروبه على من ناوأه(٢٠٨) .

وفى السنوات الأولى من امارته نعمت البلاد بالهدوء والسكينة ، اذ أنه اشرك أخاه أبا جعفر أحمد بن الأغلب فى الحكم ، فقلده كثيرا من الأعمال التى صار يدبرها له كاتبة نصر بن حمزة الجروى . وعهد محمد الأمير بالوزارة وتسيير دفة أمور المملكة الى الأخوين : أبى عبد الله محمد بن على بن حميد ، وأبى حميد أحمد بن على بن حميد . والظاهر أنه بينما كان الأمير محمد منكبا على الشراب والاشتغال باللهو والملاذ ، استبد ابنا على بن حميد بالأمور دونه مما أثار حقد أخيه أحمد . ومن الواضح أنه كان لحسد افراد بطانة أحمد لبنى حميد ، مثل : نصر بن حمزة الكاتب ، أثره فى توجيهه نحو الاستبداد بالسلطة دون أخيه الأمير(٢٠٩) .

انقلاب يديره أخوه أحمد :

وهكذا اتفق أبو جعفر أحمد بن الأغلب مع عدد من أعوانه وأهل بطانته على مفاجأة قصر الأمير محمد فى مدينة القصر القديم ، وذلك وقت الظهيرة من أحد أيام الصيف فى سنة ٢٣١ هـ/٨٤٤ م ، عندما يكون باب

---

(٢٠٧) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ب ـ الذى يرميه بانه كان من اجهل الناس . أما رواية ابن عذارى ، (المأخوذة من عريب وغيره) ، ج ١ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ، فهى تنص على أنه كان يكتب كلمة الظبي بالضاد « ضبى » وليس بالظاء ـ وهو الأمر المقبول الذى يحدث عند بعض المتعلمين فى أيامنا هذه . ولكن الرواية تخرج من حد النقد الى حد التشنيع ، عندما تقول ان الأمير الشاب اعتذر من ذلك بان فى كتابتها قولان : حسبما يقول كل من أبى حنيفة ومالك بن انس ، مما اثار عجب الحاضرين . وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٦ : حيث تنص الرواية على أنه كان كوسجا ؛ وجهه وجه خصى وليس فيه الا شعرات يسيره ، عقيما لا يولد له ، موصوفا بحلم وجود ، وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ١٠ .

(٢٠٨) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٤١٥ .

(٢٠٩) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ب ، الترجمة ج ١ ص ٤١٥ .

القصر خاليا من الحرس والبوابين . ونجح المتآمرون من رجال احمد في اقتحام أبواب القصر ، وبعد أن أغلقوها خلفهم هجموا على الوزير أبي عبد الله محمد بن علي بن حميد ، وقتلوه بأمر أحمد . وفي هذه الأثناء نجح الامير محمد في اللجوء الى قصر (قبة) عمه زيادة الله ، حيث لحق به أبو حميد أحمد بن علي بن حميد ، بينما هب رجاله الى مقاومة المغيرين . ولكن القتال لم يلبث أن توقف عندما أعلن رجال أحمد أنهم لم يخلعوا طاعة الأمير محمد ، وأنهم قاموا بعملهم هذا من أجل تحريره فقط من استبداد بني حميد الذين استأثروا ، دون الأمير ودون جنده ، بالأموال(٢١٠) .

وهنا أسقط في يد الأمير محمد ، فاضطر الى النزول الى مجلس العامة حيث أذن لأخيه أحمد ورجاله بالدخول عليه ، فدخلوا وهم في سلاحهم . ودارت بين الأخوين معاتبة مناسبة ، انتهت باعتذار أحمد ، واعلانه أن غرضه كان افشال مكيدة ابني علي بن حميد ، اللذين كانا يسعيان في الاستيلاء على السلطة . ولم يجد محمد بدا من مداراة أخيه ، والاغضاء عن فعلته ، وانتهى المجلس باعلان المصالحة بين الأخوين ، وتعهدهما بألا يغدر الواحد منهما بالآخر . وكان من شروط الصلح أن يسلم محمد الى أخيه أحمد ، أبا حميد بن علي شريطة ألا يقتله أو يصيبه منه مكروه ، وهو الشرط الذي لم يوف به أحمد ، اذ عذب أبا حميد وصادر أمواله ، ثم دبر قتله وهو في طريق نفيه الى مصر ، على يدي بعض المقربين اليه ، وهو أبو نصر الفتى ، أحمد موالي ابراهيم بن الأغلب(٢١١) .

استبداد أحمد بالسلطة :

وبذلك انتهى الامر باعتكاف الأمير محمد بمنزله منصرفا الى اللهو والشراب ، بينما استبد أخوه أحمد بالأمور ، فعظم قدره واشتد سلطانه ،

---

(٢١٠) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ب - ١١٣ أ ، الترجمة ، ج ٩ ص ٤١٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٨ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعمال ، قسم ٣ ص ٢١ .

(٢١١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٣ أ - ١١٣ ب - حيث تقول الرواية أن أخا الأمير أحمد أسر الى أبي نصر الفتى أن يسير بأبي حميد على طريق طرابلس نحو مصر ، وأن يقتله عندما يصل الى قلشانة . وهذا ما فعله الفتى اذ خنق أسيره حتى مات ، وحمله على نعش الى قلشانة ، وأحضر من شهد أنه لا اثر فيه ولا بجرح ، وقال : انه سقط عن الدابة فمات . وقارن الترجمة ، ج ١ ص ٤١٦ .

واستحوذ على كل دواوين الدولة ، فعزل حجاب محمد واتخذ لنفسه حجابا جددا ، كما اتخذ حرسا من العبيد والموالي بلغ عدد أفراده ٥٠٠ (خمسمائة) رجل يقفون ببابه • ثم انه رفـــع كاتبه نصر بن حمزة الجروى الى رتبـــة الوزير ، وهكذا صار الأمر كله له ، ولم يبق لمحمـــد من الامارة الا مجرد الاسم(٢١٢) •

محمد يستعيد سلطانه :

ولكنه لم يقدر لاحمد بن الاغلب أن يستمتع طويلا باســـتبداده بحكم افريقية ، ففي السنة التالية (٢٣٢ هـ/٨٤٥ م) دارت عليه الدائرة ، وعادت الأمور الى ولي الامر الشرعي • فكما كان التحاسد بين رجال حاشية كل من الأخوين سببا فيما قام بينهما من الخلاف ، كان التحاسد أيضا بين رجال حاشية أحمد هو السبب المباشر للانقلاب المضاد الذي أعاد الأمور الى نصابها المشروع • فقد كان استيزار أحمد لكاتبه نصر بن حمزة الجروى ، سببا في اثارة الحقد في قلب واحد من اقرب المقربين اليـــه ، وهو داود بن حمزة الوادري ، الذي كان يرى أنه أولى بالتقديم من الجروى ، على أســـاس أنه كان المدبر الحقيقي للانقلاب •

وعن هذا الطريق فسدت نية الوادري ، وأخذ يعمل ضد أحمد ويراسل أخاه الأمير محمد • وكان غدر احمد بمثابة هزة نفسية عميقة زلزلت كيان الأمير محمد الى الأعمـــاق ، فترك اللهو والهزل ، وأخـــذ في تدبير الحيلة لاسترجاع سلطانه المفقود • ومهد محمد للأمر بان اخذ يبعث الى أعيـــان قرابته من الأسرة الأغلبية وقواد جنده وعبيده ، يسالهم معونته ضد أخيه ، ويعدهم الوعود الجميلة ، ويمنيهم أحسن الأماني • وكان ممن نجح محمد في استمالته الى جانبه ، قريبه القائد أحمد بن سفيان بن سواده التميمي الذي كان اخوه خفاجه في حبس أحمد ، والذي أحسن التدبير في نصرته • ودار الهمس حول أحمد : ان أخاه الامير يدبر الاطاحة به ، ولكنه كان واثقا من أنه أتقن تدبير الأمور بحيث لم يبق مجال لأخيه للكيد له • وكان محمد الأمير في الوقت الذي يحيك فيه مكيدته يتظاهر امام رسل أخيه بالانهماك

---

(٢١٢) النويري • المخطوط • ج ٢٢ ص ١١٣ ب والترجمة ج ١ ص ٤١٧ • وقارن ابن عذاري ج ١ ص ١٠٩ – حيث يقول النص • وقبض احمد على ما شاء ، واستصفى من اراد ، وعذب من احب ، واعطى الرجال • واستوزر نصر بن حمزة • وانظر ابن الخطيب • اعمال الأعلام • قسم ٣ ص ٢١

في الشراب(٢١٣) .

وفي اليوم الذي قرر محمد توجيه ضربته الى استبداد أخيه به ، أرسل الى أحمد بن سفيان بن سوادة اشارة البدء . فجعل ابن سوادة يرسل أتباعه من العبيد والموالي الى مدينة القصر القديم ، عليهم الأكسية ويحملون جرار الماء ، كأنهم يقومون بالخدمة ، الى أن اجتمع منهم قبل الزوال في دار ابن سوادة ثلاثمائة رجل ، أعطاهم السلاح . هذا ، كما كانت جماعة أخرى من أنصار محمد قد واعدوه بالنزول في قصر الماء عند الغروب ، وأن تكون اشارة البدء بتنفيذ الهجوم هي : أن يسمعوا الطبل ويروا الشمع مشتعلا في أعلى قبة قصر محمد .

والظاهر أن أحمدا كان قد اطمأن تماما الى فشل أخيه ، والى احكام تدبيره للأمور ، حتى أنه بدأ هو الآخر يتصرف الى اللهو والشراب ، بل انه كان قد دخل الحمام في اليوم الذي اختير للقيام بالانقلاب المضاد . ولما كان دخول الحمام في ذلك الوقت يتطلب الكثير من الوقت ، كما كان يتطلب الراحة بعد الخروج منه ، فان ذلك يعني أن أصحاب محمد كانوا على دراية بما يفعله أحمد في ذلك الوقت ، وأنهم أحسنوا اختيار ساعة التنفيذ . وتقول الرواية ان عيون أحمد أي جواسيسه عرفوه بما يدبر له ، بل وأخبروه أن المتآمرين سيجتمعون عند قصر الماء . ولكن يظهر أن جواسيسه لم يعرفوا ساعة الصفر ، كما نقول الآن ، اذ أنه أرسل خيلا الى قصر الماء وقت الظهيرة ، فلم يجدوا أحدا ، مما دعاه الى تكذيب تلك الأخبار وعدم الاكتراث لها .

أما عن ساعة الصفر التي اختارها محمد ، فكانت ساعة الغروب . فما أن قربت صلاة المغرب حتى وجه خادما له الى حرس أخيه الموجودين ببابه يدعوهم الى مأدبة يبترهم بها الأمير . وعندما اجتمعوا قدم لهم الطعام والشراب ، فلما عمل فيهم الشراب احتال على أخذ سيوفهم بحجة أنه يجليها لهم . ومع أذان المغرب ، وهو وقت اغلاق أبواب القصر ، أتاهم رجاله وعلى رأسهم عامر بن عون القرشي ، فقتلوهم عن آخرهم . ثم أمر محمد بالطبول

---

(٢١٣) النويري : المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٣ أ ب ، الترجمة ج ١ ص ٤١٧ ؛ الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٢ ، وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم ٣ ص ٤٢ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ (حيث الرواية المقتضبة كثيرا ما تشير الى استرجاع أبي العباس محمد لسلطانه شطلا في سنة ٤٣ (٢) هـ) .

ضربت ، وبالشموع في أعلى القمة فأوقدت ، وأقبل أصحابه من جهة قصر الماء ومن كل ناحية ، وخرج أحمد بن سفيان بن سوادة بمن كان في داره من العبيد والموالى ، فجعل يتتبع رجال أحمد أينما وجدهم ، واستمرت عملية المطاردة الرائعة طوال الليل --

ومع بزوغ فجر اليوم التالى بعث أحمد بن سفيان الى القيروان يستنصر بأهلها ، فأقبلوا في جموع عظيمة ، وهم ينادون بطاعة محمد • وهنا انهزم أصحاب أحمد هزيمة نهائية ، وهرب هو الى داره • وفكر أحمد في الاستعانة بقريبه خفاجة بن سفيان بن سوادة التميمى ، الذى كان فى حبسه منذ سبعة أشهر ، ففكه من السجن ، وطلب منه الغوث دون أن يترك له الوقت لمعاتبته • وبشهامة فرسان ذلك العصر طلب خفاجة فرسا وسلاحا ، وخرج لتوه ينظر فيما يمكن أن يقدمه لناكر الجميل الذى استغاث به • ولكن أهل القيروان أقنعوه بألا جدوى من ذلك ، فعاد الى أحمد بن الأغلب وطلب منه الاستسلام لأخيه على الأمان قبل أن يهلك • ونجح خفاجة فى كسب الأمان له من محمد فعلا •

وابتهاجا بالنصر أغدق الأمير محمد على أهل القيروان الذين رجحوا كفته ، بالخلع حتى أتى على كل ما كان فى خزائنه وخزائن حرمه ، ووصلهم بالأموال حتى نفد كل ما كان لديه • أما عن أخيه أحمد فانه نفاه الى مصر ، ومن هناك سار الى العراق حيث مات(٢١٤) •

من نتائج الصراع بين الأخوين :

اضطراب بلاد الزاب :

وهكذا انقضى الاضطراب الذى ترتب على النزاع بين أفراد الأسرة الأغلبية من أجل العرش ، واستقرت الأمور للأمير محمد بن الأغلب من جديد ، ولم تبق الا بعض ذيول هذا الاضطراب فى الأقاليم • ففى اقليم الزاب انتهز سالم بن غلبون ، الذى كان واليا على الاقليم من قبل محمد ، فرصة الصراع بين الأخوين وشق عصا الطاعة • وبعد أن استتبت الأمور لمحمد ظل سالم على عصيانه ، مما جعل الأمير محمد يعزله عن ولايته فى تلك السنة (٢٣٢ هـ/٨٤٥ م) •

---

(٢١٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٤ ب ، ١١٥ أ ، الترجمة ، ج ١ ص ٤١٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٩ ، وانظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٢ ، وقارن ابن الخطيب ، اعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٢٢ •

. والظاهر أن والى الزاب المعزول استهان بأمر محمد حتى أنه خرج فى السنة التالية (٢٣٢ هـ/٨٤٦ م) يريد دخول القيروان ، ولكنه عدل أثناء الطريق فصار إلى مدينة الأربس ، الا أن أهلها منعوه من دخولها ، فيما جعله يتوجه الى باجة التى نجح فى دخولها والسيطرة عليها . وهنا سير اليـــه الأمير محمد جيشا كثيفا بقيادة خفاجة بن سفيان الذى ضرب عليه الحصار فى باجة ، وشدد عليه الحرب حتى ألجأه الى الفرار ليلا . ولم يترك خفاجة غريمه يلوذ بالفرار اذ تبعه فى صباح اليوم التـــالى ولحقه وقتله ، وسير برأسه الى الأمير فى القصر القديم . ولم يكتف محمد بقتل سالم بن غلبون ، بل انه انتقم من ابنه زهر الذى كان محبوسا عنده فى القصر فأمر بضرب عنقه(٢١٥) .

اضطراب تونس : ثورة القويع :

هذا ، كما عرفت منطقة تونس مرة أخرى الاضطراب بفضل جندها الذى لا يركن الى الهدوء ، وذلك خلال السنوات الثلاثة التالية . ففى سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م ثار عمرو بن سليم التجيبى ، المشـــهور بـ « القويع » بتونس ، ولم ينجح خفاجة بن سفيان بن سوادة ، الذى حاصره بقية السنة ، فى كسر شوكته(٢١٦) . وفى السنة التـــالية ٢٣٥ هـ/٨٤٩ م سير الأمير محمد بن الأغلب قائده محمد بن موسى المعروف بعريان الى تونس لقتـــال عمرو بن سليم القويع . وبالقرب من تونس خرج القويع للقـــاء عريان ، وصدمه صدمة جعلت الكثيرين من موالى الأمير الأغلبى يلجـــأون الى القويع الذى اشتد بهم ، وحمل على محمد بن موسى ، « عريان » ، فهزمه هزيمـــة منكرة وأسر بعض كبار قواده . وانتهى القتال بمقتل ابن موسى بعـــد أن انكسرت رجله ، وعودة فلول الجيش مهزومين الى القيروان .

وهكذا اشتدت شوكة القويع ، ولم يتمكن من هزيمته فى العام التالى (٢٣٦ هـ/٨٥٠ م) الا خفاجة بن سفيان الذى خرج اليه فى جيش كثيف قاتله قتالا شديدا ، قتل أصحاب القويع فيه مقتلة عظيمة . وأدرك بعض

---

(٢١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢١٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٠ . والقويع طائر صغير له عرف كالتبة يعرف بالهدهد . وانظر ابن الأثير الكامل سنة ٢٣٤ ، ج ٧ ص ٤٤ — حيث القراءة القريع . أما فى ترجمة الحلبية للقاضى عياض فنجد القراءة بـ القويع ، وكذلك فى رياض المالكى (ص ٢٨٠) الى حد صورة بالتصغير .

جند القيروان القوبع وهو ينهزم فقبضوا عليه وضربوا عنقه ، وحمل رأسه الى الأمير محمد الذى كافأ قاتل القوبع مكافأة سنية ، وخلع عليه ٠

ولم تستسلم مدينة تونس الى خفاجة الا بعد أن دخلها بالسيف يوم السبت ١٠ من ربيع الأول/٢١ أكتوبر ، فاستباحها وسبى نساءها ، وعاد الى القيروان حيث كساه محمد بن الأغلب(٢١٧) ، فكأنه كان عائدا من بعض غزواته فى أرض العدو ٠

استكمال العمل فى رباط سوسة ، وبناء « العباسية » قرب تاهرت :

أما عن أهم الاعمال العمرانية التى تنسب الى الأمير محمد بن الأغلب ، فبناؤه للقصر الذى كان بسوسة فى سنة ٢٣٠ هـ/٨٤٤ م ، كما تقول رواية النويرى(٢١٨) ٠ والظاهر أن الامر كان يتعلق باستكمال العمل الذى كان قد بدأه زيادة الله فى الرباط أو بناء الأسوار ٠

والى جانب الحرب فى صقلية ، نظن أن العلاقات بين الأغالبة وبين الرستميين كانت قد توترت الى حد الأعمال الحربية أو التهديد باستخدام القوة ٠ ذلك ما يفهم من الرواية التى تقول ان الأمير محمد قام بانشاء مدينة جديدة قرب تاهرت سماها « العباسية »(٢١٩) ، وهو الاسم الذى أعطاه جده ابراهيم بن الاغلب لمدينة القصر القديم ٠ ومن الواضح أن بناء مدينة اغلبية فى قلب المملكة الرستمية يعنى اتخاذها قاعدة عسكرية امامية يمكن منها تهديد الدولة الاباضية ، وهذا ما لم يغب عن الرستميين الذين دبروا تخريب العباسية الجديدة ، فدمروها بالنيران(٢٢٠) ٠ وكانت مناسبة استغلها الرستميون للتقرب من الأمويين فى الأندلس ، حتى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط بن هشام بعث الى الامام أفلح بن عبد الوهاب بمائة الف درهم ، كأنها مشاركة منه فى « المجهود الحربى » ، كما يقال الآن ، ضد خصمهم المشترك ، ممثل بغداد فى افريقية ٠

---

(٢١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٠ ، وانظر ابن الأثير سنة ٢٣٤ ، ج ٧ ص ٤٤ ٠

(٢١٨) النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٥ ا ٠

(٢١٩) ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٣٤ هـ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ (حيث يجعل بناء المدينة فى سنة ٢٢٧ هـ/٨٤١ م) ٠

(٢٢٠) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠١ ، وهو الأمر الذى لا نجد له ذكرا فى التواريخ التاهرتية على عهد الامام افلح (١٩٨ — ٢٤٧ هـ) ٠ انظر فيما بعد ، ص ٢٣٧ وما بعدها ٠

ازدهار المالكية على أيام محمد بن الأغلب :

والى جانب عناية الأمير محمد برباطات العباد ـ رغم ما ينسب اليه من الجهل أو قلة العلم ـ فقد كان من حسن حظه أنه عاصر خلال حكمه عددا من كبار أئمة المالكية من أهل افريقية ، مثل : عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (توفي ٢٢٧ هـ/٨٤١ م) الذي كان يحضر مناظرات أبي محرز وأسد بن الفرات ، أيام زيادة الله(٢٢١) ، كما شهد حكمه السنوات الأخيرة للبهلول بن عمر بن صالح الفقيه (توفي سنة ٢٣٠ هـ/٨٤٤ م) الذي سمع من مالك وطبقته(٢٢٢) .

وبعد ذلك يكفيه فخرا أنه ، بعد أن تخلص من استبداد أخيه أحمد ، عهد في سنة ٢٣٣ هـ/٨٤٧ م بقضاء القيروان الى امام المالكية ، في افريقية والمغرب وفقيههم ، وهو : سحنون بن سعيد التنوخي ، بعد أن عزل القاضي الحنفي عبد الله بن أبي الجواد ، صهر أسد بن الفرات (زوج ابنته) الذي كان سحنون يكرهه بسبب قوله بخلق القرآن ، ويسميه بفرعون هذه الأمة وجبارها ، وظالمها(٢٢٣) .

الامام سحنون (١٦٠ هـ/٧٧٧ م ـ ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م) :

شبابه وتكوينه العلمي :

وسحنون أصله من عرب الشام ، قدم أبوه سعيد الى افريقية في جند حمص(٢٢٤) . ولقد أخذ سحنون العلم في شبابه في تونس على كبار فقهائها من تلامذة الامام مالك ، مثل : أبي خارجة عنبسة الغافقي (توفي في ربيع ٢ سنة ٢١٠ هـ/يوليه ـ أغسطس ٨٢٥ م)(٢٢٥) والبهلول بن راشد التميمي ، عابد افريقية وزاهدها الذي قيل ان شهرته وصلت الى سمرقند (توفي

---

(٢٢١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٨ ، المدارك ، ص ٤٨٤ ، قطب السرور للرقيق ص ٤٨٦ .

(٢٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٨ .

(٢٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٩ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٨ . وقارن ابن خلدون ، ج ص ٢٠٠ (حيث يجعل ولاية سحنون سنة ٢٣٤ هـ) .

(٢٢٤) المدارك ، ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٨٦ ـ ٨٧ ، واسمه الحقيقي عبد السلام أما سحنون فلقبه ، فهو اسم طائر حديد البصر سمي به لحدته في المسائل .

(٢٢٥) المدارك ، ص ٨٦ وما بعدها ، تراجم اغلبية ، ص ٧٨ ، ٨٢ .

سنة ١٨٣ هـ/٧٩٩ م)(٢٢٦) ، وعلى بن زياد التونسي العبسي ، أول من أدخل موطأ مالك في افريقيـــة وجامع سفيان (توفى ١٨٣ هـ/٧٩٩ م)(٢٢٧) ، وغيرهم .

واذا كان الشك يحوم حول لقاء سحنون لمالك بن أنس ، اذ قيل انه سار الى مصر والحجاز في سنة ١٨٨ هـ/٨٠٣ م أى بعد وفاة مالك (١٧٩ هـ/٧٩٥ م) ، ثم تدارك الكتاب ذلك فيما بعد فقالوا بل في سنة ١٧٨ هـ/٧٩٤ م أى في آخر أيام مالك(٢٢٨) ، فالمهم انه أحد من أصحاب مالك في مصر من العلماء . ومن أشهر من أخذ عنهم في مصر ابن القاسم ، وابن وهب ، وأشهب ، وطليب بن كامل ، وعبد الله بن عبد الحكم وغيرهم . وبعد ذلك سار الى الحجاز حيث أخذ عن المدنيين من تلامذة امام دار الهجرة ، قبل أن يعود الى افريقية في سنة ١٩١ هـ/٨٠٦ م(٢٢٩) .

ولقد برع سحنون في فقه مالك بن أنس حتى قيل انه كان افقه من أصحاب مالك كلهم ، وأن ابن القاسم ، وهو امام المالكية في مصر ، طلب اليه أن يقيم عنـــده بطلب العلم(٢٣٠) ، وان العلم كان في صدر سحنون كسورة من القرآن محفوظة عن ظهر قلب(٢٣١) . والى سحنون يرجع الفضل في نشر المذهب المالكي في افريقية ـ بفضل كتابه المعروف بالمدونة ، الذى صحح به كتب أسد بن الفرات المعروفة بالأسدية(٢٣٢) ، فحققها وشرحها

---

(٢٢٦) المدارك ، ص ٣٣٠ وما بعدها ، تراجم أغلبية ، ص ٢٧ ، ٢٩ ، ٤٠ ب وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٩١ وهـ ١٧٤ .

(٢٢٧) المدارك ، ص ٣٢٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٢١ ، ٢٥ .

(٢٢٨) انظر المدارك ، ص ٥٨٥ (حيث يضعه القاضي عياض رغم ذلك في طبقة من انتهى اليه فقه مالك ولم يروا أن يسمعوا منه . وقارن تراجم اغلبية ، ص ٨٧ .

(٢٢٩) المدارك ، ص ٥٨٧ ، تراجم اغلبية ، ص ٨٨ . وتاريخ عودته الى افريقية سنة ١٩١ هـ/٨٠٦ م حيث كان يسمع منه اهل اجدابية ، وهو في الطريق الى البلاد التونسية . وهي نفس السنة التي توفي فيها ابن القاسم ، تدل على أن سحنون لم تتهيأ له فرصة لقاء مالك بن انس الذى توفى في سنة ١٧٩ هـ/٧٩٥ م ـ خاصة وأن مترجمى سحنون يقولون انه سافر الى المشرق وعمره ٢٥ سنة ، وعاد وعمره ٣٠ سنة ، بمعنى أن رحلته استغرقت حوالى ٥ سنوات فقط . وهذا يجعل بدء رحلته المشرقية في سنة ١٨٨ هـ/٨٠٣ م أقرب الى الصحة من سنة ١٧٨ هـ/٧٩٤ م المقترحة حتى تكون قبيل وفاة مالك . وهذا ما يقول به أبو العرب فعلا (ط . تونس ص ١٨٥) ثم المالكى (ج ١ ص ٢٥٠) .

(٢٣٠) المدارك ، ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٠ .

(٢٣١) المالكى ج ١ ص ٢٥٣ ، المدارك ، ص ٥٩٠ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٦ .

(٢٣٢) المدارك ، ص ٤٦٩ ، تراجم اغلبية ، ص ٥٩ .

وبوبها ونظمها • وفى ذلك يقال ان أسد بن الفرات نفسه نصح بالاخذ عن سحنون ، بعد أن خرج هو الى غزو صقلية(٢٣٣) • كل ذلك رغم أن المذهب كان قد غمر البلاد قبله بفضـــل الرواد المالكية الأوائل • وفى ذلك يقول مترجمو سحنون : انه لما قدم بذلك المذهب صار زمانه كأنه مبتدأ قد أمحى ما قبله ، وأن أصحابه كانوا سرج أهل القيروان(٢٣٤) •

سحنون ناسكا : على مذهب أهل المدينة :

والى جانب العلم والفقه عرف سحنون بالورع الصادق ، والزهادة فى الدنيا ، والصرامة فى الحق ، لا يخاف فى الله لومة لائم(٢٣٥) ، ولذلك قيل فيه انه راهب هذه الامة ، وأنه كان أهيب فى القلوب من الملوك(٢٣٦) •• ولم يعمل سحنون على نشر مذهب مالك فقط ، بل انه أخذ بمذهب أهل المدينة فى كل شىء حتى فى العيش ، فكان مقتصدا فيه : على قدر ذات اليد(٢٣٧) • وكان قصده الأول من ذلك هو الا يحتاج الى السلاطين أو رجال الدولة(٢٣٨) • على أساس شكه فى أن أموال السلطان تأتى من أبواب حلال •

وهذا ما دعا الفقهاء الى تسمية كثير من الضرائب التى كانت تعرضها الدولة بالمظالم وبالمغارم ، لانها كانت تجمع على غير وجهها الشرعى ، كمـــا رأينا فى الاصلاح الذى قام به الامير عبـــد الله بن ابراهيم فى مال العشر عندما حدده بـ ٨ (ثمانية) دنانير على كل زوج تحرث من البقر ، ســـواء أنتجت الأرض أم لم تنتج ، وهو الأمر الذى كانت العودة عنه كأنها عودة الى العدالة والخير(٢٣٩) •

---

(٢٣٣) المدارك ، ص ٤٧٢ ، ٥٩٢ (يقول انه خرج الى العراق) ، تراجم اغلبية ص ٩٥ •

(٢٣٤) المدارك ، ص ٥٩١ ، ٦١٣ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٣ ، ٩٤ ، ١٢٠ •

(٢٣٥) أبو العرب (ط • تونس) ، ص ١٨٤ ، المالكى ، ج ١ ص ٢٤٩ ، المدارك ، ص ٥٩٢ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٤ •

(٢٣٦) المدارك ، ص ٥٩٢ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٤ •

(٢٣٧) المالكى ، ج ١ ص ٢٦٣ ، المدارك ، ص ٥٩٣ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٦ •

(٢٣٨) المدارك ، ص ٥٩٤ ـ ٥٩٥ ، وانظر تراجم اغلبية ، ص ٩٨ : حيث كان يشترى كل يوم ربع رطل لحما ثم تركه اقتداء بالصالحين ، ص ١٢٦ ـ حيث لا يشرب من المواجل (مصانع الماء أى خزاناتها) التى يبنيها السلطان بجورها ، وان أجاز ذلك للناس على أساس انها حجارة جمعها السلطان ، وأجرى الله فيها الماء • وقارن المدارك ص ٦١٨ ـ ٦١٩ •

(٢٣٩) انظر فيما سبق ، ص ٤١ ـ ٤٢ ، ٧٧ ، ٧٨

وفي هذا الباب كان سحنون يرى أن ترك الحرام أفضل من جميع عبادة الله(٢٤٠) . ولهذا كان سحنون يحض على العمل وكسب المرء رزقه بعرق جبينه ، وكان يقول أعطو الاجير حقه قبل أن يجف عرقه(٢٤١) . وكان سحنون قدوة في ذلك ، يضرب لطلابه وأهل عصره المثل في شرف العمل . فكان يخرج لفلاحة أرضه وقت مرض خادمه ، وعلى كتفه المحراث ، وبين يديه زوج البقر . وعندما يقوم احد طلابه مقامه حتى لا يحرم أصحابه من طلب العلم يبقيه الى مائدته ، وان كانت الوجبة مكونة من خبز شعير وزيت قديم ، قبل أن يسمعه العلم الذى فاته : وحده(٢٤٢) .

وهكذا كان سحنون قدوة في الجد والنشاط في العمل الجثماني ، كما كان مثالا في الزهد والتقشف . ولم يكن زهده عن فقر ، بل عن تضحية وايثار للغير . فقد كان من طبقة الزهاد الذين وطدوا قاعدة : ان الجود هو أصل الوجود . وفي ذلك يقال انه كان يتصدق بالثلاثين دينار دفعة واحدة ، وهو المبلغ الذى توجب فيه الصدقة(٢٤٣) . وكان يصرف بطائق الصدقة للمحتاجين ، كما تصرف صكوك المصارف في أيامنا هذه ، بكل ثمن الزيتون الذى باعه ، وهو ٣٠٠ (ثلاثمائة) دينار(٢٤٤) . أما عن غلة أرض سحنون من الزيتون ، التي بلغت ٥٠٠ (خمسمائة) دينار في السنة ، فكان يبددها جميعا في أعمال البر والصدقة ، فما كانت تنقضي السنة الا والديون عليه(٢٤٥) . وهكذا لم يكن من الغريب على سحنون ، صاحب هذه الأمثولات. أن يرفض بوليته القضاء طوال عام بأكمله(٢٤٦) . ولم يكن من الغريب على الأمير محمد بن الأغلب أن يتمسك بذلك العالم الزاهد ، الذى يرفض مال

---

(٢٤٠) انظر تراجم اغلبية ، ص ١٢٨ - حيث نقرأ تتمة النص : وترك دانق مما حرم الله افضل من ٧٠ (سبعين) الف حجة ٠٠٠ وافضل من سبعين الف فرس في سبيل الله .. ومن سبعين الف بدنة يهديها الى بيت الله العتيق ، وافضل من عتق سبعين الف رقبة مؤمنة من ولد اسماعيل . وقارن المالكي ، ج ١ ص ٢٥٩ .

(٢٤١) المدارك ، ص ٥٩٩ . تراجم اغلبية ، ص ١٠٣ .

(٢٤٢) المالكي ، ج ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، المدارك ، ص ٥٩٤ . تراجم اغلبية ، ص ٩٧ .

(٢٤٣) المالكي ، ج ١ ص ٢٦١ ، المدارك ، ص ٦١٩ ، تراجم اغلبية ، ص ١٢٧ .

(٢٤٤) المدارك ، ص ٦٢١ . تراجم اغلبية ، ص ١٢٧ ، ١٣٠ .

(٢٤٥) المدارك ، ص ٦١٩ تراجم اغلبية ، ص ١٢٨ .

(٢٤٦) المالكي ، ج ١ ص ٢٧٣ .

الأمراء ، ويأكل خبز الشعير بالملح والزيت ثم يتصدق بأمواله .

وفي زهد سحنون تقول الروايات أيضا انه كان يركب بلجام حديد دون فضة[٢٤٧] ، ويلبس الفرو والخشن من الثياب[٢٤٨] ، والبرنس الأسود في المطر والبرد[٢٤٩] . وكان طلبة العلم في مجلسه يقعدون أمام باب داره على الأرض الا من يحضر الحصير منهم[٢٥٠] . وكان سحنون يمر في الأسواق يسلم على الناس[٢٥١] ، ويرى أن مداراة الناس هي رأس الايمان[٢٥٢] .

هكذا حق للأمير أن يتشبث به لولاية القضاء ، وأن يبلغ تشبثه الى حد ارغامه على ذلك ، تحت التهديد والوعد والوعيد[٢٥٣] .

ولاية سحنون القضاء :

وهذا لا يعني أن امام افريقية وراهب المغرب ، الذي قال لابنته عندما قبل تولية القضاء : « اليوم ذبح أبوك بغير سكين »[٢٥٤] ، قد قبل الوظيفة المرموقة ، وهو مغلوب على أمره . وذلك أنه لم يقبل القضاء الا بعد أن أعطاه الأمير كل ما طلب ، وأطلق يده في كل ما رغب فيه ، وخاصة فيما يتعلق بنفاذ أحكامه على أهل الأمير وقرابته وأعوانه ، بل ان الأمير نفسه طلب اليه أن يجري الحق على شخصه أيضا[٢٥٥] .

تنظيماته القضائية :

درجات القضاء :

والحقيقة أن ولاية سحنون للقضاء لم تعتبر رفعا للواء الحق ، وايذانا بسيادة القانون والعدل في افريقية فقط ، بل انها كانت أيضا بداية لتنظيمات

---

(٢٤٧) المدارك : ص ٥٩٤ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٦ ، المالكي ، ج ١ ص ٢٦٤ .
(٢٤٨) المالكي ، ج ١ ص ٢٦٤ ، تراجم اغلبية ص ٨٩ ، ١٢٦ .
(٢٤٩) المالكي ، ج ١ ص ٢٦٤ ، المدارك ، ص ٥٩٤ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٦ .
(٢٥٠) المدارك ، ص ٥٩٤ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٧ .
(٢٥١) المدارك ، ص ٥٩٥ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٨ .
(٢٥٢) تراجم اغلبية ، ص ١٢٠ .
(٢٥٣) المالكي ، ج ١ ص ٢٧٣ ، المدارك ، ص ٥٩٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٩ .
(٢٥٤) المالكي ، ج ١ ص ٢٧٣ ، المدارك ، ص ٥٩٧ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٠ .
(٢٥٥) المالكي ، ج ١ ص ٢٧٣ ، المدارك ، ص ٥٩٦ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٠ .

قضائية لم تعرفها البلاد قبل قضاء سحنون · فالى سحنون يرجع الفضل في تقسيم سلطات القضاء الى ثلاثة فروع ، هي :

١ ـ القضاء العادي : وهو ما يرجع الى القاضي أصلا ، ومنه يتفرع :

٢ ـ القضاء العالي : الخاص برجال الدولة وقرابة الأمير ، وهو المسمى ب « المظالم » ·

٣ ـ القضاء العاجل (أو المستعجل) : وهو الخاص بالفصل في القضايا السريعة ، مثل المخالفات أو الجرائم التي ترتكب في الأسواق ، والتي كانت تتطلب الحكم السريع في موضع الحادثة نفسها ، مما قد لا يتمكن منه القاضي الذي كان يجلس في المسجد الجامع أو في داره ، وهو الذي سمي بالحسبة ـ وكان الحكم فيه من اختصاص أحد اعوان القاضي ، وهو المحتسب ·

اعوان القاضي :

فقبل أن يجلس سحنون للقضاء أمضى أياما يبحث فيها عن الأعوان المناسبين الذين يمكن أن يساعدوه في القضاء · وبدأ باتخاذ الفقيه الحنفي سليمان بن عمران ، الذي كان هو نفسه قد رشحه للقضاء(٢٥٦) ، كاتبا يكتب له في قضائه(٢٥٧) · وذلك قبل أن يعينه معاونا له في اقليم بجاية وباجة والأربس(٢٥٨) ·

والى جانب الكاتب الذي كان يدون سجل الاحـكام ، ويحتفظ بقوائم الشهود العدول ، اتخذ سحنون له الأمناء الذين يعاونونه في التعرف عـلى أحوال المتقاضين والشهود ، والذين كان يعهد اليهم بحفظ الودائع ـ التي كانت قبلة ، تحفظ في بيوت القضاة ـ كما اتخذ الأمناء في البوادي أيضا، يكاتب يكتب اليهم بما يريد · وكان القضاة قبله يكاتبون الصالحين من أهل البادية فيما يريدونه من الأمور(٢٥٩) ·

---

(٢٥٦) انظر المدارك ، ص ٥٩٥ ـ ٥٩٦ ، تراجم الغلبية ، ص ٩٩·

(٢٥٧) انظر المدارك ، ص ٥٩٨ ، تراجم الغلبية ، ص ١٠٢ ·

(٢٥٨) المدارك ، ص ٥٩٨ ، تراجم الغلبية ، ص ١٠٢ ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ٢٧٥ · عن ولاية ابن عمران الملقب بعروقه للقضاء بعد سحنون ، انظر فيما بعد ، ص ١٠١ ، وعن نزاعه مع محمد بن سحنون ، انظر فيما بعد ، ص ١٠٨ وما بعدها ·

(٢٥٩) انظر المدارك ، ص ٥٩٦ ، ٦٠٠ ، تراجم الغلبية ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ، وقارن المالكي ج ١ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ·

ولما كان سحنون قد اشترط على محمد بن الأغلب الا يأخذ لنفسه راتبا ولا مكافأة من مال الدولة على قضائه ، وذلك انسجاما مع المبدأ الذي كان يراه في عدم شرعية مال السلطان ، فانه اشترط أن تكون رواتب مساعديه ، من : الكتاب والأعوان والقضاة سواء كانوا في القيروان أو في الأقاليم ، من مال الجزية المفروضة على أهل الذمة(٢٦٠) مما يعني أنه كان يرى أن ضريبة أهل الكتاب هي الضريبة الشرعية الوحيدة التي لم يتخللها الغش في ذلك الحين .

القضاء والأمر بالمعروف :

وكان من الطبيعي بالنسبة لرجل سيرته تلك أن يقيم من نفسه آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر . وهو لم يكن يفعل ذلك في مجلس القضاء فقط : عندما كان يؤدب الخصم اذا طعن على الشاهد(٢٦١) ، أو عندما كان يؤدب الناس على الايمان التي لا تجوز ، كما في أيمان الطلاق والعتاق وما شابهها(٢٦٢) ، بل كان ينهى عن المنكر في الجنائز(٢٦٣) ، من : شق الجيوب ، ولطم الخدود ، وحثو التراب على الرؤوس ، وما شابه ذلك .

الحسبة في الأسواق ، والقضاء على الكلاب الضالة :

هذا ، وفي مجال الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كان سحنون أول من نظر في انتظام سير الأمور في الأسواق من القضاة ، وكان النظر في الأسواق قبله ، من اختصاص الأمراء . فكان يسير في الأسواق يسلم على الناس ، وينظر فيما يصلح من المعايش ، وما يغش من السلع . وكان يؤدب في السوق على الغش ، وينفي من الأسواق من يستحق ذلك من التجار . وهو لك ، أول من أمر بتغيير المنكر في الأسواق من القضاة ، وأول من نظر نهم في الحسبة(٢٦٤) . وعن هذا الطريق وسع سحنون اختصاص قاضي القيروان ، وأدخل في نطاقه الحسبة .

---

(٢٦٠) المالكي ، ج ١ ص ٢٧٥ ، المدارك ، ص ٥٩٩ ، تراجم أغلبية ، ص ١٠٢ .
(٢٦١) المدارك ، ص ٥٩٩ ، تراجم أغلبية ، ص ١٠٣ .
(٢٦٢) المالكي ، ص ٥٧٦ ، تراجم أغلبية ، ص ١٠٤
(٢٦٣) المالكي ، ص ٥٧٦ ، تراجم أغلبية ، ص ١٠٣ .
(٢٦٤) أنظر المالكي ، ج ١ ص ٢٧٦ ، المدارك ، ص ٦٠٠ ، تراجم أغلبية ، ص ١٠٤ .

سلطانه فى الأندلس :

وفى هذا الاطار امتد سلطان سحنون حتى الأندلس اذ تقول الرواية : « كان يكتب الى محمد بن زياد ، قاضى قرطبة ، يأمره بالسد والمعاقبة لمن جالس ، وتكرار الأدب والضرب عليه حتى يؤدى أو يموت(٢٦٥) .

توسيع نطاق الحسبة :

ووسع سحنون نطاق الحسبة خارج الاسواق حتى شمل مدينة القيروان بأكملها . فلقد تتبع الفساق والفجار من الرجال والنساء . وفى ذلك يروى أنه أدب المرأة ممن كن يحرضن على الفسق ، ثم انه نقلها بين قوم صالحين(٢٦٦) . وفوق ذلك فانه ، حرصا منه على سلامة أهل المدينة وأمنهم ، قرر التخلص من الكلاب الضالة . التى كانت تؤذى الناس من غير شك ، وكتب الى أعوانه يأمرهم بقتلها ، كما بث وراءها الأعوان بالحراب يفتكون بها(٢٦٧) .

ومما اعتبره سحنون أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر تفريق حلقات العلم والمناظرة التى كان يعقدها ، فى المسجد الجامع بالقيروان ، علماء : الصفرية ، والاباضية ، والمعتزلة ، ممن كان يعتبرهم من أهل الزيغ والبدع . وكان أول من فعل ذلك من قضاة القيروان . وأكثر من هذا ، فانه منع أصحاب هذه المذاهب من أن يكونوا أئمة فى المساجد ، أو معلمين للصبيان ، أو مؤدبين فى المكاتب . وكان ينزل العقاب الصارم بمن يخالف أمره منهم ، فيشنع بهم ويطوف بهم فى المدينة . كما أنه دفع بالكثيرين منهم الى التوبة عما كانوا يعتقدون فيه ، وكان يجعلهم يعلنون ذلك من أعلى منبر الجامع(٢٦٨) .

الاشراف على الجامع :

وفى نطاق الاشراف على جامع القيروان أخذ سحنون لنفسه حق تعيين امام الصلاة ، وكان ذلك من حق الأمراء ولم يكن من اختصاص القاضى(٢٦٩) .

---

(٢٦٥) المدارك ص ٦٠٦ . تراجم اغلبية ، ص ٢٩٩ .

(٢٦٦) انظر المالكى ، ج ١ ص ٢٧٧ ، المدارك ، ص ٦٠١ . تراجم اغلبية ، ص ١٠٥ .

(٢٦٧) انظر المالكى ، ج ١ ص ٢٧٩ ، المدارك ، ص ٦٠٧ . تراجم اغلبية ، ص ١٠٥ .

(٢٦٨) انظر المالكى ، ج ١ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ، المدارك ، ص ٦٠٠ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٥

(٢٦٩) المالكى ج ١ ص ٢٧٧ المدارك ، ص ٦٠٠ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٥ .

مجلس القضاء والاجراءات القضائية :

وهكذا أصبح سحنون مسيطرا على أسواق القيروان ، وعلى مسجد المدينة الجامع ، حيث اتخذ له بيتا بناه فيه للحكم بين المتقاضين ، بعد أن وجد أنه ليس من المناسب الجلوس وسط حشود الناس فى الجامع ، وهم يلغطون ويكثرون من الكلام(٢٧٠) . وهذا يعنى أن سحنون اجتهد فى تنظيم القضاء فكأنه اتخذ له بناء خاصا ، أشبه بمحكمة ، ملحقا بالمسجد الجامع .

ويدخل فى باب تنظيم التقاضى ما كان يفعله من اعطاء الرقاع أو الطوابع لذوى الدعاوى(٢٧١) ، الموجودين خارج بيت القضاء هذا ، حتى يدخل كل منهم فى دوره عند النداء عليه ، اذ كان لا يسمح بدخول بيت القضاء الا للخصمين ، ومن معهما من الشهود . وكان يستثنى من شرط الدخول فى دوره : المضطر أو الملهوف(٢٧٢) . وكان سحنون يسمح بتنفيذ العقوبات الخفيفة فى الجامع : كالضرب بالدرة ، وما خف من الأدب كالصفع على القفا . أما اذا أقام الحدود من الجلد والضرب بالسوط ، فكان تنفيذه خارج الجامع(٢٧٣) .

الشدة فى تطبيق القانون :

ومن الأحكام القاسية التى أخذت على سحنون — الذى عرف بأنه كان رقيق القلب غزير الدمعة ، ولكنه فى نفس الوقت شديدا فى الحق ، لا يخاف فى الله لومة لائم(٢٧٤) — ما أنزله من العذاب بغريمه وخصمه : قاضى القيروان السابق ابن أبى الجواد . حقيقة أن ابن أبى الجواد أتهم فى وديعة ٥٠٠ (خمسمائة) دينار من قبل بعض الناس ، ولكن نفى ابن أبى الجواد للتهمة ، وهو ما هو معروف من أنه القاضى السابق ، ورفض سحنون ما عرضته زوجة ابن أبى الجواد ، وهى أسماء بنت أسد بن الفرات ، من دفع المال المطلوب هبة لزوجها ، أمر له مغزاه . فسحنون فسر ذلك الرفض فى شكل قوالب قانونية

---

(٢٧٠) انظر المالكى ، ج ١ ص ٢٧٧ ، المدارك ، ص ٦٠٠ — ٦٠١ . تراجم اغلبية . ص ١٠٥ (حيث تضيف الرواية أن الجلوس فى ذلك البيت صار سنة للمالكية . فاذا ولى القضاء عراقى أى حنفى هجره ، واذا ولى مدنى أى مالكى بناه وحكم فيه) .

(٢٧١) انظر المالكى ، ج ١ ص ٢٧٧ ، المدارك ، ص ٦٠١ . تراجم اغلبية ، ص ١٠٥ .

(٢٧٢) المالكى ، ج ١ ص ٢٧٧ ، المدارك ، ص ٦٠١ . تراجم ، ص ١٠٥ .

(٢٧٣) نفس المصادر .

(٢٧٤) انظر المدارك ، ص ٥٨٨ . تراجم اغلبية ، ص ٨٦ .

خاصة بأسلوب العرض دون الجوهر ، مما كان موضوعا لجدل الفقهاء فيما بعد(٢٧٥) ، كما أصر على اخراج الرحل المهيب فى طريق القيروان الكبير المعروف بالسماط ، وضربه بالسياط أمام عامة الناس أكثر من مرة فى كل يوم جمعة ، حتى انتهى الأمر بمرض الرجل وموته(٢٧٦) •

كل ذلك يدل على أن الأمر لم يكن متعلقا فقط بالقصاص من ابن أبى الجواد من أجل الوديعة ، بل يرجح أنه كانت فى نفس سحنون أشياء قبل ابن أبى الجواد ، يعود تاريخها الى الوقت الذى تعرض فيه سحنون للامتحان بخلق القرآن ، حيث وقف ابن أبى الجواد موقفا عدائيا من سحنون • ولولا الوزير على بن حميد لما قدر لسحنون أن ينجو من عقوبة صارمة ، من الزامه بالاقامة الجبرية فى منزله ، ومنعه من التدريس ، والأمر بأخذ ثياب من يدخل عليه ، مما اعتبرته هيئة المحكمة . « قتل الحياة »(٢٧٧) •

ولكنه اذا اعتبرنا أن تشدد سحنون وقسوته مع ابن أبى الجواد يعتبر احدى هفوات الامام المرموق ، فمما لا شك فيه أنه كان لا يخاف فى الله لومة لائم ، وأنه كان يقف بصرامة ضد أقارب الأمير محمد وأعوانه ، ويأخذ منهم الحقوق لأصحابها ، ويطبق عليهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من أبناء الشعب • هذا ، كما كان يطبق مبدأ الرقابة هذه على الأمير نفسه •

تجلى ذلك عندما قام عمرو بن سليم المعروف بالقويبع أو القويبيع فى منطقة تونس سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م(٢٧٨) ، ورفض سحنون ما طلبه محمد ابن الأغلب من الفتوى بضرورة قتال الخارجى ، واعتبار ذلك نوعا من الجهاد • وفى ذلك تقول الرواية انه رد على الأمير قائلا : « عشت من ذلك على هذا • متى كانت القضاة تشاورها الملوك فى صلاح سلطانها »(٢٧٩) •

---

(٢٧٥) أنظر المالكى ، ص ٢٧٨ ، ٢٨١ ، المدارك ، ص ٦٠٥ ، تراجم أغلبية ، ص ١١١ (تقول الرواية ان سحنون لم يقبل هبة زوجة ابن ابى الجواد « لأن مالكا لا يلزم قبول الهبة ، ولو قالت : أبانقضى عنه ما طلب منه . لما رد ذلك سحنون والله أعلم ••• » ، وذلك ان الهبة لا تكون الا للمعدم الذى ليست لديه أموال •

(٢٧٦) المالكى ، ج ١ ص ٢٧٨ ، المدارك ص ٦٠١ - ٦٠٢ ، ٦٠٥ ، تراجم أغلبية ص ١٠٦ - ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، وانظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٠ •

(٢٧٧) أنظر المدارك ، ص ٦٠٩ - ٦١٢ ، تراجم أغلبية ، ص ١٦ - ١١٨ ، وقارنه المالكى ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ •

(٢٧٨) أنظر فيما سبق ، ص ٨٤ •

(٢٧٩) أنظر المالكى ، ج ١ ص ٢٨٠ ، المدارك ، ص ٦٠٤ - ٦٠٥ •

وتجلى ذلك أيضا اثر قضاء خفاجة بن سفيان بن سوادة عـــلى ثورة القويع ، ودخول جند الأمير محمد من السودان ، وبعض قواد جنده بسبي تونس من النساء الحرائر الى القيروان • فعندما سمع سحنون بذلك ، وكان حديث عهد بالقضاء ، أمر طلبته بالتصدى لحاتم الأسود ، فتى الأمير محمد ، واستخلاص النساء التونسيات من أسره • وعندما شكا الأسود الى الأمــير محمد ظل سحنون صامدا ، بل انه أمر بسجن الفتى الأسود(٢٨٠) • وتضيف الرواية الى ذلك أنه عندما بعث الأمير محمد اليه يقول : ان السبى له شخصيا ، وازاء رفض سحنون لأن النساء لسن من الاماء ، بعث اليه الأمير من يبلغه أن وقوفه أمام رغبة الأمير عبث ، ثارت ثائرة القاضى الكبير وأقسم بالله ثلاثا ، فى حضرة رسول الأمير ، ان العابث هو محمد بن الأغلب ، وأنه لن يتسامح فى الأمر ، ولو فصل رأسه عن جسده •

ومع أنه كتب كتابا متاسيا للأمير ، تحت الحاح ابنه محمد بن سحنون الذى جعله يغير ويبدل كثيرا من عباراته(٢٨١) ، فان الأمير محمد بن الأغلب نظر فى الخطاب وضرب به الأرض ، وهو يقول : « ما أدرى أمر علينا أم نحن عليه ! » • ورغم تأثر الأمير الذى أسود وجهه ورفض أن يستقبل أحدا الى ما بعد العصر ، فانه عاد يقول : « ما أظن هذا الرجل يريد بنا الا خيرا ، ونحن لا نعلم »(٢٨٢) •

وكانت وقفة سحنون الصلبة هذه ضد سبى النساء التميسات من أهل تونس سببا فى أن أصدر الأمير محمد أوامره بفك أسر التونسيات من كل البلاد • كما كتب سحنون الى أعوانه من المحتسبين يطلب منهم تفتيش قوافل

---

(٢٨٠) ويروى لنا المالكى والقاضى عياض تلك القصة أكثر من مرة مع تغير شخصيات أبطالها • فصاحب السبى فى القصة الثانية يأتى فى شكل قائد من قواد ابن الأغلب اسمــه منصور الذى ينتزع سحنون منه السبى بنفسه ، ثم يكون فى القصة الثالثة بعض قواد ابن الأغلب الأفريقيين مما يضطر سحنون معه الى الكتابة الى اخوانه الصوفية فى البوادى الذين حضروا فى حوالى ألف رجل ، هزم مائة منهم قصر القائد ، وأخرجوا النساء الحرائر • وعندما احتج الأمير محمد سحنون بالاستقالة من القضاء • أنظر المالكى ج ١ ص ٢٧٦ • ٢٨٢ ، المدارك ، ص ٦٠٦ — ٦٠٧ ، تراجم ص ١١١ — ١١٢ •

(٢٨١) وكان مما كتب سحنون فى كتابه للأمير محمد : « ويا قوم ما لى أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار ، تدعونني لأكفر بالله » — الآية (المدارك ، ص ٦٠٤ ، تراجم أغلبية ، ص ١١٢ ، وقارن المالكى : ج ١ ص ٢٨٠) •

(٢٨٢) المالكى ، ج ١ ص ٢٨٠ ، المدارك ، ص ٦٠٤ •

النجار بحثا عنهن . فكان المحتسب يعترض القافلة ويكشف براقع النساء ، حتى قالت انها من سبى تونس سيرت الى سحنون الذى أطلق عدة منهن(٢٨٣) .

الأه تعين قاضيا ثانيا الى جانب سحنون

والظاهر أنه أمام تشدد سحنون بمبادئه وتشدده في تطبيق القانون ، ومحاولته في أخذ الحقوق من قرابة الأمير ورجال الحاشية ، رأى محمد بن الأغلب أن خير وسيلة للافلات من قبضة قاضيه - وكان يجله رغم عنفه - هو أن يعين قاضيا ثانيا الى جانبه ، تماما ، كما فعل عمه زيادة الله عندما عين أسد ابن الفرات قاضيا الى جانب أبى محرز .

وهكذا ، ودون علم سحنون ، عين محمد بن الأغلب شريكا له فى القضاء ، يعرفه الكتاب باسم الطبنى ، نسبة الى مدينة طبنة عاصمة الزاب . وفوجىء سحنون بارتفاع الخصوم عن بابه الى منافسه الجديد ، وزاد تأثره عندما سأل الأمير عن الأمر فأنكر معرفته به أصلا ، مما اعتبره سحنون نوعا من الاستهزاء به .

ولم يجد سحنون سبيلا الى الاحتجاج على ذلك الا بالاعتكاف فى داره لفترة من الوقت ، كان الطبنى يحكم أثناءها فى الجامع ، والى جانبه كان يحكم أيضا حبيب صاحب المظالم ونائب سحنون أو معاونه .

ثم انه عندما رأى سحنون أن يعود الى مجلس القضاء فى الجامع من جديد ، خرج الطبنى الى داره حيث كان يحكم فيما يعرض عليه من القضايا . ولم يستمر الحال على هذا المنوال الا حوالى أربعين يوما توفى بعدها سحنون ، ودفن بمقبرة باب نافع من القيروان(٢٨٤) ، وذلك فى شهر رجب من سنة ٢٤٠ هـ/اغسطس ٨٥٤ م(٢٨٥) ، وله من العمر حوالى ثمانين عاما ، بعد حياة حافلة بالعلم والعبادة ، والكرم والشجاعة ، والعفة والزهد .

---

(٢٨٣) المدارك ، ص ٦٠٤ ، تراجم ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، وقارن المالكى ، ج ١ ص ٢٨٠ .

(٢٨٤) المدارك ، ص ٦٠٨ - ٦٠٩ ، تراجم اغلبية ، ص ٣١٤ - ١١٥ .

(٢٨٥) وتقول الرواية أن الأمير محمد بن الأغلب ارسل اليه بكفن وحنوط ، فاحتال ابنه محمد حتى كفن فى غيره . أنظر المالكى ، ج ١ ص ٢٨٨ (وعن يوم وفاته قيل يوم ٣ رجب او ٧ من نفس الشهر) ، وقارن المدارك ، ص ٦٢٤ ، تراجم اغلبية ، ص ١٣٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١١ .

تراث سحنون :

وبصرف النظر عما تركه سحنون من الألم في نفوس خصومه من المبدعة الذين كان يكفرهم ويكفرونه ، حتى أنهم امتنعوا عن صلاة الجنازة عليه(٢٨٦) ، كما كان يفعل هو أيضا بالنسبة لهم ، فلقد ترك سحنون بصماته واضحة في كل افريقية والمغرب والأندلس وصقلية ، بصفته صاحب المدونة في فقه مالك بن أنس ، وواضع الأسس المتينة للمذهب المالكي في تلك البلاد • وفي القضاء ينسب الى سحنون كل التنظيمات القضائية التي أشرنا اليها(٢٨٧) • وفي ميدان العبادة والجهاد كان سحنون عالما وحده : فالعبـــاد في مجالسه كانوا أكثر من طلبة العلم(٢٨٨) ، كما كان السماع منه يعادل — بالنسبة لأصحابه وتلاميذهم — « ماء الحياة »(٢٨٩) •

أما تلاميذه الذين زادوا على سبعمائة فقيه وشيخ ، فكانوا المصابيح المنيرة في كل بلدة(٢٩٠) ، وأقواله وفتاويه وأعماله صارت القدوة الحسنة في كل البلاد(٢٩١) • ودعوته الى الربط بين الأمر بالمعروف والعبادة والجهاد ظلت أصداؤها تدوي في رباطات الساحل الافريقي ، وخاصة في المنستير — حيث كان يقيم مع المرابطين بصحبة اخوانه ، مثل : ابن رشيد ، وابن الصمادحي ، وابن نعيم(٢٩٢) — على مدى الأجيال التالية ، وخاصة بعد أن ظل سؤدد العلم قائما في بيته ، بفضل ابنه محمد الذي ذاعت شهرته هو الآخر •

حداد شعبي لوفاة سحنون :

وهكذا لم يكن من الغريب أن ترتج القيروان لموته ، وأن يبكي مشائخ الأندلس ، وألا يتمكنوا من ضبط عـــواطفهم فيحرقون تعاليمه ، ويضربون خدودهم كالنساء(٢٩٣) • وهو الأمر الذي كان ينهى عنه في الجنائز ، ويؤدب

---

(٢٨٦) المالكي ، ج ١ ص ٢٨٨ ، المدارك ، ص ٦٢٤ ، تراجم أغلبية ، ص ١٣٣ •

(٢٨٧) انظر فيما سبق ، ص ٩٠ وما بعدها •

(٢٨٨) المدارك ، ص ٦١٣ ، تراجم أغلبية ، ص ١١٩ •

(٢٨٩) تراجم اغلبية ، ص ١٣٦ •

(٢٩٠) المدارك ، ص ٦١٣ ، تراجم أغلبية ، ص ١٢٠ •

(٢٩١) المدارك ، ص ٦١٤ وما بعدها ، تراجم أغلبية ، ص ١٢٠ وما بعدها •

(٢٩٢) المدارك ، ص ٦١٣ (حيث الرباط في قصر زياد) ، ص ٦١٦ (المنستير) ، وقارن تراجم أغلبية ، ص ١٢٤ •

(٢٩٣) المالكي ، ج ١ ص ٢٨٨ ، المدارك ، ص ٦٢٤ ، تراجم أغلبية ، ص ١٣٤ •

عنه الأدب الخفيف . ولم يكن من الغريب أن يرتبه الراتبون نثرا وشعرا(٢٩٤)، وأن يراه الراؤون في نومهم في موكب النبي والصحابة سائرا خلف مالك ابن أنس(٢٩٥) ـ امامه وأستاذه .

وهكذا فاذا كان زيادة الله له الحق في أن يعتز بأنه ولى القضاء لابن أبي محرز ، فمن باب أولى ان يعتز محمد بن الأغلب . الذي توفي في ٢ من المحرم سنة ٢٤٢ هـ/١١ مايو ٨٥٦ م ، أي بعد حوالى سنة ونصف سنة من وفاة سحنون بأنه عهد بقضاء افريقية الى سحنون . وانه وفى له بشروطه لمدة سبع سنوات ، وهو الامر الذي يستحق أن يكون شفيعا للأمير الأغلبي الشاب ، الذي قضى وعمره ٣٦ سنة ، أي وهو في عنفوان الشباب ، تاركا الملك لابن أخيه ابي ابراهيم أحمد ، كما ينص على ذلك ابن عذاري ، لأنه كان عقيما لا يولد له(٢٩٦) .

أبو ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب : ٢٤٢ـ٢٤٩هـ/ ٨٥٦ ـ ٨٦٣ م .

خلف ابو ابراهيم أحمد ابن عمه في امارة افريقية ، وله من العمر عشرين سنة . ومع ذلك لم يطل حكمه الا الى أقل من ثماني سنوات، مضت هادئة ساكنة لم يعكر صفوها الا اضطراب منطقة طرابلس لبعض الوقت . أما عن الجهاد في صقلية فقد كان مظفرا اذ سقطت عـلى أيامه قصريانة (كاستروجيوفاني) ، وهي من مدن الجزيرة الهامة ، وكان للخليفة ـ نصيبه من مغانمها(٢٩٧) . وهكذا سمحت الظروف للامير الشاب أن يقضى سنوات حكمه القصير سببا في أعمال الخير والعمران .

---

(٢٩٤) المالكي ، ج ١ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ ، المدارك ص ٦٢٦ ، تراجم اغلبية ، ص ١٣٦ .

(٢٩٥) المدارك ص ٦٢٤ ـ ٦٢٥ تراجم اغلبية ص ١٣٤ ، وقارن المالكي ، ص ٢٨٩

(٢٩٦) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٨ . ابن الابار الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٩ ، وانظر بن الخطيب ، اعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٢ . أما عما يقوله بن الأثير (سنة ٢٤٢ هـ وابن خلدون ج ٤ ص ١ ٢) من ان أبا ابراهيم أحمد كان ابنا لمحمد المتوفى (وليس ابنا لأخيه) فهذا ما شرحته رواية الحلة السيراء التي قالت ان الأمير أبا العباس محمد كان له أخ اسمه ايضا محمد أبو عبد الله وانه كان واليا لطرابلس وتوفي بها سنة ٢٣٣ هـ ، ومن حولهم أمراء بني الأغلب الولاة بعد ابي العباس هذا وذلك ما دعا عددا من الكتاب من قدامى ومحدثين الى الخطأ بنسبة من أتى من الاغالبة بعد ذلك الى ابي العباس محمد وليس الى أخيه أبي عبد الله كما يشير الى ذلك حسين مؤنس الحلة السيراء هامش ١٦٩ ـ ولو انه ينسب خطأ الى ابن عذاري وهو غير صحيح .

(٢٩٧) انظر فيما بعد في فتح صقلية ص ٢٠٩ ٢٥١

والأمير أحمد أبو ابراهيم كان ، كما رآه الكتاب : « حسن السيرة ، كريم الأخلاق والأفعال ، من أجود الناس وأسمحهم ، وأرفقهم بالرعية ، مع : دين واجتناب للظلم ، على حداثة سنه وقلة عمره »(٢٩٨) ٠

اضطراب منطقة طرابلس :

أما عن اضطراب منطقة طرابلس التي كان على ولايتها عبد الله بن محمد ابن الأغلب ، فالظاهر أن مثيريها كانوا من قبائل البربر الاباضية في تلك النواحي ، من هوارة أو لواتة(٢٩٩) ، على ما تظن ٠ وتذكر روايتا ابن الأثير والنويري انهم امتنعوا على الوالي ، ولم يؤدوا ما كان عليهم من العشور والصدقات ، وأن الوالي عبد الله بن محمد أخا الأمير قام بقتالهم بمن معه من الجند أكثر من مرة ، ولكنهم هزموه حتى ألجأوه الى لبدة التي حصنها ، ثم انه رأى أن الأمر يتطلب مجهودا أكبر من طاقته فأرسل الى الأمير أبي ابراهيم أحمد يطلب منه المعونة فسير اليه الكثير من العساكر مع أخيه زيادة الله ٠

ودارت حروب شديدة بين قوات القيروان وبين الثوار من البربر ، انتهت بقتل الكثيرين منهم ، والانتقام من الأسرى الذين قتلوا ، كما أحرق ما كان في معسكرهم من الأمتعة والعتاد ٠ وبذلك أذعن ثوار طرابلس من القبائل المغربية ، وأعطوا الرهائن لابن الأغلب ، وأدوا ما كان عليهم من الأموال(٣٠٠) ٠

اعمال الأمير الشاب الورعة :

وفيما عدا تلك الحرب المحلية في اقليم طرابلس التي احتفظ لنا ابن الأثير والنويري ببعض أصدائها ، والفتوح المظفرة في صقلية ، وما قيل من أنه بنى بأرض افريقية عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد ، وأنه اشترى العبيد واتخذهم جندا(٣٠١) ، انصرف الأمير الشاب ،

---

(٢٩٨) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٥ ب ـ ١١٦ أ ، ابن عذارى ، ج ٩ ص ١١٢ ٠

(٢٩٩) ابن الأثير ، سنة ٢٤٥ ، ج ٧ ص ٩١ (حيث الكلمة محرفة في شكل « لهان »)٠

(٣٠٠) نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ ب ، الكامل ، سنة ٢٤٥ هـ ، ج ٧ ص ٩١ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠١) ٠

(٣٠١) ابن الأثير ، سنة ٢٣٦ هـ ج ٦ ص ١١٩ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠١) ٠

الذى ولد فى عصر سحنون ، الى أعمال البر والخير . وكانت أولى أعماله هى العهد بقضاء القيروان الى أبى الربيع سليمان بن عمران بن أبى هاشم الملقب بخروفه .

وسليمان بن عمران كان منافسا لسحنون عند ولايته القضاء ، كما رأينا ، ثم ان سحنون اتخذه كاتبا ، قبل أن يوليه قضاء الأقاليم ، فى : بجاية وباجة والاربس(٣٠٢) . وهكذا ، وفى هذا الجو السحنونى — اذا جاز التعبير — كان الأمير أبو ابراهيم أحمد يركب فى ليالى شعبان ورمضان من القصر القديم ، على بعد ثلاثة أميال من القيروان ، وبين يديه الشموع الموقدة ، ويمشى حتى يدخل مدينة عقبة من باب أبى الربيع ، وبين يديه دواب تحمل أكياس الدراهم ، وهو يأمر باعطاء الضعفاء والمساكين منها ، حتى يصل الى المسجد الجامع ، والناس حوله يدعون له خير الدعاء(٣٠٣) . هذا ، كما كان « يقصد دور العلماء والصالحين فيامر بقرع أبوابهم ، فاذا خرجوا اليه أمر باعطائهم من ذلك المال(٣٠٤) .

أعمال أبى ابراهيم أحمد العمرانية :

مواجل الماء . توسيع جامع القيروان . بناء جامع سوسة .

والى جانب أعمال البر تلك ، وجه الأمير أبو ابراهيم أحمد نشاطه الى أعمال العمران ذات المنافع العامة ، مما يرتفق به الناس ، من : بناء صهاريج الماء التى عرفت فى افريقية بـ « المواجل » ومفردها « ماجل » ، وتجديد المساجد وبنائها وتهيئة الأموال اللازمة لذلك ، خاصة منذ سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م(٣٠٥) .

فلقد زاد أبو ابراهيم أحمد فى مسجد القيروان ، الذى بناه عمه زيادة الله زيادات هامة ، هى : البهو ، والمقصود به البلاطة المستعرضة فى مؤخر بيت الصلاة من جهة الصحن ، وما يحيط بالصحن من المجنبات ثم

---

(٣٠٢) انظر فيما سبق ، ص ٩١ (اعوان القاضى) .

(٣٠٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٢ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ أ .

(٣٠٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ أ .

(٣٠٥) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٣ (حيث الاشارة الى انه فعل ذلك لكلمة بدرت منه على سكر ، فكأنها كانت كفارة لتلك الهفوة) ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ص ٢٣ .

القبة(٣٠٦) فوق منتصف البهو لتقابل القبة الواقعة فوق المحراب . وبواسطة القبتين كان يمكن لأهل القيروان تحديد اتجاه القبلة ، وهو الخط المستقيم الواصل بين قبة البهو وقبة المحراب ، وكان تمام العمل فى الجامع فى سنة ٢٤٢ هـ/٨٥٦ م .

ولقد أعاد أبو ابراهيم أحمد بناء المسجد الجامع بمدينة تونس والذى أنشأه حسان بن النعمان ، وجدده بن الحبحاب ، وهو مسجد الزيتونة . ولقد عثر على نقش كوفى فى قبة المحراب نصه الآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم . مما أمر بعمله الامام المستعين بالله أمير المؤمنين العباسى . طلب ثواب الله وابتغاء مرضاته . على يدى نصير مـــولاه . سنة خمسين ومائتين ـ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ـ صنعه فتح » . وهكذا ، يحمل النص اسم الخليفة المستعين بالله ، كما يحمل اسم الفتى الخادم الذى أشرف على تنفيذ العمل من الناحيتين الادارية والمالية ، وكذا اسم المهندس البناء ، وهو : فتح . أما اسم الأمير الأغلبى الحاكم ، فلا يوجد فى النقش وهو الأمر المستغرب(٣٠٧) . وان كان من الممكن تفسير ذلك بأنه نوع من الأدب من جانب الأمير الأغلبى الذى رأى أن يقدم اسم الخليفة دون ذكر اسمه ـ خاصة وأن أبا ابراهيم كان قد توفى فى سنة ٢٤٩ هـ ، وخلفه أخوه أبو محمد زيادة الله (الأوسط) الذى كان له هذا القرار ، على ما نظن .

ومن المتفق عليه أن جامع الزيتونة بتونس ، كما وصل الينا ، حافظ على عناصره الرئيسية منذ بناه أبو ابراهيم ـ مثله فى ذلك مثل جامع القيروان منذ أعاد زيادة الله بناءه . والمسجد الحالى يتكون من الصحن الذى تحيط به الأبهاء ، ومن بيت الصلاة الذى يحتوى على تسعة أروقة رأسية على حائط القبلة من الشمال الى الجنوب . والرواق الأوسط منها وكذلك بلاط المحراب المستعرض أكثر اتساعا وأعلى ارتفاعا من بقية الأروقة والبلاطات العرضية . وعند التقائهما توجد قبة المحراب التى بنيت سنة ٢٥٠ هـ/٨٦٤ م والتى تحمل نقش الخليفة المستعين . وفى مقابل تلك القبة توجد قبة باب البهو ، كما هو الحال فى القيروان حيث يحدد الخط المستقيم بين القبتين اتجـــاه القبلة(٣٠٨) .

---

(٣٠٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٥ ب .

(٣٠٧) انظر ج . مارسيه ، مختصر الفن الاسلامى ، ج ١ ص ١٣ .

(٣٠٨) انظر ج . مارسيه ، مختصر الفن الاسلامى ، ج ١ ص ١٣ .

كذلك كانت سوسة ، مدينة الرباطات والعباد ، موضع رعاية أبي ابراهيم أحمد · فقد حصنها وبنى سورها فى سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م(٣٠٩) ·

وفي سنة ٢٤٦ هـ/٨٦٠ م كان البدء في حفر الماجل الكبير على باب تونس بمدينة القيروان · واستمر العمل فيه — من بناء الجدران والدعائم الداخلية والخارجية ، وتبليط الأرض — الى أن تم مع زيادات الجامع فى سنة ٢٤٨ هـ/٨٦٢ م · ولما كانت القيروان قد تعرضت لسيل عظيم فى شتاء سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١ م ، كان من نتائجه كسر قنطرة أبي الربيع التى تحمل الماء الى الماجل الذى كان بقرب باب أبى الربيع ، فان الأمير أبا ابراهيم أمر باصلاح القنطرة(٣١٠) وتجديد الماجل(٣١١) ·

وكانت آخر اعمال أبي ابراهيم أحمد هو حفر وبناء الماجل الكبير بالمدينة الملكية ، وهي القصر القديم · وذلك أنه بانتهاء ذلك الماجل ، وقبل بداية فصل الأمطار ، اعتل أبو ابراهيم علته التي مات فيها ، فكان يسأل وهو طريح الفراش ان كان الماء قد دخل الماجل · وعندما أتى الماء وعرف ذلك سر به سرورا عظيما ، وأمر خدمه « أن يأتوه بكأس مملوءة منه ، فشربها ، وقال : الحمد لله الذى لم أمت حتى كمل أمره ، ثم مات اثر ذلك »(٣١٢) ·

وفاة محمودة :

وهكذا ، توفى أبو ابراهيم أحمد بعد أن ترك بصماته قوية على كل من مدينتي تونس والقيروان ، وحق لأهل القيروان الذين زودهم بالماء الكثير أن يترحموا عليه ، وكذلك كل من دخل المدينة(٣١٣) · وكانت وفاة أحمد في يوم ١٣ من ذى القعدة سنة ٢٤٩ هـ/٢٨ ديسمبر سنة ٨٦٣ م ، وله من العمر ٢٨ سنة ، بعد ولاية ٧ (سبع) سنين و ١٠ (عشرة) أشهر و ١٥ (خمسة

---

(٣٠٩) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٥ ب ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ص ٢٣

(٣١٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٣ ·

(٣١١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٥ ب — حيث تقول الرواية انه بنى الماجل ·

(٣١٢) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٥٥ ب ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ص ٢٤ ·

(٣١٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٥٥ ب ·

عشر) يوما(٣١٤) • وخلفه في الامارة أخوه أبو محمد زيادة الله (الثاني) •

أبو محمد زيادة الله بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب : ٢٤٩ — ٢٥٠ هـ/٨٦٣ — ٨٦٤ م :

شاب رزين يحكم لمدة سنة واحدة :

لم تطل امارة زيادة الله الثاني هذا الا لمدة سنة واحدة وأسبوع واحد ، وهكذا لم تكن له أخبار تؤثر ، كما يلاحظ ابن عذارى(٣١٥) • وبناء على ذلك فنحن لا نعرف عنه الا أنه ولى في نفس اليوم الذى توفي فيه أخوه أبو ابراهيم، وهو الثلاثاء ١٣ من ذى القعدة ٢٤٩ هـ/٢٨ ديسمبر ٨٦٣ م ، وأنه كتب الى خفاجة بن سفيان في صقلية بامضاء ولايته ، وخلع عليه •

وفيما عدا ذلك يقول الكتاب أن زيادة الله الثاني كان عاقلا حليما حسن السيرة ، جميل الأفعال ، ذا رأى ونجدة ، وجود وشجاعة(٣١٦) • أما عن وفاته ، فكانت ليلة السبت ١٩ من ذى القعدة سنة ٢٥٠ هـ/٢٣ ديسمبر ٨٦٤ م(٣١٧) • وقد خلفه ابن أخيه : أبو عبد الله محمد بن الأمير الأسبق أبى ابراهيم أحمد •

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب : أبو الغرانيق ٢٥٠ — ٢٦١ هـ/٨٦٤ — ٨٧٥ م :

جلس أبو الغرانيق محمد على سرير الملك في نفس اليوم الذى توفى فيه عمه زيادة الله ، ولما كان والده أبو ابراهيم أحمد ، الأمير الأسبق ، قد

---

(٣١٤) النويرى ، ص ١٥٥ ب (عمره ٢٦ سنة) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٣ ، ابن الأثير سنة ٢٢٦ ، ج٦ص ٥١٩ — ٥٢٠ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠١ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ص ٢٤ •

(٣١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ ، وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٢٥ (حيث ولايته سنة و٧ اشهر بدلا من و٧ أيام) •

(٣١٦) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ ، والنويرى ، المخطوط ، ٢ ج ٢٢ ص ١١٦ أ وهما يشتركان في النص ،وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٢٤ — ٢٥ (حيث يضيف الى ذلك ان القاضى سليمان بن عمران كان يقول : « ما ولى لبنى الأغلب أعقل من زيادة الله الأصغر) •

(٣١٧) نفس المصدر ، ابن الاثير ، سنة ٢٢٦ هـ ، ج ٦ ص ٥٢٠ ، ابن الخطيب ، قسم ٣ ص ٢٥ (ليلة ٢٠ من ذى القعدة) •

توفى منذ عام وعمره ٢٨ سنة ، فالمفهوم اذن أن أبا العرانيق كان بعد على عتبات الشباب ، عند ولايته ، مقبلا على الرابعة عشرة من عمره(٣١٨) .

شاب فى مقتبل العمر ، مقبل على الحياة ، مغرم بالصيد :

ويصف الكتاب الأمير الشاب بأنه كان غاية فى الجود مسرفا فى العطاء ، مع حسن سيرة الرعية ورفق بهم(٣١٩) . وهم يضيفون الى ذلك انه غلبت عليه اللذات والشراب والطرب والاشتغال بالصيد ، وانه لم يزل كذلك طول مدته(٣٢٠) . وبسبب هوايته للصيد لقب بـ « أبو الغرانيق » لأنه كان يهوى صيد ذلك النوع من الطيور ، حتى أنه بنى قصرا فى موضع السهلين ، يخرج اليه لصيدها ، أنفق فيه ثلاثين ألف مثقال من الذهب(٣٢١) ، وهو المبلغ العظيم بالنسبة لقيمة العملة فى ذلك العصر .

هذا ، ويقول ابن الأثير أن أبا الغرانيق بنى حصونا ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة ١٥ (خمسة عشر) يوما من برقة الى جهة المغرب(٣٢٢) .

انتصارات فى صقلية ، واضطرابات فى الزاب :

واذا كان كل من ابن عذارى والنويرى يشير الى أن ولايته كانت مليئة بالحروب ، فابن عذارى يقصد بذلك حروب صقلية المظفرة بقيادة خفاجة (ابن سفيان بن سوادة) وان تخللتها بعض الانتكاسات . أما النويرى فهو يشير الى اضطراب بلاد الزاب التى يصفها بالثغر(٣٢٣) — جريا على عادة قدامى كتاب الفتوح والمغازى .

ووصف بلاد الزاب الجنوبية الغربية بالثغر ، بمعنى أنها جبهة قتال ،

---

(٣١٨) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ ب ، الذى يقول انه توفى بعد ملكه عشر سنين وخمسة اشهر ، وله من العمر ٢٤ سنة .

(٣١٩) النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٧ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ ، ابن الخطيب ، الإعلام، قسم ٣ ص ٢٥ .

(٣٢٠) النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٧ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ .

(٣٢١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ أ ، وانظر الحلة السيراء ج ١ ص ١٧١ .

(٣٢٢) ابن الأثير ، سنة ٢٢٦ هـ ، ج ٦ ص ٥٢٠ (بن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٩) .

(٣٢٣) النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٦ ب .

يفسر بأن الاقليم كان متاخما لامامة الرستميين الاباضية في المغرب الأوسط . أو بوجه أخرى كانت بلاد الزاب داخلة في منطقة نفوذ قبائل البربر التي تعترف بامامة تاهرت الرستمية • والمهم هو أن أبا الغرانيق أرسل الى بلاد الزاب جيشا عظيما عهد بقيادته الى قائده أبي خفاجة محمد بن اسماعيل الذي سار في المنطقة وقبائل البربر تتبدد أمامه الى أن وصل الى مدينة تهودة ، حيث ضريح سيدي عقبة ، ثم الى مدينة بسكرة حيث أعلن أهل تلك المناطق الخضوع له • ومن بسكرة سار محمد بن اسماعيل الى طبنة ، قاعدة بلاد الزاب ، حيث لحق به القائد حي بن مالك البلـوى ، من فريسلن مدينة بلزمة •

ومن طبنة قرر محمد بن اسماعيل (أبو خفاجة) المسير الى مدينة « آبة » ونزلها بكل عساكره ، وألقى في قلوب أهلها الخوف والهلع • ويصح إن رؤساء القبـائل أتو سامعين طائعين ، وعبروا عن تلك الطاعة بتقديم الرهائن ، ودفع ما كان عليهم من الخراج والعشور والصـدقات ، فإن محمد ابن اسماعيل لم يقبل منهم لأن زعيم بني كملان من قبائل هوارة ، وهو مهذب ابن صيولات لم يأته بنفسه •

وقرر أبو خفاجة محمد بن اسماعيل المسير الى بني صـولات وكسر شوكته ، وتحرزت قبائل هوارة من أبي خفاجة ، وهي تحاول مداراته طالبة منه الأمان ، باذلة له كل ما يطلب ، فلم يقبل منهم الا الخضوع تحت سلطان السيف • ولكنه عندما نشب القتال بين الجند الأغلبي وبين بني كملان في قلب أرض هوارة ، انتهت الوقعة بكارثة بالنسبة لجيش القيروان • والظاهر أن عسكر بلزمة وعلى رأسه حي بن مالك البلوى كان مسئولا عن تصلب أبي خفاجة ، على زعم أنه كان على دراية بالبلاد • وعلى هذا الأساس ، على ما نظن ، تسبب الهزيمة الساحقة التي انتهت بمقتل أبي خفاجة وجماعة من كبار قواده وكثير من جنده والتي تمادت حتى أسوار طبنة » الى البلوى وأهل بلزمة (٣٢٤) •

فتح مالطة :

ولا يخفف من وقع هذه الهزيمة التكراء في رواية النويري ، التي لم تذكر رد فعل الأمير الأغلبي ، الا ما تسجله من فتح جزيرة مالطة على أيام

---

(٣٢٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ ب -

أبى الغرانيق ، مما يوحى أن هزيمة الجند الأغلبى فى الزاب كانت قبيل سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤ م ، على أواخر أيام أبى الغرانيق · ويرجع ذلك ما تنص عليه رواية ابن الخطيب من أن فتح مالطة وأسر ملكها كان فى جمادى الاول من سنة ٢٦١ هـ/فبراير - مارس ٨٧٥ م(٣٢٥) · ولكنه لما كانت مالطة قد فتحت على أيام « أبى الغرانيق » فى سنة ٢٥٥ هـ(٣٣٦) فان ذلك يعنى أن الروم كانوا قد استعادوها من المسلمين ، وان غزو الجزيرة الثانى فى سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤ م كان الفتح النهائى ·

أعمال عمرانية على أيام أبى الغرانيق :

وهكذا ، فالى جانب ثورة الزاب ، وذكر فتح مالطة ، وحروب صقلية ، لا نجد فى حوليات افريقية على أيام أبى الغرانيق ذكرا الا لبناء محمد ابن حمدون الأندلسى المعافرى للجامع الشريف المنسوب اليه بالقيروان · والذى سخا فى بنائه بالآجر والجص ، وبذل فى كسوته بالرخام ، كما هيأ له الصهاريج أو جباب الماء تحت الأرض ، وذلك فى سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م(٣٢٧) ·

محمد بن سحنون (٢٠٢ - ٢٥٦ هـ/٨١٧ - ٨٧٠ م) :

أهم أعماله ، والحياة الدينية على عهد الأمير أبى الغرانيق :

أما سنة ٢٥٦ هـ/ ٦٩ - ٨٧٠ م ، فهى سنة وفاة محمد بن سحنون الذى خلف والده فى الفقه والعلم(٣٢٨) ، ولو أنه لم يل القضاء ، فكانت وفاته بعد ١٦ عاما من وفاة والده ، قاضى القيروان الذائع الصيت · فلقد جدد محمد سيرة والده سحنون ، فعرف بالفقه والجدل والحديث ، والذب عن مذهب أهل الحجاز(٣٢٩) · وعرف محمد بن سحنون بانه كثير الكتب غزير التاليف ، له نحو مائتى كتاب فى فنون العلم(٣٣٠) · ومن تواليفه :

---

(٣٢٥) اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٦ ·

(٣٢٦) أنظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠١ ، وانظر ابن الخطيب ، اعمال الأعمال ، قسم ٣ ص ٢٦ - حيث اشارة المحققين فى الهامش رقم ١ الى ان استيلاء المسلمين على مالطة كان فى سنة ٢٥٦ هـ/٨٧٠ م ·

(٣٢٧) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١٤ ·

(٣٢٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ ·

(٣٢٩) تراجم اغلبية ، ص ١٧٣ ·

(٣٣٠) المالكى ، ج ٢ ص ٣٤٥ · تراجم اغلبية ، ص ١٧٣ ·

المسند في الحديث ، والجامع في الفقه ، وكتاب الطنجي ، وكتاب تحـريم المسكر ، وكتاب آداب المتناظرين ، وتفسير الموطأ ، وكتـاب الحجـة على القدرية ، كما ألف كتاب التاريخ في ستة أجزاء ، وغير ذلك من الكتب(٣٣١).

والى جانب العلم يجدد محمد بن سحنون سيرة والده في الجود والكرم ، فهو : جواد بماله ، لا يبخل بالعطاء حتى على خصومه(٣٣٢) ، وهو يكتب الرقاع للناس ، كما كان يكتب والده البطائق ، الى الصيارفة بالمشترين دينار واكثر(٣٣٣) .

هذا ، كما أنه كان يتردد على رباطات الساحل ، كما كان يفعل والده سحنون حتى أن وفاته كانت بالساحل(٣٣٤) . وان كان قد خالف والده في حبه للناس(٣٣٥) .

الصراع بين المالكية والحنفية :

محنة محمد بن سحنون :

وعلى الجملة فقد كان محمد بن سحنون مقدما عند الملوك ، وجيها عند العامة(٣٣٦) ، رغم أنه لم يل القضاء ، بل رغم سوء علاقته بالأمير ورجاله ، من : القاضي سليمان بن عمران (المعروف بخروفه) ، وصاحب الصـلاة ابن أبي الجواجب .

والظاهر أن ذلك كان بسبب وقوفه ضد الحنفية ، ومقالة المعتزلة بخلق القرآن التي كان يقاومها المالكية . والظاهر أن الدولة الأغلبية ، وهي تتبع تعليمات الخلافة العباسية في بغداد ، حورت في موقفهـا من معارضيها المالكية ، وجعلته موقفا سياسيا بدلا من اتجاه ديني .

---

(٣٣١) انظر تراجم اغلبية ، ص ١٧٣ ، وقانون المالكي ، ج ٦ ص ١٣٤٥ — ٣٤٦ .
(٣٣٢) انظر تراجم اغلبية ، ص ١٧٨ .
(٣٣٣) انظر تراجم اغلبية ، ص ١٨٢ .
(٣٣٤) تراجم اغلبية ، ص ١٨٦ .
(٣٣٥) تراجم اغلبية ، ص ١٨٤ — ١٨٧ .
(٣٣٦) تراجم اغلبية ، ص ١٧٨ .

أفكاره السياسية الدينية :

محمد بن سحنون عندما امتحن على عهد الأمير محمد لم يكن امتحانه ، كما كان الحال بالنسبة لوالده ، عن رأيه في خلق القرآن ، بل كان سؤاله : ما يقول في يزيد بن معاوية ؟ ، فكان السؤال يعني أن كان المتحن يقف الى جانب الأمويين ، فيكون بالتالي ضد العباسيين • ولقد رد محمد بن سحنون على السؤال ، موجها الكلام الى الأمير محمد ، قائلا : أصلح الله الأمير • لا أقول ما قالت الاباضية ، ولا ما قالت المرجئة • وعندما سئل عما قالتا ؟ قال : قالت الاباضية ان من أذنب ذنبا فهو من أهل النار • وقالت المرجئة : لا تضر الذنوب مع التوحيد • أتى يزيد عظيمـــا جسيما ، ويفعـــل الله في خلقه ما أحب(٣٣٧) •

موقفه من الارجاء : النزاع بين السحنونية والعبدوسية :

ومع أن ابن سحنون يقول انه لا يوافق على مقالة المرجئة ، فان رده هذا يعبر عن فكرة المرجئة الرئيسية التي تترك الحكم على كفر الناس وايمانهم الى الله • فالمعروف أنه كان لمحمد بن سحنون موقف محدد في مسالة الايمان ، اذ كان لا يستثني فيها ، ويقول : « أنا مؤمن عند الله » ، حتى أن خصومه في افريقية ، مثل : ابن عبدوس وأصحابه ، وكذلك أهل مصر والمشرق ، كانوا ينكرون ذلك عليه ، وعلى من يقوله ، وينسبون قائله الى الارجاء(٣٣٨) •

ولقد صار من يقولون بقول محمد بن سحنون هذا في الايمان فرقة عرفت في المغرب باسم « السحنونية » ، وكان أتباعها يسمون خصومهم من العبدوسية ، الذين يخالفونهم في هذا الرأي ، بـ « الشكوكية »(٣٣٩) •

---

(٣٣٧) تراجم اغلبية ، ص ١٨١ •

(٣٣٨) انظر تراجم اغلبية ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ • وابن عبدوس هو محمد بن ابراهيم ابن عبدوس (توفي سنة ٢٦٠ هـ) ، من كبار أصحابه سحنون وائمة وقته • والذي قيل فيه أنه كان أشبه الناس بأخلاق سحنون في فقهه ، وزهادته في ملبسه ومطعمه والذي قيل فيه انه كان صحيح الكتاب ، حسن التقييد ، عالما بما اختلف فيه أهل المدينة ، وما اجتمعوا عليه • وفي زهده ونسكه وعبادته ، قيل : انه كان مستجاب الدعاء (تراجم ، ص ٨٩ ـ ١٩٠)• وقارن ترجمة ابن عبدوس في رياض المالكي ، ترجمة رقم ١٤٨ ج ١ ص ٣٦٠ وما بعدها •

(٣٣٩) تراجم اغلبية ، ص ١٨٥ ، المالكي ، ج ١ ص ٣٦٢ • ومن حقيقة موقف ابن عبدوس الزاهد في مسالة الايمان هذه قيل ان الذي صح عنه أنه كان يقول : أدين بأني مؤمن عند الله في وقتي هذا ، ولا أدري ما يختم لي به • كما قال عمن زعموا أنه يشك في نفسه ، =

الخصومة مع القاضي وصاحب الصلاة :

والحقيقة أن العلاقة بين محمد بن سحنون المالكي وبين قاضي القيروان سليمان بن عمران الحنفي كانت سيئة حتى اضطر ابن سحنون الى أن يستتر ويتوارى أمام مطاردة القاضي ٠ وعندما خاف على نفسه اضطر الى أن يستجير بالأمير محمد الذى أمنه(٣٤٠) ٠

ولقد كانت علاقة ابن سحنون سيئة أيضا بصاحب الصلاة فى القيروان، أى أمام المسجد الجامع الذى كان من أعوان القاضى ، وهو ابن أبى الحواجب ، الذى كان كثير الاذاية لمحمد بن سحنون(٣٤١) ٠ وعندما ضاق ابن سحنون بأعمال صاحب الصلاة التي لا تليق بمثل من هو فى منصبه ، سعى لدى الوزير أحمد بن محمد الحضرمى فى عزل ابن أبى الحواجب عن الصلاة ، وتعيين عبد الله بن أحمد بن طالب التميمى ، قريب أبى العرانيق ، بدلا منه ٠

ودبر ابن سحنون ذلك التغيير بطريقة فاجأت كلا من سليمان بن عمران وابن أبى الحواجب ، وذلك قبيل صعود هذا الأخير على درجات المنبر ٠ وظهر كيد ابن سحنون ونكايته للقاضي ومعاونه صاحب الصلاة فى الخطبة التى خطبها ابن طالب ، والتى أصر فيها على أفكار اهل السنة التى تقرر حتمية المصير الانسانى ، والتى تأخذ بظاهر النصوص دون تفسير باطنى أو تأويل٠ فابن طالب قال فى خطبته : « ٠٠٠٠٠ والحمد لله الذى عذب على ما لو شاء منه

= ويقول ٠ لا ادرى وارجو أن اكون مؤمنا ان شاء الله ـ قال والله ما قلته قط ، فلا جزى الله من حكى هذا عنى خيرا ، ما شككت قط انى مؤمن عند الله ٠

وفى ذلك يرى القاضي عياض ان المسألة لا تتعدى الخلاف فى الألفاظ لا فى الحقيقة ٠ فمن التفت الى مغيب الحال والخاتمة وما سبق به القدر ، قال بالاستثناء ومن التفت الى حال نفسه وصحة معتقده فى وقته ، لم يقل به ولو انه يضيف الى ذلك ذكر ما نشأ من الخلاف بين مفكرى المسلمين بعد ثلاثمائة سنة فى مسألة الايمان عنده ٠ وهل المؤمن مؤمن عند الله أم لا ٠٠٠٠٠

(٣٤٠) تراجم أغلبية ، ص ١٧٩ ٠

(٣٤١) انظر تراجم أغلبية ص ١٧٩ وفى ذلك تشير الرواية الى ان ابن ابى الحواجب كان يؤذى ابن سحنون بطريقة صبيانة حانه اذ كان يميل على اذنه وهو بين أصحابه ويسمه بأقدع السباب ، ولكن ابن سحنون كان يتماسك ويرد عليه كيده بأن يقول له « نعم سنقضى لك حاجتك انشاء الله » وقارن المالكى ج ١ ص ٣٥٣ (حيث الرجل الذى كان يسب ابن سحنون مجهول الاسم)

عصم ! والحمد لله الذى على عرشه استوى ، وعلى ملكه احتوى ، وهو فى الآخر يرى »(٣٤٢) ٠

وهكذا ، فكما كان ابن سحنون سببا فى صعود نجم سليمان بن عمران اذ تقول الرواية أنه الذى سعى لدى والده سحنون حتى استخدمه فى كتابة القضاء ثم عينه قاضيا فى باجة وغيرها(٣٤٣) ، كان ابن سحنون هو السبب فى أفول نجمه ٠ والحقيقة أن تعيين ابن طالب فى امامة الصلاة كان « أولى نكبة سليمان » ، اذ لم ترل أمور عبد الله بن أحمد بن طالب تنمو الى أن صرف الأمير محمد أبو الغرانيق سليمان بن عمران عن قضاء افريقية ، وولى قريبه ابن طالب مكانه ، وان كان ذلك قد حدث فى السنة التالية لوفاة محمد ابن سحنون (أى سنة ٢٥٧ هـ/٨٧١ م)(٣٤٤) ٠ هذا ، وان كان سليمان ابن عمران سيعود الى قضاء افريقية مرة أخرى فى سنة ٢٥٩ هـ/٨٧٢ م ، عندما يعزل الأمير محمد أبو الغرانيق قريبه التميمى ابن طالب(٣٤٥) ٠

وفى السنة التالية لعزل ابن طالب وولاية سليمان بن عمران الثانية لقضاء القيروان ، وهى سنة ٢٦٠ هـ/٨٧٣ م ، كانت المجاعة الكبرى التى عمت المشرق والمغرب ، والتى أدت الى انتشار الوباء والطاعون ، كما تذكر حوليات ابن عذارى(٣٤٦) ٠ وفيها كانت وفاة الفقيه الزاهد محمد بن ابراهيم ابن عبدوس وأشهر تلاميذ سحنون ، ومنافس محمد بن سحنون فى العلم

---

(٣٤٢) تراجم أغلبية ، ص ١٨٠ ٠

(٣٤٣) تراجم اغلبية ، ص ١٧٨ ، وانظر فيما سبق ، ص ١٠١ وهـ ٣٠٢ ٠

(٣٤٤) أنظر تراجم ، ص ١٨١ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ ٠ وفى ابن طالب قيل انه كان شديد الأعظام لابن عبدوس ، عارفا بحقه ، وعليه كان يعتمد فى أحكامه ٠ وفى موقف ابن طالب من ابن سحنون وابن عبدوس ، قيل : كان وجه ابن طالب الى ابن سحنون ، وقلبه الى ابن عبدوس (تراجم ، ص ١٩٢) ٠ والحقيقة انه رغم ان ابن عبدوس — مثل ابن سحنون — كان من تلاميذ سحنون الا أنه كان يهتم فى فقهه بالمعنى والرأى والاستنباط أكثر من اهتمامه بالاسناد ومعرفة الرجال ، وهو الموضوع الشكلى الذى كان يهتم به ابن سحنون كثيرا (تراجم ، ص ١٩١) ٠

(٣٤٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٦ — هذا وسيعود عبد الله بن أحمد بن طالب التميمى الى القضاء مرة ثانية سنة ٢٦٧ هـ/٨٨٠ م ، بعد عزل سليمان بن عمران للمرة الثانية ، على عهد ابراهيم بن أحمد بن محمد كما يأتى ٠ وستكون وفاة سليمان فى سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٣ م (ابن عذارى ج ١ ص ١١٩) ٠ أما عن ابن طالب فسيعتزل للمرة الثانية سنة ٢٧٥ هـ/٨٨٨ م ، ويموت مسموما بتدبير الأمير (ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢١ ، وانظر فيما بعد ص ١٢٤ — ١٣٠) ٠

(٣٤٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٦ ٠

والفقه ، والذي كان قد نعرف عنه في النسك والزهد حتى قيل انه صلى الصبح بوضوء العتمة ثلاثين سنة . نصفها وهو طالب يدرس ونصفها وهو منكب على العبادة(٣٤٧) . وكان ابن عبدوس متواضعا في مجلس العلم ، زائلا من صدر فراشه ، حتى لا يعرف انه صاحب المجلس(٣٤٨) . كما كان يتخشع في صلاته حتى يسقط الرجل ممن يصلون خلفه مغشيا عليه(٣٤٩) . وكان سحنون قد استكتب ابن عبدوس في جملة من استكتبهم في القضاء لعبيد الله بكشف الشهود فأنكر اشياء مما يجري في الديوان ، فاعتزل الكتابة حتى قيل انه هرب الى سوسة(٣٥٠) . وعلى الجملة ، فقد قيل فيه أخيرا ، وليس هذا بغريب ، انه كان مستجاب الدعاء(٣٥١) .

وبناء على ما تقدم فاذا كانت علاقة محمد بن سحنون ، وهو الذي لم يكن له شيء من نسك ابن عبدوس وعبادته ، لم تكن دائما على ما يرام بالأمير محمد أبي الغرانيق ، فانه يكون من المقبول جدا ألا تكون علاقة الأمير ، الذي وهب حياته في أواخر سنوات حكمه للهو والطرب والتصيد(٣٥٢) ، على ما يرام مع الزاهد الكبير ابن عبدوس .

وفاة ابي الغرانيق :

نهاية تعسة للشاب اللاهي وسط اقطاب التدين والنسك :

وهكذا تقول الرواية أن ابن عبدوس دعا على أبي الغرانيق ، واستجيبت دعوة الرجل الصالح ، فوقع الأمير الذي كان اللهو والشراب قد أنهك قواه فريسة المرض . وكان مرضه من الشدة بحيث أقعده لفترة طويلة طريح الفراش ، حتى انه لقب في أواخر أيامه بـ « الميت » ، كما كان يشفع عليه بالموت في كثير من الأيام(٣٥٣) .

---

(٣٤٧) تراجم أغلبية ، ص ١٩٣ ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ٣٦٠ — ٣٦١ (حيث النص على أن المدة ٢٨ سنة) .

(٣٤٨) المالكي ، ج ١ ص ٣٦١ ، تراجم اغلبية ، ص ١٩٣ .

(٣٤٩) تراجم أغلبية ، ص ١٩٤ .

(٣٥٠) تراجم اغلبية ص ١٩٤ .

(٣٥١) تراجم أغلبية ، ص ١٩٠ .

(٣٥٢) وفي ذلك تقول الرواية انه غلب عليه الشرب حتى أنه سكر مرة ، وهو بمدينة المرابطين سوسة ، وركب البحر حتى صار الى جزيرة قوصرة ، ثم انه انصرف وهو خائف بعد أن ذهب عنه السكر . أنظر النويري ، ج ٢٢ ص ١١٧ آ .

(٣٥٣) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ آ — ١١٦ ب ، تراجم اغلبية ، ص ١٩٠ .

تلك كانت نهاية أبي الغرانيق الذي أنهك ، خلال حكمه الذي استمر حوالي عشر سنوات ونصف السنة ، والذي عاصر خلافة كل من : المستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد من خلفاء بغداد ، في العبث والشراب • كما أنه بدد أموال الدولة قبل أن يموت في ٦ من جمادى الأولى سنة ٢٦١ هـ/١٦ فبراير ٨٧٥ م ، وهو في الرابعة والعشرين من عمره ، حتى لم يجد اخوته ، ومنهم ابراهيم الذي خلفه ، في بيت المال شيئا يذكر(٣٥٤) •

أبو اسحق ابراهيم بن أحمد بن محمـــد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب : ٢٦١ - ٢٨٩ هـ/٨٧٥ - ٩٠٢ م :

ولايته : تنحية أبي عقال بن أبي الغرانيق :

كان أبو الغرانيق محمد قد عهد لابنه الطفل أبي عقـــال بالملك من بعده ، على أن يكون ابراهيم : عمه ، الذي كان واليا على القيروان ، وصيا عليه أو نائبا للملك ، كما يقال ، الى أن يبلغ الأمير الطفل سن الرشد • ولكي يتأكد ، وهو في فراش المرض ، ويموت مرتاح البال الى أن ابراهيم أخاه سيفي لابنه الطفل ، جعل ابراهيم يحلف خمسين يمينا في جامـــع عقبة المبارك بالقيروان بأن يفي لولي العهد الصغير وألا ينازعه في ملكه ، وذلك في حضرة مشايخ الأسرة من بني الأغلب ، وأمام قضاة القيروان وفقائها من أهل الحل والعقد(٣٥٥) • ولكنه ما أن توفي أبو الغرانيق حتى قام أهـــل القيروان الى واليهم ابراهيم ، الذي عرفوه حسن السيرة ، وطلبوا اليه أن يتولى الامارة •

وفيما يتعلق بالحنث في الأيمان التي حلفها ، فقد حللوها عن طريق : أنهم كارهون لامارة الطفل ، وأنهم المسئولون عن منعه من الامارة ، اذ أنه ليس له بيعة في أعناقهم • ومع كل ذلك فلقد طمأنوه بأنه لن ينازع ولي العهد الطفل ولن يدخل قصره ، بل أنه سيحكم من داره هو : الموجودة في المدينة الملكية المعروفة بالقصر القديم •

= والذي يفهم من الرواية ان مرض أبي الغرانيق هو الذي لبث أن ابن عبدوس مستجاب الدعوة •

(٣٥٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ أ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٤ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٢٦ •

(٣٥٥) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ ، ج ٧ ص ٢٨٤ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ أ ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٦ ، بن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ •

وهكذا وافق ابراهيم على أن يلي عرش افريقية ، وسار مع أهل ا
الى القصر القديم • ولكن الأمر تطلب محاربة الحرس الأميرى هناك حتى
ابراهيم داره • وفيها بايعه مشايخ أهل القيروان ثم وجوه أهل افريقية
بايعه جماعة بنى الأغلب(٣٥٦) •

عهد الاستبداد ، ذروة العصر الأغلبى :

أمير نموذج لملوك الأغالبة :

وهكذا آلت امارة الدولة الأغلبية الى ابراهيم بن أحمد الذى حكم
من ٢٨ (ثمانية وعشرين) عاما ونصف ، وهى أطول عهود كل ملوك
فى افريقية • ولقد وصلتنا رواية الرقيق التفصيلية عن عهد الأمير ابر
وهى الرواية التي ينقلها النويرى بحذافيرها فى نهاية الأرب ، وتكون
رواية ابن عذارى ومن نقل عنه • ومنها يتضح لنا أن عهد ابراهيم
يمثل طبيعة الحكم الأغلبى على وجه العموم ، بما فيه من حسنات وسي

فابراهيم بن أحمد له حسناته الكثيرة من كف الظلم ونشر ال
وله سيئاته التى لا تغتفر من أعمال العنف التى تصل الى سفك الد
الأسباب ، وربما لغير سبب ، والتى لم يسلم منها خـــدم الأمير وقر
وأهله ، من : بنى عمومته واخوته وحتى أبنائه وبناته • أما عن سياسة
العامة : فالحرب فى صقلية تزداد ظفرا من سنة الى أخرى وفيها يتم
سرقوسة وطبرمين • والأعمال العمرانية ، من : بناء المدن والمحارس
سيرا حثيثا ، كما هو الحال فى عصور الازدهار ، ولا يعـــرقل م
الاضطرابات المعتادة فى أقاليم : طرابلس ، وتونس ، وبلاد الزاب
نجح الأمير فى قمعها ، وان كان بشيء من العنف والقسوة •

ولا بأس من أن تكون نظرة ابن الأثير الاجمالية لعهد الأمـــير ا
ابن أحمد — رغم أن مؤرخنا الكبير كان يعرف رواية الرقيق — هى
جملته يركز على حسناته ، دون مساوىء أفعاله • فابراهيم بن أحـ
نظر ابن الأثير ، كان عادلا حازما فى أموره : أمن البلاد ، وقتل أهل
والفساد • وكان يجلس للعدل فى جامع القيروان ، يوم الخميس والاثـ

---

(٣٥٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ أ — ١١٧ ب • بن عذارى ، ج ١ ص
ابن الخطيب ،أعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٧ •

كل أسبوع ، يسمع شكوى الخصوم ، ويصبر عليهم ، وينصف بينهم(٣٥٧) .

أما عن مساوىء أفعاله التي ذكرها الرقيق ، فانها لم تلق اذنا صاغية من ابن الاثير فأسقطها من روايته ، على أنها ظالمة أو غير واقعية ــ حسبما رأى المؤرخ الكبير ، كما نظن . ولو أن افتراضنا هذا لا يمنع من أن تكون المعلومات المشينة قد سقطت من نساخ ابن الأثير ــ فهى ، كما يرويها النويرى مقسمة الى نوعين وضعهما تحت عنواني :

١ ــ ومن مساوىء أفعـــاله .

٢ ــ ومن قبيح أفعـــاله .

ومن ذلك : « أنه أسرف فى سفك دماء أصحابه وحجابه ، حتى يقال انه افتقد منديلا كان يمسح به فمه من شرب النبيذ ، وكان قد سقط من يد بعض جواريه فأصابه خادم فقتله ، وقتل بسببه ثلاثمائة خادم » . ويعلق على ذلك الراوى ، فيقول : « وهذا غاية فى الجور ونهاية فى الظلم »(٣٥٨) . أما ابن خلدون الذى أخذ برواية ابن الأثير التى تثنى على ابراهيم فالظاهر أنه عاد يلتمس له العذر بالمرض العقلى بعد أن أورد رواية الرقيق ، فقال : « انه أصابه آخر عمره ماليخوليا أسرف بسببها فى القتل ...(٣٥٩) .

---

(٣٥٧) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ٢٨٤ (ابن خـــلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣) ، وقارن رواية الرقيق فى النويرى ، المخطوط ج ٢٢ ص ١٢٢ ب ــ ١٢٣ أ ، حيث يقول انه كان أنصف الملوك للرعية ولا يرد عنه متظلم يأتيه ، وكان يجلس بعد صلاة الجمعة ، وينادى مناديه : من له مظلمة ! فربما لم يأته أحد لكف بعض الناس من بعض . هذا ، وكان يقمع أصحاب الأقدار والأغنياء عن الظلم ، ويعمل على انصاف الرعية « فهم مادة الملك » ، ويبالغ فى عقوبة أهل بيته وولده اذا ظلموا . وهو ينصف المتظلمين حتى من والدته ، كما سنرى .

(٣٥٨) نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ ب ــ ١٢٤ أ ــ ١٢٤ ب . وتضيف الرواية الى ذلك أنه قتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به ، وقتل ثمانية من اخوته ، وانه قتـــل بناته اللاتى ربتهن أمه خفية منه . ومن قبيح أعماله يذكر له كلفه بالأحداث ، وانه كان له فى بعض قصوره منهم نيف وستون حدثا ، وانه قتلهم لأمور ساءته منهم ، بل ويبلغ الحد الى طرحهم فى النار أو اغلاق بيت الحمام السخن عليهم . وانه كان يقتل بأنواع اخـــرى من العذاب ، مثل : الخنق أو البناء على من يريد قتله حتى يموت جوعا وعطشا ، وغير ذلك مما أضرب ابن الأثير عن الاشارة اليه . وانظر ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٩ وما بعدها . حيث يضيف ابن الخطيب تعليقا له ، يقول فيه : « اللهم لا ترحمه ، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذى لا يعقبه رضاك ولا تمنحه رحمتك » .

(٣٥٩) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٤ .

أما ابن عذارى فقد قسم سيرة ابراهيم الى فترة طيبة استمرت لسبع سنوات ، كان فيها حسن السيرة ، تبعتها فترة تغيرت فيها أحواله الى قرب نهاية حكمه عندما مال الى الزهد والتنسك ، وترك الملك لابنه أبى العباس ونذر نفسه للجهاد فى صقلية(٣٦٠) ٠

والمهم أنه بعد أن استقر ابراهيم فى داره فى القصر القديم ، فى مواجهة قصر ابن أخيه الطفل أبى عقال ، بدأ حكمه بداية طيبة ، فولى حجابته لمحمد ابن قرهب ، وأمر بانفاذ الكتب الى العمال والجباة بحسن السيرة فى أعمالهم وشدد على ضرورة الرفق بالرعية(٣٦١) ٠

بناء عاصمة جديدة : رقادة :

وأهم ما يميز عهد ابراهيم بن أحمد هو ما قام به من السير على سنة كبار الحكام من منشئى الدول ، وذلك باتخاذ عاصمة جـــديدة ، غير القصر القديم ، وهى المدينة التى كان قد بناها ابراهيم بن الأغلب مؤسس الأسرة وسماها بـ « العباسية » ٠ ففى سنة ٢٦٣ هـ/٨٧٦ م بدأ ابراهيم بن أحمد فى بناء مدينة رقادة ، على ٤ (أربعة) أميال من القيروان ، والتى أصبحت احدى ضواحى مدينة عقبة ، مثلها فى ذلك مثل القصر القديم ٠

أما عن التسمية « رقادة » ، فقد قيل انها نسبة الى الرقاد أى النوم وذلك لطيب مناخ المنطقة التى أختيرت للبناء(٣٦٢) ٠ وخططت المدينة بحيث

---

(٣٦٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٢ ٠

(٣٦١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ ب ، ابن الخطيب ، اعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٢٩ ، وانظرابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ٢٨٤ ٠

(٣٦٢) وفى ذلك قيل ان الأمير ابراهيم خرج يتجول خارج القيروان الى أن وصل منطقة رقادة ، فوجدها جيدة المناخ معتدلة الهواء ، طيبة التربة ، حتى غالبه النعاس فيها وكان يشكو من الارق ــ فلذلك سميت رقادة ٠ هذا ، كما قيل ان من دخلها لم يزل ضاحكا مستبشرا بالسرور لنفس هذه الأسباب ٠ انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ ب ، كتاب الاستبصار ، ص ١١٦ والهامش ١ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ ٠ وقارن البكرى ص ٢٧ والحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٢ (حيث القصة التى تقول ان الأمير كان قد اصيب بالأرق فأمره اسحق الطبيب ، بعد أن فشل فى علاجه ، بالرياضة ٠ فلما وصل الى المكان نام فى موضع المدينة رقادة) ٠

هذا ولو أن البكرى يذكر رواية اخرى (ص ٢٨) تقول ان الموضع سمى « رقادة » نسبة الى رقاد جثث قتلى قبائل ورفجومة الذين تغلبوا على القيروان وذلك عندما خرج اليهم

كان دورها ١٤ (أربعة عشر) ألف ذراع(٣٦٣) . وبنيت بها القصور العجيبة ومسجد جامع(٣٦٤) . وكان أول القصور التى بنيت فيها هو القصر المعروف بالفتح ، الذى تم بناؤه فى العام التالى (٢٦٤ هـ/٨٧٧ م) ، فانتقــل اليه ابراهيم بن أحمد من القصر القديم(٣٦٥) . وبذلك صارت رقادة العــاصمة الجديدة ، وأصبحت رمزا لدولة ابراهيم الثانى .

واستمرت أعمال ابراهيم فى اعمار رقادة من اجراء الميـاه اليهـا ، واغتراس صنوف الثمار الطيبة والرياحين ، وبناء القصور داخل أسـوار المدينة ، مثل : قصر « بغداد » وقصر « المختار » ، حتى صارت رقادة ، قبل نهاية عهده ، أكبر من القيروان(٣٦٦) . وهكذا ، لم تزل دار ملك بنى الأغلب الى أن هرب عنها زيادة الله أمام أبى عبد الله الشيعى(٣٦٧) .

والى زيادة الله الأخير ينسب انشاء الصهريج الكبير والقصر المواجه له ، اللذين كان من مفاخر رقادة . وكان طول الصهريج ٥٠٠ ذراع وعرضه ٤٠٠ ذراع حتى سمى بالبحر . أما عن القصر العظيم الذى بنى فى مواجهته على اربع طبقات ، وسمى بـ « العروس » (كما عرف بقصر البحر) ، فقد أنفق فيه ٢٣٢ الف دينار(٣٦٨) ، وكان مضرب المثل فى الفخامة والأبهة(٣٦٩) .

= ابو الخطاب عبد الأعلى امام الاباضية من طرابلس ، وقتلهم ، فى ذلك الموضع - الذى كان اذ ذاك منية - قتلا ذريعا ، فسميت ، رقادة .

(٣٦٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ ب .

(٣٦٤) الحلة السيراء ج ١ ص ١٧٢ .

(٣٦٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢ ٢ص ١١٧ ب (حيث تقول الرواية انه انتقل الى رقادة فى سنة ٢٦٣ هـ/٨٧٦ م) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ .

(٣٦٦) الحلة السيراء ج ١ ص ١٧٦ ، وانظر البكرى الذى يحدد دورها بأكثر من ٢٤ الف ذراع ، أى حوالى ١٢ كيلو متر (ص ٢٧) . وفى عمران رقادة يقـول حسن حسنى عبد الوهاب انه كان يوجد فى « قصر الصحن » على مسافة من المدينة « بيت الحكمة » ، وانه الى جانب المستشفى « الدمنة » كان لرقادة « دارة الطراز » - مثلها مثل المواسم الكبيرة . كما وجد فى ظاهرها ميدان واسع هو « الملعب » الذى كانت تجرى فيه الخيل ، ويتخذه الجند لأيام العرض . وفى جانب الميدان كان مصلى العيدين (انظر الورقات ، قسم ١ ص ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢) .

(٣٦٧) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٢ .

(٣٦٨) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٦ .

(٣٦٩) انظر فيما بعد ، ص ١٧٥ .

وفي فخامة قصر العروس هذا ، قيل ان عبيد الله المهدى كان يقول انه واحد من ثلاثة أشياء بافريقية لم ير مثلها في الشرق(٣٧٠) ٠

وتشير الرواية الى أنه عندما انتقل ابراهيم بن أحمد من القصر القديم الى رقادة ، منع بيع النبيذ بمدينة القيروان ، وأباحه في رقادة(٣٧١) ٠ وبذلك لم تعد رقادة دار الأمير ومسكنه فقط ، بل صارت متنزها له وموضع فرجة حيث كان يأتيه الندماء والمداحون والشعراء(٣٧٢) ٠

وتوجد بقايا رقادة حاليا على بعد ٥ (خمسة) كيلومترات من بقايا القصر القديم ، أى على بعد ٩ كم جنوبى القيروان ٠ ويوجد هناك حوض عظيم مربع الشكل ، له جدران ضخمة ودعامات شبيهة بدعامات مواجل القيروان ، وأغلب الظن أنه الماجل الذى كان يعرف بالبحر والذى أعطى لقصر العروس اسم « قصر البحر » أما عن القصر نفسه فلم تبق الا بقايا جدران قليلة منه ، وأرضية بعض القاعات المكسوة بالفسيفساء المكونة من مكعبات حجرية صغيرة الحجم ، زخرفتها فى شكل ضفائر حلزونية ٠ ويشـــير ج٠ مارسيه الى أنه يمكن أن يوجد لهذه الفسيفساء شبيه فى بقايا آثار كنـــائس افريقية فى القرنين ٣ ، ٤ م ٠ وهذا يعنى أن صانع الفسيفساء الأغلبية صانع محـــلى ، وأن الفن كان وطنيا موروثا من القديم(٣٧٣) ٠

---

(٣٧٠) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٦ - ويسكت النص عن ذكر المجيشتين الأخريين ، اما البكرى (ص ٢٦) فيذكر اثنتين فقط ماجل القيروان وهذا القصر ٠

(٣٧١) أنظر البكرى ، ص ٢٧ - حيث الاشارة الى شعر بعض الظرفاء بهذه المناسبة ، وفيه يقول ٠

يا سيد الناس وابن سيدهم ومن اليه القلوب منقادة
ما حرم الشرب فى مدينتنا وهو حلال بأرض رقادة

وقارن الاستبصار ، ص ١١٦ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٣ ٠

(٣٧٢) أنظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٣ - حيث الاشارة الى انتجاع الشاعر بكر ابن حماد التاهرتى الأمير ابراهيم ومدحه اياه ، والأمير مصطبح فى الجنان مع الجوارى ٠ وفى حدائق رقادة وغروسها التى أثمرت وأكل من ثمرها ابراهيم ، تقول الرواية ان القاضى عبد الله ابن طالب عندما صحب الأمير الى تلك الجنان ، طلب منه ان يشكر الله على أنه غرسه وأكل منه ثم طلب منه أن يدفع من الثمر صدقة أهل الذمة (مستشفى القيروان) ، ثم طلب منه أن يعزل الجائرين من عماله وأن يعدل فى الرعية ٠ أنظر حسن حسنى عبد الوهاب ، الورقات ، القسم ١ ص ٣٦٤ (عن رياض النفوس للمالكى) ٠

(٣٧٣) أنظر ج٠ مارسيه ، مختصر الفن الاسلامى (بالفرنسية) ، ص ٤٣ - ٤٤ ٠

وكان أول الأنباء السعيدة التي تلقاها الأمير ابراهيم الثاني في قصره الجديد هو نبأ سقوط مدينة سرقوسة بين أيدي القوات الأغلبية في صقلية في نفس تلك السنة(٣٧٤) ، وستظل أخبار صقلية تشغل الجزء الأكبر من حولیات ابراهيم بن أحمد .

الخدم الصقالبة في القصر القديم يحتجون على تغيير العاصمة : وابراهيم يرد عليهم بالعنف :

ولكن انتقال ابراهيم الى رقادة لم يتم دون ردود فعل عنيفة لدى موالي الأغالبة ، من : الصقالبة والخدم في المدينة الملكية القديمة ، ممن ساءهم خروج الحكم من القصر القديم الذي نشأوا فيه . والظاهر أن ابراهيم بادر الى قائد هذا التململ منهم ، وهو فتى يقال له مطروح (ابن أم بادر) فقتله ، مما دعا الى التذمر في القصر القديم بين الموالي من الجند الأغلبي الصقلبي ، فشقوا عصا الطاعة ، وقطعوا طريق السابلة ، فيما بين رقادة والقيروان . ومع أن ابراهيم ترك تسوية هذه المسألة الى أهل القيروان الذين دافعوا عن مصالحهم ، فخرجوا الى لقاء موالي القصر القديم في أعداد لا تحصى حتى ردعوهم وأجبروهم على طلب الأمان ، فان الأمير كان يضمر للمخالفين أمرا عظيما .

فعندما حان وقت دفع الأرزاق الى الجند والخدم ، جلس ابراهيم في قصره الجديد المعروف بقصر الفتح في رقادة ، وحضر جميع العبيد والموالي من القصر القديم ، فكان كلما تقدم رجل منهم نزع منه سيفه وقبض عليه ، حتى تم توقيفهم كلهم . وتقول الرواية ان ابراهيم شتتهم ومزقهم شر ممزق ، فأمر بقتل بعضهم ضربا بالسياط وصلبهم ، كما أمر بحبس عدد منهم في سجن القيروان حتى الموت ، ونفى عددا منهم الى صقلية(٣٧٥) .

استخدام الجند من السودان :

وكان التخلص من الخدم الصقلبي سببا في أن اتجه ابراهيم الى الاستعاضة عنهم بالعبيد من السودان ، فاشترى منهم أعدادا كثيرة ، وأحسن تدريبهم على الجندية ، وكساهم الكساء البديع ، وصار يعتمد عليهم في الحروب ، فظهر منهم شجاعة وجلد وقوة(٣٧٦) .

---

(٣٧٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٨ .
(٣٧٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ .
(٣٧٦) النويري المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ ، وانظر فيما بعد ، ص ١٣٢ وص ٤٣٦ .

متاعب خارجية فى طرابلس :

مواجهة غير متوقعة بين الاغالبة والطولونيين :

والظاهر أن مذبحة الموالى الصقلبية كانت أولى المتاعب التى حلها ابراهيم ابن أحمد بالعنف والقسوة • وأنها كانت أول بشير بتغير احواله الذى أشار اليه الكتاب • أما المتاعب الحقيقية فقد أخذت تهب رياحها عليه اعتبارا من السنة التالية ، وهى سنة ٢٦٥ هـ/٧٨ — ٨٧٩ م ، وذلك عندما فكر العباس ابن أحمد بن طولون فى أن يستقل عن والده بامارة يقتطعها لنفسه فى برقة التى كانت تابعة لمصر وقتئذ ، ويضيف اليها ما أمكنه اضافته من طرابلس والأقاليم الشرقية من المملكة الأغلبية • وفى الوقت الذى استقر فيه العباس فى برقة أتى القحط العظيم الذى آلم بافريقية سنه ٢٦٦ هـ/٨٧٩ م ، ممــا أدى الى الغلاء المفرط ، فعكر صفو ابراهيم ، حين كان اشد ما يكون حاجة الى الصفاء •

والظاهر أن العباس بن أحمد بن طولون وجه أنظاره نحو الغرب اذ كان يعلم أن الأمور غير مستقرة فى برقة ، التى كانت أعلنت العصيان على الحكم الطولونى منذ حوالى أربع سنوات • ففى سنة ٢٦١ هـ/٧٤ — ٨٧٥ م ثار أهل برقة ، وأخرجوا اميرهم المصرى محمد بن الفرج الفرغانى • وعندما سير اليهم أحمد بن طولون غلامه المعروف بلؤلؤ ، على رأس قواته ، ناصحا اياه الا يكون العنف الا آخر وسيلة يلجأ اليها ، لم تنجح سياسة اللين • واضطر لؤلؤ الى حصر المدينة ، وضربها بالمجانيق قبل أن تعود الى أنس الطاعة • مما دعا لؤلؤا الى الانتقام من زعماء الثورة ، فطبق على بعضهم قانون المفسدين فى الأرض ، وعاد ببعضهم الى مصر حيث شهر بهم ، بينما خلع بن طولون على قائده المظفر ، وطوق رقبته بطوقين من الذهب(٣٧٧) •

مسير العباس بن أحمد بن طولون الى برقة :

فالذى يهمنا اذن — دون البحث فى أسباب الحركة الدفينة — أن العباس ابن أحمد بن طولون انتهز فرصة غياب والده فى الشام ، وقام بانقلاب ساعده

---

(٣٧٧) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ٢٨٣ • أما عن سلخ برقة عن افريقية وضمها الى مصر سنة ١٧٤ هـ/٧٩١ م ، فانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٧٤ — وهـــذا ما غاب عن ابن خلدون الذى يقول ان الطولونى ملك برقة من يد محمد بن قهرب قائد بن الأغلب (ج ٤ ص ٢٠٢) •

بيه عدد من كبار القواد(٣٧٨) ، فاستولى على ما كان فى بيت المال فى مصر ، مما قدر بثماناثة حمل من دنانير الذهب ، وقوم بمليون ومائتى ألف دينار . وقبض العباس على وزير والده ، وهو أبو عبد الله أحمد بن محمد الكاتب ، وساقه معه مقيدا فى اتجاه برقة(٣٧٩) ، التى وصـــل اليها فى ثمانمائة فارس ، وعشرة آلاف راجل من السودان ، منهم خمسة آلاف جمل(٣٨٠) ، م شهر ربيع الأول سنة ٢٦٥ هـ/نوفمبر ٨٧٨ م(٣٨١) .

ولما كان ابن عذارى يجعل وصول العباس الى برقة فى ربيع الآخر من سنة ٢٦٧ هـ/نوفمبر ٨٨٠ م ، وذلك فى اطار روايته لفتنة ولد ابن طولون حين أراد التغلب على افريقية ، يكون من المقبول أن تكون أحداث الفتنة قد امتدت على طول السنتين أو بعضهما(٣٨٢) . فالواضح أن الذى يقصـــده ابن عذارى ليس وصول ولد بن طولون الى برقة ، بل بدء العمليات العسكرية ضد الأغالبة فى ولاية طرابلس ، مما يعنى أن خروج العباس نحو طرابلس تم بعد أكثر من سنة من وصوله الى برقة . والواضح من النصوص أنه خلال

---

(٣٧٨) ابن الأثير ، سنة ٢٦٥ هـ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، وانظر ابن تغرى بردى ، النجوم ، سنة ٢٦٥ ، ج ٣ص٤٠ . ولمزيد من التفصيلات انظر الكندى ، الولاة والقضاة ، ط. جست ، بيروت ١٩٠٨ ، (أحداث سنة ٢٦٥ هـ) ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٣٧٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٨ .

(٣٨٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٨ .

(٣٨١) ابن الأثير ، ســـنة ٢٦٥ هـ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ ، ابن تغرى بردى ، سنة ٢٦٥ ، ج ٣ ص ٤٠ . وقارن الكندى ، الولاة والقضاه ، ص ٢٢١ (حيث تقول الرواية ان خروج العباس الى الجيزة كان فى ٨ شعبان سنة ٢٦٥ هـ ، وأن عودة أحمد بن طولون من الشام الى الفسطاط كان فى شهر رمضان التالى من نفس السنة - وهو الأمر الذى يستحق اعادة النظر ، خاصة وان خروج أحمد بن طولون الى الشام كان فى شعبان من سنة ٢٦٤ هـ (ص ٢١٩) .

(٣٨٢) والذى نراه هو أن ابن عذارى (ج ١ ص ١١٨) يتعجل الأحداث جميعا ويجعلها تدور فى نفس سنة ٢٦٧ هـ ، من : خروج ولد بن طولون من مصر واستقراره فى برقة ، وخروجه الى طرابلس على عجل ، قبل أن يعود والده من الشام ، وقبل أن يستعد ابراهيم بن أحمد للمقاومة . وهو الأمر الذى وان بدا غير طبيعى ، فهو لا يختلف كثيرا عن رواية كـــل من ابن الأثير والنويرى وابن تغرى بردى الذين يجعلون الأحداث تدور أيضا كلها فى سنة ٢٦٥ هـ/ ٨٧٨ م . ورغم أن ابن الأثير يعرف أن عملية العباس انتهت تماما فى ســـنة ٢٦٨ هـ/٨٨٢ م (الكامل سنة ٢٦٥ هـ ج ٧ ص ٣٢٥ وانظر ابن خلدون (ج ٤ ص ٢٠٣) الذى يجعل خروج العباس فى سنة ٢٦٥ هـ والمعركة فى سنة ٢٦٧ هـ) . وهكذا يكون التوفيق بين الروايتين أمرا مناسبا .

تلك الفترة كان أحمد بن طولون قد عاد من الشام الى مصر ، وأرسل الى ابنه العباس يلاطفه ، بل ويستعطفه من أجل العودة الى بلده . ولكن خشية من كان مع العباس من القواد من العقاب(٣٨٣) اذا عادوا ، جعلوه لا يستجيب الى طلب والده ، بل وجعلوه يتمادى في تطلعه أكثر فأكثر نحو الغرب اما من أجل تكوين امارة معقولة بضم طرابلس الغنية الى برقة ، واما من أجل الابتعاد عن يدى والده القوى ، الذى قد لا تكون برقة بعيدة عن مناله(٣٨٤) ، كما حدث في تجربة برقة سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤ م .

العباس يتصل بالقبائل في طرابلس وافريقية :

هكذا يكون العباس قد استقر في برقة لمدة عام وأكثر ، وهو ينظر في خير وسيلة لدخول طرابلس ، بل وافريقية أيضا . فأخـــذ يكاتب رؤساء القبائل هناك من البربر ، حسبما تقول رواية ابن الأثير(٣٨٥) . ولما كان هؤلاء يقفون موقف المعارضة من الـــدولة الأغلبية لأن كثـــيرا منهم كانوا من الاباضية ، فقد استجاب له بعضهم ، وامتنع بعضهم منه . وتقول رواية ابن الأثير ، أكثر من ذلك ، ان العـــباس الطولوني أراد أن يغرر بابراهيم ابن أحمد ، فكتب اليه يقول : « ان أمير المؤمنين قد قلدني أمر افريقيـــة وأعمالها »(٣٨٦) ، وهو الأمر المستغرب(٣٨٧) .

---

(٣٨٣) ابن الأثير ، سنة ٢٦٥ هـ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، وانظر الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٢٢٠ .

(٣٨٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٨ ، وانظر الكندى ، الولاة ... ، ص ٢٢٢ (حيث ... على أن العباس رأى أن افريقيه أمتع له من برقة) .

(٣٨٥) ابن الأثير ، سنة ٢٦٥ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ـ وهو الأمر الذى تنكره رواية ابن عذارى ١ ص ١١٨) عندما تقول ان العباس لم يقبل نصيحة أبى عبد الله أحمد بن محمد الكاتب ... والده ، بأن يؤخر التقدم الى طرابلس حتى يصانع البربر .

(٣٨٦) ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٦٥ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، وقارن الكندى ، ص ٢٢٢ (حيث ... ل الرواية ان العباس كتب الى ابراهيم بن أحمد : « ان كتاب المعتمد ورد عليه بتقليده افريقية يأمره بالدعاء له بها ، ويخبره انه سائر اليه » .

(٣٨٧) فالمعروف ان الخليفة العباسى المعتضد لم يهدد ابراهيم بن أحمد بالخلع الا فيما بعد بسنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م ، كما سنرى فيما بعد ، مما يدعو الى الظن أنه ربما كان في الأمر خلط من بعض الكتاب ، الا اذا كان العباس بن أحمد بن طولون كان على دراية بسوء سيرة ابراهيم بن أحمد في ذلك الوقت المبكر ، أو بخلافات بين أفراد الأسرة الأغلبية ترتبت على الغدر بابن أخيه أبى عقال ، أو بسبب فتكه بالموالى من الصقلبية ، كما رأينا .

ابراهيم يبعث قائده ابن قرهب نحو طرابلس :

والمهم أن استجابة عدد من زعماء البربر في أقاليم افريقية الشرقية شجع العباس على المسير نحو لبدة شرق طرابلس . وعندما وصل الى ابراهيم ابن أحمد خبر مسيرة العباس هذه أسرع باخراج قائده أحمد بن قرهب - أخي الحاجب محمد بن قرهب - في ١٦٠٠ (ألف وستمائة) فارس خيلا مجردة لا رجل فيها ، كما تقول رواية ابن عذارى ، وأمره بالاسراع ليلا نحو طرابلس التي دخلها فعلا قبل وصول العباس الى لبدة(٣٨٨) . وفي طرابلس عمل ابن قرهب على حشد ما أمكنه حشده من جند طرابلس ، ومن بربر المنطقة المجاورين ، وأسرع نحو لبدة فدخلها قبل أن تصلها مقدمة القوات الطولونية(٣٨٩) .

اللقاء بين الأغالبة والطولونيين في وادي ورداسة :

وخرج بن قرهب بفرسانة من لبدة متجها نحو الشرق حيث بدت له طلائع العباس بن أحمد بن طولون على بعد ١٥ (خمسة عشر) ميلا من لبدة ، في موضع يعرف عند الرقيق بوادي ورداسة(٣٩٠) . ومع أن العباس لم يزحف نحو لبدة الا بـ ٨٠٠ (ثمانمائة) فارس فقط ، يتبعهم ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) راجل ، من السودان ، فان الخدعة التي قام بها عندما جعل نصف سودانة الأخرين ، وهم ٥ (خمسة) آلاف رجل يركبون الجمال ، وهم يحملون البنود التي صنعها في برقة ، ويزحفون وراء القطعة الرئيسية من الجيش ، نجحت في تحقيق ما كان يهدف اليه .

فقد فزع ابن قرهب بعد مناوشة يسيرة ، وانهزم نحو طرابلس ، وهو يظن أن من بدأ بقتالهم لم يكونوا الا مقدمه الجيش المصرى الرهيب(٣٩١) .

الطولونيون يدخلون لبدة ويحاصرون طرابلس ، وقيام اباضية نفوسة ضدهم :

وبذلك استمر العباس في مسيرته نحو افريقية ، وفتح حصن لبدة أبوابه له دون قتال في جمادى الأولى سنة ٢٦٦ هـ/ديسمبر ٨٧٩ - يناير

---

(٣٨٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٨ .

(٣٨٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٨ .

(٣٩٠) النويرى . المخطوط ج ٢٢ ص ١١٨ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٨ .

(٣٩١) ابن عذارى ، ج١ ص ١١٨ أ .

٨٨٠ م ركن رجاله أساءوا معاملة أهل لبدة أسوأ المعاملة ونهبوهم(٣٩٢) ٠

وفي لبدة تتبع العباس المنهزمين من جند ابن قرهب الى طرابلس ، فنزلها وضرب عليها الحصار ، ونصب حولها المجانيق ، وبدأ يضيق عليها الخناق لمدة قريبة من شهر ونصف شهر ٠ وكان السودان من رجاله يغيرون في هذه الأثناء على أهل البوادي في أطراف المدينة ويسيئون معاملتهم ، حتى قيل أنهم اعتدوا على الحرم وهتكوا الستر ، مما أثار بربر نفوسة الاباضية ، القاطنين في منطقة الجبل المعروف بهذا الاسم جنوبي مدينة طرابلس ، وكان زعيمهم وقتئذ هو أبو منصور الياس بن منصور النفوسي(٣٩٣) ٠

هذا ولا بأس في أن يكون من أسباب الصدام بين الأمير الطولوني والزعيم النفوسي ، هو عدم اذعان هذا الأخير لما طلبه منه العباس من الدخول في طاعته ، والقدوم عليه ، مع تهديده بوطء بلده بالخيل والرجال ان لم يفعل ٠ فهذا ما تقوله الرواية التي ينقلها الباروني عن ابن سعيد في تاريخه « الدر المكنون »(٣٩٤) ٠ والمهم أنه رغم أن أباضية جبل نفوسة كانوا لا يعترفون بسلطان المملكة الأغلبية ، اذ كانوا مستقلين بجبلهم ، وهم في نفس الوقت يعترفون بامامة الرستميين في تاهرت ، مثلهم في ذلك مثل بربر اقليم الزاب الدائم الثورة على الأغالبة ، فقد غضب الياس بن منصور لما نزل بجيرانه أهل طرابلس الذين استغاثوا به ، وقام محتسبا ، كما يقول ابن عذاري ، في سبيل الله على رأس ١٢ (اثني عشر) ألف رجل من النفوسيين ، زحف بهم نحو العباس(٣٩٥) ٠

انسحاب غير منظم للقوات الطولونية أمام الاباضية :

وهكذا ، بينما الحرب محتدمة حول تحصينات طرابلس بين الجند الطولوني والجند الأغلبي ، اذ بالعباس بن أحمد بن طولون يفاجأ بالاباضية من بربر نفوسة ، يقودهم الياس بن منصور ٠ وكان من الطبيعي أن يسقط

---

(٣٩٢) ابن الأثير ، سنة ٢٦٥ ، هـ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ ، وانظر الكندي ، ص ٢٢٢ (حيث النص على التاريخ المذكور) ٠

(٣٩٣) أنظر ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٩ ، الذي يسمي النفوسي بأبي منصور فقط وابن الأثير ، سنة ٢٦٥ هـ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، والكندي ، ص ٢٢٢ ٠

(٣٩٤) انظر الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ، ص ٢٥٧ ، ص ٢٥٨ — حيث رد أبي منصور العنيف على العباس الذي يعتبر بمثابة اعلان للحرب على الأمير الطولوني ٠

(٣٩٥) البيان ، ج ١ ص ١١٩ ٠

في يده اذ وقع بين سنداد أسوار طرابلس وبين مطرقة محتسب نفوسة(٣٩٦) -
واستعر لهيب الحرب ، والعباس يحاول أن يشق طريق العودة الى برقة ،
حتى اضطر أن يحارب بيده ، بينما كان رجاله يتساقطون حوله • وبذلك
انقلب الانسحاب الى هزيمة قبيحة كاد العباس أن يؤسر فيها ، لولا أن خلصه
بعض مواليه من السودان(٣٩٧) •

الأموال المصرية تسد فراغا في خزانة ابراهيم :

في هذه الظروف الصعبة خلص العباس بفلول قواته بصعوبة الى برقة ،
ولكن بعد أن تركوا ما كان في معسكرهم من الأموال والعتاد نهبا لأهل
طرابلس وحدهم • وذلك أن اباضية نفوسة تورعوا عن أخذ شيء منه(٣٩٨) •

وفي تلك الأثناء كان ابراهيم بن أحمد يحاول حشد جند افريقية في
القيروان ، ولما كانت خزانته خاوية ، فانه اضطر الى أن يضرب حلى نسائه
دنانير ودراهم ، وزعها على العسكر • وعندما خرج على رأس قواته يريد نجدة
رجاله في طرابلس ، أتاه خبر هزيمة ولد ابن طولون ، وهو على الطريق في
قابس ، من ابن قرهب نفسه الذي أراد أن يبشره بالفتح(٣٩٩) ، وما أخذ من

---

(٣٩٦) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٩ - الذي يقول ان العباس عندما سأل وزير والده أبا عبد الله الكاتب : ما الرأي ؟ قال له : ببرقة خلفته • وهو يقصد بذلك نصيحة أبي عبد الله الكاتب له بأن يؤخر التقدم الى طرابلس حتى يصانع البربر ، وهي النصيحة التي لم يقبلها ولد بن طولون اذ كان يظن انه يستطيع شراء زعماء البربر بما كان معه من الأموال (وأنظر أيضا ص ١١٨) •

(٣٩٧) ابن الأثير ، سنة ٢٦٥ هـ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، وأنظر الكندي ، ص ٢٢٣ (حيث الاشارة الى ما قاله العباس في تلك المناسبة من أشعار الحماسة ، ومنها :

لو كنت شاهدة كسري بلبدة اذ ... بالسيف أضرب والهامات تبتدر
اذا لعاينت مني ما تناذره ... عني الأحاديث والأنباء والخبر

ولو أن الكندي يتبع ذلك بقوله : وقتل يومئذ صناديد عسكره ووجوه أصحابه وحماته ، ونهبت أمواله وسلاحه ، ورجع هاربا الى برقة في شر واختلال) •

(٣٩٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٩ • أما عن العباس ، فقد بلغ والده لأنباء هزيمته وضياع ما كان معه من الأموال ، فلما علم بنتيجاته أرسل اليه جيشا قاتله في برقة ، وأسره بعد معارك شديدة ، ثم عاد به الى والده الذي انتقم من القواد الذين كانوا معه ، كما حبسه هو بعد أن ضربه بالمقارع ، في بعض قصوره (أنظر ابن الأثير ، سنة ٢٦٥ هـ) ، وذلك في سنة ٢٦٨ هـ/٨٨١ م • ولمزيد من التفصيلات أنظر الكندي ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ (حيث النص على قطع يدي العباس ورجليه) •

(٣٩٩) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ •

«الأموال • وهنا لم يكن لابراهيم من هم الا البحث عن الأموال المصرية التى انتهبها رجاله ، حتى « كان الرجل من أهل العسكر يبيع مماليك ابن طولون سرا بما أمكنه ، خوفا من أن تؤخذ منه »(٤٠٠) •

والظاهر أن قلة الأموال في خزانة ابراهيم ، مما اضطره الى استخدام حلى نسائه التى كانت تعتبر وقتئذ أشبه باحتياطى للأمير - كما نقول الآن - لم تكن نتيجة لتبديد أبى الغرانيق الأموال ، كما يريد ابن عذارى ، فالأمير المتهم كان قد توفى منذ أكثر من خمس سنوات طوال ، استطاع خلالها أخوه ابراهيم جمع الأموال وبناء القصور فى رقادة • والحقيقة أن قلة الاموال لا يفسرها الا القحط العظيم الذى يسجله ابن عذارى نفسه فى حولياته .فى سنة ٢٦٦ هـ/٧٩ - ٨٨٠ م السابقة ، والذى عاد قاسيا فى السنة التالية ٢٦٨ هـ/ ٨١ - ٨٨٢ م ، حتى بلغ قفير القمح الذى يعادل مقدار أردب وربع بالمصرى ، كما يقول النويرى ، ثمانيـــة دنانير ، حتى هلك النـــاس وأكلوا بعضهم بعضا(٤٠١) •

المجاعة والاضطرابات الداخلية سنة ٢٦٨ هـ/٨١ - ٨٨٢ م :

وأغلب الظن أن المجاعة التى ألمت بالبلاد فى سنة ٢٦٨ هـ كانت سببا فى كوارث أخرى ، كان على أهل كثير من المناطق تحمل عبثها أيضا • فالظاهر أن الشدة جعلت قبائل اقليم الزاب يمتنعون عن دفع ما عليهم من الأموال • ورغم المساعدة التى قدمها اخوانهم اباضية نفوسة فى العام السابق للجند الأغلبى فى طرابلس ضد عسكر ولد ابن طولون - والتى ربما كانت سببا فيما قدمه ابراهيم لرؤسائهم من الاحسان عندما قدموا عليه فى القيروان - فقد فتك بهم ابراهيم بن أحمد فتكا ذريعا ، ولم يستثن أطفالهم من القتل ، حتى كانوا يحملون على العجل الى الحفر ويلقون فيها(٤٠٢) •

وزداجة فى باجة :

وتقول الروايات ان قبائل وزداجة في اقليم باجة غضبت (فى نفس السنة) ، ومنعوا ما كانوا يدفعونه للأمير من الأموال (الصدقات) ، وعندما قاتلهم الوالى ، وهو الحسن بن سفيان من أجل ذلك ، هزموه هزيمة منكرة ،

---

(٤٠٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٩ •

(٤٠١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ - ١٨ ب ١ •

(٤٠٢) ابن الأثير سنة ٢٦٨ هـ ج ٧ ص ٣٧٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٩ •

اذ ردوه حتى أبواب باجة نفسها ٠وهنا أرسل ابراهيم بن أحمد اليهم قائده الحاجب محمد بن قرهب بالجيوش ٠ واعتصم ابن قرهب ببعض الجبال المشرفة على منطقة وزداجة واسمه المشار ، حتى اتخذ له معسكرا حصينا ، كان يرسل منه الخيل صباحا ومساء ضد الوزداجيين ، الى أن انتهى الأمر بأن اعلنوا طاعتهم ، ودفعوا اليه برهائنهم(۴۰۳) ٠

هوارة (ما بين العصيان والطاعة) :

وقامت قبائل هوارة هي الأخرى بالعصيان فعاثت في البلاد وقطعت السبيل ، فسير اليهم ابراهيم حاجبه ابن قرهب الذى بدأ باستخدام السياسة معهم ، فعرض عليهم الرجوع الى الطاعة فى نظير الأمان ، ولكنهم أبوا ٠وعندئذ هاجمهم ، فلما انهزموا استباح ديارهم : فنهب العسكر منازلهم وأحرقوها بالنار ، قبل أن يعودوا الى القيروان ٠ وعندئذ عادت هوارة تطلب الأمان ، وركنت الى الطاعة(۴۰۴) ٠

لواتة فى باجة :

وفي نفس سنة ۲٦۸ هـ/ ۸۱ ــ ۸۸۲ م عادت المنطقة المجاورة لباجة الى الاضطراب بفضل قبائل لواتة التى احتشدت بأجمعها ، وحاصرت مدينة قرنة لعدة أيام قبل أن يدخلوها وينهبوا ما فيها ٠ ومن هناك مضوا الى منطقة باجة نفسها وقصر الافريقى ، وهم ينشرون الفزع والفوضى ٠ وعندما أخرج اليهم الأمير ابراهيم حاجبه محمد بن قرهب ، جانبه الظفر هذه المرة ٠ فلقد انهزم الجند القيروانى أمام اللواتيين بل ان ابن قرهب نفسه كبا به فرسه حتى لحقه خصومه وقتلوه ، دون أن يحاول تخليصه من كان معه من أصحابه الذين ظفروا من الهزيمة بالهرب ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ۲٦۸ هـ/ يونيه ــ يوليه ۸۸۲ م ٠

وعز على ابراهيم ما نزل بابن قرهب ، وعزم على الثأر له فأمر بحشد جيش عظيم من الجند والأنصار والموالى ، وسيرهم فى السنة التالية (۲٦۹هـ/ ۸۲ ــ ۸۸۳ م) تحت قيادة ابنه أبى العباس عبد الله ٠ وعندما رأت قبائل لواتة أنه لا قبل لها بذلك الجيش الكبير انهزموا أمامهم فى اتجاه باجة ، ولكنه

---

(۴۰۳) النويرى ، المخطوط ، ج ۲۲ ص ۱۱۸ ب ٠
(۴۰۴) النويرى ، المخطوط ، ج ۲۲ ص ۱۱۸ ب ٠

لحق ببعضهم هناك ، وقتلهم قتلا ذريعا ، بينما تشتت النــــاجون منهم فى كل ناحية(٤٠٥) .

السلام لمدة خمس سنوات تنتهى باصلاح مالى :

ومنذ سنة ٢٦٩ هـ/٨٢ — ٨٨٣ م استقرت الأمور فى المملكة لابراهيم فلا نجد ذكرا الا لحروب صقلية المظفرة أو وفاة عالم أو زاهد أو قاض ، أو وصل رجل من رجال الدولة أو نكبة تحل به ، وذلك لمدة خمس سنوات أو أكثر(٤٠٦) . ففى سنة ٢٧٥ هـ/٨٨ — ٨٨٩ م ، عندما قرر ابراهيم بن أحمد القيام باصلاح مالى لقى معارضة قوية من أهل القيروان ، كما حدث على أيام عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب ، انتهت باضطراب وقتال بينهم وبين الأمير .

درهم الفضة وحدة التعامل الصغرى ، وثورة صغار التجار فى القيروان :

فلقد قرر ابراهيم بن أحمد الغاء قطع النقود الصغيرة التى اعتاد التعامل بها أهل القيروان ، وقرر التعامل بدلامنها بالدراهم الصحاح من الفضة(٤٠٧). وكان من الطبيعى أن يحدث ذلك التغيير بعض المتاعب فى التعـــامل فى الأسواق ، فأنكرت العامة فى القيروان ذلك الاجـــراء وأغلقوا حوانيتهم ، واجتمعوا سويا فى تظاهرة كبيرة سارت الى رقادة ، حيث شغبت ضد الأمير الذى أمر الحرس بتطويقهم ثم حبسهم فى الجامع . وعندما علم أهل القيروان بذلك تجمعوا خارج باب المدينة ، وأظهروا معارضتهم لابراهيم الذى وجه اليهم وزيره أبا عبد الله بن أبى اسحق ، فتلقوه بالسباب وبالحجارة . وعندئذ ركب ابراهيم بن أحمد بنفسه الى القيروان ، وبصحبته حاجبه الجديد نصر ابن الصمصامة فى جماعة من الجند ، فاعترضه القيروانيون ، وناصبوه القتال على قدر ما تسمح به طاقتهم .

---

(٤٠٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ ب — ١١٩ أ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٤٠٦) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٠ وما بعدها (حوليات ٢٦٩ — ٢٨٤ هـ) .

(٤٠٧) أغلب الظن ان المقصود بقطع النقود الصغيرة هنا ليست الفلوس النحاسية أو ما شابهها بل أجزاء الدراهم الفضية نفسها . اذ لما كان التعامل فى النقود حينئذ يتم بالوزن عن طريق الصيارفة ، فكثيرا ما كانت تقطع دراهم الفضة الى أجزاء صغيرة — ربما لندرة الفلوس — من أنصاف وأثلاث وأرباع ، لتسهيل عمليات الشراء الصغيرة حتى شاع هذا الضرر ، وتطلب الأمر ذلك الاصلاح . أنظر حسن حسنى عبد الوهاب ، الورقات ، قسم ١ ص ٤٣٢ .

وعلى عكس ما عرف عن ابراهيم من حدة المزاج في مثل هذه الظروف ، فانه قرر أن يعامل القيروانيين بالسياسة واللين • فتقدم الى المصلى (مصلى العيديين خارج المدينة) ، حيث جلس وأمر جنده بالكف عن قتال العامة من اهل القيروان • وعندما استقر به المجلس ، وهدأ الناس ، خرج اليه الفقيه الزاهد أبو حفص أحمد بن مغيث ، ودار بينهما حديث طويل حول موضوع النقود الجديدة ، وما تضرر به العامة وضعفاء الناس • والمهم أن تدخل فقيه القيروان وزاهدها انتهى بتهدئة الأحوال ، اذ دخل الوزير ابن اسحق معه الى المدينة ، واخترقا سماط القيروان ، وهو شارعها الكبير ، فكانت تلك الجولة سببا في سكون أهل القيروان • وبذلك رجع ابراهيم بن أحمد الى رقادة ، وأطلق أهل السوق الذين كانوا محبوسين في الجامع •

استقرار الاصلاح النقدي :

وبذلك تم لابراهيم اصلاحه المالي فانقطعت النقود والقطع الصغيرة من افريقية الى وقت صاحب الرواية التي ينقلها ابن عذاري(٤٠٨) وضرب ابراهيم ابن أحمد دنانير ودراهم سماها العشرية ، لانها كانت على النظام العشري المعمول به أيامنا هذه ، اذ كان في كل دينـــار من الذهب عشرة دراهم من الفضة(٤٠٩) • واذا كان ذلك يعني أن الدرهم أصبح قطعة النقود الصغرى ، فانه يعني مستوى مرتفعا للمعيشة في افريقية على أيام بني الأغلب ابتداء من عهد ابراهيم ، ولو أننا نظن أن الدرهم كان مقسما هو الآخر الى عشرة نقود •

تبدل في مزاج ابراهيم بن أحمد نحو القسوة الدموية ، واثر ذلك على مجريات الأمور :

تصفية رجال الدولة والمقربين بطريقة « سوداوية » :

القاضي :

ولكنه اذا كان الأمير ابراهيم قد ظهـــر بمظهر المتزن ازاء معارضة القيروانين لاصلاحه النقدي ، فانه كان قاسيا بغير ضمير ولا وازع عندما عزل

---

(٤٠٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١ - حيث يهتم ابن عذاري بالثورة أكثر من اهتمامه بالاصلاح النقدي فيسمي الحركة : « ثورة الدراهم على ابراهيم بن احمد » •

(٤٠٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢١ •

قريبة قاضي القيروان عبد الله بن أحمد بن طالب التميمي ، الذي رأيناه من قبل صديقا لمحمد بن سحنون(٤١٠) ، وحبسه ثم دس له السم في الطعام فمات ابن طالب عقب أكله مباشرة ، وذلك في شهر رجب من نفس سنة ٢٧٥ هـ/ ٩ نوفمبر ٨٨٨ م(٤١١) ولقد استقضى ابراهيم بعده محمد بن عبدون ابن أبي ثور ، الذي كان جده طحانا ، كما يقول ابن عذاري ، وكان يكتب اسمه : محمد بن عبد ... عيني(٤١٢) .

الكاتب :

ولقد زاد عسف ابراهيم بن أحمد ، وبانت غلظة قلبه عندما حبس في السنة التالية (٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) كاتبه محمد بن حيون المعروف بابن البريدي ، والذي عرف بأنه كان شاعرا مجيدا . ولقد كتب ابن البريدي الى ابراهيم من السجن خطابا ضمنه أبياتا رقيقة يستعطفه بها ، فيها يقول :

هبني أسأت فأين العفو والكرم اد قادني نحوك الادعان والندم
يا خير من مدت الأيدي اليه أما ترثى لصب بهاه عندك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك اذا ما استرحموا رحموا

وغضب الأمير الذي كان لا ينكر الشعر ، بل كان يحسن النظم أيضا والنقد ، لأن كاتبه الشاعر التعس كتب اليه : « هبني أسأت » ، وكان المفروض فيه أن يعرف أنه أساء فعلا وليس احتمالا . وعلق الأمير الخبير في الشعر ونقده ، بقوله : أما انه لو قال :

ونحن الكاتبون وقد أسأنا فهبنا للكرام الكاتبينا

لعفوت عنه ، ثم أمر - ويضيف ابن عذاري . قبحه الله ! - به ، فحمل في تابوت حتى مات(٤١٣) .

---

(٤١٠) انظر فيما سبق ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٤١١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢١ .

(٤١٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢١ .

(٤١٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢١ - ١٢٢ ، وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٣٠ - ٣٢ . حيث اسم الكاتب الشاعر « أحمد القديدي » ، وحيث نص الرسالة التي بعث بها الى الأمير ابراهيم ، وكذلك أبيات الشعر الثلاثة ، وان كانت مختلفة بعض الاختلاف - فالشطرة الثانية من البيت الأول تبدأ بـ « وقد » بدلا من « اذ » ، والشطرة الثانية من البيت الثاني ترد في شكل : « ترثى لمن قد بكاه عندك القلم » . كما تقول الرواية ان الأمير علق على الشطرة الثانية من البيت الثالث ، فقال : « ان الملوك اذا ما استرحموا ... » .

الحاجب .

وزادت قسوة ابراهيم بن أحمد وغلظة قلبه في العقوبة الشنيعة التي أنزلها في العام التالي (٢٧٧ هـ/ ٨٩٠ م) بحاجبه نصر بن الصمصامة ، اذ أمر بضربه ٥٠٠ (خمسمائة) سوط ، فلم ينطق - الرجل المسكين - بكلمة ، ولا تحرك من موضعه . ثم انه أمر بعد ذلك بضرب عنقه ، فتقبل الحاجب المخلص الحكم راضيا ، حتى قالت الرواية انه قال لمن حوله : لا تظنوا أني أجزع من الموت ، بل انه وعدهم أنه يفتح يده ويغلقها ثلاث مرات بعد ضربه . وتريد الرواية أن تضفي على الرجل المستسلم لظلم سيده هالة من هالات القديسين أو أصحاب الخوارق ، تتناسب مع ما نزل به من العذاب ، فتقول : انه فعل ما وعد به(٤١٤) . ولم يكتف ابراهيم بذلك بل انه قتل أيضا اخوة ابن الصمصامة وقرابته(٤١٥) .

عامل الخراج :

وفي السنة التالية (٢٧٨ هـ/ ٨٩١ م) التي عهد فيها ابراهيم بن أحمد بولاية المظالم الى أبي العباس بن ابراهيم بن أحمد بن الأغلب ، عرض ديوان الخراج على سوادة النصراني شريطة أن يدخل في الاسلام . ولما جرأ الرجل التعس الحظ على القول انه ما كان له أن يدع دينه من أجل رياسة ينالها ، أمر به فقطع نصفين ، كما تقول الرواية ، ثم صلب(٤١٦) .

الطبيب الخطير : خبير السموم :

والظاهر أن أخلاق ابراهيم بن أحمد أخذت تزداد سوءا مع ما كان يعرض له خلال حكمه الطويل من المتاعب ، ففي سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م التالية ، تقول رواية ابن عذاري : انه قتل كثيرا من أهل افريقية بطرا وشهوة ، أي بدون جريرة ارتكبوها . وكان ممن راح ضحية الأمير ، الذي أصبح سوداوي المزاج : اسحق بن عمران المتطبب ، المعروف بـ « سم ساعة » ، لأنه كان خبيرا في تحضير السموم القاتلة - والذي كان ولا شك يزود الأمير بها ، كذلك السم الذي دس لابن طالب القاضي بعد عزله وسجنه ، فقضى

---

(٤١٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٣ . وتضيف الرواية أن ابراهيم تعجب لذلك فشق عن قلب الرجل ، ورأى منظرا عجيبا اذ كان القلب نائتا في الكبد ، وفيه شعرات نابتة كثيرة .

(٤١٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ أ .

(٤١٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٢ .

على الرجل من فوره في رجب سنة ٢٧٥ هـ/٨٨٨ م(٤١٧) ٠

والظاهر ان ابراهيم تملكه نوع من الخوف من ذلك الرجل الذى يستطيع تدبير مثل هذا السم الناقع الذى يجلب الحتف لساعته ، فأمر بهقتل وصلب(٤١٨) ٠ وفكرة التشهير بالطبيب المحوف عن طريق الصلب تعنى ان الرجل كان مكروها من عامة الشعب ، ان لم يكن في الأمر نزوة من نزوات الأمير الغريب الأطوار ٠

الفتى الحاجب :

وفي نفس هذا العام راح الحاجب الجديد لابراهيم ، وهو فتح الفتى ، ضحية انزال عقوبة الضرب به بالسياط حتى الموت(٤١٩) ٠ وذلك بعد أقل من سنتين من قتل الحاجب السابق ابن الصمصامة ٠ ثم انه ولى حجابته الحسن بن نافذ ، وأضاف اليه عدة ولايات ، كما يقول النويرى(٤٢٠) ، ومنها امارة صقلية ــ وهو الأمر الذى لا نعرفه ٠ ومن حجاب ابراهيم . أحمد ابن محمد بن حمزة الحرون الذى كان مقدما عند الأمير ، ولو اننا لا نعرف تاريخ ذلك(٤٢١) ٠

فتيان الصقالبة ، وعلم النجوم :

والحقيقة أن مقتل فتح الحاجب لم يكن الا مقدمة لما قام به ابراهيم ابن احمد ، في نفس السنة ، من التخلص من جميع فتيانه الصقالبة ٠ وفي ذلك تقول الرواية انه كان كثير الاصغاء الى قول المنجمين والكهنة(٤٢٢) ــ وهو الأمر الذى شاع في بلاط الخلفاء والأمراء ، منذ ترجمت السياسة اليونانية القديمة الى العربية ، وكانت تحوى نصوصا عما يلزم الملك في سياسته من علم النجوم ٠ وكان المنجمون قد قالوا ان ابراهيم يقتله رجل ناقص

---

(٤١٧) عن ابي طالب ومصرعه في السجن ، انظر فيما سبق ، ص ١٣٠ ٠

(٤١٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٢ ، وقارن الحلة السيراء ج ١ ص ١٧٣ ـ حيث ينقل البكرى (انظر ص ٢٧ وقارن الاستبصار ، ص ١١٦) ان اسحق الطبيب هذا ، هو الذى ينسب اليه الطريفل اسحق ٠ والاطريفل دواء مركب فيه بعض الهليلجات ، وتزاد فيه الأفاوية حسب الحاجة ٠ . انظر ص ١ في المبين الصفحة لحسين مؤنس ٠

(٤١٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٢ ٠

(٤٢٠) النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٩ ا ٠

(٤٢١) انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٧ ٠

(٤٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٢

العقل ، وأنه يمكن أن يكون فتى من خدامه .

وعى هذا الطريق تملك ابراهيم نوع من الخوف المرضى من فتيانه ، فكان اذا رأى أحدا منهم فيه حركة ونشاط وحدة ، وهو يتقلد سيفا ، قال : هذا هو صاحبى ! فيقتله . وتضيف الرواية الى ذلك أنه لما قتل من فتيانه جماعة وقع بقلبه أنه قد استفسد اليهم ، فضمه الحذر منهم الى قتل من بقى منهم ، فقتلهم فى هذا العام(٤٢٣) .

استخدام السودان :

وبدلا من الفتيان الصقالبة ، أحاط ابراهيم بن أحمد نفسه بحاشية من الفتيان السودان(٤٢٤) . وكان ابراهيم قد بدأ يهتم بشراء العبيد السودان ، ولا بأس في أن يكون ذلك تقليدا لما رآه من جند العباس بن أحمد بن طولون ، الذى كان يتكون فى معظمه من الرجالة السودان - رغم استخدامهم لدى الأغالبة منذ أيام ابراهيم الأول . وتقول رواية النويرى ان عدد السودان الذين اشتراهم بلغ مائة ألف رجل ، أحسن تدريبهم وكساهم ، وألزمهم ببابه ، وأنه جعل عليهم قائدين منهم ، هما : ميمون وراشد(٤٢٥) ، فكان كلا من الرجلين كانت له قيادة خمسين ألفا . وأغلب الظن أن الرواية تبالغ كثيرا فى هذا العدد الذى يمكن انقاصه الى العشر . فهذا ما ترجحه رواية تالية تقول ان عدد فتيانه من الحرس السودانى كانوا ٥ (خمسة) آلاف أسود(٤٢٦) . وهكذا فاننا نشك فيما يقوله ابن عذارى ، من : أن ابراهيم عاد وعرض له من السودان ما عرض من الفتيان الصقالبة ، فقتلهم أجمعين(٤٢٧) .

---

(٤٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٢ - ١٢٣ ، وانظر النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٩ آ : حيث تقول الرواية « ان سبب قتلهم هو ما بلغه من أن جماعة من الخدام الصقالبة يريدون قتله ، وقتل أمه فقتلهم عن آخرهم ، وقتل بناته بعد ذلك . والاشارة الى محاولة قتل أمه هنا تعنى ان السيدة والدة الأمير لم تكن تكتفى بحياة الحريم بل كان لها دورها فى الحياة العامة .

(٤٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ .

(٤٢٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٣ ص ١١٩ آ .

(٤٢٦) انظر فيما بعد ، ص ١٣٦ وهـ ٤٤٠ .

(٤٢٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ .

مذبحة عرب بلزمة :

المسمار الأول في نعش الدولة الأغلبية :

أما ما اعتبره الكتاب بمثابة بداية النهاية بالنسبة للدولة الأغلبية ، فهو ما قام به ابراهيم بن أحمد في سنة ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م من الايقاع برجال قلعة بلزمة جنوب غرب باغاية ، من أهل الزاب ، الذى كانوا من أبناء العرب والجند الداخلين الى افريقية منذ الفتح ، وكان معظمهم من القيسية ، أى من أقرباء عصبية الاغالبة : بنى تميم(٤٢٨) .

فلقد كانت منطقة الزاب من المناطق غير الخاضعة تماما للاغالبة ، كما رأينا ، بسبب وجودها على طـرف الصحراء ، بعيدا عن متنـاول حكومة القيروان ، وبسبب وجود قبائل البربر من الاباضية الذين كانوا يميلون الى امارة تاهرت الرستمية . وفى هذه الظروف لم يكن من الغريب أن تتمتع قبائل العرب في الاقليم ، هي الأخرى ، بنوع من الاستقلال عن أمراء الأغالبة حتى أنهم كانوا يستطيعون اجارة خصوم الأمير ، كما فعل بنو مالك(٤٢٩) . ولقد حاول ابراهيم بن أحمد في سنة ٢٧٨ هـ/٨٩١ م ، وهو التاريخ الذى يقدمه النويرى لقتلهم والذى نرى أنه يعتبر بداية للأحـداث التي أدت الى المذبحة ، أن يخضعهم لسلطانه فسار اليهم في قواته وناوشهم بالحرب ، ولكنه عندما تيقن من استحالة التغلب عليهم أظهر العفو عنهم ورجع .

والظاهر أن ابراهيم أراد استخدام الخديعة بدلا من الحرب ، فأخـذ بلاطفهم ويقربهم من نفسه حتى استحاب زعمـاؤهم الى ما دعاهم اليه من

---

(٤٢٨) أنظر ابن عذارى ج ١ ص ١٢٣ — الذى أخذنا بتاريخه ، وهو سنة ٢٨٠ هـ/ م ، النويرى ، المخطوط ج ٢٢ ص ١١٩ أ — الذى يضع ذلك مع أحداث سنة ٢٧٨ هـ/ م . وقارن القاضى النعمان ، في رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، بيروت ، ص ٨٨ — حيث يقول ان حادثة بلزمة كانت قبل أبي عبد الله الشيعى بزمان طويل . ان أبو عبد الله قد وصل الى بلاد كتامة في سنة ٢٨٠ هـ (أى في تاريخ ابن عذارى) فان .ثة لا تكون قبل أبى عبد الله بزمان طويل ، حتى لو أخذنا بتاريخ النويرى سنة ٢٧٨ هـ ، نرى أنه كان بداية للأحداث ، أى لتمرد بلزمة . وربما كان القاضى النعمان يقصد أن .دثة كانت قبل ظهور خطر الداعى على الأغالبة ، أى بعد سنة ٢٨٧ هـ ، كما سنرى .

(٤٢٩) افتتاح الدعوة للقاضى النعمان ، ص ٨٨ — حيث يجعـل سبب غضب ابراهيم ابن أحمد على البلزميين ، هو هروب رجل من حبسه والتجائه الى بنى مالك ببلزمة مستجيرا مهم من ابراهيم فأجاروه .

القدوم عليه في رقادة · وقدم وفد أهل بلزمة وأهل الزاب(٤٣٠) ، وكانوا في بداية الأمر حوالى ٧٠٠ (سبعمائة) رجل من أبطالهم(٤٣١) ، زادوا مع مرور الوقت حتى أصبحوا نحوا من ١٠٠٠ (ألف) رجل(٤٣٢) · ولا ندرى أن كان ابراهيم اعتبر هؤلاء كرهائن لديه أم أن ذلك كان نوعا من الاتفاق بينه وبين عرب أهل الزاب · اذ تقول الرواية انه أنزلهم معه فى رقادة فى دار عظيمة تصفها رواية النويرى بأنها كانت كالفندق ، بينما يقول ابن عذارى انه بناها خصيصا لهم وانها كانت تشتمل على عدد من الدور ترجع كلها الى باب واحد(٤٣٣) ·

وعندما شعر ابراهيم أن القوم سكنوا واطمأنوا ، بعدما أجراه عليهم من الرزق الواسع والخلع السنية ، جمع ثقات رجاله لأخذ أرزاقهم ثم أمرهم بمصاحبة ابنه عبد الله (أبي العباس) للقضاء على البلزميين المنهمكين فى الاستمتاع بمباهج الحياة ، فى فندقهم الكبير · وذات صباح باكر أحاط بالمخدوعين جند ابراهيم من السودان ، ولكنه — رغم المفاجأة — لم يستسلم العرب الأشداء ، بل امتنعوا ودافعوا عن أنفسهم من الصباح الى وقت العصر · وكانت النهاية المحتومة مقتلهم جميعا ، عن آخرهم(٤٣٤) · والظاهر أنه يحق للكتاب القول أن ذلك كان سبب انقطاع دولة بنى الأغلب ، اذ كان أهل بلزمة القيسية ، وهم من العرب الخلص البلديين الذين استقروا فى افريقية منذ وقت فتحها يذلون ، وهم فى موقعهم الاستراتيجى من بلاد الزاب على السفح الشمالى لاوراس ، قبائل كتامة ، ويتخذونهم خولا وعبيدا ، ويفرضون عليهم العشور والصدقات · فكان الذى صنع ابراهيم بن أحمد مما انقذ كتامة من تلك الذلة ، وأوجد لهم السبيل الى القيام مع الشيعى(٤٣٥) ·

---

(٤٣٠) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ أ ، افتتاح الدعوة ، ص ٨٨ ؛

(٤٣١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ ·

(٤٣٢) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ أ ، افتتاح الدعوة ، ص ٨٨ ·

(٤٣٣) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ أ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ٨٨ — حيث يقول انه انزلهم برقادة فى مكان أدار عليه سوراً ، وجعل عليه بابا يقرب فندق البلزميين ··

(٤٣٤) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ٨٨ حيث يقول ان السيد احاطوا بالبلزميين ليلا ·

(٤٣٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ · وانظر افتتاح الدعوة (ص ٨٩) — حيث يقول ان شاعرا شيعيا من اهل نفطة ، هو محمد بن رمضان كان فى حماية بنى مالك البلزميين ، وكان يتحدث فى انقطاع الدولة الاغلبية ، رثى البلزميين ، =

انتقاض البلاد على ابراهيم بن أحمد :

والحقيقة أن الكتاب يعطون صورة قاتمة لاحوال افريقية عقب تلك المذبحة الخسيسة ، في سنة ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م ، وهو تاريخ ابن عذارى الذى أخذنا به(٤٣٦) ، اذ نرى البلاد وكأنها تحولت الى دولة طوائف ثانية تخضع فيها كل مدينة الى قائد من القواد أو جماعة من الناس ، فمعظم البلاد منتزية على سلطان ابراهيم بن أحمد في تلك السنة ، مما يعني أن مقدمات ذلك ترجع الى سنة ٢٧٨ هـ/٨٩١ م ، وهو التاريخ الذى يحدده النويرى ، مع بداية مسألة أهل بلزمة(٤٣٧) ـ فكأن الأوضـــاع عادت الى ما كانت عليه أيام زيادة الله الأول(٤٣٨) ٠

الاضطراب يعم كل المملكة :

فلقد خرجت على ابراهيم كل ، من : تونس ، والجزيرة ، والأربس ، وصفطورة ، وباجة ، وقمودة ، في شهر رجب رجب من سنة ٢٧٨ هـ/اكتوبر ٨٩١ م ، ولم يجتمع أهل هذه الكور بمكان واحد ، بل قدموا عـــلى أنفسهم رجالا من الجند وغيرهم ، كما حدث على عهد زيادة الله الأول ، فأقام كل رئيس منهم بمكانه ٠ وتفسر الرواية هذا الخلاف بجور السلطان ابراهيم الذى أخذ عبيدهم وخيلهم ، مما ترتب عليه : أن صارت افريقية عليه نارا موقدة ، ولم يبق بيده من الأعمال الا الساحل الشرقي الى طرابلس(٤٣٩) ٠ وأمام هذا الموقف الصعب اضطر ابراهيم الى أن يخندق على نفسه في رقادة ، فحفر حولها حفيرا ، ونصب عليه أبواب الحديد ، وجمع حوله ثقاته من الجند ، واستعان بالحرس من فتيانه السودان دون غيرهم ، فجعلهم يحيطون بقصره ،

= وهجا ابراهيم بشعر قال فيه

جل المصاب لمن كان الذى ذكروا	مـــما انتمـــا به الاســاد والغمر
عن الف أروع كالاساد قـــد قتلوا	لساعة من ســـواد الليل اذ غدروا
جرعت سيفك كأساً أنت شاربهـــا	عمـــا قليـــل وامـــر الله ينتظر
فـــدولة القـــائم المبــدى قد أزفت	أيامهـــا والـــذى أبدا ... الأمر

(٤٣٦) انظر فيما سبق ، ص ١٢٢ هـ ٤٢٨ ٠

(٤٣٧) انظر فيما سبق ، ص ١٣٥ ٠

(٤٣٨) أنظر فيما ســـبق ، ص ٥٠ وما بعدها (حيث ما سميناه « ملوك الطوائف » بافريقية)

(٤٣٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب ٠

وكانوا خمسة آلاف أسود(٤٤٠) .

مبدأ : فرق تسد :

العمل على التفرقة بين المخالفين :

والظاهر أن الحال استمر على هذا المنوال طوال سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م التالية ، وابراهيم يستشير ثقاته وأهل المعرفة فى الحروب من أهل افريقية المجربين . ومن ذلك ما تقوله رواية الرقيق التى ينقلها النويرى ، من أن ابراهيم بن أحمد أحضر شيخا من بنى عامر بن نافع — وعامر هذا الذى ينسب اليه الشيخ هو صاحب منصور الطنبذى ، وكانت له صولة وجولة فى أعقاب ثورة منصور على أيام زيادة الله الاول(٤٤١) — وشاوره فى الامر. وكانت نصيحة الشيخ الثمينة ، هى : أن الثوار لو عاجلوا ابراهيم قبل أن تختلف كلمتهم فهنـــاك خــوف من أن يهزموه . أما اذا صبر عليهم الى أن يختلفوا فسـيمكنه منهم ما يريد(٤٤٢) . فكأن الشـيخ العـامرى كان يأمر ابراهيم بتطبيق ذلك المبدأ الذى نجحت روما فى استخدامه قديما ضـــد خصومها ، والذى أصبح أصلا من أصول السياسة الدولية ، وهو مبـــدأ : « فرق تسد » .

وتضيف الرواية أن ابراهيم بن أحمد تنبه الى خطورة نصيحة الشيخ ، فأمر ابنه أبا العباس بحبسه عنده ، لئلا يتكلم بهذا الـرأى فيصـــل الى خصومه . وهكذا ، كانت مكافأة العامرى على نصيحته الغالية ، هى : الحبس فى قصر ولى العهد الى أن تم لابراهيم الظفر بخصومه(٤٤٣) .

ابراهيم يقضى على الثوار واحد بعد الآخر :

الجزيرة :

وهكذا مع مطلع سنة ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م أخذ ابراهيم ينفرد بأهل كـل منطقة ثائرة على حدة ، وبدأ بمنطقة الجزيرة ، جزيرة شريك ، وصفطورة ،

---

(٤٤٠) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٣ ، النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب . وابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ ؛ حيث النص على أن ابراهيم بن أحمد « استركب العبيد السودان واستكثر منهم فبلغوا ثلاثة آلاف .

(٤٤١) أنظر فيما سبق ، ص ٥٥ وما بعدها .

(٤٤٢) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب .

(٤٤٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب .

حيث وجه عسكره الذى انتقم من أهلها فقتل منهم خلقا كثيرا ، وأتى برئيسهم المعروف بابن أبى أحمد أسيرا ، فأمر به ابراهيم فقتل وصلب • وكان هذا النجاح سبب ظفره ، كما يقول النويرى(٤٤٤) •

قمودة :

وعندما تحرك أهل قمودة وجه اليهم ابراهيم فتاه الحبشى ميمون ، على رأس السودان ، فقاتلهم حتى انهزموا ، وقتل جماعة منهم(٤٤٥) •

تونس :

وأخيرا أتى دور تونس التى وجه اليها عسكرا عظيما ، على رأسه فتاه ميمون الخادم وحاجبه الحسن بن نافذ • وانتهى القتال الشديد بانهزام أهل تونس الذين قتلوا قتلا ذريعا ، ثم دخول مدينة تونس نفسها بالسيف فى يوم ٢٠ من ذى الحجة سنة ٢٨٠ هـ/٢ مارس ٨٩٤ م ، حيث انتهب ما فيها من الأموال ، كما استبيحت الذرية(٤٤٦) •

ووصل خبر دخول تونس سريعا الى الأمير ابراهيم على جناح طائر ، ومعه خبر تسيير ١٢٠٠ (ألف ومائتى) أسير من أكابر القوم اليه • وهنا بعث ابراهيم الى قائده ميمون يأمره بألا يقطع رأس أى قتيل ، وطلب اليه أن يوجه القتلى محمولين على العجل الى القيروان ، حيث شق موكبهم الجنائزى الحزين الطريق الكبير فى المدينة ، وهو السماط(٤٤٧) ، ليكون ذلك عبرة لمن يعتبر •

تونس مرة اخرى :

والظاهر أن اضطرابات تونس تطلبت حملة ثانية ، فى مطلع سنة ٢٨١ هـ/٨٩٤ م ، قام بها ميمون ضـــد جمـــاعة من بنى تميم ، عصبية

---

(٤٤٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب •

(٤٤٥) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ — ١٢٤ ، وقارن النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب — حيث يقول ان ابراهيم أرسل الى قمودة صالحا الخادم

(٤٤٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٤ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب — ١٢٠ أ — حيث تاريخ دخوله فى شهر رمضان •

(٤٤٧) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب — ١٢٠ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٤ • وقارن ابن خلدون (ج ٤ ص ٢٠٣) الذى يلخص كل ذلك فى أقل من سطر اذ يقول : « وفى سنة ثمانين (٢٨٠ هـ) كثر الخوارج وفرق العساكر اليهم فاستقاموا » •

الأغالبة ، وغيرهم . ونفذ ميمون الأسود أوامر ابراهيم بحذافيرها فقتل جماعة من بني تميم ، وصلبهم على باب المدينة . وعاد الخادم المظفر من تونس وبصحبته أكابر أهلها يقدمون الطاعة للأمير والولاء . واستقبل ابراهيم فتاه السوداني بما يليق بما حققه من النصر والظفر ، فكساه الخز والوشي والديباج ، وطوقه - على طريقة الخلفاء وأمراء المشرق - بطوق من الذهب حول عنقه ، وحمله على فرس ، وأعاده من غده الى تونس(٤٤٨) ، كنائب له هناك .

اتخاذ مدينة تونس مقرا لابراهيم :

والحقيقة أن ابراهيم بن أحمد عندما أعاد ميمونا الى تونس في اليوم التالي لتكريمه على ظفره ، كان قد قرر ان يجعل مدينة تونس واقليمها يشعران بالحكومة الأغلبية ، وبوطأة الأمير عن قرب ، اذ أمر فتاه الحبشي بأن يبني له ، على وجه السرعة ، قصورا لسكناه ، ومساكن لنزول حرسه وحاشيته(٤٤٩) .

والظاهر أن اعداد المساكن الأميرية في مدينة تونس لم يستغرق وقتا طويلا ، مما يرجح أنها اشتريت شراء أو اخذت أخذا ولم تبن ، وذلك أن ابراهيم بن أحمد خرج من القيروان ، في طريقه الى منازله الجديدة يوم ٢٤ من جمادى الآخرة سنة ٢٨١ هـ/٣١ اغسطس ٨٩٤ م ، بأهل بيته وجميع ولده ، ووصل الى تونس التي استوطنها ، في ٦ رجب/١١ سبتمبر(٤٥٠) .

ابراهيم بن أحمد يشدد قبضته على البلاد :

العهد الى ابنائه بولاية الأقاليم :

ولكي يزيد ابراهيم بن أحمد في توطيد الأمن والاستقرار في البلاد ،

---

(٤٤٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ .

(٤٤٩) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ أ ، وأنظر تلخيص ابن خلدون (ج ٤ ص ٢٠٣) .

(٤٥٠) أنظر النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ أ - حيث تاريخ الخروج ٢٤ من جمادى الأولى ، ولكنا جعلناه جمادى الثاني حتى يتفق مع تاريخ ابن عذارى (ج ١ ص ١٢٩) الخاص بالاستيطان في تونس ، وهو ٦ رجب . بمعنى أن الرحلة استغرقت نحوا من عشرة أيام ، وهو الأمر المقبول .

قرر في السنة التالية ، وهي سنة ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م ، أن يعهد بولاية أقاليم افريقية الى أبنائه ، حسبما تقول رواية ابن عذارى المقتضبة ، التي لا تمدنا بتفصيلات الموضوع ، مما كان يمكن أن يكون مفيدا للدراسة(٤٥١)٠

هل أدت النقلة الى تونس أغراضها ؟ :

العودة الى رقادة :

والحقيقة أنه اذا كان ابراهيم بن أحمد قد أراد من وجوده بمدينة تونس أن تشعر المنطقة الدائمة الاضطراب بوطأة حكومته ، وتركن الى الهدوء والسكينة ، فالظاهر أن تونس المتطرفة بعيدا ، على شاطىء البحر وعن قلب البلاد ، لم تكن مهيأة بعد للدور الذى كانت تقوم به قرطاجنة قبل الاسلام ٠ فمركز الثقل في افريقية كان في الدواخل ، على كل حال ، حيث تجمعات القبائل الكبيرة من العرب والبربر ٠ وكانت منطقة القيروان حتى ذلك الوقت خير مركز يمكن السيطرة منه على أطراف البلاد ٠ هذا ، اذا تركنا جانبا جو الصحراء الصحي الجاف ، في القيروان ، والقصر القديم ، ورقادة — الى جانب القصور الملكية الفاخرة ، ومواجل الماء العظيمة ، التي كانت لا تحرم المقيم هناك من منظر البحر الساكن ، ونسيمه الرطب ٠

وهكذا لم يكن من الغريب ألا يقيم ابراهيم بن أحمد في تونس — التي ستظل عاصمة ثانية للمملكة — الا أقل من سنة ونصف سنة ٠ وذلك أنه قرر العودة الى رقادة في مطلع سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦ م ، فغادر تونس في ١٠ من المحرم/٢٩ فبراير ٠ هذا ولا يمنع ذلك من أن يكون سبب عودة ابراهيم ابن أحمد الى رقادة هو اضطراب الأحوال في اقليم طرابلس — كما سنرى — بسبب تهديد قبائل نفوسة الاباضية ٠ أما ما تقوله رواية النويرى من أنه كان يريد محاربة ابن طولون في مصر(٤٥٢) ، فهو أمر بعيد الاحتمال ، وان كان من حق ابراهيم أن يتمنى الثأر لما فعله العباس بن أحمد بن طولون من التهجم على بلاده ٠

الأحوال تنذر بالانفجار في اقليم طرابلس ، والخلافة تحتج على سياسة ابراهيم العنيفة في تونس :

والمهم هو أن ابراهيم كان قد أخرج ابنه أبا منصور أحمد الى

---

(٤٥١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ ٠

(٤٥٢) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ أ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣ ٠

طرابلس(٤٥٣) ، ليكون واليا عليها حسبما قرره في العام السابق (٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م) ، وذلك بدلا من محمد بن زيادة الله ، ابن عمه ، الذي كان معروفا بالأدب والظرف ، والذي كانت له بعض التواليف من الكتب . واذا كان من الممكن أن يكون لين محمد بن زيادة الله في حكم طرابلس من اسباب عزله ، فقد كان هناك سبب أقوى من كل الأسباب لسخط ابراهيم عليه ، وهو انه كان مرشحا لتولي الإمارة في ذلك الوقت . فعندما أرسل الخليفة المعتضد الى ابراهيم يعنفه على ظلمه وسوء فعله بأهل تونس ، كان من بين ما كتبه له : « ان انتهيت عن أخلاقك هذه ، والا فسلم العمل الذي بيدك لابن عمك محمد بن زيادة الله »(٤٥٤) .

قبائل نفوسة الاباضية في اقليم طرابلس تقف ضد ابراهيم :

. هذا ، ومع أن النصوص القيروانية لا تشير الى السبب الذي من أجله وقفت قبائل نفوسة ضد ابراهيم بن أحمد في طرابلس ، فلا باس من أن تكون أعمال الظلم والقسوة التي لحقت قبائل افريقية من اميرهم العنيف ، ومنهم قبائل الاباضية ، مثل : هوارة وأهل الزاب ، هي التي جعلت أباضية نفوسة وطرابلس يهبون محتسبين ضد الأمير الأغلبي ، تماما ، كما فعلوا مع الطولوني عندما تجرأ سودانة على كشف الستور وهتك الحرم في طرابلس(٤٥٥) .

هذا ، واذا كانت الرواية الاباضية تخطيء عندما تقول أن الخليفة العباسي هو الذي سير ابراهيم بن أحمد من المشرق للقضاء على امامة الرستميين ، في تاهرت(٤٥٦) ، فلا بأس أن يكون وقوف ابراهيم ضد الاباضية بأوامر من الخلافة . ولا بأس أيضا في أن يكون ابراهيم قد سار لحرب نفوسة ترضية للخليفة المعتضد الذي كان يهدده بالعزل بالأمس القريب .

ابراهيم يسير بنفسه لقتال نفوسة :

وقعة مانو(٤٥٧) :

وعلى كل حال ، فقد خرج ابراهيم بن أحمد من رقادة ، التي لم يمكث

---

(٤٥٣) النويري ، ج ١ ص ١٢٩ .

(٤٥٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ ، وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٩-٩٠ .

(٤٥٥) انظر فيما سبق ، عن حملة العباس بن احمد بن طولون ، ص ١٢٤ وص ٢٩٣ .

(٤٥٦) انظر ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٣ - أ ، وفيما بعد في تاريخ الرستميين ، ص ٢٨٧ .

(٤٥٧) عن الوقعة انظر في تاريخ الرستميين ، فيما بعد ، ص ٣٨٧ .

فيها الا شهرا وبعض شهر ، في ٢٤ من صفر سنة ٢٨٣ هـ/١٠ أبريل ٨٩٦ م ، بعساكره متتبعا خطى ابنه أحمد الذى كان قد سبقه الى هناك من تونس . وكان ابراهيم في منتصف الطريق بين قابس وطرابلس ، في موضع يعرف عند كتاب الاباضية بـ « مانو » عندما اعترضته قبائل نفوسة في منتصف ربيع الأول/٣ مايه ، في جمع عظيم يقدر بحوالى ٢٠ (عشرين) ألف رجل ، لا فارس معهم ، ومعوه الجواز(٤٥٨) .

قتال عظيم ، وانتقام مروع :

ولم يكن أميرنا — الذى عرفناه حاد المزاج ، سريع الغضب ، لا يعرف الحدود عندما يطلق العنان لثأره وانتقامه — ممن يتردد في مواجهة مثل هذا التحدى . واذا عرفنا ان اباضية نفوسة الخوارج كانوا يقومون ، في مثل قيامهم هذا ، احتسابا لوجه الله ، من أجل تغيير المنكر واحقاق الحق ، أدركنا نوع القتال العظيم الذى وقع بين الطرفين . ولقد بدأت المعركة الشديدة بتفوق مؤقت للخوارج ، الذين عرفوا بشدة اندفاعهم عند بدء القتال ، حتى قتل ميمون الخادم — حامل الطوق الذهبى — وجماعة ممن معه من فتيان السودان . ثم انهزمت نفوسة ، وتمادى انهزامهم الى طرابلس ، وابراهيم يتبعهم بالقتل الذريع ، حتى شاطىء البحر الذى احمر ماؤه من دمائهم ، كما تقول رواية النويرى(٤٥٩) .

وتنسب هذه الرواية الى ابراهيم بن أحمد ، وهو الخبير بمثل هذه المذابح ، أنه قال : « لو كان هذا القتل لله لكان اسرافا » . ولكنه عندما علم من بعض رجاله أن من مذهبهم تكفير علي بن أبى طالب ، ولما تأكد له من مشايخهم صدق رأيهم هذا ، بل انهم يكفرون من لم يكفره ، انتقم ممن وقعوا في الأسر منهم انتقاما رهيبا . فتقول الرواية : انه كان يقد أضلاع الرجل منهم من تحت منكبيه ، ويطعنه بالحربة فيصيب قلبه ، وأنه فعل ذلك بيديه بـ ٥٠٠ (خمسمائة) رجل دفعة واحدة(٤٦٠) .

وتقول رواية ابن عذارى التى تجعل تلك الحادثة وقعة ثانية ، في نفوسة ، في السنة التالية (٢٨٤ هـ/٨٩٧ م) : ان ابراهيم أمر أن تنضم

---

(٤٥٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ أ .

(٤٥٩) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ . وانظر تفاصيل الموقعة من وجهة النظر الاباضية فيما بعد ، ص ٢٩٠ : حيث يقال ان الاباضية فقدوا ١٢ (اثنى عشر) الف قتيل ، منهم ٤٠٠ (اربعمائة) عالم فقيه . وعن طوق ميمون الذهبى ، انظر فيما سبق ، ص ١٣٩ .

(٤٦٠) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب .

قلب هؤلاء الرجال في حبال ، وأن تنصب على باب تونس(٤٦١) .

قتل والي طرابلس : محمد بن زيادة الله ، واشاعة الرعب في الاقليم :

ومن محررة نفوسة سار ابراهيم الى طرابلس حيث اوقع بابن عمه الأديب الظريف ، محمد بن زيادة الله ، صاحب التواليف ، الذي سبق أن رشحه الخليفة ليلي عرش افريقية بدلا منه ؛ وكان ابراهيم كثير الحسد له من صغره ، على علمه وأدبه - كما تقول الرواية - فقتله وصلبه(٤٦٢) .

والظاهر أن ابراهيم بن أحمد أراد أن يلقن أعداءه في منطقة طرابلس درسا لا ينسوه ، فتقول رواية ابن عذارى انه نهض من طرابلس الى تاورغا ، شرقيها ، حيث قتل بها خمسة عشر رجلا ، وأمر بطبخ رؤسهم ، وهو يظهر أنه يريد أكلها ، هو ومن معه من رجاله(٤٦٣) - وهي القصة الأسطورية التي نجد لها شبيها في فتح الأندلس على يدي موسى بن نصير ، والتي يقصد بها بث الرعب في قلوب الخصوم .

اضطراب العسكر :

ولقد أتى هذا العمل الشاذ بنتيجة عكسية ، كما تقول الرواية ، اذ ارتاع أهل العسكر منه ، وقالوا : قد خولط ، فانفض الناس عنه . هذا ، ولو أن الأقرب الى المنطق هو ما تقوله رواية النويري ، من أن كثيرا من اصحابه ضجوا من مسيره الطويلة حتى تاورغا ، ففروا عائدين الى إفريقية ، ولم يبق معه الا أقل من النصف منهم ، وأنه لما رأى ذلك عاد الى رقادة(٤٦٤) . وتضيف رواية ابن عذارى أن ابراهيم بن أحمد فرض عقوبة مالية على كل من

---

(٤٦١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٠ . ولما كانت الرواية لا تنص على أن المقصود بباب تونس هو باب القيروان ، المعروف بهذا الاسم ، مما قد يعني باب تونس المدينة ، حيث كان يعيش ابراهيم منذ فترة وجيزة ، فان عدم التخصيص هذا قد يوحي بوجود نوع من الربط بين قيام النفوسيين ضد ابراهيم بن أحمد في طرابلس ، وبين ما قام به في تونس من أعمال العنف والقسوة التي بلغت حد النهب واستباحة الأعراض .

(٤٦٢) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ . والحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٠ - حيث الاشارة الى رواية تقول ان الخليفة كان يقارن بين سوء أخلاق ابراهيم وحسن أخلاق عامله على طرابلس محمد بن زيادة الله ، ثم ذكر رواية الرقيق التي تنص على أن الخليفة رشح محمد بن زيادة الله للامارة بدلا من ابراهيم .

(٤٦٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ .

(٤٦٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب .

انفض عنه ، مقدارها ثلاثين دينارا ، وأن هـذه الغرامة سميت « غـرم الهاربين »(٤٦٥) ·

نوع من الرقابة الشعبية :

شيخ صالح يأمر ابراهيم بالمعروف :

ولا نعرف ان كانت تلك الغرامة التى فرضها ابراهيم على الفارين من عسكره ، أم الفظائع القصصية التى أنزلها بأعدائه فى طرابلس ، هى التى دفعت الشيخ الصالح أبا الأحوص المكفوف الى أن يامره بالمعروف وينهاه عن المنكر ، فى كتاب خطى أملاه على بعض أهل سوسة ، بلده ، وبعثه اليه · وكان فى بعض فقرات الكتاب : « يا فاسق ! يا جائر ! يا خائن ! قد خنت عن شرائع الاسلام ، وعن قريب تعاين مقعدك من جهنم ، وسترد فتعلم » · وتنص الرواية على أن ابراهيم عذر الشيخ المكفوف : لدينه وفضله ، ولكنه هدده بقتل عدد من أهل سوسة ان لم يبعث اليه بمن كتب له الكتاب · وكان رد الشيخ الصالح هو دعوة ابراهيم من جديد الى التوبة ، والرجـوع عن الجور · والمهم فى الرواية بعد ذلك : ان الله حفظ أبا الأحوص من انتقام ابراهيم ، فمات الرجل الصـالح فى نفس السنة ، وهى سنة ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م(٤٦٦) ·

هل حققت دعوة الشيخ الصالح غرضها ؟ :

ومع أن النويرى فيما ينقله عن الرفيق ينهى أعمال ابراهيم بن أحمد بأحداث طرابلس ونفوسة ، فى سنة ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م ، ليختم بعد ذلك بدء باعتزاله الملك وزهده ، بعد ثلاث سـنوات ، أى فى سنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م ، فان ابن عذارى يشير الى عدد من الأحداث التى وقعت فى افريقية لال تلك الفترة · مثل : سخطه من جديد ، فى سنة ٢٨٦ هـ/٨٩٩ م ، على اعة من فتيانه وقتلهم(٤٦٧) ، ووقعة اوقعها أحد ابنائه ببعض القبـائل بنى بلطيط ببسكرة ، واقراره للامور هناك(٤٦٨) ، ثم حملة أخرى قام

---

(٤٦٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٠ ·

(٤٦٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٠ ·

(٤٦٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ ·

(٤٦٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ ـ سيث تقول الرواية ان بطل الوقعة هو ابنه ابو العباس الذى كان فى صقلية وقتئذ ، والغلب الظن أنه أبو عبد الله ·

بنا ابنه أبو عبد الله فى الزاب ، فى سنة ٢٨٨ هـ/٩٠١ م(٤٦٩) . وذلك قبل أن تأتى توبة ابراهيم فى سنة ٢٨٩ هـ/٩٠٢ م .

تحذير جديد من الخلافة : مقدمة للاعتزال :

ورواية النويرى تبدأ باعتزال ابراهيم وزهده متقدما سنتين على موعده ، وذلك بالبدء بالمقدمات التى تتعلق باستمرار تدخل الخلافة فى شئون افريقية ، نتيجة لسوء سياسة ابراهيم مع رعيته ، وهو الأمر الذى يبدأ بتهديد المعتضد لابراهيم ، كما رأينا ، بالعزل فى سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦(٤٧٠) .

ففى سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م قدم من بغداد على الأمير ابراهيم رسول الخليفة المعتضد بالله . ومن الواضح أن ابراهيم بن أحمد كان مقيما فى مدينة تونس ، وذلك أنه خرج لاستقبال رسول الخليفة فى السبخة قرب تونس ، حيث ضرب له سرادق (قارة) أسود اللون ، أى بشعار الخلافة :

وخلا رسول الخليفة بابراهيم ، وكان بينهما محاورة شفهية ، اذ لم يأت المبعوث الخلافى بكتاب محرر ، وذلك أن الخليفة كان قد أرسل مبعوثه بسرعة وعلى عضب ، بعد أن أتت شكاوى أهل تونس تترى على ديوان الخلافة فى بغداد . وكان من بين شكاوى أهل تونس ما قرروه من أن أميرهم ابراهيم عندما سبى بناتهم ونساءهم ، أهدى منهن الى الخليفة نفسه ، وهو الأمر الذى أثار سخط المعتضد على واليه الجرىء الذى لا يكتفى بغمس يديه فى المنكر ، بل يورط الخليفة بغمس يديه هو الآخر فيه .

وتنص الرواية على أن الخليفة أمر رسوله بأن يطلب من ابراهيم بن أحمد اعتزال الحكم ، وتولية ابنه أبى العباس على افريقية ، ثم المسير مع الرسول الى بغداد للقاء الخليفة(٤٧١) .

ورغم ما تقوله رواية النويرى من أن ابراهيم كره المسير الى بغداد بصحبة الرسول ، وأنه قرر الاعتزال ، وأظهر الزهد ، وأنه ولى ابنه

---

(٤٦٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ .

(٤٧٠) انظر فيما سبق ، ص ١٤١ وهـ ٤٥٤ .

(٤٧١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢١ أ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

أبا العباس — وكل ذلك كرد فعل مباشر للقاء مبعوث الخلافة(٤٧٢) — فالمعروف أن ذلك تطلب بعض الوقت ، ربما بسبب وجود أبى العباس فى صقلية • ومع أن ابن عذارى يصح توبة ابراهيم بن أحمد فى سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م ، وهى نفس السنة التى بدأت بخروجه الى صقلية ، فالأقرب الى الواقع أن تكون توبة ابراهيم بن أحمد فى أواخر سنة ٢٨٨ هـ/٩٠٢ م ، بعد أن تأمل فى موقف مشايخ أهل افريقية منه ، مثل : أبى الأحوص الصالح الـذى وعظه بالخشن من الكلام ، وخشيته من موقف الخلافة العدائى منه • وأخيراً ربما كان الدافع الحقيقى الى توبته واستقامته ، هو نجاح دعوة أبى عبد الله الشيعى فى بلاد كتامة •

نجاح أبى عبد الله الشيعى واعتزال ابراهيم بن أحمد :

واذا كان من المقبول أن يكون من أسباب توبة ابراهيم عن أعمـال الظلم ، هو النجاح الذى حققته الدعوة الفاطمية فى كتامة ، على يدى أبى عبد الله الشيعى ، فانه ليس من المقبول أن يكون ذلك هو السبب فى اعتزاله الحكم ، كما تكرر الرواية الفاطمية المنقبية فى أكثر من موضع(٤٧٣) •

والذى لا شك فيه أن أميرنا ، الذى عرف بحدة المزاج ، ما كان يرضى بأن يكون اعتزاله نوعا من الانسحاب من ميدان القتال ، وتركه للـداعية الفاطمى ، الذى كان بعد ، فى بداية أمره • وهـذا ما تعترف به الروايا الفاطميه ، ضمنا ، عندما تقول انه لم يرغب فى قتال الداعى لأنه — هو نفسه كان يتشيع •

واذا كان أبو عبد الله الداعى قد دخل الى بلاد كتامة سنة ٢٨٠ هـ ٨٩٣ م ، على عهد ابراهيم بن أحمد ، مما جعل ابن عذارى يتخذ هذه السنة بداية لقيام الدولة العبيدية الشيعية(٤٧٤) • وأن أمره كان قد عظم فعـ — فى اقليمه — وقتما اعتزل ابراهيم سنة ٢٨٩ هـ/٩٠٢ م ، فقـد كان

---

(٤٧٢) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢١ ا •

(٤٧٣) انظر افتتاح الدعوة للقاضى النعمان ص ٨١ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٢١ • والحقلا ان النعمان يقول ان ابراهيم بن أحمد كان لا يرغب فى قتال أبى عبد الله الداعى لعلمه مـ بأنه صاحب الدولة التى تزيل الأغالبة ، بل وتضيف الى ذلك ان ابراهيم كان يتشيع و من أهل بيته ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٤٠ — ٢٠٥ • وانظر فى الدعوة الفاطميا فيما بعد ، ص ٥٣٦ وهـ ١١ •

(٤٧٤) البيان لابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٤ •

قوات ابراهيم فى ميله وسطيف تستطيع أن ترده ، ومن معه من كتامة بعيدا عن أسوار كل من المدينتين(٤٧٥) .

والحقيقة أنه طالما كان ابراهيم فى الحكم ، لم تتخذ الدعوة الفاطمية أبعادا خطيرة . اضف الى ذلك أن توبة ابراهيم واعتزاله لم يكن تخليا عن مسئولياته كحاكم ، وخاصة كمحارب : فهو قد ترك قتال الثوار فى افريقية ليقاتل « الكفار » فى أوروبا . ولكل ذلك نرى أن تحويل ابراهيم للقوات الأغلبية الى صقلية ، فى الوقت الذى كان يعظم أمر أبى عبد الله الشيعى ، كما ينص على ذلك الكتاب(٤٧٦) ، كان من الاسباب التى خففت الوطأة عن الداعى ، وبالتالى كانت من أسباب المساعدة على صموده ، ثم نجاحه . وكل ذلك عن غير قصد من ابراهيم بن أحمد ، الذى فضل أن يهب نفسه للجهاد .

توبة ابراهيم :

وهكذا يدل استقراء الأحداث على أن جانب الخير عند ابراهيم بن أحمد بدأ يتغلب على جانب الشر ، منذ سنة ٢٨٨ هـ/٩٠١ م ، أى بعد ذلك اللقاء العاصف مع رسول خليفة بغداد ـ فى السنة السابقة .

فلقد أظهر ابراهيم التوبة ، ورفض الملك ، ولبس الخشن من الثياب(٤٧٧) . وأراد أن يرضى العامة ويستميل قلوب الخاصة بفعله(٤٧٨) ، فأمر باخراج من فى سجونه(٤٧٩) ، ورد المظالم ، وأسقط القبالات (المكوس) ، وأخذ العشر طعاما ـ بدلا من الضريبة المالية الثابتة ، التى اعتبرناها اصلاحا ـ وترك لأهل الضياع خراج سنة ، وسماها سنة العدل(٤٨٠) ، وبينما كان ينتظر عودة ابنه أبى العباس ، وكان قد بعث اليه بالرجوع من صقلية ليسلمه الملك(٤٨١) ، تطرف ابراهيم بن أحمد فى عمل

---

(٤٧٥) انظر فيما بعد ، الفصل الخاص بالدعوة الفاطمية ، ص ٥٦٠ وما بعدها .

(٤٧٦) ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ ، ابن خلدون ، ـ ٤ ص ٢٠٥ (حيث النص على أن ابراهيم كان « قد أسر لابنه أبى العباس فى شأن الشيعى ونهاه عن محاربته وأن يلحق به الى صقلية ان ظهر عليه) .

(٤٧٧) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢١ أ .

(٤٧٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ .

(٤٧٩) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢١ أ .

(٤٨٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ .

(٤٨١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢١ أ .

البر والورع ، فأعتق مماليكه ، وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا عظيمة ليفرقوها في الضعفاء والمساكين · ويعلق صاحب الرواية — وهو مصدر الرقيق في أغلب الظن — على ذلك فيقول : ان تلك الأموال « استؤكلت وأعطيت من لا يستحقها ، وأنفقت في اللذات ، وصرفت في الشهوات »(٤٨٢) ·

الاعتزال والعهد لأبي العباس :

وعندما وصل أبو العباس ، ولي العهد ، من صقلية ، في أواخر سنة ٢٨٨ هـ/٩٠١ م(٤٨٣) ، سلمه أبوه الملك في ٢٢ ربيع الأول سنة ٢٨٩ هـ/ ٩ مارس ٩٠٢ م(٤٨٤) ، وبدأ هو في الاستعداد للخروج الى صقلية مجاهدا ·

وفاة ابراهيم بن أحمد في ايطاليا :

وتقول الرواية ان ابراهيم بن أحمد فكر في أول الأمر في الحج عن طريق مصر ، ولكنه خشي أن تثور الحرب بينه وبين بني طولون ، فتسفك الدماء بينهما · وبناء على ذلك فانه قرر الجهاد في صقلية ، مما يعني أن الجهاد — في نظر رجال ذلك العصر — كان لا يقل عن الحج ، ان لم يزد عليه · وهكذا فقد أخذ طريقه من رقادة الى سوسة ، أرض الرباط وميناء صقلية العسكري · وفي جنوب ايطاليا يتوفى الأمير ابراهيم بن أحمد يوم ١٦ من ذي القعدة سنة ٢٨٩ هـ/٢٣ أكتوبر ، ٩٠٢ ، بعد أن قام بأعمال مجيدة لم يكن أقلها استيلاؤه على مدينة طبرمين في صقلية(٤٨٥) ·

شخصية ابراهيم وتقويم عهده :

هكذا توفي ابراهيم بن أحمد وله من العمر حوالى ٥٤ سنة ، بعد حكم دام أكثر من ٢٨ (ثمانية وعشرين) سنة(٤٨٦) ·

---

(٤٨٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٢ ·

(٤٨٣) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٢ ، الذي يضعها في شهر ربيع الاول ، وذلك الأحداث التي يذكرها تحت سنة ٢٨٧ هـ ، وهي التي حدث فيها اللقاء بين رسول الخليفة راهيم ·

(٤٨٤) انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٤ — حيث النص على ان ابراهيم بن أحمد كتب نابا ولاه فيه عهده ، وصير اليه خاتمه ووزراءه ·

(٤٨٥) انظر فيما بعد في فتوح صقلية ، ص ٢٨١ وما بعدها ·

(٤٨٦) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ ب — مولده يوم الأضحى سنة ٢٣٥ هـ/ ٢٥ يونية ٨٥٠ م ، فكان عمره ٥٣ سنة · و ١١ شهرا وأياما · اما ولايته فكانت ٢٨ سنة =

ما بين الجائر الظالم والمصلح العادل :

ولقد حفل ملكه الطويل ، بالجهاد فى صقلية ، والفتن الداخلية ، وأعمال العمران العظيمة ، والاصلاحات الادارية والمالية الرشيدة · كما ملأه ، على المستوى الشخصى ، بأعمال الخير والشر على السواء — حتى اختلفت الآراء فى تقييمه ، كما يحدث بالنسبة لكبار الرجال · فابراهيم ، فى نظر الفقهاء والصالحين : جائر ظالم · وهو عند ابن الأثير : خير مصلح عادل ، وعند الرقيق — الذى ينقله ابن عذارى والنويرى — . وسط بين الخير والشر ، له شطحاته المحمودة والمرذولة فى كلا الجانبين ·

والحقيقة انه لم يكن من الغريب أن تنقل أحداث الحكم الذى طال الى أكثر من ٢٨ سنة ، وهو الأمر غير المعتاد بين أمراء الأغالبة ، كاهل ابراهيم ابن أحمد ، حيا وميتا · ولكن الذى لا ينبغى أن يغيب عن ذهن الدارسين ، هو ما يجب من التفرقة بين أمور الحكم العامة ، وشئون الأمير الخاصة ·· ولو أن الأمور العامة كانت تختلط بشئون الامير الخاصة فى ذلك النوع من الحكم الذى كان سائدا فى تلك العصور ، والذى يصنف حاليا فى طبقة « الحكم الفردى » ، كما يقال · والذى نراه : هو أن ابن الأثير نظر الى عهد ابراهيم ابن أحمد من وجهة النظر العامة ·

وابراهيم من هذا الوجه : مجسد ، مجتهد من يوم ولايته التى بدأها بحرب أهل القصر القديم ، الى يوم وفاته بميدان الجهاد فى صقلية وايطاليا · والرجل ، وان عرف بحدة المزاج ، فقد كان راجح العقل تواقا الى القيام بجليل الأعمال ، فى ميادين السياسة والعمران ·

فى أعماله العمرانية : تامين الطرق وبناء المحارس :

وهكذا ، فاذا كانت رواية الرقيق تشهد له خلال السنوات السبع الأولى من عهده(٤٨٧) فهى شهادة جيدة لابراهيم ، ترجح شهادة ابن الأثير الذى يضيف الى عدله وحزمه فى أموره ، وعقله ، وحبه للخير والاحسان ،

= و٦ أشهر و١٢ يوما " وقارن ابن عذارى ج ١ ص ١٣٢ ، الذى يجعل مولده يوم الاضحى من سنة ٢٣٧ هـ/٨٤٨ م فتكون وفاته وعمره ٥٢ سنة ·· ،

(٤٨٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٢ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ ب · وانظر فيما سبق ، ص ١١٥ ·

وحسن سيرته ، وفطنته ، انه قتل أهل البغي والفساد ، « وكان القرا والتجار يسيرون في الطرق آمنين »(٤٨٨) ٠

واذا كانت رواية ابن الأثير تبالغ عنـــدما تقول انه : « بنى الحصو والمحارس على سواحل البحر ، حتى كان يوقد النار من سبتة فيصل الخبر الاسكندرية في الليلة الواحدة » ، مما يعني أن نفوذ ابراهيم السياسي ممتدا بين طنجة والاسكندرية ، فهذا الامر غير صحيح ٠ واذا كان ذلك أن التضامن بين المسالح والرباطات البحرية على طول سواحل البحر المتوسط من الاسكندرية الى جبل طارق كان أمرا واقعا ، فهو الأمر المحتم أما ما هو حقيقي ، فهو ما تؤكده الرواية من أن العرب كانوا يستخدمون في ذلك الوقت المبكر من القرن الـ ٣ هـ/٩ م ، الاشـــارات الضوئية للتخاطب بين المحارس البحرية ليلا ، وهي الطريقة المعروفة حاليا بـ « اشارات مورس » ، التي تستخدمها السفن في التخاطب فيما بينها ـ اليوم ٠

ما بين الأمور العامة وشئون الأمير الخاصة :

أما ما تقوله رواية الرقيق من أن التغير طرأ على أحوال ابراهيم بن أحمد منذ تعرضت بلاده الى غارة العباس بن أحمد بن طولون ، وأنه لما كفي مؤ حرص على جمع الأموال ثم اشتد أمره ، فأخذ في قتل أصحابه وكفاته وحجا ثم قتل ابنه وبناته ، وأتى بأمور لم يأت غيره بمثلها(٤٨٩) ، فان هـــ الرواية تخلط بين الامور العامة وشئون الامير الخاصة ٠

(٤٨٨) أنظر ابن الأثير سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ٢٨٦ ـ حيث تستثيره فطنة الامير ابرا ابن أحمد العظيمة "في اظهار خفايا « المعضلات » ٠ وذلك في قصة امرأة عجوز كانت تتردد قصر الامير وتعرف عند أهل القصر بالصلاح ٠ وكيف أنها استجابت لنزوة طرأت للوزير عـ اشتهى زوجة تاجر من أهل القيروان ، فاحتالت العجوز حتى وصلت الى بيت الزوجة العفيفة وكافأت احسانها بالاستيلاء على حليها ٠ وتروى القصة كيف استجاب الأمير لشكوى التاجر وكشف حيلة المرأة ، وانتقم منها بقتلها ، ثم كيف أنه دبر التخلص من الوزير بعد ذلك والحقيقة أن اهتمام ابن الأثير بتلك القصة ، وان كان يخرج عن نطاق التاريخ العام ، ا يبين نوعا من التاريخ الخاص بالأمير ابراهيم ، مما يمكن أن يلقى بالأضواء على حقيقة ما يحاك حول الرجل من المؤامرات ، والتي وان ظهرت صغيرة فانها تعطي ردود فعله العنيفة ا من الشارقية ٠

(٤٨٩) النويري ، المخطوط ، خ ٢٣ ص ١٢٣ ب ٠

فحرص ابراهيم بن أحمد على جمع الأموال ليس من الأمور التي تؤخذ عليه ، وان جرت العادة بأن يضج الناس ، من العامة والخاصة ، من جباية الضرائب التي سماها الفقهاء في كثير من الأحيان بـ « المغارم » وبـ « المظالم » .

مستبد مصلح : أثر الاصلاحات المالية :

والحقيقة أن الدولة الأغلبية كانت منذ نشأتها في حاجة الى الأموال للانفاق على الجيوش ، وبناء المدن الملكية ، والمساجد الكبرى ، والمنشآت ذات المنافع العامة ، من : المسالح والمحارس والربط ، وصهاريج الماء والقناطر ، وغيرها . ومن أجل تنظيم ميزانية متوازنة لا تخضع لتقلبات الطقس والجو ، أو لمزاج زعماء القبائل ، كانت محاولات الأغالبة في تقرير ضرائب ثابتة للخراج ، تدفع نقدا ولا تؤخذ عينا من ناتج المحصول حسب النسبة المئوية المقررة ، التي كانت تزيد وتقل تبعا لزيادة المحصول ونقصانه . وهذا الأمر كان يعتبر من جانب الفقهاء خروجا على الشرع ، وكان عامة الناس يستجيبون ، بطبيعة الحال ، الى مقالة الفقهاء ، ويعتبرون ذلك نوعا من الجور والظلم .

وفي هذا الاطار التنظيمي ، قام الأمير ابراهيم باصلاحاته النقدية التي استهدفت اقرار النظام العشري — وهو النظام السائد الآن — ولا اعتبار لما ترتب على ذلك من الأصداء في أسواق القيروان ، وبين أهل العاصمة . ولقد تبين تفهم ابراهيم بن أحمد لأحوال العامة في رده اللين على مقاومة أهل القيروان لذلك الاصلاح النقدي حتى مر في هدوء(٤٩٠) . وتتضح حسن سياسة ابراهيم ازاء الشعب وعامة الرعية مما يقال من أنه كان يعرف أن الرعية هم مادة الملك ، فان أباح ظلمهم لم يصل اليه نفعهم ، ولحقه الضرر(٤٩١) .

عنف في سبيل هيبة الدولة :

أما عن عنفه مع المخالفين لأوامره ، من : كبار رجال الدولة ، ومن الخدم وأهل الحاشية ، أو وقوفه بصلابة وشدة ضد الخارجين على دولته ، من

---

(٤٩٠) انظر فيما سبق ، ص ٢٩٦ وص ٤٠٩ .

(٤٩١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ أ .

القواد أو زعماء القبائل ، فلا يفسره الا حرصه على أن تكون كلمته ، أي كلمة الدولة ، هي الأولى والأخيرة • فلقد علمته التجارب أن ذوي الأقدار والأموال اذا احسوا من أنفسهم قوة ، ولم يقمعوا ، لم يؤمن شرهم وبطرهم • وأنه اذا كف الملك عنهم وأمنوا ، دعاهم ذلك الى منازعته واعمال الحيلة عليه(٤٩٢) •

وفي اطار هذا المبدأ السياسي ، الذي يعني أن سلامة الدولة - أي سلامة الأمير - فوق كل اعتبار ، يمكن أن نفسر ذلك الجموح الذي ظهر منه في قمع الثورات والقضاء على المتسببين فيها دون رحمة أو شفقة ، وكذلك تلك الشطحات التي ظهرت منه في حق ابنه أبي الأغلب ، أو اخوته الثمانية الذين لم يتردد على سفك دمائهم ، وان كان بشيء من الغلظة التي لا تتفق مع ما لرابطة القرابة والدم من الحرمة(٤٩٣) • ومثل هذا يمكن أن يقال عن بعض ما أوقعه بفتيانه وحرمه وقرابته ، من القتل والتعذيب والتنكيل •

اسرار القصور ، وأثرها على نفسية الأمير :

هذا عن بعض ما كان يحدث تحت شعار أمن الدولة وسلامة هيبتها • اما عن البعض الآخر ، فان استقراء النصوص يمكن أن يدل على مسائل حساسة مما كان يمس أعماق خصوصيات ما كان يجري بين فتيان البلاط ، وفي أجنحة الحريم في قصور الأمير •

والدة ابراهيم : شخصية عارمة تقبع في ظل الأمير :

فكثير من قصص العنف التي كان بطلها ابراهيم بن أحمد ، كانت في الحقيقة من قصص الحريم ، وكان بطلها الحقيقي شخصية أخرى ، كان لها مقامها الكبير في قلب الأمير ، وهي : « السيدة الوالدة » أمه •

الوالدة تعمل في التجارة ، والأمير ينصف المتعاملين معها :

ويظهر من النصوص أن السيدة والدة ابراهيم كانت ذات شخصية عارمة ، وان نفوذها لم يكن يحده نطاق الحريم ، بل كان يتعداه الى خارج حوائط القصر ورقادة ، في : معاملات تجارية مع أصحاب القوافل وكبار

---

(٤٩٢) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ أ - ١٢٣ ب •
(٤٩٣) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٤ أ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٢ •

التجار . هذا ما يتضح من قصة الرجلين القيروانيين اللذين أتيا ابراهيم ابن احمد ، وهو بمقصورة المسجد الجامع في القيروان ينظر الى المظـالم " فلما أدناهما من نفسه ، وسالهما عن حالهما ، قالا له : كنـا شريكين « للسيدة » — يعنيان أمه — في جمـال وغيرها ، فاحتبست لنـا ٦٠٠ (ستمائة) دينار . ولم يظهر الأمير الحاد المزاج — عادة — أية علامة من علامات الاستغراب ، بل أرسل خادما يسأل والدته عن الأمر . ورجع الخادم يخبره على لسانها : نعم ان الأمر ، كما ذكرا : « الا أن بيني وبينهما حسابا ، وانما احتبست هذا المـال حتى أحاسبهما : فان بقي عليهما شيء ، والا دفعت مالهما اليهما » .

ولا ندري ان كان الأمير قد أعجب بوالدته التي تحسن ادارة الأموال ، وتدقق في حساب شركائها من التجار أم لا ! وذلك أن رد فعله المبـاشر كان قسما ، وجهه الى والدته الصعبة في معاملاتها ، ينص فيه على أنها ان لم توجه بالمال الى أصحابه ، فانه سيجعلها تقف في التو واللحظة مـع خصميها بين يدي صاحب المظالم : عيسى بن مسكين . ولكنه بعد أن وجهت « الوالدة » بالمال اليه ، فدفعه الى الرجلين ، لم ينس أن يقول لهما : « أما أنا فقد أنصفتكما فيما ادعيتما ، فاذهبا ، واقطعا حسابها ، والا فانتمـا أعلم »(٤٩٤) .

وأغلب الظن أن الرجلين عادا الى السيدة الوالدة يطلبان منها السماح فيما فعلاه من شكواها الى ابنها الأمير ، وحصولهما على مالهما ، مع التعهد بمراجعة الحساب في الوقت الذي تشاؤه السيدة .

دعوة المتظلمين الى مجلس الأمير :

وفي اطار هذه الصورة من العدل والانصاف ، كان ابراهيم يجعـل ولده ورجاله يامرون عبيدهم ورجالهم بالطواف في يوم الخميس في الأزقة والفنادق يسألون ان كان هناك شاك أو متظلم ، من : عبد أو وكيل . « فاذا وجدوا أحدا أتوا به الى دار ولد الأمير أو قرابته فينصفه »(٤٩٥) .

مآسي الحريم ومسئولية الوالدة وغيرها من النساء :

وان من كانت هذه سيرته في العدل في الرعية ، وهي السيرة التي

---

(٤٩٤) انظر النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ أ .

(٤٩٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ أ — ١٢٣ ب .

ينوه بها ابن الأثير كثيرا ، كان من الغريب أن يقتل بناته الستة عشر جارية : اللائي ربتهن « السيدة » أمه حمية منه ، خشية ، عليهن حتى بلغن مبلغ الشباب(٤٩٦) ، ثم الوصيفتين المغنيتين الموسيقيتين اللتين قدمتهما له والدته - عندما دخل عليها في بعض الايام ، فأحضرت له الطعام فأكل وشرب وانبسط ليتأنس بهما(٤٩٧) -

فمثل قصص الحريم هذه ، مما شاركت فيه الوالدة ، قد لا نستطيع الحكم فيها لابراهيم بن أحمد أو عليه ، طالما خفيت علينا أسرار تلك القصور العجيبة ، التى كان يتردد عليها العجائز من النساء اللاتى يتظاهرن بالفضيلة والصلاح ، ولا يترددن في المشاركة في مغامرات نسائية ، يساهم فيها الوزير ، ويكون القصد منها غواية بعض الجميلات من نساء تجار القيروان ، مما كان يميط ابراهيم بنفسه اللثام عنه ، ويجزى المشاركين فيها بأقصى العقوبة ، مما لفت انتباه ابن الأثير(٤٩٨) •

مثل هذه القصة الحساسة التى كانت تحاك أطرافها في قصر الأمير ، الى جانب قصص فتيان واحداث كانت تدور في القصور ، ولحمة نسيجها

وسداته أمور انحرافات مما يدور في المجتمعات المحلة(٤٩٩) ، وخاصة عندما يتجمع الرجال وحدهم ، كما كان حال الفتيان والخدم ، وكما كان حال النساء وحدهن في مجتمع الجوارى والخادمات أو في أجنحة الحريم • فمثل هذه الأمور الحساسة هي التى يمكن أن تفسر ردود فعل غير انسانية ، مما كان يقوم به ابراهيم بن أحمد ، مثل : البناء على المذنبين حتى الموت جوعا وعطشا ، أو غلق أبواب البيوت الساخنة في الحمامات عليهم الى أن يموتوا خنقا(٥٠٠) • وغير ذلك مما قيل انه لم يفعله أحد قبله •

تقييم أخير : خطيئة عصر :

والحقيقة أن الخطيئة لم تكن خطيئة ابراهيم بن أحمد ، بل كانت خطيئة

---

(٤٩٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ ب - ١٢٤ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٢ - ١٣٣ •

(٤٩٧) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٤ ب •

(٤٩٨) انظر فيما سبق ، ص ١٥٠ هـ ٤٨٨ •

(٤٩٩) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٤ أ •

(٥٠٠) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٤ أ •

عصر أو مجتمع بأسره • ونخص منه مجتمع القصور ، سواء في القصر القديم الذي بناه ابراهيم الأول ، أو في قصور رقادة التي بناها ابراهيمنا الثاني •
فهذا المجتمع الذي كان غارقا في اللهو والشراب وحياة الحـــريم ، لم يكن وحده • فقد كان شديد الصلة بمجتمع القيروان المجاور حيث مسجد عقبة الجامع ، وحيث العلماء والفقهاء والعباد والزهاد والنساك ، ممن كانوا قدوة في حسن السيرة ، وجميل الأخلاق • وكان لمجتمع أهل الدين والنسك هذا أثره على مجتمع القصور اللاهي : حيث كان يوجـــه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر •

تمزق بين الخير والشر :

هكذا كان الأمير ممزقا بين الحياة المترفة ، ان لم نقل الفاسدة ، التي كان يحياها ، وبين ما كان يستمع اليه - من الدعاء الى التقوى وعمل الخير • وكان تمزق الأمير هذا يظهر واضحا ، عندما يجد نفسه مضطرا الى المعاقبة على مفاسد من نوع التي كان يسمح لنفسه بارتكابها ، فكانت تأتي الشطحات المستغربة في القسوة غير المعتادة • ولا بأس في ذلك ، فاخلاقيـــات ذلك العصر - بل وربما كل العصور - كانت تسمح للأمير بما لا يسمح هو به لغيره من الناس ، ولو كان - في بعض الأحيان - أقرب الناس اليه ، وتلك هي الأنانية أو هي الأنا أولا ، وربما ، وأخيرا أيضا •

وهكذا يكفي ابراهيم بن أحمد أن شهد له الكتاب خلال سنوات حكمه السبعة الأولى - وهي تساوي عهدا من عهود الكثيرين من أســـلافه • وإذا كانوا قد رموه بالجور والظلم بعد ذلك ، فوزره تراكم النوازل مع مرور سنوات حكمه الطويل • ثم ان كفة الميزان رجحت الى جانبه في آخر الأمر : عندما تاب وأناب وقام بخير الأعمال ، ثم تزهد ولبس الخشن من الثياب ، ووهب نفسه بعد ذلك للجهاد ، في مطلع سنة ٢٨٩ هـ/٩٠٢ م •

وكان ابراهيم قد سلم زمام الأمور في رقادة الى ابنه أبي العباس بمجرد وصوله من صقلية ، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة ٢٨٨ هـ/مارس ٩٠١ م ، وأخذ هو يعد نفسه للمسير الى صقلية • وهكذا بدأ أبو العباس عهده كنائب للملك ، أو وصي على العرش •

ابو العباس عبد الله بن ابراهيم بن احمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم ابن الأغلب: ٢٨٩ — ٢٩٠ هـ/٩٠١ — ٩٠٣ م :

نائب الملك : الفارس العالم :

يمكن اعتبار عهد أبى العباس الذى لم يطل الا الى حوالى سنة ونصف السنة ، استمرارا لعهد والده ابراهيم · فقد كان أبو العباس عبد الله أحب أبناء ابراهيم الى نفسه ، وكان أبوه يهيئه للملك من بعده · فقد رأينا أبا العباس يقود الحملات العسكرية فى مختلف الاقاليم ، قبل أن يعهد اليه والده بالقيادة فى صقلية ·

وفى أخلاق أبى العباس الذى كان أحد الفرسان ، شجاعا بطلا عالما بالحرب ، حسن النظر فى الجدل ، وأستاذه فى ذلك عبد الله بن الأشج(٥٠١) ، تقول رواية الرقيق : انه كان على خوف شديد من أبيه لسوء أخلاقه ، فكان يظهر له من الطاعة والتذلل أمرا عظيما ، فكان ابراهيم يكرمه ، ويفضله على سائر أولاده(٥٠٢) ·

اعادة النظر فى أعمال الوالد الناسك :

وفى خلال الفترة التى كان أبو العباس نائبا للملك فيها ، وبعد خروج والده الى صقلية فى اوائل سنة ٢٨٩ هـ/٩٠١ م ، طالب باعادة الأموال التى كان أخرجها أبوه الى الفقهاء ووجوه الناس ليفرقوها فى المساكين ، والتى كانت قد استؤكلت فى معظمها ، وأعطيت لمن لا يستحقها ، وانفقت فى اللذات ، وصرفت فى الشهوات(٥٠٣) وكان يقول لمشايخ افريقية : « اغتنمتم الفرصة فى المال لمرض الأمير أبى ، ومغيبى عنه » ، فرجع معظم المال معلا(٥٠٤) ·

---

(٥٠١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب ، وانظر ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ ج ٧ ص ٥٢٠ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٤ ·

(٥٠٢) أنظر النويرى ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب ، ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٤ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ص ٣٦ — حيث النص على أن ابراهيم ولاه عهده وصير اليه خاتمه ووزراءه ، وكتب له بذلك كتابا مشهورا ·

(٥٠٣) أنظر فيما سبق ، ص ١٤٨ وهـ ٤٨٢ ·

(٥٠٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٣ ·

وهكذا عادت السنة فسميت بسنة الجور ، بعد أن كانت سميت بسنة العدل ، عندما رفع ابراهيم خراج الضياع عن أصحابها(٥٠٥) . وقام أبو العباس بتغييرات في ولايات الأقاليم ، فعزل من أحب وولى على الفور من أحب(٥٠٦) . فنقد عهد أبو العباس بولاية قضاء القيروان الى محمد ابن الأسود الصديني ، وجعل اليه الأحكام والنظر في العمال وجباة الأموال ، فكان الصديني يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وعن قضائه يقال انه كان قويا فيه ، شديدا على رجال السلطان ، رفيقا بالضعفاء والمظلومين . ولما لم يكن الرجل واسع العلم ، فانه كان يشاور العلماء ، فلم يقطع حكما الا برأي ابن عبدون القاضي ، ولكن الصديني لما كان ممن يظهرون القول بخلق القرآن ، فانه كان مكروها من العامة(٥٠٧) .

وفي خلال السنة هذه بدأت قوات أبي عبد الله الشيعي تظهر في بلاد الزاب وما حواليها ، حتى انه نجح في أخذ مدينة ميلة ، مما جعل أبا العباس يسير اليه أخاه أبا عبد الله المشهور بالأحول وبأبي حوال(٥٠٨) ، الذي استعاد ميلة ، وأنزل هزيمة مريرة بالداعي ، كادت تتحول الى كارثة . هذا ، ولو أن الأحول سوف ينهزم في السنة التالية ، ٢٩٠ هـ/٩٠٣ م ، أمام قوات أبي عبد الله الداعي ، وهو ما سنعالجه بشيء من التفصيل في الفصل الخاص بالدعوة الفاطمية(٥٠٩) .

أبو العباس أميرا :

ومع دخول سنة ٢٩٠ هـ/٩٠٢ م ، وقبل أن يصل الى أبي العباس خبر وفاة والده في صقلية ، وكانت في ١٦ من ذى القعدة من العام السابق ٢٨٩ هـ/٢٢ أكتوبر ٩٠٢ م ولا بأس أن يكون قد وصله خبر مرضه الشديد

---

(٥٠٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٣ — ويضيف ابن عذارى أنها سميت أيضا بسنة النجوم نظرا لتساقط النجوم في شهر ذى القعدة وقارن افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ، ص ٩٢ . (عن سنة النجوم) .

(٥٠٦) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٢ .

(٥٠٧) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ أ — ١٢٥ ب .

(٥٠٨) لانه كان يكسر هيتيه اذا أطال النظر ، كما تنص رواية ابن الأثير (سنة ٢٩٦ هـ) ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٥ . والرواية تنص على أن الذى حرض أبا العباس على ارسال أبي حوال لقتال الشيعي هو فتح بن يحيى أمير مسالته من كتامة الذى كان قد لجأ الى الأمير الأغلبي بعد قتال مرير مع الداعي . وانظر فيما بعد ، ص ٥٦٠ .

(٥٠٩) انظر فيما بعد ، ص ٥٥٩ — ٥٦١ ، ص ٥٦٣ وما بعدها .

ـ كتب الى العمال ليأخذوا له البيعة ، على أن أباه فوض اليه الأمر ، وتخلى له عن الملك ، واشتغل بالعبادة(٥١٠) • وكتب الى العمال كتابا يقرأ على العامة ، يعدهم فيه الاحسان ، والعدل ، والرفق ، والجهاد(٥١١) •

أبو العباس يتنسك بدوره :

وعندما وصل أبا العباس نبأ وفاة والده من صقلية ، تغيرت احواله • وفى ذلك تقول الروايات : انه أظهر التقشف ، ولبس الصوف ، وأظهر العدل والاحسان والانصاف والجلوس على الأرض ، وجالس أهل العلم وشاورهم • ولم يسكن أبو العباس قصر أبيه فى تونس ، ولكنه اشترى دارا مبنية بالطوب فسكنها ، وكان لا يركب الا الى الجامع(٥١٢) •

والظاهر أن الشاب الذى كان يخشى أباه خشية عظيمة ، والذى كان يظهر له من الطاعة والتذلل أمرا عظيما ، أصيب بصدمة نفسية ، كما يقال ، عندما عرف نبأ وفاة والده ومثله الاعلى ، مما يدل على أن خشيته لوالده وتذلله لم يكن عن خوف ورهبة ، كما قال الرقيق ، بل عن حب عميق ، وتقدير فى موقع القلب عظيم • وفى ذلك دارت همهمات القوم تقول . ان أهل النجوم أمروا أبا العباس بذلك ، أو أنه ألمت به وسوسة(٥١٣) •

وشاية بولى العهد : زيادة الله ، تنتهى بحبسه :

ونمى الى علم أبى العباس ، عن طريق بعض الوشاة ، أن ابنه زيادة الله الذى كان فى صحبة جده عندما توفى فى صقلية ، والذى آلت اليه قيادة

---

(٥١٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٣ ، وقارن افتتاح الدعوة (ص ٩٢) حيث وفاة ابراهيم فى ١٣ من ذى القعدة •

(٥١١) ابن الأثير فى سنة ٢٨٩ هـ ٢ ج ٧ ص ٥٢٠ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٥) •

(٥١٢) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ أ ، ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ • وانظر افتتاح الدعوة (ص ١٤١)حيث يقول القاضى النعمان ان أبا العباس : « عدل فيهم وتواضع لهم ، وجلس فى المسجد الجامع لظلاماتهم على حصير ، ونصب درة بين يديه » جدا كما ينسب النعمان الى أبى العباس انه أراد أن يسترضى العامة من المالكية ، فعزل قاضيه الحنفى محمد الصديني الذى كان يقول بخلق القرآن واستقضى بدلا منه حماس ابن مروان الهمدانى ، الذى كان مالكيا » والحقيقة ان ذلك تم على عهد زيادة الله ، كما يأتى (وانظر افتتاح الدعوة ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧) •

(٥١٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٤ •

العسكر هناك ، ينوى الخروج عليه ، واعتقد أبو العباس فى الوثنابة ، وأرسل الى ابنه يستحثه على القدوم عليه بتونس . فلما قدم عليه زيادة الله فى ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ٢٩٠ هـ/٢٠ مايه ٩٠٣ م قبض عليه ، وأخذ ما كان معه من المال والعتاد ، وحبسه فى بيت داخل دارة هو وبعض رجاله(٥١٤) .

مقتل أبى العباس بأيدى فتيانه :

وكان أبو العباس عندما فعل ما فعله من حبس ابنه زيادة الله كمن سعى الى حتفه بظلفه . فبعد شهرين وأيام من سجن زيادة الله ، وذلك فى يوم الأربعاء ٢٩ شعبان/٢٨ يولية ، دخل أبو العباس الى الحمام ، ثم انه خرج للراحة فى دار خالية . والظاهر أن الرجل الذى عرف بانه كان شجاعا بطلا ، عالما بالحرب(٥١٥) ، كان يعيش فى حالة شك وخوف ممن حوله ، ان لم تكن به وسوسة ، كما قال بعض الناس . وذلك أنه استلقى على سرير خزيران ، وقد وضع سيفه تحت رأسه ، ونام بعد أن أخرج كل من كان فى الدار باستثناء فتيين من فتيانه الصقالبة ، كان يثق فيهما . وبينما تقول رواية النويرى ان زيادة الله هو الذى أغرى عددا من خدم والده ليغتالوه(٥١٦)، فلا بأس من الأخذ برواية ابن عذارى التى تقول انه عندما نام أبو العباس ، تآمر الفتيان على قتله ، لتكون فرصة لهما يساعدان فيها زيادة الله على الملك ، ويفوزان بالحظوة عنده . وبعد أن نفذ الجريمة ، مضيا الى حيث كان زيادة الله محبوسا ، وأعلماه بمقتل والده . ولكى يتأكد من أن ليس فى الأمر مكيدة القيا اليه بالرأس ، ثم أتيا اليه بحداد كسر قيديه(٥١٧) .

وهكذا انتهى عهد أبى العباس عبد الله بن ابراهيم بن أحمد باغتياله

---

(٥١٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٤ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ أ ، وانظر ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ ، ج ٧ ص ٥٢١ ، الذى ينص على أن الله سبب حبسه لابنه زيادة الله ما بلغه عنه ، وهو فى صقلية ، من اعتكافه على اللهو وادمانه شرب الخمر (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٥).

(٥١٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب . وفى الشعر الذى قاله عن حروبه فى صقلية انظر فيما بعد (عن صقلية ، ص ٢٨٠) .

(٥١٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب ، ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ ، ج ٧ ص ٥٢١ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٥ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٥١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٤ ، النويرى المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ أ ، وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ٣٧ .

في قصره بمدينة تونس ، في آخـــر شعبان من سنة ٢٩٠ هـ/٢٨ يوليه ٩٠٣ م(٥١٨) ، بعد امارة لم تطل الى أكثر من سنة ونصف سنة ، منذ عهد اليه أبوه بالأمر ، وما لا يزيد على نصف سنة منذ استقل بالامارة بعد وفاة والده ، قضاها بتونس . وآلت الولاية الى ابنه زيادة الله الذى خــرج من السجن الى سرير الملك لكي يختم قائمة ملوك الأغالبة .

آخر الاغالبة : زيادة الله الثالث :

أبو مضر زيادة الله بن أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب : ٢٩٠ - ٢٩٦ هـ/٩٠٣ م :

ولاية ثمنها شراء القواد ، والغدر بالأعمام ، وقتل الاخوة والفتيان :

لم تتم ولاية زيادة الله الثالث بعد مقتل والده دون تدبير ، فقد كان هناك أعمامه ممن يمكن أن يثبوا عليه ، ويسبقوه الى الامارة . وهكذا لم يعس زيادة الله نبأ مقتل والده بل كتمه ، وأرسل الى بعض أصحابه ممن كانوا معه في حبس والده ، مثل : عبد الله بن الصائغ ، وأبي مسلم منصور بن اسماعيل ، ومن غيرهم : مثل عبد الله بن أبي طالب ، وسألهم المشورة .

وأشارت عليه الجماعة بأن يرسل الى أعمامه يدعوهم ، ووجوه الرجال والقواد ، على لسان أبيه الى القدوم عليه في دار الامارة . وتقول رواية ابن عذارى ، التي ينقلها عن عريب بن سعد ، أنه عندما وصل أعمامه ووجوه القوم ، دفع اليهم الصلات ، واخذ عليهم البيعة . ثم انه أمر أن ينــادى بتونس(٥١٩) بقدوم من كان بهــا من الجند على باب الأمير . فلمــا ركبوا بأسلحتهم أمر زيادة الله بادخالهم واحدا واحدا ، فكان الرجل منهم يبايع ، ويعطى خمسين مثقالا اذا كان من وجوه العسكر ، أما الرجال فانه أيقــاهم على بابه(٥٢٠) . ثم انه أمر في نفس ذلك اليوم بكتاب كتاب بيعته ، وبعث به فقرىء على منبر المسجد الجامع بتونس . وبذلك تمت له بيعة الخاصــة في آخر يوم من أيام شعبان/٢٩ يوليه ، ثم انه أخذت له البيعة على العامة

---

(٥١٨) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ١٤٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ص ٣٧ .

(٥١٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥ ، وقارن ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ص ٣٧ - ٣٨ .

(٥٢٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥ .

من أهل تونس في نفس اليوم ، وكتب الى العمال بالبلاد بأن يأخذوا له البيعة على من قبلهم(٥٢١) • وبذلك تمت بيعة الخاصة والعامة •

ولما قرب وقت العشاء أمر بالنداء في الجند أن يعودوا صباح اليوم التالي لأخذ عطياتهم • وبينما سمح لمن بايعه من أهل تونس ، وأعيان أجنادها بالانصراف ، فانه مطل عمومته في الانصراف عنه الى أن حل الليل• وعندئذ نفذ ما كان أشار به عليه أصحابه ، فقبض عليهم وكبلهم وأدخلهم في مركب من نوع الشيني ، ووكل بهم بعض ثقاته ليمضوا بهم الى جزيرة الكراث ، على بعد ١٢ (اثني عشر) ميلا من مدينة تونس • وهناك ضربت رقابهم في الليلة الثالثة من شهر رمضان المعظم •

أما عن الجند الذين كانوا يترددون على بابه كل يوم فانه مطلهم ، حتى : « بردت قلوبهم وملوا الاختلاف الى داره »(٥٢٢) •

واستمرت سلسلة القتل والذبح التي بدأ بها زيادة الله الثالث ملكه ، فأمر بقتل الفتيين الصقلبيين اللذين قتلا والده ، وأنزل بهما عقوبة المفسدين في الأرض ، فأمر بقطع أيديهما وأرجلهما ، ثم صلبهما على كل من باب القيروان وباب الجزيرة ، من أبواب تونس(٥٢٣) •

هذا وتنص الرواية على أنه لم يستثن من مذبحة أعمامه أبا الأغلب : عمه الزاهد الساكن بسوسة ، فقتله هو الآخر • ومما يثير عجب الكتاب ما فعله زيادة الله بأخيه أبي عبد الله الأحول (أبي حوال) ، الذي كان يقاتل أبا عبد الله الشيعي في الزاب ، فقد أرسل اليه فتاه « فتوح » الرومي في ٥٠ (خمسين) فارسا يطلب منه القدوم عليه ولا يتخلف • فلما أقبل

---

(٥٢١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥ •

(٥٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥ ، وقارن النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٢٥ ب — الذي يقول انه أرسل من اخوته وبني عمه ٢٩ (تسعة وعشرين) رجلا الى جزيرة في البحر يقال لها جزيرة الكراث فقتلوا في شهر رمضان من هذه السنة ، وأنظر ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ٢١ : حيث يقول على الجملة انه قتل من قدر عليه من أعمامه واخوته وقارن القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ١٤٦ -

(٥٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥ — ١٣٦ ، وقارن النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب ، افتتاح الدعوة ص ١٤٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٣٨ •

الأحول عن طريق بلزمة - الى زيادة الله أمر به فقتل ساعة وصوله(٥٢٤) . فكان ذلك أعظم فتح عند الشيعي ، كما تقول رواية النويري(٥٢٥) . هذا ، كما قتل ابن القياد ، اذ اتهمه بأنه هو الذى أشار على أبيه بتأديبه وحبسه(٥٢٦) .

نتائج فاشلة لمقدمات تعسة :

وهكذا ، اذا كانت النتائج عادة ما تكون منسجمة مع المقدمات ، فالمفروض أن تكون نهاية عهد يبدأ باراقة الدماء بهذا الشكل غير الواعى ، هو الغرق فى الدماء أيضا ، وان كان ذلك على يدى الداعى : ممثل الفاطميين الذى أصبح زعيم قبائل كتامة .

والمهم أن أهم ما يبرز من الأحداث التى تسجلها حوليات افريقية على عهد زيادة الله الثالث الذى لم يطل الا الى أقل من ست سنوات ، هو انتصارات الشيعى المتوالية على قوات الأغالبة ، وما يقع خلالها من عزل قاض أو تولية عامل أو وفاة فقيه . وذلك الى جانب المحاولات اليائسة فى سبيل وقف المد الفاطمى ، من : الاتصال بالخلافة ، أو تحريض الفقهاء او عامة الشعب على الفاطميين الشيعة ، ثم نقل مركز الدولة الى مكانه الطبيعى فى القيروان ورقادة .

وينتهى الأمر بيأس الأمير الذى لم ينفعه انغماسه فى اللهو والشراب ، ولم يجد له ملجأ الا الهرب الى مصر ، تاركا بلاده وقصوره الى الشيعى مودعا بغضب الشعب وسخطه على الأسرة التى لم تستطع أن تصون النعمة أو أن تدافع عن حماها .

احكام نظام الدولة وترتيب الدواوين :

والمهم أن زيادة الله الأخير بدأ تنظيم دولته ، التى كلفته حياة وال والعشرات من اخوته وبنى عمومته وأهل بيته ، بأن عهد لـ ... ا الأولين ، وهما : عبد الله بن الصائغ ، وأبو مسلم منصور بن اسماعيل

---

(٥٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ ، افتتاح الدعوة ، ص ٤٦ ا . ابن خلدون ، ج ص ٢٠٦ .

(٥٢٥) النويرى ، ج ٢٢ ص ١٣٦ أ . وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ١١

(٥٢٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ .

بأهم دواوين الدولة . فكان من نصيب ابن الصائغ الوزارة والبريد ، ومن نصيب أبي مسلم ديوان الخراج(٥٢٧) . والظاهر انه ولى الخراج بدلا من العامل السابق ، هذيل النفطى ، الذى قتل فى السنة التالية (٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م) ربما بعد محاسبته على ما كان بين يديه من الأموال(٥٢٨) .

ولكى يكتسب زيادة الله تأييد الشعب ، ويرضى فقهاء المالكية عزل قاضى القيروان الحنفى الذى كان ، رغم علمه وفضله ، مكروها من الناس بسبب قوله بخلق القرآن ، وولى قضاء العاصمة الى حماس بن مروان بن سماك الهمذانى ، الذى عرف بالورع وبعلمه بمذهب مالك وأصحابه . وكانت فرصة استغلها زيادة الله فكتب كتابا الى القيروان قرىء على الناس . وفيه : انى عزلت عنكم الجافى الجلف المبتدع المتعسف ، ووليت القضاء حماس بن مروان : لرأفته ، ورحمته ، وطهارته ، وعلمه بالكتاب والسنة(٥٢٩) . وحقق حماس ما كان يامله الناس فيه ، فعدل فى أحكامه ، ولم يكن يهاب أحدا فى ولايته ونظره(٥٣٠) .

ولكى يؤكد زيادة الله سلطانه قام فى السنة الثانية من حكمه (٢٩١ هـ/٩٠٤ م) بتعيين ابنه محمد وليا لعهده ، وكانت مناسبة لأخذ البيعة له من جديد مع البيعة لولى العهد(٥٣١) .

أما عن وظيفة عامل القيروان ، فبعد أن عين فيها : على بن أبى الفوارس فى نفس سنة ٢٩١ هـ/٩٠٤ م ، عاد وعزله بأحمد بن مسرور المشهور بالخال(٥٣٢) .

الصراع ضد أبى عبد الله الشيعى : محاولات جادة بدون طائل :

وفيما يتعلق بالحرب ضد أبى عبد الله الشيعى ، فقد عهد زيادة الله

---

(٥٢٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب .

(٥٢٨) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ .

(٥٢٩) النويرى : المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ ، بوكارق : افتتاح الدعوة ، ص ١٤٦ – ١٤٧ – حيث ينسب ذلك الى أبى العباس والى زيادة الله [illegible] .

(٥٣٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ .

(٥٣١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ .

(٥٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ – ١٣٧ .

بقيادتها ـ بعد قتل أخيه الأحول (أو أبي حوال) ـ الى قريبه ابراهيم بن أبي الأغلب ، كما كرس لها المزيد من عنايته ، ولكن دون جدوى • وذلك أن أبا عبد الله ، الذي كان قد انتهى من ادخال معظم قبائل كتامة في الدعوة ، وجعلهم في شكل جيوش نظامية حسنة التدريب ، ملتزمة بالطاعة ، أخذ يتطلع الى المدن الأغلبية غير البعيدة من بلاد كتامة ، وهو الأمر الذي فصله القاضي النعمان في رسالة افتتاح الدعوة ، بطريقة فذه •

فقد أثبت المؤلف الفقيه ، في تلك الرسالة ، أنه مؤرخ من النوع الموهوب ، المطلع على بواطن الأمور • وهذا ما يفسر كيف أن الرسالة المنقبية ، أصلا ، أصبحت المصدر الرئيسي الذي أخذ عنه كبار المؤرخين ، من المشارقة والمغاربة ، مثل : ابن الأثير ، الذي يكاد يكتفي بتلخيصها ، وابن عذارى الذي يعتمد عليها الى حد كبير ، وان كان يضيف اليها اضافات هامة من مصادر لم تصل الى أيدينا بعد ، مما يأخذ بوجهة النظر المقابلة لرأي النعمان •

وبناء على ذلك فقد استخدمنا « افتتاح الدعوة » في الفصول التي خصصناها ، فيما بعد ، لقيام أبي عبد الله بالدعوة في بلاد كتامة والصراع مع الأغالبة • والذي يؤخذ على رواية القاضي النعمان أنها قد التزمت بحدود الدعوة الفاطمية ، لا تخرج عنها الى ما يحيط بها من أحوال الأغالبة ، والأوضاع الداخلية في افريقية الا الى حد محدود • ولذلك فقد اقتضى المنهج أن نعرض للموضوع خلال سياق عرضنا لأحوال الأغالبة هنا ، كما يعرضها ابن عذارى ، مكتفين بالاشارة الى « افتتاح الدعوة » • واذا كان عيب هذا المنهج أن الحقيقة التاريخية تظهر فيه وكأنها ذات وجهين ، وهذا ما لا نماري فيه ـ والحقائق نسبية على كل حال ـ فان من محاسنه ظهور الأحداث منسجمة مع مقدماتها ، في كل من وجهي الواقع التاريخي • ويتبقى على المؤرخ استخلاص النتائج النهائية عند المقارنة بين كل من الوجهين •

والمهم أنه في السنة الثانية من ملك زيادة الله (٢٩١ هـ/٩٠٤ م) نجح الداعي أبو عبد الله في الاستيلاء على كل من مدينتي ميلة وسطيف ، مما أثار الذعر في نفس الأمير الأغلبي(٥٣٣) •

---

(٥٣٣) انظر فيما بعد ، في قيام الدعوة الفاطمية ، ص ٥٥٩ ، ٥٦٢ •

التطلع نحو الخلافة شرقا ، والحسنيين في الغرب :

والظاهر أن زيادة الله أخذ يطلع الخلافة في بغداد على مجريات الأمور في افريقية عسى أن يخرج تلك الحرب من نطاقها المحلي ، بتدخل الخلافة التي يمكن أن تهيىء لها مساندات من خارج افريقية • فهذا ما يمكن فهمه مما دعله زيادة الله عندما سير ، في نفس السنة ، الحسن بن حاتم رسولا من قبله الى الخليفة المقتدر ، بهدايا وطرف(٥٣٤) ، الا اذا كان يهدف من اتصاله بالخلافة أمرا ثانيا ، كزيادة توكيد ملكه باقرار الخلافة له ولو بطريقة معنوية ، وهو الأمر الوارد أيضا ، ولكن في ثنايا الموضوع الأكبر ، المتمثل في الخطر الكتامي •

والى جانب ذلك حاول زيادة الله أن يوثق صلاته بالحسنيين ، أقارب الأدارسة في المغرب الأوسط ، حتى يساعدوه في مقاومة كتامة ، فاقر الحسن بن أبي العيش على رئاسة قبائل جراوة ، وذلك بعد وفاة والده أبي العيش(٥٣٥) • ولم تعرف قبل ذلك أن الحسنيين كانوا يدينون بالطاعة للأغالبة •

تعبئة الرأي العام في افريقية ضد الشيعي :

ويؤيد فكرة أن مسألة الشيعي وخطر كتامة أصبحا الشغل الشاغل لزيادة الله ، ما قام به الأمير من دعوة فقهاء افريقية الى حيث كان يقيم في تونس • ووصل عدد كبير من فقهاء افريقية الى تونس ، واجتمعوا في بيت الوزير عبد الله بن الصائغ ، ولكن بصفته صاحب الشرطة أو رئيس الاستخبارات ، كما نقول الآن • وأثناء تباحثهم في أمر الشيعي أخبرهم ابن الصائغ ، على لسان الأمير : ان « هذا الصنعاني (نسبة الى صنعاء) الخارج علينا مع كتامة ، يلعن أبا بكر وعمر - رضهما - ويزعم ان أصحاب النبي - صلعم - ارتدوا بعده ، ويسمي أصحابه : « المؤمنين » ، ومن يخالفه في مذهبه : « الكافرين » ، ويبيح دم من خالفه في رأيه »(٥٣٦) •

وكان من الطبيعي أن يكون رد الفقهاء على مثل هذا الخبر : اظهار

---

(٥٣٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٧ •
(٥٣٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٧ •
(٥٣٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٧ •

اللعنة على الشيعي والبراءة منه ، وتحريض الناس على قتـــاله ، والفتوى بمجاهدته(٥٣٧) ، فكأنه من الكافرين ، في نظرهم ، هو الآخر •

هدية الى الخليفة :

والظاهر أن زيادة الله كان يأمل خيرا في خلافة بغداد ، بدون أن يقدر ما كانت تسير اليه من الضعف والوهن في ذلك الوقت • فالمكتفي ولي في سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م والقرامطة ، اخوة الفاطميين ، يثيرون الاضطراب في الشام ، بل وفي العراق أيضا • والمقتدر الذي ولي في سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٨ م انتهى به الأمر أولا الى الخلع سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م ، قبل أن يقتل على يدي رئيس الحرس التركي ، وان كان فيما بعد سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م : فبعد اجتماع الفقهاء ، أرسل زيادة الله هدية عظيمة الى الخليفة المكتفي ، فيها ٢٠٠ (مائتا) خادم ، وخيل ، وبز كثير وطيب ، ومن اللبوذ المغربية (قمـــاش صوف غليظ) ١٢٠٠ (ألف ومائتان) • وكان بضمن الهدية عشرة آلاف درهم ، في كـــل درهم عشرة دراهم(٥٣٨) ، وعشرة آلاف دينـــار سكت خصيصا للخليفة ، اذ كان وزن الدينار منها عشرة مثاقيـــل ، أي عشرة دنانير •

والذي قد يهمنا أكثر من ذلك هو أنه كتب في كل مثقال من تلك المثاقيل بيتين من الشعر ، يقولان :

ياسائرا نحو الخليفة قل له	ان قد كفـــاك الله أمرك كله
بزيادة الله بن عبد الله سيف	الله من دون الخليفة سله(٥٣٩)

فكأنه يريد أن يقول للخليفة انه يقـــاتل الشيعي باسمه ، وتحت راياته السوداء • ونحن نظن أنه ، وهو يقول انه يكفي الخليفة العباسي حربا هذه في الجبهة الافريقية ، انما كان يبغي تأييد الخليفة المعنوي ، على الأقل ، ان لم يكن المادي — وهو التأييد الذي لا يكون الا من مصر القريبة • وهذا ما لم تفكر فيه الخلافة — نظريا فقط — الا بعد هرب زيادة الله الى مصر ، بل وبعد خروجه من مصر ، وهو في طريقه الى بغداد(٥٤٠) •

---

(٥٣٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٧ •

(٥٣٨) انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٨ ، والرواية منسوبة الى الصولي في « كتا الوزراء » •

(٥٣٩) الحلة السيراء ج ١ ص ١٧١ ، بن عذارى ، ج ١ ص ١٣٧ •

(٥٤٠) انظر فيما بعد ، ص ١٨٤ •

نقل العاصمة الى رقادة : وعبث وقت الجد :

اما اهم ما قام به زيادة الله ، من الناحية العملية ، فى مواجهة الخطر الكتامى ، فهو اعادته لمركز الدولة من تونس المتطرفة الى القيروان ورقادة ، ليكون قريبا من مركز الأحداث ، أى جبهة القتال فى الزاب ، وان كانت رواية الرقيق التى ينقلها النويرى تظهر أكثر تشاؤما : اذ تفسر النقلة من تونس الى رقادة بالخوف من أن يسير اليها الشيعى ويأخذها فى غفلة من الأمير(٥٤١) .

ففى مطلع سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٤ م وصل وزير المال ، صاحب الخراج ، ابو مسلم منصور بن اسماعيل بن يونس الى رقادة لاصلاح القصور الملكية بها ، ورفع ما كان قد وهى من المدينة(٥٤٢) ، كما جدد سورها(٥٤٣) .

والظاهر أن الأمر لم يقف عند الأعمال العمرانية الضرورية للسكنى او للدفاع عن المدينة ، اذ أنشأ أبو مسلم مركبا على الماجل الكبير المعروف بالبحر ، وسماه بـ « الزلاج »(٥٤٤) . وفى شهر ربيع الآخر من السنة/ فبراير ٩٠٥ م ، قدم زيادة الله من تونس الى رقادة ، ونزل فى قصره المواجه للصهريج الكبير(٥٤٥) ، الذى كان يعرف بقصر « العروس » ، كما عرف بقصر البحر ، والذى نسب انشاؤه اليه ، وربما بهذه المناسبة(٥٤٦) – حتى يتمتع بالاقامة فوق ماء الماجل فى ذلك الزلاج .

وهكذا لم تمنع جدية الموقف الحرج من انصراف الأمير الى التمتع بمباهج الحياة . ولو أن ذلك لم يمنع الأمير من رقابة عماله ، وكان أول فرائس مجيئه الى منطقة العاصمة ، هو : والى القيروان أحمد بن مسرور المشهور بالخال ، الذى وان لم يعزل من منصبه ، فانه أدب فضرب ، وطوف به بمدينة القيروان مخشبا على بغل باكاف(٥٤٧) .

---

(٥٤١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٩ ب .

(٥٤٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٧ .

(٥٤٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب – حيث لما نزلها زيادة الله عمر سورها .

(٥٤٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٨ – حيث تذكر الرواية القيروان بدلا من رقادة .

(٥٤٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٨ .

(٥٤٦) انظر فيما سبق ، ص ١١٧ .

(٥٤٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٨ .

الاعداد الجدي لحرب الداعي :

وهكذا كان زيادة الله يجتهد فعلا في مواجهة الخطر الذي يتهدد دولته ، وكانت عودته الى القيروان علامة جيدة على صحة عزمه • فبدأ بحشد أبطال الرجال من أحرار العرب والموالي من الجند ، كما أخذ في جمع السلاح وآلات الحرب • ولا شك في أن أخبار اعدادات زيادة الله هذه ، وحشد جيش يبلغ ٤٠ (أربعين) ألف رجل(٥٤٨) ، كانت تصل أولا بأول الى أبي عبد الله الشيعي الذي ارتاع ، كما تقول رواية ابن عذاري ، وأخذ في حشد كتامة(٥٤٩) •

موقعة خاسرة قرب قسنطينة :

ولقد التقى الجيش الكبير الذي أعده زيادة الله تحت قيادة ابراهيم ابن حبشي ، في سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، بحشود كتامة التي قادها الداعي ، غير بعيد من مدينة قسنطينة(٥٥٠) • وانتهت الملحمة العظيمة ، التي تطاعن فيها القوم بالرماح حتى تحطمت ، وبالسيوف حتى تكسرت ، بانهزام ابراهيم وجنده الأغلبي • وتقول الرواية ان ابراهيم ورجاله لم ينجوا الا بفضل ما تركوه من المغانم التي انشغلت بها كتامة ، من : الأموال والسلاح والسروج والخيل حتى اغتنى أصحاب الشيعي من أول مغانمهم هذه : فلبسوا أثواب الحرير ، وتقلدوا السيوف المحلاة(٥٥١) •

وكان للامام الفاطمي عبيد الله المهدي ، الذي كان مستخفيا في سجلماسة ، قرب وادي درعة من صحراء المغرب الأقصى الجنوبية ، حيث بني مدرار من الخوارج الصفرية ، نصيبه من تلك المغانم ، من : الحرير

---

(٥٤٨) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ١٥ •

(٥٤٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٨ — حيث يشير أيضا الى بساطة أوضاع الداعي الشيعي الذي لم يكن له ديوان للجند النظامي ، بل كان : « يكتب الى رؤساء القبائل ، فيحشدون من يليهم طاعة له ورغبة فيه » • وكان الداعي يكتفي بأن يكتب لهم : « الوعد يوم كذا في موضع كذا » ، بينما يصرخ صارخ بين يديه ، « حرام على من تخلف » • وبهذه الكيفية لم يكن يتخلف عنه أحد من كتامة حتى اجتمع له منهم ما لا يحصى كثرة • وعن تنظيم أبي عبد الله لأمور الدعوة انظر فيما بعد ، في الدعوة الفاطمية ، ص ٥٥٣ وما بعدها •

(٥٥٠) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٥٧ ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ١٥ • وفي الدعوة الفاطمية ، فيما بعد ، ص ٥٦٤ وهـ ٨٢٢ ، حيث تختلف الروايات في اسم المكان في ما بين : كبولة ، وكينونة ، وكيونة •

(٥٥١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٨ •

والدنانير التى لا يوجد لها مثيل فى ذلك البلد(٥٥٢) .

نتائج الهزيمة : معنويات متدنية في الجيش الأغلبي :

أما عن نتائج المعـــركة - التي وقعت في تلك السنة (٢٩٢ هـ/ ٤ - ٩٠٥ م) التي ولد فيها واحد من أشهر مؤرخى المغرب ، هـــو محمد ابن يوسف الوراق القيرواني(٥٥٣) - فتتلخصت فى ازدياد قوة الشيعى من ناحية ، ووقوع الوهن على أهل افريقية ، ودخول الجـــزع في قلوبهم ، من ناحية أخرى(٥٥٤) . والحقيقة انه منذ تلك الوقعة أصبح الصراع بين الأغالبة وبين الشيعى ومن معه من كتامة ، عبارة عن سلسلة من الهزائم المتـــوالية للجند الأغلبى ، لا يعرف زيادة الله لها من علاج . وفى هذا المجال لم تعد مجدى حتى كتب الخلافة الواردة من بغداد ، والتى كان يحث فيها الخليفة أهل افريقية على نصرة زيادة الله ومحاربة الشيعى ، والتى كانت تقرأ فى المساجد على الناس ، كما حدث بالنسبة لكتاب الخليفة المكتفى بالله الذى ورد الى القيروان فى السنة التالية ، وهى سنة ٢٩٣ هـ/٥ - ٩٠٦ م(٥٥٥) .

تخبط زيادة الله في اختيار الرجال :

ويتضح من تفصيلات الأحداث أن الامور اضطربت على زيادة الله الأخير حتى ضاقت به السبل ، ولم يجد من يلجأ اليه من الرجال ، فى سبيل انقاذ ما يمكن انقاذه ، الا أولئك الذين كان قد أساء اليهم بالأمس القريب ، ممن كان الحقد يملأ قلوبهم عليه .

فبعد هزيمة جند ابراهيم بن حبشى ، التى خسر فيها الجيش كل عتادة وأمتعته جهز زيادة الله فى سنة ٩٠٦/٢٩٣ م التالية ، جيشا سيره الى الأربس - القريبة - لمحاربة الشيعى ، وكان ثقاتة على رأس ذلك الجيش ، هـــذا :

---

(٥٥٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ١٥٨ - حيث توجد تفصيلات وافية عن المعركة . لخصناها فى الدعوة الفاطمية ، فيما بعد ، ص ٥٦٥ - ٥٦٦ .

(٥٥٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٩ .

(٥٥٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٩ .

(٥٥٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٠ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ١٧٤ ، ١٧٨ ، وانظر الدعوة الفاطمية فيما بعد .

مدلج بن زكريا ، وأحمد بن مسرور الخال ، وأحمد بن مسرور ، الذي كان يشغل منصب والي القيروان ، رأيناه مربوطا الى خشبة ، في السنة السابقة ، وهو يطوف به في سماط القيروان بعد أن ضرب بأمر زيادة الله . أما زميله مدلج فكان زيادة الله قد نازعه في منيـــة كانت له تعرف بـ « الجليدية » ، وانتهى النزاع بأن حكم القاضي حماس بن مروان ضد مدلج ، مما جعله يحقد على الأمير .

وهكذا خرج الرجلان بأمر زيادة الله من أجل « جهاد الشيعي » ، يوم الاثنين ٢٠ جمادى الثانية/٨ ابريل ، وهما يضمران الخلاف . فقد رجعـــا بالعسكر الى القيروان بعـــد ثلاثة أيام ، يوم الخميس ٢٣ من نفس الشهر/ ١١ ابريل(٥٥٦) ، وهي المدة التي لا تسمح الا بالذهاب الى الأربس والعوده منها فقط : واذا كان القائدان ومن معهما من الجند قد رضوا لانفسهم بالجبن والخنوع ، فان ذلك ما لم يرض به غـــوغاء القيروان الـــذين خرجوا اليهم يدافعونهم ، ويدفعونهم دفعا الى القيام بواجبهم ، حتى انتهى الأمر بأن كبا بمدلج فرسه ، فقتل من ساعته ، كما قتل معه واحد من وجوه عسكره ، هو : ابن بربر ، وصلب الاثنان في التو واللحظة على باب رقادة من أبواب القيروان(٥٥٧) .

الأربس — على أبواب القيروان — ثغرا ، ومقرا مؤقتا للأمير وحاشيته :

وبذلك أصبحت مدينـــة الأربس — على مســـيرة يوم أو يومين من القيروان — وكأنها ثغر افريقية في مواجهة الشيعي ، بينما القتال ما زال يعد ، بعيدا في الزاب ، حيث باغاية وطبنة ، وان كانتا على وشك السقوط . واضطر زيادة الله الى الخروج الى الأربس ، التي صارت مركز القيادة ، حيث اجتمع الكثير من العسكر ، طمعا في العطاء وليس رغبة في القتال . وفي ذلك تقول الرواية ان الأمير كان يعطي هناك الأموال جزافا بالصحاف فكان يعطي للرجل ملء الصفحة دنانير في كسائه ، ثم يحمل على فرس ، ولكنه كان يخرج فلا يرى بعدها أبدا(٥٥٨) .

---

(٥٥٦) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣٩ .
(٥٥٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٩ — ١٤٠ .
(٥٥٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٠ .

ما بين الجد والهزل في مركز القيادة :

وفي الأربس خلط زيادة الله الجد بالهزل مرتين معا . فبـــدلا من أن تكون مجالسه ، في القاعدة العسكرية ، متناسبة مع واقع الحال ، سمح لنفسه بعقد مجالس المناظرة . وقد لا يكون في الأمر غرابة ، لأول وهلة ، فالرواية تقول : انه عندما قدم عليه أبو يعقوب اسحق بن سليمان الأسرائيلي المتطبب من المشرق ، بصحبة أبي الحسن بن حاتم ، رسوله الى الخلافة في سنة ٢٩١ هـ/٩٠٤ م ، عقد مجلسا للمنـــاظرة في علوم الأوائل . وكان موضوع المنـــاظرة ، الذى كان على العـــالم القيرواني ابن حنيش المعروف باليوناني ، مناقشته مع المتطبيب الاسرائيلي الوافد من العراق ، هو : موضوع العلاقة بين المدوحة والحلاوة ، من وجهة النظر الفلسفية المحضة . ولكنـــه عندما بدأت المناقشة العلمية العميقة تحتد ، اتضح أن أميرنا اللاهي لا يحسن الاستماع الى مثل هذا الجدل الراقي . فقد تملكه الضحك الشديد أثنـــاء الجدل ، مما يحمل على الظن أنه لم يكن يعقد مثل هذا المجلس الا من أجـــل الراحة . وهذا ما شهد به اسحق المتطبب ، اذ قال عن مجلس زيادة الله هذا : أنه قليل الوقار ، كثير اللهو(٥٥٩) .

والمهم أن زيادة الله نجح في توجيه العساكر الى باغاية ، أما طبنـــة عاصمة الزاب فشحنها بالرجال والعتاد ، وقدم عليها حاجبه : أبا المقارع الحسن بن أحمد بن نافذ ، يعاونه شبيب بن أبي شداد القمودى ، وخفاجة العيسى ، وهم من المعروفين ، من أهل البسالة والنجـــدة ، وأمرهم بشن الغارات من طبنة على أرض كتامة(٥٦٠) .

استيلاء الداعي على بلزمة وطبنة :

ومع أن رواية ابن عـــذارى تقول ان الحـــرب دارت ســـجالا بين الفريقين(٥٦١) ، فان تكملة الـــرواية – التي قطعتهـــا بعض الأحـــداث العارضة(٥٦٢) ، لا تدل على صحة هذا القـــول . ففي نفس هـــذه السنة

---

(٥٥٩) أنظر تفصيلات الموضوع في ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤١ .

(٥٦٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٠ – حيث القراءة : ابن ناقد بدلا من ابن نافذ ، وشعيب بدلا من شبيب . ولقد اخذنا برواية افتتاح الدعوة – انظر فيما بعد ، ص ٥٦٥ .

(٥٦١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٠ .

(٥٦٢) مثل تولية القضاء برقادة الى محمد بن عبد الله المعروف بابن جيمال ، رغم عدم علمه وورعه ، وما كان فيه من الغفلة ، ولكن لانه كان محسوب الوزير صاحب البريد عبد الله

(٢٩٣ هـ/٩٠٦ م) تغلب أبو عبد الله الداعي على مدينة بلزمة ، ثم على عاصمة الزاب ، طبنة ، التي دخلها بالأمان ، في آخر ذي الحجة (٢١ اكتوبر ٩٠٦ م) • ولما كان يطبّنة أبو المقارع الحسن بن أحمد حاجب زيادة الله ووالى المدينة مع صاحبيه شبيب القمودي ، وخفاجه العبسي(٥٦٣) ، فان ذلك يعني أن أهل البسالة والنجدة لم يغنوا شيئا • وحق للكتاب أن يعتبروا القضاء على القيسية من العرب في بلزمة ، الذين كانوا يذلون كتامة ، وذلك على عهد ابراهيم بن أحمد ، بمثابة أول حادث طرأ على دولة الأغالبة(٥٦٤) •

حرب الدعاية تسير جنبا الى جنب مع القتال :

أبو عبد الله يلغي نظام الضرائب الأغلبي ، ويعلن العودة الى السنة في طبنة :

والظاهر أن أبا عبد الله الشيعي كان قد اكتسب قلوب الناس في الزاب ، بفضل دعايته الذكية ، مما يتعلق بالدعوة الى الرجوع بالاسلام الى نقائه الأول على عهد الرسول • فهو — في طبنة — يرفض أموال جباية العشور التي تقدم اليه ، حسب انتظام الضرائبي الثابت ، على أساس أنها من المغارم ، ويقول : « انما العشر حبوب ، وهذا عيني » ، ويأمر بأن يرد على كل رجل ما أخذ منه ، ويقول : « سنة العشور معروفة »(٥٦٥) • وهو يقول لمن أتاه بمال الخراج . هذا مال لا خير فيه ، ولا قبالة ، ولا خراج على المسلمين في أموالهم • ثم يأمر ثقات أهل طبنة برده على أهله(٥٦٦) •

وهكذا سر به أهل طبنة ، ورجوا أن يستعمل فيهم الكتاب والسنة •

هذا ابن الصايغ ليس الا (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٠) أو قدوم أبي يعقوب اسحق بن سليمان الاسرائيلي المتطبب على زيادة الله في الاربس وعقد مجلس المناظرة المذكور •

(٥٦٣) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٠ ، وقارن افتتاح الدعوة الذي يلخصه ابن الأثير (سنة ٢٩٦ هـ) حيث الرواية التفصيلية التي لا يعيبها الا انها غير مؤرخة • وهي تجعل الفاطمية ، فيما بعد ، ص ٥٦٥ — ٥٦٦ •

(٥٦٤) انظر فيما سبق ، ص ١٣٦ وهـ ٤٣٥ •

(٥٦٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤١ — وهو « يناقش » في المال الآتي من جباية اليهود

(٥٦٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤١ — وهو « يناقش » في المال الآتي من جباية اليهود والنصارى ، لأن سنة الرسول كانت تقضي بأن يؤخذ من الملىء ٤٨ درهما ، ومن المتوسط ٢٤ درهما ، ومن الفقير ١٢ درهما ، ولا يقبله الا بعد أن يعرف أنه أخذ حسب الترف الذي كان يتخذه عمر — رضه ، فيقول : هذا مال طيب ، ويأمر أحد الدعاة بتفريقه على أصحابه ،

(٥٦٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٢ •

عن هذا الطريق » انتشر فعله في جميع نواحي افريقيــة ، فتاقت أنفس الناس اليه ، وكاتبوه ، ودخلوا في طاعته » ، مما زاد في غم زيادة الله(٥٦٧) .

زيادة الله يحاول اكتساب اهل قسطيلية (توزر) برفع الظلم عنهم ، فيسيء الى عماله :

في هذه الظروف الصعبة لم يكن من الغريب أن يستجيب زيادة الله في مطلع سنة ٢٩٤ هـ/٩٠٦ م ، وهو في الأربس ، الى تظلم أهل قسطيلية من قاضيهم محمد بن مفرج المعروف بابن الشاعر ، فيكتب الى عامله هناك بعزله وتخشيبه ورفعه الى بابه . وتقول الرواية أن كتاب زيادة الله وصل الى قسطيلية والعامل غائب في بعض مصالحه ، فلما « تبـادر بعض القوم الذين رفعوا عليه الى مجلس القضاء الذى كان فيه ، فسبوه وهموا بالبسط اليه ، فأمر غلمانه بأخذهم وضربهم ، وقيدهم وحبسهم » . ولكنه لمـا قدم العامل ، وعرف ما في الكتاب ، « أوثقــه حديدا ، وخشبه ، ووجهه الى زيادة الله ، فضربه بالدرة ، وحبسه ، وذلك للنصف من المحرم (٥ نوفمبر) » .

ولا بأس في أن يكون زيادة الله قد أراد الا يتقرب بهذا العمل من أهل قسطيلية فقط ، بل انه كان قد أتى به على أنه عمل من أعمال الخير والقربى من الله ، عسى أن يجعل له فيه مخرجا من محنته .

محاولات لاستعادة الزاب :

ابن حبشي يخرج بقواته الى طبنة :

وذلك أنه في اليوم الذى كان يضرب ابن الشاعر قاضي قسطيلية ، وهو مخشب ، في الأربس ، أى في ١٥ محرم سنة ٢٩٤ هـ/٥ نوفمبر ٩٠٦ م ، خرج ابراهيم بن حبشي بعساكره لملاقاة أبي عبـد الله الشيعي بمـدينة طبنة(٥٦٨) ، واغلب الظن أن الأمر كان مجرد صدفة . ومع أن الرواية لا تعرفنا بما حدث لذلك العسكر ، هذه المـرة ، فمن المعروف أنه لم يكن باسعد حظا من المرات السابقة ، ان لم يكن قد ذهب للقلد الشيعي على الاطلاق .

---

(٥٦٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٣ .
(٥٦٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٣ .

هرون الطبنى يسير الى بلزمة :

هذا عن رواية ابن عذارى ، أما رواية القاضى النعمان ، فيفهم منها أن زيادة الله وجه جيشا آخر الى بلزمة ، وان قيادة الجيش الذى بلغت عدته ١٢ (اثنى عشر) ألف رجل كانت الى هرون الطبنى ، أخى زيادة الله الطبنى ، والى باغاية . وكان مصير تلك الحملة هو الهزيمة . ومقتل قائدها هرون(٥٦٩) ، كما كان من نتائجها سقوط مدينة تيجس(٥٧٠) .

ومما يرجح وقوع كل من حملتى ابراهيم بن حبشى ، وهرون الطبنى فى نفس الوقت ، أى فى أوائل سنة ٢٩٤ هـ/ أواخر سنة ٩٠٦ م ، هو اتفاق كل من ابن عذارى والقاضى النعمان فى نتيجة الحملتين . فبينما يقول ابن عذارى أن زيادة الله انصرف من الأربس فى تلك السنه الى رقادة ، بعد أن استخلف على الجيش بالأربس قريبه ابراهيم بن أحمد بن أبى عقال ، وأنه بدأ بناء سور مدينة رقادة « بالطوب والطوابى »(٥٧١) ، يزيد النعمان تلك الرواية ايضاحا ، فيقول انه بعد مقتل هرون اغتم زيادة الله كثيرا ، وقرر الخروج بنفسه الى لقاء الداعى ، ولكنه بعد أن احتفل مع أهل القيروان بالخروج الى الأربس ، عاد واستمع الى نصح الناصحين له بالا يفعل ذلك : فهزيمته ، لو وقعت ، لن تكون كمثل هزيمة قواده ، فرجع الى قصره برقادة(٥٧٢) .

بداية النهاية : تحصين رقادة والانصراف الى اللهو :

وكان تجديد سور رقادة يعنى بداية النهاية ، اذ يبدأ الكتاب فى القول ان زيادة الله انصرف منذ ذلك الحين الى دفن همومه فى العبث واللهو . فالتزم التنزه على البحر ، وهم يقصدون الجلوس وسط الماجل الكبير ، المعروف بالبحر ، فى المركب المعروف بالزلاج . كما التزم أتباع اللذات ومنادمة العيارين والشطار والزمامرة والضراطين . وهم يقولون انه كان

---

(٥٦٩) افتتاح الدعوة ، ص ١٦٤ - ١٦٦ ، وقارن ابن الخطيب ، الاعلام ، قسم ٣ - ص ٤٠ (حيث الاسم هارون بن الطبنى ؟) .

(٥٧٠) افتتاح الدعوة ، ص ١٦٧ - ١٦٩ ، وانظر فيما بعد فى الدعاية الفاطمية ، ص ٥٦٧

(٥٧١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٢ .

(٥٧٢) افتتاح الدعوة ، ص ١٧٨ - ١٨١ - وانظر فيما بعد ، فى الدعاية الفا[illegible] ص ٥٦٩ وما بعدها .

اذا نكر في غلبة عدوه على أكثر مواضع عمله ، يقول لندمائه : « املأ واسقني من القرن يكفيني »(٥٧٣) ٠

الى غير ذلك من الأخبار التي تدخل في أخص خصوصيات القصور ، مما لا يليق ذكره فضلا عن عمله ٠ وهذا ما يفسر كيف أن مثل هذا النظام المبني على المظاهر الخداعة ، ما كان يمكنه بأي حال من الأحوال ، أن يقف أمام دعوة كتامة : دعوة العودة الى مجتمع الاسلام في نقائه الأول(٥٧٤) ٠ وفي هذا المقام يذكر الكتاب أنه كان اذا أظهر زيادة الله الغم بأمر الشيعي أخذوا له في التسلي ، فكان مما غنته جارية له ذات يوم ، هذان البيتان من الشعر ، اللذان كان لهما صدى عميق في نفسه .

اصبر لدهر نال منـ	ـك فهكذا مضت الدهور
فرح ، وحزن مرة	لا الحزن دام ولا السرور(٥٧٥)

ووسط الأنباء المضحكة المبكية ، يستعفي قاضي القيروان الورع حماس ابن مروان ، ويقبل استعفاؤه ، ويولى عوضا عنه والى رقادة : المغفل الجاهل ، محمد بن عبد الله بن جيمال ، محسوب الوزير صاحب الأخبار عبد الله بن الصائغ ، ويظل في منصبه الى أن يهرب زيادة الله(٥٧٦) ٠

---

(٥٧٣) ابن عذاري ج ١ ص ٤٣ ٠ وقارن افتتاح الدعوة ، ص ١٨٣ . — حيث يشرح القاضي النعمان ان هذه الكلمات كانت بيتا من الشعر يغني في دور في مجلس شراب زيادة الله . وان احد ندمائه الذي ... سقوط بالغاية ٠ هذا بالاضافة الى ما يروونه عن كلفه بعض الغلمان ، وما كان من وجده عليه وما كانت تقوم به بعض الجواري من اصلاح ذات البين بينهما ، وما قالته من الشعر مثل ٠

يأيها الملك الميمون طائره	رفقا فان يد المعشوق فوق يدك
كم ذا التجلد والاحشاء خافقة	أعيذ كفك ان تسطو على كبدك

ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٣ ، وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٧ — حيث ينسب ابن الأبار تلك الرواية الى أبي بكر محمد بن محمد الصولي في كتابه « الاخبار المنثورة » ، وفيها يقول أن الغلام الفحل كان يدعى خطابا ، وأن زيادة الله نقش اسمه في السكة ، وانه عندما سخط عليه قيده بقيد من ذهب ، وأن ذلك الشعر الذي غنته الجارية كان من نظم الوزير صاحب البريد والشرط : عبد الله الصائغ ٠ وانظر فيما بعد ، ص ٥٧٠ وص ١٤٠ ٠

(٥٧٤) انظر فيما بعد ، في قيام الدعوة الفاطمية ، عن دعوة أبي عبد الله التي جعلت من الدين أساسا لتنظيم الجماعة (جماعة المؤمنين) ، ص ٥٥٣ ٠

(٥٧٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٣ ٠

(٥٧٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٣ ٠

التفكير فى الرحيل الى مصر سنة ٢٩٤ هـ/٦ — ٩٠٧ م :

وجاء سقوط باغـــاية بالأمان فى شهر شـــعبان سنة ٢٩٤ هـ/مايه ٩٠٧ م(٥٧٧)، بعد أن كاتبه أهلها(٥٧٨) ، يعلن نهاية النهاية • فعندما طلب زيادة الله المشورة من وزيره وصديقه القديم . عبد الله بن الصائغ ، الذى كان يعرف دقة الموقف بصفته صاحب البريد ، كما كان يعرف ضعف أميره ، نصحه بالرحيل الى مصر سرا ، على أن يستخلف على افريقية قائدا يجعل اليه أمر العساكر ، ويترك له الأموال • وراقت الفكرة للأمير الذى كان يهرب من الغم الى اللهو والعبث ، وأمر بشراء خمسمائة جمل لرحيله ، ولكنه ظهر له خطأ هذا الرأى وخشى قيام النـــاس عليه ، وتوراثهم به ، فتوقف عن تنفيذه(٥٧٩) •

ويفهم من الرواية أن الذى بين له خطأ فكرة الهرب هو قائد جيوشه وابن عمه ابراهيم بن حبشى بن عمر ، الذى تعرض له وادخله اجمل قصوره فى رقادة ، وهو قصر البحر المشرف على الماجل العظيم وجعله يتمعن فيما كان فيه من الزخارف والصور ، وأفهمه أن مثل هذا المنزل لا ينبغى أن يهجر أو يترك للأعداء • وضرب له المثل بما فعله جده الذى ظل مقيما بالقصر القديم الذى لا يقارن أبدا بقصره البديع ، وصبر فيه على الحصـــار أعواما كثيرة ، وقد أبغضه جل أهل بلده . وقام عليه رؤساء جنده . فبقى مقيما فيه ، وضابطا له حتى أظهره الله عليهم . ومكنه منهم »(٥٨٠) •

واطمأن زيادة الله أكثر عندما قال له ابراهيم بن حبشى انه أكثر مالا من جده ، وأن أهل البلاد معه ، بينما عدوه الشيعى شيخ مجهول غريب عن كتامة ، وانه فى حصن منيع ، وأن النصر معه بحول الله • وهكذا أجـــل زيادة الله مشروع الهرب فصار يرسل الرجال والأموال الى الأربس ، التى أصبحت أقصى ثغوره ، « فكانت خيل أبى عبد الله الشيعى تغير على الأربس من باغاية ، وخيل زيادة الله تغير على باغاية من الأربس »(٥٨١) •

---

(٥٧٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٣ •

(٥٧٨) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٨١ — ١٨٢ ، وتلخيص ابن الأثير سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٥ — حيث يفهم أن سقوط باغاية كان فى سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٨ م •

(٥٧٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٣ •

(٥٨٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ ، وعن اضطراب البلاد على أيام ابراهيم الثانى بن أحمد • أنظر فيما سبق ، ص ١٣٦ وما ٤٣٨ •

(٥٨١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ •

مأتم القيروان يكاد ينقلب عرسا :

زيارة سفير القسطنطينية :

وبينما كانت رقادة تتخذ وضع التأهب لكل طارىء أو حدث ، وبينما أهل القيروان يتوجسون خيفة ، وينشرون العسس حول مدينتهم ، ويعيشون في الأخبية المضروبة حولها ، كان على ذلك المنظر الذى يكاد يشبه المأتم أن ينقلب الى حفل عرس أو فرح •

في ذلك الوقت عاد حبيشي وابن أبي حجر وابن عباس ، وهم : رسل زيادة الله الى بلد الروم . ومعهم رسول صاحب القسطنطينية(٥٨٢) • وكان على زيادة الله أن يحتفل بالسفير ، الاحتفال اللائق بملك : افريقية والمغرب ، وما وراء البحار من صقليه وقلوريه (كلابريا) ، وغيرها من المواضع في ايطاليا وسواحل الفرنج • وهكذا استقبل رسول قيصر الروم بما يليق به هو الآخر من الحفاوة ، فكسى واقيم له حفل كبير في الملعب القديم القريب من رقادة . وحشد زيادة الله الناس والعساكر للمباهاة بهم ، « فكان جمعا عظيما »(٥٨٣) .

عودة زيادة الله الى مدينة تونس في أول سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٧ م :

وهكذا عاشت كل من رقادة والقيروان ما بين الخوف والرجاء ، وظلت الاستعدادات لحراسه العاصمة على قدم وساق ، فجدد زياد الله الحشد ، وكان يرغب الناس في الانضمام الى الجندية بالأموال(٥٨٤) • ولكنه اذا كانت احداث سنة ٢٩٤ هـ/٦ - ٩٠٧ م الخاصة بتحصين القيروان ورقادة تنتهي بأن يعين زيادة الله في شهر شعبان (مايه ٩٠٧ م) ابن قرهب في حجابته(٥٨٥) ، فان أحداث سنة ٢٩٥ هـ/٧ - ٩٠٨ م تبدأ بخروج زيادة الله في شهر المحرم (اكتوبر ٩٠٧ م) الى مدينة تونس ؛ ليحاول ترتيب أموره فيها ، كما تقول الرواية(٥٨٦) • وهو الأمر الذى يعني الكف عن مواجهة الأخطار المحدقة بالقيروان •

---

(٥٨٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ •

(٥٨٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ •

(٥٨٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ •

(٥٨٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ •

(٥٨٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ •

جولة كبرى لأبي عبد الله يجتاح فيها ما بين مجانة وقمودة :

واذا كانت رواية ابن عذارى تكتفي بالاشارة الى الجفاف الذى حل بمنطقة القيروان ، حتى قام القاضي محمد بن جيمال لصلاة الاستسقاء في يوم الاثنين ٦ ربيع الأول (١٤ يناير ٩٠٨ م) ، ثم عزل ابن أبي الوليد عن الصلاة وتعيين ابن يزيد كصاحب الصلاة مكانه في منتصف ربيع الآخر (٢٣ يناير) . وذكر أهم وفيات علماء البلاد وفقهائها في نفس السنة(٥٨٧) ، فان رواية النعمان التى يلخصها بن الأثير تسجل للداعي انتصارات متوالية خلال سنة ٢٩٥ هـ/٧ ـ ٩٠٨ م ٠ من ذلك . افتتاحه لمدينة مجانة عنوة وقتل عاملها ، وملك مدن . قصر الافريقي ، وتيفاش ، وقالمة ٠ وتاتي بعد ذلك المسيرة المظفرة الى مسكيانة ، وتبسا ، ومديرة (حيدرة) ومرماجنه (قرب الحدود التونسية الجزائرية الحالية) . ومجانة والقصرين (من اقليم قمودة الذى تعتبر القيروان على تخومه ، حتى ظن ابراهيم بن ابى الأغلب أن الداعي قرر المسير الى رقادة نفسها) ٠

والغريب في الأمر أنه بعد تلك المسيرة المظفرة ، أو النزهة العسكرية كما يقال ، رجع أبو عبد الله الشيعي ، عبر قسطيلية ، الى باغاية ٠ ومنها عاد الى قاعدته ، دار الهجرة ، في ايكجان(٥٨٨) ٠

الاستيلاء على قسطيلية ، وبلاد الجريد :

وتاتي سنة ٢٩٦ هـ/٨ ـ ٩٠٩ م لتكون آخر السنين في عمر الدولة الأغلبية ففيها وصلت خيل الشيعي من جديد الى قسطيلية حيث انهزم أبو مسلم منصور بن اسماعيل صاحب الخراج السابق ، ومعاونه شبيب ابن أبي الصارم ، وانسحبا الى مدينة توزر ، حيث تبعتهم الخيل الكتامية الى هناك ، وهي تحرق القرى وتفسد ما تمر به من الزروع والنعم ٠ واتبع الداعي الاستيلاء على توزر بالاستيلاء على قفصة ، عاصمة بلاد الجريد(٥٨٩) ٠ وكانت تلك مفاجاة فاجأ بهـا الشيعي الجند الأغلبي ، بعد شهرين كان قد أوقف خلالهما أصحابه عن الغارات حتى ظن الأغالبة أنه مريض ، بل حتى

---

(٥٨٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ٠

(٥٨٨) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٩٢ ـ ١٩٦ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٥ ـ وفيما بعد ، ص ٥٧٣ ٠

(٥٨٩) انظر فيما بعد ، ص ٥٧٥ ٠

قالوا : انه قدحات(٥٩٠) ، وقد ظنــوا أن الفرج قد جـــاءهم من حيث لم يحتسبوا •

رد فعل أليم في العاصمة :

ولقد كان لعودة نشاط فرسان أبي عبـــد الله الشيعي ، بعــد ذلك السكوت ، أثرا عميقا في قلب زيادة الله الذي هاله الأمر ووراءه ، بل وفي دروب أهل الحاضرة التي ارتجت ، فاضطربت أحوال الجند ، وخيم اليأس على الناس الذين خافوا على ذراريهم وأهلهم من السبي والاسترقاق • أما عن معاوني زيادة الله الرئيسيين ، وهما : الوزير ابن الصائغ ، وصاحب الخراج أبو مسلم ، فقد فسدت الحال بينهما عندما ألقى ابن الصائغ سبب فساد الدولة على أبي مسلم •

ومع أن الرواية تشير الى خدمة أبي مسلم أيام ابراهيم بن أحمد(٥٩١) ، عندما كان ابن الصائغ كاتبا له ، حيث يمكن أن يكون القصـــد من تلك الاشارة هو مذبحة عرب بلزمة ، في سنة ٢٨٠ هـ/٩٣ — ٨٩٤ م ، التي قيل انها كانت سبب انقطاع الدولة الأغلبية ، فمن الواضح أن ابن الصائغ كان يقصد فساد الدولة بسبب انهزام أبي مسلم الأخير في قسطيلية • فلقد انتهى الأمر بأن كتب زيادة الله الى قائده شبيب بن أبي الصارم معـــاون أبي مسلم بتورر ، يأمره بضرب عنق هذا الأخير • وتقبل الشيخ الحكم وهو يتحسر على أن يكون هذا جزاءه بعد خدمته وبلائه(٥٩٢) •

الجولة الأخيرة : سقوط الأربس :

وأخيرا جاء سقوط الأربس في ٢٤ من جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ/ ١٨ مارس ٩٠٩ م ، يعلن نعي الدولة الأغلبية بعد أن انهزم ابراهيم بن أحمد ابن أبي الأغلب في عساكر افريقية وجمهور أجنادها الذين بلغوا ٤٠ (أربعين) الف رجل ، ودخل الشيعي المدينة بالسيف عنوة(٥٩٣) •

---

(٥٩٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٥ ، وانظر فيما بعد ، ص ٥٧٦ •

(٥٩١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٥ •

(٥٩٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٦ — وربما كان ابو مسلم يأسف على نصيحة زيادة الله بقتل عمومته واخوته ، عندما قال لشبيب لو انه لم ينصحه بذلك وشغله بهم ، ما دار عليه من قبله ما دار •

(٥٩٣) ابن عذارى ج ١ ص ١٤٦ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٣٦ أ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص١٧٥، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ١٧ — حيث ينقل عن المعاصر —

وانتهت هزيمة الجيش الأغلبي الكبير بمذبحة كبرى في مسجد الأرب
الجامع حيث فزع الناس وفلول العسكر ، وهم يركبون بعضهم بعضا .
شك أن رواية ابن عذارى ، تبالغ في عدد من قتلتهم كتامة بأمر أبي عبد
الشيعي في الجامع ، اذ تقول : « انه قتل داخل المسجد ثلاثين ألف رجل
وكان قتلهم من بعد صلاة العصر الى آخر الليل ، وأن الدماء كانت تس
من أبواب المسجد ، كما يسيل الماء من وابل الغيث »(٥٩٤) . ومن المقبول
يكون عدد القتلى ثلاثة آلاف ، كما يقول ابن الأثير(٥٩٥) .

ولم يبق عسكر الشيعي في الأربس : فعندما أصبح الصباح ، وقد فر
أصحاب أبي عبد الله من القتل والنهب والسبي ، نادى بالرحيل عائدا
اتجاه قاعدته في مدينة باغاية .

وتفسر الرواية الأغلبية ذلك بأنه خشي أن يحتشد عليه أهـ
افريقية(٥٩٦) ، وهو الأمر الذي لم يعمله زيادة الله الذي يأس نهائيا
مواصلة النضال . وحق للأمير أن ييأس طالما أن معنويات رجاله كانت
انحطت الى درجة أنهم فروا في معركة الأربس لمجرد أن صائحا صاح بيـ
بوجود كمين للشيعي ، في الوقت الذي كانوا أكثر من ند لنكتاميين(٥٩٧)
وهذا ما قد يفسر كيف أن أبا عبد الله ترك الأربس عائدا نحو باغاية — هـ
المرة — خشية عودة الجند الأغلبي ، وان كانت طريقته في الحرب دائمـ
الضرب بعنف ثم فك الالتحام .

زيادة الله يعد العدة للرحيل :

والمهم أن زيادة الله أسقط في يده عندما بلغه نبأ الهزيمة يوم سقو
الأربس ، وتأكدت له نهاية ملكه . ومع أنه كان قد قرر الرحيل وأخـ

— النعمان في افتتاح الدعوة ، ان جند أبي عبد الله بلغوا ٢٠٠ (مائتي) ألف فارس .
أصحاب زيادة الله كانوا لا يحصون عددا . وانظر فيما بعد في قيام الدعوة الفاطمية ،
٥٧٧ وما بعدها .

(٥٩٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٦ .

(٥٩٥) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ٤٥ .

(٥٩٦) ابن عذارى ، ، ج ١ ص ١٤٦ — ١٤٧ . وقارن رواية القاضي النعمان في افـ
الدعوة . حيث تفصيلات المعركة ، وفيها يقول ان الداعي انسحب في طريق قمودة وقسطـ
(ص ٢٠١ — ٢٠٥) — وانظر فيما بعد ، الدعوة الفاطمية ، ص ٥٧٩ وما بعدها .

(٥٩٧) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ٤٥ — حيث يلخص افتتاح الدعوة .

يستعد له ، فقد رأى أنه من حسن السياسة أن يفعل ذلك خفية من أهل القيروان . وهداه تفكيره السقيم الى أن يعلن ان الأنباء أتته بالنصر ، وأن يرسل الى السجون آمرا بضرب أعناق خصومه من المحبوسين ، على أن يطاف برؤسهم في القيروان وفي القصر القديم(٥٩٨) .

والظاهر أن قصده من ذلك كان شغل أهل العاصمة بمواكب قتلاه ، بينما كان يجمع أثقاله وأمواله ، ويرسل الى خاصة رجاله وأهل بيتـه يعرفهم الحال ، وينذرهم بالخروج معه(٥٩٩) .

أما الوزير صاحب البريد : عبد الله بن الصائغ ، فقد أراد أن يجرب عملية انقاذ أخيرة ، فكذب خبر انتصار الشيعي ، وأعلن على أبواب رقادة أن الأمير يعد حشدا جديدا ، وأنه سيكافىء الرجال مكافأة جزيلة : للفارس عشرون دينارا ، وللراجل عشرة دنانير(٦٠٠) ، وهو ما لا يقارن بمـا كان يعطى بالصحاف من قبل . وأشار الوزير على زيادة الله بالمقام ، وطمأنه الى اجتماع العسكر حوله ، وأن عليه أن يخرج العطاء(٦٠١) .

وأتت النتيجة عكسية تماما بالنسبة لتلك المقدمات التي قام بهـا ابن الصائغ : « فأهل القيروان بدر اليهم سوء الظن ، وعلموا أن الدائرة كانت على أصحاب زيادة الله وماجوا فيما بينهم ، وجعلت الخاصة وأهـل الخدمة يفرون من رقادة(٦٠٢) . وأما رد فعل زيادة الله بعد أن ألح عليـه الوزير كثيرا ، فكان اتهام بن الصائغ بالتآمر عليه ، ومواجهته بصدق ما كان يقال عنه من أنه كان يكاتب الشيعي(٦٠٣) ، وهو الأمر الذى نفـاه بشدة أبو عبد الله ، فيما بعد(٦٠٤) .

فرار مأساوى :

وهكذا ، وفي هذا الجو المأساوى ـ جو انهيار نظام وقيام نظام ، حيث

---

(٥٩٨) النويرى : المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٦ ب .
(٥٩٩) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٦ ب .
(٦٠٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٦ .
(٦٠١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٦ ب .
(٦٠٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٧ .
(٦٠٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٦ ب .
(٦٠٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٨ ب .

يختلط الحابل بالنابل ، كما يقال ، وحيث ترتفع رؤوس وتنخفض هامات في دوامة التغيير العنيف ـ أخذ زيادة الله في شد الأموال والجواهر والسلاح، وما خف من الأمتعة النفسية • وكذلك فعل رجـــاله • ثم انه انتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم ، وجعـل على وسط كل واحد منهم الف دينار • وفى ليلة الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة/١٩ مارس وهى الليلة التالية لورود النبأ العظيم ، تواعدَ مع أصحابه على الرحيل ، وتقلد سيفه ، وقدم الأحمال تمر بين يديه ، وقد حمل من يعز عليه من جواريه وأمهات أولاده • وبدأت القافلة الملكية الحزينة مسيرتها وسط عويل الأعداد الكبيرة ممن كان قد تركهم فى قصوره من الجوارى والحريم ، ونحيبهم(٦٠٥) •

واتخذ الموكب الذى كان يهتدى فى مسيرته ليلا بالمشاعل طـــريق المشرق ومصر وتبعه الناس قوما بعد قوم • وكانت المحطة الأولى التى توقف فيها هى مدينة طرابلس التى اقام فيها آكثر من أسبوعين(٦٠٦) •

عمليات النهب تبدأ بالوزير :

وخلال تلك الفترة تأكد لزيادة الله غدر وزيره ابن الصائغ ، الذى كان قد دبر الهرب بأهله وحشمه وأمواله ، مع بعض أحمال من المال اقتطعها لنفسه من بيت المال ، وذلك فى مركب كان قد أعدها لذلك ، وكان قصده الالتجاء الى صقلية • ولكن لسوء طالعه ألقت الرياح بالمركب الى ســاحل طرابلس ، حيث وقع فريسة سهلة بين يدى زيادة الله الذى انتقم منه •

---

(٦٠٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٧ أ ـ وانظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ، ١٦٧ ، حيث يقول : انه خرج هاربا عن عيون أهله وحرمه وولده • ومن المناظر الرقيقة التى يشير اليها الكتاب ، ما قامت به احدى جواريه ، ممن تركهن ، وقد أخذت عودا ووضعته على صدرها ، وغنته لتحركه على حملها معه ، فقالت :

لم أنس يوم الوداع موقفهــا ... وجفنها فى دموعهـا غرق

وقولها والركاب سائرة ... تتركنا سيدى وتنطلق

استودع الله ظبيـــة جزعت ... للبين والبين فيه لى حرق

فدمعت عينا زيادة الله عند سماعها • وتختلف النهـــاية : فتقول رواية ابن عذارى ان سوء الموقف وضيق الحال شغله عن حملها معه • بينما تقول رواية النويرى انه أمر بحط حمل مال عن بغل وحملها عليه ، وهو ما يأخذ به ابن الخطيب (الاعلام ، قسم ٣ ص ٤٤) •

(٦٠٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٨ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٣ ص ١٢٨ ب ـ حيث يقول انه أقام هناك ١٧ يوما •

بتحريض من كانوا معه ، فقتله(٦٠٧) ٠

نهب رقادة :

أما عن مدينة رقادة فقد نهبها الناس صبيحة خروج زيادة الله ٠ ورغم ما تقوله رواية ابن عذارى ، من : أنهم أخذوا من بقايا أموال بنى الأغلب ومتاعهم ، وصنوف الآنية من الذهب والفضة مالا يحيط به وصف ؛ فالظاهر أن ما كان قد بقى فى قصور رقادة من المتاع لم يكن الا قليلا ٠ وربما كانت رواية النويرى أدق ، اذ تقول : ان الناس بعد أن عرفوا بهروب زيادة الله ؛ أسرعوا الى رقادة ، وانتهبوا ما فيها ، واحتووا على قصور زيادة حتى صاروا الى البحث فى المطامير ، وانتزاع حديد الأبواب ، وحمل الأسرة ، ونقل الماعون(٦٠٨) ٠ وهذا لا يمنع من أن تكون هذه المنهوبات القليلة القيمة سببا فى نزاعات بين الناس ، وأن يرجع القوى منهم ليأخذ من الضعيف ما سبقه اليه ، كما يقول ابن عذارى(٦٠٩) ٠ واذا كان النويرى يقول ان ذلك النهب استمر لستة أيام عندما تراءت خيل الشيعى ، فان ذلك يعنى أن النهب كان مستمرا ، بعد أن وصل ابراهيم بن أحمد بن أبى الأغلب المنهزم من الأربس الى القيروان ، فيمن كان قد بقى معه من القواد ٠

ابراهيم بن أبى الأغلب يقوم بمحاولة فاشلة لتقلد الامارة فى رقادة :

نزل ابراهيم فى قصر الامارة حيث اجتمع على بابه خلق كثير ، وبايعوه بالامارة ثم انه بعث يستدعى أعيان الناس ، من : الفقهاء والتجار والعامة ، وانتقد فى حضرتهم تصرفات زيادة الله الذى أسند أمر البلاد الى الخونة من الرجال ، وهو يقصد بذلك عبد الله بن الصائغ بطبيعة الحال ٠ وحاول ابراهيم بذلك أن يبايعوه أميرا بدل ابن عمه الهارب اذ قال لهم : ان كتامة مفسدون فى الأرض ، وطلب منهم الاخلاص له ، وامدادة بالرجال والمال ليدافع عن حريمهم ومهجهم ٠ ورغم أنه أخذ البيعة بالامارة فى الجامع

---

(٦٠٧) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٧ أ - ١٢٨ ب ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩ - حيث يقول ان ابن الصائغ اقتطع ثلاثين حملا من المال ، فى كل حمل ستة عشر ألف مثقال ، ولكن عامل سوسة ، وهو ابن الهمذانى ، وضع يده على الأموال ، وخزنها فى قصر الرباط بسوسة ، حتى صارت الى الشيعة ٠

(٦٠٨) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٧ أ - ١٢٧ ب ، وقارن ابن الخطيب ، الاعلام ، قسم ٣ ص ٤٤ ٠

(٦٠٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٨ ٠

بعد صلاة الظهر الا أن عامة الناس الذين كانوا قد سئموا الحرب وخشوا سوء العاقبة ، ثاروا به وطالبوا بالأمن والسلام لبلدهم ، وأخبروه أنه اذا كان قد عجز عن دفع كتامة ومعه العساكر والسلاح والأموال ، فهو سيكون الآن أعجز عن مدافعتهم مما كان عليه قبلا ، لأنهم لم يعد لديهم أموال ؛ وعندما لمح ابراهيم الى امكانية الاستفادة من أموال الأحباس (الأوقاف) والودائع ، صاحوا به واحتشد الغوغاء وصاح الجميع : « لا طاعة لك علينا ولا بيعة لك في أعناقنا فاخرج عنا » • وانتهى الأمر بأن اضطروه هو ومن معه الى ركوب خيلهم والنجاة بأنفسهم عن طريق باب أبي الربيع ، والناس يركضون وراءهم ، ويرجمونهم بالحجارة ، ثم انهم لحقوا بزيادة الله(٦١٠) •

وهكذا ، وخلال وجود زيادة الله في طرابلس تضخم موكبه بالفارين من افريقية ، ممن خافوا على أنفسهم وعلى أهلهم . ولو أن منهم من لم يستطع الفكاك من قدره ، فسعى الى حتفه بظلفه ، مثل عبد الله بن الصائغ الوزير • وعندما لحق ابراهيم بن أبي الأغلب بزيادة الله ، ولما علم هذا الأخير بما كان قد فكر فيه ابراهيم من عقد الولاية لنفسه في القيروان نقم عليه ، ولكنه اكتفى بالاعراض عنه • وعندما عرف أن ابراهيم وصاحبه أبا المصعب بن زرارة يقعان فيه وينالان منه ، قرر التخلص منهما لولا هروبهما الى الاسكندرية ، واستجارتهما بعاملها الذي أرسلهما الى عامل مصر : موسى النوشري ، حيث دسا لزيادة الله ، وحذرا من طمعه في مصر •

وهذا ما قد يفسر كيف أن النوشري لم يحسن استقبال زيادة ، الذي لم يقم في مصر أكثر من ثمانية أيام ، خرج بعدها الى طريق بغداد ، بعد أن تخلف كثير من أصحابه في مصر • وفي الرملة من أرض فلسطين هرب كثير من أصحابه ، ورجاله حاشيته • وبعد اقامة سنة في الرقة ، تفرق فيها من كان قد بقي له من رجاله ، وتشتت أمره ، وباع عليه قاضي الرقة بعض خصيانه الصقالبة ؛ انكب على شرب الخمر وسماع الموسيقى والغناء (الملاهي) • وأخيرا وصلته الأوامر من ديوان الخلافة بالعـــودة الى مصر ، وكانت الأوامر قد صدرت الى واليها بمعاونته ، وتمكينه من العودة الى بلاده، واسترجاع دولته ، وهو الأمر الذي لم يتحقق •

وبدد الأمير التعس ما كان قد بقي من قواه في شرب الخمر والانهماك

---

(٦١٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٨ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٧ أ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ٤٥ - ٤٦ •

في اللذات ، قبل أن ينهي أيامه في بيت المقدس[٦١١] • وبذلك انقرضت دولة الاغالبة ، بعد أن عاشت ١١١ سنة وثلاثة أشهر •

(٦١١) انظر النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٩ أ - ١٢٩ ب •



الفصل الثانى

صقلية الأغلبية

واستقرار العرب فى جنوب إيطاليا

من الفتح إلى نهاية الأغالبة

(٢١٢ هـ / ٨٢٧م - ٢٩٦ هـ/٨-٩٠٩ م)



تمهيـــد :

العرب وصقلية قبل الفتح الأغلبى :

بعد تأسيس مدينة تونس سنة ٨٤ هـ/٧٠٣ م ، أصبحت ولاية افريقية قوة بحرية بعد أن كانت قوة برية فقط ، منذ انشاء القيروان بعيدا عن الساحل (سنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م) خشية الأسطول البيزنطى • وبفضل المراكب الحربية التى كانت تخرجها دار الصناعة فى تونس ، لم يعد عرب افريقية ينتظرون مجئ الاسطول الرومى من صقلية أو غيرها من سواحل القسطنطينية لكى يدافعوه ، بل أصبحت مراكبهم تجوب البحر المتوسط ، وهى تعترض مراكب الروم ، وتغير على سواحلهم فى جزر البحر بصفة حصة • وهكذا ، قام أسطول تونس بغارات ناجحة على : صقلية وسردانية وكورسيكا (قورشيقا) ، قبيل سنة ٩٠ هـ/٧٠٨ م ، كانت التمهيد الحقيقى لعملية الغزو الكبرى فى شبه جزيرة ايبريا(١) •

ولقد كان لصقلية بالذات دور هام فى الصراع البحرى بين العرب والروم منذ وقت مبكر ، عندما لجا اليها قسطنطين ، قيصر الروم ، منهزما فى سنة ٣٥ هـ/٦٥٥ م فى موقعة الصوارى ، التى دارت بالقرب من الشواطئ الليبية ، ثم عندما كان الاسطول البيزنطى يغير على سواحل المغرب ، كما حدث فى برقة حيث فاجأ زهير بن قيس البلوى سنة ٦٩ هـ/٦٨٨ م ، وكما حدث عندما استرد الروم قرطاجنة سنة ٧٤ هـ/٦٩٣ م ، بعد أن فتحها

---

(١) انظر الفقرات الخاصة بذلك فيما سبق ، ج ١ ص ٢٤٦ وما بعدها •

حسان بن النعمان[٢] .

وذلك لا يمنع من أن يكون العرب قد قاموا - قبل بناء القاعدة البحرية في تونس - بغارات أولية على الجزيرة في ذلك الوقت المبكر . فالروايات تشير الى أن معاوية بن حديج أمر بغزو صقلية ، وأنه كان من بين المغانم التي جيء بها من هناك : أصنام من ذهب وفضة[٣] . واذا صحت حملة معاوية ابن حديج هذه ، فمن المرجح أن تكون أثناء ولايته لافريقية ، حوالى سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م ، وباسطول مصر .

حملات تونس الأولى على الجزيرة :

أما عن الحملات الحقيقية التي قام بها أسطول تونس على صقلية ، فانها لم تبدأ الا بعد ولاية موسى بن نصير للمغرب سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م . وكانت أولاها تلك التي قام بها عياش بن أخيل ، وأغار فيها على مدينة سرقوسة . ولا بأس أن تكون قد تمت سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م ، كما في رواية ابن قتيبة[٤] ، وان كان خليفة بن خياط يسجل غارة على صقلية في نفس السنة ، قام بها المغيرة بن أبي بردة العبدي[٥] . ويشير ابن قتيبة الى حملة ثانية قام بهـا عبد الله بن موسى بن نصير على مدينة من مدن صقلية ، ومعه أشراف الرجال الذين بلغ عددهم ما بين ٩٠٠ (تسعمائة) و ١٠٠٠ (ألف) رجل ، مما يعني أن عدد سفن الحملة كان حوالى ١٠ (عشر) سفن . أما عن الغنيمة فقد بلغت حوالى مائة ألف دينار ، وذلك أن سهم الرجل بلغ مائة دينـار ذهبا . أما عن تاريخ الحملة فتقول الرواية انه سنة ٨٥ هـ/٧٠٤ م . ولكنه لما كانت ولاية موسى للمغرب في سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م ، فأغلب الظن أنه يجب تصحيح التاريخ الى سنة ٩٥ هـ/٧١٤ م ، وقتما كان عبد الله بن موسى ،

---

(٢) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ١٦٢ - ١٦٣ ، ٢١١ ، ٢٢٨ . ومن المعروف ان الامبراطور البيزنطي كونستانز الثاني كان قد سار من القسطنطينية في سنة ٦٦٢ م الى صقلية لكي يجعل نصب عينيه ولايات الامبراطورية في الجزيرة وفي جنوب ايطاليا حتى يمكنه الحفاظ على ارض اليونان الرئيسية من أن يحاصرها العرب ، وانه بقي في صقلية الى وفاته في سنة ٦٦٨ (انظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ط . أدنبره ١٩٧٥ ، ص ٣) .

(٣) النويري ، المكتبة الصقلية ، ص ٤٢٥ - ٤٢٦ . وان كان عيبا يشكك في تلك الرواية أنها تجعل تاريخ الحملة هو سنة ٣٣ ، في خلافة معاوية ، وان التماثيل الثمينة لم تجد لها سوقا نافقة الا في بلاد الهند البعيدة .

(٤) أنظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٤٦ وهامش ٣٦٤ حيث غزو سردانية أيضا .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢٩٣ .

صاحب الجمة ، نائبا لوالده على افريقية(٦) .

ومع أنه من المعروف أن الحرب البرية والبحرية مع الروم فى شرق البحر المتوسط كانت تدور فى الثغور فى شكل صوائف وشواتى سنوية منتظمة ، الا اذا كانت هناك هدنة مع الروم أو كانت هناك أحداث داخلية تمنع من تجهيز الصائفة أو الشاتية ، فالذى نلاحظه من حوليات الحرب البحرية مع الروم فى وسط البحر ، وبالذات فى صقلية ، ان الصوائف والشواتى كانت متباعدة . واذا كان من الطبيعى أن يسقط بعض تلك الصوائف من القوائم التى يقدمها الكتاب ، واذا كان من المقبول أن تسرى الهدنة التى كانت تعقدها الخلافة فى المشرق على العمليات الحربية فى المغرب ، فمن المرجح أن الاضطرابات التى عرفتها بلاد المغرب على أواخر أيام الدولة الاموية ، وفى بداية عهد الدولة العباسية ، والتى قام بها ، على وجه الخصوص ، الخوارج من الصفرية ومن الاباضية ، كان لها أثرها فى تباعد حملات العرب على صقلية .

ويرجع الفضل لتاريخ خليفة بن خياط الذى ينفرد بمعلومات تكاد تكون سنوية عن نشاط ولاة المغرب فى جزر وسط البحر المتوسط خلال الفترة ما بين سنة ١٠٢ هـ وسنة ١٢٢ هـ ، وذلك أنه يسجل فيها أكثر من ١٥ (خمس عشرة) غزوة بحرية ، انصبت جميعا على كل من جزيرتى صقلية وسردانية باستثناء غزوة سنة ١٠٦ هـ/٧٢٤ م التى أتى فيها ذكر قرسقة (كورسيكا) ، الى جانب سردانية(٧) ، وكانت بقيادة محمد بن أبى بكر مولى بنى جمح ، وغزوة سنة ١٠٤ هـ/٧٢٢ م التى لم يحدد هدفها فى البحر ، وكانت بقيادة عمرو بن فاتك(٨) ، وكذلك الغزوة الكبيرة التى قام بها المستنير بن الحارث سنة ١١١ هـ/٧٢٩ م فى ١٨٠ (مائة وثمانين) مركبا ، والتى أبطأت فى العودة حتى هجم الشتاء ففرقت المراكب ولم ينج منها الا ١٧ (سبعة عشر) مركبا(٩) .

---

(٦) أنظر ابن قتيبة ، المكتبة الصقلية ، ص ١٦٤ ، ٢١١ (حيث ينقل ابن الشباط تلك الرواية) عن نيابة عبد الله لوالده بعد عودة موسى الى دمشق . انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٥٢ و هـ ٣٩٥ .

(٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٤٩ .

(٨) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٣٨ .

(٩) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥٥ .

وتدل الدراسة الاحصائية لتلك الحمـــلات ، حسب ترتيبها الزمنى اعتبارا من حملة سنة ١٠٣ هـ/٧٢١ م ، أنها تمت على عهد ثلاثة من كبار ولاة المغرب في العصر الأموى ، هم : بشر بن صفوان ، وعبيدة بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن الحبحاب . فعلى عهد بشر بن صفوان كانت وجهة الحمـــلات البحرية الأربعة الى سردانية على وجه الخصوص ، وذلك فى سنوات ١٠٣ هـ/٧٢١ م بقيادة يزيد بن مسروق اليحصبى(١٠) ، ١٠٤ هـ/٧٢٢ م بقيادة عمرو بن فاتك الكلبى(١١) ، و ١٠٦ هـ/٧٢٤ م بقيادة محمد بن أبى بكر مولى بنى جمح(١٢) ، وأخيرا سنة ١٠٩ هـ/٧٢٧ م بقيادة محمد بن أبى بكر مرة أخرى(١٣) .

واذا كانت حوليات خليفة بن خياط تنص على أن كل هـــذه الحملات قد كللت بالنجاح ، فكانت تعود سالمة بالمغانم ، فالظـــاهر ان حملة سنة ١٠٩ هـ/٧٢٧ م الأخيرة كانت أنجحها . فيذا ما يمكن أن نفهمه من الروايه التى نجدها فى كل من ابن الأثير والنويرى ، والتى تنسب قيادة الحملة الى الوالى بشر بن صفوان نفسه ، وتقول انه سار الى صقلية فغنم شيئا كثيرا ثم رجع الى القيروان حيث توفى بها فى نفس السنة(١٤) . وهذا لا يمنع من أن تكون سنة ١٠٩ هـ/٧٢٧ م قد شهدت حملتين بحريتين دفعة واحدة : الأولى على سردانية بقيادة محمد بن أبى بكر ، والثانية على صقلية بقيادة بشر بن صفوان .

اما عن الحملات التى تمت على عهد عبيدة بن عبد الرحمن ، وهى ست ، فكانت وجهتها صقلية بصفة خاصة ، على الوجه التالى : فى سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م قامت حملة صغيرة بقيادة عثمان بن أبى عبيدة عــلى رأس ٧٠٠ (سبعمائة) فارس هاجمت مدينة سرقوسة ، ونجحت فى هزيمة القوة البيزنطية التى تصدت لها وأسرت قائدها (بطريقهم)(١٥) ، وعن حملة

---

(١٠) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٣٦ .

(١١) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٣٨ .

(١٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٤٩ .

(١٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥٢ .

(١٤) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢١٨ ، النويرى ، ج ٢٢ ص ٢٢٥ ب ، وعن الحملات على عهد بشر بن صفوان ، انظر فيما سبق ج ١ ص ٢٧٣ .

(١٥) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٥٢ - ٣٥٤ .

السنة التي بعدها ١١١ هـ/٧٢٩ م فكانت حملة كبيرة بلغت عدة مراكبها ١٨٠ (مائة وثمانين) مركبا ، قادها المستنير بن الحارث ، ويظن من سياق الأحداث ان وجهتها كانت سرقوسة التي ظل يحاصرها العرب الى أن هجم عليهم فصل الشتاء ، مما عرضهم الى كارثة مروعة ، وهم في طريق العودة اذ غرقت معظم المراكب ، ولم ينج منها الا ١٧ (سبعة عشر) مركبا فقط(١٦) .

وفي سنة ١١٢ هـ/٧٣٠ م تكللت الحملة التي قادها ثابت بن خيثم الاردني بالنجاح : اذ هاجم الجزيرة ، وعاد سالما الى افريقية بالسبايا والمغانم(١٧) . وكذلك كان حظ الحملة التي قادها في سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م عبد الملك بن قطن (الحجازي) الى صقلية أيضا(١٨) ، وتلك التي قادها في نفس السنة عبد الله بن زياد الانصاري الى سردانية(١٩) . اما آخر الحملات التي تمت على عهد عبيدة بن عبد الرحمن فقد قادها في سنة ١١٥ هـ/٧٣٣ م بكر بن سويد الى صقلية ، وأغلب الظن أنها لم تحقق أغراضها بسبب استخدام الروم للقذائف النارية في مدافعتهم للأسطول العربي(٢٠) .

أما عن الحملات البحرية التي تمت على عهد عبيد الله بن الحبحاب فيما بين سنة ١١٦ هـ/٧٣٤ م وسنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م ، كما ترد في تاريخ خليفة ابن خياط ، فهي خمس : اثنتان منها سارتا الى سردانية ، وثلاث كانت وجهتها صقلية . ولقد سارت حملة سنة ١١٦ هـ/٧٣٤ م بقيادة عثمان بن أبي عبيدة الى صقلية ولكنها فوجئت وهي في طريق العودة باعتراض مسيرتها من قبل الأسطول البيزنطي . ورغم نجاح القائد العربي في التخلص من هذا المأزق باحتراق القافلة المعادية ، الا أن الروم نجحوا في الاحاطة بعدد من المراكب الحربية العربية ، وأسروا من كان فيها من المحاربين . وكان من بين

---

(١٦) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥٥ .

(١٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٥٧ .

(١٨) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ - حيث القراءة عبد الله بن قطن والتصحيح « عبد الملك » من عندنا ، وذلك ان عبد الملك بن قطن كان له شأن في أحداث الأندلس سنة ١٢٢ هـ عندما عارض نزول جند الشام بقيادة بلج بن بشر ثم موافقته على ذلك بعد أن استشرت ثورة البربر هناك - انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(١٩) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٢٠) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦١ ، وعن الحملات على عهد عبيدة انظر فيما سبق ج ١ ص ٢٧٦ وما بعدها .

مشاهير الأسرى ، ولدا أمير البحر عثمان بن أبي عبيدة نفسه ، وهما : عمرو وسليمان ، الى جانب عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضي افريقية المشهور وراوينها فيما بعد ، ولن يطلق سراحهم الا في سنة ١٢١ هـ/٧٣٩ م أو بعدها عندما تم تبادل الأسرى (الفداء) بين العرب والروم(٢١) ٠

وكانت قيادة حملة السنه التالية (١١٧ هـ/٧٣٥ م) لأخي عثمان ، وهو : حبيب بن أبي عبيدة الذي سار الى سردانية حيث فاجأ بعض مدنها « وأثحن في القتل والسباء »(٢٢) ٠ وفي سنة ١١٨ هـ/٧٣٦ م التالية كانت قيادة حملة صقلية الى قثم بن عوانة الكلبي الذي نزل على مدينة أوليه ؟ ، ولكن الحملة لم تستطع أن تحقق أغراضها بعد أن أحاط بها الروم " ولا ندرى ان كان نوع من الاتفاق قد تم بين الطرفين المتحاربين يقضي بأن يسحب العرب بعد أن يخلي الروم عنهم أم أن ظروف القتال التي لم ترجح كفة أحد الطرفين هي التي قضت بهذه التسوية(٢٣) ٠ وفي السنة التـــالية وهي ١١٩ هـ/٧٣٧ م كان قثم بن عوانة سيء الحظ في حملته على سردانية اذ غرقت بعض سفنه وهي في طريق العودة وكانت مركبة القيادة بينها وفيها قثم نفسه الذي مات غريقا(٢٤) ٠

اول محاولة للاستقرار في الجزيرة :

اما عن حملة سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م فكانت بقيادة حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع وبصحبته ابنه عبد الرحمن بن حبيب ، الذي صار أميرا لافريقية في سنة ١٢٧ هـ/٧٤٤ م(٢٥) ٠ ولقد حقق عبد الرحمن ، الذي أطلقه والده على رأس الخيالة ، نجاحا عظيما ، اذ لم يلق جمعا من جموع الروم في الجزيرة الا هزمه ، حتى وصل في جولته العاصفة الى مدينة سرقوسة الكبيرة والعاصمة الرومية وقتئذ للجزيرة ، فهزم حاميتها ، وضرب الحصار عليها حتى صالحوه على الجزية ٠ وكان هذا النجاح سببا في أن قرر حبيب بن أبي عبيدة البقاء في الجزيرة الى أن يفتحها جميعا ، لولا ثورة البربر الخارجية التي

---

(٢١) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٢ ، وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٨٠ و هـ ١٠٤ ٠

(٢٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٢ ٠

(٢٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٣ ٠

(٢٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٤٦ ، وعن الحملات على عهد عبيد الله بن الحبحاب ـ انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٧٩ وما بعدها ٠

(٢٥) انظر فيما سبق ج ١ ، ص ٣١٣ وما بعدها ٠

اضطرت ابن الحبحاب الوالى الى استدعائه الى افريقية على عجل(٢٦) ٠

أما عن الحملة التالية فأتت بعد ١٣ عاما أى فى سنة ١٣٥ هـ/٧٥٤ م ، وقام بها عبد الرحمن بن حبيب نفسه - بعد أن استقل بافريقية ، ووسع مملكته غربا بالاستيلاء على تلمسان ، والذى كانت تراوده ذكريات نجاحاته اللامعة في الجزيرة من غير شك - ولقد عاد عبد الرحمن بالسبى من صقلية والغنيمة ، بعد أن صالحه أهلها على الجزية من جديد ٠ وفى طريق العودة عرج عبد الرحمن على سردانية التى صالحه أهلها أيضا على أن يدفعوا له الجزية(٢٧) ٠

الروم يحصنون الجزيرة :

ومنذ حملة سنة ١٣٥ هـ/٧٥٢ م تلك ، تصمت الحوليات الافريقية عن ذكر الحملات الحربية فيما وراء البحر لمدة تزيد على أربعين عاما ، بسبب انشغال الولاة فى المغرب بالفتن ، كما تقول رواية ابن الأثير ٠ والظاهر أن غزو صقلية فى سنة ١٣٥ هـ/٧٥٢ م كان درسا قاسيا للروم ولأهل الجزيرة ، تعلموا منه كيف يحمون بلدهم فلقد قام الروم باعمار الجزيرة من جميع جهاتها ، وجددوا ما كان فيها من الحصون والمعاقل(٢٨) ٠

وأكثر من هذا فقد بدأ الروم (على عهد قسطنطين الخامس) باتخاذ الاحتياطات العسكرية البحرية لما كان يمكن أن يفاجئهم به العرب ، فصاروا يخرجون فى الصيف ، عندما تتحسن الأحوال الجوية ، فى مراكبهم يطوفون حول الجزيرة ، فيما يعرف حاليا باسم « دوريات الحراسة » بل وزيادة على ذلك فربما صادفوا مراكب تجار المسلمين فاستولوا عليها(٢٩) ٠ وعن هذا الطريق جمع أسطولهم بين الدفاع عن الجزيرة وقطع خطوط الملاحة العربية ٠

---

(٢٦) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢١٩ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٥ ب ؛ وقارن خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٩ ، وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٢٨ ٠

(٢٧) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ص ٢٢٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٥ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٥ ب - حيث السنة ١٣ هـ ، والغالب الظن ان كلمة « خمسة » سقطت من الناسخ (من سنة ١٣٥ هـ) ٠

(٢٨) وهكذا فقد كانت غارات العرب على الجزيرة سببا فى أن بنى أهلها المعاقل والحصون ولم يتركوا محلا الا حصنوا عليه حصنا - النويرى ، المكتبة الصقلية ، ص ٤٢٦ (سنة ١٣٠ هـ)

(٢٩) ابن الأثير المكتبة ص ٢٢ النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٥ ب - ٢٢٦ أ ٠

وفى سنة ١٧٨ هـ/٧٩٤ م تعود الحوليات الى ذكر صقلية ، ولكن بشأن خروج الشاتية بقيادة سليمان بن راشد الذى كان يصحب معه « السد » بطريق صقلية(٣)، أي حاكمها . ومع أننا نظن أن الأمر يتعلق هنا بالصوائف والشواتى فى الجهة الشرقية المواجهة للروم فى اقليم العواصم فى شمال الشام وأرض الروم ، فمن المرجح أن يكون المقصود بالبد هو « البيد Elpidius » حاكم صقلية الذى ثار فى سنة ٧٨٢ ضد الامبراطورة ايرين وأعلن نفسه امبراطورا ، ثم انه عندما انهزم هرب لاجئا الى افريقية(٣١) .

الأغالبة يتعرفون على صقلية ، وغيرها من الجزر :

وفى سنة ٢٠١ هـ/٨١٦ م ، على عهد زيادة الله الأول ، جهز الأمير جيشا فى البحر فى مراكب كثيرة الى سردانية . وتقول الرواية ان نجاح هذه الحملة لم يكن تاما ، اذ عطبت بعض المراكب بعد أن غنمت الروم فى الجزيرة وقتلوا الكثيرين منهم ، مما دعا زيادة الله الى مكافأة من وصل من الرجال سالما(٣٢) . ومع أن ابن الأثير يجعل غزو سردنيا هذه فى سنة ٢٠١ هـ/٨١٦ م كمقدمة لفتح زيادة الله لصقلية ، فاننا نجد فى حوليات ابن عذارى حملة أخرى لزيادة الله قريبة الشبه من تلك الحملة . اذ يظهر من الرواية أنها لم تكن موفقة تماما ، وذلك أن رجالها « أصابوا ، وأصيب منهم ، ثم قفلوا » ، دون اشارة الى الغنائم أو السبى(٣٣) .

وفى سنة ٢٠٤ هـ/٨١٩ م سير زيادة الله قريبه أبا العباس محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الأغلب بن سالم لغزو صقلية ، قبل غزوها على يدى أسد بن الفرات(٣٤) ، وبذلك يكون قد قطع الهدنة التى عقدها قبل ست سنوات مع قائد الجزيرة البيزنطى(٣٥) .

وهكذا ، بفضل تلك الحملات ، وغيرها مما سقط من حوليات افريقية والمغرب ، كان العرب قد تعرفوا على صقلية وغيرها من جزر البحر ، مثل :

---

(٣٠) ابن الأثير ، المكتبة ، ص ٢٢٠ .
(٣١) انظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٥ .
(٣٢) ابن الأثير ، المكتبة ، ص ٢٢١ .
(٣٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٧ .
(٣٤) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨١ ، المكتبة ، ص ٣٢٧ .
(٣٥) انظر فيما بعد ص ٢٦٤ ، هـ ٨٢ .

سردانية وكورسيكا · واذا كانت هذه الجزر قد ظهرت فى بعض الأحيان كقواعد للروم يمكن أن تهدد الملاحة التجارية العربية فى البحر المتوسط ، كما يمكن أن تهدد أيضا سواحل المغرب ، فانها كانت قد صارت بالنسبة لعرب المغرب أرض المغانم الكثيرة والسبى البديع ·

وبناء على كل ذلك لم يكن من الغريب أن يفكر زيادة الله الأول فى غزو صقلية بشكل نهائى فى سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ، رغم ما كان يصادفه من المتاعب الداخلية ، المتمثلة فى الثورات والاضطرابات التى لا تعد ، فى داخل مملكته · والظاهر انه عندما قرر القيام بتلك المغامرة ، كان يزمع اصطياد عصفورين بحجر واحد ، كما يقال · فمن جهة كان سيفتح بلادا جديدة ينتزعها من الروم ويضمها الى مملكته اى الى أرض الاسلام ، ومن جهة ثانية كان يمكنه أن يوجه حماس أهل افريقية من المقاتلين نحو الجهاد فى بلاد الروم ، فيتخلص مما كانوا يسببونه له من المتاعب ، ويحقق لبلاده ما كان يصبوا اليه من الأمن والاستقرار · وقبل أن نتكلم فى فتح الجزيرة يحسن أن نعرف بأحوالها قبيل الفتح ، فهذا الى جانب ما ذكرناه من الغارات التمهيدية ، يعتبر المدخل المعقول لدراسة الموضوع ·

صقلية ، كما عرفها الكتاب العرب
البلاد والسكان

١ ـ البلاد :

الاسم : صقلية :

فسر الكتاب العرب اسم الجزيرة « صقلية » حسب منهجهم القديم الذى ينسب البلاد والجماعات الى أجداد حقيقيين او اسطوريين ، تماما كما قالوا :

ان افريقية نسبة الى الملكة افريقية أو الملك اليمنى القديم افريقس(٣٦) ، وان اسبانيا نسبة الى قوم سكنوها فى القديم هم الأسبان أو نسبة الى الملك اشبان ، أو أن الأندلس نسبة الى قبائل الجرمان المعروفة بـ « الوندال »(٣٧) ·

ففى ضوء هذه النظرية قالوا : ان صقلية سميت باسم الملك « شيقلو » ، كما سميت ايطاليا باسم أخيه « ايطال » · وفى ذلك لم يتردد بعضهم فى

(٣٦) انظر اخبار عبيد بن شرية فى كتاب التيجان لوهب بن منبه ، ص ٣٣٢ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ (نسبة الى افريقس بن ابرهه) ·

(٣٧) الحميرى صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣ ·

القول أن جريرة صقلية كان يسكنها في قديم الدهر أمه همله ، تأكـــل الناس · أو انه كان فيها جنس من المسوخ بعين واحده في وسط جباههم ، يسمون صقلوفس(٣٨) ، وهي الأسطورة اليونانية الأصل على ما تظن ، اد بجد لها شبيها في أوديسة هوميروس ·

فكان اسم صقلية مشتق من اسم « صيقلوفس » أو « صيقلو » أو « سيقلو » الذى نرى أنه نفس اسم « شيقلو »(٣٩) · هذا ، كما نجد اسم صقلية بالسين في « سقلية » و « سكيلية » ، والصـــاد في « صـــقلية » و « صيقيلية »(٤٠) كما نجده مهموزا في شـــكل « اصقلية » أيضـــا ، و « اسقلية »(٤١) ·

الموقـــع :

وتشغل صقلية موقعا جغرافيا ممتازا بفضل وجودها بين ذراع شبه جزيرة ايطاليا ، الممتد من وسط أوروبا جنوبا في قلب البحر المتوسط ، وبين دراع القارة الافريقية الشمالي الذى يمثل قلب ولاية افريقية العربية أو البلاد التونسية الحالية ، والذى يمتد شمالا في مقابل ايطاليا · وبفضل هذا الموقع تكاد جزيرة صقلية تربط بين سواحل أوروبا وسواحل بلاد المغرب ، وان كانت الجزيرة أقرب الى سواحل ايطاليا الجنوبية ، في اقليم كلابريا الذى عرفه العرب باسم « قلورية » ·

---

(٣٨) البكرى · جغرافية الأندلس وأوروبا ، تحقيق عبـــد الرحمن حجى ، ص ٢١٧ (والمحقق يقرأها في شكل جقلوفس) ·

(٣٩) نحن نرى أن الشين في شيقلو كانت سينا في الأصـــل لأن الشين والسين كثيرا ما تختلطان في اللغة العربية وتحل الواحدة منهما محل الأخرى · أما عن القين فالغلب الظن أنها جيم ، كما تنطق في اللهجة المصرية ، ثم انها انقلبت الى غين ، كما في بعض اللهجات العربية · ولا بأس في أن تكون الـ « جيم » في الكلمة حرف « قا ف» أصلا · فكان كلمـــة « شيقلو » هي تحريف لكلمة « سيقلو » ، وهو الأمر المقبول ·

(٤٠) انظر المكتبة الصقلية ، من كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة ، ج ١ ص ١٦٣ هـ ٥ ، ص ١٦٤

(٤١) وذلك لأن حرف الصاد الأول كان ينطق ساكنا ، في شكل « صقلية » ، وهـــو الأمر الغريب على اللغة العربية ، فوضعت الهمزة قبل الصاد ، وذلك ، كـــما كانت تكتب طرابلس في شكل اطرابلس ، أو كما ينطق اسم « محمد » في بعض اللهجات في شـــكل « امحمد »

فمضيق مسينا ، بين شمال الجزيرة وبين كلابريا ، لا يتجاوز اتساعه في الموضع الضيق منه ٣ (ثلاث) كيلو مترات ، حتى أن الواقف في مسيني، على ساحل صقلية يرى من في ريو على ساحل ايطاليا(٤٢) • ولهذا عرف مضيق مسينا ، مثله في ذلك مثل مضيق جبل طارق ، باسم « المجاز » ، كما عرف على وجه التخصيص باسم « مجاز الفارو » اى مجاز المنار ، نسبة الى ضوء نار البركان القريب ، الذى كان يستضاء به في السفر على أكثر من مائة فرسخ ، في البر وفي البحر على السواء(٤٣) •

اما عن المسافة بين جنوبي صقلية وبين أقرب سواحل افريقية اليها ، وذلك في شبه جزيرة شريك في شمال البلاد التونسية ، فانها تصل الى ١٢٠ (مائة وعشرين) كيلو متر(٤٤) • هذا وتوجد بين صقلية وسواحل البلاد التونسية أعداد من الجزر الصغيرة ، من أشهرها جزيرة قوصرة أو قوصرا ، بين ساحل مدينة المهدية والركن الجنوبي الغربي لصقلية ، حيث مدينة مازر ، وبينها وبين مازر مجرى واحد أى حوالى ٦٠ ميلا • وقوصرة هي المعروفة حاليا باسم جزيرة « بنطلارية »(٤٥) •

وهكذا كانت صقلية ، بفضل موقعها الوسط بين ايطاليا والبلاد التونسية ، وبفضل الجزر الصغيرة بينها وبين سواحل افريقية ، معبرا طبيعيا ما بين السواحل الأوربية والسواحل الافريقية ، على طول العصور التاريخية •

الشكل :

الساحل الشرقي :

وصقلية جزيرة على شكل مثلث طوله مسيرة ٧ (سبعة) أيام وعرضه

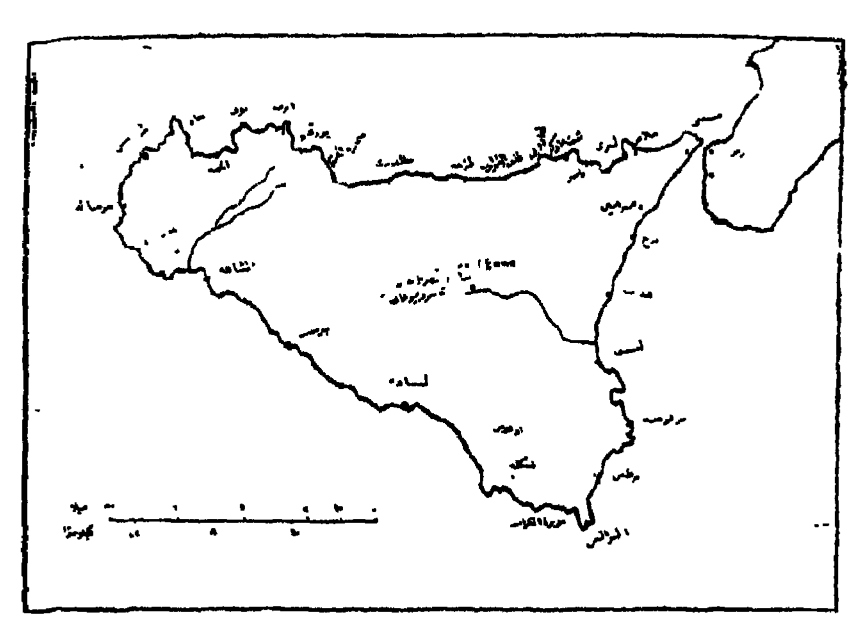
---

(٤٢) ياقوت معجم البلدان ، ط اوروبا ج ٤ ص ٥٣٥ (ص مسيني) ، ابن جبير ، المكتبة الصقلية ، ص ٧٨ •

(٤٣) المسعودي التنبيه والاشراف ، المكتبة الصقلية ص ٢ ، معجم البلدان ، ط اوروبا ج ٣ ص ٤٠٦ ، ابن جبير ، المكتبة الصقلية ، ص ٨٢ •

(٤٤) انظر احمد المدنى ، المسلمون في صقلية ، ص ٨ • وهي عند الكتاب العرب تعادل مجريين (١٢٠ ميلا) أو يومين بالريح الطيبة • ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٤٠٦ •

(٤٥) البكرى ، صفة الأندلس واوروبا ، ص ٢٢٦ وهامش المحقق • ياقوت ، المعجم ج ٤ ص ٢٠٠ •



شكل رقم (١)

جزيرة صقلية ، توزيع المدن تبعا لرواية الادريسى

مسيرة ٤ (أربعة) أيام[٤٦] • ومدينة مسينة (Messina) تمثل رأس المثلث الشمالى ، فى مقابل مدينة ريو (Reggio) فى كلابريا ، ومنهـا ينحدر الشاطىء الشرقى ، الذى يوصف بأنه ساحل صخرى لا خلجان فيه الى مدينة قطانيا (Catania) [٤٧] التى عرفت أيضا بـ « قطاليا » ، كما عرفها الكتاب العـرب باسم « مدينة الفيـل »[٤٨] ، مارا بطبرمين (Tabrmina) على بعد مرحلة (٢٥ ميلا) ، ثم بـ « لياج » عـلى مرحلة أخرى[٤٩] • وفى قطانيا يصبح الساحل رمليا ، وهو يستمر جنوبا ، الى

(٤٦) ابن حوقل ، المكتبة الصقلية ، ص ، • وانظر ياقوت ، المعجم ، ج ٣ ص ٤٠٣ ، والمكتبة ص ١١٤ - وهنا ينبغى الاشارة الى أهمية رواية ابن حوقل الذى يتحرى الدقة أكثر • فيقول انها على شكل مثلث متساوى الساقين ، زاويته الحادة من غربى الجزيرة • انظر معجم ألبلدان ، ج ٣ ص ٤٠٩ (حيث ينقل رواية ابن حوقل الذى يصفه بالتاجر) •

(٤٧) انظر أحمد المدنى ، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، ص ٩ •

(٤٨) الادريسى ، المكتبة الصقلية ، ص ٣٥ •

(٤٩) الادريسى ، المكتبة الصقلية ، ص ٣٣ — ٣٦ •

قلعة « لنتيني » على بعد مرحلة ، الى مدينة سرقوسة (Siracusa) - عاصمة الجزيرة القديمة ، التي يعرفها الكتاب العرب بمدينه أرشميدس ، صاحب نظرية كثافة الأجسام الطافية او الوزن النوعي[٥٠] .

ومن سرقوسة الى قلعة نوطس (Noto) مرحلة ، وهي على بعد ٨ (ثمانية) أميال من البحر ، وبين نوطس والبحر حصن قسباري . ثم الى طرف الجزيرة في هذا الساحل الشرقي ، حيث لا يوجد عمران ، وهو الطرف الذي يسمى « البوالص » ، مرحلة .

الشاطيء الجنوبي :

ومن البوالص يبدأ الشاطيء الجنوبي[٥١] حيث يمر بقلعة « شكلة » ، على ٧ (سبعة) أميال (وشكله في الداخل على بعد ٣ أميال من البحر) ، ثم قلعة آرغوص (Ragusa) على ١٣ ميلا (وهي أيضا في الداخل على بعد ٧ اميال من البحر) ، ثم حصن لنبياذة على بعد مرحلة - وهي على بعد مرحلة أيضا من جرجنت (Agrigento) (التي تبعد عن البحر ٣ أميال) .

ومن جرجنت الى « الشاقة » مرحلة (والشاقة أول عمل قلعة البلوط على ٩ أميال من الشاقة) ، ثم الى مازر (Mazara) مرحلتان . ومن مازر ١٨ ميلا الى « مرسى » أو « مرسى على » ، وهي مرسالا حاليا ، ثم الى طرابنش (Trapani) على بعد مرحلة خفيفة[٥٢] . وفي مقابل طرابنش التي تنتهي عند الساحل الجنوبي ، تقع جزر : الراهب ، واليابسة ، ومليطة[٥٣] .

الشاطيء الشمالي :

ومن طرابنش ، ذات المرسى الساكن الذي كان مشتى للسفن ، يبدأ الشاطيء الشمالي الصخري من الغرب الى الشرق في اتجاه العاصمة بلرم (Palermo) ، مارا بجبل حامد على بعد ١٠ (عشرة) أميال ، ثم الحمة

---

(٥٠) الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٣٦ ، وعن سرقوسة انظر ياقوت ، معجم البلدان ج ٣ ص ٨١ ، وعن وصف الساحل الشرقي انظر احمد المدني ، المسلمون في صقلية ، ص ٦٠ .

(٥١) الادريسي ، المكتبة ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٥٢) المرحلة الخفيفة عند الادريسي تزيد على ٢٠ ميلا وتقل عن ٢٩ ميلا .

(٥٣) الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٣٨ - ٤١ ، احمد المدني ، المسلمون في صقلية ص ٦٠ (عن وصف الساحل الجنوبي) .

(وهي قلعة حصينة على بعد ثلاثة أميال من البحر ، بها حامة حامية عذبة الماء معتدلة السخونة كان يستحم فيها الناس) التي تقع على مرحلة من طرابنش ، ثم قلعة « أولى » على بعد ١٠ (عشرة) أميال ، ثم بلدة برطنيق على بعد ١٢ ميلا (ومنطقتهاغنية بزراعة القطن والحناء) ثم شنس على بعد ٨ أميال ، ثم بلدة قرينش (الغنية باللوز والتين الناشف والخروب) . ومن قرينش الى بلرم ١٢ ميلا(٥٤) .

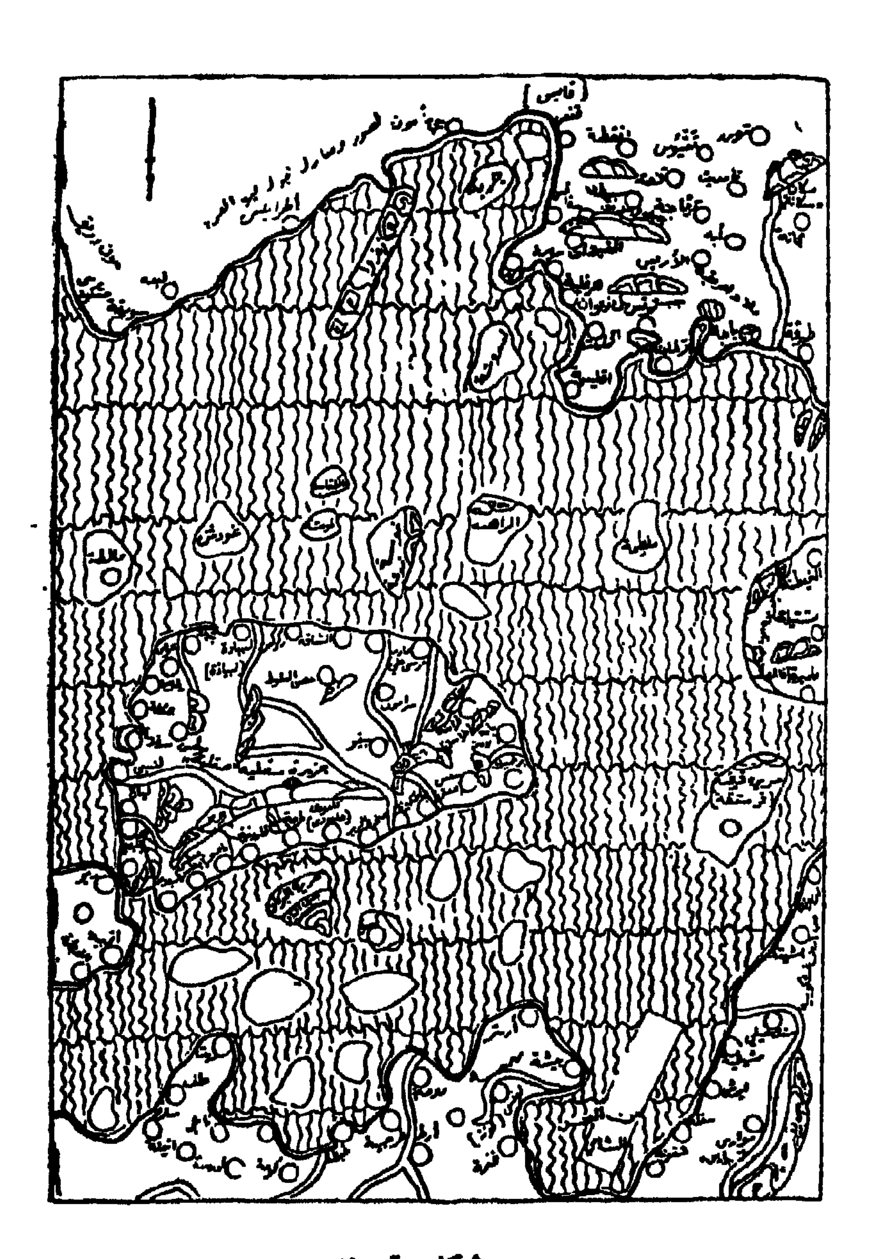
ومن بلرم الى مسينا ، حيث يسير الساحل فى اتجاه الشرق فى شكل أفقي ، يعدد الادريسي ١٠ (عشرة) مواضع ما بين حصن وبلدة لطيفة ، هي . حصن بورقاذ على بعد ١٢ ميلا ، وصخرة الحرير (الداخلة فى البحر) على بعد ١٢ ميلا ، وحصن جلفودى (الذى يشبه المدينه) على بعد مرحلة . وحصن طزعة (القابع على سفح جبل منيع) على بعد مرحله وقلعة القوارب على بعد ١٢ ميلا ، وبلدة القارونية (التى تعتبر اول اقليم دمنش) على بعد ١٢ ميلا ، وبلدة شنت ماركو (التى اشتهرت بحريرها وسمسمها ، وبصناعة المراكب من خشب جبلها) على بعد ١٠ (عشرة) أميال . وحصن ناصو على بعد ١٠ (عشرة) أميال ، وبلدة بقطش على بعد ١٢ ميلا ، ثم بليدة ليبرى على مسافة ٣ أميال ثم حصن ميلاص (الذى كان كبير الكتان الطيب ، وفى مياهه يصطاد التن الحنيل) على بعد ١٢ ميلا .

وبعد ميلاص تأتي مسيني ، على بعد مرحلة فى نهاية الشاطىء الشمالى ، وفى رأس المثلث . حيث يلتقى الشاطىء الشمالى بالشاطىء الشرقى فى مقابل بلدة ريو فى قلورية(٥٥) .

وهكذا يعدد الادريسي المواضع الرئيسيه على كل من شواطىء صقلية التى تكون أضلاع شكلها المثلث . وطول الجهة الشرقية من الجزيرة التى تمتد من مسيني الى البوالص أو جزيرة الارنب ٢٠٠ (مائتى) ميل ، والجهة الجنوبية من طرف جزيرة الأرنب الى طرابنش طولها ٤٥٠ (أربعمائة وخمسون) ميلا ، وهذا الشاطىء هو اطول أضلاع المثلث ، أما الجهة الشمالية ، من اطرابنشى الى المجاز أو الفارو ، فطولها ٢٥٠ (مائتان وخمسون) ميلا(٥٦) . والادريسي يخصص دراسة تفصيلية لكل مراسى تلك

---

(٥٤) الادريسي ، المكتبة ، ص ٤١ - ٤٣ .
(٥٥) انظر الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٨ - ٣٣ .
(٥٦) الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٧٦ .



شكل رقم (٢)

صقلية بين افريقية وقلورية ـ كما رسمها الادريسي

الشواطئ من كبيرة وصغيرة ، وتحدد المسافات بينها ، بحيث يذكر لنا على الساحل الشرقي أكثر من ٤٠ (أربعين) مرسى تتراوح المسافات فيما بينها ، على الجملة ، من ميل واحد الى ٢٥ ميلا • أما المسافات بين معظمها فهي ما بين ٦ أميال و ١٢ ميلا(٥٧) • ويعدد من مراسي الساحل الجنوبي من مرسى البوالص الى طرابنش أكثر من ٣٧ مرسى(٥٨) • ومن مراسي الساحل الشمالي ما بين مسيني وطرابنش يعدد أكثر من أربعين مرسى(٥٩) •

أما عن مدن الداخل فأهمها : علقمة (Alcamo) في الركن الغربي من الجزيرة ، وقصر يانة (Castro Giovanni) وهو الإسم المشتق من انا (Enna) اسمها القديم ، وقلعة أبيس (Caltani Setta) ، وقلعة جيروبة (Caltagirone) التي تقع في جنوب منتصف المسافة مابين قطانيا وجرجنت(٦٠) •

الوصف :

جزيرة الخصب والعمران :

وبفضل موقع صقلية الجزري في وسط البحر المتوسط ، في الاقليم المعتدل الرابع والخامس — حسب تقسيمات الجغرافيين العرب التي أخذوها عن بطليموس — وبفضل جبالها وكثرة مياهها ، كانت في نظر العرب صنوة الأندلس من حيث : غناها الزراعي والحيواني ، وكذلك المعدني • فهي عند المقدسي : « جزيرة واسعة جليلة ليس للمسلمين جزيرة أجل ، ولا أعمر ، ولا أكثر مدنا منها(٦١) • وبها من الخصب والزروع والمواشي والرقيق ما يفضل عن سائر مدن الاسلام المتاخمة للبحر ، كما يقول الاصطخري(٦٢) •

أما ابن حوقل الذي زار الجزيرة في سنة ٣٦٢ هـ/٧٢ — ٩٧٣ م ، فيقول ان الغالب عليها الجبال والقلاع والحصون ، وان جميع أرضها مسكونة

---

(٥٧) الادريسي • المكتبة الصقلية • ص ٦٨ — ٧٠ •
(٥٨) الادريسي • المكتبة الصقلية • ص ٦٧ — ٦٩ •
(٥٩) الادريسي • المكتبة الصقلية • ص ٦٦ — ٦٧ ، ٧٠ — ٧١ •
(٦٠) انظر ماركيو موروبو • بيروت ١٩٥٧ • ص ٢ •
(٦١) احسن التقاسيم • ط • بريل ١٩٠٦ • ص ٢٣٢ •
(٦٢) الاصطخري • المسالك • المكتبة الصقلية • ص ٢

مزروعة(٦٣) . وهي في وصف البكري الأندلسي : كثيرة الزرع والضرع والفواكه(٦٤) . والادريسي ، الذي رسم خريطتها مبينا مدنها وقراها وأنهارها ، مما أشرنا الى بعضه ، يصفها قائلا « ان جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلا ومحاسن ، ووحيدة البلدان طيبا ومساكن ، وقديما دخلها المتجولون من ساير الأقطار ، والمترددون بين المدن والأمصار ، وكلهم أجمعوا على تفضيلها ، وشرف مقدارها وأعجبوا بزاهر حسنها ، ونطقوا بفضائل ما بها ، وما جمعته من مفترق المحاسن ، وضمته الى خيرات سائر المواطن(٦٥) .

ابنة الأندلس :

أما ابن جبير ، الرحالة الأندلسي ، فقد قال في وصفه لصقلية : « وهي كثيرة المدن والعمائر والضياع ، وتسميتها تطول ... وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف ، وكفى بأنها ابنة الأندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة ، مشحونة بالأرزاق على اختلافها ، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها . وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط ، والبندق ، والاجاص ، وغيرها من الفواكه(٦٦) .

ومما نقله ياقوت عن صقلية : « وهي كثيرة المواشي جدا ، من : الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والحيوان الوحشي . وأن بها جميع الفواكه على اختلاف أنواعها ، وأن كلأها لا ينقطع صيفا ولا شتاء ، وأرضها تنبت الزعفران » . وهو يضيف : « وليس فيها سبع ولا حية ولا عقرب »(٦٧) ، مما يميزها على سائر البلدان .

الثروة المعدنية :

والمهم أن صقلية كانت تتميز عن كثير من بلاد العرب بانها كانت غنية بمعادنها التي تمثلت ، في : الكبريت والحديد والذهب والنحاس والرصاص والزئبق والنوشادر والنفط وغيرها ...

---

(٦٣) ابن حوقل ، المسالك ، المكتبة الصقلية ، ص ٤ .
(٦٤) البكري ، جغرافية الأندلس واوروبا ، ص ٢١٤ .
(٦٥) الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٥ .
(٦٦) ابن جبير ، المكتبة الصقلية ، ص ٨٢ .
(٦٧) معجم البلدان ، ج ٣ ص ٤٠٧ .

جبـــل النار :

وأول ما كان يثير انتباة الكتاب العرب ، كما آثار انتبـــاه اليونان والروماں قبلهم ، هو بركان صقلية الشهير . الدى عرف عند العرب باسم « جبل النار » ، كما عرف باسم « الأطمة » أى عن النار النى تنبـــع من الأرض(٦٨) • وهو بركان أتنا المشهور الذى يصل ارتفاعه الى أكثر من ٣ (ثلاثة) آلاف متر • ورغم أنه كان بركانا هامدا الا انه كانت له ثورات وغضبات ما بين الحين والحين ، ولو أن المقدسى حدد الزمن ما بين الفـــورة والأخرى بعشر سنوات(٦٩) •

الحجر الخفاف والذهب :

وكان البركان يقذف اللهب الذى كان يتساقط مكونا الحجر الخفاف ، الذى كان يطفو ما يقع منه فى البحر على سطح الماء ، وهو فى شكل حجر اسفنجى أسود اللون ، بينما الذى يسقط منه فى البر يكون أبيض واصفر ووردى اللون ، فى « هيئة الشهد وأكواز النحل الصغيرة » • وكان الأسود من هذا الحجر يستخدم لحك الأرجل فى الحمام ، ولهذا سمى بحجر الرجل ، كما كان يستخدم الأبيض منه مثلما تستخدم المحاة فتحك به الكتابة من الدفاتر والرقوق ، ومنه ما كان يعـــرف ب « الفسك » ، وما كان يسمى ب « القيسور »(٧٠) •

هذا ، كما كان الذهب يستخرج من بعض المناجم فى جبل البركان ، ولهذا السبب عرف جبل النار أيضا ب « جبل الذهب »(٧١) •

الكبريت :

ومما عده الكتاب من عجائب صقلية أيضا معدن الكبريت الأصفر ، الذى وصف بأنه لا مثيل له بموضع آخر • ومنجم الكبريت لم يكن بعيدا من جبل النار ، وكان له : « قطاعون عالمون يتنـــاولون ذلك ، قد تمرطت

---

(٦٨) انظر المسعودى ، مروج الذهب ، المكتبة الصقلية ، ص ١ ، والتنبيه والاشراف ، المكتبة ص ٢ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٤٠٧ ، ج ٤ ص ٥٥٥ •

(٦٩) أحسن التقاسيم ، ص ٢٤١ •

(٧٠) المسعودى ، مروج الذهب ، المكتبة ، ص ١ ، التنبيه والاشراف ، المكتبة ، ص ٢ – وقارن تحفة الألباب ونخبة الاعجاب لأبى حامد الغرناطى ، المكتبة ، ص ٧٤ •

(٧١) القزوينى ، عجائب المخلوقات ، المكتبة ، ص ٢٣٩ •

شعورهم ، ونصلت أظفارهم من حرة ويبسة » • وكانوا « يجدونه فى بعض الأيام سائلا متميعا ، فيتخذون له في الأرض مواضع يجتمع فيها » ، كما كانوا « يجدونه في غير ذلك الأوان قد تحجر فيقطعونه بالمعاويل »(٧٢).

وكان الكبريت يوجد أيضا في جنوب شرقي صقلية في : جرجنت وفي الشرق في : قطانيا ، وفي الشمال الشرقي ، حول بلرم •

النفط :

والنفط (البترول) كان معروفا في الجزيرة أيضا ، وكان يستخرج من بعض الآبار بالقرب من قلعة الميثا » ، غير بعيـــد من سرقوسة • وكان للنفط موسم معلوم من السنة يظهر فيه على سطح الماء في تلك الآبار ، وذلك في أواخر الشتاء وبدء الربيع خلال ثلاثة أشهر ، هي : شباط (فبراير) وآذار (مارس) ونيسان (ابريل) •

أما عن كيفية استخراجه : فكان للآبار درج ينزل عليه الرجل من العاملين في استخراج النفط ، وقد خمر رأسه ، أى غطاها بقطعة من القماش كالخمار أو النقاب • « ويسد مسام أنفه ، وان تنفس في البئر هلك في ساعته » • وما أخرج من النفط « وضع في قصار (أى آنية فخار) فيعلو الدهن منه ، وهو المستعمل »(٧٣) •

ومن معادن صقلية المشهورة النوشادر الأبيض الذى كان يرفع الى بلاد الأندلس رغم وجوده هناك ـ وكذلك الى مصر • ولو أن أهل مصر استغنوا عنه بعد ذلك بتراب الحمامات ، كما يقول المقدسى(٧٤) •

٣ ـ السكان :

لما كانت صقلية ، بفضل موقعها الجغرافى ، فى منتصف البحر المتوسط ، أشبه بمعبر بين أوروبا وافريقية ، لم يكن من الغريب أن يطرأ على تكوينها البشرى الكثير من التغيير والتبديل ، تبعا لمجريات الأحداث فى حوض البحر

---

(٧٢) البكرى ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٢١٥ ، وانظر رواية البكرى ، كما نقلها ابن الشباط ـ المكتبة الصقلية ـ ص ٢١٠ •

(٧٣) البكرى ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٢١٦ •

(٧٤) احسن التقاسيم ، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ •

المتوسط ، وفي كل من الساحلين المشرفين على الجزيرة ، سواء في أوروبا أم في افريقيا ، حتى صارت قصة الجنس الأصـــلي لســكان صقلية ، وهم الصيقلو أو الصقليون أشبه بقصة أسطورية ، كما رأينا(٧٥) ٠

ومنذ القديم عرفت الجزيرة الفينيقيين ، واليونان ، والقرطاجيين ثم الرومان الايطاليين ، وقبائل العرب من : الجرمان والوندال ، قبل أن تدخل في نطاق الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وهي بيزنطة او دولة الروم كما عرفها العرب ، وذلك عندما استرجعها بليزاريوس من أيدي الوندال ، هي وولاية المغرب حوالي سنة ٥٣٠ م(٧٦) ٠

ومع أنه مما لا شك فيه أن مجيء كل موج من الغزاة أو المهاجرين كان له أثره على التركيب البشري لسكان الجزيرة وعلى لغتهم ، فان جمهرة السكان ظلت ذات طابع بشري ولغوي ومزاجي خاص بها ، يعرفها — على كل حال — عن جنس الغزاة ، سواء كانوا من الفينيقيين أو اليونان او القرطاجنيين أو الرومان والروم ٠ ومثل هذا سيحدث على أيام العرب أيضا ، وان كان الى حد محدود ، بسبب التغييرات الأساسية التي طرأت على اهل كل البلدان التي دخلت في حوزة الدولة الاسلامية ، اذ صاروا عربا أولا وقبل كل شيء ٠

روم افريقية يعمرون صقلية :

وفيما يتعلق بروم صقلية يقـــول يافوت : ان الجزيرة كانت قليلة العمارة ، خاملة قبل الاسلام ٠ فلما فتح المسلمون بلاد المغرب ، هرب أهل أفريقية اليها فأقاموا بها يعمرونها ، فأحسـنوا — حتى فنحت في أيام بني الأغلب(٧٧) ٠

وهذه الفقرة الأخيرة تدل على الصله الوثيقة بين افريقية وصقلية ، على عهد البيزنطيين قبيل دخول العرب الى المغرب ٠ وهي تبين أن الصبغة الرومية البيزنطية كانت الغالبة على أهل صقلية ٠

---

(٧٥) انظر فيما سبق ، ص ١٩٧ ٠

(٧٦) انظر احسان عباس ، العرب في صقلية ، ط٠ دار المعـــارف بمصر ، ص ٢٥ ، مارتينو موريمو ، المسلمون في صقلية ، ص ٢ — ٦ ٠

(٧٧) انظر معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٠٧ — وقريب من هذا ما يقوله الدمشقي ، في نخبة الدهر وعجائب البر والبحر ، عن صقلية ، "وهي جزيرة وهي حيال افريقية ... فلما كانت في ايدي المسلمين كانت حاضرة من العلم ، كثيرة العلمـــاء والأدباء والفضلاء" مقدمة الاندلس — المكتبة الصقلية ، ص ١٤٤ ٠

ولا شك أن فكرة صقلية الرومية هي التي جعلت العرب يجعلونهــــا بلد كبار مفكري اليونان القدماء . فبلرم هي بلد ارسطاطاليس الذي كان معلقا في خشبة في هيكلها(٧٨) . والفيلسوف فرفوريوس ، صاحب كتاب المدخل الى كتب ارسطاطاليس المعروف باسم « اليساغوجي » ، هلك فيهــا في جبل النار(٧٩) ، وكان بها كذلك قبر جاليوس(٨٠) .

والرواية تبين أيضا أنه اذا كان روم افريقية قد غادروا البلاد وانتقلوا الى صقلية يعمرونها ، فلم يكن من العسير على العرب بعد أن استقروا في افريقية أن يتبعوهم الى هناك ، وأن يتابعوا ذلك العمران في شتى المجالات .

---

(٧٨) مراصد الاطلاع - للبكري ، المكتبة ، ص ٣٣٧ . كتاب جغرافية مجهول ، المكتبة ص ١٢ .

(٧٩) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، المكتبة ، ص ٢ ، مروج الذهب ، المكتبة ص ١ - ٢

(٨٠) عن البكري ، كما نقله ابن الشباط ، المكتبة ، ص ٢١٠ .

فتح الأغالبة لصقلية

المقدمـــات :

صقلية : دار أهل العهد :

كانت صقلية اذن ، بعد فتـــح العرب للمغرب ، مركزا للأســـطول البيزنطي ، يهدد منه سواحل المغرب العربية ومراكب التجـار العرب(٨١) ، كما كانت أيضا ملجأ لأعداء العرب من روم افريقية الذين تركوا البلاد ، واستقروا في الجزيرة ، وعملوا - وهم يكنون العداء للعرب - عـــلى زيادة انتعاشها الاقتصادى الذى جعل منها توأمة الأندلس • وكان كل من هذين العاملين كافيا ، وحده ، لكى يفكر العرب جديا فى غزو الجزيرة عندما أصبحوا قوة بحرية تستطيع مناوأة الروم فى البحر • وهكـــذا بدأت الغــارات الاستطلاعية السابقة على صقلية وغيرها من جزر البحر ، مثـــل : سردينيا وكورسيكا ، وهى الغارات التى كانت تنتهى فى كثير من الأحيان بالصلح ودفع الجزية للعرب • وبذلك لم تعد صقلية أرض العـــدو وبلاد المغـــانم والسبى فقط ، بل بلاد المعاهدين من أهل الذمة أيضا •

هذا ، ولو أن المصادر لا تمدنا بتفصيلات عما كان يتم بين الروم والعرب من المعاهدات، مما يعنى أن أهل ذلك العصر لم يكونوا يستسيغون قيام السلام بين الروم ودولة الاسلام ، حتى كانت تلك المعاهدات تتم بما يحفظ سريتها ، من : الخفاء والكتمان •

ذلك ما يتضح من دراسة الأسباب التى أدت الى غزو الأغالبة لصقلية ، على عهد الأمير زيادة الله الأول ، فى سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م • حقيقـــة أن اضطراب الجند الأغلبى ، وعدم الاستقرار الذى عرفته معظم ولايات افريقية يمكن أن يكون من الأسباب التى حدت بالأمير الى توجيه نشاط جنده ورعاياه نحو الجهاد فيما وراء البحار فى صقلية ، بدلا من صرفه فى الفتن والتقاتل

---

(٨١) انظر فيما سبق ، ص ١٩٥ •

فيما بينهم • ولكن لكي ينجح الفتح في صقلية ، كان الأمر يتطلب اعـــدادا عسكريا على مستوى مناسب للعملية الكبيرة ، كما كان يتطلب تغطية قانونية تسمح بنقض معاهدة السلام التي كانت معقودة بين روم صقلية من جهة وبين الأغالبة من جهة اخرى ، منذ أيام أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب الأمير السابق(٨٢) •

الصقليون ينقضون الصلح :

ومن الواضح أن معاهدة السلام تلك كانت تقضي بأن يعيد الروم في صقلية كل من كان لديهم من الأسرى : من الجند أو من أهل افريقية(٨٣) • وهو الأمر الذي قام حوله جدل في افريقية في أواخر سنة ٢١١ هـ أو أوائل سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ، عندما حضر القائد البيزنطي فيمي (أوفيميوس Euphemius) الذي كان خارجا على امبراطور القسطنطينية مع بعض انصاره ، والذي كان يريد أن يستعدي زيادة الله على الروم في صقلية ، أو كان يريد أن يطلب منه معونة عربية ليستعيد بها سلطانه في الجزيرة ، فأعلن أن الروم خرقوا الهدنة في صقلية • وأنهم يحتجزون أعـــدادا من أسرى المسلمين هناك(٨٤) •

---

(٨٢) انظر المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٨٦ • والحقيقة ان ابراهيم بن الأغلب كان قد عقد الصلح — في سبيل تامين الملاحة العربية في البحر المتوسط — لمدة عشر سنوات مع القائد البيزنطي في صقلية ، وهو قسطنطين • ورغم تغير السياسة الأغلبية التي هدفت الى تقوية الامارة بحريا عن طريق الاهتمام الكبير بالأسطول مما أثار انتباه البيزنطيين في صقلية ، فان الأمر انتهى بعقد صلح جديد لمدة عشر سنوات بين أبي العباس عبد الله الذي خلف والده ابراهيم بن الأغلب وبين جريجوري القائد البيزنطي في صقلية ، وذلك في سنة ٨١٣ ، كما تم تبادل الأسرى ، وتقرر تامين سلامة التجار من الجانبين • انظر عزيز (أحمد) ، تاريخ صقلية الاسلامية : بالانجليزية ، ص ٥ •

(٨٣) انظر المالكي ، ج ١ ص ١٨٦ ، المكتبة ، ص ١٨٢ — حيث تقول الرواية على لسان سليمان بن عمران قاضي القيروان بعد سحنون (انظر فيما سبق ج ١ ، ص ٧٤ و هـ ٧٠ الذي كان قد حضر مع شيوخ القيروان كتاب الهدنة ، الذي قرىء على جماعة الناس ، وكان فيه : «ان من دخل اليهم من المسلمين وأراد أن يردوه الى المسلمين كان ذلك عليهم» •

(٨٤) انظر المالكي ، ج ١ ص ١٨٦ ، المكتبة ، ص ١٨٢ — وهذه الرواية منقولة أكثر من رواية القاضي عياض المقتضبة في المدارك (ص ٤٧٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٦) التي تجعل الرسل الذين حضروا الى القيروان ، هم : رسل طاغية الروم ، مما يتفق في نفس الرواية مع شك القاضي ابي محرز فيهم • ويؤيد رواية المالكي ما تنص عليه الروايات التي تقول ان فيمي ، بعد ان اخرجته جيوش القيصر من صقلية ، سار فصلا الى افريقية ليرى ال —

وجمع زيادة الله أهل الحل والعقد من مستشاريه ، ومن العلماء ، وعلى رأسهم قاضيا افريقية حينئذ ، وهما : أبو محرز وأسد بن الفرات ، لمناقشة أمر احلال روم صقلية بشروط الهدنة ، اذ احتجزوا بعض أسرى العرب ولم يطلقوهم حسب مقالة فيمي وأصحابه ، الذين كان بينهم واحد من المسلمين ، كما تقول رواية المالكي(٨٥) • ولا بأس أنه كان ترجمانا للروم ، اصطحبوه معهم • والظاهر أن فيمي وأصحابه أرادوا أن يظهروا بمظهر أصحاب الأمر الشرعيين في صقلية ، وهذا ما لم يخف على أبي محرز القاضي ، الذي رأى التروي في أمر تقرير خرق الهدنة حتى تظهر البينة(٨٦) •

وكان أبو محرز يرى عدم الأخذ بمقالة فيمي وصحبه ، على أساس عدم جواز قبول شهادتهم على أنفسهم أو على خصومهم من أبناء جلدتهم • أما أسد ابن الفرات الذي كان قد جمع ، الى العلم والفقه ، الشجاعة ـ حتى أنه كان يعد من بين شجعان افريقية في ذلك الوقت ـ والذي كان يميل الى نقض الهدنة ، فانه اعترض على تشكيك أبي محرز في شهادة فيمي وصحبه ، واعتبرهم رسل ملك الروم ، وقال في ذلك : « بالرسل هادناهم ، وبهم نجعلهم ناقضين » • وأضاف الى ذلك الآية التي تقول : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون » ، وأكد ما تدعو اليه الآية ، بقـــوله : « فنحن الأعلون »(٨٧) •

وعلى أساس فتوى أسد بن الفرات تلك تم نقض الهدنة مع الروم ، وبناء على ذلك قرر زيادة الله غزو جزيرة صقلية ، وهو الأمـــر الذي كرهه علماء افريقية وقتئذ ، لأنه لم يصح عندهم أن الروم نقضوا العهد(٨٨) •

صراعات داخلية في الجزيرة تمهد للفتح :

وهكذا كان فتح صقلية ، مثل فتح الأندلس ، نتيجة مباشرة لصراعات داخلية بين زعماء البلاد ممن طلب بعضهم معونة العرب ، أو سهلوا عليهم

= القيروان • انظر ياقوت ، معجم البلدان ط • أوروبا ، ج ٣ ص ٤٠٧ ، البكري • جغرافية الاندلس واوروبا ، ص ٢١٩ •

(٨٥) المالكي ، المكتبة ، ص ١٨٤ ، وعن اسد وابي محرز انظر فيما سبق ، ص ٦٦ وما بعدها •

(٨٦) المالكي ، ج ٣ ص ١٨٦ ، المكتبة ، ص ١٨٢ ، تراجم اغلبية ص ٦٦ •

(٨٧) انظر تراجم اغلبية ، ص ٦٦ ، المدارك ، ص ٤٧٧ ، المالكي ، ج ١ ص ٢٨٧ ، المكتبة ، ص ٢٨٢ ـ ١٨٣ •

(٨٨) المالكي ، ج ٢ ص ١٨٧ ؛ المكتبة ، ص ١٨٣ •

أمر الاستيلاء على الجزيرة . ففي سنة ٢١١ هـ/٢٦ - ٨٦٧ م . قام نزاع بين حاكم صقلية البيزنطي قسطنطين ، وبين فيمي قائد جيش الاسطول الذي تصفه رواية ابن الأثير المنقولة عن الرقيق - التي حافظ عليها النويري بشكل جيد ، بينما انطمست بعض معالمها عند ابن خلدون ، والتي يعتمد عليها ، على أساس أنها يونانية الأصل - بالحزم والشجاعة(٨٩) . وانتهى ذلك النزاع بأن هاجم فيمي بمراكبه سرقوسة العاصمة ، واستولى عليها بعد أن هزم قسطنطين الذي لجأ الى مدينة قطانيا القريبة على نفس الساحل الشرقي للجزيرة ، شمال سرقوسه ، حيث طاردته قوات فيمي وأخذته وقتلته .

وبموت قسطنطين آل حكم صقلية الى فيمي الذى اتخذ اللقب الملكي ، بمعنى اعلان الاستقلال عن الامبراطورية ، وعهد بولايات الأقاليم الى اتباعه ، وكان منهم القائد الأرمني بلاطة ، ابن عم ميخائيل حاكم مدينة بلرم . ولم يلبث بلاطه أن طمع بدوره في ملك الجزيرة فتحالف مع ابن عمه ميخائيل ، ونجح الاثنان في هزيمة فيمي ، وانتزاع سرقوسة من بين يديه - وهنا لم يجد فيمي ملجأ الا افريقية حيث كان الأمير زيادة الله(٩٠) .

حقيقة عرض فيمي ، واحتمالات النجاح والفشل ، ودور أسد بن الفرات :

في هذه الظروف ، وبصرف النظر عن نقض الصلح أو عدمه ، عرض القائد فيمي على زيادة الله أن يعاونه على فتح صقلية . وسهل له أمر ذلك ، ووعده - على ما نقل - بأن يكون تابعا له في الجزيرة ، الا اذا كان في نية فيمي الغدر بعد أن يساعده العرب ، وهو الأمر الذى يظهر من خشية العرب من وجوده في صفوفهم ، عندما نزلوا في الجزيرة . والظاهر أن زيادة الله وعددا لا بأس به من مستشاريه ، وعلى رأسهم القاضي أسد بن الفرات ، أرادوا انتهاز الفرصة ، ودفع حدود الاسلام في قلب البحر المتوسط ، بل والى السواحل الاوروبية بضم صقلية . ولكنهم كانوا مترددين في حساب الكسب والخسارة في المغامرة البعيدة فيما وراء البحر ، وخاصة أن القصد ، هذه المرة ، لم

---

(٨٩) وعن أسباب ثورة فيمي تقول الرواية البيزنطية انه أحب راهبة اسمها هوموفيزا وتزوجها رغم ارادتها . وعندما بلغ ذلك مسامع الامبراطور ميخائيل الثاني امر حاكم الجزيرة قسطنطين بمعاقبة فيمي وقطع انفه (انظر عزيز احمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٦) .

(٩٠) ابن الأثير المكتبة الصقلية ص ٢٢١ و ٢٢٣ - النويري المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٦ أ المكتبة ص ٤٢٧ . ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٩ ، والمكتبة ، ص ٤٦٦ .

يكن غارة عادية من تلك الغارات التى كانوا يقومون بها على صقلية وغيرها من الجزر القريبة منها ، مثل : سردانية وكورسيكا ، بل هـو الاستقرار والاستيطان فى الجزيرة •

يتضح ذلك من المناقشات التى دارت بين فقهاء افريقية الـذين اختلفوا فى الأمر ، فكره بعضهم غزو الجزيرة ، على أساس أنه لم يصح عندهم أن الروم نقضوا العهد(٩١) ، أو ما نصح به بعضهم ، عندما قالوا : نغزوها ولا نسكنها ، ولا نتخذها وطنا • ويظهر ذلك بشكل أوضح فيما ينسب الى فقيه افريقية وامامها الشهير سحنون بن سعيد ، من أنه : سأل العارفين بالمسألة عن المسافة بين صقلية وبلاد الروم ، وعن المسافة بينها وبين افريقية• وانه عندما عرف أن الانسان يروح مرتين وثلاثة فى النهار من ساحل صقلية الى ساحل بلاد الروم — والمقصود بذلك عبور مجاز مسينى الضيق — وان المسافة بين الجزيرة وبين افريقية : يوم وليلة ، أظهر عدم موافقته عـلى الغزو ، على أساس ان امدادات الروم ستكون قريبة جدا من الجزيرة ، بينما سيكون العرب بعيدين عن قواعدهم • وهكذا قال سحنون : « لو كنت طائرا ما طرت عليها »(٩٢) •

ترتب على ذلك أن انقسم الناس الى ثلاثة أطراف ، من
محبذين للغزو وراغبين فيه ، وعلى رأسهم أسد بن الفرات •
ومعارضين للمغامرة غير المضمونة ، وعلى رأسهم سحنون بن سعيد •

ثم جماعة الوسط ممن كانوا يودون الغزو ويخشون من القيام بالمغامرة• والمثل لهم زاهد افريقية وعابدها وقتئذ : عبد الرحيم بن عبد ربه الربعى ، الذى كان يعرف بعبد الرحيم المستجاب ، والذى كان فى أول أمره تاجرا فى سوق البزازين بالقيروان • فقد كان عبد الرحيم مترددا ما بين الخروج للغزو أو البقاء لاصلاح واعادة بناء رباط قصر زياد الذى كان يتردد عليه فى الساحل ، فاقنعه سحنون بأن يبقى ويبنى قصر زياد ليكون حـرسا

(٩١) انظر الصفحة السابقة •

(٩٢) النويرى • المخطوط • ج ٢٢ ص ٢٢٦ ب ، المكتبة • ص ٤٢٧ — ٤٢٨ حيث تسمى الرواية صاحب الرأى المعارض باسم : « ابن قادم » الذى ربما كان واحدا من أصـحاب سحنون • وعن ابن قادم الذى يظهر فى صورة واحد من قواد أسد فى صقلية وانه كان يحبذ العودة الى افريقية قائلا : « من حياة رجل مسلم أحب الينا من اهـل الشرك كلهم » ، انظر المالكى • ج ١ ص ١٨٨ ثم ص ١٨٩ ؛ حيث أدب أسد ابن قادم فضربه بالسوط •

للمسلمين ، وعونا لهم يلجأون اليه ، ويرابطون فيه(٩٣) •

رأى الشجعان ينتصر : أسد بن الفرات قائدا :

والمهم أن رأى جماعة المتحمسين للجهاد هو الذى انتصر ، فقرر زيادة الله القيام بالغزوة ، وأصدر أمره الى القائد البيزنطى فيمى وأصحابه بالتوجه الى سوسة ، قاعدة الفتح وأرض المحارس والرباط ، والاقامة فيها حتى يتم الاعداد للحملة ، ويستعد الاسطول(٩٤) • ولم يكن من الغريب أن يسند زيادة الله قيادة الحملة الى أسد بن الفرات ، الذى كان على فقهـــه وعلمه ، معدودا بين الشجعان ، والذى كان قد سبق له غزو سردانية بأمر زيادة الله ، وأشرف على فتحها ، كما تقول الرواية ، لـــولا حسد من كان معـــه من القواد(٩٥) •

الاجتهاد فى بناء السفن للحملة :

دار صناعة فى مقبرة سوسة :

ويظهر من سيرة أسد بن الفرات ، كما يعرضها كتاب تراجم علمـــاء افريقية ، أنه كان يتعجل الاعداد للحملة والمسير الى الجهاد ، حتى قيل : انه كان يشعر بتثاقل زيادة الله فى ذلك ويشكو منه(٩٦) • هذا ، ولو أننا نجد فى تراجم غير أسد من العلماء بعض التفصيلات الطريفة عما كان يقوم به زيادة الله من تجهيز الاسطول فى سوسة • ففى ترجمة يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسى ، دفين سوسة ، يتضح أنه لما أمر زيادة الله بانشاء المراكب

---

(٩٣) انظر المالكى ، ج ١ ص ٢٢٧ ، المكتبة ، ص ١٨٦ — وتقول الرواية أن سحنون بن سعيد نصح عبد الرحيم بذلك لأنه كان يعرف عنه أنه يخاف البحر • وأن عبد الرحيم عندما شاور أسد بن الفرات فى نصيحة سحنون له ، رد عليه قائلا : « الذى اشار عليك به هـــو الصـــواب » ، وأن أسدا أنبت موافقته على ذلك بأن سعى فى موافقـــة الأمير على أن يبنى عبد الرحيم قصر زياد . فأخرج له السجل الخاص بذلك • وتقول الرواية ان عبد الرحيم أنفق فى اصلاح القصر واعادة بنائه ١٨ (ثمانية عشر) الف دينار ، منها ١٢ (اثنى عشر) الف دينار من ماله ، و ٦ (ستة) آلاف دينار من مال اخوانه ومحبيه •

(٩٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٦ ب ، المكتبة ، ص ٤٢٨ •

(٩٥) تراجم الغلبية ، ص ٦٧ — وتقول الرواية أن حسد اخـــوانه له اثناء الفتح بلغ مسامع الأمير الذى سأل عن أسماء المتهمين فى الأمر وأن أسدا رفض أن يسميهم •

(٩٦) المالكى ، ج ١ ص ١٨٧ ، المكتبة ، ص ١٨٣ •

للخروج الى صقلية ، كان فتيانه من السودان يشاركون في عمال دار الصناعة التي ضاق بها المكان حتى أن العاملين في بناء السفن اضطروا الى استخدام مقبرة سوسة ، وهدموا ما فيها من القبور ، حيث رقدوا اثر كل التي كان يجري انشاؤها ، « الا قبر يحيى بن عمر ، ما جسر احد على هدمه » . وعندما سئل بعض العاملين من الفتيان السودان قال : « أنا نرى عليه نورا عظيما ، فهو الذي منعنا من هدمه »(٩٧) .

الذي يفهم من ترجمة أسد بن الفرات أنه ، في الوقت الذي كان يتعجل الاعداد للحملة ، كان يفضل البقاء في وظيفة القضاء . ففي ذلك تقول الرواية انه قال لزيادة الله « أصلح الله الأمير من بعد القضاء ، والنظر في حلال الله تعالى وحرامه ، تعزلني وتوليني الامارة ؟ » وكان رد الأمير « اني لم أعزلك عن القضاء ، بل وليتك الامارة ، وهي أشرف من القضاء . وأبقيت لك اسم القضاء فأنت قاض أمير » . وزعم ما تقوله الرواية من أنه « لم يجتمع الامارة والقضاء لأحد ببلد افريقية الا لأسد »(٩٨) ، فقد كان ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة لأسد ، اذ كان الجيش يحتاج دائما الى قاض ، يسمى « قاضي العسكر » ، للنظر في أمور الحلال والحرام ، بين الجند ، وينظر في مسألة توزيع المغانم وتحديد الخمس الخاص بالأمير . وهكذا ، بينما كان الاعداد للحملة يجري على قدم وساق ، والناس يتوافدون على أسد يسألونه عن الخروج معه ، وما يحسن أن يكون معهم من العدة والعتاد ، أصدر زيادة الله سجلا بولاية أسد على صقلية أميرا وقاضيا(٩٩) .

خروج أسد من القيروان :

وعندما جهز الأسطول في سوسة ، وتم الاعداد للحملة في القيروان ، كان على أسد بن الفرات أن يخرج لركوب الأسطول في سوسة ، وذلك بعد إقامة حفل عقد اللواء له في المسجد الجامع بالقيروان بمعرفة الأمير ، حيث يقرأ سجل الامارة ، أي قيادة الحملة . ويصف مترجموا أسد بن الفرات حفل خروجه من القيروان ، في الطريق الى سوسة ، وصفا رائعا : فقد خرج محوطا

---

(٩٧) المالكي ، ج ١ ص ٤٠٠ ، المكتبة ، ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(٩٨) المالكي ، ج١ ص ١٨٢ ، المكتبة ، ص ١٨٢ تراجم الأغلبة ص ٦٦ .

(٩٩) المالكي ، ج ١ ص ٣٢٧ ، المكتبة ص ١٨٦ ؛ ترجمة عبد الرحيم بن عبد ربه . وتقول الرواية ان أسدا حمل الأمير يصدر أيضا سجلا بناء قصر بن زياد ، كما سبق .

بوجوه أهل العلم من المودعين وكبار أهل افريقية من عامة الناس ، ورجال الحاشية الذين خرجوا جميعا بأمر زيادة الله ٠

ونظر أسد الى الناس عن يمينه وعن شماله ، والبنود منشورة فوق الرؤس ، وقد صهلت الخيل ، وضربت الطبول ، فأخذه التأثر ٠ ووقف القائد الفقيه خطيبا في الجمع الحاشد من المشيعين ، فقال : « والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد قط ، ولا رأى أحد من بيتي مثل هذا قط ، وما رأيت ما ترون الا بالأقلام ، فاجهدوا أنفسكم واتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة »(١٠٠) ٠ فكانت مناسبة استغلها القاضي القائد للحث على طلب العلم الى جانب الدعوة الى الجهاد ٠

حجم الحملة ومعداتها :

ولا نعرف متى خرج أســـد من القيروان ولا كم من الوقت أمضى في سوسة حيث كان يشرف على رجال الحملة الذين بلغ عددهم ٧٠٠ (سبعمائة) فارس بخيلهم ، و ١٠ (عشرة) آلاف راجل ٠ ولكن من المعروف أنهم كانوا قد انتظموا في مراكبهم التي بلغت ١٠٠ (مائة) مركب ، قبل صباح السبت الموافق للنصف من شهر ربيع الأول من سنة ٢١٢ هـ/١٤ يونية ٨٢٧ م ، حينما أعطيت الاشارة للاسطول بالاقلاع ، وذلك في خلافة المأمون(١٠١) ٠

وهذا يعني أن حمولة المركب كانت حوالي ١٠٠ (مائة) رجل دون النوتية ٠ وتقول رواية ابن عذارى ان رجال الحملة كانوا يتكونون من أشراف افريقية ، من : العـــرب والجنـــد والبربر والأندلسيين ، وأهـــل العلم والبصائر(١٠٢) ٠ وذلك يعني أن العرب الذين شاركوا في الحملة كانوا من سلالة القرشيين وعرب الفتوح الأولى في افريقية الذين عرفوا بالبلديين ، الى جانب التميميين من أقارب الأغالبة٠أما الجند فالمقصود بهم عسكر الأميروفتيانه من الصقالبة ومن السودان ، وأما بربر افريقية فلا بأس أن يكونوا جماعات من هوارة طرابلس ونفزاوة ، ومن قبائل الزاب وبضمنهم كتامة ٠ أما عن

---

(١٠٠) المالكي ج ١ ص ١٨٨ ، المكتبة ، ص ١٨٤ ، وقارن تراجم اغلبية ، ص ٦٧ ٠

(١٠١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٦ ب ، المكتبة ، ص ٤٢٨ ثم المخطوط ، ص ١١١ ا حيث تقول الرواية ان أسدا سار في عشرة آلاف ـ وقارن المالكي ج ١ ص ١٨٧ ٠

(١٠٢) ابن عذارى ج ١ ص ١٠٢ ٠

الأندلسيين فالمقصود بهم ، كما نرى ، أولئك الذين كانوا قد استقروا في افريقية ، ومنهم من كان من أهل العلم والبصائر ، الذين ساهموا[1] في هذا الجهاد ، وهم غير الأندلسيين من الغزاة البحريين الذين سيأتي ذكرهم عما قريب ٠

أما عن مراكب فيمى التي لا تشير اليها الرواية في تلك الرحلة ، فأغلب الظن انها سارت بصحبة أسد ، كما تقول رواية النويرى(١٠٣) ٠

اقلاع الحملة الى مازر (مزاره Mazara) :

واذا كانت الرحلة في البحر في ريح الصيف المواتية تستغرق يوما وليلة ، كما قيل لسحنون(١٠٤) ، وهي مسافة مجربين بمسافات أهل البحر وقتئذ ، أي حوالى ١٢٠ ميلا ، فان هذا لا يعني أن أسطولا حربيا مثقلا بالرجال والعتاد كان يمكنه أن يصل في اليوم التالى الى ساحل صقلية ٠ فقد استغرقت الرحلة ٣ (ثلاثة) أيام ، ووصل الأسطول الى ساحل مازر صباح يوم الثلاثاء ١٣ من ربيع الأول (١٦ يونيه)(١٠٥) ٠

أما عن اختيار ساحل مازر لنزول الحملة ، فكان يحقق للعرب ميزتين : احداهما ، أن ساحلها يعتبر أقرب السواحل الصقلية الى الأرض الافريقية ، وثانيتهما : أنها كانت بعيدة عن مركز النقل البيزنطى في الجزيرة ، وذلك على الساحل الشرقي حيث : سرقوسة وقطانيا و طبرمين ، كما أن مدينة مازر نفسها كانت بعيدة في الداخل على بعد أميال من الساحل ٠

مازر قاعدة العمليات :

وهكذا ، أمر أسد بن الفرات بالخيل فأخرجت من المراكب في هدوء ، وتبعها الرجال ، واتخذ له في الموضع معسكرا ، وانتظر يتحسس مواضع قدميه في المكان لمدة ثلاثة أيام ٠ وواضح من رواية النويرى أن أصحاب

---

(١٠٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٦ المكتبة ، ص ٤٢٨ (حيث يقول ان الأسطول كان في « نحو مائة مركب سوى مراكب فيمى ») ٠

(١٠٤) انظر فيما سبق ، ص ٢١٣ ٠

(١٠٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٦ ب ، المكتبة ص ٤٢٨ ٠ وانظر تاريخ صقلية حسب تاريخ الروم ، المكتبة الصقلية ص ١٦٥ (حيث يجعل الوصول الى مازر في منتصف يوليه) ٠

فيمي لم ينزلوا في المعسكر العربي ، بل أقاموا بالقرب منه ، وذلك أن رجال أسد عندما أخذوا في اليوم الثالث سرية من سرايا الروم ظهر لهم أنهم من أصحاب فيمي فتركوهم(١٠٦) ، مما يعني أن المنطقة لم تكن محصنة ، وأنه لم يكن بها حاميات من البيزنطيين ٠

وبذلك استولى أسد على مازر ، وبث سراياه في المنطقة تغنم وتسبي ، حتى امتلأ المعسكر بالسائمة الكثيرة والسبي والسلاح (كراعات)(١٠٧) ٠

باللقاء مع حاكم الجزيرة في « مرج بلاطه » (Pelato ?) :

وعندما اطمأن أسد الى سلامة موقعه قرر المسير الى لقاء القائد الأرمني بلاطه ، الذي كان قد سيطر على الجزيرة وطرد فيمي ٠ فعبأ رجاله وخرج بهم من مازر متجها الى حيث كان بلاطه في بعض قلاعه بمرج يعرف باسمه ، فهو « مرج بلاطه » ، مسترشدا بفيمي ورجاله ٠ وعندما برز بلاطه ، عبأ أسد رجاله في هيئة القتال ، وطلب من فيمي ورجاله أن يقفوا بعيدا على الحياد ٠ وانتهى القتال غير المتكافيء في نظر الرواية التي تقول ، بكثير من المبالغة ، ان بلاطه زحف في ١٥٠ (مائة وخمسين) ألفا(١٠٨) بانهزام بلاطه نحو قصريانة (كاستروجيوفاني) ، وهي المدينة الكبيرة التي تعتبر عاصمة وسط الجزيرة ، بعد أن فقد كثيرا من رجاله ، وترك الكثير من عدده وعتاده غنيمة بين أيدي رجال أسد ٠

وللرواة الحق في تضخيم الدور الذي قام به أسد بن الفرات أثنــاء القتال الكبير ٠ فهو عندما طلب الى أصحاب فيمي أن يعتزلوا رجاله ، أمرهم بأن يجعلوا على رؤسهم سيما يعرفون بها لئلا يتوهم واحد من العرب أنهم من الأعداء ، فيصيبهم بمكروه ٠ وبنــاء على ذلك فقد جعل أصحاب فيمي الحشيش على رؤسهم(١٠٩) مما يعني أنهم كانوا محتبئين فيما يشبه الكمين وأنهم استخدموا فروع الأشجار والحشيش على رؤسهم للتمويه ٠

---

(١٠٦) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٦ ب ، المكتبة ، ص ٤٢٨ ٠

(١٠٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٢ ٠

(١٠٨) المالكي ، ج ١ ص ١٨٨ ، المكتبة ، ص ١٨٤ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١١ أ ٠ وتذكر هذه المبالغة بما قيل في فتح الأندلس من أن جيش لذريق كان يزيد على مائة ألف بينما كان جيش طارق حوالي عشرة آلاف ٠

(١٠٩) المالكي ج ١ ص ١٨٨ ، المكتبة ص ١٨٥ ٠

ووقف أسد يحمل لواء القيادة في قلب عسكره ، وهو يزمزم بآيات من القرآن الكريم ، وخاصة سورة « ياسين » . وعندما بدأ الروم بحملتهم على رجاله الذين راعهم الأمر ، أقبل أسد يرفع من معنوياتهم ، ويقول لهم : « هؤلاء عجم الساحل ، هؤلاء عبيدكم لا تهابوهم » ، واندفع باللواء تحت ابطه ، وحمل الناس معه . وبلغ من تشبث أسد باللواء تحت ابطه أثناء تموج الناس في المعركة الى درجة أن سال الدم من تحت ابطه على قناة اللواء ، وعلى طول ذراعه(١١٠) .

ولم يستقر بلاطه كثيرا في قصريانة اذ غلبه الخوف من العرب ، فخرج من قصريانة نحو مسيني من حيث عبر الى قلورية في جنوب ايطاليا ، ربما من أجل العودة بمن كان يدين له بالطاعة في هذا الصقع من الرجال ، ولكنه قتل هناك(١١١) .

وبذلك تحققت أول مرحلة من مراحل غزو صقلية على يدى أسد ابن الفرات الذى كتب الى زيادة الله بالفتح ، وكان على الامير الأغلبى أن يخطر بدوره الخليفة المأمون في بغداد بما تم في صقلية من الفتوح باسم الخلافة(١١٢) .

التوسع نحو سرقوسة :

وبعد ذلك عاد أسد بن الفرات في اتجاه معسكره بمازر ، وهو يكتم آلام ابطه الجريح ، واستولى في طريق العودة على الحصون والقرى الواقعة على البحر ، مثل افيمية التى كان بها كنيسة كبيرة . وبعد أن أصلح أسد من شأنه قرر المسير نحو الشرق الى سرقوسة حيث قوات الروم الرئيسية ، فترك مازر بعد أن استخلف عليها القائد أبا زكي الكناني ، واتخذ طريق الساحل الجنوبي في اتجاه الركن الجنوبي الشرقي من الجزيرة حيث طرق البوالص أو أنف الأرنب ، كما يسميه الادريسي(١١٣) .

---

(١١٠) المالكي ، ج ١ ص ١٨٨ ، المكتبة ، ص ١٨٥ ويشرح المالكي عجم الساحل بأنهم الذين كانوا هربوا من ساحل افريقية عندما فتحها العرب . وانظر تراجم اغلبية ، ص ٦٧

(١١١) النويري المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٦ ب ، ٢٢٧ ا المكتبة ، ص ٤٢٨ وانظر ابن الأثير ، سنة ٢٠١ ، ابن خلدون المكتبة ، ص ٤٦٦ .

(١١٢) انظر فيما سبق ، ص ٢١٨ .

(١١٣) الادريسي المكتبة ص ٣٧ ٧١ وعن ابيه انظر النويري المخطوط ص ٢٢٧ ا .

وتقول الرواية انه التقى بالقرب من البندة المعروفة بكنيسة السلقين. بعدد من الروم بقيادة بعض بطارقة سرقوسة ، و بهم خدعوه ومكروا به ، عندما طلبوا منه الأمان نظير دفع الجزية ، وذلك أن هدفهم كان اخذ فسحة من الوقت للاستعداد لمواصلة الحرب .

وتنص الرواية على أن أهل الجزيرة اجتمعوا الى قلعة الكرلث في الجزيرة المعروفة بنفس هذا الاسم ، على بعد ٣ أميال من البوالص ، حيث جمعوا فيها كل أموال الجزيرة(١١٤) . أما عن أهل سرقوسة الذين ذلوا والقوا سلاحهم، فانهم عادوا الى مناوأة العرب(١١٥) .

وهكذا بعد أن أقام أسد بن الفرات في موضعه أياما تبين له أن أهـــل سرقوسة و مكروا به حتى أصلحوا حصنهم ، وأدخلوا اليه جميع ما كان في الربض وفي الكنـــايس من الذهب والفضـــة والميرة ، فتقـــدم وناصبهم القتال »(١١٦) .

حصار سرقوسة :

ومن تحت أسوار سرقوسة حيث استقر أسد في معسكره ، أخذ يبث السرايا في أنحاء المنطقة لتعود اليه بالمغانم العظيمة والسبي الكثير ، حتى ضج أهل المنطقة ، واضطر المحاصرون في سرقوسة الى طلب الأمان من جديد . وتقول الرواية أن أسدا كان يميل الى أن يجيب الى ما طلبه أهل سرقوسة من الأمان ، ولكنه لم يستطع أمام معارضة المتزمتين من أصحابه . فظل مقيمـــا في المنطقة ، وهو يناصب أهلها العداء ، ويواصل عليهم شن الغارات(١١٧) في البر والبحر جميعا ، بينما كان زيادة الله يواصل امداده بالرجـــال والعتاد(١١٨) .

---

(١١٤) النويري ، المخطوط ، ص ٢٢٧ أ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (في ولاية زيادة الله ، ج ٦ ص ١٣٦) ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٩ .

(١١٥) نفس المصدر .

(١١٦) نفس المصدر .

(١١٧) انظر المالكي ، ج ١ ص ١٨٩ ، المكتبة ، ص ١٨٥ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (ولاية زيادة الله ، ج ٦ ص ١٣٨) ، والنويري ، المخطوط ، ص ٢٢٧ أ .

(١١٨) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (ولاية زيادة الله ، ج ٦ ص ١٣٨) .

القحط والوباء :

والظاهر أن الذى كان قد دفع أسد بن الفرات الى الميل الى عقد الهدنة التى طلبها أهل سرقوسة ، هو القحط والوباء الذى بدأ يحل بالجزيرة منذ السنة التالية لنزوله فى مازر ، وهى سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م • فهذا ما يفهم من رواية المالكي التى تشير الى ما نزل بالعسكر من الجوع الذى أضر بهم حتى أكلوا لحم الخيل ، وهو الأمر الذى تؤكده رواية ابن الأثير(١١٩) ، مما دعا بعض كبار القواد الى اقتراح الجلاء عن الجزيرة والعودة الى افريقية •

ورفض أسد بن الفرات بطبيعة الحال كسر الغزوة ، ولم يفقد الأمل فى مقدرة الرجال على انجاز المهمة رغم ما كان يواجههم من الصعوبات • وقام جدل بينه وبين ذلك القائد الذى سميه رواية المالكى بابن قادم ، والذى قال فى معرض دفاعه عن فكرته: « حياة رجل مسلم أحب الينا من أهل الشرك كلهم » • وعندما وجد أسد أن عددا من رجاله يميل الى ترك الغزو والعودة الى الساحل الافريقى هددهم باحراق المراكب• وعندما تطاول ابن قادم عليه، وقال له : « على أقل من هذا قتل الناس عثمان » ، لم يتردد القاضى الأمير فى أن يؤدبه بالسوط(١٢٠) ، تماما كما فعل موسى بن نصير بطارق بن زياد فى قصة فتح الأندلس مع اعتبار عكس الأوضاع •

استمرار الضغط على سرقوسة :

والمهم أنه رغم الوباء والشدة ظل العرب يضغطون على نواحى سرقوسة، ونجحوا فى فتح عدد من الغيران حولها ، وكانت سراياهم تعود من جولاتها بالمغانم والأسلاب(١٢١) التى تعينهم على مواصلة الصراع • بينما كان

---

(١١٩) المالكى ، ج ١ ص ١٨٩ ، المكتبة ، ص ١٨٥ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (ولاية زيادةالله ، ج ٦ ص ١٣٨) •

(١٢٠) المالكى ، ج ١ ص ١٨٩ ، المكتبة ، ص ١٨٥ ـ والذى يسترعى الانتباه هو أن رواية النويرى ، المخطوط ، ج٢٢ ص ٢٣٦ ، المكتبة ، ص ٤٢٧ ، التى سبقت الاشارة اليها ، والتى نصت على أن الامام سحنون كان من المعارضين لغزو صقلية منذ البداية (انظر فيما سبق ص ٢١٤) تخلط بين سحنون وبين ابن قادم • ولكنه يمكن القول انه ربما كان ابن قادم من أصحاب سحنون • هذا كما يمكن الظن فى ان تكون لقصة فتح الأندلس وما قيل من احراق طارق لمراكبه عقب العبور، وما قيل من ان موسى ضرب طارقا بالسوط عند طليطلة علاقة بتلك القصة الخاصة بفتح صقلية •

(١٢١) ابن الأثير ، سنة ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٢٢٣ •

الامبراطور ميخائيل الثاني يرسل النجدات الى الجزيرة ، ويعمل على اقناع درج البندقية « جيوستنيانو بارتيسيباريو Guistiniano Partecipazio بمساهمة اسطوله في مواجهة العرب(١٢٢) ٠

وهكذا تطلبت العمليات العسكرية أن يستقر أسد في معسكره الجديد تحت أسوار سرقوسة ، وحصنه فأحاطه بخندق يمنع الروم من مداهمته ، وعندما علم العرب بمسير بطريق (قائد) بلرم في عسكر كثيف اليهم ، اقاموا لهم مصائد خارج الخندق . اذ حفروا حفرا كثيرة ، أتت بما كان يرجى. منها عندما سقط فيها عدد كبير من المهاجمين وقتلوا ٠ وبذلك نجح العرب في الدفاع عن قاعدتهم ، كما زادوا من ضغطهم على سرقوسة المحاصرة(١٢٣)٠

وفاة اسد فى الوباء مع وصول اسطول من القسطنطينية :

ولم يكد العرب يتنفسون الصعداء وسط تعب القحط والوباء والجوع حتى فوجئوا بازدياد متاعبهم بوصول أسطول من القسطنطينية معبأ بالرجال والعتاد ٠ وكان وصول الأسطول الرومي في وقت ازدادت فيه شدة الوباء الذى راح ضحيته الكثيرون ، وعلى رأسهم قائدهم وقاضيهم أسد بن الفرات(١٢٤) ، الذى توفى في شعبان من سنة ٢١٣ هـ/أكتوبر — نوفمبر ٨٢٨ م(١٢٥) ، ودفن تحت أسوار سرقوسة(١٢٦) ٠

---

(١٢٢) عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ٨ ٠

(١٢٣) ابن الأثير ، سنة ٢٠٢ هـ (زيادة الله) ، المكتبة ، ص ٢٢٣ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٩ ، المكتبة ، ص ٦٧ ٤ـ حيث النص على أن المسلمين حاصروا بلرم بدلا من خروج عسكر بلرم الى المسلمين ٠

(١٢٤) ابن الأثير سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ص ٢٢٣ ٠

(١٢٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٧ أ ٠ وقارن تراجم أغلبية ، ص ٧٠ حيث يضيف الى ذلك انه قيل أن وفاة أسد كانت في سنة ٢١٤ هـ/٨٢٩ م او في سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م ٠

(١٢٦) ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٧ ـ حيث يخلط النص بين سرقوسة وبلرم فيقول : انه دفن فى المدينة الأخيرة أما نص العبر (ج ٤ ص ١٩٩) ففيه انه دفن فى قصريانة خطأ ـ وكان من نصيب تراب صقلية ان يدفن فيه علم أسد الذى كان يتحسر على ضياع علمه بوفاته ٠ فقد كان يرى في بعض الأحيان وهو يدق صدره ، ويقول : « واحسرتاه ! ان مت : ليدخلن القبر منى علم عظيم » - وانظر تراجم أغلبية ، ص ٦٣ ٠

اختيار الجند محمد بن أبي الجواري قائداً :

والظاهر أنه كان لوفاة أسد وقع سيء في نفوس عسكره في ذلك الو
الذي كان يفتك بهم الوباء ، حتى قيل أن رهائن الروم الذين كانوا لـــ
انتهزوا الفرصة وهربوا(١٢٧) . ورغم أننا لا نعرف أن الأمير زيادة الله
قد عين قائداً ثانياً للحملة كما جرت العادة، فان رؤساء الجند اجتمعوا واخت
واحداً منهم ليخلف أسداً في الامارة ، وهو محمد بن أبي الجواري(١٢٨)

الوباء والروم أمام العرب :

العودة الى مازر والتفكير في الرجوع :

وأمام الخسائر التي كان ينزلها الوباء بالقوة العربية وتهديد الج
البيزنطية التي أتت في الأسطول بحراً ، وفي البر أيضاً عن طريق اي
وكلابريا ، ترك العرب معسكرهم تحت أسوار سرقوسة وعادوا نحو ا
الى قاعدتهم مازر من حيث قرروا العودة الى افريقية ، فأخذوا في اصـ
مراكبهم .

وتقول الرواية أنهم عندما ركبوا مراكبهم مغادرين مازر ، وجـ
الأسطول البيزنطي يقف لهم بالمرصاد عند المرسى على بعد عدة أميا
المدينة ، ويمنعهم من المغادرة(١٢٩) . وهنا لم يعد أمام العرب من خيـ
البقاء في الجزيرة ، وأغلب الظن أنهم فضلوا الموت ــ اذا لم يكن منه
بحر السيوف على برد الغرق في لجة الماء . والظـــاهر أن الروم كا
دخلوا مازر بعد خروج العرب منها اذ تطلب الأمر استعادتها بقتـال
استمر ثلاثة أيام(١٣٠) .

ورغم ما تقوله الرواية من أن العرب أحرقوا مراكبهم(١٣١) ،

---

(١٢٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ .

(١٢٨) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ (زيادة الله) ، المكتبة ، ص ٢٢٣ ، النويري ، ا
ج ٢٢ ص ٢٢٧ ب ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٧ (و ج ٤ ص ١٩٩ ــ حيث ا
بن الجواري) ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ حيث القراءة « الحواري »
ابن أبي الجواري .

(١٢٩) ابن الأثير ، سنة ٢٠١هـ (زيادة الله) ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٧
المكتبة ، ص ٤٢٩ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٧ .

(١٣٠) ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٧ .

(١٣١) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله) ، النويري ، المخطوط ، ج
٢٢٧ ب ، ابن خلدون ، المكتبة ص ٤٦٧ .

الاستقتال في الحرب ، فأغلب الظن أنهم ما كانوا ليضحوا بسفنهم التي تعتبر وسيلة المواصلات الوحيدة بينهم وبين قواعد امدادهم في افريقية ، وأنهم اذا كانوا قد أحرقوا بعض سفنهم فانما يكونون قد فعلوا ذلك ضمن اجراءات الوقاية التي اتخذوها لمقاومة الوباء • وانطلاقا من قاعدتهم في مازر بدأ العرب يوطدون اقدامهم في الاقليم الشرقي بالاستيلاء على حصن ميناو (Mineo) ، على بعد ٢٤ ميلا في اتجاه الجنوب الغربي من لنتينى الواقعة على الساحل شمال سرقوسة(١٣٢) ، بعد حصار استمر ثلاثة أيام ، وبمعاونة أصحاب فيمي حيث استقرت جماعة منهم(١٣٣) • واتبعوا ذلك بالاستيلاء على حصن جرجنت عنوة وسكنوه • وبذلك هدأت نفوسهم ، واطمأنوا الى طيب المقام(١٣٤) •

فيمي يستمر في معاونة العرب ، فيغتاله الروم في قصريانة :

والذي يفهم من قصة الفتح أن التعاون كان وثيقا بين العرب وبين البطريق فيمي وأصحابه ، على عكس ما قيل من أنه حرض اهل سرقوسة على المقاومة • وهكذا قاد فيمي العرب بعد ذلك نحو وسط الجزيرة الى قصريانة • وتقول الرواية ان القصريانيين غدروا بفيمي عندما فاوضهم باسم العرب • فبعد أن خرجوا اليه وبذلوا له الطاعة ، ووعدوه بأن يكونوا معه ومع المسلمين على كلمة واحدة ويخلعوا طاعة الروم ، طلبوا منه مهلة يوم لترتيب أمر الصلح مع العرب ثم انهم اغتالوه عندما حضر اليهم في اليوم التالي(١٣٥) •

هزيمة الأرمن البيزنطيين في حيز قصريانة :

والظاهر أن هدف أهل قصريانة من خداعهم فيمي والعرب، كان اكتساب

---

(١٣٢) الادريسي ، المكتبة ، ص ٥٧ •

(١٣٣) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله) ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٧ ب • وقارن تاريخ جزيرة صقلية من حين دخلها المسلمون ، الذي يجعل سقوط ميناو بين أيدي العرب في السنة الرابعة من نزولهم الجزيرة (المكتبة ، ص ١١٦) وهي سنة ٦٢٣٦ من تاريخ العالم •

(١٣٤) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٣ ، النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٧ ب ، ابن خلدون ، المكتبة ص ٤٦٧ (كركنت بدلا من جرجنت) ، ج ٤ ص ١٩٩ (حيث كبركيب بدلا من كركنت) •

(١٣٥) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٣ ، النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٧ ب ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٧ •

بعض الوقت لحين وصول القوات البيزنطية التى كانت تتجه نحوهم للقاء العرب · وكانت القوات الرومية تتكون فى معظمها من جنود من الأرمن بقيادة البطريق تودط (Théodote) (١٣٦) · وتم اللقاء بين عرب افريقية وأرمن القسطنطينية فى أحواز قصريانة ، وانتهى القتال بهزيمة عسكر تودط ومقتل الكثيرين ، اذ لم يسلم منهم الا من لجأ الى المدينة الحصينة(١٣٧) ، بينما وقع من قوادهم (بطارقتهم) سبعون أسيرا بين أيدى العرب(١٣٨) ·

وفاة ابن أبى الجوارى ، وولاية زهير بن برغوث ، وهزيمة مؤلمة أمام الأرمن :

وعقب المعركة توفى القائد محمد بن أبى الجوارى فى أول سنة ٢١٤ هـ/ مارس ٨٢٩ م ، وتم اختيار القائد زهير بن برغوث خلفا له فى القيادة(١٣٩)·

وواضح من الرواية أن موقعة قصريانة الأولى لم تكن من المعارك الفاصلة، اذ لم يلبث تودط أن ظهر فى الميدان مرة أخرى ، بعد أن نظم فلول قواته الارمنية ، ونجح فى الثأر لهزيمته · وكانت بداية دوران الدائرة على العرب عندما خرجت سرية لهم من معسكرها فى المنطقة بحثا عن المغانم - من أجل القوت على ما يظهر - فخرج عليهم الروم ، فعادوا منهزمين الى قاعدتهم · وعندما خرجت القوة العربية فى جمعها لملاقاة الروم ، حشد هؤلاء كل قواهم ونجحوا فى هزيمة العرب فى موقعة دامية خسر فيها زهير بن برغوث ألف قتيل من رجاله ، واضطر الى العودة منهزما نحو معسكره حيث اتخذ موقفا دفاعيا ، فخندق حول قاعدته(١٤٠) ·

حصر العرب فى ميناو :

وهكذا دارت الحرب سجالا بين العرب المحصورين فى معسكرهم وبين الروم · وازاء اشتداد الحصر فكر العرب فى مفاجأة الروم صباحا على حين

---

(١٣٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٧ ب ، المكتبة ، ص ٤٣٠ ·

(١٣٧) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله) ، المكتبة ، ص ٢٢٣ ·

(١٣٨) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ ، المكتبة ، ص ٤٣٠ (حيث القراءة تسعون بطريقا بدلا من سبعين) ·

(١٣٩) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ ، المكتبة ، ص ٤٣٠ (حيث قراءة الاسم زهير بن برغوث) ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله ، المكتبة ص ٢٢٣ (حيث القراءة ابن غوث وفى الهامش - ابن برغوث) ·

(١٤٠) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٤ ·

غرة ، وهو ما يعرف في المصطلح العسكرى العربى بـ « البيات » ، ولكن الروم عرفوا — عن طريق جواسيسهم — بما يبيته لهم العرب ، فتنحوا عن معسكرهم . وكانت مفاجأة غير سارة للعرب عندما وجدوا الروم يقبلون عليهم من كل ناحية ، فانهزموا الى حصنهم فى ميناو ، بعد أن فقدوا الكثير من القتلى(١٤١) .

وبذلك انقطعت الكتلة الرئيسية من القوات العربية فى ميناو عن بقية اخوانهم الموجودين فى جرجنت ، وفى مازر ، واشتد عليهم الحصر وقلت عندهم الميرة والأقوات حتى أكلوا دوابهم ، بل واضطروا الى أكل الكلاب(١٤٢) .

حرب الاستقتال : العرب يخربون قاعدتهم فى جرجنت (كركنت : Girgenti) وينضمون الى اخوانهم فى مازر :

وعندما وصلت أنباء ما يعانيه العرب فى ميناو من شدة الحصر والضيق الى اخوانهم فى جرجنت ، عبر هؤلاء عن ضيقهم لعجزهم عن مد يد المعونة اليهم بأن هدموا مدينتهم ، وساروا الى مازر(١٤٣) ، مما يعنى أيضـــا انهم خافوا البقاء وحدهم ، وهم قلة ، فى المقام فى جرجنت ، وفضلوا الانضمام الى اخوانهم فى مازر حتى يكونوا أقدر على مقـــاومة الروم اذا ما فكروا فى الهجوم عليهم .

وهكذا أصبح المسلمون متجمعين فى نقطتين فقط من الجزيرة : ١ — فى ميناو المحاصرة، قرب الشاطىء الشرقى فيما بين سرقوسة ولنتينى ، ٢ — وفى مازر قرب الركن الجنوبى الغربى . وظل المحاصرون فى ميناو صامدين حتى أشرفوا على الهلاك ، عندما دخلت سنة ٢١٥ هـ/٨٣٠ م(١٤٤) ، حينما أتاهم الفرج من حيث لم يحتسبوا .

---

(١٤١) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله) ، المكتبة ص ٢٢٤ .

(١٤٢) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله) ، المكتبة ص ٢٢٤ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ ، المكتبة ص ٤٣٠ ، ابن خلدون ، المكتبة ص ٤٦٧ .

(١٤٣) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ المكتبة ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ، المكتبة ص ٤٦٨ ، وج ٤ ص ١٩٩) .

(١٤٤) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ص ٢٢٤ : والنص هنا يحدد التاريخ ببداية سنة ٢١٤ هـ/٨٢٩ م الذى صححناه الى مدخل سنة ٢١٥ هـ/٨٣٠ م ، على أساس أن وفاة ابن الجوارى كانت فى مطلع سنة ٢١٤ هـ/٨٢٩ م — كما سبق .

البحريون الأندلسيون ، وغزو صقلية :

ففي بداية سنه ٢١٥ هـ/٨٣٠ م ، كانت صقلية هدفا لغارات تدرج من تلك التى كان يقوم بها الغزاة الاندلسيون من سكان الشواطىء الشرقية للاندلس على سواحل الروم والفرنج ، ليس فى الحوض الغربى للبحر المتوسط فقط ، بل وفي الحوض الشرقي أيضا • والذى يفهم من الروايات أن هؤلاء الغزاة البحريين من أهل الأندلس لم يكونوا من الجند النظامى ، بل كانوا من متطوعة المجاهدين ، الذين اتخذوا الغزو البحرى صناعة لهم ، وأن حكومة قرطبة الاموية لم تكن تمانع فيما يقومون به من أعمال فى غير بلاد المسلمين •

وهذا لا يمنع أنهم كانوا يقومون بذلك دون علم أمراء قرطبة ، بل وربما رغم عدم رضائهم عن ذلك • والمهم أنه لا صحة لما تشير اليه بعض الروايات من الربط بين ذلك النشاط البحرى وبين بعض الثورات التى عرفتها بعض مدن الأندلس قرب ذلك الوقت ، وخاصة ثورة الربض الشهيرة فى قرطبة ، على أيام الحكم بن هشام • فليس من المقبول أن يقال عن رواد البحار هؤلاء : انهم كانوا من العامة أو من أهل الأسواق •

فمنذ أواخر القرن الثانى الهجرى (أوائل القرن ٩ م) كان الأندلسيون قد مدوا نشاطهم الى جزر شرق البحر المتوسط ، حتى انهم كانوا يقصدون ساحل الاسكندرية فيما بين الغارة والأخرى على سواحل الروم ، من أجل الميرة واصلاح شأنهم • ورغم أن ولاة مصر كانوا لا يسمحون لهم — كما تقول حوليات الكندى فى قضاة مصر وولاتها — بالنزول الى شاطىء الاسكندرية ، بل كان على تجار الاسكندرية أن يخرجوا الى الأندلسيين فى الزوارق بما يحتاجون اليه للاصلاح من شئونهم أو شئون مراكبهم ، من طعام وعتاد وسلاح(١٤٥) ، فان اضطراب أحوال مصر ، نتيجة لاضطراب أحوال بغداد اثر فتنة الأمين والمأمون ، سمحت لهؤلاء الأندلسيين بالاستيلاء على الاسكندرية طوال اثنتى عشرة سنة (٢٠١ هـ — ٢١٢ هـ/٨١٦ — ٨٢٧ م) استقلوا خلالها بالمدينة عن ولاة الفسطاط • وعندما استقرت الأمور للمأمون

---

(١٤٥) انظر الكندى ، القضاة والولاة ، ٢ ط • ليدن ، ص ١٥٨ وما بعدها • وانظر للمؤلف ، الاسكندرية من الفتح الاسلامى الى بداية العصر الفاطمى ، فى كتاب الاسكندرية فى أقدم العصور ، ط • ١٩٦٣ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، وللمؤلف أيضا الأثر المغربى والأندلسى في المجتمع الإسكندرى ، كتاب تاريخ المجتمع الاسكندرى ، ط • جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٢٢٤ — ٢٢٧ •

ارسل قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين الى مصر حيث نجح في اخراج الاندلسيين من الاسكندرية الى البحر ، شريطة ألا ينزلوا في أية أرض تابعة للخلافة .

العلاقة مع غزو كريت :

وهكذا غادر الأندلسيون الاسكندرية في مراكبهم التي كانت تبلغ اربعين مركبا ، تحمل حوالى أربعة او خمسة آلاف رجل ، عندما نزلوا الى المدينة قبل عشر سنوات ، واتجهوا بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر البلوطي نحو جزيرة كريت التي استولوا عليها ، في نفس الوقت الذى كان أسد بن الفرات ينزل برجاله في جزيرة صقلية . وهذا يدعو الى التامل فيما اذا كانت هناك ثمة علاقة بين ترتيب غزو كل من صقلية وكريت على الروم ، بمعرفة خلافة بغداد .

حقيقة ان الاتفاقية التي تمت بين عبد الله بن طاهر واندلسيي الاسكندرية لم تشترط على الغزاة الا عدم النزول في أرض تابعة للخلافة ، والا يصحبوا معهم أيا من المصريين او العبيد أو المطلوبين(١٤٦) ، ولكن هذا لا يمنع من نزولهم في أرض الروم(١٤٧) . وأغلب الظن انه لم يكن يخفى على قائد المأمون انهم سيطرقون ساحل جزيرة كريت القريبة . واذا كانت رواية فتح صقلية لا تشير الى دور الخلافة في تلك العملية ، فهي تنص على أن الروم كانوا قد خرقوا اتفاقية الهدنة بينهم وبين الأغالبة ، وليس من الغريب أن الهدنة مع الروم ما كانت تتم بغير علم الخلافة في بغداد أو موافقتها الضمنية على الأقل .

واذا كانت النصوص تشير الى أن زيادة الله قد كتب الى الخليفة المأمون بخبر فتح أسد بن الفرات لصقلية ، فهذه الاشارة تعني أن الخلافة كانت على علم بما يدبره الأغالبة ضد الروم . هذا ، واذا كانت تفصيلات العمليات الحربية تحت لواء أسد بن الفرات لا تشير الى مشاركة الأندلسيين فعلا في غزو صقلية ، كما تذكر الرواية التي يسجلها ابن عذارى ، فان مجرد ذكر أن الاندلسيين كانوا يكونون جماعة لها كيانها الخاص في قوات أسد ، وان كانت غير صحيحة ، يمكن أن تفسر على أنها اشارة ضمنية الى ترتيب

---

(١٤٦) نفس المصادر السابقة .

(١٤٧) أنظر فيما سبق ، ص ٢١٨ .

غزو كريت على أيدى الاندلسيين السكندريين[١٤٨] في نفس الوقت الذي كان عرب افريقيـــة يقومون بغزو صقلية ، وذلك بمعرفة الخـلافة أو تحت اشرافها حتى يتم مفاجأة الروم في جبهتين دفعة واحدة وان كانت مفـاجأة صقلية قد أذهلت الامبراطور من غير شك عن غزو كريت ٠

حملة الغزاة الأندلسيين :

وبذلك يكون الأندلسيون الذين شاركوا فى غزو صقلية مـــع أسد ابن الفرات اما من المستوطنين فى افريقية أو من جماعات الغزاة من غـــير أندلسيي الاسكندرية ٠ وقياسا على ذلك يكون الغزاة الأندلسيون ، الذين نزلوا الى صقلية فى أوائل سنة ٢١٥ هـ/٨٣٠ م ، أيضا من غير أهل كريت ٠ وهذا يعنى أن الكثيرين من أهل سواحل الأندلس الشرقية كانوا قد اتخذوا من الغزو فى البحر صناعة لهم ، وانهم كانوا يجوبون البحر المتوسط من أقصاه الى أدناه ، مما يعنى أنهم كانوا قد غلبوا على سواحل البحر جميعا، منذ ذلك الوقت المبكر ، قبل أن تتم لهم تلك الغلبة على أيام عبد الرحمن الناصر الى جانب الفاطميين[١٤٩] ٠

والحقيقة ان أعمال الأندلسيين فى البحر المتوسط حينئذ تذكرنا بأعمال النورمنديين (أو الفيكنج) فى بحر الشمال وحتى سواحل الأندلس الغربية ، وكذلك سواحل المغرب ـ حيث عرفوا بالمجوس ـ بعد ذلك بقليل ، فكان غزاة البحر الأندلسيين هم نورمنديو العرب فى ذلك الحين ٠

ويفهم من الروايات العربية أن الأندلسيين وصلوا الى صقلية على دفعتين

---

(١٤٨) ويمكن ان يؤيد حقيقة استقلال عمل الاندلسيين عن أمـير الأندلس ما قام به امبراطور بيزنطة تيوفيل بعد ذلك بحوالى عشر سنوات ، من الاتصال بالأمير عبد الرحمن الثانى حيث أرسل اليه سفارة فى سنة ٢٢٥ هـ/٨٤٠ م تحمل رسالة يحثه فيها على المطالبة بعرش أسرته فى الشام ويهاجم العباسيين وأتباعهم الأغالبة (أعداء الأمويين والبيزنطيين) ، ويطالب باعادة كريت من أيدى الأندلسيين السكندريين ، اذ كان رد الأمير الأندلسى الذى بعث به مع سفيره الشاعر يحيى الغزال فيما يتعلق بكريت : ان الأندلسيين بها هم ثوار ليسوا من رعيته ، وانه يمكن للامبراطور طردهم وعقابهم ٠ أما عن الأغالبة فقد قال : انه لا يستطيع انكار جهادهم فى سبيل رفع راية الاسلام ٠ أنظر بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الاسلامية ، ج ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ ٠ ويذكر ابن حيان أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم أشار فى رده على شكوى امبراطور القسطنطينية من نزول الأندلسيـن الى كريت ، وما يطلبه من معاقبتهم : « بأنهم ليسوا فى بلدنا ولا برتبتنا حتى نغير عليهم ، ونكفيك مؤونتهم ٠ وما أظنك عاجز عن اخراجهم عما تطرقوه من بلدك » (أنظر المقتبس ، مخطوط كلية الآداب المصور بجامعة الاسكندرية، ص ١٨٧) ٠

(١٤٩) أنظر مقدمة ابن خلدون ، فصل قيادة الأساطيل ، ط٠ التجارية ، ص ٢٥٣ ٠

في ثلاثمائة مركب ، وأن الدفعة الأولى كانت بقيادة أصبغ بن وكيل الهوارى المشهور بـ « فرغلوش » ، بينما كانت الدفعة الثانية بقيادة سليمان بن عافية الطرطوشي . وهذا لا يمنع من مجيء مدد من افريقية بعد ذلك بقليل ، كما تقول بعض الروايات(١٥٠) .

النزول قرب مازر :

اعمال الأندلسيين تحت قيادة فرغلوش : فك الحصار عن ميناو ، وهدمها :

ولا توضح الروايات أين نزل الأندلسيون في صقلية ، ولكن يمكن القول أن الدفعة الثانية نزلت في الركن الغربي من الجزيرة بالقرب من مازر ، وان هذا هو السبب أيضا فيما قيل من أن الدفعة الثانية كانت مددا من افريقية . وهذا ما يفهم أيضا من مسيرة الأندلسيين عندما تقدموا لنجدة المحاصرين في ميناو .

والمهم أن فرغلوش نزل برجاله ومن تحت امرته من القواد ، وأخذوا يبثون سراياهم التي استولت على عدد من القلاع الرومية وعادت منها بالمغانم والسبي ، كما تنص على ذلك رواية ابن عذارى التي تمدنا ببعض المعلومات التفصيلية(١٥١) . والظاهر أن عرب مازر هم الذين اتصلوا أولا بالغزاة من الأندلسيين ، وطلبوا منهم اغاثة اخوانهم الذين كانوا يكابدون متاعب الحصر وقلة القوت في ميناو ، كما عرضوا عليهم ما كان يلزمهم من الخيل والدواب(١٥٢) .

ولم يبخل الغزاة الشجعان بتقديم ما طلب اليهم من المعونة ، ولكن

---

(١٥٠) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ ، وقارن ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٤ ، ورواية ابن الأثير التي تتفق مع رواية البكرى المقطعة الاوصال بشأن مدد افريقي وصل الى الجزيرة (جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٢٢١ حيث تقرأ « عروس » بدلا من فرغلوش) ، وكذلك مع رواية ابن خلدون (المكتبة ، ص ٤٦٨ ؛ ج ٤ ص ١٩٦) ، التي تجعل الدفعة الثانية كأمدادالمجاهدين في صقلية آتى من افريقية اى من قبل زيادة الله - وهو الأمر الذي لا تشير اليه الروايات الاخرى - ولا باس في ان يكون ابن الأثير او من نقل عنه ، لم من لقب الهوارى — ولو انه لا يذكر اسماء القادة — نسبة الى قبيلة هوارة المقيمة فيما بين طرابلس والفزاوة ان اصبغ كان يقود جيشا افريقيا - اما رواية ابن عذارى فهي لا تذكر الا الدفعة الأولى من الأندلسيين بقيادة فرغلوش (ج ١ ص ١٠٤) .

(١٥١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ .

(١٥٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ .

شريطه أن تذ - القيادة الى رئيسهم فرغلوش ، وهو الأمر الذى لم يكن أمام قائد الجند الأعلى زهير بن برغوث ، الا قبوله • وهكذا اجتـــاح فرغلوش برجاله الجزيرة من مغربهـــا الى مشرقها ، وهو يستولى على القـلاع ويوجه غاراته فى كل اتجاه ، حتى أشرف على ميناو(١٥٣) • ولم يكن أمام البطريق تودط ورجاله من الأرمن الا الانسحاب نحو قصريانة(١٥٤) • وهكذا تم خلاص المحاصرين فى ميناو ، فى جمادى الآخرة من سنة ٢١٥ هـ/يولية ٨٣٠ م(١٥٥)، وعبروا عن ضيقهم بالحصر وكراهيتهم للمكان الذى تعرضوا فيه للأهوال ، بأن هدموا المدينة وأحرقوها(١٥٦) • ولا باس فى أن يكون احراقها بسبب ما كان قد ألم بهم من الوباء أثناء مقامهم فيها •

اخذ بلرم ، ووفاة القائد فرغلوش فى الوباء :

وسار رجال ميناو مع الأندلسيين نحو بلدة « غلوالية » (Calloniana) القريبة وتغلبوا عليها(١٥٧) • وتابع الأندلسيون والمغاربة مسيرتهم نحـــو مدينة بلرم وضربوا عليها الحصار ، وضيقوا على من بها الخناق لمدة عام ، الى أن طلب قائدها الأمان لنفسه وأهله وماله • وأجابه العرب الى مطلبه ، فغادر المدينة بحرا الى « بلد الروم » ، ودخل العرب بلرم فى رجب من سنة ٢١٦ هـ/ أغسطس ٨٣١ م(١٥٨) •

وتقول رواية ابن الأثير أن المسلمين لم يجـدوا فى بلرم « الا أقل من ثلاثة آلاف انسان ، وكان فيه لما حصروه سبعون ألفا وماتوا كلهم »(١٥٩) ،

---

(١٥٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ •

(١٥٤) النويرى المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ ، المكتبة ص ٤٣٠ ، وأنظر تاريخ صقلية من حين دخلها المسلمون منذ بدء العالم المكتبة ص ١١٦ (حيث يجعل مقتل تودط بعد أخذ ميناو) •

(١٥٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ ، المكتبة ، ص ٤٣٠ •

(١٥٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ •

(١٥٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ •

(١٥٨) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبه ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ، تاريخ صقلية من حيث دخلها المسلمون ••• ، المكتبة ، ص ١٦٦ (الذى يجعل سقوط بلرم فى السنة التالية لأخذ ميناو ومقتل تودط ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٩ ، المكتبة ، ص ٤٦٨ (الذى يقول ان فتح بلرم كان فى سنة ٢١٧ هـ/٨٣٢ م) ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ (حيث تقول الرواية أن حصار بلرم إستمر الى سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٥ م حينما استسلمت المدينة بالأمان فى ولاية ، محمد بن عبد الله بن الأغلب) •

(١٥٩) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ •

مما يعني أن الوباء الذى كان قد ظهر في صقلية سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م لم يكن قد انقطع بعد ، وأنه كان ما زال يفتك بأهـل الجزيرة • والظـاهر أن المسلمين لم يسلموا بدورهم من فتك الوباء ، وذلك ما تشير اليـه رواية ابن عذارى التى تقول ان جماعة من المسلمين اعتلوا وأخذهم الوباء ، وكان منهم فرغلوش وغيره من القواد(١٦٠) •

الخلاف مع الأندلسيين ، وعودتهم الى بلادهم :

والظاهر أن غزاة البحر الأندلسيين استفاقوا على ما أنزله بهم الوباء من الخسائر ، ليجدوا أنفسهم قد انغمسوا فى أمر ليس من شئونهم ، بصفتهم : باحثين عن المغانم والأسـلاب ، وليسوا جندا نظاميا فاتحا ، يحتل البلاد ويستوطنها • وبناء على ذلك لم يكن من الغريب أن يدب الخلاف بينهم وبين اخوانهم الافريقيين • ورغم ما يقوله ابن الاثير من أن الوفاق تم بين الجانبين بعد الخلاف والنزاع(١٦١) ، فنحن نميل الى الأخذ برواية ابن عذارى التى تقول ان الأندلسيين قرروا العودة الى بلادهم ، بعد وفاة قوادهم فى الوباء وعـلى رأسهم فرغلوش ، وأنهم لقوا متاعب كثيرة أثناء رحلة العودة الى قواعدهم ، اذ « ركب العدو اثرهم . فقتل منهم خلق كثير » ، وذلك قبل أن يأخذوا فى اصلاح مراكبهـم ، قافلين الى الأندلس(١٦٢) • وبذلك تنتهى قصـة مشاركة الأندلسيين فى فتح صقلية ، بعد الاستيلاء على بلرم التى اتخذها العرب عاصمة لهم بعد أن اتسعت رقعة اراضيهم واستولوا على كل الاقليم الغربى من الجزيرة •

ولاية ابى فهر محمد بن عبد الله التميمى لصقلية سنة ٢١٦ هـ/٨٣١ م :

ومع أننا لا ندرى ماذا حدث لقائد جند صقلية الثالث ، وهو : زهير ابن برغوث ، فأغلب الظن أنه راح ضحية الوباء مع فرغلوش ، وأنه خلفه فى قيادة العسكر قائد آخر ، هو عثمان بن قرهب ، الذى لم يحظ بموافقة زيادة الله • فهذا ما يفهم من رواية ابن عذارى التى تشير الى أن الأمير زيادة الله اتخذ قراراً فى أواخر سنة ٢١٦ هـ/٨٣١ م ، بتولية قريبة أبى فهر محمد

---

(١٦٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ •
(١٦١) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٣٥ •
(١٦٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ •

ابن عبد الله التميمي على صقلية ، فوصلها في سنة ٢١٧ هـ/٨٣٢ م ، وأن عثمان بن قرهب صرف عنها(١٦٣) . ولا شك أن العهد بولاية صقلية الى أحد قرابة الامير الأغلبي يعني رعاية خاصة من جانبه لأحوال الجزيرة . وان كان لاستقلال شخصية الوالي يعني بحكم الضرورة نوعا من استقلال ولايته .

ما بين صقلية وتونس :

والظاهر أن اضطراب منطقة تونس في السنة التـــالية ، وهي سنة ٢١٨ هـ/٨٣٣ م ، تطلب عودة أبي فهر محمد بن عبد الله من صقلية ، والبقاء في افريقية الى سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٥ م ، بعد أن قضى على ثورة مدينة تونس . وخلال وجود محمد بن عبد الله في افريقية قامت القوة الأغلبية في صقلية بالغارة على منطقة قصريانة مرتين . في الربيع والصيف من سنة ٢١٩ هـ/٨٣٤ م ، وهزموا الحامية الرومية في المرتين . عندما خرجت للقائهم(١٦٤) ، وعادوا الى بلرم بالمغانم والأسلاب(١٦٥) .

وأثناء رحلة العودة الى ولايته في صقلية تعرض محمد بن عبـــد الله التميمي في رمضان من سنة ٢٢٠ هـ/سبتمبر ٨٣٥ م ، لمتاعب شديدة من جانب البحر الذي ثار بمراكبه التي كانت تحمل الامدادات والرجـــال ، فاعطب بعضها وحطم له بعضا آخر ، كمـــا أن الروم اعترضوه في البحر وأصابوا له حراقة من مراكبه ، رغم بلاء قائد الأسطول محمد بن السندي الذي خرج في عدد من الحراقات ، وأخـــذ يطاردهم حتى حـــال الليل بين الفريقين(١٦٦) .

غارات على قصريانة (Castrogiovanni) :

ولم يبق محمد بن عبد الله التميمي طويلا في بلرم ، اذ خرج برجاله في

---

(١٦٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ ، وانظر النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ . المكتبة ، ص ٤٣١ — حيث يسمى ابا فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب » ، وابن عذارى (ج ١ ص ١٠٥) الذي يسميه أيضا « ابن الأغلب » وانظر الحلة السيراء » ج ١ ص ١٨١ : حيث ينص على أن محمد بن عبد الله بن الأغلب هذا يعرف هو واخوه الأغلب بن عبد الله ، وابنه عبد الله بن محمد الذي ولي صقلية فيما بعد سنة ٢٥٩ هـ كما كانت له ولاية طرابلس والقيروان ، ببني عبد الله ؛ نسبة الى جدهم عبد الله أخي ابراهيم بن الأغلب الأمير الأول .

(١٦٤) ابن الأثير سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ .

(١٦٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٥ .

(١٦٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٦ .

نفس السنة (٢٢٠ هـ/٨٣٥ م) نحو قصريانة فى وسط الجزيرة ، ونجح فى هزيمة الروم الذين خرجوا اليه ، وعاد الى بلرم محملا بما غنمه فى معسكر الروم ، وبصحبته امرأة القائد (البطريق) وابنه أسيرين(١٦٧) .

غارات على طبرمين (Tabrmina) : وغدر الجند بقائدهم محمد بن سالم :

واذا كان ابن عذارى يقول بشكل عام انه كان فى تلك السنة غزوات كثيرة للمسلمين فى صقلية(١٦٨) ، فان ابن الاثير يذكر أن محمد بن عبد الله سير جيشا الى ناحية طبرمين على شمال الشاطىء الشرقى للجزيرة ، جنوب مسينا ، بقيادة محمد بن سالم . ومع أن الحملة حققت أغراضها بعد أن عادت بالمغانم الكثيرة ، الا أنها انتهت نهاية تعسة ، عندما عدا بعض جنود محمد ابن سالم عليه فقتلوه ، ولجأوا الى الروم(١٦٩) ، مما يرجح أن الجريمة قد تمت بتحريضهم .

وبذلك تكون تلك الحادثة فاتحة سلسلة من جرائم الغدر التى يقوم بها العسكر ضد قوادهم ، كما سنرى ، وهو الأمر الذى لم تعرفه الجيوش العربية ، فى غير صقلية ، من قبل .

غارات على سرقوسة بقيادة الفضل بن يعقوب :

ولا شك أنه كان لذلك الحادث التعس صدى أليم فى قلب الأمير زيادة الله ، الذى بعث ، خلفا لمحمد بن سالم ، أحد قواده المشاهير ، وهو : الفضل ابن يعقوب ، الذى قاد سرية كبيرة عاثت فى نواحى سرقوسة ، وعادت بالمغانم والأسلاب(١٧٠) .

من المواهب الحربية التى اظهرها كل من العرب والروم :

ويضيف ابن الأثير الى ذلك موقعة هامة بين سرية اسلامية كبيرة وبين القوة الرئيسية للروم فى الجزيرة التى كان يقودها البطريق حاكم صقلية ، والتى اظهر فيها كل من الجانبين ما كان يتميز به من مواهب قتالية خاصة . ففى أثناء عودة السرية الاسلامية ، وهى محملة بالمغانم ، قطع عليها البطريق

---

(١٦٧) ابن الاثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ .
(١٦٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٨ .
(١٦٩) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ .
(١٧٠) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٩) .

الطريق ، فاضطرت الى التحصن من الروم فى أرض وعرة كثيرة الشجر حتى عجز الروم عن ملاحقتهم ، فوقف البطريق الى وقت العصر يتحداهم أن يخرجوا اليه • ولما طال انتظاره دون تقدم العرب للقائه ترك المكان ، وتفرق عنه كثير من أصحابه • وكانت فرصة انتهزها العرب للحملة عليه حتى هزموا من كان بقى معه من الرجال ، ونجحوا فى الوصول اليه ، واصابته بعدة جراحات حتى سقط عن فرسه • ومع ذلك لم يتمكن العرب من قتله ، اذ أسرع اليه عدد من أبطال فرسانه ، واستنقذوه جريحا وحملوه معهم •

وخرج العرب من الواقعة — التى وصفت بأنها وقعة عظيمة — بما كان فى أيدى الروم من السلاح والمتاع والدواب(١٧١) •

ومع أن ابن الأثير — الذى تظهر روايته ملخصة عند ابن خلدون — يضع كل تلك الأحداث فى سنه ٢٢٠ هـ/٨٣٥ م ، فالظاهر أن بعض تلك الأحداث، وبصمنها معركة البطريق الأخيرة ، وقعت فى سنه ٢٢١ هـ/٨٣٦ م • وذلك أن الاحداث التالية ، التى تمت فى ولاية أبى الاغلب ابراهيم بن عبد الله الذى حل محل أخيه أبى فهر محمد ، يضعها ابن عذارى فى أحداث سنة ٢٢٢ هـ/ ٨٣٧ م(١٧٢) ، مما يعنى أن عهد زيادة الله بولايته لصقليه التى وصل اليها فى رمضان ، كما ينص على ذلك ابن الاثير دون تحديد السنه ، كان فى نفس سنه ٢٢٢ هـ/٨٣٧ ، على مانرى(١٧٣)

ولاية أبى الأغلب ابراهيم بن عبد الله

أعمال حربية فى الطريق الى الجزيرة :

وصل أبو الأغلب ابراهيم بن عبد الله الى صقلية أميرا فى منتصف رمضان (سنة ٢٢٢ هـ/ ٣١ أغسطس ٨٣٧ م) ، وقد زوده زيادة الله بأسطول حربى كبير التقى وهو فى الطريق بأسطول رومى فهزمه وغنم كثيرا من مراكبه • وأمر أبو الأغلب بضرب رقاب كل من وجد فيها من الروم • ويقول ابن الأثير ان أبا الأغلب سير أسطولا آخر الى قوصرة ، فاستولى على حراقة

---

(١٧١) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ، وانظر ابن خلدون (الذى يلخص نفس الرواية التى نظن انها مأخوذة من الرقيق) ، المكتبة ، ص ٤٦٨ •

(١٧٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ •

(١٧٣) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٦ •

الروم ، وجد فيها رجل متنصر من أهل افريقية ، فأمر بضرب رقبته أيضا ومن معه(١٧٤) .

توسيع النشاط الحربي الى مسينا :

ووسع أبو الأغلب دائرة نشاطه نحو الشمال الغربي للجزيرة ، فبعث سراياه الى جبل النار في منطقة اتنا وما فيها من الحصون ، وذلك بقيادة الفضل بن يعقوب، فكاد للعدو وأحرق الزروع ، وعاد سالما بالغنائم والأسلاب. ولقد بلغت الغنائم في بعض تلك الغزوات من الكثرة الى حد بيع الرقيق بأبخس الاثمان(١٧٥) . ويقول ابن الاثير أن أبا الأغلب سير أيضا أسطولا الى الجزائر - وربما كان المقصود بها جزائر الايوليان (Eolian) - في منطقة قلورية القريبة من مسينا - فغنموا غنائم عظيمة ، وفتحوا مدنا ومعاقل ، وعادوا سالمين(١٧٦) .

الى قطانية :

أما السرية التي وجهها الى قطانية فلم يخالفها التوفيق ، اذ لقيها العدو وهي محملة بالغنائم ، ونجح في الظهور عليها(١٧٧) .

الى قصريانة : هزيمة السرية ، وأسر قائدها عبد السلام بن عبد الوهاب :

وكذلك لم توفق السرية التي وجهها الى قصريانة ، والتي نرى أن قيادتها كانت الى القائد عبد السلام بن عبد الوهاب ، كما في رواية ابن عذارى . فقد خرج اليها الروم ، وانتهى القتال بانهزام المسلمين واصابة جماعة

---

(١٧٤) ابن الاثير سنة ٢٠٢ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٦ . ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٩ ، المكتبة ، ص ٤٦٨ ـ الذي يضع تلك الأحداث في سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٥م ، وكذلك الأحداث التالية التي يضعها ابن عذارى في سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧م ، وهو ما أخذنا به .

(١٧٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ (أحداث سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧م) حيث يجعل غزوة الفضل لحصن « مدنار » وغيره من المعاقل . ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ المكتبة ، ص ٢٢٦ (حيث أحداث سنة ٢٢٠ و ٢٢١ هـ) . ابن خلدون (ملخص عن ابن الأثير ، سنة ٢٩١ هـ ، المكتبة ، ص ٤٦٨ .

(١٧٦) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٦ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٤٦٨ .

(١٧٧) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٦ (حيث اسم المدينة في النص قسطلياسة ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٢٢٦ (حيث اسم المدينة الطلياطة) ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ حيث الاسم : قطلياطة) .

منهم(١٧٨) . كما وقع قائد الحملة عبدالسلام فى أسر الروم ، وبقى بين أيديهم الى أن تم فداؤه بعد ذلك(١٧٩) .

اخضاع قصريانة :

ولا بأس من أن يكون القائد عبد السلام بن عبد الوهاب قد تم فك اساره فى نفس سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م ، فى فصل الشتاء ، عندما دخل المسلمون مدينة قصريانه قاعدة الجزيرة الوسطى ، فجأة بعد أن عثر بعض المسلمين من رجال السرايا التى كانت تحوم حولها على ثغره فى أسوار ربض المدينة ، فاستدعى العسكر الذى دخلها على حين غرة من أهلها ، واستولى على الربض ، ثم حاصر الحامية الرومية فى الحصن . ولكن الأمر انتهى بالصلح على أن يدفع أهل قصريانة الجزية ، وعاد العرب الى بلرم محملين بالمغانم والأسلاب(١٨٠) .

الحرب البحرية ووفاة زيادة الله :

وفيما بين معركتى قصريانة حقق العرب نجاحا على الروم فى بعض المعارك البحرية التى انتهت بأن غنموا احدى عشرة قطعة من سفن الروم ، منها : ٩ (تسع) مراكب كبار برحالها ، واثنتين من نوع الشلندى (المخصص لحمل الفرسان والعتاد الثقيل)(١٨١) .

وفى نفس السنة ، وهى سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م ، كان العرب يحاصرون مدينة جلفوذى (Cefalu) - على الشاطىء الشمالى ، على بعد ٥٠ ميلا شرقى بلرم(١٨٢) - منذ مدة ، ويضيقون عليها الخناق ، عندما وصلت قوات رومية كبيرة فى البحر الى المنطقة ، فاضطر العرب الى فك الحصار ، والتقوا بالروم . وبينما كانت المعارك تدور بين الجانبين ، فى منتصف سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣٨ م ، أتت من افريقية أنباء وفاة الأمير زيادة الله ، فكان ذلك سببا فى وهن العرب لبعض الوقت ، ولكنهم ما لبثوا أن تماسكوا ، وضبطوا أنفسهم ،

---

(١٧٨) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٦ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

(١٧٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ .

(١٨٠) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ص ٢٢٧ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ ، المكتبة ص ٤٦٩ .

(١٨١) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٧ . ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٩ ، ج ٤ ص ٢٠٠ .

(١٨٢) الادريسى ، المكتبة ص ٢٨ .



شكل رقم (٣)
صقلية وجنوب ايطاليا كما رسمها الادريسي

ونشطوا كسابق العهد بهم ، كما تقول الرواية(١٨٣) ·

خلاصة ما تم في صقلية على عهد زيادة الله الأول :

وهكذا يكون المجاهدون في صقليه قد أمضوا عشر سنوات من عهد زيادة الله في الجزيرة ، وطدوا أقدامهم خلالها في الجزء الغربي منها ، ما بين جرجنت على الساحل الجنوبي وبلرم على الساحل الشمالي · وكانوا قد مدوا نفوذهم في وسط الجزيرة الى قصريانة ، بينما سرحت سراياهم في كل مكان من الجزيرة ، ما بين سرقوسة في الجزء الجنوبي من الساحل الشرقي الى ميناو ، قرب لنتيني ، ثم الى جبل النار حتى منطقة مسينا في أقصى ذلك الساحل نحو الشمال ·

الفتوح في عهد أبي عقال الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب :

حملة من افريقية ، وتوسع في داخل الجزيرة ، وفي جنوب ايطاليا :

وفي عهد أبي عقال الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب ، الذي لم يطل الا الى أقل من ثلاث سنوات ، استمر نشاط العرب في استكمال الفتح في الجزيرة ، بل وبدأوا في التوسع في جنوب ايطاليا · فتقول رواية ابن الأثير أن الأمير الأغلب سير سرية في سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٩ م الى صقلية فغنمت وسلمت(١٨٤) · وهذا يعني أن تلك السرية سارت في البحر من افريقية ، وهو الأمر الذي يسترعي الانتباه ، اذ يعني أن قوات الأمير الرئيسية في افريقية كانت تشارك في الأعمال الحربية في صقلية بأوامر ومباشرة من الأمير — وهذا ما سيظهر بشكل أكثر وضوحا على أيام الفاطميين ·

وفي سنة ٢٢٥ هـ/٨٤٠ م استأمن للعرب ، أي دخل في عهدهم ، عدد من حصون الجزيرة ، منها : جرجة (Geraci) ، وقلعة البلوط (Caltabellotta) فيما بين جرجنت ومازر ، وابلاطنو (Platani) ، وقلعة قارلون (Corleone) ، ومريناو (Marineo) (١٨٥) ·

---

(١٨٣) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٦٩ ، وعن وفاة زيادة الله أنظر فيما سبق ، ص ٧٥ ·

(١٨٤) ابن الأثير ، سنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٦ ، المكتبة ، ص ٢٢٨ ·

(١٨٥) قارن الادريسي ، المكتبة ، ص ٤٨ ، حيث القراءة جرجنت بدلا من جرجة ، وقارن بدلا من قارلون ، ومرينا بدلا من مريناو كما في القراءة الجيدة في نهاية الارب للنويري —

الفتح في كلابريا (قلورية) بجنوب ايطاليا :

وفي نفس السنة (٢٢٥ هـ/٨٤٠ م) ، وسع العرب في صقلية نشاطهم الى قلورية (كلابريا) في جنوب ايطاليا ، حيث سار الاسطول وفتحها ، كما تقول الرواية ، وهزم الأسطول البيزنطي الذي تعرض له هناك ، فانسحب عائدا الى القسطنطينية ، وكان فتحا عظيما(١٨٦) ٠

العرب يوطدون أقدامهم في وسط الجزيرة :

وفي السنة التالية (٢٢٦ هـ/٨٤١ م) ، وهي السنة التي توفي فيها ابو عقال الاغلب ، ظهرت سيطرة المسلمين على منطقة وسط الجزيرة ، عندما سيروا سراياهم الى منطقـــة قصريانة ، ففعلت بها الأفاعيل ، من : افســاد الزروع ، واحراق الدور ، وأخذ المغانم والسبي ٠ ولم يعترضهم معترض ، فساروا الى حصن الغيران الــذي كان يشتمل عــلى أربعين غارا فغنموها جميعا(١٨٧) ٠

وبذلك يكون العرب قد وطدوا أقدامهم في وسط الجزيرة على عهد أبي عقال القصير ، كما مدوا نشاطهم العسكري الى كلابريا في جنوب ايطاليا ، وهو الامر الذي سيجذب انتباههم منذ ذلك الوقت ، مما يعني أن صقلية لم تعد - بالدرجة الأولى - أرض الرباط والجهاد ، بعد أن استولى العرب على كثير من أجزائها ، وأخضعوا معظم ما كان قد تبقى بين أيدي الروم من مدنها لعهدهم ٠

محاولة فتح باري :

ففي سنة ٢٢٦ هـ/٨٤١ م غزا حياة مولى أبي عقال الأغلب منطقـــة باري ، شمال برتديزي ، التي لم يكن أهلها من الروم ، ولكنه لم يقـــدر

= (المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ ب ، المكتبة ص ٤٣١) ، وقارن ابن الأثير - السنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٤ المكتبة ص ٢٢٨ (حيث القراءة حصن البلوط بدلا من حرصة وقلعة البلوط ، وترلون بدلا من قلعة قاروب ، ومرو او مرناو بدلا من مريا) ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٤٦٩ (حيث يكتفي بذكر كلمتي عدة حصون) ٠ وانظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ١٢ ٠

(١٨٦) ابن الاثير ، سنه ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٤ ، المكتبة ، ص ٢٢٨ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٤٦٩ ٠

(١٨٧) ابن الأثير ، سنه ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٤ ، المكتبة ، ص ٢٢٨ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ ، المكتبه ، ص ٤٦٩ ٠



شكل رقم (٤)
صقلية وجنوب ايطاليا

عليها(١٨٨) . والنص هنا على أن أهل بارى لم يكونوا من الروم يعنى أنهم كانوا من الايطاليين المستقلين عن البيزنطيين ٠

فتح نابولى ومسينا :

وفى سنة ٢٢٨ هـ/٨٤٣ م على عهد أبى العباس محمد بن الأغلب ، سار الفضل بن جعفر الهمذانى فى الأسطول ، ونزل فى مرسى مسينى وأحاط به ٠ ورغم امتناع مسينى عليه فانه أخذ يبث سراياه فى كلابريا وايطاليا حيث وصلت إلى مدينة نابل (نابولى) التى طلبت الأمان ، نظير دفع الجزية ٠

---

(١٨٨) ابن الأثير ، سنة ٢٢٦ هـ ، المكتبة ، ص ٢٣٩:٢٠

والتي نفهم من الرواية أنه كان من شروط صلح نابولي أن يسير بعض أهلها مع العرب لمعاونتهم على اخذ مسيني فكأن مملكة نابولي أصبحت حليفا للأغالبة في ايطاليا(١٨٩) ، وذلك جريا على سياسة الحلف التي مارسها العرب في فتوحهم والتي قضت بالتحالف مع أهل البلد المفتوح من أجل المعاونة على فتح ما وراءه من البلاد • وفعلا بينما كان أهل مسيني مشغولين بقتال جعفر استدار العرب وحلفاؤهم من أهل نابولي خلف الجبل (جبل النار) المطل على المدينة ، وصعدوا اليه ثم انهم نزلوا منه اليها ، فانهزم أهل مسيني وفتح العرب البلدة(١٩٠) ، كما فتحوا أيضا مسكان(١٩١) • وبفتح مسيني سيطر العرب على المضيق وأصبح أسطولهم في موقف استراتيجي ممتاز بالنسبة للأسطول البيزنطي وسط البحر المتوسط •

استئساد العرب ، وانهيار مقاومة الروم :

الالحاح على مدينة لنتيني (Lentini) :

وأمام هذه الفتوح العظيمة قويت نفوس العرب واستأسدوا ، بينما ذل الروم في صقلية ، حتى أنه عندما سار أبو الأغلب العباس بن الفضل في سرية ، في سنة ٢٢٩ هـ/٤٣ — ٨٤٤ م التالية ، الى مدينة بثيرة (Butera) انتهى القتال الكبير بانهزام الروم هزيمة فاحشة ، اذ تركوا في أرض المعركة أكثر من عشرة آلاف رجل ، بينما لم يستشهد من المسلمين سوى ثلاثة نفر — ولا بأس في مبالغة الرواية العربية التي تقول انه لم يكن بصقلية قبلها

---

(١٨٩) أنظر أحمد المدني ، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، ص ٧١ — حيث الاشارة الى الأوضاع المضطربة في جنوب ايطاليا حيث كان النزاع قائما بين مملكة نابولي وجارتها مملكة بنيفنتو (Benevento) اللومباردية • وان تحالف أهل نابولي مع العرب كان بهدف مقاومة الخطر الذى تهددهم من جانب أهل بنيفنت • وهكذا منذ هذا الوقت استقر العرب المغاربة في قلب ايطاليا وكونوا مملكة مستقلة هي الأخرى عن صقلية الأغلبية ، وهذا ما تشير اليه النصوص بشكل مجمل فيما بعد • أنظر فيما بعد ، عن فتح بارى وتبعية تلك المملكة العربية الايطالية الى خلافة بغداد ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ •

(١٩٠) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ ، ج ٧ ص ٢ من المكتبة ، ص ٣٢٩ (حيث النص : وقاتل الفضل في مدة سنتين » بدلا من مدينة لنتيني » فهي القراءة الصحيحة الموجودة في الهامش) ، وقارن ابن خلدون من المكتبة ، ج ٤ ص ٤٧٠ (حيث يكتفي بذكر فتح مسيني دون ذكر صلح أهل نابولي)

(١٩١) نفس المصدر

مثلها ، بعض الشيء(١٩٢) .

واستمر الهدوء في صقلية في سنتي ٢٣٠ و ٢٣١ هـ (٨٤٤ ـ ٨٤٦ م)، ولا بأس أن يكون ذلك الهدوء بسبب غموض الأحـــوال في القيروان ، اثر الانقلاب الذي دبره أحمد بن الأغلب ضد أخيه الأمير محمد ، اذ لا يستعيد العرب نشاطهم في صقلية الا في سنة ٢٣٢ هـ/٤٦ ـ ٨٤٧ م ، بعـــد أن يستعيد محمد سلطاته من أخيه أحمد . أما عن السلم الذي كانت الامبراطورة تيودورا قد عقدته وقتئذ مع العباسيين في المشرق(١٩٣) ، فأغلب الظن أنه لم يكن يقيد نشاط الاغالبة أو البيزنطيين ضد بعضهم البعض .

اخذ لنتيني :

ففي تلك السنة (٢٣٢ هـ/٤٦ ـ ٨٤٧ م) سار الفضل بن جعفر على رأس قواته الى مدينة لنتيني على الساحل الشرقي لصقلية ، شمال سرقوسة ، وضرب عليها الحصار وراسل أهل لنتيني بطريق صقلية الرومي ، المقيم في سرقوسة ، وطلبوا منه النجدة ، فاتفق معهم على أن يحضر اليهم برجاله على حين غرة من العرب الذين يقعون ، عندئذ ، بين شقي الرحا . وتم الاتفاق على أن تكون علامة وصولهم اليهم ، هي : ايقاد نار في بعض جبال المنطقـــة لمدة ثلاثة أيام ، ويكون وصولهم اليهم في اليوم الرابع . وعرف الفضل ، عن طريق جواسيسه تلك الاشارة ، وورد على أهل لنتيني كيدهم في نحرهم ، فأوقد هو النار في الجبل الموعود ، وأعد الكمائن لاستقبال حامية لنتيني في اليوم الرابع من ايقاد النار .

وعندما خرج أهل لنتيني لاستقبال النجدة ، انهزم العرب الذين كانوا يحاصرونهم نحو الكمين ، فلما جازوه وقعوا هم بين شقي الرحا ، ووضـــع السيف فيهم ، فلم ينج منهم الا القليل . وبذلك انتهت المعركة بأن سلم أهل لنتيني مدينتهم الى العرب في نظير الأمان ، في : نفوسهم وأموالهم(١٩٤) .

---

(١٩٢) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٧ ص ٢ ، المكتبة ، ص ٢٢٩ ـ حيث القراءة شرة وسرة ، والتصحيح في بشيرة ، لأماري .

(١٩٣) أنظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ١٣ .

(١٩٤) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٧ ص ٣ ، المكتبة ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ملحق ، ص ٤٧٠ ، ج ٤ ص ٢٠١ (حيث لنتيني بدون نقط) ، تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٦ (حيث ينص على أخذ لنتينية في سنة ٦٣٥٥ ، وهو الأمر الصحيح اذا عرفنا انها فتحت بعد عشرين سنة من نزول العرب في الجزيرة ، وذلك في سنة ٦٣٣٥ حسب نفس التاريخ (ص ١٦٥) .

الاستيلاء على طارنت في لمبارديا :

وفي نفس السنة (٢٣٢ هـ/٨٤٧ م) اجتاح العرب جنوب ايطاليا واستولوا على مدينة طارنت من اقليم لمبارديا (انكبردة) ، وسكنوها(١٩٥) ، كما وصلوا في غاراتهم حتى مدينة روما نفسها(١٩٦) . وفي سنة ٢٣٣ هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٤٨ م التالية ، أتت عشر شلنديات للروم وارست في مرسى الطين ، على بعد ١٠ (عشرة) أميال غرب بلرم(١٩٧) . وعندما خرجت للاغارة على العرب ضلت الطريق ، وغرق منها ٧ (سبع) شلنديات ، وهي في طريق العودة(١٩٨) .

أخذ أرغوس ، وهدمها :

وفي السنة التالية (٢٣٤ هـ/٤٨ ـ ٨٤٩ م) أرغم العرب أهل مدينة أرغوس على بعد ١٣ ميلا من مدينة شكلة في الركن الجنوبي الشرقي من الجزيرة ، و ٥٠ ميلا من بثيرة(١٩٩) ، على طلب الصلح نظير تسليم مدينتهم التي هدمها العرب ، وأخذوا منها ما أمكنهم حمله(٢٠٠) . وهذا يعني أن فتوحات العرب في الجزيرة كانت أكبر مما يحتمله توزيع الجند عليها ، فكانوا يتخلصون منها بالهدم والتخريب .

أما في سنة ٢٣٥ هـ/٤٩ ـ ٨٥٠ م ، فكانت منطقة قصريانة هدفا لغارات العرب الذين أفسدوها ، ونشروا الذعر بين أهلها ، قبل أن يعودوا بالمغانم والأسلاب(٢٠١) ، مما يعني أن أهل قصريانه كانوا قد أخلوا بالعهد ، وأن تلك الحملة كانت تاديبية لردعهم .

---

(١٩٥) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٧ ص ٣ ، المكتبة ، ص ٢٣٠ ، وانظر ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧٠ ـ الذي يجعل ذلك في السنة التالية ٢٣٣ هـ ، ولو انه لا يذكر اسم المدينة .

(١٩٦) آنظر فوندر هيدن ، الأغالبة (بالفرنسية) ، ص ٢٧٨ .

(١٩٧) الادريسي ، المكتبة ، ص ٦٦ .

(١٩٨) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٧ ص ٣ .

(١٩٩) الادريسي ، المكتبة ، ص ٣٨ .

(٢٠٠) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٧ ص ٣ ، المكتبة ، ص ٢٣٠ ، ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧٠ .

(٢٠١) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٧ ص ٣ ، المكتبة ، ص ٢٣٠ .

وفاة أبى الأغلب ابراهيم بن عبد الله :

وبعد هذه الانتصارات اللامعة ، توفى والى صقلية أبو الأغلب ابراهيم ، فى ١٠ من شهر رجب سنة ٢٣٦ هـ/١٠ يناير ٨٥١ م ، بعد ولاية استمرت أكثر من خمسة عشر عاما ، منذ سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م(٢٠٢) . والحقيقة إنه رغم ما قد يظهر من الخلط بين أبى الأغلب ابراهيم بن عبد الله هذا ، وأخيه أبى فهر محمد بن عبد الله الذى كانت له الولاية من قبل(٢٠٣) ، مما يمكن أن يفهم منه أنه ربما حدث خطـــأ فى الاسم ، وأن المقصود بالاسمين شخصية واحدة فقد رأينا ترجيح رواية ، ابن عذارى ، التى أنهت ولاية أبى فهر محمد سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م ، وختمت ولاية أبى الأغلب ابراهيم فى سنة ٢٣٦ هـ/٨٥١ م . وبنـــاء على ذلك فقد أخذنا رواية ابن الأثير ، ومن نقلها عنه من الكتاب ، وهى الخاصة بوفاة أبى فهر محمد ، أمير صقلية ، فى سنة ٢٣٦ هـ/٨٥١ م على أنها خاصة بأبى الأغلب ابراهيم . وتشير تلك الرواية الى انه كان لا يغزو بنفسه ، بل أقام فى بلرم ، من حيث كان يسير الجيوش والسرايا مع نوابه ، فتفتح وتغنم(٢٠٤) .

ولاية العباس بن الفضل بمعرفة الجند : قيادة قوية حازمة :

واجتمع قواد العسكر بعد وفاة أبى الأغلب ابراهيم ، وتظروا فيمن تكون له القيادة بعده ، وتم اتفاقهم على أن تكون قيادتهم الى العباس بن الفضل ابن يعقوب ، وكتبوا بذلك الى أمير افريقية محمد بن الأغلب الذى أقر العباس فى ولاية صقلية ، وكتب اليه العهد بالجزيرة ، ولم ينتظر العبـــاس الى أن يصله عهد القيروان له ، فبدأ يمارس سلطاته ، فكان يقود الجيوش بنفسه أو يبعث السرايا ، وهو مقيم فى بلرم ، تغـــير وتعود اليـــه بالمغـــانم والأسلاب(٢٠٥) .

---

(٢٠٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١١ .

(٢٠٣) انظر فيما سبق ، ص ٢٣٣ .

(٢٠٤) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ ، ج ٧ ص ٣ ، المكتبة ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ، أبو الفدا لمختصر ، المكتبة ، ص ٤٠٤ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ (حيث النص : « وكان من قبــل برو (بدون لا) ويبعث السرايا) ، المكتبة ، ص ٤٧١ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ى ٢٢٨ ب .

(٢٠٥) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٣ ، المكتبة ، ص ٢٣٣ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ص ٤٧١ (حيث اسم العباس : العباس بن الفضل بن جعفر بن يعقوب ابن فزارة) ، النويرى : المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ ب .

وعندما وصل كتاب الولاية الى العباس بن الفضل(٢٠٦) ، بدأ بتسجيل نشاط عظيم جعل من عهده فترة مميزة في تاريخ صقلية العربية ، وهذا ما عبر عنه ابن عذارى ، اذ يقول : « فجاهد كثيرا ، وغزا طويلا . وكان له في الروم مواقف أذلهم بها »(٢٠٧) . فقد خرج العباس بنفسه في سنة ٢٣٧ هـ/ ٨٥١ م ، على رأس قواته التي جعل على مقدمتها عمه رباح (بن يعقوب) ، الذي وجهه نحو قلعة أبي ثور ، بينما اتجه هو نحو قصريانة(٢٠٨) ، التي كان قد اتخذها الروم عاصمة لهم بدلا من سرقوسة المعرضة للغارات البحرية. وذلك بعد استيلاء العرب على بلرم(٢٠٩) .

وأدى رباح المهمة فأغار على قلعة أبي ثور ، وأسر وغنم ، ولحق بالعباس حيث قتل الأسرى . وعاثت القوة العربية في اقليم قصريانة ، وهي تفسد وتحرق وتخرب ، وتأسر وتسبي . ولما لم يخرج البطريق قائدها للقاء العرب عادوا الى بلرم(٢١٠) .

الالحاح على قصريانة وسط الجزيرة ، واجتياح الساحل الشرقي :

وواضح من تتبع العمليات الحربية التي قام بها العباس بن الفضل ، انه كان يرمي الى تحقيق أهداف أبعد بكثير من أهداف سابقيه من الولاة ، وأنه كان يطمح في انهاء الوجود البيزنطي في الجزيرة ، وأنه كان قد قرر الاستيلاء على قصريانة ، كهدف أول له .

ولكنه لما كان من الصعب اقتحام المدينة الحصينة في قمة جبلها المنيع ، فانه رأى الالحاح عليها بالقتال والتخريب حتى ينتهي أمـــرها بالارهاق ثم السقوط . فقد قام العباس بالغارة على منطقتها في سنة ٢٣٨ هـ/٨٥٢ م الثانية في عسكر عظيم ، فغنم وخرب وقتل ، وبعث برؤس القتلى الى بلرم . ومن قصريانة سار العباس ليوسع عملياته في نواحي الساحل الشرقي مبتدئا

---

(٢٠٦) ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٩ . أبو الفدا ، المختصر ، المكتبة ، ص ٤٠٥

(٢٠٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١١ .

(٢٠٨) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٣ ، المكتبة ، ص ٢٢١ (حيث اسم : رباح بن سعفر بدلا من ابن يعقوب) .

(٢٠٩) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ ب .

(٢١٠) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ ، ج ٧ ص ٢٣ ، المكتبة ، ص ٢٢١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧١ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١١١ (الذي يقول بشكل عام انه غنم غنائم عظيمة ، وسبى سبيا كثيرا ، وافتتح بلادهم) .

من قطانيا ، في اتجاه الجنوب ، نحو سرقوسة ونوطس ، ثم أرغوس في الطرف الجنوبي الشرقي للجزيرة ، « فغنم من جميع هذه البلاد وخرب وأحرق » ، قبل أن ينزل على بثيرة التي ضرب عليها الحصار لمدة خمسة أشهر — فكان أخذها في سنة ٢٣٩ هـ/٨٥٣ م التالية — ولم يرفعه عنها الا بعد أن صالحه أهلها على خمسة آلاف رأس من الماشية(٢١١) .

واستمر العباس يلح بالصوائف على مدن الروم وحصونهم في الجزيرة خلال السنوات التالية ، كما يتضح من الحوليات الصقلية في ابن عذارى ، الذي يكتفي بالاشارة الى أعمال الافساد والتخريب والنكاية في الروم ، في سنوات ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م و ٢٤١ هـ/٨٥٥ م . وهو يشير الى اقامة الفضل في تلك السنة الأخيرة في بعض الجبال لمدة ثلاثة أشهر ، يضرب كل يوم حول قصريانة ، فيقتل ويصيب ، وتغنم سراياه في كل جهة . كما أنه سير أخاه علي بن الفضل في البحر فأصاب وغنم ، وعاد بأعداد كبيرة من الماشية(٢١٢) .

أما في سنة ٢٤٢ هـ/٨٥٦ م ، وهي السنة التي توفي فيها الأمير الأغلبي أبو العباس محمد بن الأغلب ، وولي ابنه أبو ابراهيم احمد بن محمد بن الأغلب ، فقد استولى فيها العباس على عدد من حصون الروم(٢١٣) .

الاستيلاء على الحصن الجديد :

واستمر الحاح العباس على قصريانة (عاصمة الروم) فخرج اليها في

---

(٢١١) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٢٤ المكتبة ، ص ٢٣١ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧١ — الذي يلخص الرواية تلخيصا اشبه بالبتر ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١١ — الذي يكتفي بالاشارة الى أعمال القتل وبعث الرؤس الى بلرم ونسف الزروع وسبي السبايا في سنة ٢٣٨ هـ ، ثم يجعل تلك الحملة ضمن أحداث سنة ٢٣٩ هـ/٨٥٣ م ، وقارن تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة الصقلية ، ص ١٦٦ (حيث يجعل أخذ بثيرة في سنة ٦٣٦٢ ، أي بعد ٢٧ سنة من الفتح ، وهو ما يكاد يتفق مع تاريخ ابن عذارى) .

(٢١٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١١ — ١١٢ .

(٢١٣) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ص ٢٣١ — حيث القراءة ما بين « خمسة وجمة » ، بينما اخذ ابن خلدون (المكتبة ، ص ٤٧١) بقراءة الكلمة « حصون جمة » ، التي صححها اماري الى « حصون خمسة » ، لانه فضل خمسة على جمة في نص ابن الأثير . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٢ — حيث يقول ان العباس كان ينتقل من حصن الى حصن ففتح اكثرها ، وصالحه بعض أهلها .

سنة ٢٤٣ هـ/٨٥٧ م ، وهزم أهلها عندما خرجوا الى لقائه ، ثم انه تابع مسيرته من جديد الى سرقوسة وطبرمين حيث نشر النهب والتخريب والاحراق على طول الطريق • ونزل العباس على الحصن الجديد الذى كان قد بناه الروم في طبرمين ، جنوب مسينى على الساحل الشرقى رضيق الخناق على الحامية الرومية التى كانت به حتى أنهم فاوضوه على أن يشتروا رحيله عنهم بخمسة عشر ألف دينار ، ولكنه لم يقبل منهم ذلك •

وأمام الحاح العباس على حصن طبرمين الجديد يقول ابن الأثير ان الروم عرضوا على العباس الاستسلام له فى نظير شروط مجحفة بهم ، تقضى بأن يسلموا له الحصن ومن فيه على أن يطلق مائتى نفس منهم فقط • ووافق العباس وملك الحصن ، وباع كل من وجده فيه ، بعد أن وفى لهم بشرطهم فاطلق المائتى شحص الذين عينوهم ، ثم انه هدم الحصن • ويظهر شك ابن الأثير فى تلك الرواية عندما يتبعها بكلمتى والله أعلم[٢١٤] • ونحن نرى أنه ربما كان المقصود بشرط اطلاق المائتى نفس هو الا يأخذ منهم فدية ، بينما كان على الآخرين أن يفتدوا أنفسهم بالمال أو أن يسترقوا •

والى جانب ذلك نجح العباس فى ارغام أهل حصن « شلفودة » (جلفودى) على مصالحته ، شريطة أن يخرجوا من الحصن[٢١٥] •

فتح قصريانة :

وأخيرا صارت الظروف مواتية لفتح قصريانة فى سنة ٢٤٤ هـ/٥٨ — ٨٥٩ م • فعندما تحسنت الأحوال الجوية بعد فصل الشتاء ، سار العباس فى جيوشه من بلرم قاصدا قصريانة ، حيث نشر الرعب والخراب فى اقليمها • ثم انه اتجه نحو سرقوسة حيث كان قد سير أسطولا بحريا بقيادة أخيه على ، ليتم حصار المدينة من جهتى البر والبحر جميعا • والتقى أسطول على بن الفضل بأسطول رومى يتكون من أربعين شلنديا ، على رأسه قائد تسميه رواية النويرى بالاقريطشى أى الكريتى (الكريتلى)[٢١٦] • وانتهى

---

(٢١٤) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ص ٢٣٢ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٢ — الذى يسمى المكان بـ « قصر الحديد » (بدلا من القصر الجديد) ، ويقول ان العباس وافق على فدية الـ ١٥ ألف دينار •

(٢١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٢ •

(٢١٦) النويرى ، المخطوط، ج ٢٢ ص ٢٢٩ أ ، المكتبة ، ص ٤٣٢ ، وقارن ابن عذارى ••

القتـــال البحرى العنيف بانتصــار المسلمين وأسر عشر شلنديات رومية برجالها • ولكن الجيش البرى ، وكذلك الأسطول عادا الى قواعدهما فى بلرم بما أخذ من المغانم والسبى والاسلاب(٢١٧) •

والظاهر أنه أمام عدم تمكن العباس من تحقيق ما كان يرجـــوه من الاستيلاء على قصريانة خلال ما كان يقوم به من الصوائف ، فكر فى معرفة ما يمكن أن يقدر لذلك من النجاح خلال فصل الشتاء ، وقت البرد والثلج ، على غير المعتاد •

وقام العباس فعلا بتسيير شاتية الى قصريانة ، نهب رجالها وخربوا فى الاقليم ، وعادوا الى بلرم ومعهم رجل من وجهاء الروم • وتقول الرواية أن العباس أمر بقتل الرجل الذى انزعج للأمر ، وعرض أن يشترى حياته نظير أن يدل العرب على عورة لقصريانة ، يمكن لهم الدخول منها والاستيلاء على المدينة ، والقوم آمنون غير محترسين ، بسبب الشتاء والثلوج •

وانتخب العباس حوالى ألفى رجل من انجاد فرسانه وأبطالهم ، وسار بهم فى شهر كانون (ديسمبر — يناير) مع الرجل الى أن قرب من قصريانة حيث كمن معهم مستترا ، بينما سير عمه رباحا مع شجعان هؤلاء الرجال ، فساروا مستخفين فى الليل ، ودليلهم الرومى مقيد بين يدى رباح(٢١٨) • ودلهم الرجل على المكان الذى يمكنهم عن طريقه دخول المدينة • وكان الموضع الضعيف فى تلك العصور ، هو حيث الثغرة فى أسوار البلدة التى كان يخرج منها ماء نهرها محملا بالأوساخ ، وكان فى منطقة وعرة من الجبل • وهكذا

= ج ١ ص ١١٣ — الذى استنتج من اسم « الاقريطشى » ، وهو قائد الأسطول الرومى ان المعركة دارت بين العرب والروم قرب سواحل كريت •

(٢١٧) ابن الاثير ، سنة ٢٣٧ ، ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ، ص ٢٣٢ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ حيث يجعل ذلك فى سنة ٢٣٧ هـ وهى السنة التى خصصها ابن الاثير لكل تلك الفتوح ، المكتبة ، ص ٤٧١) • وقارن ابن عذارى ج ١ ص ١١٣ — الذى يذكر أنه جعل ذلك « دارت على المسلمين جولة ، فقتل منهم ، واخذت لهم عشرون مركبا • وهذا ما تشير اليه رواية كتاب التاريخ حسب تاريخ العالم عند الروم • المكتبة الصقلية ، ص ١٦٦ — اذ تقول روايته انه اخذت مراكب لعلى (ابن الفضل) فى تلك السنة • وانظر ص ٢٥٢ •

(٢١٨) ابن الاثير ، سنة ٢٣٧ هـ ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ص ٢٣٣ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٩ أ ، حيث تنص الرواية على ان رجال العباس كانوا الف فارس وسبعمائة راجل وأنه جعل على كل عشرة منهم مقدما •

تطلب الأمر استخدام السلاليم لارتفاع ذلك الموضع من الجبل ، والوصول الى السور حيث الثغرة أو الخوخة . وقبيل الفجر ، وأثناء استغراق الحراس في النوم ، تسللت جماعة الاستطلاع الى داخل السور ، ووضعت السيف في حراس الأبواب وفتحوها ، لكى يأتى العباس ورجاله على عجل ، ويدخلوا المدينة على حين غرة من أهلها مع آذان صلاة الصبح من يوم الخميس منتصف شوال/٢٥ يناير ٨٥٩ م . وقتل العباس من وجد في المدينة من المقاتلة ، وأخذ بنات البطارقة بحليهن وأبناء الملوك ، وأصاب في المدينة من الكنوز والذخائر ما يعجز عنه الوصف(٢١٩) . وكان للخليفة المتوكل الذى أخطر بهذا النصر الكبير ، نصيبه من السبى الجميل(٢٢٠) .

وتقول الرواية أن العباس بنى في قصريانة مسجدا في الحال ونصب فيه منبرا ، وخطب فيه يوم الجمعة(٢٢١) ، وهو اليوم التالى . ولا بأس أن يكون العباس قد حول كتدرائية المدينة الى مسجد جامع بعد أن زودها بمنبر أمكن اعداده في يوم وليلة .

رد الفعل لدى الروم :

حملة بحرية الى الجزيرة تنتهى بالفشل :

وكان استيلاء العرب على قصريانة ضربة شديدة للروم لم يكن من المقبول أن يتلقوها ساكتين . فلقد أرسل القيصر (ميخائيل الثالث) — في السنة التالية (٢٤٥ هـ/٨٥٩ م) ، حسبما يقتضى تنسيق الأحداث — من القسطنطينية أسطولا في ثلاثمائة شلندى نحو صقلية ، يحمل الجنود والعتاد ، في محاولة للتصدى للعرب واسترجاع المدينة الهامة . وعندما علم العباس بوصول تلك الحملة — التى كانت بقيادة قسطنطين كوندوميتيس (Constantine Kondomytes) (٢٢٢) — الى سرقوسة ، خرج بنفسه

---

(٢١٩) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧١ — ٤٧٢ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٩ أ ، ابو الفدا ، المكتبة ، ص ٤٠٥ ، تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٦ (سنة ٦٣٦٧ أى بعد ٣٢ سنة من الفتح) .

(٢٢٠) أنظر فوندر هيدن (بالفرنسية) ، ص ٣١ (عن ابن خلدون) .

(٢٢١) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ، ص ٢٣٣ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٢ .

(٢٢٢) عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ١٢ .

في رجاله وأساطيله ، والتقى بهم عند لحواز سرقوسة ، ونجح في هزيمتهم حتى ألجأهم الى مراكبهم ، كمـــا أنه تمكن من الاستيلاء عـلى ٣ (ثلث) من مراكبهم .

وتشير الرواية الى تفوق المسلمين على الروم في فن الحرب وقتئذ ، حتى قيل إنه في الوقت الذى كثر القتل في الروم لم يصب من العرب بالتشاب — أى من بعيد — الا ثلاثة نفر(٢٢٣) ، وهو الأمر المستغرب فعلا .

انتفاضات للروم :

ولا بأس من أن يكون الروم قد استطاعوا الثأر لتلك الهزيمة البحرية المفاجئة ، فهذا ما تشير اليه حوليات ابن عذارى ، بعد الانتصار الذى حققه على بن الفضل في البحر على الروم سنة ٢٤٤ هـ/٨٥٨ م ، اذ تقول : « ثم دارت على المسلمين جولة ، فقتل منهم ، وأخذت لهم عشرون مركبا »(٢٢٤) .

وهذا ما ترجحه الحوليات الصقلية في سنة ٢٤٦ هـ/٨٦٠ م ، عندما سجل نكث عدد كبير من القلاع الصقلية ، وخروجها على طاعة المسلمين ، مثل : سطر ، وآبلا (Avola) ، وأبلاطنو (Platanı) وقلعة عبد المؤمن ، وقسعة البلوط ، وقلعة أبى ثور (Caltavuturo) ، وغيرها من القلاع مما اضطر العباس الى الخروج اليهم في حملة تأديبية ، ألحق فيها الهزائم بعساكر الروم ، وحاصر قلعتى عبد المؤمن وابلاطنو .

وفى أثناء الحصار بلغته أنباء عن وصول قوات رومية الى الجزيرة فترك حصار القلعتين ، وسار الى لقاء الروم قرب قلعة جلفودى (Cefalu) شرق بلرم . وانتهى القتال بانهزام الروم الى سرقوسة ، وعودة العباس ابن الفضل الى بلرم(٢٢٥) .

---

(٢٢٣) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٤ . المكتبة ، ص ٢٣٣ : حيث النص على الاستيلاء على « ثلث مراكبهم » (اى مائة شلندى) وهو الأمر المستبعد . وقارن ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٢ ، ج ٤ ص ٢٠٢ : حيث النص ، « واقلع المهم الى بلادهم بعد أن غنم المسلمون من أسطولهم ثلاثة أو أكثر » .

(٢٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٣ ، وانظر فيما سبق ، ص ٢٥٠ ، هـ ٢١٧ .

(٢٢٥) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ، ص ٢٣٤ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٢ — حيث تصرف في الرواية وجعل مسير العباس الى سرقوسة لقتال الحملة الرومية ، وعودته الى قصريانة وليس الى المدينة « بارم » .

اعمار قصريانة ، ووفاة العباس بن الفضل :

واهتم العباس بقصريانة فعمرها وحصنها وشحنها بالمقاتلة . وفى السنة التالية (٢٤٧ هـ/٨٦١ م) ، وبينما كان العباس يجول برجاله فى منطقة سرقوسة ، ينكى فى الروم ويغنم أموالهم ، اعتل فى موضع غيران قرقنة (Caltagirone) علته التى مات فيها بعد ثلاثة أيام . وذلك فى ٣ جمادى الآخرة سنة ٢٤٧ هـ/١٥ اغسطس ٨٦١ م ، ودفن هناك – غير بعيد من قبر أسد بن الفرات – ولكن الروم نبشوا قبره وأحرقوه(٢٢٦) .

تقييم أعمال العباس :

وهكذا تميزت ولاية العباس بن الفضل التى استمرت احدى عشرة سنة ، داوم فيها الجهاد صيفا وشتاء ، بتحقيق انجازات لم يسبقه الى مثلها من تقدمه من الولاة . فكان من أهم أعماله غزو أرض قلورية (كلابريا) وأنكبردة (لومبارديا) التى أسكنها المسلمين(٢٢٧) . وكان تتويج أعماله فى صقلية بالاستيلاء على قصريانة التى أصبحت من أهم مـــدن العرب فى الجزيرة . وهكذا حق لابن عذارى أن يقول : انه « جاهد كثيرا ، وغزا طويلا ، وكان له فى الروم مواقف أذلهم بها »(٢٢٨) . وهكذا لم يكن من الغريب أن يعبر الروم عن حقدهم على العباس أو عن خوفهم منه ميتا ، كما كان حيا ، بنبش قبره ، و « احراق شلوه » ، كما يقول ابن خلدون .

---

(٢٢٦) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٥ ، المكتبة ، ص ٢٣٤ ، ابن خـ ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧٢ . وعن دفن العباس فى « كالتاجيرون » انظر عزيز تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ١٤ .

(٢٢٧) ابن الأثير سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٥ ، المكتبة ، ص ٢٣٤ ، ابن ج ٤ ص ٢٠٢ ،المكتبة ، ص ٤٧٢ .

(٢٢٨) البيان ، ج ١ ص ١١١ .

تأمير قوي في مستوى العباس بن الفضل وابنه عبد الله :

خفاجة بن سفيان (٢٤٨ ـ ٢٥٥ هـ/٨٦٢ م ـ ٨٦٩ م) وابنه محمد :

فترة انتقالية :

أحمد بن يعقوب ، وعبد الله بن العباس (جمادى الآخرة ٢٤٧ هـ/جمادى الأولى ٢٤٨ هـ) :

عندما توفي العباس في ميدان القتال ، اجتمع قادة العسكر ، كما كانت تجرى العادة في مثل هذه الظروف ، وتناقشوا فيمن يخلفه في قيادة الجيش، وامارة صقلية بالتالي . وبينما تنص رواية ابن الأثير على أن الناس ولوا عليهم ابنه عبد الله بن العباس ، وكتبوا بذلك الى الأمير الأغلبي في القيروان(٢٢٩) ، ينص ابن عذارى على أن الذى ولى بعد العباس هو عمه أحمد بن يعقوب ، وأن اهل صقلية الذين ولوه : « كتبوا بذلك الى صاحب افريقيـــة أبى ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ، فجاء كتابه باثباته(٢٣٠) .

والظاهر أن الأمرين جميعا صحيحين مع اختلاف الترتيب الزمني ، فهذا ما يظهر من رواية النويرى التى تقول ان النـــاس ولوا « على أنفسهم أحمد بن يعقوب ، ثم ولوا عبد الله بن العباس ، وكتبوا الى أمير القيروان ، فولى خمسة أشهر »(٢٣١) . إذ لما كان الوالى التالى ، وهو خفاجة بن سفيان، قد وصل من القيروان الى الجزيرة في شهر جمادى الأولى من السنة التالية (٢٤٨ هـ/يولية ٨٦٢ م) ، فكأن الفترة ما بين وفاة العباس ووصول خفاجة بلغت ١١ (احد عشر) شهرا ، ولى منها عبد الله بن العباس خمسة أشهر ، فتكون ولاية عمه أحمد بن يعقوب قبله ـ التى لا نعرف الظروف التى انتهت فيها ، وهل كانت بسبب وفاته أم بسبب عدم رضاء الجند عنه ـ قد استمرت لمدة ستة أشهر ، من جمادى الآخرة سنة ٢٤٧ هـ/اغسطس ٨٦١ م الى ذى الحجة من نفس السنة (فبراير ٨٦٢ م) ، وتكون ولاية عبد الله بن العباس ـ التى لا نجدها في حوليات ابن عذارى ـ قد بدأت من ذى الحجة وانتهت في

---

(٢٢٩) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤٠ ؛ المكتبة ، ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧٢ .

(٢٣٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٣ .

(٢٣١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٦ ب .

جمادى الأولى سنة ٢٤٨ هـ/يولية ٨٦٢ م • وينص ابن الأثير على أنه خلال الاشهر الخمسة التى ولى فيها عبد الله بن العباس ، سار على نفس سياسة الغزو القوية التى اتبعها والده ، والتى كان يشاركه فى تنفيذها ، فأخرج السرايا ، ففتحت قلاعا عدة ، منها : قلعة جبل أبى مالك وقلعة الارمنيين ، وقلعة المشرقة(٢٣٢) •

اختيار خفاجة بن سفيان :

أما لمـــاذا لم يترك الأمير أبو ابراهيم أحمد بن محمد القائد عبد الله بن العباس فى منصبه ، وهو الذى خبر أحوال الجهاد فى صقلية وفى ايطاليا طوال الاحدى عشرة سنة التى ولى فيها والده ، وكان فيها بمثابة الشريك له ، فلا ندرى ان كان الأمر خاصا بمزاج أمير القيروان أم أنه كان قد حدث خلاف بين أفراد أسرة عبد الله بن العباس بن الفضل ، شارك فيه الجند ، مما أدى الى عزلهم لعمه أحمد بن يعقوب وتوليته ، وهو الأمر الذى يجعل اختيار أمير القيروان لقائد آخر من لدنه ، وهو خفاجة الذى كان له شأنه بين قواد افريقية ، أمرا مقبولا •

والمهم أن خفاجة وصل الى الجزيرة فى جمـــادى الأولى سنة ٢٤٨ هـ/ يوليه ٨٦٢ م ومعه ابنه محمد • وتسلم مقاليد الأمور فى بلرم ، وانتهـــج سياسة عسكرية قوية ، تعتبر استمرارا لسياسة العباس بن الفضل •

التوسع فى اقليم سرقوسة والركن الجنوبى الشرقى : فتح نوطس :

فلقد بدأ خفاجة نشاطه فى التو واللحظة ، فسير ابنه محمدا على رأس سرية قصدت منطقة سرقوسة ، حيث غنمت وخربت وأحرقت ، وظفرت بمن تعرض لها من الروم • وقبل أن يعود الى بلرم عرج على أرغوص وضيق عليها حتى طلب أهلها الأمان(٢٣٣) ، أى أنهم عادوا الى الخضوع لدفع الجزية •

---

(٢٣٢) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤٠ •

(٢٣٣) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ج ٧ ص ٤٠ ، المكتبة ، ص ٢٣٥ — ولما كانت الحوليات الصقلية تذكر أن العرب قد عادوا الى أرغوص مرة أخرى فى سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م ، فان ابن الأثير يتساءل عما اذا كان قد حدث خلط بين التاريخين أم أن الأمر يتعلق بغزوتين مختلفتين — بعد نكث أهل ارغوص — وهو الأمر الذى نراه مقبولا فى حرب الصوائف السنوية ، هذه • وهذا ما تؤكده رواية تاريخ المسلمين فى صقلية بحسب تاريخ العالم عند الروم (المكتبة ، ص ١٦٦) حيث أخذت أرغوس للمرة الأولى فى سنة ٦٣٥٦ ، وأخذت فى المرة الثانية فى سنة ٦٣٧٥ — وان كانت المسافة بين الفتحين كبيرة تبلغ حوالى ١٩ سنة •

وظل خفاجة - الذى أقره فى ولاية صقلية الأمير زياده الله (الثانى) بن محمد ابن الأغلب ، وأرسل إليه بالخلع رمز الامارة ، عندما ولى امارة الاغالبة فى ذى القعدة سنة ٢٤٩ هـ/ديسمبر ٨٦٣ م ، عقب وفاة أخيه أحمد(٢٣٤) - يلح بالصوائف على اقليم الركن الجنوبى الشرقى من الجزيرة حتى تمكن من فتح مدينة نوطس جنوب سرقوسة ، فى المحرم من سنة ٢٥٠ هـ/مارس ٨٦٤ م ، وذلك بالاستعانة ببعض أهل المدينة الذى دل العرب على الموضع الذى أمكنهم الدخول منه ، وأخذ العرب فى نوطس أموالا عظيمة - ومن نوطس سارت القوات العربية غربا حيث فتحت شكله (Scicli) فى جنوب أرغوس ، بعد أن ضربوا عليها الحصار مدة(٢٣٥) .

وعندما توفى زيادة الله الثانى فى ذى القعدة من سنة ٢٥٠ هـ/ديسمبر ٨٦٤ م ، أى بعد سنة واحدة من الولاية ، أقر خفاجة فى ولايته الأمير الجديد محمد بن أحمد أبو الغرانيق .

خصائص الفتوح فى الجزيرة حتى سنة ٢٥٠ هـ/٨٦٤ م :

والواضح من عرض أحداث هذه الحرب العجيبة التى كان يشنها العرب على مدن الروم فى صقليه منذ حوالى أربعين سنة ، أن طلب الأمان من جانب حصون الروم ومدنهم ، كان يعنى الصلح ، وكذلك كانت تعنى كلمة «الفتح» فى معظم الأوقات ، الا اذا كان هناك نص صريح على امتلاك العرب للحصن أو المدينه ، فضلا عن الاشارة الى اقامة العرب فيه . أما عن هدم المدينة أو الحصن أو احراق الواحد منهما أو الآخر ، فهما يعنى أن أهله سيعودون اليه عما قريب ، لكى تعود الحوليات الصقلية لتذكر الحرب فى نفس الموضع من جديد .

وهكذا كانت منطقة سرقوسة هدفا لغارة شديدة فى سنة ٢٥١ هـ/ ٨٦٥ م التالية ، حيث نصب خفاجة للروم كمينا بقيادة ابنه محمد نجح فى أن يقتل منهم ألف فارس ، حتى سميت سرية محمد هذه بـ « سرية الف

---

(٢٣٤) ابن الأثير ، سنة ٢٤٩ هـ ج ٧ ص ٤٧ ، المكتبة ، ص ٢٣٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢٣٥) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ج ٧ ص ٤٠ ، المكتبة ، ص ٢٣٥ ، وقارن تاريخ المسلمين فى صقلية حسب تاريخ العالم ، ص ١٦٦ (عن فتح الناطس سنة ٦٣٧٤) ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٣ .

فارس » ، كما يقول ابن عذارى(٢٣٦) • وفي ضوء فكرة حرب الصوائف المتوالي هذه ، يمكن لنا أن نفهم الحاح العرب بالحرب على نفس الموضع أكثر من مرة . رغم الأمان أو الصلح أو الفتح •

صلح طبرمين :

مفاوضات طريفة تشترك فيها النساء :

وهذا ما حدث ابن الأثير في صوائف سنة ٢٥٢ هـ/٨٦٦ م(٢٣٧) ، حيث سار خفاجة الى سرقوسة ، ومنها اتجه الى أقصى الشمال الى منطقة جبل النار ، حيث أتاه رسل مدينة طبرمين يطلبون منه الأمان •

ونص ابن الأثير هنا يحوى عبارة غريبة ، اذ يقول : « فارسل (أي خفاجة) امرأته وولده في ذلك ، فتم الأمر »(٢٣٨) ، مما يعنى أن مسألة الأمان أو الصلح كانت تتطلب نوعا من المفاوضات المتعارف عليها في ذلك الوقت • وفكرة إرسال خفاجة لابنه محمد ليفاوض أهل طبرمين نيابة عنه معقولة ، فقد كان محمد بمثابة الساعد الأيمن له في أعماله أو الشريك له في ولايته • وأما ارسال امرأته التى نظن أنها كانت أم محمد أيضا ، فربما كانت لمباهاة الروم الذين كانوا يعتزون بنسائهم ، بل ويصحبونهن معهم في حروبهم ، كما رأينا في أكثر من معركة •

وهذا يعنى أن العرب في صقلية بدأوا يتأثرون بعادات الروم في الجزيرة ، ومنها ما يتعلق بتشريفهم للنساء واعتزازهم بهن • ولا توضح الرواية الأسباب التى دعت أهل طبرمين للغدر أو نقض الصلح الذى أبرمه محمد بن خفاجة والسيدة والدته مع أهل طبرمين ، وهو الأمر الذى جعل خفاجة يرسل ابنه محمدا من جديد الى طبرمين ولكن لحربها ، هذه المرة • وتقول الرواية أن محمد بن خفاجة فتح طبرمين وسبى أهلها ـ والفتح ، كما قلنا ، لا يعنى هنا أكثر من الحرب أو املاء الصلح •

صلح ارغوص ، والغيران :

وفي نفس هذه السنة طلب أهل ارغوص الأمان من جديد ، بمعنى أنهم

---

(٢٣٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ •

(٢٣٧) أنظر فيما سبق ، ص ٢٥٥ وهـ ٢٣٣ •

(٢٣٨) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ج ٧ ص ٤٠ ، المكتبة ، ص ٢٣٥ •

كانوا قد نكثوا صلح سنة ٢٤٨ هـ/٨٦٢ م (٢٣٩) · وهذا ما يفسر قسوة شروط الأمان هذه المرة ، اذا اضطر أهل أرغوس الى أن يعرضوا على خفاجة السماح لعدد معين من أهـــل الحصن (سقط من النص) — كما حــدث في طبرمين أيام العباس ، حينما طلبوا اطلاق مائتي نفس غيرهم(٢٤٠) — يطلقون بأموالهم ودوابهم ، على أن يغنم الباقي · وهذا ما حدث فعلا اذ أخذ خفاجة جميع ما في الحصن من مال ورقيق ودواب ، غير ذلك(٢٤١) ·

وتشير الحوليات الصقلية في نفس السنة (٢٥٢ هـ/٨٦٦ م) الى أن أهل الغيران — القريبة من سرقوسة — هادنوا خفاجة (نظير الجزية) ، وأنه افتتح حصونا كثيرة ، ثم انه مرض مرضا شديدا حتى انه عاد الى بلرم محمولا في محفة (محمل)(٢٤٢) ·

الحاح مستمر على اقاليم سرقوسة ، وقطانيا :

ولم يطل مرض خفاجة في بلرم ، اذ أنه عاد في السنة التالية (٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م) الى أقاليم سرقوسة وقطانيا حيث خرب البلاد وأفسد المزروعات ، وبث سراياه في أرض غير المعاهدين من الروم ، فظفرت وعادت بالمغـــانم الكثيرة(٢٤٣) · وظل الالحاح على منطقة سرقوسة في سنة ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م التالية ، حيث بعث خفاجة سراياه للاستكشاف قبل أن يسير اليها بنفسه ليفسد زروعها في ربيع الأول (مارس) · وكذلك سير في البحر ابنه محمدا في الحراقات عندما علم بوصول حملة من القسطنطينية ، فيها الكثير من الجنود · وكان الظفر في البحر وفي البر جميعا لخفاجة ، اذ انهزم الروم أمام القوات العربية ، وقتل منهم آلاف كثيرة ، وأخذ لهم سلاح وخيل كثير ، عاد بها المسلمون الى بلرم ، في أول شهر رجب (أواخر يونيه)(٢٤٤) ·

---

(٢٣٩) انظر فيما سبق ، ص ٢٥٥ وهـ ٢٣٣ ·

(٢٤٠) انظر فيما سبق ، ص ٢٤٩ ·

(٢٤١) ابن الأثير سنة ٢٤٧ هـ ج ٧ ص ٤٠ ، المكتبة ، ص ٢٣٥ ، ابن خلدن ، المكتبة ، ص ٤٧٣ ، ج ٤ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ ·

(٢٤٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ ، ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤٠ ، المكتبة ، ص ٢٣٥ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٣ ، ج ٤ ص ٢٠٢ ·

(٢٤٣) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ج ٧ ص ٤٠ ، المكتبة ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٣ ، ج ٤ ص ٢٠٣ ·

(٢٤٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ ·

بمجرد عودة خفاجة الى بلرم سير ابنه محمدا على رأس الأسطول لغزو مدينة غبطة . في أرض ايطاليا على ما يظهر ، فحاصر محمد المدينة في البحر ، وبث سراياه حولها في البر لمدة زادت على شهرين ، قبل أن يعود بمراكبه مشحونة بالمغانم الى بلرم في شهر شوال (سبتمبر)(٢٤٥) .

محاولة لم يقدر لها النجاح لأخذ طبرمين :

وكانت مدينة طبرمين - التي توصف بأنها من أحسن مدن صقلية ، والتي لا نعرف ان كانت قد نقضت ثانية بعد فتحها على يدى محمد بن خفاجة، بعد صلح سنة ٢٥٢ هـ/٨٦٦ م - هدفا لخفاجة في السنة التالية (٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م) ، وذلك عندما عرض عليه بعض أهلها تسهيل مهمة دخول العرب اليها ، عن طريق غير مطروق ، كان يعرفه الرجل . ففى شهر صفر (يناير - فبراير) سير خفاجة ابنه محمدا مع جماعة من الفرسان وبصحبته ذلك الرجل الدليل الطبرميني . وعندما اقتربت الجماعة من طبرمين توقف محمد وأمر بعض عسكره أن يقدموا رجاله مع الدليل ، على أن يلحق بهم الى داخل المدينة عندما يفتحوا أبوابها . ودخلت المجموعة من المغاوير (الكوماندوس) المدينة فعلا ، وامتلكت بابها وسورها . ولكنها بدلا من أن تعطى اشارة الهجوم النهائي لمحمد وبقية العسكر ، شرعت في السبى والغنيمة . والظاهر أن محمد بن خفاجة كان هو الآخر مترددا أو غير واثق من نجاح العملية في وقتها المحدد ، فتأخر عن ذلك الوقت الذى كان قد ضربه لرجال تلك الطليعة، حتى ظن هؤلاء أنه ربما كان العدو أوقع به وبرجاله .

وهكذا أوقفت الجماعة السبى ، كما تقول الرواية ، وخرجوا منهزمين - وأغلب الظن أنهم فعلوا ذلك عندما هاجت المدينة وماجت بعد أن شعرت بما يحدث داخل أسوارها .

هذا ولا بأس في شرح ابن خلدون الذى قال : ان محمدا أتى من ناحية أخرى غير التى كان قد تم الاتفاق عليها ، فكان وصوله المفاجىء من تلك الناحية سببا في ذعر جماعة الطليعة الذين ظنوه ورجاله مددا للروم . فجفلوا ، مما دعاه هو الآخر الى الجفول خلفهم .

---

(٢٤٥) ابن الأثير . سنة ٢٤٧ هـ ج ٧ ص ٤١ . المكتبة . ص ٢٣٦ ، ابن خلدون . المكتبة ، ص ٤٧٣ .

والمهم أن محمد بن خفاجة عندما وصل الى باب المدينة فى رجاله التقى بأصحابه وقد خرجوا منها ، فلم يكن أمامه الا العودة وراءهم(٢٤٦) . وهذا يؤيد فكرة تنبه حامية المدينة وأهلها ، وأخذهم بالأهبة للمقاومة . وهكذا لم تتحقق أمنية عزيزة على خفاجة كان يمكن أن يوازن بها ما قام به من أعمال بما قام به سلفه العباس بن الفضل ، عندما استولى على قصريانة بطريقة مشابهة ، قبل ذلك الوقت باحدى عشرة سنة .

الضغط على سرقوسة :

ولم يثبط هذا الفشل من عزيمة خفاجة الذى خرج من بلرم فى الشهر التالى (ربيع الأول/فبراير مارس) على رأس قواته الى برسة ، بينما سير ابنه محمدا فى عسكر كبير الى سرقوسة . ودار قتال شديد بين عسكر محمد وبين جيش رومى كبير ، انتهى لغير صالح محمد الذى عاد مفلولا الى والده ، بعد أن فقد كثيرا من رجاله . وهنا خرج خفاجة بنفسه على رأس قواته نحو سرقوسة وضرب عليها الحصار ، وضيق على اهلها ، بينما كانت سراياه تفسد الاقليم وتهلك الزرع(٢٤٧) .

مقتل خفاجة بيد رجل من عسكره :

وعندما رأى خفاجة أن حملته التأديبية ضد سرقوسة حققت أغراضها ، رفع عنها الحصار وأمر بالعودة الى بلرم عن طريق وادى الطين . والظاهر أن خفاجة كان يخشى من مكيدة يقوم بها الروم ضده ، وهو فى طريق العودة ، فقرر الرحيل من وادى الطين ، وهو مدلج ليلا . وأثناء المسيرة الليلية ، وقع ما كان يحذره خفاجة ، اذ اغتاله رجل من عسكره بطعنة قاتلة مات منها ، وذلك فى أول شهر رجب سنة ٢٥٥ هـ/١٥ يونية ٨٦٩ م .

والغريب فى الأمر أن القاتل نجح فى الهرب ولجأ الى سرقوسة(٢٤٨) ، مما يعنى أن الأمر حدث ، فى غالب الظن ، بتدبير من الروم .

---

(٢٤٦) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤١ ، المكتبة ص ٢٣٦ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٣ (ج ٤ ص ٢٠٣ — حيث القراءة طرميس بدلا من طبرمين) .

(٢٤٧) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤١ ، المكتبة ، ص ٢٣٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ ، المكتبة ، ص ٤٧٣ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ — الذى يقول ان سبب الهزيمة كان مقتل شجاع من شجعان المسلمين ، فانكسروا لقتله .

(٢٤٨) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤١ ، المكتبة ، ص ٢٣٧ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٣ ، أبو الفدا ، المكتبة ، ص ٤٠٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ .

اختيار محمد بن خفاجة للولاية :

ولاية قصيرة لمدة سنتين ، تم خلالهما فتح مالطة :

وحمل خفاجة قتيلا الى بلرم حيث دفن ، واجتمع قواد العسكر في العاصمة ، واتفقوا على أن يعهدوا بالقيادة الى ابنه محمد ، وكتبوا بذلك الى الأمير أبي الغرانيق محمد بن أحمد ، الذى وافق على اختيارهم ، وكتب الى محمد بن خفاجة عهده بالولاية على صقلية ، وسير اليه الملابس الرسمية المعروفة بالخلع ، وهي رمز الولاية(٢٤٩) ٠

ولم تستمر ولاية محمد بن خفاجة الا مدة سنتين ، تم في الأولى منهما الاغارة على اقليم سرقوسة بمعرفة عمه عبد الله بن سفيان ، الذى أهلك زروعها في سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م(٢٥٠) ، واخذ جزيرة مالطة بمعرفة أحمد ابن عمر بن عبد الله(٢٥١) ٠ وفي السنة الثانية (٢٥٦ هـ/٨٧٠ م) تشير الحوليات الى هزيمة الأسطول البيزنطي ، الذى حاول استرجاع الجزيرة ، وفك الحصار عن مالطة(٢٥٢) ٠ ثم يأتي مقتل محمد بأيدي بعض خدمه الخصيان ، من الصقالبة ليضع نهاية تعسة لأعماله المجيدة في صقلية ، وذلك في نهاية اليوم الثالث من رجب سنة ٢٥٧ هـ/٢٨ مايه ٨٧١ م ٠ وكتم الخصيان قتله الى أن هربوا ليلا ، فلم يعرف قتله الا من الغد ، وعندئذ طلب الخدم ، وقتل الذين قتلوه منهم(٢٥٣) ٠

---

(٢٤٩) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤١ ، وسنة ٢٥٥ هـ ، ج ٧ ص ٨٦ ، المكتبة ص ٢٣٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ ، المكتبة ، ص ٤٧٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ ، النويرى المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٩ ب ٠

(٢٥٠) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤١ ، المكتبة ، ص ٢٢٨ ٠

(٢٥١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ ب ٠

(٢٥٢) تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة الصقلية ، ص ١٦٦ ، وقارن فيما سبق ، ص ١٠٦ ٠

(٢٥٣) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤١ ، وسنة ٢٥٧ هـ ، ج ٧ ص ٩٩ ، المكتبة ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٩ ب ، ٢٣٠ أ ، أبو الفدا ، المكتبة ص ٥ ٤ ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ ٠

فترة قلقة :

خلفاء محمد بن خفاجة :

وتختلف الروايات عند كل من ابن الأثير ، وابن عذارى ، والنويرى ، فيمن خلف محمد بن خفاجة فى ولاية صقلية ، ونرى أن رواية النويرى التى تتصف بالاتساق وانتظام الأحداث أولى بالتقديم على غيرها • فحسب النويرى ، اجتمع قواد العسكر وولوا على أنفسهم محمد بن أبى الحسين ، وكتبوا الى أبى الغرانيق محمد بن أحمد فى افريقية بذلك(٢٥٤) • ولكن الأمير الأغلبى عهد بولاية صقلية الى رباح بن يعقوب ، كما عهد بولاية الأرض الكبيرة ، أى قلورية وانكبردة وما وراءهما من ايطاليا ، الى أخى رباح ، وهو عبد الله بن يعقوب(٢٥٥) • وهذا يعنى أن الممتلكات الأغلبية فى ايطاليا كانت قد أصبحت من الاتساع والأهمية بحيث تكون ولاية يمكن أن يكون لهـــا كيانها المستقل عن الولاية الأم فى صقلية •

ولم تطل ولاية رباح بن يعقوب الذى توفى فى المحرم سنة ٢٥٨ هـ/ نوفمبر — ديسمبر ٨٧١ م ، وكذلك مات أخوه عبد الله فى ايطاليا ، بعده فى شهر صفر التالى من نفس السنة (يناير — فبراير) • وعندما اختار قواد العسكر أبا العباس بن عبد الله بن يعقوب لامارتهم ، لم يلبث الا أشهرا ثم مات ، فعهدوا بقيادتهم الى أخيه ، الى أن وصلهم عهد الأمير أبى الغرانيق بالولاية الى الحسين بن رباح • ولكنه لم يلبث أن عزله ، واستعمل عبد الله ابن محمد بن عبد الله التميمى ، قريبه ، الذى كان « أديبا شاعرا ، طالبـــا للحديث والفقه ، وذلك فى شوال سنة ٢٥٩ هـ/اغسطس ٨٧٣ م(٢٥٦) •

---

(٢٥٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ أ •

(٢٥٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ أ ، وقارن رواية ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ — التى تجعل ولاية صقلية لأحمد بن يعقوب والأرض الكبيرة لأخيه عبد الله بن يعقوب• أما ابن الأثير ، سنة ٢٥٧ هـ ، ج ٧ ص ٩٩ ، المكتبة ، ص ٢٣٨ ، فيقول ان أبا الغرانيق (محمد بن أحمد) استعمل على صقلية أحمد بن يعقوب ابن المضاء بن سلمة الذى لم تطل أيامه ، ومات فى سنة ٢٥٨ هـ • وتذكر حوليـــات المسلمين فى صقلية حسب تاريخ الروم (المكتبة ، ص ١٦٦) ان المسلمين لقوا هزيمة كبيرة فى سالرنة (سالرنو) فى ايطاليا فى قريب تلك الفترة ، وهى سنة ٦٣٨٠ التى تعادل سنة ٨٦٣ م تقريبا •

(٢٥٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ أ (حيث آخر الاسـم « ابن ابراهيم بن الأغلب » بدلا من « ابن الأغلب بن سالم » كما يوضح ذلك ابن الأبار فى الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨١ ، المكتبة ، ص ٣٢٧ ، الذى يعرف بأنه كان واليا على طرابلس ، ويذكر بعض شعره بمناسبة عزله عن طرابلس) •

وهذا يعني توالي أربعة أمراء على صقلية في أقل من سنتين(٢٥٧) .

وخلال فترة السنتين تلك ، تشير الحوليات الى حملة قام بها المجاهدون في صقلية ضد سرقوسة ، سنة ٢٥٩ هـ/٧٢ - ٨٧٣ م في عهد الحسين ابن رباح ، انتهت بالصلح على أن يطلق أهل سرقوسة ٣٦٠ (ثلاثمائة وستين) من أسرى المسلمين الذين كانوا لديهم(٢٥٨) .

ومنذ سنة ٢٥٩ هـ/٨٧٢ م والى سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٧ م ، حينما فتحت مدينة سرقوسة في عهد الأمير الأغلبي ابراهيم بن أحمد الذي خلف أخاه أبا الغرانيق محمد بن أحمد في جمادى الأولى سنة ٢٦١ هـ/١٧ فبراير ٨٧٥ م ، لا نجد ذكرا لأحداث ذات بال في حوليات صقلية التي رأيناها حافلة بالصوائف والشواتي في البر والبحر على السواء ، مما يمكن أن يفسر بأن الجزيرة كانت تمر بفترة مضطربة بعد مقتل خفاجة ثم ابنه محمد(٢٥٩) . والحقيقة انه لا يفسر فترة الاضطراب التي نراها حتمية وقتئذ الا قائمة النويري التي تحتوي على سبعة ولاة تداولوا حكم صقلية وايطاليا الجنوبية فيما بين سنة ٢٥٧ هـ/٨٧٠ م وسنة ٢٥٩ هـ/٨٧٢ م(٢٦٠) .

باري ولاية عربية مستقلة : خروج المفرج بن سالم في ايطاليا على أبي الغرانيق :

والحقيقة أن العرب كانوا قد بدأوا يتطلعون نحو جنوب ايطاليا اعتبارا من سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م عندما وسعوا نشاطهم الحربي الى مسينا وسيروا أسطولهم الى جزائر الايوليان المتاخمة لكلابريا(٢٦٠ م) . ولم تأت سنة ٢٢٥ هـ/٨٤٠ م حتى كان الأسطول الأغلبي يوطد أقدام العرب في كلابريا

---

(٢٥٧) ونلاحظ أن النويري (نفس المصدر) يذكر ان ذلك حدث قبل أن يلي أبو مالك أحمد بن عمر بن عبد الله بن الأغلب المعروف بحبشي ، الذي بقي متوليا عليها ٢٦ (ستا وعشرين) سنة . وهو الأمر الذي لا يتفق مع واقع الأحداث . اذ نجد الوالي سنة ٢٦١ هـ/٧٤ - ٨٧٥ م هو جعفر بن محمد في كل من ابن الأثير وابن عذارى .

(٢٥٨) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٦ ، الذي يجعل الوالي الحسين بن أحمد بن يعقوب حسب روايته التي رجحنا عليها رواية النويري . وقارن ابن الأثير . سنة ٢٥٥ هـ . ج ٧ ص ١٠٥ . المكتبة ج ص ٢٣٨ - حيث لا يذكر اسم الوالي .

(٢٥٩) انظر أحمد المدني . صقلية الاسلامية . ص ٨٣ .

(٢٦٠) النويري . المخطوط . ج ٢٢ . ص ٢٣٠ أ .

(٢٦٠ م) انظر فيما سبق . ص ١٨٩ .

(قلورية) نفسها ، مما اعتبر فى افريقية وقتئذ فتحا عظيما(٢٦١) ، ولا بأس فى اعتبار سنة ٢٢٥ هـ/٨٤٠ م علامة مميزة فى تاريخ الفتوح العربية فى البحر المتوسط ، تماما كما هو الحال بالنسبة لسنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ حيث كان فتح كل من كريت وصقلية • وفى السنة التالية (٢٢٦ هـ/٨٤١ م) بدأت أول محاولة عربية لغزو واحدة من عواصم جنوب ايطاليا ، وهى . مدينة بارى الواقعة شمال برنديزى على ساحل البحر الادرياتى ، وان لم تكلل تلك المحاولة بالنجاح • وبعد ذلك بسنتين (فى ٢٢٨ هـ/٨٤٣ م) كان العرب يضغطون على امارة نابولى ، على المتوسط ، التى لم تعقد الصلح مع العرب فقط بل حالفتهم نكاية فى امارة بنيفنتو اللومباردية - جارتها الداخلية - وقدمت لهم العون فى غزو اقليم مسينا ، بل وربما سهلت لهم طريق سياحتهم نحو روما والفاتيكان(٢٦٢) •

وفى سنة ٢٣٢ هـ/٨٤٧ م كان العرب يستولون على مدينة طارنت اللومباردية ويقيمون فيهـــا(٢٦٣) ، ثم يتبعون ذلك بالاستيلاء عـلى بارى مما كان يقتضى فتح برنديزى على نفس الطريق • وهكذا ، فقبل أن ينتصف القرن الثالث الهجرى (منتصف القرن ٩ م) كانت كـــل أراضى جنـوب ايطاليا - من سيبونتو (Siponto) شرقا الى مستوى مصب نهر التيبر غربا - بين أيدى جماعات مختلفة من العرب والمسلمين(٢٦٤) •

والظاهر أن الموقع الجغرافى المتطرف للأقاليم الادرياتية الايطالية التى استقر فيها العرب ، بالنسبة الى صقلية وافريقية ، كان يسمح للمسئولين المباشرين عن تلك الأقاليم بحرية العمل ، سواء على المستوى الحربى أو على المستوى السياسى أو الادارى • هكذا تنص رواية ابن الأثير على أن القوات الأغلبية لم تنجح فى فتح مدينة بارى سنة ٢٢٦ هـ/٨٤١ م وان الذى فتحها بعد ذلك هو « خلفون البربرى » الذى تحقق له ذلك على عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ/٨٤٧ - ٨٦١ م) • وبعـــد ذلك تذكر الرواية ، التى جمعت بتلخيص شديد أحداث الفتوح فى ايطاليا بهذه المناسبة ، ان من يسمى المفرج بن سالم الذى لا تعرفنا بهويته ، استطاع أن يفتح ٢٤ (أربعة

---

(٢٦١) انظر فيما سبق ، ص ١٩٢ •

(٢٦٢) انظر فيما سبق ، ص ١٩٣•

(٢٦٣) انظر فيما سبق ، ص ١٩٤ •

(٢٦٤) انظر عزيز احمد ، تاريخ صقلية الاسلامية بالانجليزية ، ص ١٩ •

وعشرين ، حصنا استولى عليها (٢٦٥) فى منطقة ابوليا (Apulia) (٢٦٦)
وكان المفرج بن سالم يعمل لحسابه الخاص مستقلا عن أمير القيروان .
ولا بأس أن يكون ذلك صحيحا ، فالغزاة من الأندلسيين والمغاربة الذين
كانوا يعملون لحسابهم الخاص فى أوروبا التى يمكن أن يشملها اصطلاح
« الأرض الكبيرة » ، كانوا يمثلون طلائع القوات النظامية ، فى تلك الفترة
التى انتابت جماعة المسلمين فى الجناح الغربى من المتوسط موجة من الحماس
من أجل الجهاد الذى لا ينتقص من قدره ما صاحبه من الرغبة فى المغانم
الثمينة والسبى الجميل .

وهذا ما يفهم مما تذكره رواية ابن الأثير بعد ذلك ، من أن المفرج بن
سالم كتب الى والى مصر يعلمه خبره ، « وانه لا يرى لنفسه ، ومن معه من
المسلمين صلاة الا بأن يعتمد له الامام على ناحيته ، ويوليه اياها ، ليخرج
من حد المتغلبين » . وهذا النص يدل على أن المفرج كان يعمل فى ايطاليا
لحسابه الخاص ، بمعنى أنه كان خارجا فعلا على سلطان الأمير الأغلبى ، وكان
يطمح فى أن يكون ولاءه مباشرة الى خلافة بغداد ، عبر والى مصر أحمد
ابن طولون . وما تضيفه الرواية من أن المفرج بن سالم ، الذى بنى مسجدا
جامعا فى بارى ، انتهى بأن شغب عليه أصحابه وقتلوه ، وذلك قبل وفاة
الأمير الأغلبى محمد بن أحمد أبى الغرانيق ، وولاية ابراهيم بن أحمد
(٢٦١ هـ/٨٧٥ م) ، يدل على أن المفرج قام بخروجه على الأغالبة فى نفس
تلك الفترة التى نعالجها(٢٦٧) . هذا ولا بأس أن يكون سقوط بارى بين

---

(٢٦٥) ابن الأثير ، سنه ٢٣٦ (ط . بيروت ١٩٦٥ ، ج ٦ ص ٥٢٠ - ٥٢١) ، المكتبة ،
ص ٢٣٩ واذا كانت النصوص العربية لم تقدم لنا التفصيلات الخاصة بفتح تلك الحصون
فان الحوليات الفرنجية يمكن ان تساعد فى سد هذا النقص ، وهو ما اتجهت اليه الدراسات
الحديثة - وعن فتوح العرب فى منطقة الادرياتى ، كما حدث فى استريا (Istria)
وجزيرة شرسو (Cherso) وسيبونتو (Siponto) وابوليا (Apulia) وراجوسا (Ragusa)
الى جانب استعانة الامارات الايطالية واللومباردية بالعرب فى صراعاتها الداخلية ، كما حدث
فى بنيفنتو (Benevento) وبارى وكذلك علاقات العرب بحلفائهم اهل نابولى وغيرهم من
اهل امالفى (Amalfi) وجايتا (Gaeta) وشرينتو (Sorrento) وموقف البابوية
منهم ، انظر عزيز احمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ١٨ - ٢١ .

(٢٦٦) انظر عزيز احمد ، تاريخ صقلية الإسلامية ، ص ١٩ (حيث الاشارة الى ان عدد
الحصون هو ٤٨ وليس ٢٤) .

(٢٦٧) ابن الأثير ، سنة ٢٣٦ (ط . بيروت ١٩٦٥ ، ج ٦ ص ٥٢٠ - ٥٢١) ، المكتبة ،
ص ٢٣٩ والحقيقة ان سعى العرب فى ايطاليا للاعتراف بخلافة بغداد كان يعنى - الى جانب
التخلص من سيادة الأغالبة - محاولة الاستعانة بالمشرق الاسلامى لمواجهة ما كان يتهددهم فى

أيدى الفرنج سنة ٨٧١ م (٢٥٧ هـ) هو السبب فى تلك الثورة التى راح ضحيتها المفرج بن سالم مما سمح للأمير أبى الغرانيق بتعيين عبد الله ابن يعقوب واليا على « الأرض الكبيرة » (سنة ٢٥٨ هـ) الى جانب أخيه رباح والى صقلية ، مما سبق ذكره .

فتح سرقوسة : حصارها برا وبحرا :

والمهم أن الوالى على صقلية فى سنة ٢٦٤ هـ/٧٧ — ٨٧٨ م كان جعفر ابن محمد ، الذى تابع سياسة الالحاح على سرقوسة بالصوائف والشواتى التى أصبحت تقليدية ، فغزا اقليمها فى تلك السنة وأفسد زروعها ، ثم وسّع عملياته العسكرية بحيث شملت أرض قطانية وطبرمين ورمطة ، فى شمال الساحل الشرقى للجزيرة . والظاهر أنه أمام سهولة تلك العمليات،

= ذلك الوقت من اخطار . فمنذ منتصف القرن ٩ م كان قد تم احياء البحرية البيزنطية بفضل مجهودات الأسرة المقدونية ، ونجح البيزنطيون فى استعادة بعض أملاكهم فى جنوب ايطاليا ، كما نجحت امارة نابولى بالتعاون مع عناصر من امالفى وجايتا وسورينتو فى طرد العرب من بعض مواقعهم جنوب خليج سالرنو الى جانب توقفهم فى منطقة الادرياتى رغم تملكهم لبارى وبرنديزى . ومع ذلك فقد كانوا يستطيعون الرد على ما كان يهددهم من تلك الأخطار . ففى سنة ٨٤٦ م كانوا يستطيعون الاقتراب من روما ، ويقتحمون تحصينات البابا جريجورى الرابع ويستولون على نفائس كتدرائية القديس بطرس . وهزيمة لويس الثانى قبل أن يصبح امبراطورا لفرنسا . ويفضل محافظة العرب على مواقعهم فى الجنوب الايطالى بفضل ارتكازهم على محور طارنت — بارى ، تمكن المفرج بن سالم من احتلال ٢٤ حصنا فى منطقة ابوليا (Apulia) . اما عما قام به الامبراطور الفرنسى لويس الثانى — بالتعاون مع باسيل الأول البيزنطى — من أعمال حربية غير موفقة فى أول الأمر (سنة ٨٦٦ م) فانها منعت ، على كل حال ، سقوط المزيد من الأراضى الايطالية بين أيدى العرب . أما عن نجاح لويس فى فتح بارى على العرب ، سنة ٨٧١ م (٢٥٧ هـ) فاغلب الظن انه كان السبب فى الثورة ضد المفرج وعودة جنوب ايطاليا الى الحكم الأغلبى عندما وليها عبد الله بن يعقوب الذى حاصر سالرنو ولكنه توفى أثناء الحصار . وبعد وفاة لويس الثانى صعد العرب الى أعالى الادرياتيك، كما قامت سراياهم من طارنت بالغارة على امارة بنيفنتو التى عقدت الصلح معهم خشية البيزنطيين الذين نجحوا فى احتلال بارى آخر الأمر . وهكذا فبعد سنة ٨٧٥ كان العرب فى طارنت يقفون موقف الدفاع بينما كانت لهم اليد العليا فى خليج نابولى مما حمل أسقف نابولى يطلب معونتهم فى سنة ٨٨٠ ، وهو الأمر الذى جعل البابا يوحنا الثامن يصدر ضده الحرمان . انظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ١٨ — ٢١ . وقارن فيما يتعلق بأخذ بارى ، محمد الطالبى ، الأغالبة ، فى كتاب تاريخ تونس فى العصر الوسيط ، بالفرنسية ، ص ١٥٣ .

وجد أن الفرصة أصبحت مواتية ليقتطف ثمرة جهود خمسين سنة وأكثر ، بالاستيلاء على سرقوسة ، التى كانت تمثل حينئذ عاصمة الروم فى الجزيرة • فلقد نزل جعفر برجاله حول المدينة وحصرها من جهة البر ، بينما سير أسطول بلرم ليحصرها من جهة البحر ، وأخذ يضيق الخناق عليها حتى نجح فى الاستيلاء على بعض أرباضها •

ولما كان الحصار قد طال لعدة أشهر بلغت تسعا عند سقوط المدينة ، فقد كانت هناك فسحة من الوقت لكى يأتى أسطول من القسطنطينية (بعثه الامبراطور باسيليوس بقيادة الأميرال ادريان) ، فى محاولة يائسة لفك الحصار عن المدينة الرومية الهامة • ولكنه عندما وصل الأسطول البيزنطى لم يستطع الوقوف أمام أسطول صقلية العربى الذى حطمه • وبذلك تم تطويق المدينة تطويقا تاما[٢٦٨] •

ولم تستطع سرقوسة مواصلة الدفاع عندما انتهى الشهر التاسع من الحصر ، فدخلها المسلمون عنوة ، وقتل من أهلها أكثر من أربعة آلاف رجل ، وأصيب بفيها من الغنائم ما لم يصب بمدينة أخرى ، حتى أنه لم ينج من رجالها الا الشاذ الفذ ، كما تقول رواية ابن الأثير ، وذلك فى ١٤ رمضان سنة ٢٦٤ هـ/٢١ مايه ٨٧٨ م[٢٦٩] •

هدم المدينة :

وبعد أن أقام العرب مدة شهرين فى سرقوسة هدموها فى منتصف ذى القعدة (٢٠ يوليه) • والظاهر أن العرب هدموها عندما وصل أسطول بيزنطى فى محاولة جديدة لانقاذ المدينة أو لاستعادتها — فظفروا به ، وأخذوا منه أربع قطع ، فقتلوا من فيها — حتى يقطعوا الأمل على الروم فى العودة اليها • وعاد العرب الى بلرم فى آخر ذى القعدة (٣ اغسطس)[٢٧٠] •

---

(٢٦٨) ابن الأثير ، سنة ٢٦٤ هـ ، ج ٧ ص ١٢٧ ، المكتبة ، ص ٢٤٣ •

(٢٦٩) ابن الأثير ، سنة ٢٦٤ هـ ، ج ٧ ص ١٢٧ ، المكتبة ، ص ٢٤٣ • النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ ، وانظر تاريخ المسلمين فى صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٦ (أخذت فى ٢١ مايه ٦٣٨٦) •

(٢٧٠) ابن الأثير ، سنة ٢٦٤ ، ج ٧ ص ١٢٧ ، المكتبة ، ص ٢٤٣ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ • ومن الجانب المسيحى فان قصة سقوط سرقوسة البيزنطية وتحطيم حصونها وسلب احيائها يرويها الراهب تيودوسيوس الذى كان بين الأسرى الذين اقتيدوا الى بلرم • انظر محمد طالبى ، الاغالبة ، فى كتاب تاريخ تونس فى العصر الوسيط ، بالفرنسية ، ص ١٤٥ ، عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ١٥ •

مقتل جعفر بن محمد في مؤامرة اغلبية :

ولم يكتب لجعفر بن محمد أن يستمتع طويلا بالنصر العظيم الذى حققه في سرقوسة ، وذلك أنه راح ضحية غدر غلمانه الصقالبة الذين استجابوا لاغراء كل من الاغلب بن محمد الأغلب الملقب بـ « خرج الرعونة » ، وأبى عقال الأغلب (بن محمد) بن أحمد ، ولى العهد السابق ، اللذين كانا محبوسين عنده بأمر من الأمير ابراهيم بن احمد . ونجح « خرج الرعونة » في الاستيلاء على بلرم وضبطها بمعاونة أبى عقال ، ولكن اهـــل بلرم لم يطمئنوا اليهما فوثبوا بهما وبمن اتصل بهما ، فأخرجوهم من صقلية الى افريقيـــة . وآلت ولاية صقلية الى الحسن بن رباح(٢٧١) .

الحسن بن رباح :

محاولات ضد طبرمين ، وصراع غير موفق ضد الاسطول البيزنطى :

وبسقوط سرقوسة لم يبق من المدن الهامة فى صقلية بين أيدى الروم سوى مدينة طبرمين التى بدأ العرب يتطلعون الى الاستيلاء عليها ، وان كان ذلك لن يتم الا بعد حوالى ٢٥ سنة . ففى سنة ٢٦٥ هـ/٧٨ - ٨٧٩ م سار الحسن بن رباح على رأس الصائفة لغزو طبرمين ، حيث التقى بالروم . وكانت الحرب سجـــالا بين الفريقين ، فبعـــد أن دارت الدائرة عـلى العرب عادوا واسترجعوا شـــجاعتهم المفقودة ، فكانت لهم الكرة عـــلى الروم فهزموهم وقتلوهم ، وقتلوا قائدهم البطريق(٢٧٢) .

وتقول رواية ابن عذارى ، فى سنة ٢٦٦ هـ/٧٩ - ٨٨٠ م التـــالية ، ان صاحب صقلية (الحسن بن رباح) اغزى الـــروم ، فالتقى فى البحر بمراكبهم ، مما يعنى أن الغزوة كانت فى ايطاليا الجنوبية . والظاهر أن عدد المراكب الصقلية العربية كانت قليلة اذ لم تستطع الوقوف أمام الأسطول البيزنطى المكون من نحو ١٤٠ (مائة واربعين) مركبا . فرغم أن المراكب العربية قاتلت قتالا شديدا الا أن الأمر انتهى بأن سلم البحارة العرب عددا من مراكبهم الى الروم الذين اخذوها . وفى الوقت الذى عاد المنهزمون الى بلرم ، فانتقموا بشن الغارات على من يجاورهم من الروم لعدة شهور ، وهم

(٢٧١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ .
(٢٧٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ .

يغنمون ويفسدون أرضهم(٢٧٣) . كان الروم ينزلون جيشا بريا فى كلابريا يقدر بحوالى ٣٥ ألف رجل لكى يحاصروا طارنت برا بينما كان الأسطول يحاصرها بحرا حتى اضطروها الى الاستسلام بعد مقاومة عنيدة فى أواخر سنة ٨٨٠ م . وبذلك لم يبق للأغالبة فى ايطاليا نفسها الا ثلاثة مواقع حصينة أهمها سبرينة(٢٧٤) .

الحسن بن العباس : قيادة غير موفقة :

وهكذا ظهر ضعف الحسن بن رباح ، فى ولاية صقلية وقيادة جيوشها وأساطيلها ، فعهد ابراهيم بن أحمد بالجزيرة فى سنة٢٦٧ هـ/٨٠ - ٨٨١ م التالية ، الى الحسن بن العباس ، الذى بث السرايا ضد الروم فى نواحى صقلية ، كما خرج بنفسه الى نواحى قطانية وطبرمين ، فأفسد الزرع وقطع الأشجار ، وكذلك فعل بناحية « بقارة » قبل أن يعود الى بلرم محملا بالمغانم .

هذا وتشير الرواية الى أن الروم نجحوا بدورهم فى تسيير سراياهم ضد المسلمين ، فى أيام الحسن بن العباس ، وأنهم نجحوا فى اصابة كثير منهم(٢٧٥) . والظاهر أن الروم فى الجزيرة كانوا قد انتهزوا فترة الاضطراب التى اشرنا اليها بعد مقتل خفاجة وابنه محمد فاستأسدوا . وذلك انهم فى سنة ٢٦٨ هـ/٨١ - ٨٨٢ م التالية ، نجحوا فى مواجهة سرية كان قد سيرها الحسن بن العباس بقيادة رجل يعرف بأبى ثور ، وربما كان صاحب القلعة المعروفة بهذا الاسم . وأنزلوا بها هزيمة منكرة ، اذ تقول الرواية : ان المسلمين أصيبوا كلهم غير سبعة نفر فقط(٢٧٦) .

---

(٢٧٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ ، ابن الأثير ، سنة ٢٦٦ هـ ، ج ٧ ص ١٣٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٣ . وانظر محمد طالبى ، الأغالبة ، فى تاريخ تونس فى العصر الوسيط ، ص ١٥٣ (حيث كانت قيادة الأسطول البيزنطى الى أمير البحر نزار (Nasar) السورى الأصل وحيث تحديد موضع المعركة البحرية فى عرض البحر أمام ميلازو (Milazzo) .

(٢٧٤) انظر محمد طالبى ، الأغالبة ، فى كتاب تاريخ تونس فى العصر الوسيط ، ص ١٥٣ (والمواقع الثلاثة التى بقيت للعرب فى ايطاليا بعد سقوط طارنت ، هى : منتيبة (Amantea) ، وسبرينة (Santa Severina) وتروبيا (Tropea)) .

(٢٧٥) ابن الأثير ، سنة ٢٦٧ هـ ، ج ٧ ص ١٤٤ ، المكتبة ، ص ٢٤٤ . ابو الفدا ، المكتبة ، ص ٤٠٦ ، اما ابن عذارى فيكتفى بالاشارة الى ولاية الحسن فى سنة ٢٦٧ هـ (ج ١ ص ١١٧) .

(٢٧٦) ابن الأثير ، سنة ٢٦٨ هـ ، ج ٧ ص ١٤٨ ، المكتبة ، المكتبة ، ٢٤٤ .

محمد بن الفضل : عود الى عهود القوة :

غزو اقاليم قطانيا وطبرمين :

وهكذا كان من الطبيعي أن يعزل الحسن بن العباس ، بعد هذا الفشل، فى نفس السنة (٢٦٨ هـ/٨٨١ م) ، وأن يعهد الأمير ابراهيم بن أحمد بولاية صقلية الى محمد بن الفضل(٢٧٧) ، الذى نجح فى تقويم الموقف فى مواجهة الروم ، وجدد ذكريات أعمال العباس بن الفضل ، وخفاجة بن سفيان . فقد بعث محمد بن الفضل السرايا فى كل النواحى التى يسكنها الروم ، وعاود الالحاح بالحرب والافساد فى منطقة الساحل الشرقى الشمالى حيث قطانيا وطبرمين .

فلقد خرج بعد ولايته مباشرة فى جيوش عظيمة ، واتجه نحو قطانيا حيث أهلك زروعها . ووجه محمد بن الفضل مراكبه الى الشلنديات التى كانت فى ميناء المدينة ، ونجح فى تدمير كثير منها وقتل بحارتها . ومن قطانيا إتجه محمد بن الفضل شمالا الى اقليم طبرمين حيث أفسد زرعها ، وعندما خرجت قوات الروم ألحق بهـــا هزيمة منكرة حتى قيـــل ان المعركة انجلت عن مقتـــل ثلاثة آلاف رجـــل من الروم ، وأنه أرســـل رؤسهم الى بلرم ، اعلانا عما حققه من الظفر .

اقتحام القلعة الجديدة : « مدينة الملك » :

وهاجم المسلمون ، فى منطقة طبرمين ، القلعة الجديدة التى كان قد بناها الروم ، وسموها « مدينة الملك » ، ونجحوا فى اقتحامها عنوة ، فقتلوا المقاتلة ، وعادوا الى بلرم محملين بمن سبوه ممن كان فيهـــا من النساء والذرارى(٢٧٨) . واستمر الحاج محمد بن الفضل فى السنة التالية (٢٦٩هـ /٨٨٣ م) على نفس المنطقة فخرج فى عساكره الى ناحية روطة ، وبلغ فى مسيرته الى قطانية حيث خرب نواحيها ، وقتل وسبى وغنم ، وعاد الى بلرم فى شهر ذى الحجة (يونيه ٨٨٣ م)(٢٧٩) .

---

(٢٧٧) ابن الأثير ، سنة ٢٦٨ هـ ، ج ٧ ص ١٤٨ ، المكتبة ، ص ٢٤٤ ، ابن عذارى ج ١ ص ١١٩ .

(٢٧٨) ابن الأثير ، سنة ٢٦٨ هـ ، ج ٧ ص ١٤٨ ، المكتبة ، ص ٢٤٤ ، تاريخ المسلمين فى صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ ، (حيث يذكر ان اسم القائد الرومى المهزوم فى طبرمين هو برصامس : (Barsamius)) .

(٢٧٩) ابن الأثير ، سنة ٢٦٩ ، ج ٧ ص ١٥٩ ، المكتبة ، ص ٢٤٤ .

الحسين بن أحمد واليا :

ولا نعرف كيف انتهت ولاية محمد بن الفضل ، وذلك أن الحوليات الصقلية لا تشير الى أية أحداث في سنة ٢٧٠ هـ/٨٣ - ٨٨٤ م ، ثم تفاجئنا بعد سرد ما قامت به صائفة سنة ٢٧١ هـ/٨٤ - ٨٨٥ م في منطقة رمطة ، من : التخريب ، وما عادت به من الغنيمة والسبي والأسر الكثير ، بوفاة أمير صقلية ، وهو الحسين بن أحمد(٢٨٠) ، مما يعني وفاة محمد بن الفضل أو عزله في سنة ٢٧٠ هـ/٨٣ - ٨٨٤ م ، وتولية الحسين بن أحمد الذى ينبغي اذن أن تنسب له غزوة سنة ٢٧١ هـ/٨٤ - ٨٨٥ م •

سوادة بن محمد بن خفاجة :

قيادة حازمة تيما لتقاليد الأسرة : غارات على قطانيا وطبرمين :

وهكذا صارت امارة صقلية في سنة ٢٧١/٨٤ - ٨٨٥ م الى سوادة ابن محمد بن خفاجة (التميمى) ، الذى أعاد سيرة والده وجده العظيمين في الجزيرة • فقد خرج في نفس السنة في عسكر كبير الى مدينة قطانية حيث بث الخراب والذعر في أرجائها ، واتبع ذلك بالمسير الى طبرمين والح على أهلها بالقتال وافساد الزروع ، حيث أرغم قائد الحامية الرومية ، وحاكم المدينة المحلي على طلب الهدنة • وانتهت المفاوضات بين سوادة ورسول الروم الى تقرير الهدنة لمدة ثلاثة أشهر في نظير فداء ثلاثمائة أسير من المسلمين ، دفع بهم الروم الى سوادة الذى رجع الى بلرم(٢٨١) •

ومع اقبال ربيع سنة ٢٧٢ هـ/٨٨٦ م ، كانت هدنة الثلاثة أشهر قد انصرمت ، فاعاد سوادة تسيير سراياه الى مواطن الروم في الجزيرة ، تفسد وتعود بالغنائم والسبي •

---

(٢٨٠) ابن الأثير ، سنة ٢٧١ هـ ج ٧ ص ١٦٧ ، المكتبة ، ص ٢٤٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٩ •

(٢٨١) ابن الأثير ، سنة ٢٧١ هـ ، ج ٧ ص ١٦٧ ، المكتبة ، ص ٢٤٥ • ويذكر تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ ، ان الذى أتى بالافتداء اسمه البوليطى وانه أخرج سبى سرقوسة • وعن ولاية سوادة بعد وفاة الحسن بن أحمد انظر ابن عذارى ج ١ ص ١١٩ •

عناد الاسطول البيزنطي والعمل على انهاء الوجود العربي في ايطاليا :

والغريب في أمر الصراع بين العرب والروم في صقلية ان البيزنطيين لم ييأسوا ، ولم يهنوا كثيرا من طول القتال ، ومما كان ينزل بهم من الهزائم · ففي نفس السنة وصل اسطول من القسطنطينية ، مشحون بالعساكر بقيادة قائد اسمه انجفور (نقفور أو نيقوفوروس) الى بلاد العرب في ايطاليا ، وضرب الحصار على مدينة سبرينة (Santa Severina) ، وضيق على من بها من المسلمين حتى أنهم سلموها اياه على الأمان ، وعادوا الى أرض صقلية(٢٨٢) · واتبع نقفور ذلك بحصار مدينة منتتينة (Amantea) حتى أرغم أهلها على تسليمها ، هي الأخرى ، والعودة الى بلرم(٢٨٣) · وبذلك فقد العرب معظم فتوحاتهم في ايطاليا ، فكان ذلك نذيرا بسوء المصير لصقلية العربية نفسها رغم محاولات ابراهيم الثاني بن أحمد(٢٨٤) ·

ومما يؤسف له أن الحوليات الصقلية في كتاب ابن الأثير ، وهي التي عليها المعول الأول في دراسة تاريخ فتوح العرب في صقلية ، تنقطع بعد سرد أحداث سنة ٢٧٢ هـ/٨٥ ـ ٨٨٦ م تلك ، فلا تظهر من جديد الا بعد ١٥ (خمسة عشر) عاما ، مع أحداث سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م · ولحسن الحظ فان حوليات ابن عذارى تعاون الى حد لا بأس به في سد تلك الثغرة ، بتكملة ما يمكن اكماله من هذا الفراغ ·

ثورة اهل بلرم على سوادة :

فابن عذارى يعرفنا في أحداث سنة ٢٧٣ هـ/٨٦ ـ ٨٨٧ م ، بنهاية امارة سوادة بن محمد بن خفاجة على صقلية ، اذ وثب عليه أهل بلرم ،

---

(٢٨٢) ابن الأثير ، سنة ٢٧٢ هـ ، ج ٧ ص ١٦٩ ، المكتبة ، ص ٢٤٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٠ · اما عن القائد البيزنطي فهو نقفور فوكاس القديم الذي سيلي حفيده الذي حمل نفس الاسم عرش بيزنطة فيما بعد · انظر محمد طالبي ، الأغالبة ، في تاريخ تونس في العصر الوسيط ، ص ١٥٤ ·

(٢٨٣) ابن الأثير ، سنة ٢٧٢ هـ ، ج ٧ ، ص ١٦٩ ، المكتبة ، ص ٢٤٥ ·

(٢٨٤) والحقيقة ان البيزنطيين بمساعدة حلفائهم من الصرب والكروات والمدرتيين كانوا قبل ذلك قد استعادوا طارنت (Tarente) قبل ذلك بحوالي ست سنوات (٨٨٠م) ، مما كان يعني العجز عن مقاومتهم لكثير من الأسباب الداخلية والخارجية مما كانت تعاني منه دولة الأغالبة (انظر محمد طالبي ، عن الأغالبة ، في تاريخ تونس ـ العصر الوسيط ، بالفرنسية ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤) ·

ومعظمهم من البربر وعلى أخيه وبعض رجاله ـ ربما بسبب ما انزله الروم في العام السابق بأهل كل من سبرينة ومنتتينه في ايطاليا ـ ورجهوهم مقيدين الى افريقية . « واجتمع وجوه أهل البلد على أن يرأسهم أبو العباس بن علي ، فولوه على أنفسهم »(٢٨٥) .

والظاهر أن الأمير ابراهيم بن أحمد لم ترقه أحداث صقلية ، ففكر في رجل قوى من بطانته ، يمكنه أن يضبط الامور فى الجزيرة ، ويقف بقوة أمام تهديدات الروم وانتقاضات أهل البلاد . ووقع اختياره على قريبه أبي مالك أحمد بن عمر بن عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب المعروف بحبشي(٢٨٦)، الذي عرف بانه كان من أبطال الرجال وشجعان القواد .

ولاية حبشي : احمد بن عمر بن عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب :

وولاية حبشي (أحمد بن عمر) موضع خلاف بين الكتاب . فبينما يضعها ابن عذارى هنا فى سنة ٢٧٣ هـ/٨٨٦ م ، نجد أن النويرى يضعها سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤ م على أن تستمر ٢٦ سنة أى الى سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م ، فى الوقت الذى نجد فيه توالى غيره من الولاة فى حكم صقلية ، مما يجعلنا نظن أنه ربما كانت ولاية حبشي لصقلية ، وهو القائد الكبير ، شرفية ، وانه ربما كان قد بقي بافريقية ، وهو ينيب عنه فى امارة الجزيرة ، وقيادة عسكرها ، ففى العمليات العسكرية التى دارت فى الجزيرة فى سنة ٢٧٥ هـ/ ٨٨٩ م لا تذكر رواية ابن عذارى اسم حبشي ، بل تقول ان أهل صقلية حققوا انتصارات عظيمة : فكانت لهم على الروم صولة فى البر والبحر جميعا ، في ساحل ريو ، قتل فيها من الروم أكثر من سبعة آلاف رجل. وغرق لهم نحو من خمسة آلاف ، وأخذت مراكب الروم فى ميلاص ، وهرب أهل ريو .

وكان من نتيجة هذا الظفر العظيم ان أخلى الروم كثيرا من المدن والحصون التى تجاور المسلمين . وظهرت سطوة أهل صقلية أيضا فى ايطاليا (الأرض الكبيرة) التى تتابعت عليها السرايا تغنم وتسبي ، وتعود

---

(٢٨٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٠ ، وانظر تاريخ المسلمين فى صقلية حسب تاريخ الروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ ـ حيث يرد الحادث بعنوان : « الحرب الأولى بين الجند والبربر » .

(٢٨٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٠ ، وانظر النويرى ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ أ ـ الذى يجعل ولاية حبشي لصقلية لمدة ٢٦ سنة ابتداء من ٢٦١ هـ/٨٧٥ م

بأحمالها الى بلرم(٢٨٧) .

والظاهر أن الانتصارات السهلة التي حققها الأغالبة في جنوب ايطاليا ، وخاصة في وقعة ميلاص (٢٧٥ هـ/٨٨٨ م) ، جعلت الأمير ابراهيم ابن أحمد يستهين ، هو وبطانته ، بتلك الحرب حتى أنه عهد الى قريبه مجبر ابن ابراهيم بن سفيان ، الذي كان ينادمه لحذقة الغناء ، بقيادة عسكر مسيني وكلابريا (قلورية) . واثناء عبور القائد المغني في أحد الشواني الى الشاطيء الايطالي أسره الروم ، وحملوه الى القسطنطينية حيث مات في السجن هناك(٢٨٨) .

سوادة بن محمد :

وفي نفس تلك السنة (٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) كانت الصائفة الصقلية الى طبرمين . وتذكر الرواية أن الغزوة كانت بقيادة سوادة بن محمد الذي ضرب الحصار على المدينة(٢٨٩) ، وهو الأمر الذي اذا صح فانه يعني أن الأمير ابراهيم بن أحمد كان قد رد سوادة الى صقلية على أن يعمل تحت امرة حبشي أو أن يكون ممثلا له هناك .

محمد بن الفضل ، وصلح لين مع الروم :

وبعد ذلك بسنة ، أي في سنة ٢٧٨ هـ/٩٠١ م ، نجد أن محمد بن الفضل يعود واليا لصقلية من جديد(٢٩٠) ، ولكن يظهر من النصوص بعد ذلك أنه لم يصل الى صقلية الا في السنة التالية (٢٧٩ هـ/٩٠٢ م) ،

---

(٢٨٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٠ ، تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ (سنه ٦٣٩٧) .

(٢٨٨) انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٥ ، المكتبة ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ . ومجبر هذا هو الذي قال في أسره قصيدة طويلة بعث بها من محبسه عند الروم ، وراحت في افريقية حتى رواها — لرقتها — معظم الناس . وفيها يقول :

الا ليت شعري ما الذي فعل الدهر ... باخواننا يا قيروان ويا قصر

وفي آخرها يقول :

لعل الذي نجى من الجب يوسفا ... وفرج عن ايوب اذ مسه الضر

وخلص ابراهيم من نار قومه ... واعلى عصا موسى فذل له السحر

يصبر أهل الأسر في طول أسرهم ... على معضلات الأسر ، لا سلم الأسر

(٢٨٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢١ .

(٢٩٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٢ .

حيث دخل حصرة بلرم فى اليوم الثانى من شهر صفر/١٧ يناير ٩٠٢م[٢٩١] .

والظاهر أنه بسبب اضطراب الأحوال فى افريقية على ابراهيم بن أحمد خفت وطأة العرب على الروم فى الجزيرة ، حتى اضطر الأمير الأغلبى الى الموافقة على أن يعقد أهل صقلية ، فى سنة ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م ، صلحا مع الروم لم تكن شروطه ، كما عهدنا ، فى صالح المسلمين . فلقد تم الصلح لمدة ٤٠ (أربعين) شهرا ، واذا كان الروم قد وافقوا على فك أسر ألف رجل من المسلمين ، فان المسلمين فىصقليةوافقوا على أن يقدموا رهـــائنهم الى الروم ، ضمانا للوفاء « فى كل ثلاثة أشهر ثلاثة من العرب ، وثلاثة من البربر »[٢٩٢] .

الفتنة بين العرب والبربر :

ولا شك فى ان الاضطرابات التى عرفتها افريقية فى ذلك الوقت كانت لها أصداؤها فى صقلية التى هاجت فيهـــا الفتنة بين العرب والبربر ، فى سنة ٢٨٥ هـ/٨٩٨ م . وواضح من النصوص أن صاحب البريد كان يوالى الأمير ابراهيم بن أحمد بأخبار الفتنة وأسماء المتسببين فيها فقد أرسل ابراهيم الى المسئولين فى الجزيرة الكتب يطلب منهم دعوة الناس الى الرجوع الى الطاعـــة ، ويعطيهم الأمان أجمعين ، حاشى بعض زعماء الفتنة ، وهم : أبو الحسن يريد وولداه ، وزعيم عربى آخر لا نعرف الا لقبه ، وهـــو : الحضرمى .

وتم القبض على هـــؤلاء المطلوبين الذين سيروا الى افريقية فى نفس السنة ، حيث انتحر منهم أبو الحسن بالسم ، فمات لساعته فى حضرة الأمير ابراهيم بن أحمد . وأمر ابراهيم عقب ذلك بقتل ولدى أبى الحسن ، كما أمر بقتل الحضرمى ضربا بالمقارع بين يديه[٢٩٣] .

---

(٢٩١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٢ .

(٢٩٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ ، تاريخ المسلمين فى صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ (حيث يجعل الهدنة بين المسلمين والروم فى ايام (الوالى) ابيه على سنة ٦٤٠٤ . التى تعادل سنة ٧٠ من بدء الفتح بالسنين الرومية) .

(٢٩٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ ، تاريخ المسلمين فى صقلية حسب تاريخ العـــالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ (حيث توثب البربر على الجند واسلامهم ابى الحسين واولاده الى أهل افريقية سنة ٦٤٠٦) .

أبو العباس بن ابراهيم بن احمد :

ابو العباس ، ولى العهد ، واليا والفتنة على اشدها :

والذى يفهم من ابن الأثير أن والى صقلية خلال تلك الفترة المضطربة ، كان أحمد بن عمر الأغلبى المعروف بحبشى ، الذى رأيناه واليا فى سنة ٢٧٣ هـ/٨٨٦ م ، حسب رواية ابن عذارى ـ مما دعانا الى الظن أن ولايته كانت شرفية ، إن لم يكن قد عزل بعد فترة قصيرة ثم عاد أخيرا الى ولايته ـ وان الأمير ابراهيم بن أحمد استضعفه ، فعهد فى سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م بولاية صقلية الى ابنه وولى عهده أبى العبـــاس ، الذى كان قائدا محترفا ، مارس الحروب وأطفأ الفتن فى افريقية وغيرها .

ووصل أبو العباس الى صقلية فى غـــرة شعبان (١ اغسطس) فى أسطول مكون من ١٢٠ (مائة وعشرين) مركبا ، وأربعين حربية(٢٩٤) ، فى وقت كانت الفتنة على أشدها . فقد كان جيش العاصمة بلرم ، حيث العرب ، يهاجم أهل جرجنت ، حيث البربر ، فى بلدهم . ويتضح من مسار الأحداث أن الأمير الأغلبى أبا العباس كان على دراية بتلك الفتنة التى كانت تفتت المسلمين فى الجزيرة ، ولهذا نزل بأسطوله على مدينة طرابنش الرومية، وحاصرها(٢٩٥) .

وكانت تلك سياسة حكيمة منه اذ أظهر أنه حضر من أجل الجهـــاد ـ الذى يمكن أن يجتمع عليه المتقاتلون فيما بينهم من المسلمين ـ قبـل ان يحضر من أجل اصلاح الأحوال فى البلاد .

عصيان اهل العاصمة :

والمهم أنه عندما علم قواد عسكر بلرم بوصول أبى العباس، عادوا من جرجنت

---

(٢٩٤) ابن الأثير ، ســـنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٢٤٦ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب (حيث ينص على أن ولاية ابى العباس لصقلية كانت فى سنة ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م ، وانه سار اليها فى جمادى الآخرة/يونيه) ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ (حيث النص على انه وصل اليها فى ١٦٠ (مائة وستين) مركبا) .

(٢٩٥) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ؛ المكتبة ، ص ٢٤٦ ، وقارن تاريخ المسلمين بصقلية حسب تاريخ العـــالم عنـــد الــروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ (حيث النص على أن أبا العباس نزل فى مازر فى ٢٤ يوليو سنة ٦٤٠٨) ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ (حيث القراءة طرابنة بدلا من طرابنش) .

الى العاصمة ، وارسلوا جماعة من شيوخهم ، وعلى راسهم قاضي المدينة ، يعلنون اليه الطاعة ، ويعتذرون عما بدر منهم ، من قصد جرجنت وقتال اهلها ، فاستمع اليهم ثم انه سمح للقاضي بالعودة ، بينما احتجز جماعة المشائخ لديه(٢٩٦) . ثم ان وفدا من أهل جرجنت وصل الى ابي العباس ، وشكوا من البلرميين ، « فاخبروه أنهم مخالفون عليه ، وانهم انما سيروا مشايخهم خديعة ومكرا ، وانهم لا ايمان لهم ، ولا عهد » ، وسألوه أن يختبر صدق كلامهم ، اذا شاء ، بأن يرسل في طلب بعض زعماء اهل بلرم ممن عددوا له أسماءهم ، لعلمهم أنهم لن يلبوا طلبه(٢٩٧) .

وارسل ابو العباس الى بلرم ثمانية من مشايخ أهل الريفية يطلبون حضور من سماهم الجرجنتيون من زعمائهم الى حضرة الامير . فامتنع البلرميون ، بل انهم حبسوا المشايخ الافريقيين ، « مكافأة للعلة في مشايخهم »(٢٩٨) .

وهكذا اظهر اهل بلرم الخلاف على الأمير الأغلبي ، وحشدوا حشودهم . وفي منتصف شعبان (١٦ اغسطس) كانوا يزحفون نحو طرابنش لحربه ، ومقدمهم مسعود الباجي وأصحابه من زعماء الفتنة ، وعلى راسهم رجل يسمي ركمويه ، تصفه الرواية ، بأنه : « امير السفهاء » .

ولم يكتف البلرميون بجيشهم البرى ، بل أرادوها حربا كلية - كما نقول الآن - فسيروا الى طرابنش اسطولا في البحر مكونا من نحو ثلاثين قطعة ، ولكنه لم يقدر له ان يتم مهمته اذ « هاج البحر على الأسطول ، فعطب اكثره وعاد الباقي الى بلرم » .

هزيمة الثوار في طرابنش :

ووصل الجيش البلرمي الى طرابنش حيث التقى بقوات أبي العباس .

---

(٢٩٦) ابن الاثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٢٤٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ .

(٢٩٧) ابن الاثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٢٤٦ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢٩٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ ، وقارن ابن الاثير ، سنة ٢٨٧ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٢٤٦ - حيث يقول ان ابا العباس اعتقل شيوخ بلرم بعد ان علم بحبس وفد مشايخ أهل الريفية ، بمعنى ان زعماء بلرم لم يكونوا في حبسه بل كانوا محتجزين لديه أشبه بالضيوف منهم بالرهائن او المعتقلين .

ولم يكن اللقـــاء الأول حاسما ، رغم أنهم اقتتلوا أشـــد القتال ، فقتل من الفريقين جماعة وافترقوا • أما اللقاء الثانى الذى وقع فى يوم ٢٢ شعبان (٢٢ اغسطس) ، فاستمر من الصباح الى وقت العصر ، عندما انهزم جيش البلرميين ، بعد أن قتل منهم عدد كثير ، وتبعهم أبو العباس الى بلرم فى البر والبحر(٢٩٩) •

هزيمة ثانية للعصاة على ابواب بلرم :

ورغم الهزيمة فلم يستكن الثوار المجاهدون الذين اتخـــذوا الحرب صناعة وطنية لهم ، اذ أنه عندما اقترب آبو العباس من بلرم نفسها عادوا الى قتاله ، بعد أن جيشوا أهل البلد ، فى العاشر من رمضـــان/٨ سبتمبر ٩٠٠ م • واستمر القتال من الصباح الباكر الى العصر عندما انهزم البلرميون « ووقع السيف فيهم الى المغرب »(٣٠٠) •

اللجوء الى بلاد الروم :

وهكذا انتهت فتنة بلرم بدخول أبى العباس المدينة وسيطرته على أرباضها التى وزع عليها قواده فى عشرين من رمضان (١٨ سبتمبر) ، ولكنها كانت نهاية تعسة بالنسبة للغزاة الصقليين من أهل العاصمة ، الذين انتهبت أموالهم ، كما هرب كثير من رجالهم ونسائهم لاجئين لدى الروم • وكذلك هرب زعماء الفتنة مثل : « ركمويه » واقرانه من رجال الحرب الى بلاد النصرانية كالقسطنطينية وغيرها(٣٠١) • والمقصود بذلك أنهم لجأوا الى الأرض الكبيرة فى ايطاليا ، عبر مضيق مسينا ، على ما نظن ، حيث كانت هناك مجالات واسعة لنشاطاتهم الحربية ، مع العرب أو الروم ، أو مع غيرهم من الفرنج •

---

(٢٩٩) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ، المكتبة ص ٢٤٦ ، وقارن ابن عذارى ج ١ ص ١٣١ •

(٣٠٠) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ، المكتبة ص ٢٤٦ — ٢٤٧ ، وانظر ، تاريخ المسلمين فى صقلية ، المكتبة ، ص ١٦٧ — حيث النص على ان أبا العباس ، اخذ بلرم بعد مقتلة كبيرة فى ٨ سبتمبر سنة ٩٠٠ •

(٣٠١) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٦ •

ابو العباس فى طبرمين وقطانيا :

وبعد ان ملك أبو العباس المدينة ، وعمل على اقرار الأمور فيها : فأمن اهلها ، واكتفى باخذ جماعة من أعيانها وجههم الى والده فى افريقية ، بدا ولايته العملية بالمسير الى طبرمين التى كانت ترنوا اليها ابصار المجاهدين منذ مدة طويلة ، فقطع كرومها ، وشن الحرب على الروم فيها .

ومن طبرمين سار أبو العباس جنوبا الى قطانيا ، وضرب عليها الحصار ، ولكنه لما « لم ينل منها غرضا » ، رجع الى « المدينة » ، اى بلرم ، حيث قضى فصل الشتاء(٣٠٢) .

حصار دمنش ، واخذ ريو :

وعندما تحسنت الأحوال الجوية وطاب الزمان فى مطلع صيف سنة ٢٨٨ هـ/٩٠١ م ، تجهز أبو العباس للغزو عبر الأسطول وسيره فى أول ربيع الآخر (٢٥ مارس) ، ليحط على مدينة دمنش ، التى نصب عليها المجانيق واخذ يضرب أسوارها بالحجارة . والظاهر انه لم يرد ان ينهك قواه على أسوار دمنش ، فانصرف عنها بعد أيام الى مسينى ، ومن حيث عبر المجاز فى « الحربية » الى مدينة ريو المقابلة ، حيث كان قد اجتمع فيها جيش رومى كبير .

وعندما نزل عسكر أبى العباس الى البر الايطالى فى شهر رجب (يونيه) ، لقيهم الروم على باب المدينة ، ولكن العسكر الأغلبى تمكن من هزيمتهم هزيمة تامة ، ودخل المدينة عنوة ، وحصل فيها على مغانم عظيمة . والى جانب ما غنمه أبو العباس فى ريو من احمال الذهب والفضة ، فانه شحن مراكبه بالدقيق والأمتعة ، وعاد راجعا الى مسينى . ورواية ابن الأثير هنا لا تذكر ، ماذا كان من أمر ريو ، وان كانت قد بقيت فيها حامية اسلامية ، مما يرجح أنه تم الصلح بين أهلها وبين العرب ، ولم تفتح العنوة . وهذا ما يمكن ان يفهم من رواية ابن عذارى التى تذكر أيضا انه استأمنت له حصون ، وأعطوه الجزية(٣٠٣) .

---

(٣٠٢) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ ، ج ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٣٠٣) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤٧ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ ، والنويرى ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب ، تاريخ المسلمين فى صقلية ... ، المكتبة ، ص ١٦٧ (حيث النص على اخذ ريو فى ١٠ من شهر يوليو « سنة ٩٠١ ») .

وفي مسيني التقى أبو العباس باسطول رومي كان قد وصل لتوه من القسطنطينية ، فهاجمه وأخذ منه ثلاثين مركبا • وبعد أن هدم سور مسيني، رجع الى المدينة بلرم ، ليقضي فصل الشتاء(٣٠٤) •

استدعاء أبي العباس الى افريقية :

وهكذا تنتهي ولاية أبي العباس بن ابراهيم بن أحمد لصقلية التي استمرت حوالى سنتين ، ملأها بأعمال البطولة والفتوة ، ومزج فيها أعمال السيف بأعمال القلم • وفي ذلك أنشد أبو العباس في دواء شربه بصقلية ، فقال :

شربت الدواء على غربة	بعيدا عن الأهل والمنزل
وكنت اذا ما شربت الدواء	تطليت بالمسك والمندل
فقد صار شربي بحار الدماء	ونقع العجاجة والقسطل(٣٠٥)

وبذلك قطع أبو العباس دابر الفتنة ، وأقر الأمور في الجزيرة ، وأعاد للجهاد في صقلية وايطاليا ، أيام عزه وأمجاده • وكان والده ابراهيم بن أحمد ، الذي أظهر التوبة والنسك في أواخر أيامه ، قد قرر أن يهب ما تبقى من عمره للجهاد في صقلية ، قربى لله وزلفى ، وكتب اليه يأمره بالعودة سريعا الى افريقية • واستجاب أبو العباس لأمر والده ، وترك العسكر مع ولديه أبي مضر (زيادة الله) وأبي معد ، ورجع الى افريقية « جريدة » ، في خمس قطع من المراكب المعروفة بالشواني • وعند وصوله استخلفه أبوه ابراهيم ابن أحمد كنائب له على البلاد ، بينما تجهز هو الى الجهاد ، فأخرج ما كان قد أدخره من المال والسلاح ، وهو يظهر العزم على أن يتبع الجهاد بالحج(٣٠٦) •

ابراهيم بن أحمد مجاهدا في صقلية :

وسار ابراهيم بن أحمد من القيروان الى سوسة ، أرض الرباط وقاعدة العمليات العسكرية في صقلية وايطاليا ، « فدخلها وعليه فرو مرقع في زي الزهاد » ، وذلك في مطلع سنة ٢٨٩ هـ/٩٠١ — ٩٠٢ م(٣٠٧) ، وكان قد تم تجهيز الأسطول الذي لم يدخر وسعا في سبيل اعداده •

---

(٣٠٤) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤٧ •

(٣٠٥) انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٥ •

(٣٠٦) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، جـ ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤٨ ، سنة ٢٦١ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٢ ، وانظر فيما سبق ، ص ١٤٥ — ١٤٦ •

(٣٠٧) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ص ٢٤٠ •

وعندما اطمأن الأمير الى أن كل شيء متعلق بإعداد الحملة وتجهيزها على ما يرام ، سار من سوسة فى الأسطول الى صقلية حيث نزل فى أواخر شهر رجب سنة ٢٨٩ هـ (أوائل يوليه) على مدينة نرطنوا (Neritimum) وملكها • وفى صقلية أظهر ابراهيم بن أحمد العدل وأحسن الى الرعية — فى سبيل تهيئة كل امكانات الصقليين للجهاد • وفى ذلك تقول الرواية انه فرق الخيل والسلاح على أصحابه وأمر بالعطاء ، فأعطى الفارس عشرين دينـــارا والراجل عشرة • ومن هناك ســـار فى البحر الى طرابنش حيث أقام ١٧ (سبعة عشر) يوما يعطى الأرزاق لمن معه • ومن طرابنش رحل الى بلرم فوصلها فى ٢٧ شعبان (٨ أغسطس) • وفى بلرم أقام ابراهيم بن أحمد أربعة عشر يوما ، أمر فيها برد المظالم ، وأعطى أهل المدينة (بلرم) ومن كان بها من الغزاة البحريين الأرزاق(٣٠٨) •

الاستيلاء على طبرمين :

وبعد أن أتم ابراهيم جهازه ، سار الى طبرمين التى كانت هدفا عزيزا على ولاة صقلية ، وقواد جيوشها ، منذ سنوات وسنوات • وعرف أهـــل طبرمين قصد الأمير الأغلبى ، فكانوا على أتم الاستعداد للقائه بمجرد وصوله أمام أسوار مدينتهم •

وأعد ابراهيم بن أحمد قواته فى هيئة القتال ، وأخذ القراء فى قراءة الآيات القرآنية التى تحض على الجهاد ، فقرأ القارىء : « انا فتحنا لك فتحا مبينا » ، ولكن الأمير أمره بأن يقرأ الآية التى تقول : «هذان خصمان اختصموا فى ربهم » • وعندما انتهى القارىء دعا ابراهيم ربه ، وقال : « اللهم انى اختصم أنا والكفار اليك فى هذا اليوم » ، فكان هذا الدعاء بمثابة اشارة البدء بشن الهجوم على قوات طبرمين الرومية • وكان الأمير ابراهيم نفسه أول المهاجمين : « فحمل ، ومعه أهل البصائر فهزم الكفار ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا » •

ويفهم من الرواية أن هجوم القوات الأغلبية كان من العنف والشدة بحيث أنه لم يسمح للروم بالعودة الى المدينة والإعتصام بأسوارها • اذ عندما

---

(٣٠٨) النويرى : المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢١ ب — ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤١ •

كان الروم ينهزمون الى الداخل عبر الأبواب كان المسلمون يدخلون معهم المدينة عنوة . وهكذا اندفعت جماعات من العسكر الرومى الى المراكب الموجودة فى الميناء ، وهربوا ناجين بأنفسهم بينما التجأت جماعات أخرى الى حصن المدينة واعتصموا به . وهؤلاء أحاط بهم الجند الأغلبى ، و « قاتلوهم فاستنزلوهم قهرا ، وغنموا أموالهم ، وسبوا ذراريهم » ، وذلك فى يوم ٢٢ شعبان من نفس سنة ٢٨٩ هـ/٢ اغسطس ٩٠٢ م . وبذلك فتحت طبرمين عنوة ، وأمر ابراهيم بن أحمد بقتل المقاتلة ، وبيع السبى والغنيمة(٣٠٩) .

صدى سقوط طبرمين فى القسطنطينية :

وكان للفتح عاصمة الاقليم الشمالى الشرقى من صقلية رنة حزن شديد فى القسطنطينية ، حيث أعلن الامبراطور الحداد ، كما كانت تقضى رسوم المملكة أو كما رأى الملك رسمه فى تلك المناسبة : « فبقى سبعة أيام لا يلبس التاج ، وقال . » لا يلبس التاج محزون »(٣١٠) .

ابراهيم بن احمد وفكرة الحج عن طريق القسطنطينية :

ولا شك أن الرواية العربية تبالغ عندما تقول ان الروم الذين هالهم الأمر قرروا ارسال حملة كبيرة لحفظ ما كان قد تبقى بأيديهم من الجزيرة ، ولكنهم خشوا أن يقصد ابراهيم بن أحمد ، بعد ذلك النصر الكبير ، القسطنطينية نفسها ، حتى أن الملك احتاط للأمر فترك فى عاصمته قوات كبيرة قادرة على حمايتها(٣١١) . وأغلب الظن أن هذه الفكرة هى أصل الرواية التى قالت ان ابراهيم بن أحمد ، عندما تنسك وترك المملكة كان يفكر فى الذهاب الى الحج ، ولكنه عاد وقرر أن يجمع بين الحج والجهاد ، ورأى أن يكون

---

(٣٠٩) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤١ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢١ ب ، افتتاح الدعوة للقاضى النعمان ، ص ٩٢ ، تاريخ صقلية من حين دخلها المسلمون حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٨ (حيث النص على اخذ طبرمين فى أول يوم من شهر اوسه سنة ٦٤١٦) . وانظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ١٧ — حيث الاشارة الى ما نص عليه بعض الكتاب البيزنطيين من اتهام قوادهم وبخاصة قائد البحر الأسطول يوستاثيوس ارجيروس (Eustathius Arggrus) بالتقصير الاجرامى ، بل بالخيانة والغدر رغم ان يوستاثيوس أعيد الى منصبه مباشرة بمعرفة الامبراطور ليو الرابع .

(٣١٠) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤١ .

(٣١١) انظر ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٢ .

حجة عن طريق صقلية ، مما يعنى أن صقلية كانت محطة فى الطريق الى القسطنطينية والمشرق ، وهى الفكرة التى اثارت خيال الكتاب العرب ، ورجال الحرب والسياسة أيضا ، منذ فتوح المغرب أو فتح الأندلس •

فتوح ابراهيم بن أحمد بعد طبرمين :

والمهم أن ابراهيم بن أحمد ، بعد أن ملك طبرمين ، بث سراياه فى مدن صقلية وقلاعها التى كانت ما زالت بين أيدى الروم فى المنطقة ، فوجد بعضها قد تركها أهلها ، وجلوا عنها ، مثل : ميقش ، التى هاجمها حفيده زيادة الله ابن أبى العباس ، ودمنش ، التى سير اليها ولده أبا الأغلب ، بينما أذعن بعضها وعرض الصلح على دفع الجزية ، ولكن القادة العرب لم يقبلوا الا تسليم الحصون نفسها ، مثل : رمطة التى سار اليها ابنه أبو مضر ، والياج ، التى سار اليها سعدون الجلوى(٣١٢) •

حصار كسنته (Cosenza) ، ومرض ابراهيم :

وسار ابراهيم بن أحمد الى مسينى ، حيث أقام بها يومين ، ثم انه أمر عسكره بالتعدية الى قلورية (كلابريا) فى يوم ٢٥ رمضان (٣ سبتمبر) • وسار حتى قرب من مدينة كسنته • ورفض ابراهيم ما عرضه عليه أهل كسنته من طلب الأمان ، وأمر عسكره بالتقدم الى المدينة ، بينما بقى هو فى الساقة ، اذ ألم به الضعف من المرض الذى مات فيه • ونزلت العساكر فى الوادى ، وأحاطوا بالمدينة • وفى ٢٥ من شوال (٢ اكتوبر) فرق أبناءه وحفدته وكبار قواده على أبواب كسنته ، وأمر بالزحف عليها ، بينما بدأت المجانيق تضرب الأسوار بحجارتها(٣١٣) •

وفى نفس هذا الوقت زاد بالأمير المرض ، وهو علة الذرب ، أو البطن ، الذى اشتد عليه ، واضطره الى الانفراد بعيدا عن العسكر • وكان لغياب الأمير أثره فى هبوط معنويات الجند الذين لم يجتهدوا فى قتال كسنته ، كما تقول

---

(٣١٢) ابن الاثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٢ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٢ أ •

(٣١٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٤ أ ، ابن الاثير ، سنة ٢٦١ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٢ ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٤ (حيث القراءة : كنسة بدلا من كسنته) •

رواية ابن الأثير . وزاد اشتداد المرض بابراهيم حتى منعه النوم ، وأخيرا عندما أصابه الفواق ، كان ذلك يعني اعلان وفاته التي وقعت في ليلة السبت ١٨ من ذي القعدة سنة ٢٨٩ هـ/٢٥ أكتوبر ٩٠٢ م(٣١٤) .

زيادة الله بن أبي العباس واليا :

واجتمع قواد العسكر ، وبعد أن تشاوروا فيما بينهم ، قرروا أن تؤول القيادة الى حفيد ابراهيم بن أحمد ، وهو أبو مضر زيادة الله بن العباس ، الذى عرضها بدوره على عمه أبي الأغلب الذى لم يتقدم على زيادة الله ، لانه كان يحب السلامة . وهنا عرض زيادة الله على أهل كسنته الأمان الذي كانوا قد طلبوه ، وهم لا يعرفون بوفاة الأمير ، فاجابوا .

وعندما عادت السرايا التي كانت قد سارت الى نواحي كسنته ، عاد العسكر بأجمعه ، وهم يحملون تابوت ابراهيم بن أحمد الى بلرم ، ومنهـا ارسل الى القيروان ليدفن هناك(٣١٥) .

عزل زيادة الله :

ولم تطل ولاية زيادة الله لصقلية الا الى اقل من ستة أشهر ، اذ استدعاه والده أبو العباس الى افريقية بسبب : « اعتكافه عـلى اللهو وادمانة شرب الخمر » ، كما تقول رواية ابن الأثير(٣١٦) ، ولو اننا نفضل رواية ابن عذارى التي نصت على أنه : « وشي به اليه أنه يريد الانتزاء عليه ، ويرجح ذلك ما تضيفه الرواية من أن زيادة الله عندما عاد الى افريقية في ٢٠ جمادى الاخيرة من سنة ٢٩٠ هـ/٢٣ مايه ٩٠٣ م ، اخذ أبوه ما كان معه من الأموال والعدد وحبسه داخل القصر ، كما حبس جماعة من أصحابه الذين كانوا معه(٣١٧) .

---

(٣١٤) ابن الأثير سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٢ ، ابو الفـداء ، المكتبة ، ص ٤٠٦ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٢ أ (حيث وفاة ابراهيم بن أحمد في ١٢ من ذى القعدة/١٩ اكتوبر) ، وانظر افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ، ص ٩٢ (حيث وفاة ابراهيم في ١٣ من ذى القعدة .

(٣١٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٢ أ - ١٢٢ ب - حيث يقول ان ابراهيم دفن في بلرم ، وانظر افتتاح الدعوة ، ص ٩٢ . أما ابن الأثير (سنة ٢٨٩ هـ ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٢) الذى اخذنا بروايته هنا فيصر على انه دفن في القيروان ، وهو الأمر الذى لم يغب عن ابن خلدون (ج ٤ ص ٢٠٤) .

(٣١٦) ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ ، ج ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤٦ .

(٣١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٤ ، وانظر فيما سبق ، ص ١٥٦ .

محمد بن السرقوسي واليا لصقلية :

وعهد أبو العباس بولاية صقلية الى القائد محمد بن السرقوسي(٣١٨) ، الذى يتضح من اسمه أنه صقلي أصيل ، من أبناء جيل المجاهدين الأول في الجزيرة • وهذا الأمر له اهميته ، من حيث أنه يعنى انه ، بعد ثمانين سنة من غزو الجزيرة ، أصبح من الممكن أن تؤول ادارة شئون صقلية ، من : جهاد وغيره الى أبنائها ، بعد أن كان حكامها من رجال الأغالبة الوافدين من افريقية• ولا شك أنه كان في ذلك ترضية للصقليين المعتزين بانفسهم ، بصفتهم المجاهدين أولا وقبل كل شيء ، دون غيرهم من أهل المملكة الأغلبية ، والذين كانوا قد بدأوا يسببون المتاعب لأمير القيروان منذ مدة ، كما رأينا ، وخاصة في ذلك الوقت الذى كان الشيعي يشكل خطرا داهما على الأغالبة في افريقية •

فكان تولية السرقوسي كانت تعنى — الى حد ما — ترك جبهة صقلية لأهلها ، فهم أدرى بما فيها ، ولو لفترة من الوقت تسمح بتوجيه كل الجهود الى الشيعي ومن معه من كتامة • وذلك ما يرجحه سكوت حوليات ابن الأثير وغيره عن أحداث صقلية طوال عهد زيادة الله تقريبا ، باستثناء الاشارة ، في سنة ٢٩٤ هـ/٩٠٧ م ، الى عودة السفارة التي كان قد أرسلها الى بلد الروم ، ومعها رسول صاحب القسطنطينية ، والتي ربما كان هدفها اقرار الهدنة بين الطرفين(٣١٩) •

احمد بن أبى الحسين بن رباح واليا :

وفي السنة التالية (٢٩٥ هـ/٩٠٨ م) ، عزل زيادة الله والى صقلية : محمد بن السرقوسي ، واستعمل بدلا منه أحمد بن أبى الحسين بن رباح ، وهو أيضا سليل قواد الجزيرة وولاتها(٣٢٠) •

الصقليون يخلعون طاعة الأغالبة ويعترفون بأبى عبد الله الشيعي :

ولم يبق الوالى الجديد في منصبه الا حوالى سنة واحدة ، وذلك انه عندما

---

(٣١٨) ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٦ ، المكتبة ، ص ٢٤٩ ، وانظر النويرى — المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ أ — حيث القراءة الخاطئة : « محمد بن أبى الفوارس » •

(٣١٩) انظر فيما سبق ، ص ١٧٧ •

(٣٢٠) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ أ — ٢٣٠ ب •

فاز الشيعي بافريقية في السنة التالية (٢٩٦ هـ/٩٠٩ م) ، وثب أهل صقلية عليه ، وانتهبوا ماله وحبسوه ، وولوا على أنفسهم علي بن أبي الفوارس في ١٠ من رجب سنة ٢٩٦ هـ/١٥ ابريل ٩٠٩ م . وبعث الصقليون بأحمد ابن أبي الحسين بن رباح الى أبي عبد الله الشيعي وكتبوا اليه أن يبقى على « ابن أبي الفوارس » ، فأجابهم الى ذلك ، وكتب اليه ان يغزو برا وبحرا(٣٢١) .

وبذلك كان أحمد بن أبي الحسين بن رباح آخر ولاة الاغالبة في صقلية، وكان علي بن أبي الفوارس أول من حكم الجزيرة باسم الفاطميين .

الحسن بن أحمد بن أبي خنزير ، أول والي فاطمي :

ولكنه عندما دخل المهدي رقادة ، تعود أخبار صقلية متواترة على طول الحوليات . ولقد بدأ ذلك بتعيين الحسن بن أحمد بن أبي خنزير واليا على صقلية في أواخر سنة ٢٩٧ هـ/٩١٠ م ، وهو ما سنعود اليه — انشاء الله — عند دراسة العصر الفاطمي في افريقية والمغرب .

---

(٣٢١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ ب .

الفصل الثالث

الدولة الرستمية

في تاهرت وجبل نفوسة

(١٦١هـ/٧٧٧م - ٢٩٦هـ/٩٠٨م)



قيام الرستميين في تاهرت :

رغم أن دولة الأغالبة كانت ممثلة الخلافة ، صاحبة الحق ألشرعي في حكم بلاد المغرب من أقصاها الى أقصاها ، الا أن استقلالها كان نتيجة طبيعية للأوضاع السياسية في المغرب في ذلك الحين • فالرستميون كانوا قد اقتطعوا المغرب الأوسط بينما كان الأدارسة في طريقهم الى تثبيت أقدامهم في المغرب الأقصى بمعنى أن الرشيد عمل على ايجاد نوع من توازن القوى عندما عهد بافريقية الى ابن الأغلب • ومؤسس أسرة الرستميين هو عبد الرحمن بن رستم ابن بهرام الفارسي ، وكان بهرام جده من موالي عثمان بن عفان ، ولو أن الكتاب يجعلون له نسباً يرتفع به الى ملوك الفرس القدماء (١) أما عن كيفية هجرته الى افريقية فتقول الرواية أن أباه رستم قدم من العراق الى مكة وبصحبته زوجته وابنه عبد الرحمن ، لأداء فريضة الحج فمات ، فتزوجت امرأته برجل من أهل القيروان حملها وابنها عبد الرحمن معه عند عودته الى بلده (٢) • وتربى عبد الرحمن بن رستم في القيروان وأخذ العلم عن فقهائها ومال الى تعاليم الخوارج ، ووقع تحت تأثير سلامة بن سعيد الذي كان يدعو الى مذهب

---

(١) يقال ان جده هو بهرام بن ذي شرار بن سابور بن بابكان بن سابور ذي الأكتاف الملك الفارسي • انظر البكري ، ص ٦٧ وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢١ ، الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ورقة ٩ (ط الجزائر ، ص ١٩) عن نسب عبد الرحمن ، ص ٢٠ - أ (ط الجزائر ، ص ٤٣) عن نسب ميمون حفيد عبد الرحمن .

(٢) الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ورقة ٩ (ط الجزائر ص ١٩ - ٢٠) حيث تقول الرواية المكتبية الطابع ان رستم والد عبد الرحمن عندما سار الى الحج كان يقصد الذهاب الى المغرب عن طريق مكة حيث انه كان خبيرا بعلم النجوم وانه كان يعرف ان ذريته ستملك بلاد المغرب ، وانظر الشماخي ، سير علماء جبل نفوسة ، ص ١٢٣ .

الأباضية (٣) . ولما بلغ مبلغ الشباب رحل الى البصرة حيث درس على أئمة المذهب هناك ، ومنهم أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى ، مع بعض اخوانه من المغاربة . وبذلك أصبح واحدا من خمسة هم « حملة العلم » . كما ذكرنا من قبل (٤) .

وعندما عاد عبد الرحمن أدراجه الى المغرب جد فى تحقيق أمنية شيخه سلامة بن سعيد الذى كان يقول : « وددت أن يظهر هذا الأمر يوما واحدا فما أبالى أن تضرب عنقى »(٥) ، فاشترك فى ثورة طرابلس بقيادة أبى الخطاب ، وعندما استخلص هذا الأخير مدينة القيروان من صفرية ورفجومة عهد اليه بولايتها . وبقى عبد الرحمن بن رستم بالقيروان الى أن قدم محمد بن الأشعث بالقوات العباسية فخرج تلبية لنداء أبى الخطاب ، ولكنه عاد من قابس عندما رأى هزيمة الأباضية قبل أن يفر من القيروان خفية نحو المغرب الأوسط سنة ١٤٤ هـ/٧٦١ م(٦) . ورغم ما تقوله بعض الروايات من أن ابن رستم بنى مدينة تاهرت عقب فراره أى فى سنة ١٤٤ هـ أو بعدها بقليل (٧) ، فالأقرب الى الصحة أن ابن رستم لم يفكر فى ربط مصيره وأتباعه بالمغرب الأوسط الا بعد أن فشلت محاولاته فى العودة من جديد الى أفريقية . ففى سنة ١٥١هـ/٧٦٨ م اشترك ابن رستم مع بقية الخوارج من أباضية وصفريه فى حصار عمر بن حفص فى طبنة ، وانتهى الأمر بالانهزام الى تاهرت (٨) . والظاهر أن المقصود بتاهرت هنا ليست المدينة بل أرض تاهرت أى اقليمها . فابن عذارى يحدد اختطاط تاهرت الرستمية فى سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٧ - ٧٧٨م (٩) ، وهو

---

(٣) انظر الدرجينى (الطبقات ، المخطوط ، ورقة ٦ ، ط الجزائر ، ص ١١) الذى يسجل رواية الاباضية التى ترجع الى الامام افلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عن بدء انتشار مذهبى الاباضية والصفرية ، والتى تقول ان اول من دعا الى هذين المذهبين فى قيروان افريقية هما . سلامة بن سعيد وعكرمة مولى ابن عباس اللذان قدما من البصرة ، وان سلامة كان يدعو الى مذهب الاباضية بينما كان عكرمة يدعو الى مذهب الصفرية .

(٤) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٤١ وهامش ٥ .

(٥) الشماخى ، ص ١٢٣ ، والدرجينى ، طبقات الاباضية ، ورقة ٦ (ط الجزائر ، ص ١١ - ١٢) حيث النص « وددت أن لو ظهر هذا الأمر يوما واحدا من أول النهار الى آخره فلا آسف على الحياة بعده . وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣١٩ و هـ ٣٠ .

(٦) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(٧) انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢٣ والترجمة ، ج١ ص ٢٤٢ ، النويرى ، ص ٩٢ أ ، والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٣٧٥ .

(٨) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

(٩) البيان ، ط. كولان ، ص ١٩٦ .

الأمر الذي تؤيده روايات الأباضية عن اقامة ابن رستم فيها بين سنة ١٦٠ هـ و سنة ١٦٢ (١٠) ، أي بعد اكثر من خمس عشرة سنة من فرار عبد الرحمن من القيروان وعشر سنوات من انهزامه في طبنة ، وذلك أمر مقبول ٠

وهذا لا يعني أن تاهرت لم تكن موجودة قبل ذلك التاريخ ، فالمدينة قديمة ترجع الى العصر الروماني ثم البيزنطي (١١) ، ولقد جاء ذكرها أيام الفتوح الأولى سنة ٦٢هـ/٦٨١ – ٦٨٢ م في حملة عقبة بن نافع التي استشهد فيها(١٢)٠ فلكي يستقر ابن رستم وأتباعه الذين جاءوا من بلاد افريقية وطرابلس في المغرب الأوسط كان لابد لهم من تنظيم دعاية واسعة النطاق لنشر تعاليم المذهب الأباضي بين قبائل المنطقة ، ونداء هذه القبائل الى تأييد ابن رستم ، وهذا أمر طبيعي تطلب تنفيذه حوالي خمسة عشر عاما ٠ ولقد ساعد على نجاح دعوة ابن رستم أن المنطقة التي نزلها تعتبر امتدادا لبلاد الزاب ، وأن كثيرا من قبائلها من لواته وهوارة وزواغة ومطماطة (١٣) أصلها من أقاليم المغـــرب الشرقية في طرابلس ونفزاوة وبلاد الجريد – مهد الدعوة الأباضية ٠ ولقد سهل هذا الأمر مسير كثير من أباضية تلك الأقاليم الى ابن رستم حيث أقاموا بين بني جلدتهم في المغرب الأوسط ٠ (أنظر شكل ٥ ص ٢٩٢) ٠

اما عن السبب في اختيار منطقة تاهرت مركزا للدعوة فيرجع أولا الى أنها منطقة داخلية منطوية على نفسها ٠ فرغم أن تاهرت على رأس الطريق الموصل من منطقة التلول الى أسافل وادي شلف المؤدي الى البحر ، ورغم أنها معلقة في أعلى المنطقة الجبلية (تلول منداس) على ارتفاع ١٫١٠٠ متر الا انها تقع على السفح الجنوبي للجبل – جبل كرول – (الذي يرتفع الى ١٫٢٠٠ متر) (١٤) بمعنى أنها توجه أنظارها نحو الداخل ، وتدير ظهرها للبحر ٠ وهذا يمثل موقعا استراتيجيا ممتازا بالنسبة لجماعة يحيط بهـــا الأعداء من كل جانب ، وترجو أن تعيش في أمان – في حاضرها على الأقل – بعد أن فشلت في الاحتفاظ بانتصاراتها في عواصم المغرب الشرقية ٠

---

(١٠) ابو زكريا ، كتاب السير واخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ١٣ – أ ، الدرجيني طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ١٩ – أ (ط٠ الجزائر ، ص ٤٠ – ٤١) ٠

(١١) عن خرائب تاهرت الرومانية والبيزنطية انظر :
Gautier : Le passé de l'Afr du Nord, p. 322

(١٢) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ١٩٧ ٠

(١٣) انظر البكري ، ص ٦٧ (يكتب لواته بالطاء : و لواطة) ٠

(١٤) انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢١ ، وانظر ايضا Gautier: op. cit., p. 328

بحر الروم
(البحر المتوسط)
بونه
قسنطينة
بجاية
الجزائر
تنس
وهران
نهر شلف
تاهرت
سطيف
طبنه
بسكره
بادس
تبسا
قفصة
وادي مجرده
بوسعادة
مسعد
منطق جبلية
شطوط (سباخ)
وديان

شكل رقم (٥)
المغرب الأوسط

ورغم وعورة المنطقة وقسوة طقسها وخاصة في فصل الشتاء حيث تغزو الغيوم والأمطار ، وتسقط الثلوج وتشتد البرودة . ويعز الدفء ، مما كان موضوعا لنكت الظرفاء وشعر الشعراء(١٥) ، فان المنطقة عرفت بثروتها الزراعية وكثرة مراعيها الغنية على وجه الخصوص ، وهي مدينة بذلك لكثرة مياهها . فتاهرت « على نهر كبير يأتيها من ناحية الغرب يسمى مينة (ميناس) ولها نهر آخر يجرى من عيون تجتمع يسمى تانس ، ومنه تشرب أرضها وبساتينها ، وبالقرب منها نهر سيرات ، وهو نهر كبير مشهور يقع في البحر عند مدينة ازواوا ، وهي مدينة قديمة رومية »(١٦) . وينوه كل الجغرافيين بكثرة زروعها وبساتينها ، ولكنهم يؤكدون شهرتها كاقليم للمراعي والانتاج الحيواني . وفي ذلك يقول ابن حوقل عن تاهرت : « وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية »(١٧) . والحقيقة أن صفة الرعي هي الغالبة على بلاد المغرب الأوسط ، « فهي كثيرة الخصب والزرع ، كثيرة الغنم والماشية ، طيبة المراعي ، ومنها تجلب الأغنام الى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها »(١٨) وعلى أساس طبيعة المنطقة يفسر جوتييه (استنادا الى ابن خلدون) طبيعة الامارة الرستمية : فهي مملكة بترية أي بدوية (١٩) ، على عكس الممالك

---

(١٥) من ذلك ما يقال من أن أحد أهل تاهرت سئل كم عدد شهور الشتاء عندكم ؟ فاجاب ثلاثة عشر شهرا (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٨) . كما يقال ان بعض التاهرتيين ذهب الى مكة لقضاء فريضة الحج فلما رأى توقد الشمس بمكة نظر اليها وقال : « احرقي ما شئت فوالله انك بتاهرت لذليلة » . وفي بردها قال أبو بكر بن حماد (توفي سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ — ٩٠٩ م) :

ما أصعب البرد وريعتـــه   وأطرف الشمس بتـــاهرت
تبـــدو من الغيم اذا ما بدت   كأنهـــــا تنشر من تحت
فنحن في بحر بلا لجـة   تجرى بنا الريح على السمت
نفـــرح بالشمس اذا أشرقت   كفرحـــة الذمي بالسبت

(انظر البكرى ، ٦٧ ، كتاب الاستبصار ، ص ١٧٨ ، الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ١٩ — ب (ط الجزائر ، ص ٤٢ — ٤٣) ، وعن ابن حماد انظر مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر ، ج ٢ ص ٣١) .

(١٦) انظر كتاب الاستبصار ، ص ١٧٨ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢١٢ . ولقد كانت كثرة مياه تاهرت سببا في تغنى الشعراء بها ، فقال بعضهم :

بسقى الله تاهرت المنا وسويقة   بساحتها يغنا يطيب به المحل

(ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٨) .

(١٧) ابن حوقل ، طبعة بيروت ، ص ٨٦ .

(١٨) كتاب الاستبصار ، ص ١٧٩ .

(١٩) Gautier, Le Passé de l'Afr du Nord ..., p. 326 - 330.

وانظر شكل ٦ ص ٢٩٤ .

شكل رقم (٦)

اقليم تاهرت : طريق رحلتى الرعاة فى الشتاء والصيف   انظر جوتييه س ٣٣٣ ، ومبارك الميلى (الخريطة الملحقة بالجزء [illegible]

الحضرية في القيروان وفي فاس •

قيروان جديد في المغرب الأوسط : بناء تاهرت الرستمية أو تاهرت الجديدة :

نجحت الدعاية التي قام بها عبد الرحمن بن رستم واتباعه فانضمت اليه قبائل المغرب الأوسط التي استجابت للدعوة الأباضية ، كما انضم اليه كثير من الخوارج الصفرية ، بل ومن جماعة تسمى بالواصلية الـذين يعتبرهم البكري من الأباضية (٢٠) — رغم أن المعروف عن الواصلية أنهم من المعتزلة وهو الأمر الذي تقره الروايات الأباضية • فابو زكريا يعرف الواصلية بأنهم قوم من البربر أكثرهم من قبائل زناته (٢١) ، والدرجيني الذي يسميهم بالواصلية يعرفهم أيضا باسم المعتزلة(٢٢) • والظاهر أن الفرقتين تحالفتا نتيجة لأخذهما بموقف الوسط بالنسبة لمرتكبي الكبائر (موقف المنزلة بين المنزلتين) ، وأنه لهذا السبب اعتبر معتزلة المغرب من الأباضية أو اعتبرت بعض جماعات الأباضية من المعتزلة ، واعترف الجميع بامامته (٢٣) ، وعلى راسهم أبو حاتم الذي خلف أبا الخطاب في طرابلس • فابو حاتم — في نظر ائمة الأباضية — كان امام دفاع (٢٤) ولم يكن امام ظهور كأبي الخطاب ، وعلى ذلك كان « يرسل مازاد على ما يحتاج اليه مما جمع من الزكاة لعبد الرحمن بن رستم قبل أن يتولى الأمور وولاية الظهور »(٢٥) والحقيقة ان اجتماع هذه الفرق المتنافرة في دعوة واحدة يمكن أن يفهم منه أن المسالة لم تكن مسالة اصلاح ديني يسعى اليه البعض أو الآخرون ، بل مسالة سياسية هدفها مدافعة حكم ممثلي الخلافة والاستقلال عن الدولة : بمعنى أن الدين لم يكن الا ستارا لاخفاء هـــذا

---

(٢٠) انظر البكري ، ص ٧٢ •

(٢١) كتاب السير واخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ١٩ — أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٦ — أ (ط• الجزائر ، ص ٥٧) •

(٢٢) طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ٢٦ — أ ، ط• الجزائر ، ص ٥٧ (الواصلية) ، ص ٢٧ — ب ، ط• الجزائر ، ص ٦٠ (المعتزلة) •

(٢٣) انظر البكري (ص ٦٧) الذي يقول « كان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت ••• وان عددهم نحو ٣٠ الفا في بيوت كبيوت العرب يحملونها » ، بمعنى انهم بدو ظواعن ، وانظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢١ • وعن الاباضية وعلاقتهم بالفرق الاخرى انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٨٤ ، ٣١٨ • وانظر مبارك بن محمد الميلي ، تاريخ الجزائر طبعة قسنطينة سنة ١٣٥٠ هـ ، ج ٢ ص ٧ — ٩ ، ١٢ •

(٢٤) الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ورقة ١٧ (ط• الجزائر ، ص ٣٧) •

(٢٥) الدرجيني ، طبقات الاباضيـــة ، المخطـوط ، ص ١٧ — أ (ط• الجزائر ، ص ٣٦ — ٣٧) • وانظر الشماخي ، السير ، ص ١٣٨ •

الهدف أو لاعطاء موقف الانفصال نوعا من الشرعية •

وبعد أن بويع عبد الرحمن بن رستم بالامامة في سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٦ - ٧٧٧ م ، وهو التاريخ الذي رجحته كتب الأباضية ابتداء من أبي زكريا ومن نقل عنه (٢٦) ، كان من الطبيعي أن يتخذ مقرا له يكون مركزا للدولة الناشئة• ووقع الاختيار على منطقة تاهرت للأسباب التي بيناها . من « استراتيجية » المكان الجبلي ، وتوفر العصبية البترية ، وغنى الموقع بالماء والمراعي • هذا ولا بأس من أن يكون ابن رستم قد إرتاد المكان من قبل ، وأنه استحسنه بعد أن أقام فيه عقب فراره من القيروان ، كما يقول الكتاب •

ويضفي كتاب أهل المذهب من الأباضية على فرار عبد الرحمن بن رستم الى جبل تاهرت ، وعلى بناء المدينة ، لونا قصصيا مثيرا كذلك الذي نسبه من سبقهم من الكتاب الذين أرخوا لبناء الاسكندرية والفسطاط والقيروان وكذلك القاهرة الى هذه المدن عند بنائها • فابن رستم قبل أن يفر من القيروان وقع بين يدي عبد الرحمن بن حبيب (الفهري) ولكن أحد القيروانيين شفع له فأطلقه ابن حبيب (٢٧) • وخرج الامام ومعه ابنه عبد الوهاب وغلام له ، وفي الطريق مات فرسه في قسطيلية من بلاد الجريد فمشى على رجليه حتى ضعف عن المشي ، فكان ابنه وغلامه يحملانه (٢٨) • وبعد جهد جهيد وصل الى جبل سوفجج(٢٩) حيث اعتصم قبل أن يلحق شيوخ أهل الدعوة من طرابلس ،

---

(٢٦) انظر السير لأبي زكريا ، المخطوط ، ص ١٣ - ا الذي يسجل هنا أن ابن رستم بويع سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦ - ٧٧٧ م ، ثم يعود ليقول وقيل انه بويع في سنة ١٦٢ هـ/ ٧٧٨ - ٧٧٩ م • وانظر الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ١٩ - أ والمطبوع ، ص ٤٠ - ٤١ ، الشماخي ، السير ص ١٣٩ • ولقد أخذنا بالرواية الأولى نظرا لأن اختطاط تاهرت تم في سنة ١٦١ هـ ، كما يحدد ذلك ابن عذارى (انظر فيما سبق ، ص ٢٩١) •

(٢٧) الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ١٦ - ب (ط• الجزائر ، ص ٣٥) : الذي يقول ان ابن رستم كان يكره عبد الرحمن بن حبيب ، وانه وصفه ذات مرة « بأنه شيطان عليه بشر ابن آدم » فحقدها عليه ابن حبيب • وانظر الشماخي ، ص ١٣٢ ، وعن فرار ابن رستم من القيروان انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٤٢ وكذلك ص ٣٤٥ • وعن مشاركة الفهري في ثورة الخوارج انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٥٢ - ٣٥٥ •

(٢٨) الدرجيني ، الطبقات ، المخطوط ، ص ١٦ - ب ، ١٧ - أ وتقول الرواية أنهم دفنوا الفرس حتى لا يقتصوا اثره فسمي الموضع بقبر الفرس (وانظر ط• الجزائر ، ص ٣٥ - ٣٦)•

(٢٩) الشماخي ، ص ١٣٣ • ولا نعرف ان كان المقصود بهذا الجبل هو جبل تاهرت الذي يسميه صاحب كتاب الاستبصار (ص ١٨٧) « قرقل » ، وابن خلدون (ج ٦ ص ١٢١) « كزول » (جزول) أم غيره • وانظر الدرجيني ، الطبقات ، ص ١٧ - أ (ط• الجزائر ، ص ٣٦) ، الذي يسمى الجبل المنيع « وادي ابج » •

الذين بلغوا ستين شيخا وأكثر ، مع أعوانهم من غير شك (٣٠) . وحسب هذه الرواية تبع ابن الأشعث الامام الى الجبل وضرب عليه الحصار كما احتاط للأمر فخندق حول عسكره خشية هجوم مفاجيء يقوم به ابن رستم ، وفي خلال ذلك « وحم الجبل بأهله ، ومات من أصحاب عبد الرحمن بشر كثير ... فأيس منه ابن الأشعث وعاد الى القيروان » كما يقول الشماخي (٣١) ، ولو أنه من المقبول ايضا أن يكون الجدرى الذى أصاب الجبل قد وقع أيضا في عسكر ابن الأشعث والحق به خسائر كبيرة مما جعل ابن الأشعث يتشاور مع قواده ويقرر الرحيل ، كما يقول الدرجيني (٣٢) .

أما عن بناء المدينة فله قصة عجيبة أشبه بقصة عقبة وبناء القيروان . فبعد أن اتفق رؤوساء العابدين وكبار الزاهدين وجماعة المؤمنين على بناء مدينة ، ارسلوا الرواد من أهل المعرفة في اختيار الجهات ليختاروا المكان الذى يصلح لبناء مدينة تكون حرزا للمسلمين وحصنا لهم ، فطافوا اطراف البلاد واستحسنوا موضع تيهرت . وكانت تيهرت غياضا (٣٣) وأشجارا ملتفة يسكنها أنواع السباع والوحوش . وهكذا ، وكما فعل عقبة بن نافع أمام شجراء القيروان ، فعل عباد الأباضية ، فارسلوا مناديا فنادى بأعلا صوته سباعها ووحوشها وهوامها أن اخرجوا وارتحلوا ، فانا مريدون عمارتها ونازلين بها ، واجلوها ثلاثة أيام . ويذكر أبو زكريا الذى ينقله الدرجيني والشماخي « وذكروا أنهم رأوا بها وحوشا تحمل أولادها في أفواهها يعني سباعا — والله أعلم » (٣٤) . ثم انهم عمدوا الى تنظيف المكان مما كان فيه من الأعشاب والشجيرات فأطلقوا فيها النيران ، وهو الأمر المقبول الذى رأينا أنه ربما كان سببا معقولا لهروب السباع والهوام ، مما اعتبره البعض كرامة لعقبة بن نافع بالنسبة لبناء القيروان ، وبذلك أصبح لتاهرت — في نظر

---

(٣٠) الدرجيني ، الطبقات ، المخطوط ، ص ١٧ — أ (المطبوع ، ص ٣٦) .

(٣١) الشماخي ، ص ١٣٣ .

(٣٢) طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ١٧ — أ (المطبوع ، ص ٣٦) .

(٣٣) البكرى ، ص ٦٨ (غيضة أشبه) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٦ (غيضة) . وانظر الدرجيني ، الطبقات ، ص ١٩ — أ ، المطبوع ، ص ٤١ (رياض لا عمارة بها الا السباع والهوام) ، ص ٣٠ — أ ، المطبوع ، ص ٤٤ (غيضة أشبه) ، وانظر الشماخي ، السير ، ص ١٣٩ (غياظيل م) .

(٣٤) انظر أبو زكريا ، كتاب السير واخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ١٣ — ب ، الدرجيني الطبقات ، المخطوط ، ص ١٩ — أ (المطبوع ، ص ٤١) ، الشماخي ، السير ، ص ١٣٩ .

الاباضية كرامبا ، مثلها فى ذلك مثل القيروان بالنسبة لأهل السنة(٣٥) ٠

هذا عن القصة أو الأسطورة الشعبية التى ظهرت فى وقت متأخر والتى تحمل فى ثناياها بعض الحقائق من غير شك ٠ أما أقـدم نص تاريخى عن بناء تاهرت فنجده فى البكرى الذى يقول ـ نقلا عن محمد بن يوسف ـ انه بعد اتفاق الجماعة الاباضية على أمامة عبد الرحمن بن رستم وبنيان مدينة تجمعهم ، نزلوا موضع تاهرت وهو غيضة (٣٦) على خمسة أميال غـربى المدينة (٣٧) ٠ واختار ابن رستم موضعا مربعا لاشعراء فيه ، ولهذا شبهه البربر بالدف لتربيعه وسموه تاقدمت (٣٨) ٠ ورغم أن الموضع كان لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة ، فان عبد الرحمن بن رستم فاوضهم فى بيعه ، ولما رفضوا اتفق معهم على أن يبيحوا للجماعة البناء على أن يكون لهم الحق فى جباية خارج الأسواق (٣٩) ٠

وكما هى العادة فى بناء المدن الاسلامية بدء بتخطيط المسجد الجامع ، وقطع الخشب اللازم للبناء من شجر الشعراء ٠ أما عن تخطيط الجامع فيذكر البكرى أنه ظل على حاله الى أيامه أو الى أيام محمد بن يوسف الذى ينقل هو عنه (٤٠) مكونا من أربعة بلاطات (٤١) ٠

---

(٣٥) انظر ابو زكريا ، السير وأخبار الائمة ، المخطوط ، ص ١٣ ـ ب ، وقارن الدرجينى ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ١٩ ـ أ حيث تضيف الرواية الى ذلك أن أصول الأشجار القوية التى لم تأت عليها النيران عولجت بأن وضع الخث والعسل فى أصولها ماتت الخنازير ليلا وحفرت أصولها حتى قلعتها مما يعنى أن المنطقـة كانت معروفة بخنازيرها الوحشية وقارن المطبوع ، ص ٤١ (حيث كلمة حيس بدلا من خث) ٠ أما عن قصة بنـاء القيروان المماثلة ، انظر فيما سبق ج ١ ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ٠

(٣٦) البكرى ، ص ٦٨ ، وانظر الدرجينى ، الطبقـات ، المخطوط ، ص ٢٠ ـ أ (المطبوع ، ص ٤٣) حيث ينقل نص البكرى ٠

(٣٧) البكرى ، ص ٦٧ (تاهرت القديمة شرقى الحديثة على خمسة أميال منها) ، وانظر الدرجينى ، الطبقات ، المخطوط ، ص ٢٠ ـ أ (المطبوع ، ص ٤٣) ٠

(٣٨) البكرى ، ص ٦٨ ، قارن الدرجينى ، المخطوط ، ص ٢٠ ـ أ ، حيث كلمة الدف بالبربرية = « بالطراجت » ، وقارن المطبوع ، ص ٤٤ ، والشماخى (ص ١٣٩) الذى ينقل هنا ما سبق أن قيل من أنهم أحرقوا الأشجار فى الموضع ٠

(٣٩) انظر البكرى ، ص ٦٨ الذى ينقله الدرجينى ، المخطوط ، ص ٢٠ ـ ب (المطبوع ، ص ٤٤) ، والشماخى ص ١٤٥ ٠

(٤٠) البكرى يكتب حوالى سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٨ م ٠ أما عن محمد بن يوسف فهو متوفى سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٤ م ٠ انظر مقدمة De Slane لكتاب البكرى ص ١٦ ٠

(٤١) البكرى ، ص ٦٨ ، الدرجينى ، المخطوط ، ص ٢٠ ـ ب (المطبوع ، ص ٤٤) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٦ ٠

ورغم ما يقوله البكرى من أنهم اختطوا وبنوا - حول المسجد كما جرت العادة - ورغم ما يقوله أبو زكريا ومن نقل عنه من كتاب الاباضية مثـــل الدرجينى والشماخى من أنهم اختطوا دورا وقصورا وبيوتا ، فالمعروف أن تاهرت الجديدة - مثلها مثل قيروان عقبة - لم تكن تعنى فى أول أمرها أكثر من معسكر للجماعة الأباضية . ولقد ظلت صفة المعسكر هذه لاصقة بالمدينة مدة طويلة ، وذلك ما يسجله البكرى ، عندما يقول : « وسمى الموضع معسكر عبد الرحمن بن رستم الى اليوم »(٤٢) ، وهى التسمية التى ينقلها الدرجينى ثم يضيف بعدها ما ينقله من أبى زكريا من أن تاهرت سميت بـ « المعسكر المبارك » (٤٣) .

امامة عبد الرحمن بن رستم ، وتطور الأفكار الخارجية :

والظاهر أنه بعد أن تم بناء تاهرت الجديدة لتكون « حـــرزا وحصنا للاسلام » أخذت وفود القبائل تأتى من الأقاليم المجاورة لبيعة الامام . فهذا ما ينص عليه كتاب الأباضية الأوائل عندما يجعلون مبايعة ابن رستم بعد بناء تاهرت والرواية الأباضية تقول : انهم نظروا فيمن يصلح للولاية من رؤساء القبائل فوجدوا فى كل قبيلة رأسا او راسين يمكن أن يكونوا من بين المرشحين ، وأخيرا اتفق رأيهم على عبد الرحمن للاسباب التى لخصها الشماخى فى قوله : لفضله ، وكونه من حملة العلم ، وكونه عامل أبى الخطاب على افريقية ، ولأنه لا قبيلة له تمنعه اذا تغير عن طريق العدل (٤٤) . والواضح

---

(٤٢) البكرى ، ص ٦٨ . أما ما يذكره البكرى عن اسوار المدينة وابوابها التى يذكر منها باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وقصبتها المسماة بالمعصومة ، فذلك عن وصف تاهرت بعد أن تمدنت وعظمت وامها الناس من كل مكان ، كما وصفها ابن الصغير (اخبار الائمة ص ١١ ، ص ١٣) فى أواخر القرن الثالث الهجرى/٩ م ، وهو مصدر البكرى ومن نقل عنه مثل الدرجينى ، المخطوط ، ص ١٩ - ب (المطبوع ، ص ٤٢) .

(٤٣) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ - أ ، الدرجينى ، المخطوط ص ٢٠ - ب ، ٢١ - أ (المطبوع ، ص ٤٤) .

(٤٤) الشماخى ، ص ١٣٩-١٤٠ ، وانظر ابن الصغير ، ص ٩ ، الذى يجعل سبب طلبهم اختيار الامام خشيتهم من وجود كثير من رؤساء القبائل الذين يمكن أن يطمحوا فى الولاية فيؤدى ذلك الى الفتنة ، وانظر الدرجينى ، طبقات الاباضية ، المخطوط ص ١٩ - ب

كان هذه الرواية لا يقصد بها تحديد وقت اختيار عبد الرحمن بن رستم للامامة بعد بناء المدينة الجديدة فذلك مالم يقل به أحد من قبل اذ كانت له الرئاسة في اباضية القيروان منذ أيام أبي الخطاب ، بل حتى قيل انه عرضت عليه الامامة قبيل تولية ابن الخطاب فاعرض عنها (٤٥) ، ثم أصبحت املته على الجميع بعد وفاة هذا الأخير ، وذلك مايقوله فقهاء الأباضية كما أشرنا (٤٦) . وبناء على ذلك نعتقد أن هذه الرواية تعنى مبايعة رؤساء القبائل الى جانب أنها تبين ظروف انتخاب عبد الرحمن التى أراد فقهاء الاباضية أن يجعلوا منها مبادىء أساسية لانتخاب الامام . فلقد توفرت في الامام الأول شروط أربعة ذوات طبيعة مختلفة : أولها أخلاقي ، وثانيها علمي ، وكل من ثالثها ورابعها سياسي . أما عن البرنامج الذى تمت على أساسه البيعة ، فكان العمل بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الراشدين ، وعلى هذا الشرط قبل عبد الرحمن أماناتهم (٤٧) ، واشترط عليهم هو الآخر « الطاعة في الحق »(٤٨) .

ولا بأس من أن يكون ذلك الترتيب الخاص باختيار الامام صحيحا . فالمبدآن الأولان من المبادىء المطلوب توفرها في اختيار الامام أو الخليفة كما اتفق على ذلك الفقهاء : « فالفضل »في هذا النص أو حميد الأوصاف عند الدرجيني أيضا هو ما يوازى « العدالة » التى تعنى الكمال الاخلاقي ، من حيث سلامة الاعتقاد وسلامة الجوارح ونزاهة التصرفات الشخصية (٤٩) وأما كونه من حملة العلم ، فالعلم شرط أساسي ليس بالنسبة للمرشح لتولى الامامة أو الخلافة فحسب بل هو ضرورى أيضا بالنسبة لطبقة أهل الاختيار ، أى أصحاب الحق فى انتخاب الامام أو الخليفة . هذا ولو أن العلم بالنسبة للطبقة الثانية هو العلم الذى يوصل الى اختيار الأصلح ، أما بالنسبة للامام فهو

= (المطبوع ، ص ٤٣) الذى يضيف الى ما سبق : لدينه ، وعلمه ، وسابقته ، ومكانته ، وحميد أوصافه .

(٤٥) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٣ ـ ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٦ ـ ب (المطبوع ، ص ٤٢) .

(٤٦) أنظر فيما سبق ، ص ٢٩٥ وهامش ٢٤ .

(٤٧) ابو زكريا ، كتاب السير وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ١٣ ـ ب ، وقارن الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ص ١٩ ـ ب (المطبوع ، ص ٤٢) .

(٤٨) ابن الصغير أخبار الأئمة ، ص ٩ .

(٤٩) انظر الماوردى ، الأحكام السلطانية ، طبعة القاهرة ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م ، فصل عقد الامامة ، ص ٤ ، ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل ٢٦ فى اختلاف الأمة فى حكم منصب الخلافة والامامة ، ص ١٩٣ .

العلم الذى يوصل الى مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة (٥٠) . أما الشرط الثالث وهو « كونه عامل أبى الخطاب على افريقية » ، أو أنه كان قاضيا له وناظرا (٥١) ، فيمثل فكرة التعيين أو الوصية التى تحولت الى مبدأ الوراثة ، وهذا يعنى تحول الجماعة الأباضية عن مبدأ الاختيار . فعند أهل السنة قبل مبدأ التعيين أو الوصية على أنه حقيقة تاريخية : بعد أن عهد النبى لأبى بكر بامامة الصلاة ، وبعد أن أوصى أبو بكر بخلافة عمر ، وبعد أن حدد عمر أهل الخلافة فى ستة نفر ثم أتى معاوية وجعل العهد لابنه يزيد ، وبعد الأمويين طبق العباسيون أيضا مبدأ الوراثة . حدث كل ذلك مع الاحتفاظ بالشكليات من حيث تطبيق مبدأ الاختيار الممثل فى البيعة . ولقد انتهى الأمر باشتراط صفة القرشية فى المرشح للخلافة (٥٢) .

والمعروف أن الخوارج لم يوافقوا على مبدأ التعيين أو الوراثة ، وأنهم طالبوا بتطبيق مبدأ الشورى أى الانتخاب ، وألا تقتصر طبقة المرشحين على طائفة من الطوائف ، بل يكون الترشيح مفتوحا أمام الجميع دون أية تفرقة عنصرية حتى أجازوا امامة العبد الأسود طالما يتمتع بالأهلية (٥٣) . وهذا يعنى أن الأصل السياسى عند الخوارج هو تطبيق مبدأ الجمهورية التى تكون السلطة العليا فيها للشعب جميعا دون تمييز . أما المبدأ الرابع ، وهو « أنه لا قبيلة له تمنعه اذا تغير عن طريق العدل ، فهو شرط سياسى يتنافى مع نظرية العصبية التى تقوم عليها الدولة ، كما لاحظ ابن خلدون فى انهيار وقيام الدول الاسلامية (٥٤) . ومبدأ عدم استناد الامام الى قبيلة أو عصبية يهدف الى دفع ما يمكن أن تتعرض له الجماعة الأباضية من الاستبداد ، كما يطمح الى تحقيق الامامة ، أو الحكومة المثالية ، التى يكون العدل عصبيتها . وهذا الأمر يمثل مرحلة من مراحل تطور الأفكار الخارجية ، اذ سيقول بعض مفكرى الخوارج

---

(٥٠) الماوردى ، نفس الفصل ، ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل ٢٥ (فى معنى الخلافة والامامة) .

(٥١) ابن الصغير ، ص ٩ .

(٥٢) الماوردى ، نفس الفصل ، ابن خلدون ، الفصل ٢٦ (اختلاف الأمة فى حكم منصب الامامة والخلافة) .

(٥٣) انظر ابن خلدون ، فصل اختلاف الأمة فى حكم منصب الخلافة وشروطه ، ص ١٩٤ ، الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص ٨٧ .

(٥٤) ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل ١٨ (فى أن الغاية التى تجرى اليها العصبية هى الملك) ص ١٣٩ .

انه اذا تحقق العدل بين افراد الجماعة فلن تكون هناك حاجة الى الامامة أى الى الحكومة (٥٥) ·

ومن الواضح أن اصحاب هذه الافكار كانوا نظريين أكثر مما يجب ، فعندما اقام الأباضية أمامتهم في تاهرت لم يستطيعوا تطبيق نظرية الانتخاب الجمهورية فى اختيار الامام ، فأصبحت امامتهم وراثية فى بنى رستم - مثلهم فى ذلك مثل العباسيين فى المشرق والأمويين فى الأندلس · وهذا يعنى أنهم لم يتمكنوا من التخلص من تاثير مبدأ الوراثة الذى اصبح تاريخيا تقليديا عند اهل السنة أو أنهم لم يستطيعوا التخلص من افكارهم الأولى عندما كانوا شيعة يطالبون بأن تكون الامامة وراثية فى آل البيت ·

حقيقة ان الجماعة الاباضية فى تاهرت بدأت فى الانقسام على نفسها منذ أن خلف عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والده فى الامامة سنة١٦٨هـ (٧٨٤ - ٧٨٥ م) ، عندما انكر البعض ان يرث عبد الوهاب والده فى الرئاسة، ولهذا السبب اطلق عليهم اسم النكار أو النكارية ، بينما تمسكت الغالبية بصحة امامة عبد الوهاب على أساس اختيار الأفضل (٥٦) ، وربما كان ذلك صحيحا · ولكنا سنصبح امام أسرة من الأئمة الأفاضل تورث الحكم لأبنائها الأفاضل - دون غيرهم من الناس - وربما كان ذلك شبيها بما عرف عند الشيعة رغم أنه لا ينبنى على مبدأ الوصيه ·

اعمال عبد الرحمن بن رستم :

والحقيقة ان عبد الرحمن بن رستم كان عند حسن ظن الجماعة فيه ، فقد أحسن السيرة وجلس في مسجده للأرملة والضعيف فلم ينقم عليه أحد في حكومة ، ولم يكن فى أيامه اختلاف (٥٧) · وفى هذا المقام يؤكد كتاب

---

(٥٥) الشهرستاني ، الملل والنحل ، طبعة ليبزج ص ٦٧ ، الماوردى ، الفصل الأول فى عقد الامامة ، ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل ٣٦ (ويشير الماوردى وابن خلدون هنا الى اتفاق بعض فرق الخوارج فى هذا الرأى مع الأصم فقيه المعتزلة) ، وانظر احمد بن أبى ضياف ، اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان تونس ١٩٦٣ · ج ١ ص ٦ ·

(٥٦) عن صفات عبد الوهاب بن رستم انظر فيما بعد ص ٣١٥ ·

(٥٧) ابن الصغير ، السير واخبار الائمة ، ص ١٠ ، وانظر ابو زكريا ، السير واخبار الائمة ، المخطوط ، ص ١٣ ب ، الدرجينى ، الطبقات المخطوط ص ١٩ - ب (المطبوع ص ٤٢) ·

الأباضية فصل عبد الرحمن وعدالته التي كانت سببا في الاعتراف به ليس كامام لجماعة الاباضية في تاهرت والمغرب فقط بل وكذلك لاباضية المشرق ، وذلك في الوقت الذي كان أبو عبيدة حيا في البصرة ، وكان لعمان أمامهـــا (واليها) الاباضي ، الذي يسمى عبد الوارث (٥٨) ٠

فعندما وصلت أخبار عدل ابن رستم الى مدينة البصرة ـ مركز المذهب في العراق ـ قال أهل الدعوة : « ظهر في المغرب أمام ملأه عدلا وسوف يملك المشرق (٥٩) » ٠ وجمعوا ثلاثة أحمال من المال سيروها الى المغرب مع بعض الرسل ، وطلبوا منهم أن ينظروا في أمره فان كان حاله على مابلغهم أعطوه المال (٦٠) ٠ وعندما وصل الرسل الى تاهرت ، نزلوا خارج المدينة ، في بعض المصليات هناك ، حيث تركوا أحمال المال ثم دخلوا المدينة من بابها المعروف بباب الصفا ، كما يقول ابن الصغير ، وهم يسألون عن دار الامارة (٦١) ٠

وعندما وصلوا الى الدار وجدوا صاحبها في أعلى بيت يعمل بيده السقف وعبد' له يعجن الطين في أسفل الدار ويناوله اياه ٠ وعندما سألوا الغلام ان يستأذن لهم على سيده ، طلب عبد الرحمن الى غلامه أن يمهلهم بعض الوقت حتى ينزل ويغسل جسده من الطين (٦٢) ٠

وعندما دخل البصريون على الامام وجدوه جالسا على حصير فوقه جلد ، ولا شيء في بيته سوى وسادته التي ينـــام عليهـــا وسيفه ورمحه وفرسه المربوط خارج البيت(٦٣) ٠ وعندما أمر الغلام بان يقـــدم لهـــم الطعام أتت المائدة وعليها قرص خبز وسمن وشيء من ملح ٠ فهشمت القرص ، ولثت

---

(٥٨) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ ـ أ ، وانظر الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ ـ ب (حيث النص : وأبو عبيدة حي وتوفي في امامة عبد الرحمن ٠ وقارن المطبوع ، ص ٤٥ ـ حيث النص : وأبو عبيدة حي اذ ذاك وفي امامة عبد الرحمن) ٠

(٥٩) ابن الصغير ، ص ١٠ ٠

(٦٠) ابن الصغير ، ص ١٠ ، أبو زكريا المخطوط ، ص ١٤ ـ أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ ـ ب (المطبوع ، ص ٤٥) ٠

(٦١) ابن الصغير ، ص ١١ (يقول عن المصلى انه الذي كان به قبر مسالة « مصالة »)٠

(٦٢) ابن الصغير ، ص ١١ ، أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ ـ أ ، الدرجيني المخطوط ، ص ٢٠ ـ ب (المطبوع ، ص ٤٥) ٠

(٦٣) ابن الصغير ، ص ١١ ٠

بالسمن وآكل الجميع (٦٤) .

وهكذا لم يختلف الامام الشعبي في حقيقته عن تلك الصورة التي صورتها أخباره لهم في المشرق ، فاجتمع رأيهم على أنهم رضوا عنه ، « فقال بعضهم لبعض يكفينا من السؤال عنه ما رأينا منه : من اصلاحه لداره بنفسه ومطعمه وملبسه وحلية بيته فما نرى الا أن ندفع اليه المال ولا نشاور أحدا فيه (٦٥) ، ونادى عبد الرحمن الناس الى الصلاة الجامعة ، وشاور أصحاب الرأى وزعماء القبائل فيما يفعل بالمال فأشاروا عليه أن يفرقه في وجوهه المشروعة ، على أن يكون الثلث لشراء الكراع ، والثلث لشراء السلاح ، والثلث لباقي الفقراء وذوي الحاجات (٦٦) ، وتم ذلك بمحضر الرسل (٦٧) . ولقد ترتب على ذلك أن قويت جماعة الاباضية في تاهرت وانتعش فقراؤها وحسنت أحوالهم .

وبذلك تحقق الأمن لتاهرت وأصبح يخافها من كان يحيط بها من القبائل . وعندئذ أخذ التاهرتيون يشرعون في العمارة والبناء ، وأحياء الأرض الموات وغرس البساتين ، بفضل أعمال الري ، من : شق القنوات واجراء الانهار واتخاذ الارحاء عليها لطحن الغلال .

وهكذا فعندما قرر أباضية المشرق أن يساندوا إمام أهل الدعوة الذي تحقق ظهوره في المغرب ، على أساس أنه الخليفة الحقيقي للائمة الأوائل ، مثل : أبي بلال مرداس وأبي حمزة الشاري ، كما تقول رواية ابن الصغير ، فبعثوا اليه من جديد بعشرة أحمال من المال ، رفض عبد الرحمن بن رستم قبول المـــال وطلب رده الى أهله ، رغم الحاح الرسل وتململ بعض وجـــوه أصحابه . ولقد فعل ذلك الامام عندما سأل عن أحوال اخوانه بالمشرق وعرف

---

(٦٤) ابن الصغير ، ص ١١ ، وقارن الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ – ب (المطبوع ، ص ٤٥) .

(٦٥) ابن الصغير ، ص ١١ ، وقارن أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ – أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ – ب (المطبوع ، ص ٤٥) .

(٦٦) ابن الصغير ، ص ١٢ ، وقارن أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ – أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ – ب (المطبوع ، ص ٤٥ – حيث النص « وفي الاسلام » بدلا من « وفي السلاح ») .

(٦٧) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ – أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ – ب (المطبوع ، ص ٤٥) .

أنهم « مستترون غير ظاهرين ، وأنهم مستضعفون غير قاهرين ، وأن جماعتهم مثل ما بجماعة الناس من الغناء والفقر» (٦٨) ٠

وهذا النص الأخير يبين أن عبد الرحمن بن رستم لم يكن ليكتفي من الناحية النظرية على الأقل — بما تحقق من استقلال « أهل الدعوة» في تاهرت وأعمالها ، بل كان يرمي الى تحرير الجماعة الاباضية في المشرق من الحكم العباسي ، وهذا لا يمنع فكرة طموح الجماعة الاباضية في نشر دعوتها في كل دولة الخلافة ٠ وذلك ما يشير اليه كتاب الاباضية عندما يقولون بهذا الصدد: « فتعجب أهل المشرق من زهده في الدنيا ورأوا أن امامته فرض عليهم ،واعترف كل أباضي بامامته ، وواصلوه بكتبهم ووصاياهم(٦٩) ، طوال مدة أمامته التي استمرت ثماني سنوات ١٦٠ — ١٦٨ هـ/ ٧٧٦ — ٧٨٤م (٧٠) ٠

تنظيم دولة الامامة تاهرت على عهد عبد الرحمن بن رستم :

وهكذا نجحت الجماعة الاباضية في المغرب الأوسط في اقامة دولة مستقلة لها ، وأصبحت تاهرت العاصمة لها حكومتها المستقلة عن دول المغرب المعاصرة ، وعن دولة الخلافة في المشرق ٠ فلقد حمل عبدالرحمن بن رستم لقب الامام أي رئيس الجماعة جريا على تقاليد الخوارج ، وهو اللقب الخلافي ذو الصبغة الدينية بصفة ان الامام هو الذي يؤم جماعة المؤمنين في الصلاة مما ترتب عليه أن ابن رستم حمل أيضا لقب أمير المؤمنين ، كما نرى ذلك عند كتاب الاباضية (٧١) ٠ ورغم أن لقب أمير المؤمنين كان اللقب الخلافي المميز —

---

(٦٨) ابن الصغير ، ص ١٣ — ١٤ ، وقارن ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ — أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ — ب ، ٢١ — أ (المطبوع ، ص ٤٥) ، الشماخي ، ص ١٤٠ (لأن أهل بلاده يتمتعون بالعدل ، وأصحاب المسائل في حاجة الى ان يدفعوا به عن أنفسهم الظلم) ٠

(٦٩) ابن الصغير ، ص ١٥ ، ابو زكريا ، المخطوط ص ١٤ — أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢١ — أ (المطبوع ، ص ٤٥) ٠

(٧٠) المعروف أن عبد الرحمن بن رستم توفي سنة ١٦٨ هـ ٠ وعلى اساس أنه بويع بالامامة سنة ١٦٠ هـ ، كما سبق ص ٢٩١ (انظر ، مسكراي ، مقدمة ابن الصغير (بالفرنسية) ص ٦) ، وهو التاريخ الذي رجحناه على سنة ١٦٢ هـ ، تكون امامته ثماني سنوات ٠

(٧١) انظر الدرجيني ، المخطوط ، ص ١٧ — ب : حيث يقول أن والي طرابلس عندما خرج الى جماعة أبي حاتم وطلب منهم الطاعة لامير المؤمنين وانكروه وهم يقصدون امامهم (والمطبوع ، ص ٣٧) ٠

على اعتبار أن الامام هو أمير المؤمنين فان ابن رستم لم يحمل لقب الخليفة رغم اعتراف أهل الدعوة بامامته فى المشرق ورغم طموحه فى ان يظهروا هناك أيضا ، كما ظهروا في المغرب • واذا كان الرستميون قد حملوا لقب « الخليفة » ، فلا بأس أن يكون ذلك قد حدث بعد أن استفحلت الدولة على عهد عبد الوهاب ابن عبد الرحمن (٧٢) •

ورغم أن عبد الرحمن بن رستم قام بمهمة الامامة حسبما قضت البيعة ، من : سلوك سبيل العدل من جهته والتزام الجماعة بطاعته فى الحق من جانبهم ، ورغم الاجماع على أنه : لم يبدل في سيرته ولم يغير وأن الجماعة لم تعترض عليه في أمر ولم تخالفه في حكومة ، فلقد مارس ابن رستم سلطاته ممارسة ديموقراطية ، كما نقول الآن ، أى حسب أصول الشورى المتعارف عليها عند جماعة المسلمين الأوائل ، على عهد الرسول والراشدين وآثار الصالحين : حقيقة انه كان يمارس وظيفة امام الصلاة والقاضى بين الناس فى مسجد تاهرت ، كما كان مستعدا لقيادة المجاهدين من أهل الدعوة فى كل وقت اذ كان سيفه ورمحه في متناول يديه بينما كان فرسه مربوطة الى عضادة بابه ، فان ذلك لا يعني أنه كان يحكم الجماعة حكما استبداديا ، وان كان صالحا • فقد كان يجتمع بالناس فى مسجد المدينة عقب كل صلاة ، كما كان يشاور وجوه أهل الدعوة عقب انصراف عامة الناس فى كل مناسبة • وهذا ما تنص عليه الروايات الخاصة باستقبال رسل أهل البصرة عندما ساروا اليه بأحمال المال ، فى المرتين جميعا ، وان كانت نفس الروايات تشير الى أن اعيان الجماعة – من مستشارية – وان كانوا قد قدموا له المشورة فى المرة الأولى ، فانهم تركوا له اتخاذ القرار النهائى فى المرة الثانية عندما رفض أخذ أى شيء من المال ، وأمر برده الى أهله • وهكذا ظهر زهد الامام – الذى لم تتبدل أحواله رغم تغير أحوال أهل بلده الى ما هو أحسن – وعفافه ، وضرب لأهل بلده ولاخوانه من أهل البصرة المثل فى المحافظة على سنن السلف الصالح ، وهى التى كانت تقضى بعدم خروج صدقة أهل بلد من البلدان الى أهل بلد غيره طالما كان فيهم المستحقون لها من الضعفاء والمساكين (٧٣) •

---

(٧٢) هذا ما قد يفهم من رواية ابن خلدون (ج ٦ ص ١٢١) الذى يقول عن عبد الوهاب انه ولى بعد أن هلك والده عبد الرحمن وانه ولى ابنه ميمونا « وكان رأس الاباضية والصفرية والواصلية وانصرف الى نفوسة (مفوسة) والصفرية والواصلية ، وكان يسلم عليه بالخلافة » • وانظر فيما بعد ، ص ٣١٤ وهـ ٩٢ وهـ ٩٣ •

(٧٣) انظر الماوردى ، الأحكام ، الباب ١١ فى ولاية الصدقات ط • مصر ١٩٠٩ م ص ١٠٢ – « ولا يجوز أن تنقل زكاة بلد الى غيره الا عند عدم أهل السهمان فيه » •

وفى اطار هذا الحرص على تطبيق الكتاب والسنة وآثار الصالحين حاول فقهاء الاباضية فيما بعد الاجتهاد فى تفسير كيفية قبول عبد الرحمن بن رستم لما قدمه أهل البصرة من المال فى أول مرة ، ورفضه أخذ ماحملوه اليه منه فى المرة الثانية • وفى اجتهادهم هذا قالوا انه ربما عرف الامام أنه كان فى احمال المال الثانية أموال أتت عن غير طريق الصدقة ، مما يمكن أن يشكك فى سلامة مصدرها ، بمعنى أن ذلك كان سبب رفضها (٧٤) • بينما الرواية صريحة فيما تنسبه الى الامام من أنه قبل الاموال فى أول مرة لأن أهل تاهرت كانوا فى حاجة اليها للدفاع عن انفسهم بينما كانت أحوالهم قد تحسنت واستغنوا عندما أتت دفعة الأموال الثانية ، فكان غيرهم من ضعفاء أخوانهم أولى بها منهم ، وهذا ما رفع من شأن الرجل وزاد فى تعظيم معاصريه له •

دولة المشاركة والمساواة :

وعن طريق العدالة فى توزيع الأموال والأرزاق حققت امامة تاهرت الرستمية على عهد عبد الرحمن ما كان يصبو اليه الكثيرون من المساواة فى الحقوق والواجبات ، وخاصة ما يتعلق منها بالأموال وهى المشكلة التى فجرت الفتنة الكبرى بمقتل الخليفة عثمان بن عفان الذى يقف منه الخوارج وبضمنهم الأباضية موقفا عدائيا مرا (٧٥) •

التنظيم المالى :

وفى جمع الأموال وانفاقها يقول ابن الصغير عن عهد عبد الرحمن بن رستم : « والسيرة واحدة ، وقضاته مختارة ، وبيوت أمواله ممتلئة ، وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون فيقبضون اعشارهم فى هلال كل (شهر) من أهل الشاة والبعير ••• لا يظلمون ولا يظلمون •• فاذا حضر جميع ذلك صرف الطعام الى الفقراء وبيعت الشاة والبعير • فاذا صارت أموالا دفع منها الى العمال بقدر ما يستحقون على عملهم ، ثم نظر فى باقى سائر المال فاذا عرف مبلغه أمر باحصاء من فى البلد وفيما حول البلد ثم أمر باحصاء الفقراء والمساكين ، فاذا علم عددهم أمر باحصاء ما فى الأهراء من الطعام ثم أمر بجميع مابقى من مال الصدقة فاشترى منه اكسية صوفا وجبابا صوفا وفراء وزيتا ثم دفع فى كل أهل بيت بقدر ذلك • ويؤثر باكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه • ثم ينظر الى

---

(٧٤) انظر الدرجينى ، المخطوط ، ص ٢١ ـ أ ، المطبوع ، ص ٤٦ •

(٧٥) الوسيانى ، المخطوط ، ص ٤٢ ب •

ما اجتمع من مال الجزية وخراج الارضين ، وما أشبه ذلك فيقطع لنفسه وحشمه وقضاته وأصحاب شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم في سنتهم ، ثم ان فضل صرفه في مصالح المسلمين(٧٦) .

تنظيم دولة رعاة :

من هذا النص الفريد في الموضوع ، والذي يعتبر أقدم النصوص التي وصلتنا عن الامامة الرستمية في تاهرت ، يتضح لنا أن تنظيم امامة تاهرت كان تنظيم دولة بدوية تعيش على الرعي أولا وقبل كل شيء . فأهم مورد لخزانة مال الامام عبد الرحمن هو ضريبة الأعشار ، من الشاة والبعير التي كانت تجبى في أول كل شهر قمري . ولما كان من المفهوم أن ضريبة الأعشار التي تعني العشر تمثل الزكاة أو الصدقة ، وهي الواجب المالي الوحيد الذي يقع على عاتق المسلمين ، فالمفروض أن الضريبة المقررة كانت ربع العشر - في مجتمع تاهرت المتمسك بالسنن الأولى - لا تتجاوزه بأي حال من الأحوال ، وأن تسميتها بالعشر كان نوعا من التخفيف لكلمتي ربع العشر ، على ما نظن . وكلمتي « لا يظلمون ويظلمون » تعني التمسك بشكل لا يقبل الجدل في تحديد قدر الضريبة دون زيادة أو نقصان . والمفهوم أيضا من ثنايا النص أن الضريبة لم تكن تجبى على قطعان الماشية وحدها ، بل كانت تجبى على ناتج الأرض من الحب ، من : القمح والشعير ، الذي يعرف بالطعام ، والذي كان يصرف عينا بمجرد جمعه على الفقراء . وذلك أن ارزاق العمال (من جامعي الصدقات) كانت تصرف لهم نقدا بعد بيع غنم العشر وحماله . وكانت الأرزاق تصرف لهؤلاء العمال تبعا لنوع الوظيفة التي يقوم بها كل منهم .

معاونو الامام :

والمفهوم من ترتيب الموظفين الرئيسيين ، من عمال الامام وأعوانه ، أنهم يتوالون على الوجه الآتي : القضاة ويمثلون الطبقة الأولى ، ويتلوهم أصحاب الشرطة الذين يمثلون نواب القاضي ، من المحتسبين المشرفين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأسواق وفي القبائل ، وبعدهم تأتي طبقة العمال من جباة الأموال المعروفين بالطائفين أو الطوافين . والتسمية مشتقة من طبيعة الوظيفة التي تتمثل في الطواف على القبائل والبلدان وتجمعات أهل الدعوة لجباية الصدقة أو العشر .

---

(٧٦) ابن الصغير . اخبار الائمة ص ١٥ - ١٦

أموال الصدقة :

وبعد توزيع الطعام ورواتب عمال الصدقة السنوية من الزكاة كان على أعوان الامام أن يحصوا ما تبقى في الاهراء من الطعام (الحبوب) وما تبقى من أموال الصدقة · وكانت هذه البواقي من نصيب أهل الدعوة في تاهرت وفيما حولها من الضواحي والظواهر ، وكان للفقراء والمساكين نصيبهم الوافي فيها مرة أخرى ، فكان على العمال أن يحصوا الجميع · وعندما يتم ذلك الاحصاء السكاني الدقيق كان الامام يأمر بشراء الملابس اللازمة لفصل الشتاء ، من : الأكسية الصوف والجباب الصوف وكذلك ملابس الفرو ، ويوزع كل ذلك على أهل كل بيت حسب حاجته وحسبما تسمح به الأموال · والنص على أن عبد الرحمن بن رستم كان « يؤثر بأكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه » يعني أن القاطنين في حيز تاهرت من غير أهل المذهب كان لهم نصيبهم في ذلك التوزيع الجماعي السنوي ·

وهكذا كانت توزع أموال الزكاة أو الصدقة على المستحقين من الفقراء والمساكين ، وكان المشرفون على الجباية من الطائفين لهم أجرهم من نفس المال الذي جمعوه · أما كسوة الشتاء والزيت اللازم للطعام أو لانارة المشاعل والقناديل فكان يصرف لجميع أهل البلد من فائض الأموال في الأهراء وفي الخزائن ·

رواتب الامام وأعوانه :

أما الامام وأعوانه من الحشم والقضاة وأصحاب الشرطة وسائر معاونيه فكانت أرزاقهم السنوية تقطع من مال الجزية وخراج الأرضين وما أشبهه · ويفهم من ذلك أنه كان من بين رعايا تاهرت أهل ذمة ، من : اليهود ، على وجه الخصوص ، والنصارى · ولا بأس من أن نضيف ، الى ما كان يجمع منهم ، المال الذى كان يجبى من غير أهل المذهب من السنة أو من الصفرية أو الشيعة · وهو الأمر الذى نكتفي بالاشارة اليه ·

وبعد ذلك كان اذا فضل من المال فضل صرفه الامام في « مصالح المسلمين » ، في المرافق العامة : كالمساجد والمصليات ودور العلم والضيافة والحمامات ، وكذلك فيما تقوى به الجماعة من أمور الدفاع كشراء الكراع والسلاح والخيل ، أو تحصين العاصمة وتوسيع أسوارها ، أو غير ذلك مما يصلح به شـــأن الجماعة ·

ازدهار تاهرت على عهد عبد الرحمن بن رستم : العاصمة الاباضية سوق عالمية :

وهكذا عاشت الجماعة الأباضية في تاهرت في ظل امامة عبد الرحمن ابن رستم في نظام مثالي يحقق العدالة والمساواة بين جميع أهل الدعوة . فالامام كان القدوة الطيبة لرعيته في الزهد والعفاف والتفاني في مصلحة الجماعة ، وعلى الجملة في حسن السيرة واقامة الحق والعدل . ولقد ظهرت العدالة في شكلها الملموس في أحكام الامام المنصفة بين المتخاصمين ، وأكثر من ذلك في المسألة الشائكة الخاصة بتوزيع الأموال . ولكنه لما كانت امامة تاهرت دولة رعوية ، كما رأينا ، فان ناتج دخلها الوطني ما كان يمكن أن يهيء حياة الرخاء التي يتحدث عنها ابن الصغير والتي لا تكتفي بالنص على انتعاش فقرائها بل ترسم لمدينة تاهرت صورة زاهية بفضل دورها وقصورها وبساتينها وطواحينها وكثرة خيراتها ــ وكل ذلك على عهد الامام عبد الرحمن الذى لم يتجاوز ثمانية أعوام ، كما قلنا .

والحقيقة أن ابن الصغير المالكي الذى عاش في تاهرت على أواخر أيام الرستميين والذى يقر بأنه لن يحرف ما سمعه من الاباضية ولن يزيد او ينقص ــ يشرح أسباب انتعاش التاهرتيين وازدهار المدينة بفضل أنها أصبحت قبلة الرفاق من التجار الذين أتوا من كل الامصار . ففي خلال سنوات قليلة لم يعد ينزل تاهرت أحد من الغرباء الا استوطن معهم « وابتنى بين اظهرهم ، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة امامه ، وعدله في رعيته ، وأمانه على نفسه وماله » . وبصرف النظر عما يقوله ابن الصغير من أن ما طرأ على المدينة قد حدث خلال السنوات القليلة التي ولى أمرها عبد الرحمن بن رستم ، فمن المقبول انه مع مرور الوقت ، وعلى عهد خلفاء عبد الرحمن ، صارت تاهرت مدينة عالمية ، كما تقول الآن : « حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي ، وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي . وهذا مسجد القرويين ورحبتهم ، وهذا مسجد البصريين ، وهذا مسجد الكوفيين » (٧٧) ، مما يعني أن رواد تاهرت الأوائل كانوا من أهل العراق العربي حيث مركز الدعوة الأول ، ومن قيروان افريقية حيث نشأ اقطاب الدعوة الأوائل وجاهدوا في سبيل اقامة المذهب .

وتنص رواية ابن الصغير هذه على أن تاهرت دانت بتحضيرها هذا الى ازدهار تجاراتها بعد أن اصبحت سوقا دولية « فاستعملت السبل الى بلد

---

(٧٧) ابن الصغير ، ص ١٢ ــ ١٣ .

السودان ، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة ، فأقاموا على ذلك (سنتين أو أقل من ذلك أو أكثر) والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الاقطار تاجرون (٧٨) • ويفسر الشماخي ذلك فيقول ان التجار ساروا الى تاهرت بتجاراتهم وأموالهم من مصر وأفريقية والمغرب (٧٩) • ولا ندرى أن كان الاندلسيون الذين كان لهم نشاطهم في بدء الحركة الخارجية في المغرب قد ساهموا في ازدهار مدينة تاهرت في ذلك الوقت ؟ وذلك أن البكرى يذكر أنه كان من بين أبواب تاهرت الأربعة الأولى باب يسمى باب الأندلس (٨٠) مما يعني وجود طائفة من الأندلسيين في المدينة حتى نسب اليهم ذلك الباب؛ واذا صحت رواية ابن الصغير من أن باب الصفا الذى يذكره البكرى كان من أبواب المدينة على عهد عبد الرحمن بن رستم فلا بأس من أن يكون باب الأندلس هو الآخر من أبواب المدينة الأولى ، وهذا يعنى أن الأندلسيين ساهموا في بناء المدينة ، وفي اقامة مجتمع تاهرت الأول (٨١) • وهو الأمر الذى يؤكده عدد من كبار المشايخ من أصحاب عبد الرحمن من الاندلسيين • كما سنرى حالا •

والمهم من كل ذلك أن تاهرت بدأت ترقى وتزدهر منذ أيام عبدالرحمن، وان التجارة — وخاصة تجارة بلاد السودان حيث الذهب — كانت من الأسباب الرئيسية التى احتذبت الباحثين عن الربح من المشرق والمغرب والأندلس • ولا شك أن طبيعة التنظيم الأباضى الذى لا يقبل جباية الضرائب على المتاجر، على اعتبار أنها من المغارم ، كان من الأسباب الاضافية التى شجعت التجار على ارتياد تاهرت ، الى جانب ما ساد المدينة من الأمن واجتماع الكلمة وحسن سيرة الامام عبد الرحمن الذى توفى في سنة ١٦٨ هـ/٧٨٤ م ، تاركا لكبار أصحابه اختيار خلف له على سنة السلف من الراشدين •

امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم : (١٦٨ هـ — ١٩٨هـ/٧٨٤ — ٨١٤ م)

هكذا نجح عبد الرحمن بن رستم في توطيد أركان الامامة الأباضية

---

(٧٨) ابن الصغير ، ص ١٢ — ١٣ •

(٧٩) السير ، ص ١٥٨ •

(٨٠) البكرى ، ص ٦٨ •

(٨١) ابن الصغير ، ص ١١ (عن باب الصفا) ، وانظر في بناء المدينة ، فيما سبق ، ص ٢٩٣ وص ١٨ •

في تاهرت ، بفضل عدالته وحسن سيرته الى أن توفي سنة ١٦٨ هـ / ٨٤ - ٧٨٥ م ، وأصبح النمودج الصحيح للامام الاباضي ، ولم يكن من الغريب أن يستفيد ابنه عبد الوهاب من سمعته الطيبة ، وأن يفوز على منافسيه ويتولى الامامة . وابن الصغير الذي يمثل أقدم وثيقة وصلتنا عن أباضية تاهرت يقول فعلا أنه لما مات عبد الرحمن بن رستم قامت الأباضية وعقدت الامامة لابنه عبد الوهاب (٨٢) ، و ن المتأخرين من الاباضية أرادوا للامام عبدالرحمن أن يسير على نهج عمر بن الخطاب . فعندما مرض عبد الرحمن مرضه الذي مات فيه ، جعل الأمر شورى في ستة نفر من كبار أصحابه وسابعهم ابنه عبد الوهاب (٨٣) ، وهم : مسعود الاندلسي ، أبو قدامه يزيد بن فندين اليفرني ، عمران بن مروان الأندلسي ، أبو الموفق سعدوس بن عطية ، شكر ابن صالح الكتامي ، مصعب بن سرمان ، عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم . كما انتهي أمر السبعة هنا بعد جدل ومناجاة طالت الى شهر عند أبي زكريا وزادت الى شهرين عند الدرجيني بعده ، وانتهت ازاء ضغط العامة ، الى المفاضلة بين اثنين هما : مسعود الأندلسي ، وعبد الوهاب بن رستم . وكادت كفة مسعود ترجح - كما تقول الرواية الاباضية - ولكنه عندما علم بميل الجماعة الى مبايعته اختفي زهدا في الولاية (٨٤) ، ولو أنه ظهر وكان أول المبايعين عندما تم الأمر لعبد الوهاب . والظاهر أنه الى جانب ما اتصف به عبد الوهاب من العلم والشجاعة والتقوى واللين (٨٥) ، كان للعصبية دورها في اختياره : اذ أن الزعيم اليفرني أبو قدامة يزيد بن فندين لما أيقن أنه لن يصل الى الامامة مال الى عبد الوهاب لصلة الرحم لأن أمه يفرنية من بني يفرن مثله ، وأنه رجا من وراء ذلك أن يؤثرهم في الأمر (٨٦) .

---

(٨٢) ابن الصغير ، ص ١٦

(٨٣) انظر ابو زكريا ، المخطوط ، ١٤ - ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢١ - أ (المطبوع ، ص ٤٦) . وقارن الشماخي ، ص ١٤٥ . اما ما يورده البكرى ص ٦٧ ؛ ٦٨ ، وكذلك ابن عذارى ، (ج ١ ص ١٩٧) عن أئمة الرستميين فهو مقتضب ، كما أنه مختلط في بعض الأحيان . فبينما يجعل البكرى تاهرت لميمون بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بمعنى تقديم عبد الوهاب على عبد الرحمن ، يجعل ابن عذارى الامامة بعد عبد الرحمن لابنه عبد الوارث وليس عبد الوهاب .

(٨٤) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ - ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢١ - أ (المطبوع ، ص ٤٦) ، الشماخي ، ص ١٤٤ .

(٨٥) الشماخي ، ص ١٤٤ .

(٨٦) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ - ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢١ - ب (المطبوع ، ص ٤٧) ، الشماخي ص ١٤٥ .

ابن فندين ، زعيم بني يفرن ، يطالب بمجلس للشورى :

والمهم من كل ذلك أن عبد الوهاب استفاد من رصيد والده الضخم ، في : الزهد والعدالة وحسن السيرة ، ونجح في انتزاع امامة الاباضية من كبار منافسيه ، من رؤساء القبائل وشيوخ المذهب ، بعد جدل استمر حوالي الشهر أو أكثر • وكان من الطبيعي أن يطالب هؤلاء الشيوخ بأن يكون لهم رأي في ادارة شئون الدولة ، كما كان قد عودهم الامام عبد الرحمن ، بصفتهم أهل الشورى أو أهل الحل والعقد ، كما هو الحال عند السنة ، وأن يكون على رأس المطـــالبين بذلك يزيد بن فندين زعيم بني يفرن ، وهي القبيلة المغربية (البربرية) القوية التي صاهرها عبد الرحمن ، فكانوا سندا له ، وخاصة بعد أن صاروا أخوال عبد الوهاب ، والظاهر أن ابن فندين نادى باقامة مجلس استشاري من الزعماء يعاون الامام في الحكم وذلك أثناء مداولات مجمع المشايخ الذين تغافلوا عن مطلبه ، ولو أن مسعودا الأندلسي كان ضد تقييد الامام بشرط من الشروط (٨٧) •

امامة قوية على عهد عبد الوهاب :

وسارت الأمور على ما يرام على عهد الامام الرستمي الثاني عبدالوهاب، فقويت امامة تاهرت حتى قال ابن الصغير : انه « اجتمع له (عبد الوهاب) من أمر الاباضية وغيرهم مالم يجتمع للأباضية قبله ، ودان له مالم يدن لغيره، واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لاحد قبله »(٨٨) • ويضيف صاحب أخبار الأئمة الرستميين مما حكاه له مشايخ الاباضية : « أنه بلغت سمته (قوته) الى أن حاصر مدينةاطرابلس وملك المغرب بأسره الى مدينة يقال لها تلمسان ، فلم يزل كذلك وعلى ذلك ، وأمور الناس مجتمعة ••• الى

---

(٨٧) انظر ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ - ب ، ١٥ - أ : حيث يقول ان ابن فندين اشترط الا يقضي عبد الوهاب أمرا دون جماعة معلومة ، وان مسعودا الاندلسي رفض هذا الشرط • وقارن الدرجيني (المخطوط ، ص ٢١ - ب والمطبوع ، ص ٤٧) الذى يقول ان يزيد بن فندين رفض البيعة ما لم يستجب لشرطه وان الامام عبد الوهاب هون من أمر مبايعته بسبب ما بينهما من النسب ، وان مسعودا الأندلسي قال : لا نعلم في الامامة شرطا غير العمل بالكتاب والسنة وآثار الصالحين ، وان جماعة المنتخبين وافقوا وتركوا الشرط • وبذلك تمت البيعة وحمل عبد الوهاب الى دار الامارة •

(٨٨) اخبار الأئمة ص ١٦ •

أن حدثت الفرقة »(٨٩) ٠

وحصار عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم لمدينة طرابلس ، الذى انتهى بعد وفاة ابراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦هـ/٨١٢ م بالاتفاق بين ولى العهد الاغلبى عبد الله بن ابراهيم الذى خلف والده وبين امام تاهرت على أن تظل المدينة وأقاليمها الساحلية تحت حكم الأغالبة ، وأن تصير الأقاليم الظاهرية الأخرى الى حكم عبد الوهاب معروف لنا (٩٠) - والقصد من الاشارة اليه عند كتاب الاباضية هو النص على أن المملكة الرستمية كانت تمتد غربا الى طرابلس ٠ وفي اطار هذا المعنى يريد ابن الصغير ، باشارته الى ملك المغرب بأسره الى تلمسان ، النص على أن امامة تاهرت نشرت سلطاتها على كل المغرب الأوسط الذى تعتبر مدينة تلمسان حده الغربى حيث تبدأ وراءها حدود المغرب الأقصى ٠ ورغم أن اشارته « الى مدينة يقال لها تلمسان »تعنى انه لم تكن لديه فكرة واضحة عن عاصمة المغرب الأوسط الغربية التىستكون كما سنرى ، مجال صراع بين الرستميين وبين الأدارسة الذى سيستولون عليها (٩١) ، فالمهم أن انتشار سلطان عبد الوهاب من طرابلس الى تلمسان هو الذى دعا ابن خلدون الى القول أنه « كان يسلم عليه بالخلافة »(٩٢) ، الأمر الذى يسميه ابن الصغير : الانتقال من حال « الامامة الى حال الملك »(٩٣) ٠

وهكذا تستمر امامة عبد الوهاب من سنة ١٦٨ هـ حينما بويع والى سنة ١٩٧ هـ /٨١٣ م حينما انهى حصاره لطرابلس بمعاونة هوارة وزناته ونفوسة ، أي لمدة حوالى ثلاثين عاما ، لا تمدنا خلالها حوليات أفريقية والمغرب التاريخية بمعلومات عن النشاطات السياسية والعسكرية للدولة الرستمية ٠ أما كتاب الأباضية : من أبى زكريا ومن نقل عنه مثل الدرجينى والوسيانى وأخيرا الشماخى ــ ودون استثناء ابن الصغير المالكي رغم اشاراته التاريخية ــ فانهم لا يمدوننا بغير المعلومات ذات الطبيعة المنقبية الا فيما يتعلق بالانقسامات

---

(٨٩) ابن الصغير ، ص ١٧ ، وقارن أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٥ ــ أ : الذى لا يشير الا الى مجتمع تاهرت ، فيقول « ولم يقم عليه أموره أحد فى حكومة ولا فى خصومة حتى نجم بن فندين وأصحابه » وهو النص الذى يكمله الدرجينى بمثله المخطوط ، ص ٢١ ــ ب (المطبوع ، ص ٤٧) ٠

(٩٠) انظر فيما سبق ص ٤٠ ٠

(٩١) انظر فيما بعد ص ٤٤٤ ٠

(٩٢) انظر فيما سبق ، ص ٣٠٦ وهـ ٧٢ ٠

(٩٣) انظر فيما بعد ، ص ٣٢٦ وهـ ١٢١ ٠

المذهبية التي عرفتها جماعة أهل الدعوة . وفي هذه الدائرة الضيقة يكتفي ابن الصغير ، كما أشرنا ، بتلخيص الأعمال السياسية الخارجية لعبد الوهاب بحصار طرابلس وبسط سلطانه الى تلمسان ثم يشير الى افتراق الاباضية بعد ذلك ، أي بعد سنة ١٩٧ هـ /٨١٣ م . أما أبو زكريا فيلخص فترة الثلاثين سنة السابقة على الانقسام من عهد عبد الوهاب بقوله : « ولم ينقم عليه في أمره أحد في حكومة ولا خصومة حتى نجم ابن فندين وأصحابه »(٩٤) .

الفتنة بين اباضية المغرب :

الانشقاق الأول : النكار (أو النكارية) :

كان من الطبيعي وقد ثبت عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم طوال هذه الفترة الطويلة وتأكد سلطانه شرقا في جبل نفوسة وأحواز طرابلس وغربا حتى أحواز تلمسان أن يزداد استئثاره بالأمور مع تضخم ملكه . وكان من الطبيعي أيضا ألا يرضى المعارضون لمبدأ استبداد الامام بالسلطة ، وعلى رأسهم يزيد بن فندين ــ صاحب هذا الشرط ــ وأن ينازعوا عبدالوهاب في أن يكون له السلطان المطلق . ومن هنا ارتفعت أصواتهم تطالبه بألا يقطع أمرا دون مشورة . وكان رد عبد الوهاب ومسانديه منذ البداية ، مثل ابن مسعود الأندلسي ــ كما رأينا ــ : أنه لا شرط للامامة الا الحكم بالكتاب والسنة وآثار الصالحين قبله . ولم يقف الاختلاف الفقهي الدستوري ــ في الدولة التي اتسعت وازدادت رفاهيتها وانتشر العلم بين أبنائها ــ عند المطالبة بالمشاركة في ادارة شئون البلاد وعدم الاستبداد بالأمور ، بل انه اتسع عندما أثار المعارضون مسالة نظرية جديدة سبق لأهل المشرق، من المفكرين، الكلام فيها ، وهي : مسالة شرط العلم عند الامام ، وهل يجوز أن يبقى الامام في السلطة اذا ما ظهر بين افراد الجماعة من هو أعلم منه ؟ وعن هذا الطريق شككوا في صحة استمرار عبد الوهاب في الامامة (٩٥) . والحقيقة انه اذا كان الامام الأول عبد الرحمن بن رستم قد عرف بانه امام دفاع أي رجل حرب يجلس ، كما رأينا ، وسيفه ورمحه قرب يده وفرسه غيربعيد من بابه ، وأنه لم يكن له كتاب معروف من تاليفه ، كما يقول ابن الصغير ، فان عبدالوهاب كان له كتاب معروف بمسائل نفوسة الجبل ، لأن نفوسة كتبت اليه مسائل

---

(٩٤) أنظر فيما سبق ، ص ٣١٤ هـ ٨٩ .

(٩٥) الشماخي ، ص ١٤٦ .

اشكلت عليها ، وهذا الكتاب اطلع عليه ابن الصغير بنفسه (٩٦) ·

دور سدراتة ومزاتة فى الخلاف :

هذا عن النظر الى مسألة المعارضة من الناحية النظرية الصرفة التى أعطاها اياها المتأخرون من الاباضية · أما عن واقع الحال ، كما يظهر عند ابن الصغير المالكى التاهرتى الذى حافظ على ماسمعه من أبناء بلدته من الاباضية ، فيدل على أن المسألة كانت سياسة وانه شارك فيها قبائل الاباضية المغربية (البربرية) من سائر بوادى المغرب الأوسط · فقد جرت العادة على أن ترحل قبائل مزاتة وسدراتة فى فصل الربيع من بواديهم الجنوبية نحو تاهرت وأحوازها طلبا للنجعة لشياههم وبعيرهم ، وبينما كانت قطعان الماشية ترعى الكلأ فى حراسة الرعاة من أبناء القبائل ومن العبيد كان رؤساؤهم ووجوههم يترددون على المدينة حيث يكرمهم مشايخها ويحسنون اليهم · ويشير ابن الصغير الى أنه فى « سنة الفرقة » كان الربيع طيبا ، وأن المزاتيين والسدراتيين انتجعوا أكمل انتجاع انتجعوه قط (٩٧) ، مما يعنى طول المدة التى قضوها حول تاهرت فى ذلك الموسم · والظاهر أن طول مدة النجعة كانت كافية لتجاذب أطراف الحديث بين المعارضين من التاهرتيين : ممن يكتفى ابن الصغير بالاشارة اليهم دون تسميتهم بينما يجعلهم أبو زكريا ومن نقل عنه ، على وجه التحديد : يزيد بن فندين وأصحابه ، وهم الذين كانت قلوبهم قد تغيرت على الامام عبد الوهاب ، فعادوا يطالبون بشرط مشاركة الجماعة المعلومة فى ادارة الأمور ، وأخذوا يشيعون أن الامام حابى عليهم بعض الناس فعهد اليهم بالولايات دونهم · وتضيف الرواية ان دعوة المعارضة التى قالت تارة : نحن وليناه ، وتارة : كيف يلينا وفينا أعلم منه ، وتارة : انما كانت ولايته على شرط ، لقيت آذانا صاغية من طوائف من الناس ممن تصفهم بالجهال والطغام حتى إنتشر الخلاف (٩٨)·

فى هذا الجو المكفهر استمع الضيوف من المزاتيين والسدراتيين الى ما أسره اليهم مضيفوهم من المعارضين الذين قالوا لهم ، حسب رواية ابن الصغير : « ان الأمور قد تغيرت ، والأحوال قد تبدلت : قاضينا جائر ،

---

(٩٦) اخبار الأئمة الرستميين ، ص ١٧ ·

(٩٧) اخبار الأئمة ، ص ١٧ ·

(٩٨) أبو زكريا ، المخطوط ، حتى ١٥ — أ الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٢ — أ (المطبوع ، ص ٤٨) ·

«صاحب بيت مالنا خائن ، وصاحب شرطتنا فاسق وأمامنا لا يغير من ذلك شيئا · وقد جاء الله بكم ، فادخلوا الى هذا الامام واسألوه عن . قاضيه وصاحب بيت مالنا وصاحب شرطتنا ، وأن يولي علينا خيارنا ، فأجابوهم»(٩٩) ·

ورغم ما يقوله كتاب الاباضية من أن سياسة الامام عبد الوهاب فيما يتعلق باستخدام العمال والاعوان تتلخص في : رغبته في أهل الخير ، واستعمال أهل العلم والبصيرة والدين ، وخاصة ممن ليست لهم رغبة في الولاية(١٠٠) ، فان رواية ابن الصغير ، فيما يتعلق بالحوار الذي دار بين المزاتيين والسدراتيين وبين الامام عبد الوهاب بهذا الصدد ، مقبولة — حسب تقاليد أهل ذلك العصر — ان لم نقل معقولة · فوجوه زناتة عندما فاتحوا عبد الوهاب في أمر عماله الذين أثاروا المعارضين ، أجابهم قائلا : « جزاكم الله من وفد خيرا ، فقد تم من الاسلام ما يفتقده من كان مثلكم · الأمر اليكم · قدموا من رأيتم وأخروا من رأيتم » ، فدعوا له وأثنوا عليه ·

وعندما انصرف المزاتيون أخبر الامام وجوه رجاله بما حدث من كلام المزاتيين وجوابه عليهم ، فلم يوافقوه على ما فعل : على أساس أن ذلك يسيء اليه ، كما يسيء الى اخوانه ورجاله · ولفتوا نظره الى أن رضوخه لمطالب المزاتيين سيجرئهم عليه وعلى أولاده فيما بعد ، وأن الأمر قد يصل في سلسلة مطالبهم التي قد تتوالى الى حد مطالبتهم بخلعه ،عندما يقولون له : « ان المسلمين في ابتداء أمرك لم يجتمعوا عليك فانخلع واردد اليهم أمرهم ، فان اجتمعوا عليك جملة ، فزت بحظك وكان ذلك زيادة لك في شرفك (١٠١) ·

وانتهت المداولات بين الامام وبين مستشاريه الى تعديل وعده للمزاتيين بأن يطلب اليهم استشارة اخوانهم في المسألة ، كما سيستشير هو الآخر اخوانه ، وانه يجب أن يكون خلع من يخلعونه وتقديم من يقدمونه في حضور الجميع ، على أن يستدعي عبد الوهاب وجوه رجاله هؤلاء اذا ما وافق المزاتيون على ذلك ·

---

(٩٩) ابن الصغير ص ١٨ ·

(١٠٠) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٥ — ا ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٣ — ا ، المطبوع ، ص ٤٨) ، الشماخي ص ١٤٨ ·

(١٠١) ابن الصغير ص ١٨ — ١٩ ·

وعندما حضر المزاتيون استدعى عبد الوهاب مستشاريه الدين شكروهم على حسن صنيعهم ، ولكنهم لفتوا نظرهم الى المبدأ القانوني الذي يقضي بانه : « لا يجب عزل قاض ولا صاحب بيت مال الا بجرحة تظهر عليه ، ولا يجب عزل القضاة ببغي البغاة وسعي السعاة » . ورغم أن جماعة مشايخ البدو المزاتية أخذت بهذا المنطق الذي لم تعتد عليه ، فانهم قالوا : « ما هكذا كان عقدنا مع الامام بالأمس ، ما هذا الا رأى حدث أو أمر أبرم »(١٠٢) . وكان من الطبيعي أن يعتبروا ذلك اخلالا بالوعد من جانب عبد الوهاب ، وأن يخرجوا من مجلسه غاضبين . وبذلك يكون الاختلاف قد زاد بين جماعة الاباضية ، اذ انضمت قبائل مزاتة وسدراتة الى جانب المعارضين من أصحاب ابن فندين .

تجمع المعارضين والمطالبة بمحاكمة عبد الوهاب :

وتجمع المعارضون لعبد الوهاب من أهل تاهرت وخاصة من اليفرنيين أنصار ابن فندين ، ومن القبائل الوافدة الى بوادى العاصمة الاباضية ، في موضع جبلي في ظاهر المدينة عرف عند الاباضية بـ « كدية النكار »(١٠٣) ، نسبة الى النكار أو النكارية ، وهو الاسم الذى أعطى للمخالفين على عبد الوهاب لأنهم أنكروا امامه ، كما سماهم خصومهم أيضا بالنكاث لنكثهم بيعة الامام (١٠٤) . وتم نوع من الحلف بين النكار على انهم لا يدخلون الغرب (أى تاهرت) « أو يعزل ما سألوا عزله ، ويحاكموا عبد الوهاب ومن معه »(١٠٥) . وكان من الطبيعي ، أن تبدأ المناوشات الحربية بين النكار وبين عبد الوهاب وأنصاره من أهل تاهرت ، طالما ان المفاوضات بين الجانبين انتهت الى عدم الاتفاق .

ورغم ما يقوله ابن الصغير من أن عبد الوهاب قضى على خصومه بسهولة بعد أن أعذرهم وأنذرهم(١٠٦) ، فان أبا زكريا ومن نقل عنه من كتاب الاباضية لا يريدون للامام أن يكون متسرعا في قتال خصومه ، اخوة الأمس ، قبل أن

---

(١٠٢) ابن الصغير ، ص ١٩ .

(١٠٣) ابن الصغير ، ص ١٩ .

(١٠٤) الشماخي ، ص ١٤٨ ، ابن الصغير ، ص ٧٩ .

(١٠٥) ابن الصغير ، ص ١٩ — ٢٠ والقراءة في النص « لا يدخلوا الغرب بدلا من العرب التي تعني أن مساكنهم كانت في شرقها .

(١٠٦) أخبار الأئمة الرستميين ، ص ٣٠ .

يستنفد كل الأساليب القانونية المتعارف عليها ، وليس الاعذار والانذار فقط .

فلقد عرض عبد الوهاب على خصومه أصحاب ابن فدين أن يضعوا أوزار الحرب حتى يستشيروا اخوانهم في المشرق فيما أثير من مسالتي : شرط الحكم بمشورة جماعة معلومة ، وجواز امامة من يوجد أعلم منه . وفي هذه المرة لم يكن الاخوة الذين طلبت مشورتهم في البصرة ، كما كان الحال قبل ذلك ، بل في مصر وفي مكة : مما يعني أن مركز الثقــل الخــارجي الاباضي ، من الناحية النظرية أو الايديولوجية ، كما يقال الآن ، كأن قد انتقل من العراق الى مصر والحجاز ، وهو الأمر الذي يسترعي الانتباه ، اذ يعني انحسار المدارس الفكرية الخارجية من مركز الخلافة ، جنوبا نحو الجزيرة العربية ، وغربا نحو مصر .

وتم الاتفاق على ارسال رسولين لقيا في مصر : شعيب بن المعرف وشيعته ومنهم شخص يعرف بأبي المتوكل (١٠٧) ، وفي مكة التقيا بأبي عمر والربيع بن حبيب وأبي غسان مخلد بن المعرد الغساني (١٠٨) . ولقد أجاب زعماء أهل الدعوة في مكة ببطلان الشرط وجواز امامة العالم اذا وجد من هو أعلم منه ، وأن ا لامامة لا تبطل الا بحدث في الاسلام بعد الاعذار والانذار من جانب الجماعة ، والاصرار والاستكبار من أمامهم (١٠٩) ، أما شعيب بن المعرف

---

(١٠٧) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٥ ـ ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٢ ـ ب (المطبوع ، ص ٤٩ ـ حيث : شعيب بن المعروف بدلا من بن المعرف) .

(١٠٨) أبو زكريا ، ص ١٥ ـ ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٢ ـ ب (المطبوع ، ص ٤٩) .

(١٠٩) انظر أبو زكريا ، السير واخبار الائمة ، المخطوط ، ص ١٥ ـ ب ، ص ١٦ ـ آ حيث يورد نص كتاب أهل المشرق على الوجه التالي : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، يا اخواننا قد بلغنا ما كان قبلكم وفهمنا ما كتبتموا (كاتبتمونا) به من امر الشرط ، فليس من سيرة المسلمين أن يحملوا الشرط في الامامة : أن لا يقضي أمرا دون جماعة معلومة ، فالامامة صحيحة والشرط باطل ، فلو صح بالامامة شرط لما قام لله حق ولا اقيم له حد ، ولعطلت العقود ولبطلت الاحكام وضاع الحق . والجماعة يتعذر اتفاقها على أن الامام ان قدم اليه سارق فلا يصيب ان يقيم عليه الحد فيقطع يده حتى تحضر الجماعة ، ولا يجاهد الامام عدوا ولا ينهى عن فساد الا بحضرة الجماعة المعلومة فالامامة صحيحة والشرط باطل . ومما ذكرتم من تولية رجل وفي جماعة المسلمين من هو أعلم منه فذلك جائز (جايز) اذا كان في القناعة والفضل بمنزلة حسنة ، وقد ولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه وزيد بن ثابت أفرض منه ، وعلي بن أبي طالب أقضى منه ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنه ـ أعلم منه . وهذا ما ليس =

برأس الجماعة في مصر ، فانه قرر المسير الى تاهرت(١١٠) للنظر في المسألة على مسرح الأحداث ، كما يقال ، أو بنظر شاهد العيان ٠

والحقيقة انه لا بأس في أن يكون أهل الدعوة في مصر قد مالوا الى رأى المعارضين للامام عبد الوهاب ٠ فهذا ما يمكن أن يفهم من رواية أبى زكريا التي تقول ان شعيبا عزم على المسير الى تاهرت« فخرج في نفر من أصحابه بغير مشورة من مشايخ مصر طمعا في الامارة ٠ وقد كان بها جماعة المسلمين : مشايخ ذوو فضل وعلم وورع ، وقد نهاه بعضهم عن الخروج الى تاهرت ، فقالوا له : تقدم الى بلد اختلف أهلها ولم يشتغل (بكلامهم) واستعجل هو وأصحابه طمعا في الامارة ، فمضوا مستعجلين حتى أنضوا رواحلهم فصاروا يسوقونها سوقا ، وحكي عنهم أنهم وصلوا من مصر الى تاهرت في عشرين يوما »(١١١) ٠ ورغم ما تقوله الرواية من أن شعيب دخل

= فيه خلاف لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . أعرضكم زيد واقضاكم على واعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وقول صلى الله عليه وسلم : معاذ بن جبل سيد العلماء ، وانه سيحشر غدا يوم القيامة (القيمة) أمام العلماء بنبذه » ٠ ويضيف أبو زكريا بعد ذلك انهم ردوا الجواب باثبات ولاية عبد الوهاب وذكروا ان الامامة لا تبطل الا بحدث في الاسلام ٠

وقارن الدرجيني (المخطوط ، ص ٢٢ ب ، والمطبوع ، ص ٤٩ — ٥٠) الذى ينقل النص وفيه بعد البسملة والتصلية والتحية (فقد اتصل بنا ما وقع قبلكم وما كتبتم فيه ٠ فاما ما ذكرتموه من امر الشرط ٠٠٠ ان يجعلوا في الامامة شرطا أن لا يقطع الامام ٠٠٠ . الامامة صحيحة ٠٠ في الامامة الشرط ٠٠ ولبطلت الحدود والأحكام ٠٠ يعدو اتفاقهم ٠٠٠ فلا يمكنه ان يقيم عليه الحق فيقطع ٠٠ أو زنا أحد فلم يرجم أو يجلد حتى تحضر الجماعة ٠ و.. يجاهد ٠٠٠ ولا ينهى عن منكر الا بمحضر الجماعة فيكونوا كلهم اذا اماما وكلهم للامام فهذ ابطال الامامة وتسمه غير الاستقامة ، ورمى الامامة به بغى والسؤال عن هذا غى ٠ وأما ما ذكرتم من تولية ٠٠٠ جائز اذا كان مستكملا لشروط الامامة ، وكان من اهل الفضل والدين والعدل والسياسة والمنزلة المرضية ، فقد ولى أبو بكر ٠٠٠ » وانظر الشماخي ، ص ١٤٨ ٠ وقارن الماوردى ، باب عقد الامامة ، ص ٥ (فلو تعين لأهل الاختيار واحد هو أفضل الجماعة فبايعوه على الامامة وحدث بعده من هو افضل منه انعقدت ببيعتهم امامة الأول ، ولم يجز العدول عنه الى من هو افضل منه) ٠ وبمثل هذا قال الزيدية من فرق الشيعة المعتزلة ، شريطة ان يكون الائمة من أولاد فاطمة بطبيعة الحال (أنظر الشهرستاني ، الملل والنحل ، ص ١١٥) ٠ وقارن ابن خلكان (ط محيى الدين ، ج ٢ ص ٣٣٥) الذى يقول ان الامام زيد ابن على بن الحسين « كان يجوز امامة المفضول مع قيام الأفضل للمصلحة » ٠

(١١٠) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٥ ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٢ — ب (المطبوع ، ص ٥٠) ٠

(١١١) السير واخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ١٦ ـ أ (انضاء الابل يعنى أهزالها من كثرة السفر — أنظر لسان العرب ، الفصل نضا ، ج ٢٠ ص ٢٠٢ — ٢٠٤) ٠

على الامام عبد الوهاب وما كان يمكنه الا أن يفعل ذلك ، وانه أفتاه بنفس فتوى اهل مكة التي وصلت فيما بعد بصحة امامته ، الا أن المهم هو أنه انقسم الى جانب يزيد بن فندين وأصحابه ، فكان يناجيهم ويؤازرهم .

تسميات جديدة للنكار :

وعن هذا الطريق اكتسب النكار تسميات جديدة عند خصومهم اتباع عبد الوهاب ، منها : النجوية ، والشعيبية الذين عرفوا بالشغبية والملحدة ، والنكاثة (١١٢) .

علاقة المعارضين باهل تاهرت الذين عرفوا بالوهبية :

ومع أن المعارضين لعبد الوهاب من النكارية كانوا يعيشون خارج تاهرت الا أنهم كانوا يدخلون المدينة جماعات حيث احتفظوا بمساكنهم القديمة ، مما أثار حشية أعوان الامام الذين طلبوا منه أن يمنعهم من ذلك . وتشير رواية أبي زكريا الى أن عبد الوهاب عندما كلمهم في الخروج نهائيا من المدينة لم يهتموا كثير بكلامه اذ قالوا له : « هذه مدينتنا وتلك منازلنا » . وسألوه عما اذا كانوا قد اقترفوا جرما يستحقون عليه الخروج . ومع ان الامام تركهم يدخلون المدينة ويخرجون منها . فالظاهر أن العلاقات ساءت بين النكارية وبين أتباع عبد الوهاب الذين صاروا يعرفون عند الكتاب باسم الوهبية نسبة اليه (١١٣) .

---

(١١٢) انظر أبو زكريا (المخطوط . ١٦ - أ . ١٦ - ب) حيث يشرح النجوية : لانهم صاروا يجتمعون ويتناجون . اما الشعيبية فهي في النص في شكل « الشغبية لادخالهم في الاسلام الشغب » . والظاهر أن هذا تحريف مقصود من جانب الوهبية لتجريح خصومهم بنسبهم الى الشغب ، بينما المفهوم من سياق الرواية أن المقصود هو شعيب المصري والنسبة اليه الشعيبية . وأما الملحدة : فلانهم « الحدوا في أسماء الله لقوله تعالى : الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » والمقصود بذلك هي مسألة نفي الصفات عند المعتزلة . اما النكاثة : « فلنكثهم بيعة الامام بغير حدث » . وانظر الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٢ - ب ، ٢٣ - أ (المطبوع ، ص ٥٠ - ٥١) .

هذا ولا بأس من الاشارة الى أن الدرجيني يشير فيما بعد (المطبوع ، ص ١٦١) الى أن النكارية من خصوم الوهبية قبلوا صفة « النكار » على انها تشمل الخوارج جميعا لانها نسبة الى انكار حكم الحكمين بصفين . فكان هذه التسمية تعادل اصطلاح « المحكمة » الذين قالوا : لا حكم الا لله .

(١١٣) انظر ابن الصغير (ص ١٦) الذي يصف الفراق الاباضية على يد عبد الوهاب الى : نكار ، ووهبية ، ولكنه يشير الى أنه لا يعرف اسم الوهبية بينما يعرف اسم النكار ...

تأزم الموقف بين الفريقين :

وانتهى الأمر الى تأزم الموقف بين الجماعتين عندما اعتاد النكار على دخول تاهرت وهم يحملون السلاح ، فحمل أهل المدينة بدورهم السلاح بأمر عبد الوهاب خشية الغدر • ولقد تحقق غدر النكار فى مغامرة قصصية قاموا بها ، كما يقول أبو زكريا ، للتخلص من الامام •

مؤامرة قصصية لاغتيال الامام :

لقد تظاهر النكار بأنهم يتناعون على صندوق (تابوت) وضعوا فيه رجلا معه سيفه وحملوه الى دار عبد الوهاب حيث وضعوه الى أن يحكم بينهم ، وكان هدفهم أن يخرج الرجل لاغتيال الامام ليلا • وفشلت المؤامرة بسبب سهر الامام من أجل الصلاة والقراءة والدرس من جهة ، ثم بسبب فطنته وحرصه • حيث وضع زقامنفوخا فى فراشه ، وجلس يترقب الخائن الى أن خرج من تابوته وضرب الزق ، فقده الامام بسيفه نصفين ، وأعاده قتيلا الى التابوت (١١٤) • وهكذا اتضحت نية الغدر لدى النكارية ، وأمر عبد الوهاب أن يكون أهل تاهرت على أهبة الاستعداد دائما بسلاحهم • وانتهز خصوم الامام ، من : ابن فندين وأصحابه ومنهم شعيب المصرى ، خروج الامام من تاهرت فى بعض حاجاته واستغفلوا أهل المدينة وحاولوا الدخول عليهم على حين غرة ، « فقامت الصيحة فى المدينة من كل مكان» (١١٥) •

احداهما هى اليزيدية اتباع عبد الله بن يزيد والأخرى هى العمرية اتباع عيسى بن عمر ثم أحمد بن الحسين ، وأن من يسمى بالوهبية يميلون الى هذين المذهبين ، مما يعنى تطورا أو تقسيمات حديدة بين اتباع عبد الوهاب الذين لم يعودوا يعرفون باسم الوهبية على أيام ابن الصغير ة على أواخر الرستميين ، حيث كانوا يسمون فى ذلك الوقت أيضا باسم العسكرية الذى كان يعرف به معظم قبائل نفوسة فى تاهرت • هذا ، كما ظن ابن حوقل أن تسمية الوهبية فى جبل نفوسة نسبة الى عبد الله بن وهب الراسبى أول ائمة الحرورية فى العراق ، ويقول انه وصل مع عبد الله بن اباض الى الجبل وماتا فيه (ط• بيروت ، ص ٩٣)•

(١١٤) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٧ ـ أ ، ١٧ ـ ب (وقارن الدرجينى . المطبوع ، ص ٥٢ ـ ٥٣) • حيث كان الترتيب أن يؤذن القاتل بعد أن يقتل الامام فيأتى أصحابه الى دار الامارة • فلما لم يسمعوا الأذان أتوا صباحا وحملوا تابوتهم ووجدوا صاحبهم فيه قتيلا ، فخرجوا من المدينة خوفا من صنيعهم من المسلمين ، وقارن الشماخى (ص ١٤٩) • حيث يقول ان أصحاب الامام هم الذين غرروا بالمتآمرين ووضعوا الزق المنفوخ •

(١١٥) أنظر أبو زكريا ، المخطوط ، ١٧ ـ ب حيث تقول الرواية أن السبب فى تعجل ابن فندين وشعيب بالقيام بتلك المحاولة انهم كانوا يخشون وصول فتوى أهل المشرق فى ذلك الخلاف خشية باداتتهما ، وهو ما سيحدث بعد قليل (وقارن الدرجينى ، المطبوع ، ص ٥٤) •

بلاء ولى العهد افلح ، ومقتل ابن فندين :

وترجع رواية أبى زكريا فضل انقاذ تاهرت مما كان يدبره لها خصومها الى شجاعة ولى العهد أفلح بن عبد الوهاب الذى عاجلته الحادثة وهو يتزين فخرج بأحد شقى رأسه مضفرا والآخر دون تضفير ، ووقف وحده يدافع عن باب المدينة حتى انسلخت رجله الى العرقوب وحتى تحطمت درقته ، فاقتلع الباب الضخم يتقى به ضربات الأعداء • وكان من بين ضحايا افلح يزيد بن فندين الذى لم تمنع البيضتان اللتان كانتا على راسه من « أن يضربه أفلح على آم راسه ضربة »فقده والبيضتين والرأس ،وتشب السيف فى عمود باب المدينة ، وحس أفلح بن عبد الوهاب فى يده الشدة فظن ذلك كله رأسه فقال له : ما أقوا رأسك يابربرى يامشوم »(١١٦) •

خلاف شعيب فى حيز طرابلس :

وبمقتل يزيد بن فندين انهزم أصحابه بعد أن تركوا من قتلاهم ١٢ (اثنى عشر) ألفا كانت دماؤهم تجرى كالسيل ، كما تبالغ الرواية ، على باب المدينة • وزعم أن الامام عبد الوهاب أمر عندما رجع بجمع القتلى ، وصلى عليهم ودفنهم . « طمعا فى العافية لعامة المسلمين من بقية أصحاب ابن فندين » ، فان شعيبا الذى فر الى حيز طرابلس ، ربما فى المنطقة الواقعة بين المدينة وجبل نفوسه ،وظل يظهر الخلاف للامام ويعلن البراءة منه ، وينشر دعايته المناهضة لامام تاهرت بين الحجاج الوافدين من المشرق (١١٧) • فكان وأصحابه يقولون : « قتل المسلمين » (١١٨) • ولم تثمر دعاية شعيب ضد عبد الوهاب ، اذ عندما وصلت أنباء تلك الفتنة الى أهل الدعوة بالحجاز من جماعة المسلمين ، وعلى رأسهم الربيع بن حبيب ، « برءوا من شعيب ويزيد بن فندين وأصحابه الذين قتلوا معه ، ومن كان على سبيلهم الا من تاب • وكان الربيع بن حبيب يقول فى مجالسه : عبد الوهاب أمامنا وتقينا وامام المسلمين أجمعين »(١١٩) •

---

(١١٦) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٧ ــ ب ، ١٨ ــ أ ، الدرجينى ، المطبوع ، ص ٥٤ •

(١١٧) انظر ابو زكريا ، ص ١٨ ــ أ ، ٢٨ ــ أ (الدرجينى ، المطبوع ، ص ٥٥) • اما ابن الصغير (ص ١٩) فانه يقول ان الامام عبد الوهاب هو الذى خرج اليهم وصرعهم فى لمح البصر •

(١١٨) الشماخى ، ص ١٥١ •

(١١٩) انظر ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٨ ــ أ : حيث قيل للربيع كيف تبرأ من شعيب من غير حدث ، فقال وأى حدث اعظم من براءته من عبد الوهاب امير المؤمنين (الدرجينى ، المطبوع ، ص ٥٥) •

اعتزال المخالفين الذين عرفوا بالواصلية ، وتحول الامامة الى ملكـــية أى خلافة :

وبذلك تمت القطيعة تماما بين تاهرت وبين خصومها من أصحاب ابن فندين الذين بقيت فى نفوسهم حزازات وضغائن فتنحوا بناحيتهم بالقرب من تاهرت التى لم يعودوا يدخلونها ، وتظن أن ذلك هو السبب فى تسميتهم أيضا بالمعتزلة (١٢٠) لاعتزالهم أهل تاهرت ، وأن ذلك هو السبب فى تسميتهم فيما بعد بالواصلية ، ولو أن كتاب الاباضية يفرقون بين النكار وبين الواصلية من الخارجين على امامة تاهرت ، كما سنرى . هذا ، كما يمكن التفكير فى أن يكون المقصود بالاعتزال وبالواصلية هنا نوعا مـــن الفكر الشيعى الزيدى الذى كان قد امتزج بالاعتزال عن طريق تلمذة الامام زيد لواصل بن عطاء حتى قيل انه صار « وجميـــع أصحابه معتزلة فى المذهب والاعتقاد(١٢١) . وهذا ما قد يعتبر من مقدمات قيام الدولة الادريسية(١٢٢) وحق لابن الصغير أن يقول : انه بعد انتصار عبد الوهاب هذا على خصومه اشتد أمره ، « وانتقل من حال الامامة الى حال الملك »(١٢٣) ، أى من حال الدولة الدينية الى حال الدولة السياسية — شبيها بما حدث فى دولة الخلافة أيام معاوية (١٢٤) .

ومع أن ابن الصغير يبدأ تاريخه لمرحلة « الملك » فى تاهرت بالافتراق الثانى الذى عرفته الاباضية على عهد عبد الوهاب أيضا ، ويجعل سبب الافتراق هو الخلاف مع قبائل هوارة ، فالأقرب الى المنطق أن تكون تلك المرحلة بعد الانتهاء من الصراع مع الواصلية فى أحوار تاهرت ، كما يفصل ذلك أبو زكريا ومن نقل عنه . وذلك أن هوارة كانت تسكن فى حيز طرابلس

---

(١٢٠) انظر أبو زكريا (ص ١٨ — أ) الذى يعود فيكرر انهم تنحوا بالربوة أو الكدية التى سميت كدية النكار ، الشماخى ، ص ١٥٤ (حيث يسميهم معتزلة) .

(١٢١) انظر ابن خلكان (عن الامام زيد المتوفى سنة ١٢٣ هـ) ، ج ١ ص ٣٢٥ .

(١٢٢) انظر فيما سبق ، ص ٣١٩ وهـ ١٠٨ ، هذا ، ولو أنه من الغريب أن ينكرس تقسيم البربر عند نسابتهم ، مع مرور الوقت ، الى . معتزلة واباضية وسنية ، بل وأن تنسب غالبية رواته فى أواخر القرن الخامس الهجرى/١١ م الى المعتزلة باستثناء بعضهم ، مثل : بنى برزال وبنى واسين الاباضية ، وكذلك بنى مغراوة وبنى يفرن السنية — انظر ابن حزم جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٦٣ ، حيث ينسب ابن حزم تلك الرواية الى معاصرة أبى محمد بريكنى البرزالى ، النساب الاباضى ، الذى كان عالما بأنسابهم) .

(١٢٣) أخبار الأئمة الرستميين ، ص ٣٠ .

(١٢٤) انظر فيما سبق ، ص ٣٠٦ وهـ ٧٢ .

حيث كان النزاع الذى أدى الى الانشقاق الثاني بين الاباضية (١٢٥) .

الصراع ضد النكار والواصلية :

وحسب رواية أبى زكريا ينقسم الصراع بين عبد الوهاب وبين خصومه الى مرحلتين الأولى ضد النكار والثانية ضد الواصلية ، وهو الأمر الذى يتضمن فى ثناياه أن يكون هناك فرق زمني معقول بين الصراعين .

النكار :

وكان سبب الصراع ضد النكار هو اغتيال « ولى العهد » ميمون بن عبدالوهاب الذى قتل غدرا بليل، ومثل به فمزق لحمه اربا خارج تاهرت(١٢٦). ومع أن عبد الوهاب دفن ابنه دون أن يدرى من قتله ، فانه لم يلبث أن تيقن أن النكار هم الذين قتلوه ، وذلك عندما مر ابن لميمون بهم ، وهو يسعى فى بعض حاجاته ، فصاحوا به : « يا ابن المهدور دمه » . وهنا قرر عبدالوهاب الانتقام من قاتلى ولده فجهز جيشا أنفذه اليهم ، ولكى يتم الثأر جعل قيادته الى واحد من أبناء القتيل . وعلى بعد أيام من تاهرت التقى جيش عبدالوهاب بخصومه ، وهزمهم هزيمة منكرة حتى قيل انه عد من اسمه هارون ، وهو أقل الأسماء شيوعا بين القتلى ، فكانوا ٣٠٠ (ثلثمائة هارون) قتيلا (١٢٧) .

الواصلية :

أما عن الصراع ضد الواصلية فاتى بعد ما نزل بالنكار من الوهن والضعف ، مما يعنى أن جماعة الواصلية تختلف عن جماعة النكار ، وهو الأمر الذى يشير اليه أبو زكريا عندما يعرف الواصلية بأنهم « قوم من البربر

---

(١٢٥) انظر ابن الصغير ، ص ٢٠ ، حيث يجعل هوارة ولواته فى حيز تاهرت ، وهو الأمر الذى لا يتفق مع واقع الحال وان كان الأمر لا يمنع من وجود عشائر مهاجرة من طرابلس الى تاهرت .

(١٢٦) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٨ - ب ، الدرجيني ، المطبوع ، ص ٥٦) ، الذى يقول ان الامام جزع عندما رآه وقال . « أى بنى احتمعت فيك ثلاثة أمثال للعامة فى قولهم : ويل لمن مرت الخيل بكساه . ويح لمن أصيب بليل . وقال القائل : اذا مسست ابن السلطان فامسسه مسا عنيفا » . وعن ولاية ميمون العهد . انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢١ ، وانظر فيما سبق ، ص ٣٠٦ وهـ ٧٢ .

(١٢٧) ابو زكريا ، المخطوط ص ١٨ - ب (الدرجيني ، المطبوع ، ص ٥٦) .

أكثرهم قبائل زناته »(١٢٨) • ويضيف الدرجيني الى ذلك أنهم كانوايعيشون قريبا من تاهرت ، وأكثرهم أهل البادية (١٢٩) وان عددهم كان — على أيام ميمون — نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الاعراب يحملونها(١٣٠) ، مما يعني أن الخصومة حملت هذه المرة طابعا عرقيا شعوبيا وليس مذهبيا ، كما في حالة النكار • ويعطى أبو زكريا لخصومه الواصلية لونا سياسيا عندما يشير الى أنهم تحركوا « حين أحسوا ببعض الفرقة في الاباضية ، وأرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة »(١٣١) • وواضح من النص أن زعماء الواصلية هؤلاء كانوا يحسنون الجدل في المسائل التي كانت موضع خلاف بين أهل المذهب ، مما جعل الكتاب ينسبونهم فعلا الى المعتزلة بعد أن كان اعتزالهم سياسيا بمعنى الانحياز عن مجتمع تاهرت والابتعاد عنه • فهذا ما تشير اليه الرواية التي تقول : ان ابن سيدهم كان فارسا مغوارا صعب المنال ، وانه كان فيهم أيضا رجل مناظر يجيد فنون الكلام ، وكثيرا ما ناظر الامام : وكان شديد المعارضة حديد العارضة ، مما يفهم منه أن عبد الوهاب لم يكن له طاقة به في هذا الفن (١٣٢) •

الاستعانة بنفوسة في الصراع ضد الواصلية :

وهكذا نفهم من قصة الفارس الواصلي المغوار وصاحبه المناظر الشديد المراس أن جماعة الواصلية كانت قد قويت من الناحيتين العسكرية والمذهبية، وأن الأمر كان سينتهي بالصراع بينهم وبين امام تاهرت عندما اشتدت معارضتهم له • وتقول رواية أبي زكريا ان عبد الوهاب أنذرهم وأعذرهم قبل أن يلقاهم في عدة معارك • ويفهم من الرواية التي تنص على أن الامام استنجد في آخر الأمر بقبائل جبل نفوسة أنه لقي منهم شدة • فقد طلب من نفوسة، « أن يبعثوا له جيشا نجيبا يكون فيهم رجل عالم بفنون الرد على المخالفين ، ورجل عالم بفنون التفسير ، ورجل شجاع بطل يبارز الفتى المعتزلي الموصوف

---

(١٢٨) السير واخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ١٩ — أ (الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٦ أ ، المطبوع ، ص ٥٧) •

(١٢٩) الطبقات ، المخطوط ، ص ٢٦ — أ (المطبوع ، ص ٥٧) •

(١٣٠) الطبقات المخطوط ، ص ٢٠ — أ ; المطبوع ، ص ٤٣) ، وانظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢١ •

(١٣١) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٩ — ا •

(١٣٢) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٩ — أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٦ — أ : المطبوع ، ص ٥٧) •

بالشجاعة »(١٣٣) • واختار عامل عبد الوهاب على جبل نفوسة أربعة رجال أرسلهم الى عبد الوهاب ، وهم : مهدى الويغوى الخبير بفن المناظرة ، ومحمد بن يانيس العابد الزاهد العالم بتفسير القرآن ، وأيوب بن العباس الفارس الذى لا يشق له غبار • أما الرابع فاختلف فى أمره فهو اما محمد أبو محمد او أبو الحسن الأيدلانى (١٣٤) •

ومع أن الامام الذى كان ينتظر عسكرا كثيفا من نفوسة ، حتى انه وعد من يبشره بوصولهم من عبيده بالحرية ، عجب من غير شك لوصول الرجال الأربعة وحدهم ، فان هؤلاء لم يلبثوا ان اكتسبوا ثقته فى أنهم اكفاء للقيام بالمهمة التى كان يرجوها من نفوسة • فبعد أن أنزلهم فى دار الضيافة وأجرى عليهم ما يلزمهم الى أن استراحوا ، ناقشهم فى أمر مواجهة الواصلية فى المناظرة والحرب • فعرف مهديا بأسلوب الفتى الواصلى المنتحل للمناظرة، وفهم مهدى كيف كان المعتزلى يزوغ عن الحجة ويحيد عن الجواب ، وكيف كان يلبس على الامام ويسرق منه السؤال(١٣٥) • أما عن أيوب بن العباس فقد أذهل القوم بقوته الأسطورية حتى أنه عندما أراد اختيار فرس من دار الدواب فى تاهرت لم تعجبه جميع الافراس التى كانت تكاد تقع بين يديه ، عندما كان يجذبها (يجبدها) محاولا اختبار قوتها . حتى انتهى به الأمر

---

(١٣٣) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٩ ـ أ ، الدرجينى ، المخطوط ص ٢٦ ـ أ (المطبوع ، ص ٥٧) ، الشماخى ، ص ١٥٤ •

(١٣٤) ابو زكريا ، ص ١٩ ـ أ الدرجينى ، ص ٢٦ ـ أ (المطبوع ، ص ٥٧ ـ ٥٨) • وتقول الرواية ان الاربعة عندما خرجوا فى هيئة السفر الى تاهرت أصر محمد بن يانيس على أن يكون خادما لهم ، فكان يجهز طعامهم ويعلف خيلهم ثم يقضى بقية ليلة قائما يصلى • وانه تمادى فى ذلك رغم اعتراضهم عليه والحاحهم فى أن يرفق بنفسه ، حتى انه عندما أخبرهم انه لن يصلى الا ركعتين لم يتمهما الا مع طلوع الفجر ، لانه قرأ نصفا من القرآن مع كل من الركعتين • وبلغ أمر ابن يانيس من الاجتهاد فى الصلاة ليلا حتى فى الأيام الباردة الممطرة الى ان قالوا له « ان كان لا يدخل الجنة الا من كان مثلك يابن يانيس سيصيبك فيها الوحشة » (وقارن الدرجينى ، ص ٢٦ ـ ب ، ٢٧ ـ أ ، المطبوع ، ص ٥٨ ـ ٥٩) •

(١٣٥) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٠ ـ ب وتضيف الرواية هنا أن مهديا كان يترك أصحابه ويخرج لمناظرة المخالفين وانه أعاد منهم الى المذهب تسعين عالما • أما عن صفات مهدى الذى أكل غداء وملائه ليلا وهو صبى لم يطبخ فكانت ثلاث اذا قدم اليه اى طعام قضى منه حاجته ولا يبالى ،والثانية اذا أخذ غفوة من الليل اكتفى بها ولا يبالى ، والثالثة انه كان لا يخاف مخالفا على نفسه أن يغلبه فى الحجة • وقارن الدرجينى ، المخطوط ص ٢٧ ـ أ ، ٢٧ ـ ب ، المطبوع ، ص ٥٩ ـ ٦٠) •

الى علاج فرسه الذى كان قد أصابه الحفا ، وذلك بالرمل المحمى الذى كان على الفرس أن يطأه بحوافره لمدة ثلاثة أيام (١٣٦) ٠

مناظرة حربية تنتهى بهزيمة الواصلية :

وهكذا عندما استعد الامام عبد الوهاب ، ضرب الموعد لخصومه الواصلية بعد ثلاثة أيام حيث خرج بعسكره ومعه جماعة نفوسة الأربعة . وتم اللقاء العجيب بين الاخوة المنشقين ، ودعا عبد الوهاب الواصلية الى الحق وأعذرهم ، ولكنهم طلبوا المناظرة ٠ وهنا صف كل من الطرفين صفوفه ، وكان على المتناظرين أن يتباريا بين الصفين ، ومع كل منهما وجوه أصحابه ٠ وخرج الفتى المناظر من المعتزلة، وخرج اليه مهدى الذى قدمه محمد بن يانيس. وأحس الفتى المعتزلى بشبح الهزيمة أمام مهدى فعرض عليه أن يستر كل منهما على صاحبه اذا تمت له الغلبة ٠ ومع أن مهديا وافق على ذلك الا أنه قال لأصحابه أن علامة انتصاره على المعتزلى أن ينزع شاشيته عن رأسه، ويضعها تحت ركبته ٠

وهكذا بدأ الجدل الفقهى بسيطا مفهوما من الحاضرين ، « فلم يفلح منهم أحد على صاحبه ، ثم أنهما دخلا فى فنون العلم ، فخفى ذلك عمن حضرهما » ، دون الامام بطبيعة الحال ٠ ولو أن الجدل بين العملاقين العالمين لم يلبث أن صار غير مفهوم من الجميع ، فكأنه « الصفق بين الحجرين » ٠ وعلى حين فجأة نزع مهدى شاشيته من على رأسه ، فكان ذلك علامة انتصاره، فعلا التكبير والتهليل فى صفوف الوهبية (١٣٧) ٠

وكان على المبارزة أن تبدأ بعد المناظرة ، فخرج الفارس المعتزلى المعروف بالشجاعة وخرج أيوب بن العباس للقائه ٠ ولم تكن الا حولة بالخيل أو بعض جولة حتى حمل أيوب على خصمه فقتله بسيفه القصير ذى الحد الواحد أو سلكه فى رمحه ، فكانت تلك اشارة ببدء المعركة الحامية الوطيس. وكان بطلا تلك الملحمة : أفلح بن الامام الذى صار يضرب فى ناحية ، وأيوب

---

(١٣٦) أبو زكريا ، المخطوط ص ٢١ — أ ، وقارن الدرجينى ، المخطوط ص ٢٧ — ب (المطبوع ، ص ٦٠ — ٦١) ٠

(١٣٧) أبو زكريا المخطوط ٢١ — ب هذا ، بينما احتج الفتى المعتزلى على مهدى وقال له عدرس يامهدى وقارن الدرجينى المخطوط ، ص ٢٧ — ب ، المطبوع ، ص ٦١ (حيث القلنسوة على رأس مهدى بدلا من الشاشية) ٠

ابن العباس الذى كان يضرب فى الناحية الاخرى • وانتهت المعركة الدامية بهزيمة الواصلية بعد أن بقى معظمهم مجندلين فى ميدان القتال (١٣٨) •

وبذلك يكون الامام عبدالوهاب قد كسر شوكة خصومه المذهبيين فى احواز تاهرت ، وعن هذا الطريق تصح مقالة ابن الصغير من أنه « انتقل من حال الامامة الى حال الملك » •

مقدمات الانشقاق الثانى :
اضطراب منطقة طرابلس :

وتبدأ حال الملك السياسية بالافتراق الثانى بين الاباضية ، وذلك فى الجناح الشرقى من الامامة ، فى منطقة طرابلس حيث يبدأ بالصراع مع قبائل هواره ، كما يقول ابن الصغير ، وهو الأمر الذى تؤيده رواية أبى زكريا التى تمهد للانشقاق بحصار مدينة طرابلس التى كانت تابعة للاغالبة • واذا كانت الرواية الاباضية تقول ان عبد الوهاب عندما اتخذ طريق المشرق كان يقصد الحج ، فانه مما يشكك فيها أنها تشبه الرواية الأغلبية الخاصة بالأمير ابراهيم بن أحمد ، عندما ترك الامارة وسار للجهاد فى صقلية (١٣٩) فقيل انه كان يقصد الحج • فعندما وصل الامام الى جبل نفوسة رفض أهل الجبل أن يتركوه يواصل طريقه خشية المسودة « فتتعطل أمور المسلمين وحدود الله » • ومما يؤيد الشك فى أمر الحج أن اقامة الامام عبد الوهاب فى جبل نفوسه (فى بنى زمور) التى طالت الى سبع سنوات ، لا يكفى لتفسير طول أمدها أنه كان ينتظر وصول الفتوى من علماء المذهب فى مكة ـ وهم : أبوعمرو

---

(١٣٨) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٢ ـ أ : حيث يقول ان عدد من قتلهم افلح ناهز الخمسين ، كما يذكر ان ايوب قتل اكثر من عدد من قتلهم أفلح وهو يقتل وحدا فقط من عدد من قتلهم ايوب • كما ان ايوبا ضرب بسيفه عمودا وهو يظنه رجلا فصار العمود نصفين • وترى الرواية الاباضية ان الواصلية ارادوا الغدر بايوب بعد يومين فدعوه فسار اليهم رغم نصح الناصحين له بالا يفعل • وفى حى الواصلية ظهر ايوب بمظهر الرجل الخارق ، كما يقال الآن ، فهو يأكل قصعة الثريد والشاة التى عليها حتى عظامها ، ويشرب وطب اللبن كله ثم يقضى ليله مكتا يقرأ القرآن ، ويصلى الصبح بوضوء العشاء الآخرة • وعند طلوع الشمس يلاعب فتيان الحى على الخيل ، وعندما حاول البعض انتهاز الفرصة لشك على ايوب بالرمح كاد يصيبه القتل مع سبعة من أصحابه ، ولم يتوقف أيوب عن القتل الا عندما صاحت به نساء الحى يرجونه الكف • وفى طريق عودته الى تاهرت يقطع أرجل سبع ولبؤة وينادى من يريد أكل اللحم من أهل الوادى من البربر ، فأكل من يأكل المكروه (وقارن الدرجينى ، المطبوع ، ص ٦٢ ـ حيث : شكه بالرمح واحتمله كالجرادة بدلا من سلكه فى الرمح) •

(١٣٩) انظر فيما سبق ، ص ١٤٩ •

والربيع بن حبيب وابن عباد ـ بأنه يمكنه بعث مال ليحج به من ينوب عنه، وبأنه « ليس عليه حج لأن أمان الطرق من الشروط التي يجب بها الحج على من استطاعه » (١٤٠) » والحقيقة أن خصوم الامام عبد الوهاب في منطقة طرابلس كانوا يسببون له المتاعب ، منذ أن لجأ الى هناك شعيب المصرى حليف يزيد بن فندين بعد مقتل هذا الأخير ، كما راينا (١٤١) ٠

الحرب مع هوارة :

ومع أن رواية ابن الصغير عن الافتراق الثاني لا تتعلق بهذا الانشقاق مباشرة فانها تصلح كمقدمة منطقية له رغم ما يكسمها من الأخطاء مثل اقامة هواره ولواته في حيز تاهرت ٠ فالذى يفهم منها أن مصاهرة كادت تتم بين بعض مقدمى قبائل هواره من بني مسالة الذين يعرفون بالأوس ،وبين بعض زعماء قبائل لواته، عندما خطب الأول ابنة الثانى التي عرفت بحسنها وجمالها، وأن بعض المقربين من الامام عبد الوهاب حذره من مغبة تلك المصاهرة أو ذلك الحلف ، مما دعا عبد الوهاب الى خطبة الصبية الهوارية الجميلة لنفسه ٠ وكان من الطبيعي أن يغضب مقدم الأوس ، وخاصة عندما مشت السعاة بين الفريقين ، مما أدى الى الحرب واغارة هوارة على أعوان عبد الوهاب ، قرب نهر يقال له نهر أبى سعد الله ٠

والذى يفهم من الرواية أيضا أن المسالة كان يمكن أن تنتهى عند هذا الحد ، لولا ما قيل من أن هوارة أخلت بمبادىء المذهب ، عندما سمح بعض رجالها بأخذ خاتم من أصبع قتيل في تلك المعركة رغم أنه لم يسلب : فلم ينزعوا له ثوبا ولا أخذوا له فرسا ولا سرجا ولا لجاما ٠ اذ لما عرف الامام أن هوارة قد استحلوا الاموال أعد العدة لقتالهم ، فخرج اليهم في ألف فرس أبلق وحشود من العسكر لا يعلم عددها الا الله ، وكانت نفوسة تمثل جزءا كبيرا منهم ، مما يؤيد أن اللقاء كان غير بعيد من جبل نفوسة ، ان لم يكن قد وقع في الجبل نفسه ٠

وتم اللقاء بين الامام وبين بنى أوس وهوارة ومن معهم من القبائل على مجرى نهر جاف يقال له أسلان ، وانتهى القتال العظيم ، الذى ثبت فيه

---

(١٤٠) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٣ ـ أ ، ٢٣ ـ ب ، وقارن الدرجيني ، المطبوع ، ص ٦٥ ـ ٦٦ (حيث الاشارة الى الاخوان في المشرق ، والمقدم في ذلك العصر : أبو الربيع حبيب ، وابن عباد المصرى) ، الشماخي ، ص ١٥٩ ٠

(١٤١) أنظر فيما سبق ، ص ٣٢٣ ٠

الناس : « لا يولى بعضهم لعض الدبر حتى سال الوادى ذلك اليوم دما » ، بانهزام الهواريين ، ولكن بعد أن هلك خلق كثير ، وان « كان القتل فى هوارة أفضح وأشنع » . واثبت افلح بن عبد الوهاب من جديد بطولة نادرة فى المعركة ، فكان يجول فى ميدان القتال ذات اليمين وذات اليسار وفى القلب ، مما لفت نظر عبد الوهاب الذى كان جالسا فى محمل والى جانبه رجل من نفوسة ، وهو يدير المعركة بحماس أثار الفزع فى قلب عديسلة النفوسى . ولو أن الرواية تعود لتقول أن عبد الوهاب هو الذى فض جمع القوم بكتيبته .

وهكذا انتهت الموقعة بانهزام هوارة الى جبل يبجان (ايكجان ؟) ، وبترشيح أفلح بن عبد الوهاب لولاية عهد امامة تاهرت بعد والده « فانقطع اليه المنقطعون ودارت اليه الحوائج والعطاء من تحت يديه ... »(١٤٢) .

عبد الوهاب فى جبل نفوسة وحصار طرابلس :

والظاهر أن توتر الأحوال فى منطقة طرابلس هى التى جعلت الامام عبد الوهاب يقيم فى جبل نفوسة ، وهو أحد مواطن الدعوة الرئيسية ، تلك الاقامة التى طالت الى سبع سنوات كما تقول الرواية . وعندما استقرت الأمور فى الاقليم رنا عبد الوهاب بانظاره نحو مدينة طرابلس العاصمة نفسها، على أمل انتزاعها من الأغالبة . ولا نعرف ان كان يمكن الربط بين أحداث بلاد الزاب حيث قام الصراع بين الأغالبة وبين القبائل الاباضية هناك ، وبين محاولة عبد الوهاب الاستيلاء على طرابلس أم لا . والمهم أن عبد الوهاب سار لحصار المدينة ، كما يقول أبو زكريا ، ومعه أهل الاقاليم المتاخمة لها وأهل جبل نفوسة وعامة من بجبالهم . وأنه دار مع أهل المدينة ومن معهم من الجند الأغلبى قتال شديد ، « استشهد » فيه عابد جبل نفوسة وزاهدها مهدى(١٤٣) الذى قال فيه ابن خالته ، عندما تخاصما فى حضرة عبد الوهاب انه اشتغل بآخرته حتى أضر بدنياه .

وهذه الشهادة هى التى أقرها الامام أثناء اقامته تلك بجبل نفوسة ، عندما لجأ فى يوم مطر وقر الى دار مهدى فلم يجد فيه شيئا مما أشعره فعلا

---

(١٤٢) ابن الصغير ، ص ٢٠ - ٢٣ .

(١٤٣) ابو زكريا ، ص ٢٣ - ب (الذى كان وجهه يعبس او ينبسط وهو قتيل عندما يسمع هزم المؤمنين او هزم المسودة) .

بالضرر ، بينما وجد في دار ابن حالة مهدى المترفة ما كان يلزمه من الثياب النطيفة ، والفرش والطعام ، فضلا عن النار التى بعثت الدفء فى أوصال الجماعة ، وهذا ما جعل الامام يرجع فى حكمه ، ويقيم الحجة لابن حالة مهدى(١٤٤) • وهذا يعنى تطور فى افكار الاباضية نحو التخفيف من التزمت فى مسائل الزهد ، والتسامح التدريجي فى مسائل الدنيا وما يتعلق بها من المعاملات ، حتى انتهى الأمر بأن أصبح « الرخص » سمة من سمات فقههم •

ازمة عدم ثقة بين عبد الوهاب واتباعه :

والغريب فى الأمر أن ابن الصغير لا يذكر شيئا عن حصار عبدالوهاب لطرابلس ، بينما لا يعرف أبو زكريا الاتفاقية السياسية التى انهت الىها حرب طرابلس مع الأغالبة فى سنة ١٩٦ هـ/٨١٢ م ، وذلك باعتراف عبدالله ابن ابراهيم بن الاغلب بالسيادة للاباضية على الأقاليم الـــــداخلية من طرابلس (١٤٥) ، وان كان ما يقوله بشأن تلك الحرب يمكن أن يكون اضافة الى ما تسجله الحوليات الافريقية • فأبو زكريا يشير الى أنه حدث نوع من عدم الثقة بين الامام عبد الوهاب وأتباعه بلغ حد أنه ، عندما كان يتناجى معهم عن حرب الأغالبة (كيد العدو) كان يخرج سرهم رغم ما اتخذه من الاحتياطات التى انتهت بتقليل عدد من كان يتناجى معهم ، حتى ارتاب فى الأمر هو ووزيره ابن عمران الذى لم يعد يتناجى مع أحد سواه • وحتى قال عبد الوهاب انه لا يستطيع أن يحاصر طرابلس برجل واحد ، فعاد أدراجه الى جبــــل نفوسه ، « وقد آيس (يأس) من فتح المدينة »، رغم حلمه واحتماله وصبره • وفى الجبل أقام عبد الوهاب لبعض الوقت وهو ينشر العلم بين اهله ويحكم بين المتخاصمين من أهل المذهب (١٤٦) •

والذى يفهم من الروايات الاباضية أن الامام عبد الوهاب كان يقيم فى جبل نفوسه فى منطقة بنى زمور حيث عرف الجبل هناك باسمهم ، وحيث كان للامام مصلى فى قرية تلالت (١٤٧) • واثناء مقام الامام عبد الوهاب هناك

---

(١٤٤) أبو زكريا ، ص ٢٣ ـ ا •

(١٤٥) انظر فيما سبق ، ص ٤٠ وهامش ٦١ •

(١٤٦) أبو زكريا ، ص ٢٣ ـ ب •

(١٤٧) وكان فى المكان الذى يصلى فيه ملاطه يتكىء عليها ويبلغ ارتفاعها الى ارتفاع رأسه وهو جالس • وكانت على أيام أبى زكريا « تبلغ للواقف الى الصدر » ، مما يعنى عظم قامة عبد الوهاب • السير وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ٢٢ ـ ب • أما بنى زمور فهى ممسوخة فى شكل نمر • وقارن الشماخى ، السير ، ص ١٥٩ •

استعمل رجلا على المنطقة يقال له مدرار (١٤٨) ·

الخلفية : الانشقاق الثانى :

وبسبب الولاية على حيز طرابلس ، وهل يجب أن يستمع الامام الى رغبة أهل المنطقة فى اختيار واليهم ، أم أنه صاحب الحق المطلق فى تولية من يشاء وحجب ولاية من يشاء ، مما يذكر بمسالة الشرط التى كان يطالب بها يزيد بن فندين ، كان الانشقاق الثانى أو الافتراق بين اباضية الرستميين·

السمح بن أبى الخطاب : وولاية طرابلس :

فعندما قرر عبد الوهاب العودة الى تاهرت طلب اليه أهل حيز طرابلس ان يولى عليهم أبا عبد الأعلى السمح بن أبى الخطاب عبد الأعلى · وتظهر رواية ابى زكريا أن عبد الوهاب لم يكن راضيا عن ذلك ، ولكن على أساس أن السمح وزيره ، وأحب الناس اليه وأنصحهم له ، وأنه لكل ذلك لا يحب مفارقته · وأمام الحاح الناس وافق عبد الوهاب على تولية السمح على حيز طرابلس الذى نظن أنه يعنى المنطقة الواقعة بين المدينة وبين جبل نفوسة ، على أساس أنه آثرهم على نفسه(١٤٩) · وأحسن السمح السيرة فى رعيته وفرق أعوانه فى أرجاء البلاد ، وهو مقر بامامة عبد الوهاب ، ناصح له الى أن مرض مرضه الذى مات فيه · واجتمع أعيان أهل الاقليم يطلبون اليه الوصية ، فأوصاهم ، كما يقول أبو زكريا ، بتقوى الله واتباع أمر الامام عبد الوهاب وطاعته « ما دام مستقيما على الحق الذى عليه سلفكم وجهـــاد من خالفكم » ·

خلف بن السمح ، وولاية طرابلس :

ولكنه عندما توفى السمح كان لموته صدى عظيم فى نفوس الناس الذين أحبوه وعظموه حتى أنهم ائتمروا بأمر العامة من الناس « ممن ليس له بصيرة، بأمور الدين ولا علم بأمور المسلمين » : فولوا على أنفسهم ابنه ، وهو : خلف ابن السمح (١٥٠) · ونحن لا ندرى ان كان خلف هو اسمه الحقيقى أم أنه اسم تجريح أطلقه عليه الكتاب من خصومه ، كما سيطلقون عليه لقب الخبيث

---

(١٤٨) أبو زكريا ، ص ٢٣ – أ ·

(١٤٩) ابو زكريا ، ص ٢٤ – ب وقارن الدرجينى ، المطبوع ، ص ٦٧ ، الشماخى ص ١٦٢ ·

(١٥٠) أبو زكريا ، ص ٢٤ – ب ·

ابن الطيب(١٥١) ، تماما كما فعل أهل السنة بمحمد بن أبى بكر الذى اتهم في مقتل عثمان ، وكما فعل كتاب الامويين بأبان بن عثمان عندما اتهم فى فتنه ابن الزبير .

ورغم اعتراض علماء المذهب مثل : أبى المنيب اسماعيل بن درار الغدامسى، وأبو الحسن أيوب عامل الامام على جبل نفوسة ، على هذا الاجراء ولفتهم الانظار الى أنه لا يجوز أن يسبقوا امامهم الى شىء من أمورهم ، رد الراغبون فى تولية خلف بأنه اذا لم يرض الامام عنه عزلوه . وبعد أن أعلنوا ولاية خلف عليهم كتبوا بذلك الى الامام .

عبد الوهاب لا يوافق على ولاية خلف :

وكان رد عبد الوهاب الذى يحمل فى كتابه لقب أمير المؤمنين (١٥٢) على أهل حيز طرابلس ان من ولى خلفا بغير رضاء أمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين . وان من أبى توليته فقد أصاب ، ثم انه أقر كل العمال الذين استعملهم السمح الا خلف بن السمح الى أن يأتيه أمره ، كما أمرهم بالتوبة من هذا العمل . وتمسك أنصار خلف به وراجعوا عبد الوهاب فيما كتب به اليهم ، وطلبوا اليه أن يستجيب لرغبتهم فى تولية خلف . ورفض الامام ذلك مستندا الى أنه لا يسعه ذلك فيما بينه وبين ربه ، وطلب اليهم من جديد أن يتوبوا ، كما أرسل كتابا خاصا الى خلف يعرفه فيه بأنه حرام على من يقدم اليه صدقات ماله أن يفعل ذلك ، وأنه حرام عليه أن يأخذها ، وأمره بأن يعتزل أمور المسلمين .

خلف يرفض الاعتزال :

ولم يكن من الغريب أن يرفض خلف ، وهو حفيد الامام الأول أبى الخطاب الاعتزال ، وأن يعتز ويأبى ويستكبر ، فى الوقت الذى تمادى الجهال فى توليته ، بينما تركه المسلمون فى غيه وزيفه ، كما يقول أبو زكريا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (١٥٣) .

---

(١٥١) أبو زكريا ، ص ٢٥ ـ ب (الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣١ ـ ب ، المطبوع ، ص ٧٠) .

(١٥٢) أبو زكريا ص ٢٤ ـ ب .

(١٥٣) السير وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ٢٥ ـ أ . وتقول الرواية ان الامام عبد الوهاب كتب كتابين الى خاصة حيز طرابلس أحدهما فيه عزل خلف والثانى فيه تعيينه =

استفتاء علماء الشرق والاحتجاج بالاستقلال :

وكما جرت العادة من قبل ، بعث المخالفون لعبد الوهاب كتابا الى مشايخ المذهب في المشرق وكان رأسهم في ذلك الوقت هو أبو سفيان محبوب ابن الرحيل (١٥٤) .

ورغم أن ابن الرحيل كتب اليهم يخطئ من لم يوافق عبد الوهاب ويحضهم على طاعة الامام ، فانهم صرفوا النظر عن جوابه الذى لم يصادف هواهم ، وأعلنوا أن عبد الوهاب ليس امامهم ، واعتلوا بأنهم يسكنون في اقليم منقطع عن بلاده ، مما يسمح لهم بأن يكون لهم امامهم الخاص ، وهو خلف بن السمح . وعلى هذه المسالة وعد أبو زكريا بأن يرد في كتاب خاص يكرسه لافتراق الاباضية ، ولكن الظروف لم تمكنه من ذلك على ما نفهمه من الدرجيني (١٥٥) . وكان ذلك يعني اعلان استقلال اباضية حيز طرابلس الذى كان تابعا لجبل نفوسة عن امامة تاهرت ، وقبل ذلك عن ولاية جبل نفوسة ، واعلان امامة خلف .

أبو عبيدة عبد الحميد الجناوى واليا لجبل نفوسة : والنزاع بين اباضية طرابلس واباضية نفوسة :

توفي عامل جبل نفوسة أبو الحسن أيوب الذى كان مناهضا لخلف ابن السمح ، وأرسل أهل الدعوة في الجبل الى عبد الوهاب يطلبون تولية عامل جديد عليهم ، حسبما كانت تقضي تقاليد الجماعة والمحافظة على

= واليا اذا قبل كتاب العزل الاول ولم تكن له رغبة في الأمور ، وان خلفا رفض كتاب العزل فتركه الخاصة من اهل طرابلس في فية الى ان يحكم الله بينه وبين الامام (وقارن الدرجيني ، المطبوع ، ص ٦٩) .

(١٥٤) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٥ - أ ، ٢٥ - ب حيث يعتبره تابعا لطبقة الربيع ابن حبيب ، وابى غسان بن مخلد بن المرد ، وابى المهاجر ، وابى أيوب وائل .

(١٥٥) ابو زكريا ، المخطوط ، ٢٥ - ب : حيث يقول انهم فعلوا ذلك من غير حدث وانه لم يكن بيننا وبينهم مسائل الا الاقرار بامامة عبد الوهاب - رضي الله عنه . وقارن الدرجيني ، الطبقات ، المخطوط ، ص ٢١ - ب ، ٢٢ - أ (المطبوع ، ص ٤٧ - ٤٨) : حيث يذكر ان الشيخ اسماعيل بن صالح سال الشيخ ابا نوح بن يوسف عن الكتاب الذى وعد به الشيخ ابو زكريا ، فرد عليه بأن الذى قام به عنه هو الشيخ أبو عمار عبد الكافي وهو الكتاب الموجز . وعن اعلان امامة خلف ، قارن الشماخي ، ص ١٨١ حيث يقول : « واعتلوا بأن حوزة طرابلس منقطعة عن حوزة تيهرت وسيدة منها » .

الشكليات . وقد أرسل الامام بدوره الى قادة أهل الدعوة يطلب اليهم ترشيح من يرضون عنه من أفاضلهم وأولادهم بادارة أمور المسلمين ، ووقع الاختيار على أبى عبيدة عبد الحميد الجناوى ، وهو رجل من ناحية ايجاوز عرف بالصلاح والتقوى والعفاف والزهد فى طلب الدنيا وتولى المناصب .

وهكذا فعندما عرضوا الولاية على أبى عبيدة ، قال : « أنا ضعيف لست أقدر على القيام بأمور المسلمين » . وكان زهد أبى عبيدة فى الولاية سببا فى تشبث الامام عبد الوهاب ـ الذى كان يميل الى من ليست لهم رغبة فى الولاية ، وهو الرأى المعروف عند كثير من الفقهاء المسلمين وقتئذ ـ به . وفى ذلك يقول أبو زكريا : ان الامام عبد الوهاب حلف لهم بالعربية والبربرية، وبالحضرية ، وبالحبشية : انه لا يقلد أمور المسلمين الا رجلا يقول « أنا ضعيف » (١٥٦) .

واذا صح هذا الأمر فان مجتمع الاباضية فى تاهرت يكون مؤلفا فى ذلك الوقت من العرب والبربر والسودان ، من أهل البادية ومن أهل الحضر أيضا . وهكذا لا يكون « الضعف » فى الفكر السياسى الاباضى مانعا من تقلد الولاية . ففى رأى عبد الوهاب أن الشخص المرشح لتقلد مصالح المسلمين يمكن أن يكون ضعيفا من ثلاثة أوجه : ضعف البدن ، أو قلة العلم ، أو الفقر فى المال ، مما يعنى بطريقة عكسية ، أن شروط الولاية هى : صحة البدن وكثرة العلم ووفرة المال . وفيما يتعلق بأبى عبيدة عبد الحميد قال الامام : انه ان كان ضعيف البدن قواه الله بالدخول فى أمور المسلمين ، وان كان ضعيفا فى العلم فعليه بالاستعانة بأبى زكريا يصلتن التوكيتى أوحد أهل الجبل فى العلم والفضل ، وفيما يتعلق بالفقر ، لو كان ، فيمكنه الاستغناء ببيت مال المسلمين (١٥٧) .

وهكذا ولى أبو عبيدة عبد الحميد على جبل نفوسه وأحسن السيرة (١٥٨)

---

(١٥٦) أبو زكريا ، ص ٣٦ ـ أ ، الدرجينى ، ص ٣١ ـ ب (المطبوع ، ص ٧١) ، وقارن الشماخى ، ص ١٨٢ .

(١٥٧) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٦ ـ أ ، وقارن الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٢ ـ أ ، المطبوع ، ص ٧١ ، الذى يقول عن ضعف البدن ان « الحق » يقويه ، ويسمى أبا زكريا بالايلولى .

(١٥٨) أبو زكريا ، ص ٣٦ ـ أ : حيث تأخذ الرواية طابعا قصصيا فتقول انه لم يقبل الا بعد أن استشار عجوزا معروفة بالصلاح والورع والتقوى ، وبعد أن هددته بتفسيخ عظامه فى جهنم اذا لم يقبل . وقارن الدرجينى ، ص ٣١ ـ ب (المطبوع ، ص ٧١) .

بفضل من كان حوله من علماء الجبل وفضلائه وزهاده ، مثل أبي زكريا الذي قيل فيه « الجبل هو أبو زكريا ، وأبو زكريا هو الجبل » ، وأبي مرداس العابد الزاهد الذي اشتغل بأمر آخرته حتى ضيع أمر دنياه ، وأبي العباس(١٥٩) .

معارضة خلف لولاية عبد الحميد :

وعندما علم خلف بن السمح بتولية أبي عبيدة عبد الحميد أخذته العزة بالاثم واستكبر ، كما يقول أبو زكريا ، وعمل على ان يفرض أمر ولايته الواقع « فدس الغارات واللصوص على أهل الدعوة» ـ دعوة المسلمين من رعية أبي عبيدة (١٦٠) . ورد أبو عبيدة على استفزازات أفلح بطلب الكف عن اذاية المسلمين ، والاكتفاء بكون الخلاف نظريا او تركه على مستواه القانوني . ولكنه أمام اصرار خلف على اعماله العدائية ارسل يطلب الاذن من تاهرت بمناجزته . وكان رد الامام عبد الوهاب ان يستخدم أبو عبيدة المداراة والملاطفة مع خلف والا يحاربه الا حرب دفاع عن النفس والمال . وهكذا كانت أوضاع امامة تاهرت وعلاقتها بجبل نفوسه وحيز طرابلس عندما توفى الامام عبد الوهاب في سنة (١٩٨ هـ) .

عهد افلح بن عبد الوهاب (بن عبد الرحمن بن رستم) (١٩٨ ـ ٢٤٧ هـ / ٧٨٤ ـ ٨٦١ م) :

صفات الامام الجديد : الشجاعة والعلم :

كان من الطبيعي أن تؤول الخلافة ، كما يقول ابن الصغير ، الى افلح بن عبد الوهاب ، بعد وفاة والده الذي كان قد رشحه للامارة . فلقد كان أفلح مؤهلا لولاية امامة تاهرت ، لما عرف عنه من الشجاعة التي أظهرها في أكثر من لقاء مع الخصوم ، والعلم الذي نبغ فيه وهو بعد شاب يافع ، حتى قيل: « انه قعد بين يديه أربع حلق يتعلمون عنده فنون العلم قبل أن يبلغ الحلم »(١٦١) .

---

(١٥٩) ابو زكريا ، ص ٢٦ ـ أ ، ٢٦ ـ ب أما عن تاهرت ، كما قال أهل المشرق فلم يكن يعد فيها الا الامام عبد الوهاب ووزيره مزور بن عمران .

(١٦٠) ابو زكريا ، ص ٢٦ ـ ب (الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٠ ـ ب ، المطبوع ، ص ٧١) .

(١٦١) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٩ ـ أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٤ ـ أ (المطبوع ، ص ٧٧) . والى جانب علوم الدين قيل انه وكذلك أتقنه بلغنا فى حساب الغبار والنجامة مبلغا عظيما حتى انه كان يعرف عدد ما سيذبح في السوق من البقر في اليوم التالى . =

وهكذا وجـــد رؤساء الجماعة الاباضية بتاهرت فى ولى عهـد الامام عبد الوهاب أهم صفتين لازمتين للامام ، وهما الشجاعة اللازمة للامام فى وقت الخوف من الاعداء الذين تدانوا من تاهرت طمعا فى الاستيلاء عليها(١٦٢) ، وما يتبعها من العزم والحزم(١٦٣) ، ثم العلم اللازم لمناجرة الخصوم المذهبيين بعد أن أخذت الانشقاقات تدب بين أبناء أهل الدعوة ، مما تطلب مناجزتهم بالمناظرات قبل السيوف . وهكذا حذا فقهاء الاباضية حذو مشرعى أهـــل السنة الذين يشترطون فى اختيار الامام : العلم وقت السلم والشجاعة وقت الحرب (١٦٤) ، وان كان الاباضية يصرون على خصلة التواضــــع وضرورة المشورة فيمن يلى أمور الجماعة ، من الامام الى أعوانه (١٦٥) .

والمعلومات الخاصة بامامة أفلح ابن عبد الوهاب تنقسم ، كما يبدو لنا فى المصادر الاباضية الى قسمين : أحدهما خاص بأحداث تاهرت ، وهذه توجد فى كتاب ابن الصغير ومن نقل عنه ، والآخر خاص بأحوال جبل نفوسه وحيز طرابلس ، وتلك توجد فى كتاب أبى زكريا ومن أخذ عنه . ولكنه مما يؤسف له أن عهد أفلح الذى طال الى حوالى ٥٠ سنة أو يزيد (١٦٦) ، كان من المفروض أن تعج بالأخبار التاريخية الهامة ، لا يظهر لنا فى كتب أهل المذهب الا فى شكل السيرة المنقبية المعتادة ، دون تواريخ الوقائع أو علامات مميزة تبين العلاقات الرسمية بين الأحداث المتوالية بطريقة عفوية من غير ضابط وقتى أو رابط .

= بل وانه كان يعرف أنه ستذبح بقرة صفراء فى بطنها عجل له غرة فى جبهته . وان أخته كانت تستطيع أن تصحح له ذلك فتعرفه ان ما توهمه غرة فى جبين العجل الذى لم يولد بعد ، انما هو طرف ذنبه الأبيض الذى انقلب على جبهته .

(١٦٢) الدرجينى ، ص ٣٢ — ب (المطبوع ، ص ٧٢) ، وانظر الشماخى ، السير ، ص ١٩٢ .

(١٦٣) ابن الصغير ، ص ٢٣ .

(١٦٤) انظر الماوردى ، الفصل الخاص بعقد الامامة .

(١٦٥) انظر الشماخى (ص ١٩٢) الذى ينقل عن ابن الصغير رواية لا نجـــدها فى طبعة موتيلينسكي عن كيفية امتحان نفوسه لافلح وثبوت تواضعه لهم . فقد كان يحمل لهم المصباح يستضيئون به وهم يأكلون ليلا ، وعندما اعطوه لقمة من الطعام جعل المصباح على ركبته فأخذها بيديه معا كالمملوك .

(١٦٦) انظر ابن الصـــغير ، أخبـــار الأئمة ص ٢٦ (٥٠ سنة) ، وقارن أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣١ — ب (٦٠ سنة . والدرجينى ، المطبوع ، ص ٨٣) .

تاهرت على عهد افلح :

ويلخص ابن الصغير عهد افلح الطويل فيقول انه تميز بسياسة الأخذ بالعزم والحزم فطار صيته واستقرت أمور دولته ودان له الجميع : من أهل المذهب ، ومن الخارجين عليهم من الشراة الذين لم يطعنوا عنيه في شيء من أحكامه ، ولا في صدقاته ولا في أعشاره (١٦٧) ، فكانت النتيجة الطبيعية لذلك ، هي : ازدهار تاهرت ، ذلك الازدهار الذى نسبه نفس الكتاب إلى عهد المدينة الأول أيام عبد الرحمن بن رستم ٠

رضاء « الشراة » عن افلح الذى كان يشاورهم فى الأمر :

أما عن رضاء الاباضية الذين يسميهم ابن الصغير بالشراة عن امامة افلح ، فقد أتى نتيجة سياسته المتزنة التى لم تنكر عليهم المشاركة بالرأى فى تدبير أمورهم ٠ فلقد بدأ « الشراة » بامتحانه عندما توفى قاض من قضاة والده عبد الوهاب ، فسألوه أن يولى عليهم قاضيا يستحق القضاء ، فطلب اليهم أن يتفقوا على من يريدون من بين خيارهم وأنه سيعينه ، ويعاضده فى القيام بأمره ٠

اختيارهم لمحكم الهوارى قاضيا :

ولم يجد « الشراة » بينهم من يستحق القضاء ، بل وقع اختيارهم على أحد مشاهير أهل الورع والدين ، وهو محكم الهوارى الساكن بعيدا بجبل أوراس (١٦٨) ٠ وعندما أخبروا الامام افلح بذلك لفت نظرهم الى أن الرجل « نشأ فى بادية ، ولا يعرف لذى القدر قدره ، ولا لذى الشرف شرفه » ٠ وأمام تمسك الجماعة برأيهم وافق افلح ، وخاصة ان أخاه أبا العباس كان من أشد المحبذين لولاية محكم ٠

وظهرت مشاركة الجماعة فى تدبير أمورهم عندما « خرجت الرسل بكتاب من افلح وكتاب من « الشراة » الى محكم ، فى داخل كل كتاب منهما ، بعد اثبات بسم الله العظيم : « أما بعد فقد نزل بالمسلمين أمر لا غنى بهم عن حضورك ، وهم منتظرون لقدومك ولا يسعك التخلف فيما بينك وبين الله عن اللحوق بهم والاجتماع معهم ليجتمع رايك ورايهم على ما فيه صلاح

---

(١٦٧) ابن الصغير ، اخبار الائمة ، ص ٢٣ ٠

(١٦٨) ابن الصغير ، ص ٢٣ ٠

المسلمين »(١٦٩) ٠

بدوي بين مرفهين ، لا يفرق بين المتخاصمين :

وأخذ محكم كساه وعصاه ، وركب دابته متجهاً نحو البلدة (تاهرت) حيث نزل في المسجد الجامع ٠ وأتى القوم اليه وسألوه أن يقبل القضاء والا كان مسئولا عما يحدث من الفتن واراقة الدماء ، بل انهم ابتغوا ذلك بالتهديد بأنهم سيجبرونه على تقلد المنصب ، وأن الأولى به أن يقبل حتى يكون جزاؤه الشكر منهم ٠ وأمام الحاحهم قبل الرجل البدوي الخشن ولاية القضاء بعد أن حذرهم ، من : « ان الحق مر أمر من الدواء ، ولا يشرب الدواء الا كرها »، وبعد أن عرفهم بأنهم مرفهون أبناء نعم ، وان غيره ربما كان أحب اليهم منه (١٧٠) ٠ وهكذا انزل القوم محكما الهواري في دار القضاء ، واشتروا له خادما صغيرة ، وأجروا عليه من بيت المال قوته (١٧١) ٠

وسار محكم في قضائه السيرة التي أملوها منه فلم يفرق في أحكامه بين غني وفقير أو شريف ووضيع ٠ فعندما تنازع أبو العباس ، وهو أخو افلح الذي كان من الراغبين في تولية محكم ، مع أحد أصهار الامام بسبب قطعة من الأرض ورفعا أمرهما الى أفلح ، أمرهما الامام بالمسير الى محكم الهواري ٠ وعندما رأى محكم أن أبا العباس يسمح لنفسه بطلب الماء ، وهو في مجلس القضاء في سقيفة داره بينما خصمه واقف بالباب ، غضب لذلك وأمر بأن يقدم الماء الى الخصم حتى يساوي بينهما مما أثار حفيظة أبي العباس ٠ وعندما اشتكى أبو العباس من معاملة محكم قال له الامام افلح ان الحق كان في جانب محكم وانه لو فعل غير ذلك لكان مداهنا ، مما زاد في اعجاب الاباضية بامامهم الذي لا يعرف الهوادة في الحق ولا يخشى فيه لومة لائم (١٧٢) ٠

توطد أركان المملكة وزيادة ازدهار تاهرت :

وهكذا توطدت أركان الامامة الرستمية وازدهرت تاهرت على عهد افلح الذي طال ملكه حتى نشأ له البنون وبنون البنين ، وشمخ في ملكه ، وابتنى القصور واتخذ بابا من حديد ، وبنى الجفان ، وأطعم فيها أيـــام

---

(١٦٩) ابن الصغير ، ص ٢٤ ٠
(١٧٠) ابن الصغير ، ص ٢٤ ٠
(١٧١) ابن الصغير ، ص ٢٥ ٠
(١٧٢) ابن الصغير ، ص ٢٥ — ٢٦ ٠

الحفان (١٧٣) . وفى ازدهار تاهرت على أيام افلح يضيف ابن الصغير : « وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات واتته الرفاق (التجار) والرفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات » (١٧٤) .

قصور تاهرت :

هذا ، كما تنافس الناس فى البنيان داخل العاصمة وخارجها ، فبنوا القصور وعمروا الضياع وأجروا خلالها الانهار . ومن اشهر المبانى التى أقيمت فى أرباض تاهرت قصر عبد الواحد الذى كان مشهورا على أيام ابن الصغير ، وكذلك القصران اللذان عرفا باسم بانياهما : أبان وحمويه . وكان سكان هذين القصرين على قدر طيب من الرفاهية وسهولة الحياة بفضل عناية صاحبيهما بهما ، كما سمع ابن الصغير من بعض شهود العيان . فعندما كان ابان وحمويه يذهبان لزيارة القصرين ، كان أهلها يستقبلونهما فى شرفات منازلهم ، وعليهم الثياب الملونة ، من : أحمر وأصفر ، كأنهم البدور على الجدران (١٧٥) .

بوادى تاهرت وعناصر السكان :

وبفضل سياسة أفلح الرشيدة ورجال دولته المجتهدين انتشرت القبائل حول تاهرت ، وعمرت العمائر ، وكثرت الاموال بأيديهم ، فى الحواضر والبوادى .

ويفهم من رواية ابن الصغير ان عناصر سكان اقليم تاهرت النشطة كانوا من الفرس الذين ابتنوا القصور ، ومن نفوسة الذين ابتنوا العدوة ، ومن الجند القادمين من أفريقية الذين ابتنوا المدينة التى كانت عامرة عندما كان ابن الصغير يدون مذكراته هذه (١٧٦) .

تنظيم تاهرت على عهد افلح :

والظاهر أن الفرس كانت لهم ، على عهد افلح ، مكانة ممتازة فى تاهرت حتى أن بعض الكتاب سمى امامة تاهرت الاباضية بالدولة الفارسية . وفى

---

(١٧٣) ابن الصغير ، ص ٣٦ .
(١٧٤) ابن الصغير ، ص ٣٦ .
(١٧٥) ابن الصغير ، ص ٣٦ .
(١٧٦) ابن الصغير ، ص ٣٦ - ٣٧ .

ذلك يروى ابن الصغير ، مما سمعه ، انه كان للعجم (الفرس) مقدم يقال له « ابن وردة » ، وأنه كان قد ابتنى سوقا عرف باسمه ، « فكان صاحب شرطة أفلح اذا تخلل المدينة لانتقادها لم يجسر أن يدخل سوق ابن وردة ولا يتخلله هيبة »(١٧٧) . أما عن النفوسيين فلم تكن بلادهم تمثل فقط مركز الثقل الشرقي من الامامة الرستمية فيما وراء بلاد الأعالية ، بل كانوا هم أنفسهم يمثلون عصب الدولة في تاهرت نفسها : « فكانت نفوسة تلى عقد تقديم القضاة وبيوت الأموال ، وانكار المنكر في الأسواق ، والاحتساب على الفساق »(١٧٨) . أما الاجناد من بطانة السلطان فكانوا من اهل افريقية ، كما سبقت الاشارة ، وكان قوادهم ، كما يتضح من الرواية ، من أولاد أفلح وحشمه (١٧٩) .

هكذا ازدهرت أحوال تاهرت على عهد أفلح بن عبد الوهاب وأخذت شكل العاصمة العالمية بفضل تنوع سكانها من الفرس والنفوسيين والأفارقة. ولقد عم الرخاء القبائل المنتشرة حول المدينة ، بفضل ما اكتسبوه من الأموال وما اقتنوه من العبيد والخيول الى أن نالهم من الكبر ما نال أهل المدينة : « حتى خاف أفلح أن تجتمع الأيدى عليه فتزيل ملكه » (١٨٠) وهكذا رأى أفلح في أواخر سنوات امامته أن يتبع بين القبائل سياسة « فرق تسد » ، وهذا ما سنعود اليه بعد استعراض الاحوال في بلاد نفوسة .

جبل نفوسه وحيز طرابلس :

خلف بن السمح يحمل لواء المعارضة .

على عكس ابن الصغير الذى انفرد بقصة تاهرت على أيام أفلح ، خصص أبو زكريا ومن نقل عنه ، مثل : الدرجيني كل روايته على عهد أفلح لأحوال جبل نفوسه وحيز طرابلس ، حيث كان خلف بن السمح يحمل لواء المعارضة ضد أفلح وواليه أبي عبيدة عبد الحميد الجناوى بعد أن رفض التعايش السلمى الذى اقترحه عليه هذا الأخير أيام الامام عبد الوهاب ، على أساس أن ينفرد

---

(١٧٧) انظر ابن الصغير ، ص ٢٧ ، الذى يضيف ان ابن وردة كان من وجوه العجم وأنه كانت قد بقيت منهم بقية على أيامه في مدينة ميجانة .

(١٧٨) ابن الصغير ، ص ٢٧ .

(١٧٩) ابن الصغير ، ص ٢٧ .

(١٨٠) ابن الصغير ، ص ٢٧ .

كل منهما بناحيته (١٨١) • فقد رفض خلف الاعتراف بالامام أفلح ، وانحاز بمن انضم اليه من الرجال الى موضع يعرف بـ « تيمتى »(١٨٢) ، وما يليها من المشرق . وهو رافع راية العصيان ، غير مقر بامامة أفلح ولادان بطاعته •

الحرب بين خلف وأبى عبيدة عبد الحميد :

ومن تيمتى (تمتى) أخذ خلف يشن الغارات على رعايا الامام المقيمين فى حيز أبى عبيدة عبد الحميد ، ويستبيح أموالهم ويخرب ديارهم ويقتل رجالهم دون تمييز ، كما يقول كتاب الاباضية ، حتى أنه قتل خطأ فى بعض الاحيان بعض أولئك الدين كانوا قد دانوا له بالطاعة ، وهو يحسب أنهم من رعية أبى عبيدة عبد الحميد (١٨٣) • وهكذا عظمت شوكة خلف الذى استخدم الترغيب أيضا الى جانب الترهيب ، فاستمال الرجال بعطاياه من الاقطاعات والأموال ، وصارت اليه الخيل والى اهل بيته ومواليه ومماليكه ، وساعده على ذلك أن ما كان تحت حوزته من الأرض كان خصيبا بينما كانت أرض أبى عبيدة جدبة (١٨٤) •

وكتب عبد الحميد الى الامام أفلح يستشيره فى أمر الخبيث بن الطيب، كما تقول رواية الدرجينى ، ويستأذنه فى الدفاع ، ولكن الامام كتب اليه بمثل ما كان قد كتب به والده من استخدام اللين والمداراة (١٨٥) • واستمر خلف فى أعمال العدوانية ضد رعية عبد الحميد فبعث بسرية من اربعمائة رجل نهبت قرية تعرف بـ « تسمات درف » فأخذ رجاله ما قدروا عليه من أموالها، وفكوا ما قدروا عليه من الجمال بعد أن كان قد أخذ أكثر الخيل ،كما قتلوا عددا من أهل القرية • وأصابوا عشرة أنفس من أصحاب أبى عبيـــــدة عبد الحميد (١٨٦) • وتقول الرواية الاباضية أن عبد الحميد الذى كان واقفا

---

(١٨١) أنظر فيما سبق ، ص ٣٣٧ •

(١٨٢) انظر ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٦ ـ ب حيث الكلمة تمتى ، وقارن الدرجينى الذى اخذنا بكتابته ، المخطوط ، ص ٣٢ ـ ب (المطبوع ، ص ٧٢) ، الشماخى ، ص ١٨٣ •

(١٨٣) أنظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٦ ـ ب ، الدرجينى المخطوط ، ص ٣٢ ـ ب (المطبوع ، ص ٧٢) ، الشماخى ، ص ١٨٣ •

(١٨٤) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٧ ـ أ ، الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٢ ـ ب ص ٣٢ ـ أ (المطبوع ، ص ٧٢ ـ ٧٣) •

(١٨٥) الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٢ ـ ب (المطبوع ، ص ٧٢) ، وما سبق ، ص ٣٣٧ •

(١٨٦) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٧ ـ أ ، الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٣ ـ أ (حيث يسمى القرية ايدوف) والمطبوع ، ص ٧٣ (حيث تسمى القرية ويدوف ، وحيث : وقتلوا ما قدروا عليه من الرجال بدلا وفكوا ••• الجمال) •

على رأس عسكره ببعد من الجبل كان قد منع أصحابه - بناء على تعليمات الامام أفلح - من التعرض لرحال حلف (١٨٧) ، ولكنه لما استبان له بعيهم أمر رجاله (المسلمين) بمنابذتهم ، فهزموهم وقتلوا منهم كثيرا ، ولكن عبد الحميد منع عسكره من اتباعهم . وبذلك عاد كل من خلف وعبد الحميد الى موضعه : الأول الى تيمتي والثاني الى موطنه وكذلك أصحابه (١٨٨) .

معركة تعادل غزوة بدر :

وعاد عبد الحميد الى مداراة خلف فأرسل اليه يطلب منه السلام على أن يكون كل منهما في حيزه ، ولكن خلفا أبى من ذلك واستمر في شن الغارات على أهل طاعة أبي عبيدة واعداد العدة لاستئصالهم . وهكذا عندما اجتمع الى خلف عدد كبير من الرجال حرج لملاقاة عبد الحميد في معركة فاصلة ، وذلك بعد سنة من لقاء « قسمات درف » . ومع أن عبد الحميد خرج الى هذا اللقاء في عدد قليل من أصحابه « عددهم هو عدد أصحاب بدر » أي ٣١٣ رجلا أو سبعمائة بينما كان خلف في ٤ (أربعة) آلاف فارس ، فانه كان مطمئنا الى أن رجاله كانوا من أهل البصائر الذين يموتون على ما أبصروا ، وهذا مالم يشاطره اياه خلف (١٨٩) .

المناظرة قبل القتال :

وذلك أنه قبل القتال بدأت مناظرة بين الفريقين حاول كل منهما فيها أن يثبت صحة موقفه ، فلقد أرسل خلف الى أبي عبيدة رسولين طلبا منه خلع الامام أفلح واثبات ولايته هو ، وكانت الحجة في ذلك أن حيز جبل نفوسة منقطع عن تاهرت . ويعرض أبو زكريا الأسانيد التي ارتكز عليها اتباع الامام أفلح في تفنيد حجج خلف وأتباعه على الوجه الآتي : فقد بدأ أبو عبيدة عبد الحميد بأن سأل رسولي خلف عما اذا كان الامام عبدالوهاب ثم ابنه أفلح قد أحدثا أمرا يحـــل به خلع ولايتهما ؟ واحتج لذلك بطـــاعة

---

(١٨٧) الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٣ - أ (المطبوع ، ص ٧٣) ، الشماخي ، ص ١٨٣ .

(١٨٨) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٧ - أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٣ - أ (المطبوع ، ص ٧٣) .

(١٨٩) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٧ - ب ، حيث يسجل أن رجال أبي عبيدة كانوا ٣١٣ رجلا وأن رجال خلف كانوا اربعة آلفا (وقارن الشماخي ، السير ص ١٨٦) . بينما يقول الدرجيني ان رجال عبد الحميد ربما بلغ سبعمائة رجلا وان رجال خلف كانوا ٤ آلاف فارس وهو ما رجحناه فأخذنا به (المخطوط ، ص ٣٣ ب ، المطبوع ، ص ٧٤) .

السمح اى والد خلف لعبد الوهاب • وعندما اعتل رسل خلف بالحورات وانقطاعها رد عليهم من جديد بطاعة السمح لعبد الوهاب رغم اختـــلاف الحوزات •

وعندما اجاب رسولا خلف بالخوف من اراقة الدماء ان لم يطع عبدالحميد خلفا ، سالهما : أيهما أعظم ، اراقة الدماء أو ترك القيام بدين الله ؟ ولما قالا له أن اراقة الدماء أعظم احتج عليهما باعمال السلف الصالح من رؤســـاء الخوارج ، وقال لهما : لو صح ذلك لافترق أصحاب النهر (النهروان) وغيرهم ، وذعنوا لطاعــة الظلمة المسودة ، وأصـحاب النخيلة ، وأبو بلال وأصحابه ، وعبد الله بن يحيى ، وأبو حمزة وأصحابهما ، من روادهم فى المشرق ، ثم أبو الخطاب ومن تبعه من المسلمين ، وأبو حاتم ومن تبعه من رؤسائهم فى المغرب • فكل أولئك لم يتركوا القيام بحق الله مخافة اهراق الدماء ، بل انهم حبذوا الجهاد فى سبيل الله وفضلوه • وأضاف عبد الحميد الى ذلك أنه اذا كانت أراقة الدماء أعظم من القيام بدين الله تعالى ، فعلى ما يقتلون الناس ؟(١٩٠) •

المباهلة بعد المناظرة :

وانتهت المناظرة فى يوم خميس دون الاتفاق ، وكان على السيف أن يقرر لمن يكون الحكم • فهكذا طلب أبو عبيدة عبد الحميد من الرسولين أن يرجعا الى صاحبهما ، وأن يكون الابتهال الى الله مرجعا ثانيا لهم قبل الالتجاء الى الحرب • وكان الابتهال ، كما قال لهما عبد الحميد ، يقتضى من الخصمين — خلف وعبد الحميد — الصيام يوم الجمعة ثم الطلوع مع أحد كبار أهل الثقة وهو أبو المنيب اسماعيل بن درار الغدامسى ، فكأنه الحكم ، على شعب الجبل : « فنبتهل ، فنجعل لعنة الله على الكاذبين ، وأن يفتح بيننا وبينكم ، وهو خير الفاتحين » (١٩١) •

وأغلب الظن أن المباهلة المقترحة لم تتم اذ تشير الرواية مباشرة الى استعداد خلف للقاء أبى عبيدة وأمره لرجاله بالتهيؤ لهذا اللقاء ، وأن أباعبيدة

---

(١٩٠) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٧ — ب ، وقارن الدرجينى المخطوط ، ص ٣٣ — ب (المطبوع ، ص ٧٥) •

(١٩١) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٨ — ب ، الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٤ — أ (المطبوع ، ص ٧٥) •

أمر رجاله عندما اقتربوا من خصومهم ـ بناء على نصيحة من أحد اصحاب خلف ـ بالتراجع الى سفح الجبل ليكونوا في موقع استراتيجي جيد ، حيث يمكنهم ان ينالوا من عدوهم اذا كانت الجولة لهم ، وليصبحوا في مأمن منهم لو دارت الدائرة عليهم • وعندما تراجع أصحاب أبي عبيدة الى سفح الجبل ظن خلف أنهم جبنوا وخافوا فأمر رجاله بالهجوم عليهم •

وهنا قام أبو عبيدة بالابتهال الى الله ، وبعد أن توضأ وصلى ركعتين ـ فدعا الله وابتهل اليه أن يفل شوكتهم(١٩٢) • وذلك قبل أن يرغب أصحابه في القتال ، ويدعو لمن يموت تائبا من العاملين الصالحين منهم (١٩٣) •

معركة اجناون ، وهزيمة خلف (٢٢١ هـ/٨٣٦م) :

وهكذا تم اللقاء غير بعيد من أجناون بالجبل ، كما يقول الشماخي (١٩٤)، عشية الخميس ١٣ من رجب عام ٢٢١ هـ/٤ يولية ٨٣٦ م ، وأصحاب أبي عبيدة يقاتلون للدفاع في سبيل الله ـ دفاع أهل البغي • وابلى القتال الشديد الذى أبلى فيه العباس بن أيوب بن العباس بلاء حسنا ، فكان يكشف خيل خلف يمينا وشمالا ، بانهزام أهل البغي من أصحاب خلف هزيمة منكرة ، بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة • ورغم بغى الخلفيين من النكار فقد أمر أبو عبيـــدة عبد الحميد رجاله بالا « يتبعوا مدبرهم ولا يجهزوا على جريحهم ، وأحسن السيرة فيهم (١٩٥) •

---

(١٩٢) ابو زكريا المخطوط ، ص ٢١ ـ ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٤ ـ أ (المطبوع ، ص ٧٥) •

(١٩٣) الشماخي ، السير ، ص ١٨٠ : حيث يقول انه دعا بالجنة لمن مات تائبا « الا من كان على فراش حرام او قتل نفسا ، أو غصب مالا » •

(١٩٤) السير ، ص ١٨٩ •

(١٩٥) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٨ ـ ب ، حيث تقول الرواية المنقبية أن العباس ابن أيوب ضرب رجلا فطار رأسه ، فقال العباس للرأس : « الى النار ، فقال له الرأس مجيبا وبئس المصير » • هذا ، كما تشير الرواية الى ان الرجل من اصحاب ابي عبيدة كان يرمى بالمزراق فيخرج من ظهر خصمه ويركز خلفه • وقارن الدرجيني ، المخطوط ص ٣٤ ـ أ (المطبوع ، ص ٧٦) •

خلف يهجر خصومه :

وهكذا عاد خلف مهزوما الى موضعه في تيمتى ، ولكنه بدلا من أن يتعظ من درس الهزيمة تمادى فى أعماله العدوانية ضد اتباع عبد الحميد وأفلح • فنقول رواية أبى زكريا انه أخرج من اقليم تيمتى من كان هناك من نفوسه وغيرهم ممن لم يكونوا متعاطفين معه ، « وأجل لهم ثلاثة أيام ، فمن وجد بعد ذلك فمهدور دمه وماله » ، لم يفرق فى ذلك بين اليتامى والمساكين والأرامل ومن ليس له ذنب » ، ممن أخرجوا على كره منهم • وصار هؤلاء يتوافدون على أبى عبيدة ويعلنون التوبة ويرجعون عن خلف ، الذى وهن بعد ذلك « حتى مات فى زيفه وغيه » ، وحتى ان ابنه اضطرّ الى الانحياز بأعوانه فيما بعد الى جزيرة جربة (١٩٦) • وبذلك انتهت قصة الافتراق الثانى ، وهو افتراق الخلفية ، فى امامة تاهرت الرستمية ، وتمكنت امامة أفلح الذى « ألقا بيده يمينا وشمالا ، وتمكن فى امامته واطردت له الأمور واستقامت له الأحوال » • أما أبو عبيدة عبد الحميد فقد ظل ملازما الطاعة الى أن ادركته منيته ، فاستعمل الامام أفلح مكانه ، على نفوسة ، العباس بن أيوب بن العباس الذى أحسن السيرة على سبيل أصحابه الى أن توفى (١٩٧) ، وكانت وفاته ايذانا بالانشقاق الثالث بين أباضية تاهرت •

النفاثية ، والافتراق الثالث فى الاباضية على عهد الامام أفلح :

تسمية النفاثية :

اذا كانت نفوسة وجبلها قد مثلت مركز الثقل فى امامة تاهرت الرستمية، فان مدينة قنطرارة وحيزها كانت بمثابة مركز الثقل فى جبل نفوسة (١٩٨) • وبسبب التنافس على ولاية اقليم قنطرارة كان الانشقاق الثالث بين الاباضية

---

(١٩٦) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٨ — ب ، ٢٩ — أ ، وقارن الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٤ — أ (المطبوع ، ص ٧٦) : الذى يذكر ان حفيد خلف هو الذى انحاز باعوان جده الى جربة حيث اقاموا بعيدين عن المشاركة فى امور الدولة الرستمية •

(١٩٧) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٩ — أ ، الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٤ — أ (المطبوع ، ص ٧٧) •

(١٩٨) انظر البارونى ، كتاب الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الاباضية ، قسم ٢ ص ١٩٦ — ١٩٧ : حيث يقرر المؤلف ان قنطرارة هى المدينة المعروفة حاليا بـ « تيجى » وكانت ذات عمارة واسعة وثمار متنوعة ، وعيون جارية فى ذلك العهد ، وان لم يبق فيها الآن الا قليل من النخيل وبعض العيون التى لا ينتفع بها •

على عهد الامام أفلح بن عبد الوهاب ، وهو الانشقاق الذى عرف أصحابه بالنفاثية نسبة الى نفاث ، وهو اسم الشهرة الذى عرف به قائد الحركة فرج ابن نصر النفوسى (١٩٩) • ومع أن البارونى يسجل اسمه فى شكل نفات ويقول انه ربما كان من القرية المعروفة الآن بنماته ، والتى ربما كان أهلها المالكية من سلالته (٢٠٠) ، فالواضح من النصوص أن أصحاب الامام أفلح هم الذين أطلقوا اسم نفاث على فرج : كلقب تجريحى ، كما فعلوا مع النكار ، وهو الاسم الذى يكاد يعادل اسم الخوارج الذى أطلق على أسلافهم الأوائل • واذا صح ذلك فأغلب الظن ان اسم نفاث مشتق من الفعل نفث ينفث ، والمقصود به هو نفث سموم الخلاف والفرقة •

نفاث : فرج بن نصر النفوسى : تكوينه العلمى :

وكان فرج بن نصر النفوسى ، الذى اشتهر بنفاث ، من علماء الاباضية المشهورين بغزارة العلم والاجتهاد وصواب الرأى • اعترف له بذلك خصومه من شيوخ المذهب ، وسجلوا الحقائق والاساطير حول علمه ورجاحة عقله وقوة فكره • فقالوا انه أخذ العلم عن الامام افلح نفسه (٢٠١) الذى كان قد طهر ببوغه قبل أن يبلغ الحلم • ونصوا على أنه لم يكن يكتفى بالعلم النظرى بل كان يسعى الى اثبات النظرية بالتجربة ، كما حدث عندما سألته امرأة عن بيضة طاهرة طبخت فى قدر مجوسى • « فدخل الدار فأخذ بيضة ونيلا ، وطبخها ، ونزع القشر فوجد النيل قد سود القشرة وتغير داخل البيضة حتى صار كلون النيل ، فعلم أن القشر لا يمنع النجس»(٢٠٢) •

هذا ، كما قيل انه سار الى المشرق ما بين الحجاز والعراق ـ لطلب العلم على شيوخ المذهب هناك ـ وأنه دخل بغداد ، حاضرة الخلافة ، وبلغ به الأمر الى حد أنه تحدى العلماء والفقهاء من بطانة أمير المؤمنين وناظرهم فى مجلسه، وأجاب على أسئلتهم ، « حتى عيوا فلم يقدروا له على شىء » ، وحتى« تعجب السلطان من علمه مع سخافته ونسبه وقلة أدبه ، وقال نعم العسل فى ظرف

---

(١٩٩) ابو زكريا ، ص ٢٩ ـ ب ، الدرجينى ، ص ٣٤ ـ أ (المطبوع ، ص ٧٧) •
(٢٠٠) الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ص ١٩٦ •
(٢٠١) ابو زكريا ، ص ٢٩ ـ أ (الدرجينى ، المطبوع ، ص ٧٨) •
(٢٠٢) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٠ ـ أ ، وقارن الدرجينى ص ٣٥ ـ ب (المطبوع ، ص ٧٩) •

سوء (٢٠٣) .

ديوان جابر بن زيد :

وكانت فرصة انتهزها نفاث لكى يسمح له الخليفة بنسخ ديوان جابر ابن زيد (٢٠٤) الذى كان محصورا فى خزائن دار الخلافة لا ينتفع به أحد (٢٠٥) .

أسباب دينية للخلاف :

وتشير الرواية الى أن نفاثا عندما وصل ومعه ديوان جابر الى طرابلس الغرب أخذ يضعف أهل مذهبه ، وساء ظنه بهم ، مما يؤكد أن رحلة المشرق قد كانت اكسبته من العلم مالم يكن معروفا لدى أهل المذهب فى المغرب ، وان ذلك كان من الأسباب الرئيسية للخلاف بينه وبين الامام أفلح . أما ما تقوله رواية ابى زكريا من أن نفاثا خاف أن يصير ديوان جابر الى أهل دعوة المسلمين ، فيزدادوا به علماً ، وانه فضل أن يدفن الديوان فى بعض المواضع ،

---

(٢٠٣) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٠ - أ ، ٣٠ - ب . حيث تقول الرواية ان نفاثا كان جالسا فى حانوت بعض البغداديين عندما سمع المنادى ، فقال له صاحب الحانوت : ان من أجاب لأمير المؤمنين مسألة فله سؤاله والا قطعت رأسه ، فأسرع نفاث على التقدم للاجابة ، وانه عندما أدخله الأعوان على أمير المؤمنين الذى قربه وسأله عن أحواله وبلده ونسبه بدأ نفاث كلامه قائلا : يا أمير المؤمنين ، انا رجل من البربر ، والبربر ليس معهم أدب فأريد ان اتكلم فى مجلسك بما بدى لى . وقارن الدرجينى ، ص ٣٦ - أ ، ٣٦ - ب (المطبوع ، ص ٨٠) .

(٢٠٤) عن جابر بن زيد الأزدي صاحب الديوان (٢١ هـ - ٩٦ هـ) الذى يعتبر من مؤسسى المذهب الاباضى وشيخ أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، انظر على يحيى معمر ، الاباضية فى موكب التاريخ ، ج ١ ص ١٤٣ - ١٥١ .

(٢٠٥) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٠ - ب ، ٣١ - آ . وتضيف الرواية ان وزراء الخليفة اعترضوا على السماح لنفاث بنسخ ديوان جابر وخروجه من دار الخلافة ، واستدلوا بذلك على علم نفاث وعقله وما سيصير اليه بعد أن ينسخ ديوان جابر ، وانهم فكروا فى حيلة تمنع من ذلك فعرضوا على نفاث أن يستعير الديوان لليلة واحدة عندما يريد . وواجه نفاث المأزق بأن اختار أطول ليالى السنة ، وبذل المال بسخاء لعدد كبير من الوراقين ، من : نساخ ومجلدين وأمدهم بالورق والحبر الكثير حتى نجحوا فعلا فى نسخ ديوان جابر فى تلك الليلة الا كتابا واحدا من العشرة كتب ، أبى عليه السلطان أن ينسخه ، ولكنه سمح له أن يقرأه مرة واحدة بين يديه ، كانت كافية لأن يحفظه نفاث عن ظهر قلب . وتضيف الرواية ان السلطان حاول أن يحتال على نفاث حتى لا يخرج بالديوان من بغداد عن طريق تعجيزه بالاجابة لعدد من المسائل ، ولكنهم لم يقدروا له على شىء ، ثم انه عرج على مكة قبل أن يأخذ طريق المغرب حتى يضللهم . وقارن الدرجينى ، ص ٣٦ - ب (المطبوع ، ص ٨١ - ٨٢) .

« وأنه لم يعرف موضعه الى يومنا هذا » ، وهذا كله بغيا وحسدا (٢٠٦) ، فالمقصود به تأكيد أن رحلة المشرق كانت بعد الافتراق ، وهو الامر الذى يجافى المنطلق السليم الذى يرجح أن الانشقاق كان بعد رحلة نفاث الى المشرق حيث تفقه فى المذهب ، ورأى أن ينشر اجتهاداته التى أشرنا اليها .

أسباب سياسية للخلاف :

ومع أن أبا زكريا يصح حياة نفاث العلمية الحافلة هذه عقب خلافه مع الامام أفلح ، الأمر الذى أدى الى ذلك الافتراق الثالث فى الاباضية بالمملكة الرستمية ، فالواضح أن أبا زكريا أراد بذلك ــ وهذا ما فعله أهل المذهب الذين نقلوا عنه ــ ان يجعل أساس الانشقاق الثالث سياسياً ، وان كان الافتراق قد أصبح مذهبيا . فهو يجعل المنافسة على ولاية قنطرارة والحاح نفاث فى الوصول الى منصب الوالى هى السبب فى ذلك الانشقاق . وفى ذلك ينص أن الامام أفلح كان قد استعمل على قنطـــرارة أبا يونس وسيم بن يونس النفوسى الذى أصلح ما كان يدور فى المنطقة الزراعية الغنية من افســـاد للزروع (٢٠٧) ، كما انه اشتد فى جمع الزكاة من مستحقى دفعها ، حيث أعلن أنه « لافرار من الصدقة » (٢٠٨) .

ولاية قنطرارة : منافسة بين نفاث وسعد بن وسيم :

وعندما توفى أبو يونس وسيم كان ابنه سعد يطلب العلم لدى الامام أفلح وبصحبته فرح بن نصر وهو نفاث . وعندما نظر أفلح فيمن يستعمله على قنطرارة ، فاختبر الناس وميرهم ، « وجد سعد بن يونس لامور المسلمين أصلح، ولأمور الدين أحسن ، ولحدود الله أصلب » . فكتب سجلاباستعماله ، ودفع السجل بعد ختمه الى سعد ونفاث ، ولم يبين لهما من العامل ، وأمرهما الا يفضا السجل الا فى قنطرارة . وخلال الطريق « استخف الشره وسوء الخلق وحب الرياسة » نفاثا ، « ففتش وراء الكتاب وفض خاتمه وقرأه » . واستاء

---

(٢٠٦) أبو زكريا ،المخطوط ، ص ٣١ ـ أ ، ٣١ ـ ب ، وقارن الدرجينى ص ٣٧ ـ أ (المطبوع ، ص ٨٢) .

(٢٠٧) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٩ ـ أ : حيث ينص على أن سبب خروج أبى يونس الى قنطرارة أن الخدم كن يحتطبن من اجنة الناس فاذا جاء المطر فى المواضع التى احتطبن منها فتتهدم الجسور من ذلك ـ وقارن الدرجينى ، ص ٣٤ ـ ب ، ٣٥ ـ أ (المطبوع ، ص ٧٧) .

(٢٠٨) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٩ ـ أ .

نفاث لأن الامام أفلح فضل عليه سعد بن وسيم لولاية قنطرارة : « فأضمر في قلبه الغش والعداوة » • وهكذا فرغم أن سعدا ولي قنطرارة فأحسن السيرة ، وقام بحق الله ، وأقام له منبرا وجمعه ، بمعنى أنه كان يؤم صلاة الجمعة ويدعو للامام أفلح في الخطبة ، فان نفاثا أظهر الطعن في الامام (٢٠٩) •

نفاث يطعن في الامام ويثير خلافات فقهية ، ما بين التقليد والتحديث :

والى هنا ورواية أبي زكريا تسجل أن سبب خلاف نفاث سياسي دنيوي من أجل ولاية قنطرارة • ولكنه يأتي بعد ذلك بأسباب أخرى ذات طبيعة فقهية مذهبية ترجح أن الخلاف كان دينيا من حيث الشكل على الأقل ، أو أنه صار هكذا • من ذلك ما ينسب الى نفاث من أنه قال في الامام أفلح: « أضاع أمور المسلمين ، ويزيد في الخلقة ويلبس الطرطور ، ويخرج الى الصيد ، ويطلي بالأسبر»(٢١٠) • مما يعني ان نفاثا كان متمسكا بسنن أهل الدعوة القديمة، وأنه كان ضد مظاهر التطور التي أخذ به الامام أفلح ، من التجديد في الزي وتقليد خلفاء بغداد وعمالهم في لبس القلانس ، والعناية بالملبس والمظهر ، وانفاق بعض الوقت في الرياضة والقنص • ثم تتسلسل الخلافات المذهبية والفقهية في عدد من المسائل التي يظهر فيها اجتهاد نفاث ، والتي انكرت عليه حتى تسبب بسبب بعضها الى الكفر •

فمن المسائل التي ابتدعها نفاث : زعمه أن خطبة الجمعة بدعة • ومن أخطرها فتواه بأن أبناء أخي الرجل من الأب والأم (أي الشقيق) أولى بوراثته من أخيه من الأب فقط • ويعلق أبو زكريا على هذه الفتوى ، فيقول : ان نفاثا زاد بها ضلالا ، وان المشايخ قالوا : « لو لم يفت الا هذه المسئلة لكفربها »(٢١١) •

---

(٢٠٩) أبو زكريا ، ص ٢٩ ـ ب ، وقارن الدرجيني ، ص ٣٥ ـ ا ، ٣٥ ـ ب (المطبوع ، ص ٧٨) •

(٢١٠) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٩ ـ ب ، وقارن الدرجيني ، ص ٣٥ ـ ب (المطبوع ، ص ٧٨) ، وانظر البارونى ، الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ص ١٩٨ : حيث يشرح « ويزيد في الخلقة » بمعنى أنه عظيم العمامة كبير الوجه طويل اللحية جدا ، كما يقرأ « ويصلي بالأشبر » من الدرجيني ، بدلا من « ويطلي بالأشبر » التي تشبه : ويصبغ شعره بالحناء •

(٢١١) أبو زكريا للمخطوط ، ص ٢٩ ـ ب ، وقارن الدرجيني ، ص ٣٥ ـ ب (المطبوع ، ص ٧٩) • ويذكر أبو زكريا بعد ذلك (ص ٣٠ ـ أ) بعض الروايات التي يدلل بها على ضلال نفاث ، فيقول ان ابن أخته رآه في المنام يحمل الشعير على رأسه ، وقد وضع عليه سنور وهو فوق رأسه ، ويفسر ذلك أن الشيطان استولى عليه وهو يجمع العلم ـ

وهكذا كانت شقة الخلاف المذهبي تتسع بين نفاث وأعوانه في جبل نفوسة وبين أصحاب الامام أفلح ، وعلى رأسهم سعد بن أبي يونس وسيم والي قنطرارة • واضطر سعد الى ترك مقر ولايته والخروج الى جبل نفوسة حيث مقام نفاث مخافة أن يضل الناس • وبنى سعد دارا بجبال نفاث . الذي كان بناء عظيما ، فاسرع لمعاونته في البناء • ويقول ابو زكريا أن سعدا خشى « ان يتوهم الناس أنه رضي عن نفاث فكان يقول له : الى متى نترك كفرك يانفاث ، فيقول له نفاث : معاد الله من الكفر ياشيخ » • وكان سعد يقول لأخصائه في ذلك : « ليس جزاء من يساعدني الشتم انما تخوفت الفتنة وجراؤه اللحم والخبز (٢١٢) •

ويضيف الباروني في الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية عددا من مسائل الخلاف التي أثارها نفاث ، منها قوله ان الله هو الدهر الدائم وانكاره استعمال للامام العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعيه ومطالب بيت مال المسلمين من الرعايا • وقوله أن المضطر بالجوع لا يعطى بيع ماله اذا باعه لأجل ذلك وعلى من شهد مضرته تنجيته وقوله ان العقد لا يتحقق الا ببعض تجاوز البحر الى غير ذلك من المسائل التي يتحل فيها الخلاف (٢١٣)

هذا كما يسجل الباروني ثلاث رسائل منسوبه الى الامام أفلح في حق نفاث وفي الرد على بدعه ومسائله • والأولى منها موجهة الى والي نفزوه وهو عيال بن يوسف ، يدعوه فيه الى تنبيه رعيته الى ضلال نفاث ويحذر من ترشده على مجالس أهل الدعوة حتى يرجع الى سنة المسلمين وذلك قبل الرد على ضلالته (٢١٤) • والرسالة الثانية التي لا يعرف اسم من أرسلت اليه من العمال ، وكان يشكو للامام من أعمال نفاث تشير الى ضلال نفاث وبدعه ومخالفته شريعة السلف الصالح والائمة المرضيين ، وتدعو الى اقامة الحق عليه وهجره وأبعاده (أي البراءة منه) ان تمادى في خلافه • ثم تنص الرسالة على أن من

كما يذكر ان ر ٪ اراد الدخول في مذهبه فلحقه في الطريق فسمعه ، وهو يقول : « ضللت واضللت يانفاث » • ويختم أبو زكريا بقوله ولما انه اعطى في العلم منزلة عظيمة والفقه والفهم . . ولكنه افسد ذلك كله بالحسد وحب الامور بمعنى ان أسباب الخلاف المذهبي كانت شخصية سياسية .

(٢١٢) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٩ — ب ، ٣٠ — أ ، وقارن الدرجيني ، ص ٣٥ — ب — ٣٦ — أ : (المطبوع ، ص ٨٨ م •

(٢١٣) الباروني ، الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ص ١٩٥ — ١٩٦ •

(٢١٤) الباروني ، الازهار ، قسم ٢ ص ١٩٩ — ٢٠١ •

ينكر شيئا على عامل من العمال فعليه أن يكتب بذلك الى الامام ، كما تنص على منع الوثوب على العمال(٢١٥) أما الرسالة الثالثة فقد وجهها الامام أفلح الى نفاث نفسه يحذره فيها من ابتداع غير الحق ، ويدعوه الى العودة الى الرشد ويكرر خلع كل من خالف سيرة المسلمين وتقيه وتحجره واقصائه ، وكذلك البراءة منه ، مع اشارة خاصة الى من يزعم أن عمال الامام أساقفة ، وأنهم لا طاعة لهم في حال كتمانهم ، وفي نهايتها يطلب من نفاث أن يعود الى حظيرة الجماعة ، وأن يترك المخالفة ، وما كان يطالب به من التصحيح ، الأمر الذي يقتضي أن يعلن أفلح توبته حتى يرضى عنه (٢١٦) •

ورغم ما يقوله الباروني ، من : أن نفاثا تاب ورجع عن مسائله التي خالف فيها « مستندا الى أنه لم يرو أحد أنه ذكر الامام أفلح بسوء أو تكلف لاثارة فتنة أو سعى في فساد ، وذلك بعد رجوعه من المشرق ، اذ استقامت الأمور لأفلح(٢١٧)» ، فالمعروف هو أن النفاثية ، مثلها مثل : النكارية والخلفية ، ظلت من الفـــرق المنشقة على المجتمع الاباضي الى ما بعد نهاية امامة تاهرت الرستمية • وفي ذلك يقول الدرجيني : انه : « لم يبق ببلادنا من يقول بقول نفاث ، وينصر حجته الا فريق من مطماطة ، فمنهم بالحمة ، ومنهم بالجبل ، واليه ينسبون ، فيقال لهم النفاثية »(٢١٨) •

ازدهار المملكة على عهد افلح ، وسياسة « فرق تسد » :

هكذا تكون الأمور قد استقرت للامام أفلح ـ رغم انشقاق الخلفية ثم النفاثية خلال ملكه الذى دام الى أكثر من نصف قرن (الى حوالى ٢٤٧ هـ/٨٦١م) حسب رواية كل من ابن الصغير وأبي زكريا • وخلال تلك المدة توطدت أمور المملكة في تاهرت ، وأغتنت القبائل حول تاهرت وتحضرت ، وبدأ يظهر فيها الفساد والبطر ، مما جعل الامام يخشى على مملكته ، كما يقول ابن الصغير ، حتى انه بدأ يطبق مبدأ « فرق تسد » بين القبائل كي يلهيها بالصراع فيما بينها ، حتى يظل محتفظا لنفسه بموقف الحكم •

---

(٢١٥) الباروني ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٤ •

(٢١٦) الباروني ، الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ •

(٢١٧) الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ، ص ٢١٠ •

(٢١٨) الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٧ ـ أ (المطبوع ، ص ٨٢ ـ حيث القراءة بالجنة بدلا من الحمة) •

وفى ذلك ينفرد ابن الصغير بالقول ان الامام أفلح « أرش بين لواتة وزناتة من جهة ، » وما بين لواتة ومطماطة » من جهة أخرى ، كما أثار المعرات بين الجند وبين العجم حتى تنافرت النفوس وقامت الحروب ، « وصارت كل قبيلة ملاطفة لافلح خوفا من أن يعين صاحبتها عليها (٢١٩) .

اعتقال ولى العهد أبى اليقظان محمد في بغداد الى وفاة المتوكل :

وبفضل تلك السياسة التى أدت الى انفاق حماس القبائل العسكرى فيما بينها اطمأن أفلح الى ملكه حتى نهاية عهده ، « فاستلقى على ظهره أمنا ومد يديه ورجليه مطمئنا وعلم أنه قد كفى أمرهم » . ولم ينغص عليه عيشه الا افتقاده لابنه الأكبر وولى عهده الأمير أبى اليقظان محمد الذى كان قد سار الى المشرق لأداء فريضة الحج ، وربما للتفقه أيضا على شيوخ المذهب هناك . اذ تقول الرواية أن رسل بنى العباس الوافدين فى قافلة الحج المغربية كشفوه فى مكة وأخبروا انه جاء لبث الدعاة فى المشرق فحمل الى دار السلام بغداد . وذلك على عهد الخليفة العباسى « المتوكل »(٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) على ما يظن . وحبس أبو اليقظان فى سجن المتوكل مكرما مع ابن الخليفة كما يقول ابن الصغير ، وظل فى الحبس الى مقتل المتوكل (سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١ م) حيث أخرجه الخليفة الجديد زميله فى السجن (٢٢٠) ، وهو المنتصر بن المتوكل (الذى لم يمكث فى الخلافة الا ستة أشهر فقط) الذى أحسن جائزته ، وأجرى عليه العطاء الى حين عودته الى تاهرت (٢٢١) . وكانت عودة أبى اليقظان الى تاهرت بعد وفاة والده أفلح الذى « اشتد حزنه عليه وطال غمه به فلم يزل مهموما محزونا الى أن وافته منيته (٢٢٢) . وكانت امامة تاهرت قد آلت الى أخيه أبى

---

(٢١٩) ابن الصغير ، ص ٢٧ .

(٢٢٠) ابن الصغير ، ص ٢٧ - ٢٨ (حيث القراءة فى النص انه سجن مع اخى الخليفة التى عدلناها الى ابن الخليفة) .

(٢٢١) أنظر ابن الصغير ، ص ٢٨ - ٣٠ . حيث تقول الرواية انه عندما سمح لابى اليقظان بالانصراف من بغداد طلب منه أهل الديوان أن يوصى لمن يقبض جاريته التى بلغت ١٢٠ درهما يوميا ، لئلا يذهب رسمه من دفاتر ديوان الخلافة ويمحو ذكره . وعرض أبو اليقظان على خادمه النفوسى أن يقيم فى بغداد ويقبض جارية الـ ١٢٠ درهما يوميا ، ولكن الخادم رفض ، وطلب اعطاءها الى الخياط الذى كان يجلس عنده ويشاوره فى أمر أبى اليقظان وهو فى السجن . ويضيف ابن الصغير قائلا . وكان النفوسى بعد ذلك بتاهرت اذا كربه أمر أو نزل به ضيق ، يقول لأبى اليقظان . لم اقبل منك ، ولو قبلت لكان العشرون والمائة درهم اعود على مما انا فيه .

(٢٢٢) ابن الصغير ، ص ٣٠ .

بكر الذى كان مميزاً بين أبناء أفلح بعد أبى اليقظان محمد •

ابو بكر بن افلح (امام تاهرت الرابع) : ٢٤٧ هـ = ٨٦١ م/٢٦٠ هـ = ٨٧٣م)

اختياره : ما بين الرضى والكراهية :

رغم ما يقوله ابن الصغير من أنه عندما وافت أفلحا منيته : « اجتمعت الاباضية فلم يصيبوا فى أولاد أفلح ، اذ فقدوا أبا اليقظان ، أرجح عندهم من ولده أبى بكر (٢٢٣) ، فالواضح من تكملة الرواية أن مسالة اجتماع الاباضية للمشاورة فى اختيار الامام كانت شكلية ، وان زعماء نفوسة كان بيدهم مقاليد الأمور حقيقة ، وكانوا يولون من يقع اختيارهم عليه من أبناء الامام الراحل • هذا ما يفهم من نص ابن الصغير أيضا الذى يقول انه عندما قدم الناس أبا بكر ابن أفلح ، بعد وفاة والده « كان عبد العزيز بن الأوز ينادى باعلى صوته الله سائلكم معاشر نفوسة اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ، ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه اليهم فيختارون من هو أتقى وارضى ، فلا يلتفتون الى كلامه ولا يشتغلون بمقالته (٢٢٤) • ومن الممكن أن يكون المقصود بهذا الكلام هو المطالبة بتطبيق مبدأ الاختيار بشكل عام ، كما يمكن أن يكون احتجاجا خاصا بالنسبة لاختيار أبى بكر بمعرفة نفوسة (٢٢٥) •

وقد يرجح فكرة أن أبا بكر بن أفلح لم يكن الامام المنشود ، ما يذكره ابن الصغير من أنه « لم تكن فيه من الشدة فى دينه ما كان فيمن كان قبله من آبائه » أو ما نضيفه من أنه « كان سمحا جوادا لين العريكة ويسامح أهل المروات ويشايع على مرواتهم ويحب الآداب والأشعار وأخبار الماضين »(٢٢٦) • وهو الأمر المقبول بالنسبة للامامة الرستمية السائرة فى طريق التطور والرقى مما لا يجعل أمر المقارنة بين صفات الائمة الاوائل وخلفائهم المتأخرين خير موازين المفاضلة بينهم • هذا ، ولو أن ما وقع من الأحداث فى امامة أبى بكر لتدل فعلا على لين الامام وتساهله فى أمور السياسة والحكم •

---

(٢٢٣) ابن الصغير ، ص ٣٠ •

(٢٢٤) ابن الصغير ، ص ٣١ •

(٢٢٥) وهذا ما أخذ به البارونى فى الأزهار الرياضية (قسم ٢ ص ٢٢٢) اذ فسر النص قائلا : « ولما تم أمر البيعة وأعلن للعامة أنكر بعض الناس ذلك [illegible] أهل نفوسة ، وعابوا نفوسة باستقلالهم بهذا الأمر واختصاصهم به ثم سكتوا » •

(٢٢٦) ابن الصغير ، ص ٣١ •

غلبة محمد بن عرفة على أبي بكر :

وأول ما تشير اليه النصوص في هذا المقام هو غلبة صهره محمد بن عرفة على أمور الدولة . والذى يفهم من تلك النصوص أن محمد بن عرفة هذا كان يتمتع بصفات عظيمة جعلته فى مصاف رجال تاهرت المرموقين ، منذ أيام الامام أفلح الذى أوفده بهدية من قبله على ملك السودان فحاز رضاه ، وأعجب بفروسيته وحسن خصاله وجماله . والظاهر أن الجمال الباهر لم يكن وحده أهم تلك الصفات ، فقد كان ابن عرفة يتمتع أيضا بالوسامة والجود والسماحة الى جانب الهيبة والفروسية وحسن الأفعال . ولم يكن من الغريب على الامام أبى بكر ، الذى عرف بسماحته ولين عريكته أن يقدر للجمال والوسامة قدرهما . فتزوج أخت ابن عرفة وكلف بها ، كما زوج هذا الأخير أخته هو فى المقابل .

وأصبح محمد بن عرفة أقرب المقربين الى الامام أبى بكر حتى أصبح أشبه بما نسميه الآن بالمثل الشخصى للرئيس أو الملك . ولا شك أن رابطة النسب ساعدت على تقوية أواصر القربى بين أبى بكر وابن عرفة ، حتى كان الأخير يستطيع الدخول على الامام فى أى وقت يشاء ، وفى أى مكان كان دون موعد سابق أو اذن ، حتى انتهى الأمر ، كما يقول ابن الصغير ، الى أن : « كانت الامارة بالاسم لابى بكر ، وبالحقيقة لمحمد بن عرفة (٢٢٧) .

عودة أبي اليقظان محمد بن افلح :

تأثره بالنظم البغدادية :

فى هذه الظروف عاد الى تاهرت أبو اليقظان محمد بن افلح عقب مقتل المتوكل (أى قبيل سنة ٢٥٠ هـ/٨٦٤ م) ، وبعد أن عركته تجربة السجن فى دار الخلافة ، وتقرب من ولى العهد المنتصر الذى آلت اليه الخلافة ، وصار على دراية بالنظم الادارية والعسكرية المتقدمة فى بغداد . من ذلك ما رآه من اجراء الرزق اليومى على أهل الوجاهة وأعيان الناس من ديوان الخلافة ، وامكان التوصية بهذا العطاء الجارى لمن يريده صاحب الشان . ومن ذلك ترتيب الجيش فى طبقات من النقباء يتلو بعضهم بعضا ، وكل رجل من الطبقة الأعلى

---

(٢٢٧) اخبار الأئمة الرستميين ، ص ٣١ ، ٣٣ . ويضيف الى ذلك ان محمد بن عرفة « كان اذا ركب من داره يريد ابا بكر مشى بين يديه ومن خلفه ومن يمينه ومن يساره أمم من الأمم ، وشرفت بذلك الرستمية وغارت به » .

يرأس عشرة رجال من الطبقة التى تليه حتى أن القواد العشرة الكبار يمكنهم جمع عشرة آلاف فارس خلال يوم واحد ، وهو الأمر الذى لم يكد ابو اليقظان يصدقه لولا أن عاينه بنفسه فى صحن قصر الخلافة (٢٢٨) .

اعترافه بالأمر الواقع وامامة اخيه ابى بكر :

وهكذا ، رغم ما عرف به أبو اليقظان من انه كان أكثر أبناء أفلح أهلية للامامة ، ورغم التجارب التى حنكته فى المشرق وفى دار السلام ، حتى قيل أن القوم هناك أطلقوه لانهم عرفوا أن ستكون له دولة فى المغرب ، كما قيل انه بلغ النهاية والغاية فى العلوم وخاصة علم النجامة (٢٢٩) ، فانه عندما رجع الى تاهرت وعرف بوفاة والده وولاية أخيه أبى بكر قبل الأمر الواقع ، فلم يغير شيئا ولم ينكره ، ولا أدعى امارة ولا نازع فيها أخاه ، بل أظهر القيام له والجيسة بين يديه (٢٣٠) .

أبو اليقظان نائبا للامام فى الحكم او وزيرا :

ولما كان الامام أبو بكر يحب اللذات ويميل الى الشهوات ، كما يقول ابن الصغير فانه « استعان بأخيه أبى اليقظان محمد فى الحكم فعهد اليه بالنظر فى أمور تاهرت وأحوازها » . وأظهر أبو اليقظان ما كان يتمتع به من الكفاية فى شئون الادارة بالاضافة الى ما اكتسبه من أدب المشرق ، والأخذ بالحزم فيما رآه من ولاية بنى العباس وسيرهم (٢٣١) . وهكذا ، فبينما كان أبو بكر معتكفا فى دار الامارة كان أبو اليقظان يجول فى المدينة ، ويركب الى أعلى مسجد فيها ، حيث يجلس للنظر فى شئون الناس وحوله العمال والقضاة وأصحاب الشرطة وينظر فى ذلك نظرا شافيا ، ويجرى الحق على الكبير والصغير حتى حمد له « الشراة » ذلك ، حسب رواية ابن الصغير ، وحمد له أخوه فعله .

وفى آخر النهار كان يأتى باب أخيه أبى بكر ، « فان وجده جالسا دخل عليه وأعلمه بما حدث فى يومه من خبر وحكم » ، وان لقيه مشتغلا طلب من

---

(٢٢٨) ابن الصغير ، ص ٢٨ — ٣٠ .

(٢٢٩) انظر ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣١ ، وفى ذلك تقول الرواية انه احتال على علماء بغداد عندما أزمع العودة الى المغرب فدخل فى قصعة ملأها ماء حتى انهم عندما حاولوا تتبعه وحسبوا الوقت الذى يخرج فيه من بغداد وجدوه فى الماء فقالوا انه يشتغل بالبحث فانصرفوا عنه .

(٢٣٠) ابن الصغير ، ص ٣٢ .

(٢٣١) ابن الصغير ، ص ٣٢ .

حجابه أن يبلغوه ما عليه المدينة من هدوء وسلام . ولم يزل أبو اليقظان مجتهدا في شغله ليلا ونهارا « حتى جلب قلوب الناس » (٢٣٢) .

الصراع بين محمد بن عرفة وبين أبي اليقظان :

وبذلك آلت أمور الامام أبي بكر الى نائبيه القويين : محمد بن عرفة صهره، ومحمد أبي اليقظان أخيه الأكبر ، وكان من الطبيعي أن ينتهي الأمر بصراع خفي — في أول الأمر — بين الشخصيتين العارمتين ، قبل أن ينقلب الى نزاع علني تكون له آثاره السيئة في المملكة الرستمية . ويلقي ابن الصغير بتبعة انفجار الموقف المتأزم على صهر أبي بكر عندما يقول : ان محمد بن عرفة كان مشغولا بما كان فيه من « دوي وصيت عال ، لا ينظر أبا اليقظان في حزبه ولا في طائفته ولا في الناحية التي هو بها ، ولا ينظر بهيبة له أو اجلال أو حذر منه » . هذا ، وبينما كان أبو اليقظان وعمومته وأخوته لا يصلون الى أبي بكر الا بعد الاستئذان ، كان محمد بن عرفة لا يحجبه عن الوصول اليه حاجب .

الرستميون يتربصون بابن عرفة ، ويحرضون الامام على التخلص منه :

وهكذا أخذ أبو اليقظان وقرابته يتربصون بمحمد بن عرفة ، ويترقبون له الفلتات الى أن نجحوا في اثارة أبي بكر عليه عندما خوفوه من سلطانه وما صار يتمتع به من هيبة بين الناس كادت تطمس هيبتهم للامام نفسه(٢٣٣) . وعندئذ أخذ أبو بكر يراقب صهره ، وما يتمتع به من حول وسلطة حتى تأكد له الأمر ، وهاله ما رأى من سلطان أبي عرفة فدبر مقتله غدرا عندما دعاه الى خلوة في بعض متنزهاته ، واغرى أحد خدمه بقتل الرجل طعنا بالرمح بين كتفيه ، وهو يتهيأ لرفع يديه بالتكبير لأداء صلاة المغرب (٢٣٤) .

---

(٢٣٢) ابن الصغير ، ص ٣٢ — ٣٣ .

(٢٣٣) ابن الصغير ، ص ٣٣ — وتضيف الرواية هنا انه قيل ان الذي سعى في دم ابن عرفة وتكلم في حقه كان أبو اليقظان وحده . وانظر تلخيص الدرجيني ص ٧ ح ١ (المطبوع ، ص ٨٣) .

(٢٣٤) ابن الصغير ، ص ٣٤ — ٣٥ — هذا ويشير ابن الصغير بعد ذلك الى ان ابا بكر علم بعد فوات الأوان أن الحسد والبغي اداهم الى ما اداهم لا النصيحة . ولكنه ندم ما كان قد عزم عليه ، ومحمد بن عرفة في ذلك كله أسلم الناس صدرا وأكبرهم له حبا .

أصداء مقتل ابن عرفة :

ورغم احكام الجريمة ومحاولة طمس معالمها فقد نجح أهل محمد بن عرفة وأصحابه فى كشف خباياها ، فعرفوا الموضع الذى قتل فيه والمكان الجبلى البعيد الذى القيت الجثة فيه • وكان للنبأ أصداء محزنة بين العامة والخاصة والنساء والصبيان فى تاهرت ممن كانوا يعرفون لمحمد بن عرفة أياديه البيضاء عليهم ، اذ « لحق الناس من الجزع مالم يلحقهم فى قتيل قبله » • وهكذا ، فبمجرد أن نادى المنادى : « الا أن القتيل المظلوم يأمركم بطلب ثأره ودمه » ، حتى هاجت الفتنة بتاهرت (٢٣٥) • وكان محرك الثورة رجلا يعرف بمحمود بن الوليد الذى انتهز الفرصة ، فصعد الى أعلى موضع بالمدينة يعرف بالكنيسة ، « فضرب الطبل فبادر الناس اليه ، وأمرهم بأخذ السلاح والزحف الى أبى بكر »(٢٣٦) •

وعندما بلغت أبا بكر أنباء ثورة العامة ضده بادر باستنفار أعوانه ، من السمحيين (٢٣٧) ولرستميين وغيرهم • وهكذا تجمع الثوار من العامة فى أعلى المدينة من ناحية الشرق بينما حشد أبو بكر أعوانه وشيعته فى جهة الغرب ، واستعد كل فريق للحرب بالدروع تقى الصدور والبيض فوق الرؤس ، وكان لكل جماعة راياتها المميزة ترفرف فوق رؤسها • وزحف أبو بكر برجاله نحو الثوار وتم اللقاء الذى شارك فيه معظم أهل تاهرت قرب أحد المساجد • وكانت ملحمة مروعة صبر الناس فيها حتى تطايرت أيدى المقاتلة وأرجلهم وانقلعت هاماتهم ، وعندما تعبوا من الضرب تماسكوا بالايدى وتقاذفوا بالسباب (٢٣٨) •

أطراف الصراع : العجم ، والعرب ، ونفوسة :

ولما بلغ القتل والتعب غايته تطور الأمور بتدخل جماعة يسميها ابن الصغير بـ « العجم » ، والمقصود بهم الفرس من أعوان الرستميين الأوائل .

---

(٢٣٥) ابن الصغير ، ص ٣٥ — ٣٦ •

(٢٣٦) ابن الصغير ، ص ٣٦ •

(٢٣٧) القراءة فى ابن الصغير (ص ٣٦) المسيحيين ، وهو الأمر الذى يصعب فهمه فى مجتمع الاباضية بتاهرت والذى ادى اليه تسمية ذلك الموضع بـ « الكنيسة » على ما نظن ، اما السمحيين فهى قراءة البارونى (الرياض قسم ٢ ص ٢٣١) التى اخذنا بها نسبة الى ابى الخطاب السمح بن عبد الأعلى ، وهو الأمر المقبول •

(٢٣٨) ابن الصغير ، ص ٣٦ — ٣٧ •

ومن بنى جلدتهم . كما يمكن أن يكون الفرس أيضا من سلالة الجند الأغلبى الذى هجر أفريقية الى تاهرت،وقد يكون النص على أنه فى أثناء القتال بين العرب والعجم قبض العرب على مولى من موالى الأغلب يقال له حلف الخادم(٢٣٩) قرينة على ذلك .

ومع أن المفهوم من رواية ابن الصغير أن العجم أو الفرس أرادوا استغلال الموقف لمصلحتهم الخاصة ، فلا بأس من أن يكون هؤلاء العجم، الذين لم يدخلوا فى الصراع الا بعد أن انهكت قوى الفريقين المتحاربين ، من المتعاطفين مع الأمير أبى اليقظان محمد وأعوانه ، اذ تقول الرواية : ان أبا اليقظان اعتزل الفريقين ، كما وعد نفوسة ، التى بقيت معتزلة عن الفريقين أيضا . ومن الواضح أن النفوسيين كانوا من أعوان أبى اليقظان ، هذا كما يشير النص الى أن العرب ، وهو الاسم الذى صار يطلق على المتحاربين الأوائل من أنصار أبى بكر وخصومه من العامة ، كانوا لا يثقون فى حياد أبى اليقظان ويقولون : انه يعين عليهم فى الباطن . وهذا ما أكدته الأحداث فيما بعد عندما انضم النفوسيون الى جانب العجم .

ومنذ تدخل العجم اندمج المتحاربون من عامة التاهرتيين وأعوان أبى بكر، الذى بقى فى داره لا يأمر ولا ينهى وقد تشاءم الناس به ، جبهة واحدة تصبح جبهة العرب والجند من انصار أبى بكر ، فى مقابل جبهة العجم التى تعمل لمصلحتها الخاصة . وذلك قبل أن تظهر جبهة ثالثة هى جبهة نفوسه : أنصار أبى اليقظان الصرحاء .

شريط الأحداث :

ولقد دارت أحداث الصراع على الوجه التالى ، حسب رواية ابن الصغير :

العجم يعملون لأنفسهم :

اراد العجم انتهاز فرصة تعب المتقاتلين من العامة وأعوان أبى بكر من الجند ، فظنوا أنه يمكنهم القضاء على العرب والجند ومواليهم وأتباعهم واخراب ديارهم ، وبذلك يصفو لهم البلد والسلطان . وبدأ العجم فى التمركز فى بعض أطراف تاهرت استعدادا للهجوم على الناحية المعروفة بموقف الدوّاب ،

---

(٢٣٩) ابن الصغير ، ص ٣٧ .

ولكن لسوء حظهم فان أهل تلك الناحية كانوا يتوجسون منهم خيفة ، فاستعدوا لهم وأخذوا حذرهم . فما أن وافاهم العجم حتى بدروا اليهم وقاتلوهم قتالا شديدا . وكان غدر العجم بالجماعتين المتقاتلتين من الجند والعرب سببا فى تلاحمهما : اذ تركوا قتال بعضهم وتعانقوا ، ثم انهم قاموا بأجمعهم قومة رجل واحد ضد العجم ، فقتلوا كثيرا منهم ، كما أخذوا بعض الأسرى (٢٤٠) .

يوم حربة : وتحالف نفوسة مع العجم :

واستمرت الحرب بين أنصار أبى بكر من الجند والعرب وبين العجم ، وكان العرب يضغطون على العجم ، ويخرجونهم من بعض ديارهم فى حال انتصارهم . وظل الحال على هذا المنوال الى أن وقعت المعركة المعروفة بـ « يوم حربة » فى جوار درب النفوسيين فى تاهرت . ففى هذا اليوم استمع العرب الى نصيحة خلف الخادم ، وهو المولى الأغلبى الذى كان يحارب فى عداد العجم قبل أن يقع أسيرا فى أيدى العرب فيعاون أنصار الامام أبى بكر بماله ونصائحه ، بأن لايكتفوا باخراج العجم من ديارهم ، بل أن يطلقوا النار فى كل ما يغلبون عليه منها(٢٤١) . وهكذا فعندما استولى الجند والعرب على موضع العجم المجاور لدرب النفوسيين ، أضرموا النار فيه مما تسبب فى الاضرار ببعض النفوسيين المقيمين هناك . وكان هذا الحادث سببا فى تحالف نفوسة مع العجم ، بعد أن وقفوا موقف الحياد ، ولم يكن من الغريب أن يجذبوا الى جانبهم الأمير أبا اليقظان ، وكان النفوسيون أخلص حلفائه .

انتهاء الحياد : انشقاق الأسرة الرستمية : العرب فى صف أبى بكر والعجم ونفوسة فى صف أبى اليقظان :

وهكذا شاركت جميع الأطراف فى فتنة محمد بن عرفة ولم يعد هناك متحاربون ومحايدون ، اذ كون المتحاربون الأوائل من الجند والعامة من العرب جبهة مؤيدة للامام أبى بكر ، بينما انضم المحايدون من العجم ونفوسة وبعض الرستمية وكونوا جبهة مؤيدة للامير أبى اليقظان . وبذلك انشقت الأسرة الرستمية على نفسها ودارت الحرب الأهلية باسم أفرادها .

وفى بداية الأمر حقق العجم ونفوسة انتصارات قوية على الجند والعرب

---

(٢٤٠) ابن الصغير ، ص ٣٧ .

(٢٤١) ابن الصغير ، ص ٣٧ .

فی عدد من الوقائع ، مثل وقعة قنطرة الدمس ، وقنطرة سنيس حيث هزم صناديد العرب ، وانتهى الأمر بغلبة العجم ونفوسه على أكثر تاهرت بعدأن ردوا خصومهم الى أطرافها • وبعد ذلك دارت الدائرة على العجم ونفوسة منذ حقق الجند والعرب انتصارهم الكبير فى الوقعة المعروفة « بيوم الرد المعوج » حيث : « ذكر أن نفوسة فروا بعضها على بعض »(٢٤٢) ، مما جعلهم يقررون فيما بعد أن يشدوا أرحلهم فيما بينهم بالحبال ، حتى يثبتوا فلا يفروا من أمكنتهم ولو قطعت السيوف هاماتهم(٢٤٣) •

تفوق العرب على العجم ونفوسة . وحرب الحصون :

واستمرت فتنة ابن عرفة « وأمور العرب والجند تقوى ، وأمور العجم ونفوسه تضعف » ، الى أن انتهى الأمر باجلائهم عن ديارهم التى اضرمت فيها النيران فى أحواز تاهرت ، باستثناء موضع واحد فى ناحية النهر الصغير المعروف بعدوة نفوسة حيث بنوا لهم حصنا قويا • وفى مقابل حصن عدوة نفوسة بنى العرب والجند حصناً لهم بأموال قدمها لهم من كان فى حيزهم من التجار ، مثل : أبى محمد الصيرفى ، وابن الواسطى ، وغيرهما من وجوه التجار أصحاب الأموال • ويشير ابن الصغير الى أنه لم يكن يفصل بين الحصنين الا مقدار رمية سهم ، وأنه « ربما كان البناءون يبنون والنبل تصيبهم فيجعلون لهم ستاره ، حتى استدار الحصن وركبوا أبوابه وعلته أبرجته ، والحرب لا تعتر ليلا ولا نهاراً ، وحميت فيما بينهم حمية الجاهلية ، وجرت بينهم الحرب سمعة ورياء » (٢٤٤) • ومن أبطال حصن عدوة نفوسة رجل من العجم يعرف بابن وردة كان مبارزا من الطراز الممتاز حتى طبقت شهرته الآفاق(٢٤٥) • وأغلب الظن أن ابن وردة هذا هو صاحب السوق فى تاهرت الذى كان لا يدخله عمال الامام من المحتسبين ، كما سبقت الاشارة (٢٤٦) •

تفرق الأخوة المتناحرين فى البلاد :

خروج أبى بكر من تاهرت ، ونزول أبى اليقظان فى كنف لواتة :

وانتهت فتنة ابن عرفة بتفرق العجم ونفوسة والرستميين فى أقاصى

---

(٢٤٢) ابن الصغير ، ص ٣٨

(٢٤٣) ابن الصغير ، ص ٣٨ •

(٢٤٤) ابن الصغير ، ص ٣٨ ـ ٣٩ •

(٢٤٥) ابن الصغير ، ص ٣٩ •

(٢٤٦) أنظر فيما سبق ، ص ٣٤٢ •

البلاد ، على الوجه الآتى : نزلت العجم بموضع يقال له « تنابغيلت » ، وهو على بعد مرحلتين من مدينة تاهرت اما الرستمية ومن انضاف اليهم ، فقد لحقوا بالأمير أبى اليقظان محمد بالموضع الذى يقال له « اسكدال » ، وهو بقبلة تاهرت على مسيرة يوم وأزيد قليلا فى مجمع الاباضية . هذا ، ونزلت تفوسة بقلعة مانعة تعرف الى اليوم بقلعة نفوسة . وعندما نزل محمد بن مسالة تاهرت خرج منها الامام أبو بكر مع من خرج « لا حيا ولا ميتا » ، كما يقول النص (٢٤٧) ، مما يعنى انه لم يعرف مآله .؟

ولم تزل أمور الناس فى تاهرت هادئة الى أن وقعت الوحشة بين قبائل هوارة وقبائل لواتة . وذلك أن قبائل لواتة كانت من بين سكان تاهرت عندما أتت هوارة وتسلطت على لواتة بمعونة أهل المدينة . وعندئذ رأت لواتة أن ترحل عن تاهرت فخلت عنها ، ونزلت بحصنها المعروف بحصن لواتة ، ومن هناك ارسلت الى أبى اليقظان تدعوه الى الاقامة معها ، فنزل فى جوارهم على مسيرة أميال بموضع يقال له « تساونت » ، وهو الموضع الذى يخرج منه عيون نهر مينة الذى يجرى من قبلة تاهرت حيث تنصب عليه الأرحاء .

نشاط أبى اليقظان فى شراء الأعوان : والاعداد لغزو تاهرت على محمد بن مسالـــة :

وواضح من رواية ابن الصغير أن الأمير أبى اليقظان محمد أخذ فى استخدام بريق الذهب لجذب الأنصار ، بعد أن انتهت الفتنة التى شارك فى تدبيرها بهاية لا ندرى فى مصلحة من كانت . فابو بكر ترك تاهرت الى حيث لا ندرى ، وأبو اليقظان نزل بالقرب من لواتة . ومن مقره فى جنوب تاهرت أخذ أبو اليقظان يستخدم ما كان معه من الأموال التى قدم بها من بغداد ، اذ كان كثير من أهل تاهرت متعاطفين معه ولم يكن يلزمهم للحركة واتخاذ جانبه صراحة الا التلويح لهم بالذهب والفضة ، وهذا ما حدث فعلا : « اذ صارت الدعوة والامامة كلها لابى اليقظان » (٢٤٨) . ولكن الأمر لم يصف تماما لأبى اليقظان اذ ظل لمحمد بن مسالة كثير من الأعوان فى تاهرت ، يوالونه ولا يرون رأى أبى اليقظان لأسباب لم يعلمها ابن الصغير . وبذلك عادت الحرب من جديد على تاهرت اذ أعد أبو اليقظان العدة لغزو المدينة بعد أن اسقط

---

(٢٤٧) ابن الصغير ، ص ٣٩ .

(٢٤٨) ابن الصغير ، ص ٤٠ .

الدعوة لأبي بكر - الذى لا نعرف ماذا صار اليه أمره - كما أنكر أمر محمد بن مسالة ، ودعا لنفسه بالامارة والامامة(٢٤٩) .

أبو اليقظان اماما ، بعد حرب السبع سنوات وخراب تاهرت :

واستمرت الحرب بين أبي اليقظان والتاهرتيين طوال سبع سنوات قاست منها المدينة كثيرا من الأهوال حتى خربت وعادت عجوزا شمطاء بعد أن فقدت بهجتها ونضارتها . ولما طالت الحرب وامتنعت تاهرت على أبي اليقظان اتجه نحو نفوسة في حبلهم وطلب منهم العون وتجديد البيعة (٢٥٠) .

شروط الصلح :

واستجابت نفوسة لطلب أبي اليقظان فبعثوا اليه جموعا من رجالهم سار بهم لنزال تاهرت التي هاجمها من جهة الغرب . وطلب النفوسيون انذار اخوانهم في تاهرت قبل قتالهم ، ودعوهم الى الرجوع الى الطاعة ، قبل أن ينزلوا معهم على حكم الله ، وهو حكم السيف . ووافق خصوم أبي اليقظان في تاهرت على الصلح شريطة أن يؤمنهم أبو اليقظان ، وأن يسوغهم ما أصابوا من دم أو مال فلا يتبع أحدا منهم . ووافق أبو اليقظان على هذا الشرط فتم عقد الصلح بين أهل تاهرت وعسكره ، وفي ذلك قالت نفوسة : « نحن انما جئنا لاصلاح بيضتنا ، وتأليف أمرنا وقوام ديننا ، ولم نأت بطلب علو في الأرض ولا فساد » (٢٥١) .

الأثر المشرقي في بلاط أبي اليقظان :

والظاهر أن رحلة أبي اليقظان الى المشرق واقامته في بغداد عاصمة الخلافة العباسية كان لها أثر عميق في نفوس الناس . يظهر ذلك في احاطة كتاب الاباضية للامام الجديد بهالة من الجلال والعظمة التي لم يتسن لغيره التمتع بمثلها ، باستثناء نفاث بن نصر صاحب الانشقاق الثالث في الاباضية . فابن الصغير ينص على أن مراسم الصلح بين أبي اليقظان وأهل تاهرت تمت في السرادق العظيم الذي كان أبو اليقظـــان قد أتى به من بغداد ، والذي ضربه في ظاهر تاهرت في الموضع المشرف على المدينة ، الذي عرف بقلعة

---

(٢٤٩) ابن الصغير ، ص ٤٠ .
(٢٥٠) ابن الصغير ، ص ٤٠ .
(٢٥١) ابن الصغير ، ص ٤٠ - ٤١ .

نفوسة . وكان هذا السرادق أول سرادق مضروب يراه أهل المنطقة ، اذ كانت لهم مضارب وقباب يقيمونها في مثل تلك المناسبة (٢٥٢) .

تاهرت تنفض عن نفسها غبار الحرب :

وبتمام الصلح بدأت تاهرت تنفض عن نفسها غبار أيام الحرب والمعاناة ، فقام أهل المدينة وهدموا بقايا دار أبي اليقظان التي « كانت مزبلة وكدية من الكدا ، فكنسوها في يومهم فابتنوها في أسرع الايام » وبذلك تهيأ لأبي اليقظان النزول في المدينة حيث بدأ يمارس سلطانه ، كما نزلها الناس (٢٥٣) .

امامة أبي اليقظان محمد بن افلح في تاهرت (٢٦٠ هـ — ٢٨١ هـ/٨٧٣ م — ٨٩٤م) :

مع امامة أبي اليقظان تأخذ رواية ابن الصغير شكل المذكرات اليومية الخاصة ، أو طابع أحاديث المعاصر شاهد العيان . فمؤرخنا عاش شابا الايام الأخيرة من امارة أبي اليقظان في تاهرت ، وسمحت له الظروف بحضور مجلسه مرتين على الأقل (٢٥٤) . واذا كان ابن الصغير يسجل أن امامة أبي اليقظان دامت نحوا من ٤٠ (أربعين) سنة (٢٥٥) ، وان وفاته كانت في سنة ٢٨١هـ/ ٩٤ — ٨٩٥ م (٢٥٦) ، يكون وصول أبي اليقظان الى الامامة في نحو سنة ٢٤٠هـ/٩٥٤ م ، وهو الأمر غير المقبول ، اذ المفروض أن وصوله من بغداد كان بعد سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١م (٢٥٧) . وبناء على ذلك ، فاذا أخذنا سنة ٢٨١ هـ/٩٤ — ٨٩٥ م كتاريخ لوفاة أبي اليقظان — وهو الأمر المقبول — لا تطول امامة أبي اليقظان الى أكثر من ثلاثين سنة اذا أدخلنا في الحساب

---

(٢٥٢) ابن الصغير ، ص ٤١ .

(٢٥٣) ابن الصغير ، ص ٤١ ، وقارن أبو زكريا (المخطوط ص ٣١ — ب) الذي يقول عن امامة أبي اليقظان : « انه اجتمع عليه عامة المسلمين فولوه على أنفسهم دون اختلاف » .

(٢٥٤) ابن الصغير ، ص ٤٤ : حيث يقول : وقد لحقت أنا بعض أيامه وحضرت مجلسه وقد جلس للناس خارج المسجد الجامع .... ورأيته يوما ثانيا في مصلى الجنائز .

(٢٥٥) ابن الصغير ، ص ٤٤ ، أبو زكريا ، ص ٣١ — ب ، الدرجيني ، ص ٣٧ — أ (المطبوع ، ص ٨٣) ، الشماخي ، ص ٢٢٢ .

(٢٥٦) ابن الصغير ، ص ٤٩ .

(٢٥٧) أنظر فيما سبق ، ص ٣٥٤ .

تلك الفترة التي استولى فيها على زمام الأمور الى جانب ابن عرفة ، أو الى وقت انفجار فتنة ابن عرفة وحرب السبع سنوات . أما اذا اعتبرنا امامة أبي اليقظان الحقيقية ، أي بعد الصلح مع أهل تاهرت ، فمن الواضح انها لا تطول الى أكثر من عشرين سنة ، وهذا ما حملنا نتخذ سنة ٢٦٠ هـ/٨٧٣م كتاريخ لامامة أبي اليقظان الخالصة - دون منازع .

وأبو اليقظان الشيخ الذي كان يناهز التسعين من عمره عندما رآه ابن الصغير ، كان مربع القامة ، أبيض الرأس واللحية ، وكان اذا جلس حيمت هيبته على الحضور فلا ينطق أحد بين يديه الا أن يكون صاحب ظلامة (٢٥٨) .

دولة نفوسية في تاهرت :

ترتيب الدولة ، وتقدم نفوسة :

وكان أول ما بدأ به أبو اليقظان عندما استقر في تاهرت ، هو اقرار قواعد الدولة بانتخاب خير الأعوان والعمال . وكان أول شيء نظر فيه من أمور الناس في تاهرت ، هو البحث في أصلح من يلي وظيفة القضاء . وبعد أن شاور جماعة من أعيان المدينة استقر رأيه على أن يكون أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ قاضيا ، ثم انه ولى على بيت المال رجلا من نفوسة . أما في امامة الصلاة وخطبة الجمعة فقد قدم لها من ارتضاه هو نفسه (٢٥٩) ، مما يعني أن اختيار القاضي وصاحب بيت المال كان محددا في نفوسة أو مشروطا بموافقتها .

اهمية الحسبة :

وهذا ما يؤكده أن أبا اليقظان « أمر قوما من نفوسة يمشون في الأسواق فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، مما يعني ان النفوسيين كانوا أقرب أعوان الامام . ويشير ابن الصغير الى بعض اختصاصات هؤلاء المحتسبين من نفوسة ، كأن يروا قصابا ينفخ في شاة فيعاقبونه ، أو أن يروا دابة حملت فوق طاقتها فينزلون حملها ، ويأمرون صاحبها بالتخفيف عنها ، أو أن يروا

---

(٢٥٨) ابن الصغير ، ص ٤٤ .
(٢٥٩) ابن الصغير ، ص ٤٦ .

قذرا في الطريق فيأمرون من حول الموضع أن يكنسه وينظفه (٢٦٠) .

وإلى جانب هذه الأعمال الخاصة بآداب الأسواق والطريق العام ، يشير ابن الصغير الى بعض أعمالهم المذهبية ، ومنها : انهم كانوا « لا يمنعون أحدا من الصلاة في مساجدهم ، ولا يكشفون عن حالة ولو رأوه رافعا يديه ، ماخلا المسجد الجامع : ان رأوا فيه من رفع يديه منعوه وزجروه ، فان عـــاد ضربوه » . أما عن خطب الجمعة على منابرهم ، فيقول : إنها « خطب أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، ما خلا خطبة التحكيم »(٢٦١) التي كانـــوا ينكرونها .

قضاء لا يفرق بين الأمير والرعية :

تلك كانت نظم الحكم في تاهرت على عهد ابي اليقظان ، وكانت أهم الخطط هي خطة القضاء التي ظل يشغلها محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ الذي عرف بحسن السيرة وبانه لا تأخذه في الله لومة لائم ، الى أن استعفى عندما نما اليه سوء سيرة الأمير أبي زكريا بن أبي اليقظان ، فسار الى الامام، « فرمى اليه خاتمة وقمطره ، فقال له : ول على قضائك من تريد »(٢٦٢) .

امام يعيد سيرة الراشدين من ائمة الرستميين :

ولم تنقص هذه الحادثة التعسة التي أدت الى استقالة القاضي الحازم من تقدير ابن الصغير لأبي اليقظان ــ الذي لحق بعض ايامه وحضر مجلسه مرتين ــ

---

(٢٦٠) ابن الصغير ، ص ٤١ .

(٢٦١) ابن الصغير ، ص ٤٢ .

(٢٦٢) انظر ابن الصغير ، ص ٤٢ : حيث تشير الرواية الى جانب سعي الحاسدين الذين اعربوا عن سرورهم عندما قال القـــاضي لهم : « والله لا وليت له قضـــاء ابدا » ان ابن الصغير استطاع ان يعرف حقيقة القضية من سليمان مولى محمد بن عبد الله القاضي وعونه . ويتلخص الامر في ان امرأة دقت باب القاضي ليلا (بعد العشاء الأخيرة) ومعها غلام صقلي يحمل لها سراجا ، واخبرت القاضي ان خدام الأمير ابي زكريا دخلوا عليها الساعة وأخذوا ابنتها من بين يديها ، وان ابنها خاف متابعتهم خشية القتل من قبـــل بعض عمالهم او لص من لصوصهم . وعندما افاق القاضي الذي سقط كالمغشي عليه ، امر مولاه سليمان بتقلد سيف وحمل سراج بينما اخذ هو عصاه وسار الى ــ دار الزكاة حيث اشتبهت المرأة في ان يكون الجناة قد لجأوا اليها . وهناك لاحظ القاضي ارتياع أهل الدار الذين سمحوا بتفتيشها، . ورغم انه لم يجد شيئا فان شكوكه زادت عندما سأل عن ابن الأمير ابي زكريا وعرف انه كان في الدار اثناء النهار ، وانه ركب فرسه لما أتى الليل .

اذ يقول : انه « كان زاهدا ، ورعا ، ناسكا ، سكينا (٢٦٣) • اما أبو زكريا فيقول عن أبى اليقظان أنه « بلغ فى العدل والفضل غاية عظيمة » ، وان نفوسة كانت « لا تعدل بولايته الا ولاية جده عبد الرحمن » ، فقد كانت « نفوسة تجعل باب داره كالمسجد يسهرون حوله : طائفة يصلون ، وطائفة يقرأون القرآن ، وطائفة يتحدثون فى فنون العلم (٢٦٤) •

مجلس أبى اليقظان ، فى الجامع :

وفى مجلس أبى اليقظان ينص ابن الصغير على أنه « كان اذا جلس فى المسجد الجامع جلس على وسادة من أدم مستقبل الباب البحرى وله سارية تعرف به يجلس اليها ، ولم يكن غيره يجلس اليها • وكان يقابله نصب عينيه رجل من نفوسة يعرف بعيسى بن فرناس ، وكان عندهم من الورع بمكان • ويلى عيسى رجل من هوارة يقال له ابن الصغير لشأنه فى الفقه ، ولم يكن فى ورع عيسى • وكان عن يمينه وعن يساره وبين يديه وجوه الناس»(٢٦٥) •

والى جانب العلماء من نفوسة وهوارة ، « كان أخص الناس به رجل من العرب يعرفون بمحمود بن بكر »(٢٦٦) • ولكنه على عكس ما سبق أن أشار اليه ابن الصغير من أن خطب الرستميين على عهد ابى اليقظان كانت خطب على بن أبى طالب ماخلا خطبة التحكيم (٢٦٧) ، فانه ينص هنا على أن محمود بن بكر « كان غاليا فيهم ، تذكر عنه البراءة من أمير المؤمنين على بن أبى طالب » • وكان محمود هذا « مدارهم الذى يذب عن بيضتهم ، ويدافع عن دينهم ، ويرد على الفرق مقالاتهم ، ويؤلف الكتب فى الرد على مخالفيهم(٢٦٨) •

تاهرت تعود مركزا علميا مرموقا : ازدهار علم الكلام :

والظاهر أن سوق العلم كانت قد نفقت فى تاهرت بعد فترة الاضطراب التى عرفتها العاصمة الرستمية على عهد أبى بكر ؛ وفى السنوات الأولى

---

(٢٦٣) ابن الصغير ، ص ٤٤ •

(٢٦٤) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣١ — ب ، الدرجينى ، ص ٣٧ — أ (المطبوع ، ص ٨٣) •

(٢٦٥) ابن الصغير ، ص ٤٤ •

(٢٦٦) ابن الصغير ، ص ٤٤ •

(٢٦٧) انظر فيما سبق ، ص ٣٦٧ ، وفيما بعد ، ص ٣٨١ •

(٢٦٨) ابن الصغير ، ص ٤٤ •

من عهد أبى اليقظان • فهذا ما يفهم من المناظرات التى كانت تقام بين الاباضية وخصومهم النكار الذين عرفوا بالمعتزلة ، والتى كانت تعقد بنهر مينة ، وكان يحضرها علماء الرستميين من مختلف القبائل ، وخاصة من هوارة • ومن بين متكلمى الرستميين يذكر ابن الصغير رجلا يقال له عبد الله بن اللمطى ، وكان خبيرا بفنون المنطق وعلم الكلام بدرجة أثارت اعجاب خصومه المتخصصين فى هذا اللون من فنون الفلسفة (٢٦٩) الذى كان غريبا على الكثيرين من علماء المغرب فى ذلك الحين (٢٧٠) •

أبو عبيدة الأعرج - نموذج للعالم الآمر بالمعروف :

وكان من علمائهم الذين رآهم ابن الصغير رجل يعرف بابى عبيدة الأعرج : « كلهم مقرون له بالفضل معترفون له بالعلم مسلمون له فى الورع ، اذا اختلفوا فى أمر من الفقه أو من الكلام صدروا عن رأيه » • وكان أبو عبيدة الأعرج معتزا بنفسه ، قليل الدخول على أبى اليقظان ، ولم يكن يجمعه واياه سوى المسجد الجامع • وكانت عادة الفقهاء والقراء وغيرهم الخروج الى أبى اليقظان عندما يضرب سرادقه لحدث يريده فيضربون أبنيتهم حول سرادقه خلا أبى عبيدة ، الذى لم يكن يدخل على أبى اليقظان الا من أجل أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، مثل : طلب اطلاق محبوس من جيرانه أخذه صاحب حرس الامام وسجنه لغير ذنب يستحق ذلك ، مما كان يثير «عجب الناس من صدقه وتركه التصنع ، واظهاره على لسانه ما أسر فى قلبه (٢٧١) •

وكان أبو عبيدة الاعرج عالما بالفقه والكلام والوثائق والنحو واللغة • وكان مع ديانته حسن الادب والمروة ، حتى ان ابن الصغير المالكى : كان يترك دكانه الذى كان يبيع فيه ويشترى فى حى الرمادنة ليقرأ عليه فى اللغة والنحو • ولو أنه لم يستفد كثيرا من العالم الذى كان كثير الشغل ، اذ كان الناس يأتونه كثيرا يطلبونه للشهادة أكثر من مرة فى الجلسة الواحدة ، فيأخذ

---

(٢٦٩) انظر ابن الصغير ، ص ٤٤ - ٤٥ : حيث يورد نماذج من الأسئلة التى دارت فى مجلس المناظرة ، مثل : هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه الى مكان لست فيه ، وكان رد اللمطى لا • ومثل : هل تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه الى مكان لست فيه ، وكان رد اللمطى : اذا شئت ، مما جعل سائله يقول له : « خرجت منها يابن اللمطى » •

(٢٧٠) وقارن مجلس زيادة الله الاغلبى للمناظرة بين الاربسى - الذى حضره الخطيب البغدادى او اسحق الاسرائيلى ، فيما سبق ، ص ١٧١ •

(٢٧١) ابن الصغير ، ص ٤٥ •

نعله وعصاه ويسير معهم ، دون أن ينسى الاستئذان من طالبه ؛ الذى كان قد لفت نظره الى أنه يترك مصالحه من أجل العلم (٢٧٢) . ويؤكد ابن الصغير : ان المغرب كله «كان مفتونا بهذا الرجل حتى ان من كان من الاباضية بسجلماسة يبعثون اليه بزكاتهم يصرفها حيث شاء »(٢٧٣) .

مهدى خارجى — افتتان نفوسة بأبى اليقظان :

ويختتم ابن الصغير كلامه فى عهد ابى اليقظان بالحديث فى مناقب هذا الامام فهو يعود الى تأكيد افتتان قبائل نفوسة الجبل بأبى اليقظان ، ويبالغ فى ذلك الى حد القول : ان نفوسة «اقامته فى دينها ، وتحليلها وتحريمها ، مثل ما أقامت النصارى عيسى بن مريم » ، وهو الامر الذى لم يسجله مؤرخو الرستميين من أهل المذهب . ويتبع ذلك بالقول : « وكان أكثرهم لا يحج الا باستئذانه ، وكانت المرأة تبعث بابنها أو ابنتها يأخذ لها الاذن منه . وكان اذا ضرب سرادقه وأتته وفودهم لا ينامون الليل حول فسطاطه ، شأنهم التهليل والتكبير من أول الليل حتى الفجر ، فاذا صلوا الفجر معه خرجوا بأنفسهم الى الأرض فناموا »(٢٧٤) .

وهكذا لم يكن من الغريب ان يكون النفوسيون عصب دولة أبى اليقظان ، وان يطيعوه طاعة لم يطيعوا مثلها غيره من الائمة ، حتى انهم عندما كانوا يأتونه ليقدم عليهم أميرا من أنفسهم ، كان يسمح باختيار من يريد ، ويأمر كاتبه بتدوين السجل المعتاد ويطويه ويختمه (يطبعه) ، ويطلب منهم الا يفتحوا السجل الا بالجبل ، دون أن يعلم أحدا من الناس من المقدم عليهم ، حتى من كبار اخصائه النفوسيين المقيمين معه فى تاهرت ، مثل : حمود بن بكر ، وعيسى بن فرناس (٢٧٥) .

وحق لنفوسة أن تفتتن بالامام الورع المتقشف الذى كان لا يسمح لخادمه بأن يقدم علفا لفرسه من بيت المال وقد جن الليل وعز الطلب ، فيقول له :

---

(٢٧٢) ابن الصغير ، ص ٤٦ .

(٢٧٣) ابن الصغير ، ص ٤٦ .

(٢٧٤) ابن الصغير ، ص ٤٦ — ٤٧ .

(٢٧٥) ابن الصغير ، ص ٤٧ : حيث يقول ان احد فقهائهم ، وهو عبد العزيز بن الاوز الذى — رغم علمه والفقه — كان شكيه اللسان خفيف العقل عرف من اختاره أبو اليقظان لولاية جبل نفوسة بالفراسة ، وذلك بما بدا على وجه الامام عندما ذكر له اسم افلح بن العباس (ابن يعقوب بن العباس) الذى وقع عليه الاختيار بين اسماء غيره من المرشحين .

« والله لاقام محمد (أبو اليقظان) ولا آكل ولا شرب حتى تمضي وترد في بيت المال ما أخذته منه »(٢٧٦) .

نهاية ناسك : وفاة أبي اليقظان :

ولم يكن من الغريب اذن ان يموت الامام المتقشف في سنة ٢٨١ هـ/ ٨٩٤ م ، بعد أكثر من عشرين سنة من الامامة ، فلا يوجد له من العين في تركته الا سبعة عشر دينارا (٢٧٧) . ولا بأس من أن تكون تلك الدنانير التي لم تبلغ العشرين هي قيمة الكتب التي وجدت عنده ، والتي كانت من تاليفه في الرد على المخالفين ، كما يفهم من رواية أبي زكريا (٢٧٨) .

وخلف أبو اليقظان عددا من الأبناء الذكور ، منهم : يقظان ابنه الاكبر الذي كني باسمه ، ويوسف وهو المكنى بأبي حاتم ، وأبو خالد ، وعبدالوهاب ، ووهب ، وغيرهم ممن يشير اليهم ابن الصغير دون أن يذكر اسمائهم . وكانت الامامة من بعده من نصيب أبي حاتم يوسف وهو ثاني أبنائه .

امام من طراز جديد : « نقيب » للعامة وأهل الحرف :

أبو حاتم يوسف بن محمد أبي اليقظان امام تاهرت الخامس (٢٨١ هـ - ٢٩٤ هـ/٨٩٤ - ٩٠٧م) :

يبرر ابن الصغير ولاية يوسف وتقدمه على أخيه الاكبر يقظان ، بأن هذا الأخير كان قد خرج لاداء فريضة الحج عندما توفي والده(٢٧٩) ، مما يعني أنه لم يكن من الممكن ترك الامامة شاغرة لحين عودة يقظان . ولكن الروايات المكملة لذلك يمكن أن يفهم منها أن أباحاتم يوسف كان نشيطا طموحا يرنو بأبصاره الى الامارة منذ حياة والده . وهكذا نجد رواية تقول : « لما مات أبو اليقظان قامت العوام ، وأهل الحرف ومن لف لفهم ، فقدموا ابنه اباحاتم بلا مشورة أحد من الناس لا من القبائل ولا من غيرهم »(٢٨٠) . بينما تقول

---

(٢٧٦) ابن الصغير ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢٧٧) ابن الصغير ، ص ٤٩ .

(٢٧٨) انظر ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٦ ب - حيث يقول ان قيمتها بلغت ١٩ (تسعة عشر) دينارا .

(٢٧٩) ابن الصغير ، ص ٤٩ .

(٢٨٠) ابن الصغير ، ص ٤٩ .

اخرى : ان أبا حاتم كان فتى شابا معتزا بنفسه ، يجمع الفتيــان حوله فيطعمهم ويكسيهم ، وان أمه « غزالة » التى كانت مسيطرة على أبى اليقظان كانت تدلله ، حتى انه انتهز فرصة غياب والده عن المصلى فى يوم عيد وسمح للعوام بأن يحملوه على درقة وهم ينادون بطاعته ، مما جعل أبو اليقظان يقول لامه : احذرى يا غزالة فقد أصبح اليوم ابنك باغياء(٢٨١) . فكان أبا حاتم كان يشتاق الى الامارة ، ويعمل على الوصول اليها منذ صباه ٠

والظاهر ان ابا حاتم لم يكن شابا وصوليا ، بل كان جدا مجتهدا حتى ان والده كان يعهد اليه بالنيابة عنه فى الأمور العظيمة ، مثل : قيادة الجيوش. فعندما توفى أبو اليقظان لم يكن يقظان وحده غائبا فى الحج ، بل كان أبو حاتم يوسف أيضا خارج تاهرت يقود جيشا من وجوه زناتة « ليحوزوا قوافل قد اقبلت من المشرق ، وفيها أموال لا تحصى ، قد خافوا من قبائل زناتة »(٢٨٢) ٠ وبينما أبو حاتم فى مهمة القوافل تلك ، اذ وافته رسل من تاهرت تفيده بوفاة أبيه وعقد الامارة له ٠ « وذلك ان اباه لما مات اجتمعت العوام والفرسان دون القبائل فنادوا لا طاعة لأحد الا لأبى حاتم » ، وكان أبو حاتم حينئذ على مسيرة يومين المدينة أو أكثر (٢٨٣) ٠ وواضح من النص ان اباحاتم قوبل فى تاهرت بتظاهره شعبية عظيمة ، اذ : « لما وصل الى باب المدينة ازدحم الناس بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه وعن يساره ، فبايعوا ، فما وصل المسجد الجامع الا وقت الظهر ، فاصعدوه المنبر وبايعوه وكبّروا حوله وحملوه على الأيدى والأعناق حتى أوصلوه الى داره ، ثم أرسلوا الى القبائل فبايعته »(٢٨٤) ٠

تراتيب جديدة تناسب شعبية الأمير ، واتجاهات غير اباضية فى علاقاته مع الآخرين :

وظهرت شعبية أبى حاتم التى اكتسبها أيام فتوته عندما حاول أهل بيته ووجوه الرستمية « ان يجعلوا له حجابا وهيبة ، وأبت العوام من ذلك ، وأرادت الدنو اليه فى كل الأوقات على ما كانت تعرف قبل امارته »(٢٨٥) ٠ وهذا الأمر يكون مقبولا فعلا اذا عرفنا ان عقد البيعة لابى حاتم تم بمعرفة

---

(٢٨١) ابن الصغير ، ص ٤٩ — ٥٠ ٠
(٢٨٢) ابن الصغير ، ص ٥٠ ٠
(٢٨٣) ابن الصغير ، ص ٥٠ ٠
(٢٨٤) ابن الصغير ، ص ٥٠ ٠
(٢٨٥) ابن الصغير ، ص ٥٠ ٠

رجلين من خاصيته من أهل الحرب والنجدة ، هما : محمد بن رباح ، ومحمد ابن حماد اللذان عرف عنهما من الجرأة ما بلغ حد ان اقترحا ذات يوم على أبى حاتم ، عندما شكا لهما من والده الذى نازعه فى بعض أشياء ، أن يخلى بينهما وبين والده فيقتلانه ويصير الامر إليه ، مما أثار الهلع فى قلبه (٢٨٦)٠ وفى علاقاته القوية بغير أهل المذهب وبالعوام . يقول ابن الصغير أن بعض مشايخ تاهرت من غير الاباضية كانوا قد استولوا عليه ، مثل الفقيهين الكوفيين : أبى مسعود وأبى ذنون ، وكانا على مذاهب الكوفيين فى الفقه « علويين أو معتزلة ؟) ، ومثل علوان بن علوان الذى لم يكن من أهل الفقه ، ولكن كانت له رياسة فى البلد ، ومحبة عند العوام ٠ والغريب ان ابن الصغير المالكى هو الذى يشير الى أن تلك الجماعة كانت تهدف الى الكيد للاباضية ، ويطمعون به فى القضاء على مذهبهم ، وأن يكن غدرا ٠ وهو الامر الذى لا نجد أصداء له عند كتابهم ، مع انه كان يمثل مرحلة تطور غريبة فى تاريخ تاهرت الرستمية ، تنذر باضمحلال المذهب الاباضى قبل ظهور الفاطميين ٠

انهيار حلف المتناقضات :

فالتجاء مذهب الكوفيين العراقى الى تاهرت ، كما يشير ابن الصغير ، بل وجود ابن الصغير نفسه وهو المالكى المذهب فى عاصمة الرستميين ، الى جانب تدخل العامة فى شئون الإمارة بتشجيع ابى حاتم ، كل ذلك يمثل قرائن مقبولة توضح أن المذهب الاباضى لم يعد كافيا للاستجابة الى متطلبات مجتمع تاهرت ، وانه كان يتآكل داخليا قبل ان يواجه المذهب الفاطمى آتيا من الخارج ، وانه لم يعد كافيا وحده - كما كان الحال من قبل - لكى يشد اركان الدولة الرستمية ٠ وهكذا تكون امارة أبى حاتم بن أبى اليقظان قد حملت بذور ضعفها فى ثنايا بدايتها ٠ وذلك ان محمد بن رباح ومحمد بن حماد ، اللذين كانا من خاصة ابى حاتم ، كما عرفا بالحرب والنجدة والجرأة الزائدة ، بدأ يسيئان السيرة ، ويهددان بعض مشايخ تاهرت ، مما أثار الأمير أبى حاتم فأمر باخراجهما من المدينة ٠٠

فتنة القتال بتاهرت :

ولما كان لمحمد بن حماد منزل عظيم على مسافة أميال من تاهرت يعرف بـ « الثلث » فيه انواع الاشجار والمزارع والنخل ، وتجرى فيه الانهار بين

---

(٢٨٦) ابن الصغير ، ص ٥٦ ٠

القصور - فان الرجلين خرجا جميعا الى ذلك المنزل حيث عاشا ، كما يقول ابن الصغير « حتى انعم عيش وارغده »(٢٨٧) • والظاهر أن الرجلين الفاتكين ساءهما ان يكون جزاءهما النفي من قبل أبي حاتم بعد ما قدماه اليه من الخدمات قبل ان يصل الى الامارة ، « فأخذا في الاتصال باتباعهما ، في المدينة : يشكوان كيف ينفيان من المدينة بلا جناية » • ونجح تدبير الرجلين في العودة الى تاهرت » على رضا الراضي وسخط الساخط ، فما شعر أبو حاتم الا والتكبير عليهما في المدينة ، ففزع لذلك وارتاع ، وعلم أنها (تاهرت) ليست بدار قرار »(٢٨٨) •

أبو حاتم يلجأ الى حمى لواتة :

هكذا وجد أبو حاتم نفسه غريبا في عاصمة مملكته ، فجمع أهل بيته وشاورهم في الأمر ، وتم الاتفاق على أن يخرج الرستمية من تاهرت لكي يعتصموا في حصنهم الذي كانت به مواشيهم وعبيدهم ، وهو حصن يعرف بنماليت . وكان يقع في طرف أرض لواتة حيث كان يمكنهم جمع لواتة وغيرها من القبائل ، وحينئذ يدعونه للخروج اليهم • وعندما خرجت الرستمية من تاهرت تبعهم العجم الساكنين بتاهرت فخرجوا الى حصنهم ، كما فعلت نفوسة ، بدورها ، مثل ذلك • ولم يلبث أبو حاتم في المدينة الا أياما قليلة بعد ذلك ، ثم انه خرج في نحو مائة رجل من وجوه أعوانه من السمحيين ومن حماة البلد ، وعلى رأسهم مقدما كل جماعة ، وهما بكرى ابن يبيدى وبكر بن عبد الواحد ، وكانا فارسي الغرب في ذلك الزمان (٢٨٩) •

محاولة استعادة تاهرت بالقوة :

وبذلك تمت القطيعة مرة أخرى بين تاهرت التي بقي فيها العامة ومشايخ البلد في جمع عظيم وبين الرستميين ومن معهم من العجم ونفوسة ولواتة وغيرها من القبائل ، وأخذ كل من الطرفين يستعد للحرب المنتظرة • فلقد أسرع عامة تاهرت في بنيان حصنهم وترميم ما تصدع منه ، بينما اجتمعت لواتة على أبي حاتم فأعطاهم الأموال وحملهم على الخيل . كما وفدت عليه قبائل الصحراء ، لم يتخلف منهم الا أهل حصن تالغمت : لأنهم كانوا من

---

(٢٨٧) ابن الصغير ، ص ٥١ •
(٢٨٨) ابن الصغير ، ص ٥١ - ٥٢ •
(٢٨٩) ابن الصغير ، ص ٥٢ •

الصفرية . وعندما أتم أبو حاتم استعداده قسم قواته الى ثلاثة جيوش هاجم بها تاهرت من ثلاثة مواضع . هي

١ - القبلة حيث تولى القيادة بنفسه ، ومعه لواتة والرستمية ومن شايعهم .

٢ - المشرق حيث تقدم العجم ومعهم صنهاجه ومن شايعهم .

٣ - المغرب حيث احتشدت نفوسة مع طوائف من الناس .

وكانت نتيجة القتال الأول على الجبهات الثلاث فى غير صالح أهل تاهرت الذين فقدوا بعض القتلى فى مواجهة لواتة فى القبلة ، وفى مواجهة العجم فى المشرق ، بينما لم يصب لهم أحد من جهة المغرب حيث نفوسة (٢٩٠) .

ورغم أنه من الواضح أن القتال الذى وصف بالشدة لم يكن حاسما فان الأمور تطورت من جراء ذيوله فى داخل تاهرت بشكل جعل أهل المدينة يفضلون الاتفاق مع أبى حاتم على مواصلتهم القتال الذى رأوه عقيما لا يؤدى الى الغرض منه . وذلك ان ابن رجل قتله العجم فى ناحية المشرق ثار برجل من العجم من سكان المدينة فقتله غيلة أخذا بثأر والده . وعندما علم التاهرتيون بذلك بادروا اليه ليقتلوه به ، فولى هاربا فلم يقدروا عليه ، ولم يعرفوا له مكانا . وثارت ثائرة أهل المدينة الذين اجتمعوا فقالوا : « نحن انما قمنا لمحاربة هؤلاء القوم لنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، واذا كان يقتل بين ظهرانينا رجل بغير حق ، فامضوا بنا الى أبى حاتم لندخله يقتل هذا وأشياعه ، ويحكم فيمن بقى كيف يشاء »(٢٩١) .

الانقسام فى صفوف الرستميين : يعقوب بن أفلح امرا منافسا لأبى حاتم :

وهكذا فشل التاهرتيون ومشايخهم فى اقامة الحكم المثالى الذى كانوا يحلمون به بعيدا عن تسلط الرستميين ، وأرسلوا بما استقر عليه رأيهم الى أبى حاتم الذى اشترط عليهم الا يدخل المدينة الا بعد أن يدفعوا اليه بمشايخهم والمسئولين عن اثارة تلك الفتنة . ورغم أن هذا الشرط كان سببا فى تجدد

---

(٢٩٠) ابن الصغير ، ص ٥٢ .

(٢٩١) ابن الصغير ، ص ٥٢ - ٥٣ .

القتال الا أن وجوه أهل تاهرت رأوا إلا قبل لهم بمواصلة القتال ضد تحالف القبائل والاباضية الذين كلبوا عليهم ، ورموهم عن قوس واحد · ثم ان المشايخ رأوا أن خير وسيلة لدفع خصومهم هي أن يبحثوا لأنفسهم عن رئيس من الرستميين « ينحل مذاهب الإباضية » · ووقع اختيارهم فعلا على يعقوب ابن أفلح ، وكان على غير اتفاق مع ابن أخيه أبي حاتم حتى أنه رحل منذ ولايته عن تاهرت ، ونزل بزواغة « فلم يدخل للرستمية جمعا ، ولا أعان ابن أخيه برأى ولا غير ذلك »(٢٩٢) ·

فشل الاسرة الرستمية وانشقاقها : الصراع بين الطالبين بالامامة :

ولما تم اجماع أهل المدينة على ولاية يعقوب بن أفلح ارسلوا اليه وادخلوه المدينة حيث عقدوا له الولاية ، وبذلك تحقق لهم ما كانوا يأملون فيه من شرخ الوحدة الرستمية · فبمجرد اعلان امارة يعقوب بن أفلح انكسرت شوكة الاباضية ، كما يقرر ابن الصغير ، « ودخل عليه جماعة منهم ورجعت اليه جماعة من لواتة ، وبقيت الحرب متماسكة بين يعقوب بن أفلح وابن اخيه أبي حاتم » · وهكذا تكون الاسرة الرستمية قد انقسمت على نفسها في سبيل الحكم ، وكان ذلك يعني استمرار الحرب وان كانت قد ضعفت عن ذي قبل وانكسرت حدتها (٢٩٣) ·

فشل ابي حاتم في دخول تاهرت :

ولكنه رغم ما أصاب أبا حاتم من الضعف فانه ظل متمتعا بولاء جمهور الاباضية : وكان يمكنه أن يناجز تاهرت القتال وأن يزحف عليها · وأمر يعقوب بن افلح باغلاق أبواب المدينة الا بابا واحدا ، وقف هو عليه بجمهور الناس للدفاع · ويصف ابن الصغير قتال الاخوة غير المرغوب فيه ، فيقول : ان الناس ظلوا يواجهون بعضهم بعضا الى أن حضرت صلاة الظهر ، فأذن المؤذنون في مصافهم ذلك · وصلى الناس صلاتهم ثم أخذوا ينظرون إلى بعضهم « فيسقط في أيديهم وتحولت نياتهم على المحاربة ، وندموا على عدوتهم »(٢٩٤) · وبناء على ذلك لم يكن من الغريب أن يفشل أبو حاتم ومن معه من العجم عندما ارادوا انتهاز الفرصة ومفاجأة المدينة من جهة المشرق

---

(٢٩٢) ابن الصغير ، ص ٥٣ ·

(٢٩٣) ابن الصغير ، ص ٥٣ ·

(٢٩٤) ابن الصغير ، ص ٥٤ ·

لعلهم يصيبوا غرة ، اذفتح من كان بناحية الباب الشرقي من المدينة الباب وخرجوا اليهم حملة واحدة ، وارغموهم على الفرار منهزمين . وهنا انصرف القائد وانودين الذى كان أكبر معاونى أبى حاتم بعساكره ، وبذلك ضعفت الحرب ، وتطلع الناس الى السلم والعافية (٢٩٥) .

تكريس الانقسام بين الرستميين ، تقييم يعقوب بن افلح : قديس يتز فى سيرته سيرة الائمة الأول :

وهكذا يكون انقسام الرستميين قد تكرس ، ويكون يعقوب بن افلح قد حقق حسن ظن تاهرت ومشايخها فيه . ويصف ابن الصغير يعقوب بن افلح فيقول : انه كان بعيد الهمة نزيه النفس ، ماجس بيده دينارا ولا درهما ، فكأنه أعاد سيرة الامام الاول فى ورعه وتقشفه . فقد « كان اذا أتى وكيله بغلاته أمره بأن يجعلها تحت بردعة له يجلس عليها ، واذا أراد اخراج شيء منها دفعه بقضيب من يده » . «وكان يعقوب اذا سافر ونزل بقوم لم يأكل لهم طعاما ، وكانت له بقرات يأمر بحلبها بين يديه فى اناء جديد ، فاذا امتلأ شربه أجمع ثم يقوم عليه ثلاثا لا يأكل طعاما ولا يشرب شرابا ولا يخرج لبراز » .

ويستمر ابن الصغير فى وصف مناقب يعقوب فكأنه يضعه فى مصاف كبار الأولياء : فقد كان وضوءه طاهرا فى الموضع الذى يكون فيه ، وكانت له أخلاق فى لباسه وركوبه يخرج عن طبع البشر . والى جانب ذلك فهو أحد الفرسان الشجعان ، « وكان له فرس أشقر لم يكن بالمغرب مثله ، لا قبله ولا بعده » ، وكان يضرب به المثل الى الوقت الذى كان يكتب فيه ابن الصغير فى أواخر ايام الرستميين (٢٩٦) .

اضطرابات تهلك الحرث والنسل لا ينهيها الا توسط زعيم مزاتى فى اقرار الهدنة :

والمهم أنه لا مناقب يعقوب بن افلح ولا فروسيته حققت ما كان يطمع فيه الناس من الأمن والعافية بعد أن طالت الحرب بينه وبين ابن أخيه « وقطعت السبيل وفر من أيدى الناس الحرث والنسل » ، الى أن قيض الله..

(٢٩٥) ابن الصغير ، ص ٥٤ .

(٢٩٦) ابن الصغير ، ص ٥٤ .

لهم أبا يعقوب المزاتى الذى نزل بجميع مزاته حول تاهرت ، » وكان رأس القوم وملكهم ، فمشت اليه القبائل ، وقالوا : لو جعلت الهدنة بين هذين الفريقين الى مدة معلومة يأمر الناس اليها ... ، وانتهى مسعى الزعيم المزاتى فى الهدنة التى اشتهاها الفريقان الى النجاح .

التحكيم :

وتم الاتفاق على أن يختار كل من الطرفين المتحاربين ممثلاله لعقدالهدنة: فقدم يعقوب بن أفلح لتمثيله الفقيه عبد الله بن اللمطى ، الذى عرفناه مناظرا راسخا فى فن الكلام والجدل ، بينما قدم أبو حاتم رجلين ، هما : منكود وابن أبى عياض اللواتيين .

وانتهى مؤتمر التحكيم الجديد بحكم أشبه بالحكم الشهير فى تاريخ الاسلام الذى أنكره سلف الاباضية الأوائل ، والذى ظل الرستميون ينكرونه حتى هذا الحين ، اذ تم عقد الهدنة على : « ان يرفعوا أيدى كل من أبى حاتم ويعقوب عن النظر أربعة أشهر ، ويمشى الناس الى الناس ، ويدخل بعضهم على بعض ، وتأمن الساحات . فتم العقد على ذلك وتطامع النـــاس العافية (٢٩٧) » .

عودة أبى حاتم يوسف الى تاهرت اميرا دون منافس ، بعصبيته الشعبية من غير الرستمية :

واحسن أبو حاتم استغلال فترة الهدنة لصالحه فاستمال وجوه أهل تاهرت وشبابهم بالوعود الحسنة وبالعطاء الجزيل ، وبذلك مال اصحاب الدنيا اليه ، ولم يبق الى جانب يعقوب الا الراغبين عن سفك الدماء وأكل الأموال ، بينما ظل ابو يعقوب المزاتى قائما بمساعيه الحميدة لاصلاح ذات البين (٢٩٨) . وكان الطبيعى بعد أن تطور مجتمع تاهرت الى ما تطور اليه من عدم التمسك بتقاليد الرستميين الأوائل ان ترجح كفة ابى حاتم وما كان يغرى به من امور الدنيا وعرض الحياة . ففى يوم عيد من اعياد تاهرت اقبل اخوان من وجوه أهل تاهرت ، هما أحمد ومحمد ابنا دبوس ، واعلنا أن من يريد العافية من أهل المدينة فعليه الصعود الى الحى المعروف باسم الكنيسة ،

---

(٢٩٧) ابن الصغير ، ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(٢٩٨) ابن الصغير ، ص ٥٥ .

حيث كانا يسكنان . واستجاب الناس للدعوة ، عدا يعقوب بن افلح وبعض المشايخ ممن كانوا يكرهون أبا حاتم وعلى رأسهم شيخ البلد ومقدمه ابن مسعود الذى حاول أن يثنى الرجلين عن غرضهما دون جدوى . وهكذا سار ابنا دبوس تحت جنح الليل يتبعهما كثير من الناس قاصدين قصر أبي حاتم في نهر [illegible] ، بينما ركب يعقوب بن أفلح وشيعته خيولهم وخرجوا من المدينة نحو زواغه حيث كان يعيش يعقوب قبل دعوته الى تاهرت . وهكذا فتحت تاهرت أبوابها من جديد لأبى حاتم الذى دخلها فى صباح اليوم التالى وحده ، وليس معه أحد من عشيرته ولا من رجاله ، وبادر اليه الناس جميعا (٢٩٩) .

اعادة تنظيم الحكومة فى تاهرت : حكم حازم يقضى على اوكار الفساد :

بمجرد دخول أبى حاتم العاصمة الرستمية جمع مشايخ البلد من الاباضية وغير الاباضية وشاورهم فى ترتيب الحكم والادارة ، من : القضاء وبيت المال والشرطة وغيرها . وطلب أهل العقد والحل منه أن يسير فيهم بسيرة والده محمد الذى كانوا لا يعدلون بولايته الا ولاية جده الاكبر عبد الرحمن بن رستم . ففيما يتعلق بولاية القضاء أشادوا بقاضى والده وهو محمد بن عبد الله بن أبى الشيخ ، وطلبوا تعيين ابنه عبد الله الذى ليس دون والده فى الورع والعلم ، فولاه القضاء . وفى ادارة بيت المال ولى عبد الرحمن بن صواب النفوسى الذى اشاروا به . وفى الشرطة عرضوا عليه أحد رجلين ، وهما : زكار الذى عرف بجودة فكره وبالتفانى فى الخدمة ، أو ابراهيم بن مسكين المعروف بصلابته ، فى الحق ، فاستصوب ان يوليهما جميعا (٣٠٠) . وقام الرجلان بعملهما خير قيام ، فقضيا على أوكار الفساد الذى كان قد استشرى فى المدينة نتيجة الحروب والضيق ، من : انتشار المنكر والعبث بالغلمان . فحملا الناس على عمل المعروف والابتعاد عن المنكر ، حملا ، ولم يتورعا عن انزال العقوبة الصارمة بالمخالفين ، من : الضرب والسجن والقيد ، حتى قطعا كل ذلك فى أسرع من طرفة العين ، كما يقول ابن الصغير ، لم يفرقوا فى ذلك بين العظيم والصغير . هذا ، كما اهتما أيضا بالقضاء على السراق قطاع الطريق حتى أمنت السبل واطمأن المسافرون (٣٠١) .

وهكذا حسنت سيرة أبى حاتم فى ولايته الثانية لتاهرت ، ولم ينقم

---

(٢٩٩) ابن الصغير ، ص ٥٥ .

(٣٠٠) ابن الصغير ، ص ٥٦ .

(٣٠١) ابن الصغير ، ص ٥٦ - ٥٧ .

عليه الناس شيئا ، لولا ما نقموه عليه من أخذ بعض الناس بالشبهة وانزال عقوبة الضرب بالسوط في بعضهم على الظنة (٣٠٢) ٠

ازدهار مجالس العلم والمناظرة :

ونتيجة لمثل هذا الحكم الحازم وما أدى اليه من انتشار الأمن والعافية كان من الطبيعي أن ينصرف الناس الى أمور دينهم بعد أن اطمأنوا الى أمور دنياهم فعمرت المساجد ، واقيمت الجمعة والخطبة في الجامع ٠ ولم ينكر الناس شيئا سوى ما انصرف اليه الفقهاء من المناقشات الفقهية ـ وهـذا أمر طبيعي في أوقات الأمن والسلم ـ وما أقاموه فيما بينهم من المناظرات بين أعلام الفرق المختلفة ، مما كان يتسبب بعض المنازعات ، كما هو معروف ٠ ولكن الكلف بالجدل العلمي والمناظرات الفقهية أدى الى أن أصبحت كل فرقة تسعى الى المزيد من العلم عن طريق معرفة آراء مخالفيها ٠ وفي سبيل ذلك استخدم الجميع اللطف في المناقشة واكرام للمخالفين سواء كانوا من الاباضية أو من غيرهم ، دونما حقد أو تعصب (٣٠٣) ٠ وهو الأمر الذي لم يكن معهودا من قبل ٠

مناظرات المؤرخ ابن الصغير :

وابن الصغير المالكي يشير الى ما كان يقوم بينه وبين رجل يسمى سليمان ويكنى بابي الربيع من وجوه الاباضية من هوارة ، وذلك في بعض مساجد الرهادنة حيث كان يقيم مؤرخنا ، من المناظرة في بعض المسائل المختلف عليها بين المالكية والحنفية (الحجازيين والعراقيين) وبين الاباضية ٠ من ذلك ما يتمسك به أهل السنة من أن الرجل اذا زوج ابنته البكر ، وهي صغيرة ، وأدركت أن لا خيار لها في نفسها ، بينما يقولون ان الرجل اذا زوج أمته ، وعتقت فان لها الخيار ٠ وهنا يلفت سليمان الهوارى الاباضي نظر ابن الصغير الى أنه لا فرق بين الأمة وبين الصغيرة (٣٠٤) ٠

---

(٣٠٢) ابن الصغير ، ص ٥٧ ، وقارن الشماخي ، ص ١٦٣ ٠

(٣٠٣) ابن الصغير ، ص ٥٧ ٠

(٣٠٤) ابن الصغير ، ص ٥٧ ٠ وشرح ذلك : « لان الأمة لم يكن لها حكم في نفسها وانما كان الحكم لسيدها ، فلما عتقت وصار الحكم اليها جعلتم لها الخيار ، والصغيرة لم يكن لها حكم في نفسها وان الحكم لابيها ، فلما ادركت صار الأمر اليها فلم منعتموها ما اجزتم للامة والمعنى واحد » ٠ ويقول ابن الصغير انه ناقش هذه المسالة مع كثيرين وانه رد على ذلك بقوله : « انا انما اجزنا نكاح الصغار لان النبي صلعم تزوج عائشة بنت أبي بكر —

ومن موضوع المناظرة وما يحدث فيها من اختلافات فقهية ولغوية ، ينتقل ابن الصغير الى موضوع الخطبة على منابر الاباضية ، فينص على أن خطباءهم ربما حرفوا اللفظ عن موضعه ليقيموا الأمر الذى يريدونه . وهو يعدد خطباءهم الذين حضر لهم ، وأولهم ابن أبى ادريس ، وبعده : أحمد التيه، وأبو العباس بن فتخون ، وعثمان بن الصفار ثم أحمد بن منصور (٣٠٥) . ويذكر أن الثانى منهم وهو أحمد التيه حاول فى شرحه للكلمات القرآنية : « الرحمن على العرش استوى » ، أن يجعل ذلك بابا من الحلول على العرش (٣٠٦) .

ويؤكد ابن الصغير أن كل من رآهم من خطبائهم على منابرهم لا يستعملون الاخطب أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، باستثناء خطبة التحكيم . وكان الخطيب اذا فرغ من خطبته الاولى وقام الى الخطبة الثانية بدأها بالتحكيم (٣٠٧) أى : « لا حكم الا لله » ، وهو نفس شعار جماعة الخوارج من الشراة القديم عندما رفضوا حكم عمرو وأبى موسى – وهذا ما تشير اليه خطبة التحكيم التى ينقلها ، ابن الصغير ، ففيها : « فتبارك الله أحسن الخالقين ، تعالى أن تطلق فى وصفه آراء المتكلفين أو أن تحكم فى دينه أهواء المتقلدين ، بل جعل القرآن ماما للمتقين ، وهدى للمؤمنين .. وحكما بين المتخالفين » (٣٠٨) وكذلك يأتى بعد الحمد لله : « الله ربنا ، ومحمد نبينا ، والاسلام ديننا ، والكعبة

= بنت سبع سنين وبنى بها وهى بنت تسع سنين » . ورفض الرجل ذلك وطلب منه أن يكلمه من القرآن أو من باب النظر ، بعد أن أشار اليه أن الله أحل لرسوله من النساء ومن عددهن أكثر مما أحل لامته . ويستمر الجدل فيذكر كاتبنا انه ذكر من القرآن الآية التى تقول : « واللائى يئسن من المحيض من نسائكم (الى) .. واللائى لم يحضن » . فقال عجبا منك انا اسألك عن عقد النكاح وفسخه وانت تخبرنى عن عدة المويسات وعدة اللائى لم يحضن » . وهنا افحم ابن الصغير مناظرة سليمان عندما شرح له كيف غاب عنه المراد [illegible] متعلق بالطلاق ، والطلاق لا يكون من غير زواج – فسكت ولم يرد جوابا . هذا ولو ان شخصا آخر قال له : « واللائى لم يحضن » : المراد التى لم [illegible] الحيض ، ومن الكبائر لا الصغار [illegible] فكان رده : « هذا غلط فى اللغة » .

(٣٠٥) ابن الصغير ، ص ٥٩ .

(٣٠٦) ابن الصغير ، ص ٥٩ – ٦٠ . وربما يظهر ذلك الحلول المقصود هنا فيما يورده ابن الصغير بعد ذلك فى خطبة التحكيم ، وفيها : « الذى لم يزل بصفاته واسمائه ، لا يشتمل عليه زمان ولايحيط به مكان ، خلق الأماكن والأزمان ثم استوى الى السماء وهى دخان ... » .

(٣٠٧) ابن الصغير ، ص ٥٩ .

(٣٠٨) اخبار الائمة ، ص ٦٠ .

قبلتنا ، والقرآن امامنا ... لا حكم الا لله اتباعا لكلام الله وسنة نبيه عليه السلام ، وخلافا لأهل البدع ... وأشهد أن من لم يحكم بما أنزل الله : فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون » وفى الدعاء قبيل الختام يطلب الرحمة - بعد ذكر النبى وآله والصحابه والتابعين - للشراة ، كما يدعو بالصلاة على أبى بكر وعمر ، وأخيرا الدعاء بالصلاح للأمير يوسف بن محمد (أبو حاتم) (٣٠٩) .

والظاهر أن مجتمع تاهرت ظل فى تطور مستمر ، وهو الأمر الذى يحمد للاباضية الذين ظهروا ، على عكس ما كان يظن ، بمظهر التساهل والتسامح فى كثير من أمور الفقه والأحكام . فعندما ولى الخطابة رجل من الاباضية ، يقال له : أحمد بن منصور ، وسمعه ابن الصغير وهو يثنى بخطبة التحكيم ، أثار ذلك انتباهه حتى أنه لفت نظر الخطيب الى أن هذه لم تكن سنة أسلافه . ورد الخطيب على ملاحظة ابن الصغير بأن أحد زعماء الجماعة ، واسمه : عثمان بن أحمد بن يحيا هو الذى حمله عليها ، اذ كان الرجل مقدما عندهم ولا يكادون يخالفونه فيما استحسن لهم ، فخطب الخطيب بها (خطبة التحكيم) لأنه استحسنها له (٣١٠) .

وبخطبة التحكيم تلك ينهى ابن الصغير كتابه فى سير الرستميين على أيام الأمير ابى حاتم يوسف بن أبى اليقظان ، ولا بأس فى أن يكون ذلك حوالى سنة ٢٩٠ هـ/٩٠٢ - ٩٠٣ م ، اذ أن عدم وجود أى ذكر فى الكتاب لوقعة « مانو » التى تحطم فيها اباضية نفوسة أمام القوات الأغلبية ، قبل ذلك بسنوات ، لا تعنى بالضرورة أن تأليف ابن الصغير قد تم قبل تلك الوقعة (أى قبل ٢٨٣ هـ/٨٩٦ م) . والحقيقة هى أن ابن الصغير لم يهتم الا بأحوال تاهرت بلده ، أما جبل نفوسة الذى كان يمثل الدعامة الرئيسية للامارة الرستمية، فكان موضوعا بعيدا عن اهتمامه وان كان له المعنيون به من مشاهير الكتاب النفوسيين .

أحوال جبل نفوسة على عهد ابى حاتم يوسف :

ابو منصور الياس بن منصور واليا :

والنفوسيون وعلى رأسهم أبى زكريا ، لم يهتموا فى تاريخهم لامامة

---

(٣٠٩) أخبار الأئمة ، ص ٦٢ .

(٣١٠) ابن الصغير ، ص ٥٩ . اما عن خطبة التحكيم فانظر ص ٥٩ - ٦٢ .

ابى حاتم يوسف بن أبى اليقظان الا بأحوال جبل نفوسة • فأبو زكريا الذى يقول عن يوسف انه مكث فى امامته ١٤ (أربعة عشرة) سنة ، يذكر : « أنه اطردت له الأمور ولم ينقم عليه من رعيته أحد » ، ويتبع ذلك بالحديث فى سيرة أبى منصور الياس بن منصور والى جبل نفوسة على أيام أبى حاتم(٣١١)• وهو واحد من أشهر الشخصيات النفوسية فى تاريخ امامة تاهرت الرستمية على وجه العموم • فلقد ولى أبو منصور جبل نفوسة على عهد كل من أفلح وأبى اليقظان ثم أبى حاتم يوسف (٣١٢) •

عمروس بن فتح النفوسى قاضيا :

وواضح من النصوص أنه رغم ما كان يتصف به أبو منصور الياس من الفضل ، حتى قيل إنه كان مستجاب الدعاء (٣١٣) ، فقد كان من أسباب شهرته وذيوع صيته بين كتاب الاباضية هو عهده بالقضاء الى عمروس بن فتح النفوسى ، الذى كان من الشخصيات العارمة التى عرفها جبل نفوسة بسبب : علمه وفضله وحذقه وفطنته وحضور حجته (٣١٤) • ففى علمه قيل انه كان عالما كبيرا له كتب فى الاصول والفقه (الفروع) ، وانه كان قد عزم على تأليف كتاب جامع يعالج فيه مسائل الفقه على أساس القواعد التشريعية الثلاثة المعروفة ، وهى : الكتاب والسنة والرأى ، ولكن أجله لم يمهله لكى يتم مشروعه هذا (٣١٥) •

وفى شدة عمروس فى الحق وعدم خوفه فى الله لومة لائم ، يذكر ابو زكريا من مناقبه أنه كان يطأ الرجل الذى يمسك عن الاجابة على أسئلته برجليه فى حضرة الوالى أبى منصور اليـــاس • وعندما لفت الياس نظره الى أنه عجل على الرجل ،لم يتردد فى أن يبين له الحجة فيما فعل، بل أنه عرض استقالته من القضاء ان لم يقبل حكمه بالعقوبة العظمى ، وهى القتل ، فى ثلاثة : الطاعن فى دين المسلمين أى المعارضين للمذهب الاباضى ، من النكار

---

(٣١١) المخطوط ، ص ٣٢ - أ ، وقارن الدرجينى الذى يجعلها (١٢) (اثنى عشرة) سنة فقط ، المخطوط ، ص ٣٧ - أ (المطبوع ، ص ٨٤) •

(٣١٢) انظر الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٧ - أ (المطبوع ، ص ٨٤) •

(٣١٣) ابو زكريا ، ص ٣٢ - أ ، الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٧ - أ (المطبوع ، ص ٨٤) •

(٣١٤) ابو زكريا ، ص ٣٢ - أ •

(٣١٥) ابو زكريا ، ص ٣٢ - أ ، الدرجينى ، ص ٣٧ - أ (المطبوع ، ص ٨٤) •

ومن نهج نهجهم) ، والمانع الحق ، والدال على عورات المسلمين (اصل المذهب) (٣١٦) .

الياس وعمروس رجلا الجبل :

وهكذا أكملت مناقب كل من الرجلين سجايا الآخر ، وعمل كل منهما على الرفع من شأن صاحبه : عمروس بعلمه وفطنته وشدته فى الحق ، والياس بتقواه وورعه وشجاعته التى بلغت مبلغ الأسطورة ، مما ضمن لذريته استمرار الولاية والحكم فى جبل نفوسة . ففى الحروب كان أبو منصور اذا خرج فى العسكر « ينطح العدو نطحة من غير صفوف »، مما يذكر«بالحملة الخارجية » التى صارت مضرب المثل . وفى الحرب كان يقود رجاله وهو راكب بغلة ليكون قدوة للعامة من رجاله للثبات فى المعركة ، وعدم التفكير فى الهزيمة أو الفرار (٣١٧) ، وهو الامر الذى بالغ فيه المتأخرون ، حتى جعلوه كرامة من الكرامات . اذ ليست البغلة مما يركبه مقتحمو الحرب ، فقالوا ان نبال الأعداء كانت تتحاد عنه ، رغم أنه كان هدفا ثابتا قريب المنال ، وهو فوق بغلته (٣١٨) .

مطاردة حفيد خلف بن السمح :

ومن أهم الأعمال الحربية التى تذكر لأبى منصور الياس مطاردته بقايا الخلفية بقيادة حفيد خلف بن السمح فى آخر ولاية الرستميين . وكان الخلفية قد وهنوا بعد صراعهم مع أبى عبيدة عبد الحميد والى افلح على جبل نفوسة ، ولكن فلولهم ظلوا متشبثين بابن خلف ، أو حفيده ، الذى ظل متمسكا بمذهب أبيه (٣١٩) . والرواية لا تشير الى اعمال عدائية قام بها الخلفية ضد أبى منصور أو رعيته ، بل تكتفى بالقول ان والى جبل نفوسة الشهير خرج على أيام أبى حاتم يوسف لطلب ولد خلف الذى لا تذكر لنا اسمه ، وان هذا الأخير هرب لاجئا لدى قبائل زواغة ، خارج طرابلس فى ساحل جزيرة جربة . والتف الزواغيون حول زعيم الخلفية ، وأجمعوا على أن

---

(٣١٦) ابو زكريا ، ص ٣٢ - أ .

(٣١٧) ابو زكريا ، ص ٣٢ - أ .

(٣١٨) الدرجينى ، ص ٣٧ - ب (المطبوع ، ص ٨٤) : حيث يقول أيضا انه كان فاضلا مستجاب الدعاء ذا كرامات .

(٣١٩) انظر فيما سبق ، ص ٣٤٧ .

يمنعوه من النفوسيين : اذ « كانوا على مذهب أبيه فسمعوا قوله واطاعوه وقبلوا دعوته (٣٢٠) » ٠

الوساطة ، وشروط الصلح :

وهكذا وصل أبو منصور الى حيز زواغة ، ووجد أعدادا كبيرة منهم محدقة بحفيد خلف ٠ وقبل أن يبدأ القتال تدخل أحد زعماء بنى يوراسن (أو يهراسن) الذى يعرف بأبى سلامة لحقن الدماء ، وعرض على زواغة أن نقبل واحدا من ثلاثة حلول ، وجدها كفيلة بوأد الفتنة وهى فى مهدها :

١ - ان يترك الزواغيون من الخلفية البرية ، وأن يعبروا الى داخل جزيرة جربة حيث يمكنهم أن يجتمعوا باخوانهم فى المذهب هناك وان يمنعوا زعيمهم الخلفى ، وبذلك يكونون قد ابتعدوا عن حيز أبى منصور ٠

٢ - ب يرسلوا وفدا منهم الى الامام أبى حاتم يوسف يطلبون منه ان يولى عليهم واليا منهم ، وبذلك يخرجون عن طاعة نفوسة ٠ فكان الاستقلال عن حكم النفوسيين كان مطلبا من مطالب الزواغيين ٠

٣ - ان يدفع الزواغيون زعيمهم الخلفى الى أبى سلامة اليوراسنى فينطلق به الى نفوسة ، وهو يضمن لهم أمنه وسلامته ٠ وهو الحل الذى يعنى ان الزواغيين ربما كانوا قد تورطوا ، عن غير قصد ، مع حفيد خلف ، وانه يمكنهم الوفاق مع النفوسيين اذا ضمنوا لهم الا يصيبوا الخلفى بضرر ما ٠

فشل الوساطة ، وهزيمة زواغة :

وفشلت وساطة الزعيم اليوراسنى عندما قام بعض الزواغيين فندد بحسن نواياه ، وهو يقول : « أن اليوراسنى يريد الوقيعة بزعيمهم الخلفى الذى تسميه الرواية بـ « الخليفة » ، مما اثار أبا سلامة ، فاعرض عن الاستمرار فى وساطته ، رغم نداء بعض العقلاء من الزواغيين ، فانصرف عن محفلهم (٣٢١) ٠

---

(٣٢٠) ابو زكريا ، ص ٣٢ - أ ، وقارن الدرجينى ، ص ٣٧ - ب (المطبوع ، ص ٨٤ - ٨٥) ٠

(٣٢١) ابو زكريا ، ص ٣٢ - ب ، الدرجينى ، ص ٣٧ - ب ٠

وبذلك تحسم القتال بين الفريقين ، وانتهى بانهزام زواغة بعد قتال شديد فقدوا فيه كثيرا من رجالهم ، الذين لم يتمكنوا من الفرار ، بسببه وقوعهم فى الحبال التى كانت ممدودة فى المنطقة بين الأشجار الصغـــــار المغروسة لمنع الوحش من الافساد فيها • ولم يسرف أبو منصور الياس فى قتل زواغة اذ رجع عنهم ، فتمكن الباقون منهم من الدخول الى جزيرة جربة (٣٢٢)، كما نصحهم أبو سلامة اليوراسنى أول الأمر •

دخول الخلفية فى جربة ، وغدر زواغة بأميرهم :

وفى جربة استجار حفيد خلف برجل من زواغة يسميه أبو زكريـــا بمعقل من بنى مزانت ، فادخله فى قصر من قصور جربة يقال له غردانت (٣٢٣) • وهنا لجأ أبو منصور الذى وصل الى ساحل جربة الى وسيلة الاغواء بالمال ، فارسل رجلا من يوراسن (يهراسن) الى الزواغى الذى آوى حفيد خلف بصرة فيها مائة دينار من الدراهم • وما أن شعر الزواغى بالدراهم تنصب من كم اليوراسنى الى كمه ، حتى قال له : « لو أتيت الى أولادنا دفعناهـم اليك(٣٢٤) » • وبناء على ذلك فلم يكن من الغريب عندما وصـــل أبو منصور الى ساحل جربه بعد يومين أو ثلاثة أيام ، اذ كان من عادته أن يوقف جيشه عند وقت كل صلاة ليصلى بهم ركعتين ، أن يقوم معقل الزواغى برد جوار حفيد خلف ، اذ توجه اليه ، فقال له : « انزل أيها الأمير فقد طال ما أرملت نساء زواغه على يديك » • وكان جواب الخلفى : « ليتكم لم تسمونى أميرا يامشومات » ، وذلك باللغة البربرية التى كان لا يحسنها لأنه رجل عربى • وهنا دفعه الزواغيون الى أبى منصور الياس الذى سار به(٣٢٥) •

أبو منصور يسجن حفيد خلف فى الجبل :

وهكذا استقرت الأمور ، فى جزيرة جربة فلم تعرف بها فتنة تسبب

---

(٣٢٢) أبو زكريا ، ص ٣٢ ـ ب ، الدرجينى ، ص ٣٧ ـ ب ، ٣٨ ـ أ (المطبوع ، ص ٨٥ ـ ٨٦) •

(٣٢٣) أبو زكريا ، ص ٣٢ ـ ب ، وقارن الدرجينى ، ص ٣٧ ـ ب ، الذى يسمى قبيلة الرجل تامستاوت ، ويسمى القصر غردان (المطبوع ، ص ٨٦) •

(٣٢٤) أبو زكريا ، ص ٣٢ ـ ب ، وقارن الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٨ ـ أ (المطبوع ، ص ٨٦) •

(٣٢٥) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٢ ـ ب ، ٣٣ ـ أ ، الدرجينى ، المخطـــوط ص ص ـ أ (المطبوع ، ص ٨٦) •

خيها الخلفية أو قتال • أما رئيس الحركة ، حفيد خلف ، فقد صحبه أبومنصور الياس الى مقره فى جبل نفوسة حيث سجنه • وكان الرجل مكرما فى سجنه معززا لشرفه وعلمه وفقهه ، فقد كان مرجع القوم عندما تنزل بهـم نازلة أو تعرض لهم قضية وعرة أو معضلة ، مما جعله يتساءل متعجبا : يسجنونى ويسئلونى (٣٢٦) ؟ •

وينهى أبو زكريا قصة الخلفى قائلا : « وذكر بعض أصحابنا أنه رجع الى مذهب أهل الحق وحسنت أحواله ، والله أعلم »(٣٢٧) ، وهو الأمر الذى لا يعدو أن يكون أمنية من أمنيات خصومه العزيزة •

أما أهم الأحداث التى عرفها جبل نفوسة على أيام الامام أبى حاتم يوسف فهى الكسرة الخطيرة التى لحقت بقوات نفوسة أمام القوات الأغلبية بقيـادة الأمير ابراهيم بن أحمد ، وذلك فى وقعة مانو الشهيرة ، بعد وفاة ابى منصور الياس وولاية افلح بن العباس على نفوسة (٣٢٨) •

وقعة مانو سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦ م واضمحلال جبل نفوسة كقوة مساندة لامامة تاهرت (٣٢٩) :

وأول ما يسترعى الانتباه ، أن كتاب الاباضية متفقون على أن الهزيمة الكبيرة لنفوسة ، فى حيزطرابلس ، كانت السبب المباشر لاضمحلال امامة تاهرت الرستمية وانقراضها (٣٣٠) • فقبائل نفوسة كانت تؤيد « السلطنة » الرستمية ومذهبها الاباضى بشكل لا نظير له بين قبائل المغرب • ولهذا السبب قال الاباضية هناك •• « قام هذا الدين بسيوف نفوسة ومال مزاتة » ، كما

---

(٣٢٦) ابو زكريا ، ص ٣٣ ـ أ ، وقارن الدرجينى (ص ٣٨ ـ ب والمطبـوع ، ص ٨٦ ـ ٨٧) الذى يضيف انهم سالوه فى قضية قطع رجل رحل فاختلفوا ، فقال : تقطـع الرجل دون العقب • وعندئذ قال مقاله جابر بن زيد لما استفتى فى السجن ، وخبره مشهور • وهذا يعنى أن مقاله « يسجونى ويسئلونى » هى اصلا لجابر بن زيد الذى رأينا كيف أن نفاثا احتال الى أن كتب ديوانه فى بغداد ، ولو ان الرواية قالت ان نفـاثا عاد ودفنه حتى لا يستفيد منه خصومه ـ انظر فيما سبق ، ص ٣٥٠ •

(٣٢٧) ابو زكريا ، ص ٣٣ ـ أ ، الدرجينى ، ص ٣٨ ـ ب (المطبوع ، ص ٨٧) •

(٣٢٨) ابو زكريا ، ص ٣٣ ـ أ ، الدرجينى ، ص ٣٨ ـ ب (المطبوع ، ص ٨٧) •

(٣٢٩) انظر فيما سبق ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ •

(٣٣٠) ابو زكريا ، ص ٣٣ ـ أ : حيث يجعل عنوان المركة : « وقعة مانو وانقراض الامامة ، وهو العنوان الذى ينقله الدرجينى ، ص ٣٨ ـ ب (المطبوع ، ص ٨٧) •

قالوا ان احبار نعرسة انتشرت لدى المسودة (العباسيين) فى المشرق على أنهم المناصرون والقائمون بدولة الفرس الرستمية فى بلاد طرابلس وتاهرت وغيرهما ، وذلك بفضل المكاتبات التى كان يبعث بها الى بغداد أهل كل من مدينتى القيروان وطرابلس (٣٣١) ٠

ومما يسترعى الانتباه أيضا ، ما أخذ به كتاب الاباضية من أن ذلك حدث على عهد الخليفة المتوكل العباسى الذى قتل فى سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١م ، مع أنهم يعرفون أن وقعة مانو كانت على أواخر أيام الرستميين سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦ م ٠ واذا لا حظنا أنهم عرفوا قبل ذلك ان أبا اليقظان بن افلح كان قد قبض عليه فى مكة وسير به الى بغداد ، حيث حبس على عهد المتوكل قبيل مقتله سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١ م ، فانه يكون من المقبول ان القصد من ذكر عهد المتوكل هنا هو تحديد بداية اهتمام بغداد بأمور الرستميين فى تاهرت وطرابلس ، وليس تحديد وقت الموقعة ، وان ظهر التعبير بغير هذا المعنى ، كما فى أبى زكريا الذى يظهر الامير الاغلبى وكأنه يرحف بقواته من شرق طرابلس (فى المغرب) ، قاصدا تاهرت بناء على أوامر بغداد (٣٣٢) ٠

فى أسباب الموقعة :

ومع أنه لا بأس فى أن تكون خلافة بغداد لهـــا دورها فى تحريض الأمير الاغلبى ابراهيم بن أحمد ضد اباضية طرابلس ، أو أن يكون الأغلبى أراد أن يكتسب رضاء الخلافة عنه بعد سخطها عليه أثر أعمال العنف والقسوة التى قام بها ضد رعاياه ، فى اقليمى تونس وطرابلس ، فلا بأس أيضا فى أن تكون أعمال القهر التى قام بها ضد الاباضية من قبائل هوارة وغيرهم فى أقاليم الزاب وطرابلس ، هى السبب فى قيام نفوسة على الأغالبة فى اقليم طرابلس ، كما سبقت الاشارة (٣٣٣) ٠ وهكذا سار ابراهيم بن أحمد من رقادة فى اثر ابنه أحمد نحو طرابلس حيث أعترضته قبائل نفوسة فيما بين قابس وطرابلس (٣٣٤) ٠

---

(٣٣١) ابو زكريا ، ص ٣٣ - أ ، الدرجينى ، ص ٣٨ - ب (المطبوع ، ص ٨٧) ٠

(٣٣٢) السير وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ٣٣ - أ ، وقارن الدرجينى ، المخطوط ص ٣٨ - ب (المطبوع ، ص ٨٧) ٠ وعن سجن أبى اليقظان فى بغداد انظر فيما سبق ، ص ٣٥٤ ٠

(٣٣٣) انظر فيما سبق - عن الأغالبة - ص ١٤١ ٠

(٣٣٤) انظر فيما سبق ، ص ١٤٢ ٠

واذا كانت الرواية الاباضية تقول ان الأمير الأغلبي طلب من النفوسيين ان يتركوا له ممرا على شاطىء البحر لا تزيد سعته عن مقدار نشر عمامتــه ليجوز منه الى طرابلس (٢٣٥) ، فان من الممكن ان يكون الأمر متعلقا بواحد من احتمالين :

١ ــ اما أن تكون الرواية الاباضية تخلط هنا بين ما حدث قبل ذلك مع عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب عندما حاصرته الاباضية فى طرابلس أيام الامام عبد الوهاب ، وانتهى الأمر بالصلح على ان يكون شاطىء البحر للأغالبة والدواخل لعبد الوهاب ٠

٢ ــ واما أن يكون هدف ابراهيم بن أحمد هو الاكتفاء بتهدئة الأحوال فى طرابلس التابعة له ، دون رغبة فى التدخل فى شئون الأباضية فــى الدواخل ٠

مكان الموقعة :

والمهم فى الرواية أن الاباضية عزموا على ألا يسمحوا لابراهيم بالمرور بينما قرر هذا الأخير الجواز على ساحل البحر دون أن يتعرض اصحابــه لنفوسة اذا تركوهم ٠ورأى العقلاء من الشيوخ مثل سعد بن أبى يونس ، الذى رأيناه عالما كبيرا وواليا لقنطرارة التى كان من مشاهير أبنائها ، ان يتركوا الاغالبة يجوزون ، ولكن الكثرة الغالبة من الشباب المتحمس رفض ذلك ، بل وعير بعضهم سعدا بالجبن والخوف من القتل ٠ وكان رد سعد بن أبى يونس مقالته المشهورة : « خفت أن تذبح البقرة فيتبعها عجلها » ، يعنى بالبقرة نفوسة وبالعجل قنطرارة (٢٣٦) ، بلده ٠ وهكذا اعترضت نفوسة قوات الأغالبة فى موضع لا يذكر مؤرخو المغرب اسمه (٢٣٧) بينما يعرفه كتاب الاباضية باسم « مانو » ، وفيه يقول أبو زكريا : انه « قصر من قصور الأولين » على ساحل البحر ٠

---

(٢٣٥) انظر ابو زكريا ، ص ٣٣ ــ ا : والرواية هنا تقول انه كان يريد الجواز من طرابلس الى تاهرت ، وقارن الدرجينى ، ص ٣٦ ــ ا (المطبوع ، ص ٨٧ ــ ٨٨) ٠

(٢٣٦) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٣ ــ ب ، الدرجينى ، المخطــوط ، ص ٣٩ ــ ا (المطبوع : ص ٨٨) ٠

(٢٣٧) انظر فيما سبق ، عن الاغالبة ، ص ١٤٦ وما بعدها والهوامش ٠

المعركة وتفشي القتل في نفوسة :

أما عن القتال الشديد بين الفريقين فيصفه بأنه « لم يسبق مثله في أرض المغرب » • وبصرف النظر عن البطولات الشخصية التي أظهرها بعض الفرسان من الجانبين ، فقد استشرى القتل في الفريقين ، ولحق بنفوسة الى جانب ذلك كثير من الجراح حتى أنهم هموا بالانهزام (٢٣٨) •

وهنا طرأت على بال أفلح بن العباس ، والى الجبل وفارس نفوسة . فكرة حث الناس على الثبات عن طريق تركيز البند أو الراية ، شعار الجيش ، في الأرض ، وهو الأمر الذي لم يفعله صاحب البند أي حامل الراية الا على مضض • ولكنه اذا كان غرس البند في الأرض قد جعل الناس يسرعون بالالتفاف حوله للدفاع عنه ، فقد جعلهم احتشادهم هذا هدفا سهلا للعسكر الأغلبي الذي أوقع بهم وقتل منهم الكثيرين ، بينما فر افلح ابن العباس عندما رأى سوء موقفه وتفشي القتل في أصحابه(٢٣٩) . ولا شك في أن فشل خطة الصمود حول البند المركز في الارض ، وما تبعه من فرار افلح بن العباس كان السبب في أن القيت تبعة مقتلة نفوسة وحلفائهم في مانو على عاتق هذا الأخير • ففي ذلك يقول أبو زكريا : و « أفلح كان قد كره الخروج للقاء الفاسق وكذلك فعل بهم ما فعل » ، فكأنه كان من المعارضين لتحدى ابراهيم بن أحمد الاغلبي ، مثله في ذلك مثل سعد بن أبي يونس ، وانه انتقم منهم بتدبير مسألة البند الذي كاد الرجال جميعا يستأصلون حوله ،لولا أن قيض الله له رجلا من أهل البصائر ضربه بالسيف فاسقطه • فعند ما وقع البند « انهزم من بقي من المسلمين ، وأفلت من افلت من أهل دعوتنا من أهل الجبل » ، كما يقول أبو زكريا (٢٤٠) •

قائمة الخسائر الاباضية :

وتدل قائمة الخسائر على أن هزيمة « مانو » كانت كارثة حقيقية بالنسبة لنفوسة وحلفائهم من قبائل اقليم طرابلس • فقد بلغت عدة القتلى

---

(٢٣٨) أبو زكريا ، ص ٣٣ ـ ب ، الدرجيني ، ص ٩ ٣ ـ أ (المطبوع ، ص ٨٨) •

(٢٣٩) انظر أبو زكريا ، ص ٣٣ ـ ب : حيث يقول ان الهزيمة وقعت حول البند بعد انهزام افلح ، وقارن الدرجيني ، ص ٣٩ ـ ب (المطبوع ، ص ٨٨ ـ ٨٩) •

(٢٤٠) السير ، وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ٣٣ ـ ب وانظر الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٦ ـ ب (المطبوع ، ص ٨٩) •

١٢ (اثني عشر) ألف رجل ، منهم : ٤ (أربعة) آلاف من نفوسة ، و ٨(ثمانية) آلاف ممن كان معهم من البربر وغيرهم ، الى جانب ما سبي من نسائهم اللاتي كن خرجن معهم • وربما كان الاخطر من كل ذلك فقدان ٤٠٠ (أربعمائة) عالم فقيه ، أشهرهم عمروس بن فتح (٢٤١) الذي كان له قضاء جبل نفوسة منذ ولاية ابي منصور الياس (٢٤٢) •

واغلب الظن أن الرواية الاباضية لا تبالغ كثيرا عندما تقول ان الأمير الاغلبي ابراهيم بن أحمد انتقم من مشايخ الأسرى انتقاما مروعا يعبر عن الحقد الذي لا حدود له والتشفي • فالى مثل هذا تشير روايات مؤرخي المغرب التي عرضناها عن تلك الوقعة في تاريخ الأغالبة ، اذ تنص على القسوة اللاانسانية التي مارسها الأغلبي ، عندما كان يأمر بشق صدر الرجل ثم يطعنه بيده في موضع القلب مباشرة • أو ما قيل من أنه نظم قلوب العشرات منهم في الخيوط كأنها قلائد النصر أو عقود الظفر • ولا شك أن ما قيل من أن مشايخ الاباضية هؤلاء كانوا يتبرأون من الامام على بن أبي طالب لا يصح أن يكون ذريعة مقبولة تبيح كل ذلك (٢٤٣) •

مقتل القاضي عمروس بن فتح :

فأبو زكريا يذكر ان القاضي عمروس بن فتح كان مشاركا بشخصه في القتال ، وانه كان في مؤخرة العسكر ، على فرس سابق ، يحمي الناس ويذب عنهم ، وعسكر الأغالبة لا يدرون ماذا يصنعون معه • فلما أعياهم نصبوا له حبالا تعثر بها فرسه « السابق» فأخذوه أسيرا الى « الفاسق » • وطلب ابراهيم بن أحمد من عمروس أن يطلب العفو ، ولكن القاضي الشديد في أحكامه والذي كان لا يخاف في الله لومة لائم أبى من استجداء العفو ، « وطلب فقط الا يكشفوا عن سراويله » • وكانت العقوبة الشنيعة التي أنزلت به هي تقطيعه بالحديد من ابهامه الى عضده حيث استشهد » (٢٤٤) • أما عن اخته العالمة الفقيهة مثله ، والتي اخذت مع نسوة نفوسة ، فانها « طلبت من النساء أن تستحلف كل واحدة منهن أن يتزوجها من يريد بها سوءا »(٢٤٥) •

---

(٢٤١) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٤ — ا ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٩ — ب (المطبوع ، ص ٨٩) •

(٢٤٢) انظر فيما سبق ، ص ٣٨٣ •

(٢٤٣) انظر فيما سبق ، ص ١٤٣ •

(٢٤٤) ابو زكريا ، ص ٣٤ — ا ، الدرجيني ، ص ٣٩ — ب (المطبوع ، ص ٨٩) •

(٢٤٥) ابو زكريا ، ص ٣٤ — ا •

وبذلك قصت الوقعة المشئومة على مشايخ الاباضية فى جبل نفوسة فلم « يبق من علمائهم الا أبو القاسم البقطورى وعبد الله بن الخير ، اللذان بقيا يفتيان لاهل الجبل نوازلهم من تلك الوقعة ولولاهما لعطلت (الفتوى) الى يوم القيامة (٣٤٦) »٠

الانتقام من قنطرارة ثم من اباضية نفزاوة :

ولم يكتف ابراهيم بن أحمد بما الحقه بالنفوسيين فى مانو من القتل والتنكيل ، بل انه اتجه نحو قنطرارة ، حيث عرف من أعوانه انها المعقل الثانى فى المنطقة من معاقل الاباضية ، وفاجأ اهلها فى الصباح المبكر ٠ ويقول أبو زكريا انه ، الى جانب قتله لاهل قنطرارة ، « اختار من فقهائهم وعلمائهم ثمانين عالما فشدهم وثاقا » (٣٤٧) ٠

ومن قنطرارة تابع الأغلبى مسيرته الدامية ضد الاباضية الى نفزاوة للقضاء على من بقى هناك من آهل الدعوة ، وكان أشهر مشايخهم فى ذلك الوقت » رجلا عالما فقيها ٠٠ يقال له : أبو بكر يوسف النفوسى » ٠ وعندما بعث ابراهيم بن أحمد رجاله للقبض عليه أظهر الرجل كرامة منعته من خصومه ، اذا استمهلهم الى أن صلى ركعتين اتبعهما بالدعاء ، « فبعث الله اليهم ريحا عاصفا مظلما فحال بينهم وبين الشيخ ، فأخذ ابنه يوسف وكان الشيخ اذ ذاك قد كف بصره ـ ومضى الى تناوتت » ، من قبائل نفزاوة (٣٤٨) ٠

---

(٣٤٦) ابو زكريا ، ص ٣٤ ـ أ ٠ وبمثل مقتلة العلماء الفقهاء ، صاغ الاباضية حول موقعة مانو وشهدائها الأساطير ، كما فعلوا بمكان الموقعة التى قتل فيها أبو حاتم الامام خليفة أبى الخطاب قبيل تأسيس الامامة الرستمية (انظر فيما سبق ص ٣٨٧) ٠ ففى مناقب شهداء الاباضية فى مانو ومثالب خصومهم ، يقول أبو زكريا : انه عندما جن الليل بعد افتراق المتحاربين جاء رجل من العسكر الأغلبى ليحمل اخاه القتيل ، فاذا بشخص يطوف بين القتلى وينادى الاباضية منهم : كبروا يا اهل الجنة فيكبرون ، وينادى على المسودة منهم : ابنحوا يا كلاب النار فينبحون ، وكان اخو الرجل ينبح معهم وهو قتيل على الدابة ٠ انظر أبو زكريا ، ص ٣٤ ـ أ ، ٣٤ ـ ب ، الدرجينى ، ص ٤٠ ـ ب (المطبوع ، ص ٩٠) ٠

(٣٤٧) ابو زكريا ، ص ٣٤ ـ ب ، الدرجينى ، ص ٤٠ ـ ب (المطبوع ، ص ٩٠) ٠ هذا ، ولا باس من أن تكون وقعة قنطرارة قد حدثت فى السنة التالية ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م ، كما يمكن ان يفهم من رواية ابن عذارى ـ أنظر فيما سبق ، عن الأغالبة ، ص ١٤٣ وهـ ٤٦١ ٠

(٣٤٨) انظر أبو زكريا ص ٣٤ ، ب (حيث اسم القرية ماوته) ، وقارن الدرجينى ، ص ٤٠ ـ ب (المطبوع ، ص ٩١) : حيث يقول انه « مضى الى تناوتت ، وهم اهل القرية المعروفة بشيطان من قرى فزارة ، متجاه الله ٠

ومن الزاب عاد ابراهيم بن أحمد ، وبصحبته أسراء الثمانين من فقهاء قنطرارة ، الى القيروان حيث قتلهم بأجمعهم (٣٤٩) •

وهكذا حطم ابراهيم بن اغلب مقاومة الاباضية الرستميين فى كل من جبل نفوسة ونفزاوة ، قبل أن يعود تعبا مرهقا الى القيروان • والحقيقة لا تجاوز كثيرا ما يقوله كتاب الاباضية من أن وقعة مانو وما اتصل بها كان سببا فى القاء الوهن والضعف فى نفوسة مما أدى الى انقراض الدولة الرستمية وانقطاع الدعوة الاباضية ، « وذلك لأن نفوسة كانوا عمدتها : قامت بقيامهم وانقطعت لانقطاعهم (٣٥٠) •

عزل افلح بن العباس من ولاية الجبل : والسنوات الأخيرة للامامة الرستمية بعد وقعة مانو :

بعد الهزيمة المنكرة عادت بقية نفوسة من مانو الى جبلهم ، وتحصنوا فيه ، ثم انهم تشاوروا فى عزل واليهم آفلح بن العباس الذى اعتبروه مسئولا عن الكارثة ، وتولية ابن لهم له بدلا منه ، واخطار الامام بذلك ليصدر سجل الولاية • وتم اتفاق رءوس الجماعة على هذا الأمر ، لم يخالف فى اقراره الا الشيخ أبو معروف الذى « أبا ذلك خشية الاختلاف » • وهكذا عزل أفلح الذى حنق على هذا الفعل واستنكره الى حد أنه رام الخروج على جماعة أصحابه ، والقيام بمخالفتهم (٣٥١) • وعندما بلغ الشيخ أبا معروف ما يضمره أفلح بن العباس ساراليه خفية ، « وقبح عليه الخلاف وسوء عواقبه ووعظه ، فركن اليه ، ولم يتهم قوله لما تقدم منه أيضا من كراهية خلع افلح » ، فأراد الله به خيرا ، كما يقول الدرجينى (٣٥٢) •

---

(٣٤٩) ابو زكريا ، ص ٣٤ - ب : حيث يفهم من النص ان الأمير الأغلبى قتل هؤلاء الرجال كعقوبة جماعية لهم لأن احدهم ويدعى بابن ثوب كان مقطوع العرقوب مما سمح له بسل رجله من القيد والفرار ، ولو أن الرواية المنقبية تنص على ان الرجل استأذن اخوانه فى الهروب وانهم اذنوا له • وقارن الدرجينى ، ص ٤٠ - ب ، الذى يسمى الرجل المقطوع العرقوب بابن كتيت (المطبوع ، ص ٩١ : ابن كتيت) •

(٣٥٠) الدرجينى ، ص ٤٠ - ب (وقارن المطبوع ، ص ٩١ : حيث النص على انقراض الدعوة بدلا من « انقراض الدولة وانقطاع الدعوة ») •

(٣٥١) الدرجينى ، ص ٤٠ - ب (المطبوع ، ص ٩٠) : وتقول الرواية هنا انه عرض الخلاف على احد اصدقائه ولكن هذا الأخير لم يستجب له ، وامتنع عن مساعدته •

(٣٥٢) الطبقات ، المخطوط ، ص ٤٠ - ب (المطبوع ، ص ٩٠) ، أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٤ - أ •

ويظهر عزل أفلح من ولاية جبل نفوسة وكأنه بدء النهاية بالنسبة للدولة الرستمية اذ يقول أبو زكريا : ان الوالى الجديد ، ابن عمه ، لم يمكث فى الحكم الا حوالى ثلاثة أشهر ، ولم يتمكن خلالها من احسان السيرة ، فتركه الناس ورجعوا الى أفلح • وبذلك يكون بدء قصة قيام الدولة الفاطمية فى المغرب الأوسط وكيف تهيأ لها القضاء على دولة تاهرت الرستمية منذ حوالى سنة ٢٨٥ هـ/٨٩٨ م•

وهكذا تنتهى الدولة الرستمية عند ابن الصغير فى دوامة الاضطرابات التي عرفتها تاهرت والخلافات التى عرفها افراد الاسرة المالكة على عهد الامام ابى حاتم يوسف بن افلح ، دون ذكر لموقعة مانو فى سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦ م • أما أبو زكريا ومن نقل عنه من كتاب الاباضية فقد اعتبروا وقعة مانو ، كما رأينا ، وكأنها نقطة الختام بالنسبة لتاريخ الرستميين ، وبذلك ضاعت فى روايتهم معالم تاريخ الفترة الأخيرة من عهد امامة تاهرت الرستمية، التى تقدر بأكثر من اثنتى عشرة سنة ، الى فتح تاهرت واستباحتها على يدى أبى عبد الله الشيعى سنة ٢٩٦ هـ/ ٨ - ٩٠٩ م ، وقتل آخر أمرائها وهو يقظان بن محمد أبى يقظان بن أفلح •

ابناء الامام ابى حاتم يحرضون ابا عبد الله الشيعى :

يقظان بن محمد ابى يقظان آخر الأئمة الرستميين فى تاهرت (٢٩٤هـ - ٩٠٧م / ٢٩٦ هـ - ٩٠٩ م) :

يتضح من القطع المتناثرة فى اخبار السنوات الأخيرة لامامة تاهرت ، التى خصصها أبو زكريا لتاريخ بدء الدعوة الشيعية فى كتامة وقيام الدولة الفاطمية فى المغرب والتى رأى الدرجينى أن يختزلها ان الامام أباحاتم يوسف راح ضحية مؤامرة قام بها أفراد أسرته وشارك فيها بعض الفقهاء ، مثل : أبى الخطاب وسيم (ابن سنتين الزواغى) أحد حفدة أبى الخطاب (الكبير) المعافرى ، وذلك فى سنة ٢٩٤هـ/٩٠٧م (٣٥٢). وانتهت بولاية ابن اخيه يقظان ابن اليقظان • فعندما سار أبو عبد الله الشيعى - الذى يعرف عند كتاب الاباضية بالايكجانى ، نسبة الى قلعة آيكجان التى اعتصم بها فى نظر مدينة

---

(٣٥٢) انظر ابو زكريا ، ص ٤٤ - ب : «حيث يقول ان تلوسة الجبل عاتبته على انه « الزم الامر ليقظان ، وانه اعتذر من ذلك بانه فعله احتسابا لله • وانظر البارونى ، الازهار الرياضية ، قسم ٢ ص ٢٩١ •

ميلة من بلاد كتامة (٣٥٤) من رقادة في طريقه الى سجلماسة لطلب الامـــام المهدى (٣٥٥) ، خرجت اليه دوسر بنت يوسف مع واحد من اخوتها تشكو اليه مقتل ابيها ، وتطلب منه الانتقام من عمومتها بنى أبى يقظان الذى غدروا به، مما يفهم منه ان السيدة دوسر كانت المحرضة للشيعى على فتح تاهرت (٣٥٦)• والواضح من الرواية انه ما ان اقبل الشيعى على تاهرت حتى خرج اليـــه وجوه أهلها يعلنون الطاعة ويطلبون الأمان • أما زعماء الجماعات المعارضة (المخالفين) ، من . المالكية والواصلية والشيعة والصفرية ، فقد « نافقوه ، كما يقول أبو زكريا ، وشكوا اليه امارة الفرس ، وواعدوه العون من أنفسهم على جميع الرستميين ، وأمروا باستئصال شأفتهم وتوهين شوكتهم »(٣٥٧)، مما يفهم منه ان المقصود بجماعة وجوه أهل تاهرت ، الذين طلبوا الأمان ، هم من افراد الأسرة الرستمية المالكة وانصارهم • وهذا لا يمنع من أن يكون أبناء عمومتهم من أولاد يوسف ، وعلى رأسهم دوسر ابنته ، قد انتهزوا الفرصة لتحريض الشيعى عليهم ، مما كان يهىء لهم النجاة من انتقامه ، وفي نفس الوقت تحقيق الثار لمقتل والدهم •

مجتمع غير متناسق في تاهرت :

وكل هذا يعنى أن عاصمة الرستميين تاهرت كانت تعاني من الانشقاقات المتوالية التى عرفتها جماعة الاباضية منذ وفاة عبد الرحمن الأول بن رستم ، وانها كانت ثمرة ناضجة فى انتظار من يأتى ليقطفها • ولا ادل على الانفصام الذى كان قد وقع بين الأسرة المالكة وبين شعب تاهرت ، مما تقوله النصوص

---

(٣٥٤) انظر الدرجينى ، المخطوط ، ص ٤١ — ب (المطبوع ، ص ٩٢) : حيث اسـم القلعة ايكجان بينما لقب أبى عبد الله الشيعى الكجانى ، وقارن ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٥ — ب ، الذى يسمى الشيعى بابى محمد وسيم ويلقبه بالحجانى ، مما يظن انه من اخطاء النساخ او تصحيفاتهم •

(٣٥٥) انظر فيما بعد ، ص ٥٤٩ •

(٣٥٦) انظر ابو زكريا ، ص ٣٦ — ب ، الذى ينص على ان دوسر اخبرته بقصة ابيها ، وما انتهك من حرمتها ، وان حرصها على الانتقام من قتلة ابيها بلغ الى حد ان « اوعدته من نفسها اذا هو اخذ بثارها ان تزوجه من نفسها » ، ولو انهـا اخلفت بالوعد بعد ذلك : « فتغيبت وهربت من الحجانى (الايكجانى) مخافة ان يتزوجها » ، وانه طلبها فلم يقـدر عليها • وقارن الدرجينى ص ٤٢ ـ أ : حيث اسم « دوسر » منسوخ فى شكل « دوس » ، وانظر المطبوع ، ص ٩٤ و هـ ١ ، حيث الاشارة الى ان صاحب الازهار الرياضية يثبت الاسم فى شكل « دوسره » •

(٣٥٧) ابو زكريا ، ص ٣٦ — ب •

الاباضية س أن الشيخ أبي الخطاب وسيم الذي كانت اليه الزعامة فــي المدينة والذي قام بدور رئيسي في تولية يقظان ، كان يغرم اليتامى والأرامل للظلمة ، ويستفتي نكاريا ، ويقدم في الصلاة خلفيا ومي الأذان نفاثيا(٢٥٨). واذا كان ذلك يعني نوعاً من المداهنة والمداراة من أجل التعايش السـلمي بين الجماعات المتنافرة مذهبيا ، كما يفهم من رد أبي الخطاب على منتقديه(٢٥٩)، فلا شك أن هذه الفيفساء الاباضية كانت من الرقة بحيث لا تتحمـل أية مقاومة ، وهذا ما يفسر استسلام المدينة بالأمان ، ودون مقاومة ..

الشيعة يدخلون تاهرت ويقتلون يقظان :

والمهم أن أعيان تاهرت خرجوا وعلى رأسهم يقظان لاستقبال ابي عبدالله الايكجاني ـ بناء على طلبه أو مبادرة من أنفسهم ـ ، وذلك على بعد أميال من المدينة . وينص أبو زكرياً على أنه بعد حوار قصير سأل فيه الشيعي الأمير الرستمي عن اسمه ورد فيه بجفاء عليه ، قائلا له : بل اسمك حيران بدلا من يقظان ، قبل ان يتبع ذلك بتعنيفه على سوء السيرة وقتل أخيه ابي حاتم يوسف ، اذ قال له : « وكيف قتلتم أميركم ، وسلبتم لأنفسكم ملككم ، فاطفيتم نور الاسلام بغير سبب ، وألفيتم بأيديكم الينا بغير قتال »؟ وبعد ذلك أمر بقتل يقظان وأبنائه الذين نفذ فيهم الحكم فقتلوا عن آخرهم (٢٦٠)..

تخريب تاهرت واخذ ذخائرها :

ومع ان الروا ية تنص على أن أبا عبد الله الشيعي دخل تاهرت بالأمان فانها تشير الى أنه عدر : فانتهب مدينة الأئمة وانتهك حرمتها ، وأحلا كثيرا من أهلها ، وجعل أعزة أهلها أذلة (٢٦١) . ولم يكتف الشيعي بقتل يقظان وابنائه بل أنه اتبع ذلك بقتل « أهل بيت الامامة من الرستميين ، وأهل الملك ، وأهلك الحرث والنسل(٢٦٢)» .

وكان من الذخائر التي وقع عليها الشيعي في تاهرت صومعة مملوءة

---

(٢٥٨) أبو زكريا ، ص ٤٤ ـ ب .

(٢٥٩) أبو زكريا ، ص ٤٤ ـ ب .

(٢٦٠) ابو زكريا ، ص ٣٦ ـ ب ، الدرجيني ، ص ٤٢ ـ أ (المطبوع ، ص ٩٤) .

(٢٦١) ابو زكريا ، ص ٣٧ ـ أ ، الدرجيني ، المخطـوط ، ص ٤٢ بد (المطبوع ، ص ٩٤) .

(٢٦٢) الدرجيني ، ص ٤٢ ـ ب (المطبوع ، ص ٩٤) .

بالكتب الثمينه ، فأمر باخراج تلك الكتب من مكمنها ، كما تقول الرواية ، واخذ منها كل ما يصلح للملك والحساب (أى للادارة المدنية) ، والقى بقيتها فى النار (أى كتب المذهب) (٣٦٣) .

خروج بقايا الرستمين الى وارجلان :

واذا كانت رواية أبى زكريا تعزو انتقال الشيعى من تاهرت الى هرب السيدة دوسر بنت يوسف التى لم تف بوعدها بالزواج منه ، بعد أن حقق لها أمنيتها وثأر من بنى عمومتها قاتلى أبيها ، فلا بأس من أن يكون الشيعى قد شملها بعفوه بعد أن وقفت الى جانبه . ولا بأس من أن يكون العفو قد شمل أيضا يعقوب بن أفلح ، عم يوسف ويقظان الذى كان له حظ المنافسة على الامامة ، من قبل(٣٦٤) . وذلك أنه بينما تقول بعض روايات أبى زريا انه خرج من تاهرت متوجها الى وارجلان لما سمع باقبال الإيكجانى (٣٦٥) ، يذكر الدرجينى « ان يعقوب بن أفلح وابنة أخيه دوسر خرجا فى خفاء الى جهة وارجلان حتى نزلاها (٣٦٦) . فاذا كان الأمر كذلك يكون يعقوب قد وقف الى جانب ابنة أخيه دوسر فى طلب الثأر لأبيها ، وحينئذ يصح ما نريد استنباطه من أن يكون عفو الشيعى قد شمل كلا من دوسر ويعقوب ، وتكون مسيرتهما الى وارجلان قد تمت بموافقته .

يعقوب بن افلح فى وارجلان :

ولا يضعف من هذا الافتراض ، الذى نراه منسجما مع واقع الحال ، ما تشير اليه رواية تالية ، لابى زكريا ، يقول فيها : انه عندما سار الايكجانى متوجها الى تاهرت « خرج يعقوب بن افلح فى خيل من أصحابه مع عيالاتهم وأهاليهم » . اذ الواضح ان الرواية المنقبية تهدف الى احاطة يعقوب بهالة من الهيبة والشجاعة غير المعادة : فعندما تبعت عساكر العدو القافلة التى كانت تحوى الذرية والأهل الى جانب الرجال وقع عبء حمايتها على يعقوب

---

(٣٦٣) انظر ابو زكريا ، ص ٧ ٣ـ أ ، وقارن الدرجينى ، ص ٤٢ ــ ب حيث يقول : « ان صومعة الكتب هذه كانت مشتملة على ديوان تاهرت أى سجلات المدينة الرسمية ، كما ذكر المزابة (المشايخ من طلبة العلم) » (والمطبوع ، ص ٩٤ ــ ٩٥) .

(٣٦٤) انظر فيما سبق ، ص ٣٧٦ .

(٣٦٥) أبو زكريا ، ص ٣٧ ــ أ .

(٣٦٦) الدرجينى ، ص ٤٣ ــ ب (المطبوع ، ص ٩٤ ــ واسم الأميرة دوس ، كما سبقت الاشارة) .

وحده ، اذ « كان له حصان عظيم فكان يقف للعدو حتى يسير أصحابه » • « وكان فرسه (هذا) يضرب به الامثال في المغرب ، فاذا نظروا اليه وعرفوه وقفوا له من هيبته ••• » وهكذا كان يعقوب يسير خلف قافلة أهله وأصحابه الى أن يلحقهم العدو فيقف وحده — والرحل سائر — ويقف العدو دهشة وعجبا • وهكذا دواليك على طول الطريق ، « حتى آيسوا منه.ورجعوا عنه، هو واصحابه » • ومضى يعقوب بعد أن تفـــــرق عنه معظم اصحابه الى وارجلان (٣٦٧) •

وهكذا يظهر من رواية تلك المطاردة الطريفة أنها منقبية أكثر منهـــا تاريخية ، مما يرجح دعوانا في أنه ربما كان من الأرجح أن يكون يعقوب ابن أفلح قد خرج من تاهرت الى وارجلان بصحبة ابنة أخيه دوسر ، وأن ذلك كان بموافقة أبي عبد الله الشيعي بعد أن وقفوا الى جانبه مع من وقف من النكارية والواصلية والمالكية والخلفية وغيرهم • وتكون تاهرت الرستميين قد سقطت بالأمان دون قتال بين أيدي الفاطميين ، وبذلك تبددت قـــــوى الاباضية هناك في واحات الصحراء ، مثل : وارجلان التي صارت منذ ذلك الوقت من أهم مراكز الاباضية في صحراء المغرب الأوسط (بلاد الجزائر الحالية) ، بعد محاولة فاشلة للاستيلاء عليها من جانب عبيد الله المهدي في رحلة عودته من سجلماسة الى رقادة • وستشهد وارجـــلان منذ ذلك الحين مجتمعا أباضيا مزدهرا يعيد — شيء من الحياء — سيرة تاهرت الرستمية على مستوياتها الاجتماعية والحضارية • وكان من أوائل الأحداث الهامة التي عرفتها وارجلان الاباضية هو الانقسام المذهبي الرابع الذي ينسب الى أبي سليمان بن يعقوب بن أفلح •

وارجلان وريثة تاهرت الرستمية في المغرب الأوسط :

يعقوب بن افلح يجدد سيرة الأئمة الأوائل :

عندما وصل يعقوب بن افلح — بعد سقوط تاهرت — الى وارجلان ، كان حكم الواحة الصحراوية الكبيرة الى رجل يعرف باسم صالح بن جنون ابن يمريان الذي خرج لاستقباله في جموع أهل وارجلان • وبسبب مركزه

---

(٣٦٧) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٤١ — ب : حيث تقول النصوص ان يعقوب بن أفلح مضى واصحابه الى وارجلان ، وانه « نظر الى الطالع في طريقه ذلك فقال لاصحابه : لا يجتمع منكم ثلاثة الا كان عليهـــم الطلب فافترقوا » ، وقارن الدرجيني ، المخطـــوط ، ص ٤٧ — أ (المطبوع ، ص ١٠٤ — ١٠٥) •

الاجتماعي وشرفه وعلمه اقتضت أصول الآداب في ذلك العصر أن يعرض عليه أهل وارجلان ـ ويضمنهم أميرهم صالح بن جنون ، على ما نظن ـ أن يكون أميرا عليهم • وكان من الطبيعي ، أيضا ، أن يرفض يعقوب هذا العرض الذي ، وان كان كريما ، لم يكن مناسبا للامام الأسبق الذي قال للناس وهو يمتنع : « لا يستتر الجمل بالغنم » ، فذهبت تلك الجملة المعبرة مثلا (٣٦٨) •

واشتهر يعقوب في وارجلان بالعلم والتقوى وبانه كان حافظا للقرآن مجيدا له ، وفي ذلك قيل انه عندما سأله بعض الورجلانيين عما اذا كان يحفظ القرآن كله ! رد عليهم قائلا : « معاذ الله أن ينزل على موسى وعيسى عالم احفظ واعرف معناه ، فكيف بكتاب الله ؟ » ، بمعنى أنه : كان يعرف التوراة والانجيل الى جانب القرآن • أما عن ورعه وعبادته فكان مجتهدا في الليل • وفي ذلك يروى أنه قام ذات ليلة يصلي : « فخر عليه السقف » ولكن الله نجاه اذ لم تسقط خشبة السقف التي تقابل رأسه ، مما سمح بانقاذه من تحت الأنقاض (٣٦٩) •

والى جانب العلم والورع ترك يعقوب بن أفلح كثيرا من الآثار ، وذلك بفضل بنيه خاصة • فقد كان له ابنتان وابنتان اخوة أشقاء صحبهما معه من تاهرت ، ولكنه رغم بقائه في وارجلان لمدة طويلة فانه حبس ابنتيه عن التزويج ، مما يفهم منه أنه ربما لم ير في أهل وارجلان من هو كفء لهما • وهذا ما قد يرجحه تزويج يعقوب ـ في آخر الأمر ـ احدى ابنتيه لرجل صالح ، هو : حمو بن اللؤلؤة ، والأخرى لرجل من أهل الدنيا ، اسمه : العز بن محمد • وتضيف الراوية انه كان عند حمو امرأة أخرى ، فلما عرفت بزواجه من ابنة يعقوب « خالطها الهم حتى ماتت (٣٧٠) » • ولا ندري ان كان لهذا الحادث أثره في قبيلة المرأة المتوفاة وهو الامر المحتمل ـ أم لا •

---

(٣٦٨) ابو زكريا ، ص ٤٢ ـ أ ، قارن الدرجيني ، ص ٤٧ ـ أ (المطبوع ، ص ١٠٥ : حيث اسم الشيخ الورجلاني « ابو صالح جنون بن يمريان » الذي هو والد صالح) ، الميل ، ج ٢ ص ٢٥ •

(٣٦٩) ابو زكريا ، ص ٤٢ ـ أ ، وقارن الدرجيني ، ص ٤٧ ـ ب ، الذي ينص على ان يعقوب كان صاحب كرامات وان تلك الحادثة كانت احداها (المطبوع ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦) •

(٣٧٠) ابو زكريا ، ص ٤٢ ـ أ ، وانظر الدرجيني ، ص ٤٧ ـ أ ، ٤٧ ـ ب ، حيث النص على انه كان مع يعقوب ابنتاه وابنة ابن أخيه ، واسم الرجل الذي من أهل الدنيا هو العز بن محمد ، وقارن المطبوع ، ص ١٠٥ : حيث اسم الرجل من اهل الدنيا « حمو بن اللؤلؤ » ، والرجل من أهل الدين « العز بن محمد » •

الافتراق الرابع فى الأباضية بوارجلان : أبو سليمان بن يعقوب مرجع الاباضية فى وارجلان :

أما أهم آثار أبناء يعقوب بن أفلح فى وارجلان ، فهو الانشقاق (الافتراق) الرابع فى الاباضية هناك ، وينسب الى أبى سليمان بن يعقوب • والمعروف أن أبا سليمان كان محبا للدرس ، مثلما كان والده مغرما بالعلم • وكان من أهم الكتب التى درسها فى شبابه أحد الدواوين الذى كان يشك المتمسكون من أهل الدعوة فى اصالته ، حتى قالوا ان يعقوب والده أخذ على ابنه ابى سليمان ذلك ، وحذر منه أهل وارجلان فقال لهم : « لا تطمئنوا اليه (أبى سليمان) فانه درس من ديوان أحمد بن الحسن » ، وهى العصة التى ينبغى الا نأخذها على عواهنها • وبعد وفاة يعقوب بن افلح الذى دفن فى المقبرة الأميرية فى وارجلان ـ وهى المقبرة التى بناها جنون بن يمريان والد الأمير صالح ، والتى كانت خرائبها فى أيام ابى زكريا كالربوة ، والتى يقول الدرجينى انها من المشاهد المزورة ـ احتمع أهل وارجلان على ابنه أبى سليمان واتخذوه مرجعاً لهم فى فتاواهم ونوازلهم • وكانوا يجرون عليه وتلامذته الضيافة الى أن حدث الخلاف بينه وبين بعض كبار المشايخ ، مما أدى الى الانشقاق الرابع الجديد (٣٧١) •

ميل أبى سليمان بن يعقوب الى التشدد فى فتاواه ، والنزاع مع شيخ وارجلان الكبير ابى صالح جنون :

والظاهر من فتاوى مشايخ الاباضية التى وصلت الينا أنها كانت تميل الى الرخص ـ على عكس ما كان يظن ـ وخاصة ما يتعلق منها بأمور الطعام والشراب ، فى الأقاليم شبه الصحراوية التى تمثل أوطان الاباضية ، وان أبا سليمان بن يعقوب كان يميل الى التشدد فى تلك الأمور • وفى هذا المجال كانت أول مسألة أثارها أبو سليمان هى تنجيس الفرث ، وهى المسألة التى عارضها الشيخ أبو صالح جنون ، والد الامير وصاحب المقبرة التى دفن فيها يعقوب ، حتى أنه سمح لنفسه ـ وهو صائم ـ أن يفطر على العصب فيها فرث خوفا من الفتنة فى وارجلان • واستمر الجدل والمناظرة بين أبى سليمان والشيخ جنون فى تلك المسألة حتى تحولت الى مشاجرات ومنازعة ، ثم

---

(٣٧١) أبو زكريا ، ص ٤٢ ـ أ ، وقارن الدرجينى ، ص ٤٧ ـ ب (المطبوع ، ص ١٠٦) •
(٣٧٢) أبو زكريا ، ص ٤٢ ـ ب • وقارن الدرجينى ، المطبوع ، ص ١٠٧ •

انتهت الى المباهلة بين الرجلين ، أي ، طلب حكم الله عن طريق الاستخارة(٣٧٢)٠

المباهلة بين الزعيمين :

وكما كانت العادة في المباهلة : اتفق الرجلان على أن يتباهلا يوم الجمعة ، واخذ الشيخ جنون في العبادة والابتهال الى الله ان ينصر أحب الفريقين اليه ٠ ولما كان يوم الجمعة اقترعوا في موضع بين الكدية العظيمة المعروفة هناك باسم كريمة ، وبين الموضع المعروف باسم تسرسرين ٠ وانتهت المباهلة في مصلحة الشيخ جنون ، كما يقول أبو زكريا ، اذ بعد أن تم « الدعاء على المبطل فضح الله اباسليمان » ، مما دعا الشيخ جنون الى اقامة مصلى — شكرا لله — بتسرسرين ، كان موجودا على أيام أبي زكريا(٣٧٣) ٠

مسالة الخلاف بين السليمانية والوهبية في وارجلان :

ورغم ما تقوله الرواية الاباضية من الانتصار على تحريف السليمانية ، فالظاهر أن تلك المنازعة انتهت بتكريس الانشقاق وخروج فرقة رابعة في وارجلان خالفت أهل المذهب من الوهبية في سبع مسائل تشددت فيها الى حد التحريم ، وهي :

أ — ثلاث تتعلق بالطعام ، من :

١ — تحريم الفرث
٢ — تحريم الجنين بعد ما ذبحت أمه (٣٧٤) ٠
٣ — تحريم العروق التي استبطنت الظهر بعد ما ذبحت الشاة ٠

ب — واثنتان تتعلقان بالطهارة ، من :

٤ — تحريم عرق الجنب ٠
٥ — تحريم عرق الحائض ٠

جـ — وواحدة خاصة بالصوم ، وهي :
٦ — تحريم صوم يوم الشك ٠

>

---

(٣٧٣) أبو زكريا ، ص ٤١ — ب ٠ وقارن الدرجيني ، المطبوع ، ص ١٠٧ ٠
(٣٧٤) ومن الأجنة التي تعرف بالسخال ، انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٨٣ و هـ ١١٨ —

د ـ والاخيرة خاصة بالزكاة : وهى :

٧ ـ تحريم الزكاة للقرابة (٣٧٥) ٠

وهكذا لم تنته خلافات الاباضية الفقهية بسقوط تاهرت ، بل انهم حملوها معهم فى مهاجرهم الجديدة ، رغم عدم وجود الامامة الرستمية التى ظهرت الانشقاقات السابقة وكأنها نوع من المعارضة لها ، باستثناء الافتراق الرابع الذى ظهر فى وارجلان ، وكأنه محاولة من يعقوب بن أفلح وابنه أبى سليمان للم الشمل حولهما ٠ أما الانشقاق الخامس فقد قام فى حيز جبل نفوسة فى بلدة قنطرارة ٠

الافتراق الخامس فى الاباضية بقنطرارة :

ظهر الانشقاق الخامس فى الاباضية ـ مثله فى ذلك مثل الانشقاق الرابع ـ كرد فعل للرخص والتساهل الذى ظهر فى المجتمع الاباضى ، والذى كان نتيجة طبيعية للمعاناة التى كابدها المجتمع فى المناطق الانعزالية التى عاش فيها بعد سقوط تاهرت ، وخاصة من الناحية الاقتصادية ، بعد عصر الازهار الذى عرفه الاباضية على أيام الائمة الاوائل ٠

وصاحب الانشقاق الخامس رجل من أهل قنطرارة اسمه عبد الله ، ويكنى بأبد الله ، واشتهر بلقب السكاك ٠ وعرف والد أبد الله بالصلاح

---

(٣٧٥) أبو زكريا ، ص ٤٢ ـ ب حيث يقول ان تفصيل الخلاف فى هذه المسائل وارد فى كتاب أخبار أبى الربيع سليمان بن زرقون النفوسى ـ الذى لا نعرف ، للأسف ، عن مصيره شيئا ، ولو ان أبا زكريا يشير الى أن بعض معاصريه ادرك ديوان أبى الربيع سليمان ، وكتبه بقرية « تاديوت » ٠ وفى سيرة أبى الربيع ـ الذى كان يفتى فى مسائل الرخص كثيرا ، اذ ينص أبو زكريا (ص ٤٣ ـ ب) على انه كان يرقع جبته برقعة منجوسة بعد أن ينزع بعض أطرافها ، كما كان يسمح لنفسه بشرب كل ما كان من الماء فى كوز قدمته له عجوز وهى تقول له اشرب قليلا ، وذلك بناء على تفسيره للآية التى تقول : « قل متاع الدنيا قليل » ، مثله فى ذلك مثل أبى الخطاب وسيم الزواغى ، معاصر أبى الربيع ، الذى كان لا يرى منازعة رجل ادعى عليه دينار وهو لا يعرفه ، كما كان يفتى رجلا من أغنياء بنى يهراسن أن يعطى الزكاة الى اخ فقير له (ص ٤٤ ـ ب) ـ ينص كاتبنا على أنه كان معاصرا وزميلا لأبى يزيد مخلد بن كيداد المعروف عند مؤرخى المغرب بصاحب الحمار الذى قام بالثورة على القائم والمنصور الفاطميين (ص ٤٣ ـ أ) ، والذى تعتبر دعوته انحرافا جديدا عن مذهب أهل الحق من الوهبية (ص ٤٣ ـ ب ، وقارن الدرجينى ، المخطوط ص ٤٣ ـ ب والمطبوع ، ص ١٠٩ : حيث قراءة اسم قرية ابن زرقون « تابديوت ») ، وهو ما سنعود اليه عند كلامنا فى الدولة الفاطمية ٠

والتقوى ، ووجه ابنه السكاك الى طلب العلم الذى نبغ فيه ، فكانت له اجتهاداته الخاصة التى خالف فيها أهل المذهب • والحقيقة أن المسائل السبعة التى خالف فيها مشايخ قنطرارة تختلف كثيرا عن مسائل الانشقاق الرابع التى نادى بها أبو سليمان بن يعقوب ، مما جعل خصومه من الوهبية الذين سموا أنفسهم بأهل العدل يقفون منه موقفا عدائيا شديدا ، حتى قالوا : انه عندما ولد أبو الله (عبد الله السكاك) في قنطرارة ، بينما كان والده يؤدى فريضة الحج ، رأى هذا الاخير : « انه رأى فيما يرى النائم أنه توالد عنده شيطان » (٣٧٦) • والحقيقة أيضا أن مسائل السكاك الخاصة بالنجاسة والطهارة اذا كانت مقبولة فان المسائل الأخرى الخاصة بأصول التشريع والصلاة تدل على تعصب غير مقبول ، يسمح بالوقوف منها موقف المعارضة الشديدة • ومسائل السكاك السبعة هي :

١ ـ ابطال السنة والرأى ـ مما يعنى انه لا يقبل الا القرآن كمصدر وحيد للتشريع •

٢ ـ صلاة الجماعة بدعة •

٣ ـ الأذان بدعة •

٤ ـ الصلاة لا تجوز الا بالمفهوم من القرآن •

٥ ـ الاجنة نجسة •

٦ ـ الصلاة لا تجوز بثوب فيه القمل •

٧ ـ اذا بالت الدواب في الأندر (القمح أثناء الدرس) لا يطهر الا بالغسل (٣٧٧) •

وهكذا يظهر تشدد السكاك ، فى : أمور التشريع ، والعبادات ، ومسائل الطهارة والنجاسة فى الثياب وفى الطعام ، بشكل يخالف ما اتفق عليه جمهور المشايخ ، سواء فى تاهرت الرستمية ، أو فى مراكز الاباضية المتفرقة فى صحراوات المغرب ، أو فى جبل نفوسة فى العصور التالية ، كما يظهر فى سير المشايخ وطبقاتهم •

وبهذا التعريف المقتضب بالافتراقين الرابع والخامس عقب سقوط تاهرت بين أيدى الفاطميين ، وبعد ذلك بفترة زمنية لا بأس بها ، تكون قد

---

(٣٧٦) ابو زكريا ، ص ٤٥ ـ ب ، وقارن الدرجينى ، المطبوع ، ص ١١٨ •

(٣٧٧) نفس المصدر • ويلاحظ ان الدرجينى يضع بدل نجس الأجنة نجس البقول التى تنبت فى الجنات فى سماد بنى آدم ، وذلك لنجاسة ما نبت عليه •

انتهينا من موضوع الدولة الرستمية في المغرب الاوسط ، فلا يبقى لنا قبل عرض تاريخ المغرب الأقصى حيث الدولة الادريسية الى حين قيام الدولة الفاطمية الا محاولة رسم خريطة لامامة تاهرت .

حدود امارة تاهرت :

رغم ما رأيناه من أن امامة تاهرت كانت تمد نفوذها الى طرابلس وجبل نفوسة ، فانه من الصعب رسم خريطة محددة لامارة الرستميين ، وذلك لأنها كانت مملكة بدوية أو صحراوية تبسط سلطانها على قبائل البادية أو الصحراء . فمع أن هذه القبائل اتخذت بعض المراكز في القرى الجبلية أو الواحات الصحراوية الا أنها ظلت في حالة ميوعة لا يستقر لها قرار ، فكانت تنتقل من مكان الى مكان حسب الظروف الطبيعية أو السياسية . والمثل لذلك هو ما اشرنا اليه من انتقال (النكار) الى ظاهر تاهرت ثم الى حيز طرابلس ، وانتقال عبد الوهاب بن رستم الى جبل نفوسة وخروج أبي حاتم يوسف من تاهرت نفسها الى حصن لواته وأخيرا التجاء يعقوب بن افلح الى وارجلان(٣٧٨) . وهذا يعني أن مسارح الرعي للقبائل التي ساندت الدعوة الخارجية في المغرب الأوسط ، والتي كانت تنتشر جنوبا في كل بلاد الزاب ، دخلت في نطاق الامامة الرستمية .

واذا كانت الاقاليم الساحلية القريبة من تاهرت مثل أسافل وادي شلف قد خضعت للمغرب الاقصى حيث قام الأدارسة في فاس ، فان القبائل الخارجية امتدت في الصحراء غربا حتى فجيج (٣٧٩) وجنوبا بغرب حتى سجلماسة ، حيث أقامت جماعة الصفرية امامة لها هي الاخرى . أما من جهة الشرق فقد رأينا أن خوارج تاهرت أصلا من اقليم طرابلس ، مهد الاباضية في المغرب (٣٨٠) . ولما كانت صحراوات طرابلس الجنوبية امتدادا طبيعيا لصحراوات الريقية والمغرب الاوسط ، حيث تلتقي الطرق الصحراوية في الأقاليم الثلاثة ، فان هذا يعني ان امارة تاهرت امتدت الى منطقة طرابلس وجبل نفوسة ، أو انها كانت متصلة بها بشكل من الاشكال (٣٨١) :

---

(٣٧٨) انظر فيما سبق ، ص ٢١٥ ، ٣٢٥ ، ٣٧٣ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ - ٣٩٩ .
(٣٧٩) انظر جوتييه ، ماضي شمال الريقية (بالفرنسية) ، ص ٣٢١ - ٣٢٣ .
(٣٨٠) انظر فيما سبق ، ص ٢٩٠ وه ٧ .
(٣٨١) انظر فيما سبق ، ص ٣٢٦ ، ٣٥١ وانظر فيما بعد ، ٤٠٦ .

واذا كانت المصادر التى بين أيدينا لا تبين حدود الامامة الرستمية والبلدان الداخلة في نطاقها ، فانه يمكن القول ان كل اقليم من الأقاليم والقرى التى كانت تدين بمذهب الخوارج وخاصة الاباضية ـ كانت داخلة في سلطان تاهرت • وفى هذا المجال تكون كتب الجغرافية والرحلة أهم مصادرنا ، ولو أن معظمها تم تاليفه بعد انتهاء تاهرت على أيدى الفاطميين وانتشار آباضيتها في واحات الصحراء ، مما يمكن أن يكون قد ترتب عليه ازدياد انتشار المذهب فى الواحات الجنوبية ،بالشكل الذى يشير اليه الكتاب(٣٨٢) •

واذ ما قبلنا هذا المنهج على علاته يكون امتداد مملكة تاهرت ما بين جبل نفوسة شرقا وتاهرت غربا • فأهل جبل نفوسة كانوا آباضية متعصبين الى مذهبهم ، مفضلين اياه على سائر المذاهب (٣٨٣) ، وما زالوا على ذلك الى اليوم •

وهكذا كان تاريخ هذا الجبل طوال حياة امامة تاهرت جزءاً من تاريخ تلك الامارة ، وهذا ما ينص عليه اليعقوبى (٣٨٤) • ولقد كان جبل نفوسة مركز اشعاع للمذهب الاباضى فى كل الاقاليم المجاورة ، كما يتضح من كتب أهل الجبل التى وصلت الينا ، من : أبى زكريا والدرجيني والوسياني ومن نقل عنهم مثل الشماخي (٣٨٥) ومن أتى بعده من المحدثين كالباروني ،فالمفهوم

---

(٣٨٢) انظر البكرى ، ص ٧٩ (عن انتقال اهل تاهرت الى مدينة فكان على مسيرة ٤ مراحل سنة ٣٣٨ هـ وتمدينها على أيديهم) • وأنظر ص ٣٩٨ وما بعدها •

(٣٨٣) الشماخى ، ص ٣١٦ •

(٣٨٤) انظر البلدان ، ص ٣٤٦ (حيث يقول عن نفوسة وهم قوم عجم الألسن اباضية كلهم ، لهم رئيس يقال له الياس لا يخرجون عن امره ، ومنازلهم فى جبال طرابلس فى ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة لا يؤدون خراجا الى سلطان ولا يعطون طاعة الا الى رئيس لهم بتاهرت ، وهو رئيس الاباضية ، يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ـ فارسى)• وقارن ابن حوقل (ط بيروت) ، ص ٩٣ : حيث يقول ان جبل نفوسة كان دار هجرة الخوارج من قديم الأيام • بل وينص على أن عبد الله بن اباض وقبله عبد الله بن وهب الراسبى ماتا به ، وانه لم يدخل أهل هذا الجبل فى عهد الاسلام اى سلطانه ولا سكنه غير الخوارج مذ أول الاسلام ، بل مذ خروجهم على على بن أبى طالب ووقعة النهروان •

(٣٨٥) ونكتفى هنا بالنظر فى الشماخى ، ص ٢١ (عن تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى جبل نفوسة واصلاح الأسواق : ••• عاقبوا القصاب على نفخ الشاة ، ومنعو الجمال ان يحمل على دابته فوق طاقتها ••• ، ص ٢٢٨ (رجوع الفضل الى قاضى الجبل عمروس بن فتح فى نقل مدونة أبى غانم الخرساني ، وهى فى ١٢ جزءا ، ولولاها لبقى أهل المذهب من غير ديوان بالمغرب يعتمدون عليه ـ وذلك بعد سقوط تاهرت واحراق كتبها) • ولو انه ينقل بعض هذه المعلومات عن مؤرخى تاهرت مثل ابن الصغير (أنظر فيما سبق ص ٣٦٦) •

ان المذهب انتشر منه الى الصحراوات الجنوبية فى فزان وودان (٣٨٦) • وفى غرب نفوسة انتشر الخوارج فى أرض نفزاوة (٣٨٧) • وفى الاقليم الساحلى انتشروا ما بين طرابلس وقابس ، وكانت أشهر مراكزهم الساحلية جزيرة جربة(٣٨٨) • وانت واحات قسطيلية وبلاد الجريد — فى الأقاليم الجنوبية لافريقية من قواعد الخارجية الهامة (٣٨٩) • وفى الغرب من افريقية كان جبل أوراس من أقوى معاقل الخارجية (٣٩٠) •

وبعد ذلك تأتى بلاد الزاب — المؤدية الى ورجلة (وارجلان) — التى كانت تعتبر من أعمال مملكة تاهرت (٣٩١) • أما من جهة المغرب الاقصى فلقد سيطر الخوارج على الصحراء حتى سجلماسة التى عرفت كمركز للصفرية • وعن طريق الواحات وسجلماسة ، وأودغست فى جنوبها ، نقل الخوارج نشاطهم الى بلاد السودان فى تادمكت (تادمكة) وغانة ثم مالى — فيما بعد — حيث نشروا الاسلام وجمعوا كثيرا من الثروات فى العصور التالية للامامة(٣٩٢) •

---

(٣٨٦) الشماخى ، ص ١٩٠ (حيث يخصص فصلا لتراجم اباضية اهل فزان) •

(٣٨٧) عن خوارج نفزاوة انظر ابن حوقل ، طبعة بيروت ، ص ٩٣ •

(٣٨٨) البكرى ، ص ٨٥ ، الشماخى ، ص ١٦١ • وانظر ص ٤١٦ حيث يقول ان اهل جربة حكار ، وعن عقيدتهم ، ص ٥٦٢ • وعن جربة يقول ابن خلدون (ج ٦ ص ١٢٢) انهم من بطون قبائل لماية — حلفاء الرستميين — وبهم سميت الجزيرة البحرية تجاه قابس •

(٣٨٩) ابن حوقل ، ص ٩٣ (يذكر وجود الخوارج فى قفصة ونفطة والحامة وسماطة وبشرى) والشماخى ، ص ٣٤٧ (الحامة) ، ص ٣٥٠ (الجريد) ، ص ٤٠٣ (توزر) ، وعن قسطيلية (يكتبها فى شكل قسطالية) ص ٢٨٠ •

(٣٩٠) البكرى ، ص ١٤٤ (تسكنه قبائل مراتة وضريسة وكلهم اباضية) •

(٣٩١) من مدن الزاب القريبة من اوراس باغاية وكلهم اباضية على ايام البكرى (البكرى ، ص ١٤٤) ، وكذلك اهل طبنة وبادس (ابن حوقل ، ص ٩٣) ، وتهودة — حيث كان يسكن فى جوفيها هوارة ومكناسة وهم من الاباضية (البكرى ، ص ٧٢) — وبسكرة (ابن حوقل ، ص ٩٣) ، وعن ورجلان وخوارجها انظر الشماخى ، ص ٣٥١ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٤١٨ •

(٣٩٢) انظر الوسيانى ، المخطوط ، ص ٢٦ — أ (غانة وتادمكت) ، ص ٥٣ — أ (طريق القبلة) ، ص ٨٢ — ب (تادمكت) الخ ، وقارن الشماخى حيث نجد خلال تراجم الشيوخ امثلة لهذا النشاط ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ (عن نشاط الاباضية بسجلماسة) ص ٤٧٨ (عن رحلاتهم الى أودغست) ، ص ٣١٢ عن تبشير ملك السودان ودخوله الاسلام) ، ص ٤٥٧ (عن نشاطهم فى جمع التبر والدعوة الى الاسلام فى غانة) ، وعن نشاطهم فى جمع الأموال فى تادمكت ، ص ٤١١ •

الفصل الرابع

إمامة بني واسول الصُفرية في سجلماسة

(١٤٠ هـ / ٧٥٧ م - ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م)



موضع سجلماسة :

تقع سجلماسة فى شمال وادى درعة ، على طرف الصحراء جنوبا فى آخر بلاد العمران ، وتليها المفازة الكبرى التى تؤدى الى غانة من بلادالسودان، وكان يسكن تلك المفازة قبائل الملثمين الصنهاجية من مسوفةولمتونة (١) • ومنطقة سجلماسة تعرف الآن باسم تافللت(٢)• أما المدينة القديمة (الريسانى حاليا) فلم يبق لها الا الذكر • والمعروف ان مدينة سجلماسة لم تكن قديمة، بل محدثة : مثلها مثل تاهرت ، وأن بناتها كانوا من الصفرية من قبيلة مكناسة • ولقد كانت قبيلة مكناسة من أهم قبائل البربر التى أيدت ثورة ميسرة فى اقليم طنجة (٣) •

والحقيقة أنه يوجد طريق قديم هام ، سلكته الهجرات والقوات الفاتحة ، يربط شمالا بين مدينة فاس ومدينة مكناسة ـ التى مازالت تحمل اسم تلك القبيلة ـ وبين اقليم تافللت أى سجلماسة جنوبا (٤) •

بناة المدينة :

وينسب ابن عذارى بناء المدينةالى أبى القاسم سمغون بن واسول المكناسى،

---

(١) كتاب الاستبصار • ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ والهوامش •

(٢) انظر فيما سبق (تفللت) • ج ١ ص ٧٣ •

(٣) انظر فيما سبق • ج ١ ص ٢٨٦ • وابن خلدون • ج ٦ ص ١٣٠ (الفصل الخاص بمكناسة ودولة بنى واسول) •

(٤) انظر جوتييه ، ماضى شمال افريقية (بالفرنسية) • ص ٣١٧ (هذا الطريق يسمى « طريق السلطان » كما يقول جوتييه)

الذى « كان صاحب ماشية كثيرة ، وكان ينتجع موضع سجلماسة »(٥) · والحقيقة ان ابن واسول هو مؤسس الأسرة التى ستسود سجلماسة الى قيام الدولة الفاطمية ، نظرا لغناه ، ولأنه كان يرتاد تلك المنطقة التي كانت سوقا يجتمع فيه بربر تلك النواحى (٦) · أما عن بانى المدينة الحقيقى أو مؤسس الجماعة الخارجية في سجلماسة ، فهو ـ كما ينص البكرى وابن خلدون وكما يشير ابن عذارى أيضا ـ رجل سوداني الأصل من الموالى ، اسمه عيسى بن يزيد الاسود (٧) · ويتفق صاحب الاستبصار وابن عذارى وابن خلدون على أن جماعة من الصفرية يبلغ عددها ٤٠ (أربعين) رجلا اجتمعوا ، في سنة ١٤٠ هـ/٥٧ ـ ٧٥٨ م ، في موضع سجلماسة حيث تداولوا في أمرهم ، وبعد أن قدموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الاسود ـ الذي كان له شأن بين الخوارج ـ شرعوا في بناء سجلماسة (٨) ·

والمفهوم ، بطبيعة الحال ، أن جماعة الصفرية هؤلاء من فلول اصحاب ميسرة · واختيار رجل من السودان للامامة هنا يبين اتجاه الجماعة الصفرية الى تطبيق مبدأ اللاعنصرية و (اللاعصبية) للامام ، وهو الشرط الذى أشرنا اليه عند اختيار عبد الرحمن بن رستم (٩) · وذلك حتى يمكن التخلص من الامام اذا ما حاد عن العدل ، وهذا ما ستفعله جماعة سجلماسة بامامها عيسى ابن يزيد · ومع ان البكرى يذكر ان بناة سجلماسة من الصفرية ، الا أنه يجعل عيسى بن يزيد الاسود من أصحاب أبى الخطاب الاباضى ، وينسب

---

(٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٦ · وقارن ، ابن خلدون (ج ٦ ص ١٣٠) الـذى يسميه سمكو (سمجو) بن واسول بن مصلان بن أبى يزول ·

(٦) الاستبصار ، ص ٢٠١ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٦ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٠ ·

(٧) البكرى ، ص ١٤٩ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٠ والترجمـة ، ج ١ ص ٢٦١ ، ابن عذارى ج ١ ص ١٥٦ ·

(٨) نفس المصادر السابقة · ونلاحظ هنا أن صاحب الاستبصار (ص ٢٠١) يخطىء عندما ينسب بناء مسجد سجلماسة فى سنة ١٤٠ هـ الى مدرار بن عبد الله ، وينسب اليه انه كان رحلا من أهل الحديث وانه لقى عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه (عن عكرمة البربرى الأصل والمتوفى سنة ١٠٧ هـ/٧٢٢ م انظر ترجمـة ابن خلدون ، هامش ٢ ص ٢٠٣) · والظاهر انه يقصد والده سمغون بن واسل كما ينص على ذلك ابن خلدون (ج ٦٦ ص ١٣٠ والترجمة ج ١ ص ٢٦١) · أما عن مدرار فسيكون له دوره فى عمران المدينة كمـا سنرى فيما بعد ·

(٩) انظر فيما سبق ، ص ٣٠١ ·

عزل عيسى بن يزيد والتخلص منه الى مقالة قالها أبو الخطاب في حقه (١٠) • وهذا يعنى أن قيادة جماعة سجلماسة كانت اباضية الأصل •

ومع ان البكرى يخطىء عندما يجعـــل مقالة ابى الخطــاب سببا في عزل عيسى الذى ولى ١٥ (خمسة عشر) عاما ، اى انه عزل فى سنة ١٥٥ هـ/ ٧٧٢ م بعد أكثر من عشر سنوات من مقتل ابى الخطاب ، فان ذلك لا يعنى نفى ان عيسى كان من أصحاب ابى الخطاب • فمن الممكن أن يكون قائل المقالة التى اودت بعيسى هو ابو حاتم خليفة أبى الخطاب (١١) ، وليس الأخير نفسه• هذا . كما يمكن التفكير فى أن تكون المقالة لعبد الرحمن بن رستم الذى كان له زعامة الخوارج فى المغرب فى ذلك الوقت • ويمكن أن يؤيد وجهة نظرنا هذه أن صفرية سجلماسة كانوا على علاقة وثيقة باباضية تاهرت مما جعل التفرقة صعبة بين الاباضية والصفرية ، حتى ان ابن خلدون يقول عن سمغون (سمكو) بن واسول انه كان اباضيا صفريا (١٢) • وهذا الأمر مقبول ، فالحركة الخارجية كانت قد انتهت منذ سنة١٢٣ هـ أو١٢٤ هـ فى المغـرب الأقصى ، وتسلمت أقاليم المغرب الادنى قيادة الحركة بعد أن غيرت تعاليمها، وجعلتها اباضية أكثر اعتدالا تحت قيادة ابى الخطاب •

سجلماسة الأولى وتطورها العمرانى :

والذى يهمنا هنا هو أن سجلماسة فى أول أمرها ، عندما كانت منزلا لسمغون بن واسول ، لم تكن بأكثر من مجمع للخوارج الصفرية يضربون فيها خيامهم (١٣) • وأخذ المنزل البدوى يتطور مع تطور الاحداث ، فبعد انتخاب عيسى بن يزيد الاسود اماما « شرعوا فى البناء »(١٤) • ولكنه كان بناء ساذجا بطبيعة الحال ، يتفق مع بساطة الجماعة فى ذلك الوقت : بمعنى أن سجلماسة لم تكن بأكثر من قرية صحراوية • وظلت المدينة ، بعـــد التخلص من عيسى بن يزيد ، على شكلها هذا على أيام ابى القاسم سمغون

(١٠) انظر البكرى ، ص ١٤٩ (قال ابو الخطاب يوما لأصـــحابه فى مجلس عيسى : السودان كلهم سراق حتى هذا . واشار الى عيسى فأخذوه وشدوه وثاقا الى شجرة فى رأس جبل وتركوه حتى قتله البعوض ، فسمى الجبل جبل عيسى الى اليوم) ، وقارن ابن خلدون ج ٦ ص ١٣٠ وعن أبى الخطاب انظر فيما سبق ، ص ٤٠١ وما بعدها •

(١١) عن أبى حاتم انظر فيما سبق ، ص ٣٧١ وما بعدها •

(١٢) العبر ، ج ٦ ص ١٣٠ والترجمة ، ١ ص ٢٦٢ (هذا وان ابن خلدون يذكر بعد ذلك ان بعض الأئمة كان صفريا وبعضهم كان اباضيا) •

(١٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٦ (وسكنوا معه هنالك فى خيمات) •

(١٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٦ •

ابن واسول (١٥٥ — ١٦٨ هـ/٧٧٢ — ٧٨٤ م) (١٥) ثم ابنه الياس بن ابى القاسم (١٦٨ — ١٧٤ هـ/٧٨٤ — ٧٩٠ — ٧٩١ م)(١٦) •

وعلى أيام الرابع من أمراء سجلماسة ، وهو اليسع بن ابى القاسم ، الذى خلع أخاه الياس والذى عرف بأبى الوزير ، وطالت امارته الى ما يزيد على ثلث قرن (١٧٤ — ٢٠٨ هـ/٨٩٠ — ٨٢٣ م) ، اتخذت سجلماسة شكل العاصمة • فلقد عرف اليسع بن سمغون بنشاطه وجده فى سبيل تقوية الامارة الصفرية ، وتوسيع رقعتها ، حتى وصفه الكتاب بأنه كان جبـــارا عنيدا (١٧) • اخضع اليسع قبائل البربر المحيطة بسجلماسة ممن لم تكن قد خضعت لهم وادخلها فى طاعته ، فكان صاحب الفضل فى نشر المذهب الصفرى(١٨) • وانتشر سلطان اليسع حتى وادى درعة ، وبفضل ما كان يأتيه من الأموال وخاصة ما كان مفروضا على مناجم درعة (خمس معادن درعة) ، ازداد العمران فى سلجماسة • ويرجع الفضل الى اليسع — كما قلنا — فى أن اتخذت المدينة شكل العاصمة اذ جعلها مقرا له ، وبنى فيها القصور والدور ، وخزانات المياه (المصانع) ، وبذلك اتم بناءها وتشييدها ، كما يقول ابن خلدون (١٩) •

وكان من الطبيعى أن يحيطها — بعد ذلك — بسور قوى حتى يأمن فيها من عدو يطرقه • ولما كانت المنشآت ذات المنافع العامة تعتبر من أعمال البر والتقوى ، رأى امام سجلماسة أن يكون السور، الذى يحمى المدينة والجماعة،

---

(١٥) انظر البكرى ص ١٤٩ (يقول انه مات فجاة فى صلاة العشاء بعد ١٣ سنة) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٦ (يقول فلم يزل واليا عليهم الى ان مات سنة ١٦٨ هـ) ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١٣٠ والترجمة ج ١ ص ٢٦٢) الذى يقول انه حكم ١٢ سنة ومات فجاة سنة ١٦٧هـ •

(١٦) انظر البكرى (ص ١٥٠ الذى يقول ان الياس كان يلقب بابى الوزير) ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١٣٠ والترجمة ج ١ ص ٢٦٢) الذى يلقبه بالوزير ، والأصل يجعل وفاته سنة ١٩٤ هـ وهى فى الترجمة سنة ١٧٤ هـ ، وقارن ابن عذارى (ج ١ ص ١٥٦) الذى يقول ان حكمه سنتان فقط ويجعل خلعه بيدى اخيه اليسع فى سنة ١٧٠ هـ ، ويظهر خطأ ابن عذارى هنا عندما يجعل وفاة اليسع سنة ٢٠٨ هـ ويحسب سنى حكمه فيجعلها ٣٤ سنة (ص ١٥٧) • فلكى يكون هذا الرقم صحيحا ينبغى أن تكون ولاية اليسع سنة ١٧٤ هـ •

(١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ •

(١٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٠ (وكان صفريا •••) •

(١٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٠ — ١٣١ ، والترجمة ج ١ ص ٢٦٢ •

من عمله هو لا يشاركه فيه أحد (٢٠) • ويضيف صاحب الاستبصار الى ذلك، ان جملة النفقة على السور بلغت ألف مد من الطعام (٢١) ولقد بنى السور بالحجارة من أسفله وبالطوب من أعلاه (٢٢) •

هذا ويقول صاحب الاستبصار أنه كان لمدينة سجلماسة ١٢ (اثنا عشر) بابا ، ولكننا نظن أن ذلك كان على ايامه هو ، بعد أن عظمت المدينة في عهد المرابطين الذين وجهوا جهودهم نحو بلاد السودان التي كانت سجلماسة بابها • ولهذا السبب اعتبرها صاحب الاستبصار « من أعظم مـــــدن المغرب » (٢٣) •

أما عن تاريخ بناء السور فيحدده ابن خلدون بالسنة الـ ٣٤ (الرابعة والثلاثين) من ولاية اليسع (٢٤) ، أى فى السنة الاخيرة من حكمه ، وهى سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣ ـ ٨٢٤ م • وهذا يعنى أحد شيئين : اما أن السور قد تم بناؤه خلال سنة واحدة (سنة ٢٠٨ هـ) ، واما أن يكون اليسع قد بدأ البناء وأكمله بعده ابنه مدرار (سنة ٢٠٨ ـ ٢٥٣ هـ/٨٢٣ ـ ٨٦٧ م) الذى اتخذ اللقب الخلافى « المنتصر » (٢٥) • وذلك ما يؤيده اللبس الذى وقع فيه البكرى ، وتبعه فيه صاحب الاستبصار ، عندما نقلا بعض الروايات التى تنسب بناء سجلماسة نفسه فى سنة ١٤٠ هـ/٥٧ ـ ٧٥٨ م الى مدار بن اليسع (٢٦) • ولما كان المعروف أن مدرار ملك ابتداء من سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣م، قالت تلك الرواية أن مدرار المقصود كان رجلا حدادا « من ربضية قرطبة ، خرج من الأندلس عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة ، وموضع سجلماسة اذ ذاك سوق البربر بتلك النواحى ، فأنشأ مدرار خيمة وسكنها فبنى الناس حوله ، فكان ذلك أصل عمارتها ، وكان رجلا أسود وأولاده هجوا بذلك »(٢٧) • وواضح من تلك الرواية ان المقصود بمدرار فيها هو

---

(٢٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ •
(٢١) الاستبصار ، ص ٢٠١ •
(٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ •
(٢٣) الاستبصار ، ص ٢٠١ •
(٢٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٠ والترجمة ج ١ ص ٢٦٢ •
(٢٥) عن تلقيبه بالمنتصر انظر البكرى ، ص ١٥٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ ـ ابن خلدون ، ج ٦ ،ص ١٣١ والترجمة ج ١ ص ٢٦٢ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٠١ •
(٢٦) البكرى ، ص ١٤٩ ، الاستبصار ، ص ٢٠١ •
(٢٧) الاستبصار ، ص ٢٠١ ، البكرى ، ص ١٤٩ •

عيسى بن يزيد الأسود أول امام لسجلماسة ، وهذا يعني أن تلك الرواية خاطئة ، كما ينص على ذلك البكرى نفسه (٢٨) ٠

ورغم خطأ تلك الرواية فالظاهر أنها تحوى شيئا من الحقيقة ٠ ففى سنة ٢٠٢ هـ/٨١٧ م أى قبيل الوقت الذى بدأ اليسع ينشيء فيه السور (سنة ٢٠٨ هـ) ، وقعت فى قرطبة الفتنة المشهورة « بوقعة الربض » والتى انتهت بأن خرب الحكم ابن هشام الحى الجنوبى الكبير من قرطبة ، المعروف بالربض أى الضاحية ، وطرد أهله من الأندلس ، فسار كثير منهم الى المغرب ، كما اشتركت أعداد منهم مع الغزاة فى مغامرات كبرى عبر البحر انتهت بهم الى الاسكندرية ثم الى كريت (أقريطش) (٢٩) ٠والمعروف ان أولئك الربضيين الذين ساروا الى المغرب وصلوا فى الوقت الذى كانت فيه تنشأ مدينة فاس، وانهم اشتركوا فى اعمارها ، واتخذوا لهم حيا فيها سمى باسمهم فهو « عدوة الاندلسيين » (٣٠) ٠

وبناء على ذلك نرى انه ربما كانت مدرار الربضى أصلا من الصحة ، ولا يستبعد أن يكون بعض هؤلاء الربضيين ، الذين أوغلوا فى المغامرة حتى شرق البحر المتوسط قد اتخذوا طريق الهجرات القديم المؤدى من منطقةفاس الى سجلماسة (٣١) ، وان اليسع بن ابى القاسم سمغون رحب بهم واستعان بهم فى بناء السور سنة ٢٠٨ هـ ، ولكنه مات فى نفس السنة قبل أن يتم السور ، فأكملوه على عهد ابنه مدرار المنتصر ، وعن هذا الطريق يمكن تفسير التصاق اسم مدرار بالربضيين ٠

ونعتقد أن حركة العمران الكبيرة التى عرفتها سجلماسة أيام اليسع ، من بناء القصور والدور والمصانع ، والتى جعلت المدينة بحق عاصمة الجنوب، تمت بمشاركة الأندلسيين من أهل قرطبة ، وذلك انه كانت قد وقعت عدة اضطرابات فى ربض قرطبة قبل ثورة سنة ٢٠٢ هـ ٠ والحقيقة ان انتقال سجلماسة من قرية صحراوية الى عاصمة من عواصم المغرب لابد له من تفسير مثل هذا ، مثل سجلماسة فى ذلك مثل مدينة فاس ٠

---

(٢٨) البكرى ، ص ١٤٩ ٠

(٢٩) انظر ليفى بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية (بالفرنسية) ، طبعة ١٩٤٤ ص ١١٩ — ١٢١ ، وانظر للمؤلف ، تاريخ الاسكندرية من الفتح العربى الى قيام الفاطميين ، فى كتاب تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور ، الاسكندرية ١٩٦٣ ، ص ٢٦٧ ، ٢٧٥ ٠

(٣٠) انظر فيما بعد فى جغاء مدينة فاس ، ص ٤٤٢ ٠

(٣١) انظر فيما سبق ص ٢٢٨ ٠

مدرار بن اليسع : مرحلة أولى (٢٠٨ هـ/٨٢٣ م — ٢٢٤ هـ/٨٣٩ م)

الاضطراب في سجلماسة يعقبه فترة ازدهار :

والظاهر أن سجلماسة عرفت فترة من الاضطراب فى السنة الاخيرة من حكم اليسع أو بعد وفاته فى سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣ م بسبب التنافس على الملك بين الأمير السابق الياس وبين ابن أخيه ولى العهد مدرار بن اليسع . وهذا ما يمكن أن يكون حلا للمشكلة التى يثيرها ابن عذارى فى حولياته سنة ٢٠٧ هـ/٨٢٢ م عندما يقول انه بعد وفاة اليسع فى تلك السنة : « قدم أهلها (سجلماسة) على أنفسهم أخاه الياس المنتصر بن أبى القاسم الذى كانوا خلعوه (٣٢) » ، وهو الأمر الذى يخالف ما يذكره فى الفصل الخاص بالتعريف بسجلماسة عندما يذكر ان اليسع توفى سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٣ م « ثم ولى ابنه مدرار بن اليسع ، وهو المنتصر بن سمغون المتقدم ذكره »(٣٣) .

والواضح من نتف النصوص التى وصلتنا ، هو أن سجلماسة واصلت عهد الرقى والازدهار على أيام مدرار بن اليسع ، الذى كان يزهو بمصاهرته لأئمة تاهرت اذ كان قد تزوج منذ ايام والده باحدى الاميرات الرستميات التى كان لها شأنها فى سجلماسة حتى انها أعطت اسمها ، وهو أروا الى ابنها ميمون بن مدرار ، فاشتهر باسم ابن أروا وبابن الرستمية(٣٤) . ولما كانت النصوص تقول ان أروا هى ابنة عبد الرحمن بن رستم الذى توفى سنة ١٦٨ هـ/٧٨٤ م فان ذلك يعنى أن مدرار بن اليسع لم يكن فى مقتبل العمر عندما ولى الامامة الصفرية سنة ٢٠٨ هـ /٨٢٣ م ، بل كان شيخا مسنا . وهذا ما يؤيده الاضطراب الذى حدث فى سجلماسة سنة ٢٢١ هـ/٨٣٦ م اى بعد حوالى ١٣ (ثلاثة عشر) سنة من ولاية مدرار ، وذلك بسبب الصراع على السلطنة بين ولديه ميمون بن أروا الرستمية والآخر الذى عرف بابن بقية ، نسبة الى والدته هو الآخر ، كما نظن (٣٥) .

---

(٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٧ (فى ذكر ولاية زيادة الله بن الأغلب الريقية وبعض اخباره) .

(٣٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٣٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٣٥) انظر بن عذارى ، اخبار سنة ٢٢١ ، ج ١ ص ١٠٦ ، والتعريف بسجلماسة ، ص ١٥٧ ، وقارن البكرى (ص ١٤٩) ، الذى ينقله ابن عذارى ، كما نظن ، حيث القراءة تقية بدلا من بقية ، كما يقول ان اسم ابن بقية هو ميمون أيضا .

الصراع على السلطنة فى سجلماسة بين ولدى مدرار ، ميمون وابن بقية :

والذى يفهم من الرواية هو أن مدرار بن اليسع ، وهو الامام ، كان يقف موقف المتفرج على ولديه اللذين ظلا يتقاتلان طوال ثلاثة أعوام ، من سنة ٢٢١ هـ/٨٣٦ م الى سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٩ م • وفى السنة الأخيرة وقف مدرار الى جانب ابنه ميمون بن الرستمية ، فمال اليه أهل سجلماسة وبذلك رجحت كفته ، ونجح فى اخراج أخيه ابن بقية من سجلماسة •

استبداد ابن الرستمية ، وعودة الأمر الى مدرار :

وما أن استقرت الأمور لميمون حتى رأى أن يستقل بالأمر تماما ، فأمر باخراج والده مدرار ووالدته أزوا الى بعض قرى سجلماسة التى لا يذكر النص اسمها ، والتى يمكن أن تكون بلدة درعة التى ساهمت بحظ وافر فى الاضطراب الذى عرفته سجلماسة حينئذ (٣٦) • اذ يتضح من النصوص المقتضبة ان ميمون بن مدرار لم يحسن السيرة او أنه لم ينجح فى اكتساب قلوب أهل سجلماسة لوقت طويل ، اذ لم يلبثوا أن ثاروا به وخلعوه من الامارة ، وبذلك تمهد الطريق من جديد امام والده مدرار ، بمعونة أخيه ابن بقية ، لكى يعود الى الامامة (٣٧) •

ابن بقية أميرا : الى سنة ٢٦٣ هـ/٨٧٦م :

والظاهر أن مدرارا ظل مواليا لابنه ميمون بن الرستمية الذى كان مقيما فى درعة ، وأنه أراد أن يتقوى به فى سجلماسة فأرسل اليه يستدعيه هو وأعوانه من درعة • وهنا ثارت ثائرة أهل العاصمة الذين توجهوا الى قصر مدرار وضربوا عليه الحصار الذى انتهى بخلعه واعلان امامة ابنه « ابن بقية » الذى اشتهر بلقب « الامير »(٣٨) • وعلى عهد ابن بقية الذى لا نعرف تحديدا زمنيا لبدايته توفى مدرار بن اليسع والده ، اى قبل سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م ، وهى سنة وفاة ميمون «الأمير» بن بقيه . وهو فى الامامة (٣٩) •

---

(٣٦) انظر ابن عذارى ، الحوليات سنة ٢٢٤ هـ ، ج ١ ص ١٠٧ ، والتعريف بسجلماسة ص ١٥٧ ، وقارن البكرى ، ص ١٤٩ •

(٣٧) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ حيث يقول ان اهل سجلماسة بعد ان خلعوا ميمون « ارادوا خلع أبيه وتقديم أخيه بن بقية ، فابى أن يتآمر على ابيه ، فاعادوا اباه مدرارا بعد خلعه ، وقارن البكرى، ص ١٤٩ •

(٣٨) البكرى ، ص ١٤٩ •

(٣٩) ابن عذارى ، ج ١ (التعريف بسجلماسة) ص ١٥٧ ، وقارن البكرى ، ص ١٤٩ •

وخلف « الأمير » ابنه محمد بن ميمون الذى لا يذكر البكرى عنه الا سنة وفاته ، وهى سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٣م حينما آلت الامامة الى عمه اليسع بن مدرار المنتصر فى صفر من نفس السنة/أغسطس - سبتمبر(٤٠) .

واليسع بن مدرار ، الذى ولى فى صفر سنة ٢٧٠ هـ/أغسطس - سبتمبر ٨٨٣ م ، واتخذ لقب المنتصر وهو لقب والده مدرار وربما جده اليسع الأول أيضا ، هو آخر ائمة سجلماسة من المدراريين ، اذ بقى فى الحكم ٢٧ (سبعا وعشرين) سنة ، أى الى سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م عندما دخل أبو عبدالله الشيعى - بعد استيلائه على رقادة وتاهرت - سجلماسة ، واستخلص عبيد الله المهدى فى تلك السنة ثم ظفر باليسع فقتله ، وهو الامر الذى سنعود اليه بعد الفراغ من دولة الأدراسة فى المغرب الأقصى (٤١) .

---

(٤٠) أنظر البكرى ، ص ١٤٩ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ (التعريف بسجلماسة) ، ص ١٥٧ - الذى يسقط فى روايته امامة محمد بن ميمون الأمير ، ويجعل اليسع الأخير ابنا لميمون بن مدرار (ابن الرستمية) بن اليسع بن سمغون بن مدلان المكناسى .

(٤١) انظر فيما بعد ، فى قيام الدولة الفاطمية ، ص ٥٩٤/أ، ٥٩٥ وهـ ٢٢٧ .



الفصل الخامس

الدولة الادريسية

في فاس والمغرب الأوسط

(١٧٢ هـ/٧٨٩ م - ٣٠٥ هـ/٩١٧ م)



قيام الأدارسة في المغرب الأقصى وبناء مدينة فاس :

اصول خارجية للدولة العلوية :

بينما كانت تقوم الامارتان الخارجيتان في تاهرت وسجلماسة شاهد المغرب الأقصى قيام امارة علوية جديدة هي دولة الأدارسة في فاس . والاختلاف هنا لا يقتصر على اللون المذهبي لكل من الممالك الثلاث بل يتخطاه الى طبيعة كل منها . فبينما كانت الأوليان مملكتين صحراويتين كانت مملكة الادارسة حضرية مدنية صميمة ، وهذا ما يتمثل في عاصمتها فاس التي مازالت تحتفظ بلونها الحضاري الأصيل بعد أكثر من ألف عام ، بينما ضعفت تاهرت وهان أمرها ابتداء من القرن الرابع الهجري (١) ، ودالت دولة سجلماسة ، بعد ازدهار استمر الى القرن الثامن الهجري نتيجة للدور الهام الذي قامت به صحراوات المغرب الجنوبية ابتداء من عهد المرابطين ، وأصبح اقليمها لا يعرف الا بتافللت . وحتى القيروان نفسها فقدت أهميتها بعد أن استعادت قرطاجنة ممثلة في تونس مركزها كعاصمة لافريقية .

والذي يستحق الملاحظة لأول وهلة في قيام مملكة الأدارسة العلوية (أي الشيعية من الناحية الشكلية على الأقل) هو أن الاقليم الذي اتخذته قاعدة لها كان بالأمس القريب مهدا للحركة الخارجية ولا حاجة الى الاشارة الى

---

(١) انظر ابن حوقل طبعة بيروت ص ٩٢ ، وقارن البكري ، ص ٧٩ حيث يذكر أنه كان من بين من عمروا مدينة تكان وهي من أعمال تلمسان ، عندما مدنها يعلى بن محمد ابن صالح اليفرني سنة ٣٣٨ هـ اهل لمعسكر من أهل تاهرت الذين ارتحلوا اليها .

ما آل اليه أمر اخوة الأمس - ونقصد الخوارج والشيعة - من العداء المرير الذي بلغ حد التكفير والاتهام بالخروج عن الدين • أما كيف انقلب خوارج المغرب الأقصى من الضد الى الضد ، أى من مناصرين لميسرة الصعرى وأعوانه الى أتباع لادريس « الفاطمى »(٢) وخلفائه ، فلذلك أسباب تختلف فى طبيعتها وتتباين فى كنهها ، وتتراوح ما بين السياسة والدين •

وأول هذه الاسباب بطبيعة الحال هو المشاركة فى الخروج على الدولة، اذ ظل كل من الفريقين - رغم انشقاقهما - معارضا للخلافة سواء أكانت أموية أم عباسية • فلقد وجدت هذه المعارضة هوى فى نفوس بربر المغرب الذين ضاقوا ذرعا بفساد الادارة الأموية ، والذين كانوا يسعون الى حكم يحقق لهم المساواة بالعرب ، ويجرى حسب مبادىء الاسلام (٣) واذا لم يكن من الغريب أن يتمسك بربر المغرب الأقصى بموقفهم هذا ازاء الخلافة العباسية ، فان العجيب فى الأمر هو التفافهم حول امام علوى يمارس مبدأ احتكار السلطة، ويمثل قانون الوراثة الملكى الذى يناقض مبدأ الشورى والانتخاب الجمهورى، الذى صار الأصل السياسى لدى الخوارج • وهنا نجد أن الخوارج يتمسكون بالشعار والشكل فقط دون المضمون • فهم عندما تسنح لهم الفرصة لتطبيق مبادئهم عمليا ينحرفون عن المبدأ الجمهورى فى تنصيب الامام ، ويمارسون مبدأ الوراثة الملكى ، وان كان مغلفا فى شكله الانتخابى الممثل فى البيعة - وهذا ما فعله الأمويون تماما وما سار عليه العباسيون بعدهم • ففى تاهرت أصبحت الامامة الاباضية وراثية فى بنى رستم ، كما رأينا ، مما تسبب فى حركات الانشقاق التى ذكرناها (٤) •

وكان الأمر كذلك بالنسبة لامامة سجلماسة الصفرية ، فقد تخلصت القبائل من الامام الأول السودانى الأصل ، والذى لم يكن له عصبية ، لكى يتوارث بنو واسول الامامة • وهنا يمكن التفكير فى أن الجماعات الخارجية لم تكن لتستطيع الخروج على الأصول التى أصبحت تقليدية تاريخية فى

---

(٢) انظر كتاب الاستبصار (ص ٢٠٨) الذى يلقب ادريس فعلا بالفاطمى ، وكذلك ابن أبى دينار (ص ٩٩) الذى يسمى الادارسة بـ « الفواطم » •

(٣) انظر فيما سبق ، ص ٣٠١ •

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٣٢٤ وص ١٢١ - حيث تسمية المنشقين عن امام تاهرت يعرفون بالمعتزلة وبالواصلية • مما دعانا الى التفكير فى أنه ربما كان المقصود بالتسميتين بعض الجماعات المغربية التى اعتنقت الأفكار الزيدية الشيعية التى اختلطت تماما بالفكر المعتزلى • أو أن يكون المقصود بالاعتزال هو موقف الحياد بالنسبة للفتنة او الانشقاق •

اختيار الخليفة وهو الامام ، كما يمكن التفكير أيضاً في أن شيعة الأمس - تقصد خوارج اليوم - لم يمكنهم التملص من مبادئهم الأولى التي تجعل الامامة تركة من نصيب العلويين من آل البيت ، فطبقوا مبدأ الوراثة ، وان لم يكن في آل البيت . ولما سمحت الفرصة لتقديم أحد العلويين ، سارعت قبائل المغرب الاقصى من خوارج وغيرهم في الالتفاف حوله ، وتطبيق نظام الوراثة في أبنائه ، كما تقضي أصول الشيعة .

ولكنه ينبغي أن نسارع بالاشارة هنا الى أنه رغم ان ادريس علوى ، وان الدولة الادريسية كانت ملكية وراثية ، الا أنها لم تكن دولة شيعية بالمعنى المعروف . وهي أن كانت كذلك فتكون شيعية زيدية أى من النوع المعتدل القريب من أهل السنة . ولهذا فهي في نظر الكتاب « الدولة الهاشمية »(٥) . وهذا أمر طبيعي فالدولة الادريسية ظهرت فجأة ، دون تمهيد أو دعاية سابقة كتلك التي مهدت لقيام الدولة العباسية من قبل والدولة الفاطمية من بعد أو حتى بالنسبة لامامة تاهرت . وبناء على ذلك فهى لم تقم حسب مبادئ سياسية أو دينية معينة ، بل قامت على أكتاف رجل واحد يمثل هيبة الاسرة العلوية العظيمة ، كما يمثل مناقب آل البيت .

دخول ادريس المغرب - ما بين الحجاز ومصر والمغرب :

ومؤسس الاسرة هو ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (٦) أما عن سبب مسيره الى المغرب فهو اشتراكه في الثورة التي قام بها الحسينيون في مكة بقيادة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن (السبط) . والتي انتهت بالفشل بعد ان أوقع بهم العباسيون في موضع فخ ، أثناء موسم الحج سنة ١٦٩ هـ/يونية ٧٨٦م ، على أيام الخليفة

---

(٥) انظر ابن عذارى جـ ١ ص ٨٢ . الا ما أشرنا اليه من أن صاحب كتاب الاستبصار يصف ادريس الثاني بالفاطمي (انظر الصفحة ٤٢٢ وهـ ٤) فهي تسمية لا تحمل أكثر من معناها الأول ، وهو الانتساب الى فاطمة الزهراء ، ولا يعني مذهبا دينيا أو اتجاها سياسيا معينا كما سيحدث على أيام الفاطميين . وعن الزيدية انظر فيما بعد ص ٤٢٩ .

(٦) انظر البكري ص ٢١٨ ، ابن عذارى ، جـ ١ ص ٨٢ - ٨٣ ، وقارن بابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ترجمة رقم ١١ ص ٥٠ ، حيث ينقل عن الوكيل (أبو علي حسين ابن سعيد) عن عبد الرحمن بن عبيد الليزولي ، أن عبد الله والد ادريس كان شيخ بني هاشم في وقته ، وعن ادريس يقول ان أمه عاتكة بنت عبد الملك بن الحارث المخزومية . وان أخواه عيسى وسليمان منها .

البادي (٧) . فقد قتل الحسنيون في فخ قتلا ذريعا ولكن عددا منهم تمكن من الفرار ، ومن هؤلاء يحيى بن عبد الله الذى هرب نحو المشرق الى بلاد الديلم ونجح فى اثارة أهل البلاد هناك على الخلافة ، الى أن تخلص منه الرشيد بالسياسة على يدى الفضل بن يحيى البرمكي (٨) . أما أشهر الفارين من وقعة فخ فهو ادريس بن عبدالله الذى اتجه نحو المغرب . ويضفى كتاب الأدارسة على بداية أمر أدريس لونا قصصيا طريفا ، تختلط فيه الحقيقة التاريخية بالرواية الشعبية ، والمثل لذلك كتاب روض القرطاس الذى يجمع فيه ابن أبى زرع هذه الروايات جنبا الى جنب ، وهدفه فى ذلك اظهار مناقب أهل البيت .

خرج ادريس من الحجاز متخفيا بين قوافل الحاج السائرة نحو مصر ، وبصحبته أحد مواليه الذى يتصف بالشجاعة والعقل ، وهو راشد الذى يقال انه بربرى الأصل ، وانه لهذا السبب اصطحب ادريس نحو المغرب ليثويه فى قومه (٩) . والذى يفهم مما اتفق عليه الكتاب ان الفضل يرجع الى راشد هذا فى وصول ادريس سالما الى المغرب الأقصى ، وكذلك فى الدعاية له بين القبائل . وهذا أمر هام ليس بالنسبة لقيام دولة الادارسة فقط ، بل بالنسبة لمعظم الدول المغربية التى اقتطعها من الخلافة أمراء أتوا من المشرق ، مثل الدولة الأموية فى الأندلس التى تدين بقيامها الى مجهودات بدر مولى

---

(٧) انظر الطبرى ، أحداث سنة ١٦٩ . ابن الأثير ، أحداث سنة ١٦٩ ، ج ٦ ص ٣٦ ، — ٣٨ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦ ، البكرى ، ص ١١٨ ، الاستبصار ، ص ١٩٤ ابن الأبار ، الحلة السيراء ج ١ ترجمة ١١ ص ٥١ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٣ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٨ (فجه بدلا من فخ) وص ١٢ (عجه) وج ٦ ص ١٤٧ (حيث القراءة الصحيحة (بفخ) والترجمة ج ٢ ص ٥٥٩ . هذا ويلاحظ ان الأمر يختلط على بعض الكتاب فيجعلون اشتراك ادريس فى ثورة محمد النفس الزكية فى المدينة سنة ١٤٥ هـ/٧٦٢ م أو يجعلون ثورة محمد النفس الزكية فى سنة ١٦٩ هـ (انظر المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٣٠٨ ، روض القرطاس ، ٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠) .

(٨) انظر ابن الأثير ، أحداث سنة ١٧٦ هـ ج ٦ ص ٥٠ ، ابن الأبار ، الحلة السيراء ج ١ ص ٥١ .

(٩) الاستبصار (رواية النوفلى) ، ص ١٩٤ ، وانظر البكرى ص ١٢٢ ، والحلة السيراء لابن الأبار ج ١ ص ٥٣ ، حيث نجد رواية للنوفلى تقول ان راشدا كان مولى لأخى ادريس وهو عيسى بن عبد الله . وكذلك ص ٩٨ فى ترجمة ابراهيم بن الأغلب .

عبد الرحمن بن معاوية (١٠)، والدولة الفاطمية التي تدين بقيامها في أفريقية الى جهود أبي عبد الله الشيعي مولى عبيد الله المهدي (١١) .

والظاهر ان الخلافة كانت نشطة في تتبع آثار الحسنيين ، اذ سرعان ما عرف أمر ادريس والي مصر في ذلك الحين ، وهو علي بن سليمان العباسي (١٢) . وتتفق معظم الروايات على أن الفضل في نجاة ادريس يرجع الى صاحب البريد في مصر . وهو واضح مولى صالح بن الخليفة المنصور ، الذي يسميه ابن خلدون بواضح المسكين ، وكان شيعي المذهب (١٣) . وهذا لا يناقض رواية الكندي التي تقول صراحة ان والي مصر العباسي علي بن سليمان ، هو الذي سهل لادريس الخروج من مصر ، بعد أن علم بمكانه ولقيه سرا فسأله بالله والرحم الا ستر عليه فانه خارج الى المغرب (١٤) ، فلا بأس من صحة الروايتين جميعا اي اتفاق صاحب البريد الشيعي والوالي العباسي على ستر العلوي . اذ تفسر رواية الكندي تستر العباسي على قريبه وعدوه العلوي بأنه ــ أي الوالي ــ كان طامعا هو الآخر في الخلافة . وأن ذلك كان سببا لعزل الرشيد له (١٥) . وهذا ما تبينه رواية القرطاس التي تنص على أن علي بن سليمان أمن الرجل الشيعي الذي كان قد آوى ادريس وراشد ، وطلب اليه أن

---

(١٠) انظر كتاب اخبار مجموعة ، ص ٥٣ ، ٦٧ ، ٧٤ الخ .

(١١) انظر الاستبصار ، ص ٢٠٢ والهامش وما بعده ، اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الخلفا ، ص ٧٤ وما بعدها . وانظر فيما بعد . ص ٤٤١ وما بعدها .

(١٢) انظر الكندي ص ١٣١ ــ ١٣٢ (ولايته من شوال سنة ١٩٦ هـ/ابريل ٧٨٦ م ، ايام الهادي ربيع الأول سنة ١٧١ هـ اغسطس ٧٨٧ م أيام الرشيد) .

(١٣) انظر البكري (الذي ينقل رواية النوفلي) ص ١٢١ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٦٩ هـ ج ٦ ص ٣٨ ابن عذاري ج١ ص ٨٣ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧ ، ١٢ والترجمة ج ٢ ص ٥٥٩ . الحلة السيراء لابن الأبار ، ج ١ ص ٥١ ــ ٥٢ ، وقارن روض القرطاس (ص ٥) الذي ينقل رواية البكري (ص ١١٨ ــ ١١٩) التي تنفرد بتفصيلات طريفة منها : ان ادريس وراشد كان يجوبان شوارع الفسطاط فاستلفت نظرهما دار حسنة البناء والزخرف . فدار حديث بينهما وبين صاحب الدار انتهى بأن عرف انهما من شيعة الحسنيين . وعندما استوثق منه راشد عرفه بادريس فاتضح ان الرجل من الشيعة فأحسن مثواهما . ولا بأس من ان يكون الشيعي هو واضح صاحب البريد . هذا ولا يذكر الكندي شيئا من أمر شغل واضح لوظيفة صاحب البريد ، ولكنه يذكر انه ولي مصر مدة تبلغ ثلاثة أشهر من سنة ١٦٢ هـ/٧٧٨ ــ ٧٧٩ م (انظر الكندي ، ص ١٢٩) .

(١٤) الكندي ، الولاة ، ص ١٣٢ ، وقارن البكري ، ص ١١٩ .

(١٥) الكندي ، الولاة ، ص ١٣١ ــ ١٣٢ .

يخرجا من عمه . ولو أنها تفسر ذلك بأن الوالى كان لا يحب اراقة دم أهل البيت (١٦) ٠

هكذا دبرت مؤامرة على مستوى عال ـ كما يقال ـ لهربه ادريس نحو المغرب ٠ ويفهم من رواية البكرى وابن عذارى أنه تقرر أن يخرج راشد من مصر ويتخذ الطريق العام مع قوافل الحاج والتجار (الرفقة) ، بينما يسير ادريس مع واضح فى « طريق غامضة » ـ نعتقد انها خاصة بالبريد ـ على أن يكون لقاؤهم فى برقة (١٧) ٠ وفى برقة اطمأن واضح على سلامة ادريس وراشد فودعهما بعد ما أمدهما بما يلزمهما من مال ومتاع ، والظاهر أنه تم الاتفاق على أن يتخفى ادريس فى زى خشن ، ويظهر بمظهر غلام فى خدمة راشد (١٨) ٠ وهنا تختلف الروايات فى تحديد الطريق الذى اتخذه ادريس وراشد ٠ ونحن نميل الى الاخذ بالرواية التى ينقلها البكرى وصاحب الاستبصار ، والتى تقول ان راشدا لم يدخل بلاد افريقية (خشية عمال الخلافة لدى المهلبيين) ، وأنه سار به الى بلاد البربر (١٩) (أى التى لا تخضع لامير القيروان) ٠ وبعد أن استراح ادريس بتلمسان عدة أيام خرج به راشد نحو المغرب ، فعبرا وادى ملوية ودخلا بلاد السوس الأدنى ، حيث أقاما بعض الوقت فى طنجة التى كانت يومئذ أعظم مدن المغرب الأقصى (٢٠) ، وذلك قبل أن يستقر فى مدينة وليلى ، كما يتفق على ذلك معظم الكتاب (٢١) ، بعد رحلة استغرقت حوالى سنتين (٢٢) ٠

---

(١٦) روض القرطاس ص ٦ ٠

(١٧) البكرى ، ص ١١٩ ، روض القرطاس ص ٠

(١٨) البكرى ، ص ١١٨ الاستبصار ، ص ١٩٤ ٠

(١٩) البكرى ، ص ١١٩ ، الاستبصار ، ص ١٩٤ ٠ اما روض القرطاس (ص ٦) فيقول ان راشد دخل بادريس القيروان حيث أقام بها مدة وأنه احتال لذلك بأن البس ادريس ثيابا خشنة وصيره كالخادم له خوفا عليه فى ذلك الوقت ٠

(٢٠) القرطاس ، ص ٦ ٠

(٢١) البكرى ، ص ١١٨ ، الاستبصار ، ص ١٩٤ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٥٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٣ (وليلة) ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧ (وليل) ، (« ولية » وصحتها « وليلة ») ، أنظر شكل ٧ ، ص ٤٢٧ ٠

(٢٢) أنظر القرطاس (ص ٦) الذى يقول ان وصوله وليلى كان فى غرة ربيع الأول سنة ١٧٢ هـ / ٢ أغسطس ٧٨٧ م ، وقارن الحلة السيراء (ج ١ ص ٥٤) حيث تجد رواية أبى بكر الرازى التى تقول ان ادريس بن عبد الله دخل المغرب سنة ١٧٢ هـ فى شهر رمضان ، البكرى ، ص ١١٨ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧ (سنة ١٧٦ خطا) وص ٧٢ (سنة ١٧٢) ج ٦ ص ١٤٧ ٠ وقارن ابن عذارى الذى يقول (ج ١ ص ٨٢) ان دخول ادريس =



شكل (٧)

المغرب الأقصى

النزول في وليلي :

ورغم ما يقوله صاحب القرطاس من أنه لما لم يجد ادريس بطنجة مراده رجع مع مولاه راشد حتى نزل مدينة وليلى ، فانا نعتقد أنه لم يضيع وقته سدى في عاصمة المغرب الأقصى بل أخذ يستقصي أخبار القبائل ، ويعرف ما هي عليه من الرأي ومن القوة الى أن اهتدى الى قبائل وليلى • ووليلى مدينة قديمة (Volubilis) تقع على طرف جبل زرهون (٢٣) ، بين فاس ومكناسة حاليا (٢٤) • وهي عاصمة تلك المنطقة الغنية بخصبها وكثرة مياهها وزروعها ، والتي كانت تسكنها قبائل أوربة البرنسية في ذلك الوقت(٢٥)• وأوربة هي التي رأيناها في المغرب الأوسط تعترض عقبة بن نافع بزعامة رئيسها كسيلة وتقتله قرب تهودة ، والظاهر ان القبيلة غيرت مواطنها بعد الحملات التأديبية التي قام بها العرب ضدها فسكنت السوس الأدنى ، فيمابين وادي ملوية ووادي ام الربيع (٢٦) •

ونزل ادريس في وليلى على زعيم أوربة وهو سحق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي ، الذي أكرمه وأحسن وفادته (٢٧) • وتصف بعض

= المغرب كان سنة ١٧٠ هـ/٨٦ — ٨٨٧ م ، ولكنا نعتقد انه يقصد بذلك خروجه من مصر الى المغرب ، اذ أنه يجعل اجتماع القبائل على ادريس في سنة ١٧٢ هـ/٧٨٧ م (ج ١ ص ٨٣) •

(٢٣) أنظر الجزنائي زهرة الآس (نشر الفرد بيل ، الجزائر ١٩٢٢) ، ص ٩ — حيث يقول « وهذه البلدة قديمة البناء — من بنيان القبط ، وهي معروفة الآن بقصر فرعون من ارض اولاد تعلو — كان لها سور عظيم قد بقي بعضه » •

(٢٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٧ والترجمة ج ١ ص ٢٩٠ ، وأنظر شكل ٧ ص ٤٢٧ •

(٢٥) البكري ، ص ١١٨ ، الاستبصار ، ص ١٩٤ . القرطاس ، ص ٦ •

(٢٦) عن السوس الأدنى (وحده من وادي ملوية الى وادي ام الربيع) أنظر القرطاس ، ص ٦ • وعن سكنى اوربة المغرب الأقصى بعد هزيمتهم أمام زهير بن قيس انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٧ والترجمة ج ١ ص ٢٩٠ •

(٢٧) الاستبصار ، ص ١٩٤ ، ابن خلدون (عن تاريخ اوربة) ج ٦ ص ١٤٧ والترجمة ج ١ ص ٢٩٠ ، وعن الأدارسة ، ج ٤ ص ٧ و ١٢ والترجمة ج ٢ ص ٥٥٩ (والاسم في الترجمة أبو ليل اسحق ، ولا نعرف ان كان المترجم اخطأ فحمل كلمة بوليل « بوليلة » أي بمدينة وليلى كنية للزعيم الاوربي (? Abou Laila = Bou Laila) . اذ الحقيقة أن البكري يكنيه فعلا بأبي ليل (ص ١٢٣) القرطاس ، ص ٦ — ٧ (يسميه عبد الحميد الاوربي) •

المصوص الزعيم الأوربى بأنه كان معتزلى المذهب (٢٨) • ونحن لا نعرف ماذا يعنى بالاعتزال هنا اذ لا نعرف للاعتزال أصولا سياسية اللهم الا اعتزال الأوائل الفتنة ، وموقفهم منها موقف الحياد ، ثم مشاركة القدرية فى بعض الاضطرابات السياسية على أواخر أيام الأمويين فى عهد هشام والوليد بن يزيد ، وكذلك على أيام الأمين عندما أثاروا محنة خلق القرآن ، الى جانب أصول الاعتزال المذهبية المعروفة من التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف (٢٩) • ولو كانت هذه الأصول هى المقصودة ، لكان ذلك يعنى ان الحركات الفكرية التى ظهرت فى مركز الخلافة فى المشرق كان لها صداها البعيد — ليس فى القيروان فقط ، كما سبقت الاشارة (٣٠) ، بل وفى قلب بلاد البربر التى يقول بعض الكتب ان كثيرا من قبائلها كانت — وحتى ذلك الوقت — على المجوسية واليهودية والنصرانية ، كما سنرى • وربما كان المقصود بالمعتزلة هناتلك الطائفة من الخوارج التى يسميها البكرى بالواصلية وينص على انها اباضية ، كما سماها كتاب الاباضية صراحة بالمعتزلة (٣١) • اذ الحقيقة انه يوجد نوع من القرابة أو التوافق بين أفكار المعتزلة وأفكار الخوارج (٣٢) •

وحسب الأصول الفنية التى يعرفها الدعاة لم يظهر راشد دعوة سيده فى أول الأمر ، اذ تقول رواية الاستبصار ان ادريس وافق اسحق بن محمد على مذهبه المعتزلى (٣٣) • وهذا ما يعبر فى نظرنا عن بداية التوافق بين الفكر الشيعى الزيدى وبين مبادىء الاعتزال التى أضيف اليها رأى الزيدية فى الامامة • ولما كان ذلك النوع من الاعتزال السياسى قد ظهر لدى الخوارج الاباضية ، فيمكن القول ان الاعتزال امتزج بأحزاب المعارضة مع مطلع الدولة العباسية ، قبل ان يصبح مذهب بغداد الرسمى على أيام المأمون •

---

(٢٨) البكرى ، ص ١١٨ ، الاستبصار ، ص ١٩٤ ، القرطاس ، ص ٦ •

(٢٩) عن أصول الاعتزال ، انظر المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٢٤ •

(٣٠) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٨٧ ، ٣١٨ — ٣١٩ ، ٣٦٩ •

(٣١) انظر فيما سبق ، ص ٤٢٢ هـ ٤ •

(٣٢) انظر فيما سبق ، ص ٢٧٥ وص ٢١١ ، وانظر فيما سبق فى امامة تاهرت ، ص ٢٨٩ ، عن الواصلية والمعتزلة ، وعن أصول الخوارج التى تتناول التوحيد والوعد والوعيد وهى من أصول المعتزلة ، انظر المسعودى ، ج ٣ ص ١٤٦ • وعن آراء اباضية المغرب فى مسألة الصفات ودحض آراء الاشعرية وفى عدم خلق القرآن ، وكذلك فى الوعد والوعيد ، انظر :
Allouche, Deux épitres de theologie abadites, Hespéris, t. 22, 1936, fasc. I, p. 57.

(٣٣) البكرى ، ص ١١٨ ، الاستبصار ، ص ١٩٥ •

بيعة ادريس :

ومع مرور الوقت أظهر ادريس امره للزعيم الأوربى وأعلن أحقيته فى الامامة ، فوافقه دون تردد • وبطبيعة الحال كانت هذه فرصة مواتية لاسحق: فنزول أحد زعماء العلويين عليه كان يعلى من شأنه بين أفراد قبيلته . كما كان يحقق له نوعا من التفوق على زعماء القبائل الأخرى • وهكذا نزل ادريس فى منزله ، وتولى اسحق خدمته بنفسه ، وذلك فى أول ربيع الاول من سنة ١٧٢ هـ / ٢٠ اغسطس ٧٨٧ م • وجمع أسحق زعماءأوربة وعرفهم بادريس وبنسبة فاستقبلوه بالترحاب وقالوا : « الحمد لله الذى أتى به وشرفنا بجواره ، فهو سيدنا ونحن عبيد نموت بين يديه » • وانتهى الأمر بأن بايعوا لادريس بالامامة ، وذلك فى منتصف رمضان سنة ١٧٢ هـ/١٥ فبراير ٧٨٩ م (٣٤) ، فكان ذلك بداية الدعوة العلوية الأولى بالمغرب الأقصى• وتبع ذلك حركة دعاية بين قبائل الأقاليم المحيطة ، فدخلت فى دعوة الامام ادريس قبائل زناتة وزواغة وزواوة ولماية وسدراتة ومسراتة وغيانة ونفزة ومكناسة وغمارة ، كما قصد اليه الناس من كل مكان (٣٥) •

العمل الايجابى :

بانضمام كل هذه القبائل الى الدعوة العلوية بدأت المرحلة الايجابية فى تاسيس الدولة الادريسية ، وذلك حسب الأهداف التى أخذ الامام على عاتقه القيام بها والتى تتفق مع رسالة آل البيت ، وهى العمل على نشر الاسلام والجهاد فى سبيل الله • أما عن مجال هذا العمل فكانت الاقاليم التى لم ترسخ أقدام الاسلام فيها بعد أو التى عرف أهلها بالزيغ وانحراف العقيدة •

الصراع ضد بني طريف ملوك برغواطة في تامسنا :

وحق للامام ومستشاريه أن يختاروا اقليم تامسنا - حيث قبائل برغواطة - للقيام بأول نشاط لهم • فلقد عرف اقليم تامسنا بميوله الانفصالية وانحرافاته العقائدية منذ وقت مبكر ، ونسب هذا الانحراف

---

(٣٤) القرطاس ، ص ٨ • ابن ابى دينار ، المؤنس ، ص ٩٩ (فى رمضان سنة ١٧٢) ، وقارن ابن عذارى (ج ١ ص ٨٣) الذى يحدد السنة فقط (١٧٢ هـ/٨٨ - ٧٨٩ م) •

(٣٥) القرطاس ص ٧ وقارن ابن خلدون (ج ٤ ص ١٢ ج ٦ ص ١٤٧) الذى يذكر قبيلة مسراتة فى شكل سراتة بينما يذكرها القرطاس فى شكل مزاراتة •

الى قبائل الاقليم فعرف « بزندقة برغواطة » · ولقد كانت زندقة برغواطة هذه ، مثل كثير من الحركات السياسية والدينية في المغرب ، وليدة الحركة الخارجية الصفرية الأولى · فبعد القضاء على ثورة ميسرة تفرق أصحابه في البلاد ، ولجأ أحدهم ، ويسمى طريف – والظاهر انه طريف بن ملوك الذي بدأ بأول غارة على ساحل الأندلس قبل طارق بن زياد ، والذي سميت باسمه جزيرة طريف (طريفة) (٣٦) – الى بلاد تامسنا التي كانت ملكا لقبائل زناتة وزواغة (٣٧) ، وذلك على ساحل المحيط فيما بين مصبي بورجرج (وادي سلا) وأم الربيع ، وهناك تزعم برابر المنطقة الذين عرفوا من حينئذ باسم برغواطة (٣٨) :

ويقول الكتاب نقلا عن الرواية البرغواطية التي ترجع الى زمور بن موسى بن هشام بن وارد يزن رسول ملك برغواطة ، أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله في سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ان طريفا كان على دين الاسلام ، ولكن ابنه وولي عهده ، صالح بن طريف (ولد سنة ١١٠ هـ/٧٢٨ – ٧٢٩ م) ، انحرف فتنبأ فيهم وسمى نفسه « صالح المؤمنين » ، كما يقولون أكثر من هذا – انه شرع لهم ديانة جديدة · وأوصى صالح ابنه الياس ان

---

(٣٦) انظر البكرى ص ١٣٥ (حيث النص على ان طريفا كان من اصحاب ميسرة ، واليه نسبت جزيرة طريف) ، ص ١٣٨ حيث يذكر في هجاء برغواطة بيتا يقول فيه الشاعر :

فليس اليوم ردتكم ولكن ليالى كنتم متميسرينا .

ويعلق قائلا : وهذا البيت يصدق قول زمور البرغواطي ان طريفا كان من أصحاب ميسرة ويشهد له · وقارن ابن خلدون ، ج ١ ص ٢٠٨ (يكنيه بأبي صبيح) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٤ ، الاستبصار ص ١٩٧ (الذي يجعل طريفا يهودي الأصل من الأندلس) ، وانظر بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، بالفرنسية ، ص ١٣ ·

(٣٧) البكرى ، ص ١٣٥ ·

(٣٨) وفي تسمية برغواطة ينقل البكرى (ص ١٣٧ – ١٣٨) عن أبي العباس الفضل ابن حفظيل بن عمرو المذحجي ان صاحب الزندقة الحقيقي أي أول من أظهرها ، هو يونس ابن الياس بن صالح بن طريف ، « أصله من شذونة ، من اقليم برباط (بربياط) ، ولهذا السبب نسي من اتبعه بربطي ، ثم غيروه الى لغاتهم ، فقالوا « برغواطي » ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٣ ، وقارن الاستبصار ، الذي يقول (ص ١٩٧) ان برابر تامسنا في ذلك الوقت ، كانوا قوما جهالا من زناتة ، كما يقول ان الذي دخل عليهم هو صالح بن طريف ·

وعن الاجتهادات الحديثة في تفسير اسم برغواطة بمعنى « برابر بكوات » (Baccuates) أي عباد باكوس (Bacchus) القدماء – انظر تفسير كلمة « باكوس » في هـ · م · ا ، ص ٤٣٣ ·

يظهر ديانته هذه عند ما يشتد أمره ، بينما رحل هو الى المشرق ، وقال انه سيعود بصفة المهدى الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا(٣٩) . وهذا أمر له أهميته اذ يبين كيف شارك الخوارج خصومهم الشيعة في فكرة المهدى المنتظر - وهى من أفكار الشيعة الرئيسية - بعد أن شاركوهم عمليا فى تطبيق فكرة الوراثة الملكية فى نظام الحكم . ومن الناحية السياسية أمر صالح ابنه بموالاة أمير الأندلس - أى بمعنى موالاة الأمويين ومناهضة أمراء المغرب (٤٠) . وظل بنو صالح بن طريف يتداولون امارة تامسنا ويبسطون سلطانهم على قبائل برغواطة ، التى كانت تقدم لهم فى منتصف القرن الرابع الهجرى (١٠م) أكثر من ١٠ (عشرة) ألاف فارس (٤١) ، وعلى غيرها من القبائل التى كانت متمسكة بالاسلام نقيا خالصا ، والتى كانت تقدم لهم أكثر من ١٢ (اثنى عشر) ألف فارس (٤٢) واستمر بنو طريف فى انحرافهم وزندقتهم الى أن قامت عليهم قبائل بنى يفرن بقيادة الامير تميم اليفرنى فغلبهم على بلادهم بعد سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩ م ، وسباهم حتى « جلا من بقى منهم »(٤٣) . ولكنه رغم ما يقوله البكرى من أن تميما اليفرنى « استوطن ديارهم » ، وبذلك « انقطع أمرهم (٤٤) » . فالمعروف أن انحراف برغواطة ظل

(٣٩) البكرى ، ص ١٣٤ (عن زمور) ، ص ١٣٥ (حيث يقول النص ان موت صالح كان سنة ١١٠ هـ/٧٢٨ م (سنة ١٠٠ بعد وفاة النبى) وانه حضر مع أبيه حروب ميسرة وهو صغير ، أى فى سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م ، مما جعلنا نرجح ان تكون سنة ١١٠ هى سنة مولده ، ص ١٣٦ حيث يوصف الياس الذى ملك ٥٠ سنة بالطهر والعفاف) ، الاستبصار ، ص ١٩٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٤ ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٠٧) الذى يقول ان ظهور صالح كان فى خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٧ هـ وانه ملك مدة ٤٧ سنة .

(٤٠) انظر البكرى ، ص ١٣٥ ، الاستبصار ، ص ١٩٨ ، ابن عذارى ، ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٤١) انظر الرواية فى البكرى (ص ١٤٠ - ١٤١) حيث تقول : « ان قبائل برغواطة الذين يدينون لهم ، وعلى ملتهم : جروة ، وزواغة ، والبرانس ، وبنو أبى ناصر ، ومنجصة ، وبنو أبى نوح ، وبنو واغمر ، ومطغرة ، وبنو ورغ ، وبنو دمر ، ومطماطة ، وبنو وزكسيت ، وعددهم ينهى الى أزيد من عشرة آلاف فارس » .

(٤٢) انظر البكرى ، ص ١٤١ حيث تضيف الرواية الى برغواطة : « ممن يدين لهم من المسلمين ، وينضاف الى مملكتهم : زناتة الجبل ، وبنو يليت ، وفالة ، وبنو وارسيفن ، وبنو يفرن ، وبنو ناغيت ، وبنو النعمان ، وبنو بلو الغلوسة ، وبنو كوفة ، وبنو يسكر ، وأصاده ، ومكلاتة ، وايزمين ، ومناده ، وماسينة ، ووضانة ، وترارتة ، ومبلغ عددهم نحو ١٢ (اثنى عشر) ألف فارس » .

(٤٣) البكرى ، ص ١٤٢ .

(٤٤) البكرى ، ص ١٤١ .

قائما الى أن غزاهم المرابطون ، واستشهد فى بعض غزواتهم عبد الله بن ياسين سنة ٤٥٠ هـ /١٠٥٧م (٤٥) .

(٤٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٩ . وعن بنى صالح بن طريف أمراء برغواطة انظر نفس المصادر . فبعد الياس بن صالح (ملك ٥٠ سنة) ولى يونس بن الياس لمدة ٤٠ سنة أو أكثر (٤٤ سنة) . وينسب الى يونس اظهار الزندقة و ... : فلقد سار الى المشرق مع زيد بن سنان الزناتى صاحب الواصلية ، وغباس بن ناصح ، وبرغوث بن سعيد التراري ، جد بنى عبد الرزاق المعروفين ببنى وكيل الصفرية (البكرى ، ص ١٣٧) ، ومناد صاحب القلعة المنادية ، قريبا من سجلماسة ، وغيرهم . وتفقه يونس فى الدين مع ثلاثة منهم وحفظ كل ما سمع ، وطلب علم النجوم والكهانة (البكرى ، ص ١٣٧ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٥ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٧ — ٢٠٨) وبعد يونس ولى أبو غفير محمد الذى عرف بالعنف والقسوة فى اخضاع خصومه ، لمدة ٢٩ سنة (الذى يجعله البعض ابنا ليونس — الاستبصار ، ص ١٩٨ — بينما يجعله البعض من فرع آخر من الأسرة فيسميه أبا غفير بن معاذ ابن اليسع بن صالح بن طريف (البكرى ، ص ١٣٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٨) . ثم ملك أبو الأنصار عبد الله بن أبى غفير ، الذى عرف بالسخاء والظرف والوفاء بالعهد (صاحب الاستبصار يسميه أبا جعفر حفص — ص ١٩٨) عند تمام المائة الثالثة (سنة ٣٠٠ هـ/٩١٢ م) ، ودام ملكه مدة ٤٣ سنة قضاها فى دعة . ثم أبو منصور عيسى بن أبى الأنصار (سنة ٣٤١ هـ/٩٥٢ م) وهو السابع من أهل بيت صالح بن طريف ، وكان يظن رجعته حسب فكرة المهدى المنتظر عن الشيعة على أيام هذا الأمير ، الذى راسل المستنصر بالله الأموى فى سنة ٣٥٢ هـ/٩٦٣ م ، وذلك جريا على السنة التى استنها جدهم صالح بن طريف (البكرى ، ص ١٣٧) .

ويروى الكتاب أخبارا غريبة عن انحراف أبناء صالح بن طريف وقومهم برغواطة : من التنبى وتحريف أصول الاسلام ، وابتكار لآيات من القرآن . ونعتقد أن فى ذلك كثيرا من المبالغة من الكتاب الذين يخدمون أغراضا مذهبية وسياسية معادية لبنى طريف . وهذا لا يمنع صحة بعض تلك الانحرافات الخاصة بالصلاة والوضوء والصوم والزكاة أو بعض الرخص الخاصة بالزواج والطعام واقامة الحدود ، وذلك تبعا للظروف البيئية المتغيرة ، من اجتماعية واقتصادية ونفسية الى غيرها من العادات والتقاليد المتوارثة . ونعتقد أن الأصل فيما نسب اليهم من التحريف هو أنهم كانوا يؤدون شعائر الدين بالبربرية ، كما أنهم ترجموا القرآن الى لغتهم هذه . من هذا ما يقال من أنهم كانوا يقولون « مقر ياكش » وتفسيره « الكبير الله » — أى « الله أكبر » على ما نظن . كما كانوا يقولون « أيسمن ياكش » وتفسيره « بسم الله » و « ايحن ياكش » وتفسيره « الواحد الله » ، و « وردام ياكش » معناه « لا أحد مثل الله » ونظن أنها ترجمة لـ « لم يكن له كفوا أحد » ، مما يعنى أن بعض العبارات من ترجمة سورة الاخلاص . أنظر البكرى ، ص ١٣٨ — ١٤٠ ، الاستبصار ، ص ١٩٩ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٧ . وعن ياكوش (ياكش) الذى ظن دى سلان (De Slane) أنه باكوس (اله الخمر (Bacchus) ، والذى يقول باسيه (Basset) ان معناه حقيقة « المعطى أو الطاهر أو الوهاب » ، وانظر ج . مارسى (G. Marcy) الذى حاول — على غير أساس مقنع فى رأينا — ان يقول انه « جيزوس » Jezus أى المسيح عيسى (يسوع — Jesus) .

G., Marcy, Le Dieu des Abadites et des Bargwata, Hisperis, t. 22, 1936, fasc. I, p. 33 et suiv.

فتح تامسنا :

جمع ادريس جيشاً من زناتة وأوربة وصباحة وهوارة وسار بهم نحو مدينة شالة (شلة ـ شلا) ، وهي مدينة سلا القديمة ، قبالة مدينة الرباط (رباط الفتح) الحالية على الضفة الأخرى من مصب النهر ، ففتحها ثم جول في كل بلاد تامسنا فأخضعها · وأتبع ادريس ذلك باخضاع اقليم تادلا . وفتح حصونه وقلاعه ، وأدخل أهل البلاد في الاسلام ، وكانت جماعات منهم على دين النصرانية واليهودية ، كما يفهم من رواية ابن أبي زرع(٤٦) · والظاهر أن ادريس قام بهذه الحملة بعد أن بايعته القبائل مباشرة ، اذ أنه عاد الى وليلي في آخر شهر ذي الحجة من سنة ١٧٢ هـ/آخر مايو ٧٨٩ م (٤٧) · ولم يمكث ادريس في وليلي الا ريثما يستريح رجاله ثم انه خرج لغزو بقايا المجوس والنصارى واليهود من البربر · فهدم الحصون وخرب المعاقل ، وادخل العصاة طوعا وكرها في الاسلام · وتم له في هذه الغزوة الثانية اخضاع قبائل فندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة ، كما اخضع اهل بلاد فازاز ، ورجع الى وليلي في منتصف جمادى الثاني سنة ١٧٣ هـ/١٠ أكتوبر ٧٨٩ م (٤٨) ·

فتح تلمسان وبناء جامعها :

ولم يسترح ادريس الا مقدار شهر واحد ، اذ خرج من وليلي في منتصف رجب سنة ١٧٣ هـ/نوفمبر ٧٨٩ م متجها نحو تلمسان ، بالمغرب الأوسط مارا بمدينة سبتة التي وصلها في شهر شعبان التالي من نفس

---

(٤٦) انظر روض القرطاس ، ص ٧ · ونعتقد ان ابن أبي زرع يبالغ عندما يقول ان اكثر هذه البلاد كان على دين النصرانية ودين اليهودية ، والاسلام بها قليل ـ وذلك بعد ثمانين عاما من دخول موسى بن نصير الى المغرب الأقصى · وانظر البكري (ص ١١٨) الذي يشير فقط الى فتح تازى في جمادى الثاني سنة ١٧٤ هـ/اكتوبر ٧٩٠ م ، ويقول : وهو موضع من اعمال بنى الباقية · · والحقيقة انه اذا كان البكري (ص ١١٣) يصف بعض المواضع التي تسمى بالكنيسة على طول الطريق ما بين سبتة الى فاس ، مما يعنى بقايا ذكريات لمعابد قديمة أو كنائس في المنطقة ، فالظاهر أن رواية ابن أبي زرع تريد أن تمجد الامام ادريس وتضخم اعماله (انظر فيما بعد ص ٥٢ ص ٤٣٥) · وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢ والترجمة ج ٢ ص ٢٠ وتتبعه ·

(٤٧) القرطاس ، ص ٧ ·

(٤٨) القرطاس ، ص ٧ ـ ٨ · وقارن ابن خلدون (عن الادارسة) ج ٤ ص ١٢ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٠ ، وابن عذارى (ج ١ ص ٨٤) الذي يضيف الى ذلك غزو ادريس للسوس الاقصى ودخوله مدينة نفيس ·

السنة/ديسمبر ٧٨٩م (٤٩) • وكانت بتلمسان قبيلتا مغراوة وبنو يفرن الزناتيتان ، والسيادة للقبيلة الأولى وزعيمها محمد بن خزر بن صولات المغراوي • وكانت هيبة الامام العلوي كافية لخضوع محمد بن خزر دون قتال: اذ أسرع بطلب الامان ويبايع لادريس هو ومن معه من قبائل زناتة بالامامة، وبذلك دخل الامام تلمسان صلحا ، وكان أهم عمل قام به هناك هو بناء مسجد المدينة الجامع ، وصنع منبر جميل كان يحمل نقشا يحدد تاريخ انشائه ، وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به ادريس بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب رضي الله عنهم ، وذلك في شهر صفر سنة ١٧٤ (يونية — يوليه ٧٩٠م) (٥٠) • وهذا يعني أن ادريس أقام في تلمسان الى سنة ١٧٤ هـ ثم انه عاد الى وليلى • والظاهر أنه مر في طريق عوده بمنطقة تازا التى وصلها في جمادى الآخرة من نفس السنة (١٧٤هـ/ اكتوبر ٧٩٠ م) حيث اطاعته القبائل هناك ، كما يقول ابن عذارى الذى يضيف انه كملت له الامارة في هذه السنة (٥١) •

وفاة ادريس الأول :

ويفهم من رواية القرطاس ان توجيه ادريس لأنظاره نحو المشرق من وليلى — بفتح تلمسان — اثار ذعرا لدى الخلافة بالمشرق • فابن ابى زرع يقول . انه اتصل بالرشيد أن ادريس قد استقام له أمر المغرب وأنه عزم على غزو افريقية ، وان الرشيد اغتم لذلك غما شديدا ، فارسل الى وزيره يحيى ابن خالد البرمكى ، وقال له : « ان ادريس ملك تلمسان وهي باب افريقية ، ومن ملك الباب أوشك أن يدخل الدار »(٥٢) • وفكر الخليفة في أن يرسل جيشا لمحاربة العلوى لولا بعد الشقة ، ولكن البرمكى أشار عليه باستخدام الدهاء في التخلص من ادريس — كما تخلص من واضح الذى سهل له الهرب فقتله(٥٣) • ووكل الرشيد الى وزيره تدبير الأمر ، فاشترى يحيى

---

(٤٩) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٠٠ •

(٥٠) روض القرطاس ص ٨ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ، ج ٢ ص ٥٦٠ •

(٥١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٤ ، وانظر الحلة السيراء لابن الأبار (ج ١ ص ١٠٠ — ترجمة ابراهيم بن الأغلب) ، البكرى ، ص ١١٨ •

(٥٢) القرطاس ، ص ٨ •

(٥٣) البكرى ص ١٢٢ ، الحلة السيراء لابن الأبار ، ج ١ ص ٥٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٣ •

ابى خالد أحد شيعة العلويين وهو سليمان بن جرير الشماخ ، الذى كان زيديا متعصبا لآل أبى طالب ، وسيره الى المغرب . وتمكن الرجل من التقرب من ادريس وهو يتربص به الى أن تهيأت له الفرصة بغياب راشد ، فسمه ثم هرب وأفلت من المطاردة فلم يصبه من سيف راشد سوى ضربة كسرت يده وأخرى شجت رأسه ، ونجح فى العودة الى بغداد (٥٤) .

ومن الجائز أن تكون قصة اغتيال ادريس بهذا الشكل غير صحيحة ، كما يرى جوتييه (٥٥) . فالروايات لا تختلف فقط فى الطريقة التى سم بها ادريس (٥٦) ، بل هناك روايات أخرى لا تنسب تدبير ذلك الى الرشيد ويحيى بن خالد البرمكى فقط ، بل تشرك فيه ابراهيم بن الأغلب بصفته والى افريقية والمغرب (٥٧) . وبناء على ذلك فليس من الغريب ان يكون أنصار ادريس وشيعته قد أرادوا له أن يموت شهيدا بدلا من حتف أنفه ، ففى ذلك استدرار لعطف الجماهير على الأسرة العلوية التى يهدر دم أفرادها غدرا فى المغرب بعد أن أريق ظلما فى المشرق . هذا ، كما يمكن أن يكون الأمر من نسج خيال كتاب العباسيين أنفسهم ، الذين جعلوا من الرشيد - فيما بعد - شخصية أسطورية تحيطها هالات من الغرائب والعجائب . فالرشيد يستطيع ، وهو جالس فى قصر الخلفاء على ضفاف دجلة ، التخلص من

---

(٥٤) انظر البكرى ، ص ١٢٠ - ١٢١ (ثلاث ضربات) ، الاستبصار ، ص ١٩٦ ، القرطاس ص ١٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦١ .

(٥٥) جوتييه ، ماضى شمال افريقية (بالفرنسية) ، ص ٣٠٠ .

(٥٦) تختلف الروايات فى أمر الطريقة التى سم بها الشماخ الامام ادريس . فتقول رواية انه دفع اليه قارورة فيها غالية مسمومة : البكرى ص ١٢٠ ، الاستبصار ، ص ١٩٥ ، القرطاس ، ص ٩ - ١٠) . وتقول رواية ثانية انه سمه فى دلاعة او تفاحة قطعها بسكين واعطاه النصف الذى يلى الجهة المسمومة من السكين : البكرى ، ص ١٢١ ، الاستبصار ، ص ١٩٥) . وتقول رواية ثالثة ان الشماخ انتحل الطب فلما شكا ادريس وجعا فى أسنانه اعطاه سنونا مسموما (البكرى ، ص ١٣١ ، ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٨٣ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧ ، ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٠) . ويأتى صاحب الحلة السيراء (ج ١ ص ٥٣) برواية اضافية يقول فيها انه سمه فى سمكة مشوية (وانظر كذلك ترجمة ابراهيم بن الأغلب ج ١ ص ٩٨ - ٩٩) .

(٥٧) يقول ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٠) ان الشماخ حمل رسالة من الخليفة الى ابن الأغلب الذى جهزه (وانظر ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٩٩) . اما عن الرواية التى ينقلها ابن الابار فى الحلة السيراء (ج ١ ص ٩٠ - ٢٠٠ - ترجمة ابراهيم -

عدوه العلوي في أقصى المغرب ناهون الأسباب (٥٨) ٠

٢ - ادريس الثاني (بن ادريس) - مولده وطفولته :

وتتفق الروايات على أن ادريس بن عبد الله توفي حتفه في سنة ١٧٥هـ/٩١ - ٧٩٢ م ، بمعنى انه ولي ثلاثة أعوام ونصف عام (٥٩) ، لم يشذ عن ذلك الا صاحب روض القرطاس الذي جعل موت ادريس في أول شهر ربيع الثاني من سنة ١٧٧ هـ/٢٦ يولية ٧٩٢ م(٦٠) ، بمعنى انه ولي خمسة أعوام وسبعة اشهر ، هذا ولو أنه يورد التاريخ الأول بعد ذلك (٦١) ٠ ودفن ادريس

= ابن الاغلب) فتقول ان الشماخ بعد أن قام بمهمته في سم ادريس قدم على ابراهيم بن الاغلب وأخبره بما فعل ، فكتب ابراهيم الى الرشيد بذلك ، فولى الشماخ بريد مصر وأجازه ٠ ولقد رجح ابن الأبار فعلا في الحلة السيراء (ج ١ ص ١٠٠) رواية بعض قدامى الكتاب ممن تنبه الى هذا التضاد التاريخي ، فنص على أن ابراهيم بن الاغلب هو الذي دس بعض أصحابه - أثناء ولايته للزاب - لاغتيال ادريس ، ففعلوا وبعثوا الى ابراهيم برأسه ، وتضيف تلك الرواية : ان ابراهيم أخبر ابن العكي (والي افريقية حينئذ) بالأمر فنسب العكي ذلك الى نفسه وكتب الى الرشيد به لولا ان أخبره صاحب البريد بما قام به ابراهيم ، فكان ذلك سببا في عزل العكي وتولية ابن الاغلب افريقية ٠ وليس من الغريب أن يكون الرشيد قد أخبر واليه على افريقية بما كان يدبره لادريس ، وان يطلب منه تقديم العون له ، وهذا ما ينص عليه الطبرى (أخبار سنة ١٦٩) وان كان يحمل كتاب الرشيد الى ابراهيم بن الاغلب ٠ والمعروف ان ابراهيم بن الأغلب لم يل افريقية الا في سنة ١٨٤ هـ/٨٠٠ م ، وانه كان قبل ذلك واليا عن الزاب ٠ أما والي افريقية في الوقت الذي توفي فيه ادريس فكان نصر بن حبيب المهلبي (من رمضان سنة ١٧٤ هـ/فبراير ٧٩١ م الى المحرم من سنة ١٧٧ هـ/ابريل ٧٩٣ م) ٠

(٥٨) وهذا ما يعبر عنه بعض شعراء العباسيين في شعر نقله الطبرى ، وفيه يقول :

اتظـن يا ادريس انـك مفلت كيد الخليفـة أو يقيـك فـرار

ملك كان المـوت يتبـع أمـره حتى يقـال : تطيعـه الأقـدار

(الطبرى ، أحداث سنة ١٦٩) ٠ وانظر الجزنائي ، زهرة الآس ، ص ٤ - حيث يضيف كرامة للامام ادريس اذ يقول : « وظهر جسده بكفنه في سنة ٧١٨ هـ ، وازدحم الناس عليه من سائر أقطار المغرب حتى خيف الفتنة بسبب ذلك ، فبعث أمير المسلمين أبو سعيد ابن يعقوب بن عبد الحق - تقبل الله أعماله - بتفريقهم وتحسيم الفتن من أجل ذلك ، كما وقفت عليه في أمر سلطاني يقضي بذلك » ٠

(٥٩) انظر البكرى ، ص ١٢١ ، الاستبصار ، ص ١٩٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦١ ، الحلة السيراء لابن الأبار (ترجمة ابراهيم بن الأغلب ، ج ١ ص ١٠٠) : حيث يجعل وفاته في سنة ١٧٥ هـ/٧٩١م ، ويضيف وقيل ، سنة ١٧٤ هـ/٧٩٠ م ٠

(٦٠) روض القرطاس ، ص ١٠ ٠ والذي يلفت النظر أن صاحب هذه الرواية يجعل مولد ادريس الثـاني في سنة ١٧٧ هـ (أنظر ص ٤٣٨ وهـ ٧٢ ، ص ٤٣٩ حيث محاولة تحليل ذلك) ٠

(٦١) روض القرطاس ، ص ١٠ (رواية النوفلي وابن الأثير)

بالمغرب من وليلى ، وشغرت الامامة بعده ، اذ أنه لم يترك وريثا • ولم تستمر الامامة شاغرة الا لعدة أشهر ، اذ كان ادريس قد ترك جارية لهمن البربر • تسمى كنزة ، حبلى • فيجمع راشد رؤساء القبائل واتفق معهم على أن ينتظروا ماذا يكون من أمر الجارية ! فان وضعت ولدا كان وريث والده • وان كان المولود جارية أمروا على أنفسهم من أرادوا (٦٢) • ويظن جوتييه أن ذلك لم يكن الا مناورة من راشد أو من رؤساء القبائل ، وأنه كان من الطبيعي ان يكون المولود ذكرا ، ولو جاء جارية لكان من الممكن تدبير الأمر — أي استبدال ولد بالجارية (٦٣) • وهو في ذلك يرى ان البربر كانوا في حاجة الى امام له من الهيبة (البركة) ما يملي احترام سلطانه على الجميع (٦٤) • ومع وجاهة هذه الفكرة ، فنحن لا نستطيع أن نخوض في احتمالات قصصية جديدة لم يكفنا ما في الروايات التاريخية من الأساطير التي تجعل الوصول الى الحقيقة من الصعوبة بمكان (٦٥) •

والمهم ان زعماء القبائل استمعوا الى رأى راشد الذى أخذ على عاتقه ادارة الأمور ، فكان يصلي بالناس ويحكم بينهم (٦٦) • وبعد شهرين من وفاة ادريس وضعت كنزة غلاما سمي باسم والده تيمنا ، فهو ادريس بن ادريس (٦٧) ، أو هو ادريس الأصغر ، كما يسميه ابن خلدون (٦٨) • وظل راشد يشغل

---

(٦٢) القرطاس ، ص ١٠ — ١١ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ (الذى يقول ان اورية بايعوا ادريس الأصغر « حملا ثم رضيعا ثم فصيلا الى أن شب ... ») •

(٦٣) جوتييه ، ماضي شمال افريقية (بالفرنسية) ، ص ٣٠٠ •

(٦٤) نفس المرجع •

(٦٥) والحقيقة انه توجد رواية يوردها البكرى (ص ١٢٢) تثير موضوع العلاقة بين راشد وبين ادريس بن ادريس ، وتجعلها نوعا من التبني ، مما جعل بعض خصوم الأدارسة في المغرب يشيرون فعلا الى أن ادريس ابن ادريس هو ابن راشد حقا ، كما فعل محمد بن السمهرى الذى قال شعرا يهجو به القاسم بن ادريس بن ادريس بقوله :

لما توليتا للنسام مصاليا أيقنت حقا ان جدك راشد

(٦٦) روض القرطاس ، ص ١١ ، البكرى ، ص ١٢٢ ، الحلة السيراء ، لابن الابار ، ج ١ ص ٥٣ ، ٣٠٠ •

(٦٧) انظر البكرى (ص ١٢٢) الذى يجعل مولده في ربيع الآخر سنة ١٧٥ هـ / أغسطس ٧٩١ م ، وقارن القرطاس الذى يفسر سبب تسميته بادريس ، فيقول انه كان الشبيه الناس بوالده ، حتى قالوا : هذا هو ادريس بعينه كأنه لم يمت • ويجعل ابن أبي زرع مولده في قرية اسمها كنزة (ولا نعرف ان كان ذلك صحيحا أم ان الأمر اشكل عليه فخلط بين اسم جدة الوليد واسم القرية) في ٣ رجب سنة ١٧٧ هـ/أكتوبر ٧٩٣ م (ص ١١) •

منصب الوصي ويرعى الغلام ، فأدبه أحسن الأدب وأقرأه القرآن - فحفظه الصغير وهو ابن ثمانية أعوام - وعلمه السنة والفقه والنحو والحديث والشعر، وأمثال العرب وحكمها وسير ملوكها ، كما دربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام ومكايد الحروب (٦٩) .

امامته :

وقدر لادريس أن يلي الامامة وهو صبي صغير لم يبلغ من العمر الا احدى عشرة سنة . ويتفق معظم الكتاب على أن تنصيب ادريس الثاني تم في سنة ١٨٨ هـ/٨٠٤ م (٧٠) ، رغم أنهم يقولون انه ولد عقب وفاة ادريس الأول في سنة ١٧٥ هـ/٧٩١ م . ولو صح ذلك لكان عمر ادريس الاصغر حينئذ حوالي ثلاثة عشر عاما وليس أحد عشر ؛ وهذا ما يظهر في رواية البكري وابن عذارى التي حددت ولاية ادريس بن ادريس بسنة ١٨٧هـ/٨٠٣ م ، وأضافت : « وهو ابن احدى عشر سنة » . ثم اتبع ابن عذارى ذلك بقوله : « وقيل أكثر من ذلك »(٧١) . ولهذا السبب نعتقد أن اجماع الكتاب على أن ادريس الثاني ولي الامامة وعمره احدى عشرة سنة هو الذي جعل صاحب روض القرطاس يحدد وفاة ادريس الأول بسنة ١٧٧هـ/٧٩٣م(٧٢)، حتى يصح الحساب . أما عن مشكلة التوفيق بين ما يكاد يجمع عليه الكتاب من أن ادريس الأصغر ولي الامامة في سنة ١٨٨ هـ/٨٠٤م ، وأنه كان له من العمر احدى عشرة سنة ، فنعتقد أنها مرتبطة بوفاة راشد مولى ادريس الاكبر ؛ فرغم ما يقوله صاحب القرطاس وينسبه الى البكري ، من أن راشد لم يمت حتى أخذ البيعة لادريس بالمغرب (٧٣) ، فان معظم الكتاب - ومنهم البكري نفسه (٧٤) - يتفقون على أن امامة ادريس الأصغر تمت بعد وفاة راشد ، وان اختلفوا في تحديد تدى ذلك . فصاحب القرطاس يقول أن راشد اغتيل

---

(٦٨) العبر ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦١ .

(٦٩) القرطاس ، ص ١١ ، وانظر البكري ، ص ١٢٢ (رواية النوفل : علي بن محمد ابن سليمان بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - الذي ينقل عنه الطبري بعض اخبار العلويين - انظر الطبري ، سنة ١٦٩ ، ط . ذخائر العرب ، ج ٨ ص ٢٠٠) .

(٧٠) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦١ ، القرطاس ، ص ١٣ ، وقارن الاستبصار (ص ١٩٦) الذي يحدد بيعة ادريس بن ادريس بسنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ - ٨٠٨ م .

(٧١) البكري ، ص ١٢٢ (يوم الجمعة ٧ ربيع الأول سنة ١٨٧ هـ/٥ مارس ٨٠٣ م) ، ابن عذارى ج ١ ص ٢١٠ .

(٧٢) انظر ص ٤٣٧ ، وص ٦٠ .

(٧٣) انظر القرطاس ، ص ١٣ .

(٧٤) انظر البكري (ص ١٢٢) الذي يجعل وفاة راشد سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ م .

بتدبير ابراهيم بن الأغلب قبل مبايعة ادريس الثاني ، وهو يحدد تلك البيعة بعشرين يوما بعد قتل راشد (في غرة ربيع الأول سنة ١٨٨ هـ/١٧ فبراير ٨٠٤ م (٧٥) • أما عن رواية الاستبصار فتزيد الأمر تعقيدا ، اذ تجعل بيعة ادريس بعد وفاة راشد ولكن في سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ - ٨٠٨ م (٧٦) • أما ابن خلدون فيذكر - مثل غيره - ان بيعة ادريس بن ادريس كانت في سنة ١٨٨ هـ في مسجد وليلى ، وان الامام الصغير كان يبلغ من العمر احدى عشرة سنة ، وانه كان في رعاية ابي خالد بن يزيد بن الياس العبدي ، ولكنه يتبع ذلك بأن ابن الأغلب اغتال راشد قبل ذلك بسنتين (٧٧) •

والحقيقة انه يمكن أن نجد مفتاح المشكلة في رواية ابن خلدون هذه • فعلى أساسها يكون لادريس بن ادريس أحد عشر عاما عند وفاة راشد (في سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ م ، كما في البكري) ونعتقد انه كان من الطبيعي أن تبايعه القبائل بعد وفاة مربيه ووصيه • ولقد تمت تلك البيعة الأولى تحت اشراف ابي خالد بن الياس العبدي الذي آلت اليه الوصاية على ادريس الاصغر (٧٨) • ونعتقد أنه في سنة ١٨٨ هـ/٨٠٤ م ، وبعد أن تخطى ادريس الثالثة عشرة من عمره ، اعتبر راشدا غير قاصر . فبايعته القبائل على أنه الامام الذي يستطيع ممارسة سلطانه دون وصاية • وهذا ما يقوله فعلا ابن خلدون بعد روايته الأولى وان لم يحدد له تاريخا (٧٩) • أما عن التاريخ الذي يحدده الاستبصار وهو سنة ١٩٢ هـ . فنعتقد انه صحيح هو الآخر . وهو متعلق ببناء مدينة فاس ، كما سنرى ، فقد كان لابد من مبايعة الامام في عاصمة البلاد الجديدة ومستقر الامامة •

وبناء على ذلك يكون ادريس الأصغر قد بويع مرات ثلاثة : في سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ م بعد تخطيه الحادية عشرة ، وكان تحت الوصاية - اذا جاز هنا استعمال هذه الكلمة - ، وفي سنة ١٨٨ هـ/٨٠٤ م بعد أن تخطى الثالثة

---

(٧٥) القرطاس ، ص ١٣ : ورواية القرطاس هذه - التي ينقلها عن عبد الملك الوراق - تقول ان عزم راشد على مبايعة ادريس بن ادريس بالامامة كان السبب في أن دبر ابراهيم بن الأغلب اغتياله •

(٧٦) الاستبصار ، ص ١٩٦ •

(٧٧) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة . ج ٢ ص ٥٦١ (يذكر اسمه : ابو خالد ابن يزيد) •

(٧٨) انظر البكري ، ص ١٢٢ ، الاستبصار . ص ١٩٦ ، القرطاس ، ص ١٣ •

(٧٩) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦١ •

عشرة وأصبح راشدا تماما غير قاصر - وهي البيعة الكبرى - ، وأخيرا في سنة ١٩٢ هـ/٨٩٧ - ٨٠٨ م بعد بناء العاصمة فاس .

قيروان آخر بالمغرب الأقصى : بناء مدينة فاس :

نشر العروبة في المغرب الأقصى :

تعتبر مبايعة ادريس بن ادريس بالامامة سنة ١٨٨هـ/٨٠٤م نقطة تحول هامة في تاريخ الدولة الادريسية الناشئة . فحتى ذلك الحين لم يكن الامام في الحقيقة ، بأكثر من لاجيء لدى قبائل البربر بالمغرب الأقصى - رغم المركز الممتاز الذي كان له بين القبائل ، والسلطات الكبرى التي كان يمارسها . فالامام كان مدينا بمركزه هذا الى هيبة الأسرة العلوية وبيت النبوة والى ما تحلى به من الصفات : من الصلاح وتملك الشهوات والفضل ، وايثار العدل والاقبال على عمل البر (٨٠) ، الى جانب نشاط راشد وحسن تدبيره . أما عن موقف الامام الخاص - في البيئة الجديدة - فكان موقف الغريب الوحيد ، الذي استبدل بأودية مكة وحرات المدينة جبال طنجة ومدينة وليلة، وبعرب الحجاز والجزيرة بربر السوس والمغرب ، وبالأهل والأصدقاء اتباعا مخلصين - ولكنهم من لون جديد - حقيقة ان ادريس الأول أخذ يستقبل اعدادا من الوافدين - عليه من الحجاز ، من أهله وأنصاره : مثل أخيه سليمان - الذي استقل أبناؤه بالمغرب الأوسط فيما بعد (٨١) - وابن عمه داود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب(٨٢) الا أن هؤلاء كانوا قلة قليلة لم تستطع أن تغير من طبيعة الاحساس بالغربة . والدليل على ذلك ان بعض هؤلاء الوافدين فضلوا العودة الى وحشة المشرق على البقاء في أمن المغرب ، مثل داود بن القاسم الذي رجع الى المشرق على أيام ادريس بن ادريس ، وان كانت ذريته قد بقيت في المغرب(٨٣) .

من هذا الوجه بدأ تغير جديد ، اعتبارا من مبايعة ادريس الثاني سنة ١٨٨ هـ ، وممارسة الامام الشاب لسلطانه ، اذ أخذ يحيط نفسه بحاشية

---

(٨٠) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٤ .

(٨١) انظر البكري ، ص ١٢٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٢ ، والترجمة ج ٢ ص ٥٦٠ ، القرطاس ، ص ٤ .

(٨٢) البكري ، ص ١٢٢ ؛ ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠ .

(٨٣) البكري ، ص ١٢٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠ ، وكذلك القرطاس (عن داود ابن القاسم أيام ادريس الأصغر) ، ص ١٣ .

عربية وحرس عربي ، أي بجو مألوف . وكان ذلك يعني – في نفس الوقت – العمل على نشر العروبة في الدولة الناشئة الى جانب نشر الاسلام . ففي السنة التالية (١٨٩ هـ) وفد على ادريس الأصغر جماعات من عرب افريقية والأندلس : من القيسية والأزد ومدلج وبني يحصب والصدف وغيرهم ، في نحو الخمسمائة رجل(٨٤) . فرحب بهم الامام الشاب . « وجعلهم بطانته دون البربر ، فاعتز بهم لأنه كان فريدا بين البربر وليس معه عربي »(٨٥) . وبذلك بدأ التعريب – كما نقول – فاتخذ الامام وزيرا من الأزد هو عمير بن مصعب الملقب بالملجوم – وهو من سادات العرب وكان لأبيه مصعب مآثر عظيمة بافريقية والأندلس ومشاهد في غزو الروم (٨٦) – كما انه اتخذ قاضيا من القيسية – هو عامر بن محمد بن سعيد ، الذي كان فقيها صالحا سمع من مالك بن انس وسفيان الثوري وروى عنهما ، ودخل الأندلس مجاهدا ثم جاز الى العدوة (٨٧) . أما كاتبه فكان أبو الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي الانصاري (٨٨) . وكان وفد العرب الأول هذا بداية سيل من الهجرة العربية من الأندلس وافريقية نحو ادريس الثاني . ولقد ساعد على ذلك وقوع اضطرابات في الأندلس وافريقية دفعت الكثيرين من عربها الى الهجرة ، مثل اضطرابات ربض قرطبة(٨٩) ، وثورات الجند العربي في افريقية على ولاة بغداد (٩٠) . وهذا ما ينص عليه ابن أبي زرع عندما يقول : ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق ، فكثر الناس وضاقت

---

(٨٤) القرطاس ، ص ١٤ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ، ج ٢ ص ٥٦١ . زهرة الآس ، ص ١٣ .

(٨٥) نفس المصدر السابق .

(٨٦) القرطاس ، ص ١٤ ، وقارن بابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦١ (يسمى الوزير بهيصب بن زهير الأزدي ، ويقول ان سبب تسميته بالملجوم هو أثر جرح في انفه من ضربة سيف « وكأنها خطام »)

(٨٧) القرطاس ، ص ١٤ (العدوة بمعنى البر من حيث يجتاز البحر ، واطلقت الكلمة على ضفتي بحر الزقاق بين الأندلس والمغرب ، فهما العدوتان : عدوة الأندلس وعدوة المغرب او افريقية . والكلمة في القرطاس هنا تعني البر المغربي او بلاد المغرب التي اصبحت مركز الثقل على ايام الكاتب (قرن ١٤ م) ، بعد أن استولى النصارى على معظم الأندلس فأصبح البر المغربي هو العدوة دون البر الآخر) .

(٨٨) روض القرطاس ، ص ١٣ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ ، والترجمة ج ٢ ص ٥٦٢ (حيث الاسم أبو الحسن عبد الملك بن مالك الخزرجي) .

(٨٩) انظر فيما سبق عن بناء سجلماسة ، ص ٤٠٩ .

(٩٠) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٤٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٩٠ وما بعدها



شكل (٨) موقع فاس وتخطيط المدينة

بهم مدينة وليلى (٩١) .

وفي الوقت الذى كان فيه ادريس بن ادريس يوثق صلاته بالعرب ويقربهم من نفسه ، كان من الطبيعى ان تفتر علاقته بزعماء البربر الذين

---

(٩١) روض القرطاس ص ١٤ .

اخذوا يفقدون بعض ما كان لهم من سلطان منذ نشأتها . والمثل الصريح لذلك هو زعيم أوربة اسحق بن محمد ، الذى بدأ يتصل بوالى افريقية العباسى ابراهيم بن الأغلب ، فكان جزاؤه القتل بأمر الامام (٩٢) . وفى هذه الظروف الحاسمة التى بدأت فيها كفة العرب ترجح على كفة البربر ، لم يكن من الطبيعى ان يظل الامام فى وليلى - مدينة أوربة - التى أخذت تضيق بأعوان الامام الجدد ، وكان لابد له من اتخاذ حاضرة جديدة أكثر اتساعا وأكثر تمثيلا للاتجاه السياسى الجديد : الاتجاه العربى .

ويؤيد وجهة نظرنا هذه رأى جوتييه (٩٣) الذى لا يوافق على فكرة ضيق وليلى بأهلها ، اذ يقول ان خرائب وليلى موجودة وان مكان المدينة لا يمنع من اتساعها . هذا ، ولو أننا لا نوافق على تفسيره لانتقال ادريس من وليلى وبنائه لمدينة فاس ، بأن سهولة انتقال القبيلة من مكان الى مكان هو الذى جعل نقل المدينة الى موضع جديد عملا سهلا بالنسبة لأهل المشرق، أسهل من تجديد المدينة القديمة . والحقيقة ان جوتييه ينظر هنا الى العوامل الجغرافية من طبيعية وبشرية فقط ، ويهمل الظروف السياسية التى كانت بمثابة المحرك بالنسبة لتلك الأحداث .

اختيار موضع فاس :

فى هذه الظروف أعلن الامام ادريس الاصغر ، فى سنة ١٩٠ هـ/٨٠٥-٨٠٦ م ، عزمه على الانتقال من وليلى ، واتخاذ مدينة يسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته ، وركب فعلا لاختيار الموضع المناسب للعاصمة الجديدة (٩٤) . ووقع الاختيار على جبل يعرف بزالغ ، وأعجب الامام بارتفاعه وطيب تربته واعتدال هوائه ، وقرر ان يختط مدينته فى السفح الشمالى لهذا الجبل . وشرع فى البناء فعلا ، وتم جزء من بناء السور ، ولكنه اتضح أن

---

(٩٢) انظر البكرى (ص ١٢٣) الذى ينص على أن ابا خالد يزيد بن الياس الذى قام بأمر ادريس بعد وفاة راشد قتل ابا ليلى اسحق ، ويحدد ذلك بيوم السبت ٦ من ذى الحجة سنة ١٩٢ هـ/٢ إكتوبر ٨٠٨ م . ويضيف انه بعث برأسه الى المشرق مع أحمد وسليمان ابنى عبد الرحمن - أى فى نفس السنة التى بدأ فيها تأسيس مدينة فاس . ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦١ وانظر فيما سبق (عن استجابة الزعيم الزناتى بهلول بن عبد الواحد لاغراء الرشيد وابن الأغلب) ، ص ٣٩ وهـ ٥٧ .

(٩٣) جوتييه ، ماضى شمال افريقيا ... (بالفرنسية) ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٩٤) روض القرطاس ، ص ١٤ - ١٥ .

اختيار الموقع لم يكن موفقا : فعندما نزلت السيول ذات ليلة على الجبل هدمت ما كان قد بني من السور ، كما جرفت في طريقها ما كان حوله من خيام العرب ، فرأى ادريس أن يترك البناء في ذلك الموضع (٩٥) • وبذلك تشلت أول محاولة لبناء العاصمة الجديدة — حسب روايات القرطاس — وستفشل محاولة ثانية في العام التالي •

ففي المحرم من سنة ١٩١ هـ/نوفمبر ٨٠٦ م خرج ادريس في رحلة صيد لتخير موضع مناسب ، ووصل الى وادى سبو ، بالقرب من الينابيع الساخنة المعروفة بحمة خولان — التي تسمى حاليا باسم سيدى حرازم على بعد ١٥ كيلو متر شرق فاس (٩٦) — وأعجب بالموضع لقربه من ماء النهر العذب ومن الحمامات الساخنة • وتقول الرواية انه بدأ في العمل فعلا فحفر الأساس وعمل الجير وقطع الخشب ، وابتدأ بالبناء • ولكنه عندما حل فصل الشتاء ورأى فيضان النهر خشي أن تتكرر تجربة العام السابق فيهلك الناس ، فرفع يده عن البناء وعاد أدراجه الى وليلي (٩٧) •

وعندئذ رأى الامام ان يسند الأمر الى وزيره عمير بن مصعب الذي خرج في نفس السنة (١٩١هـ) كما يفهم من رواية القرطاس ، ونجح في اختيار الموضع المناسب ، وذلك في فحص أسايس حيث الأرض فسيحة معتدلة بين جبلين ، والمياه كثيرة تخرج في هدوء من العيون التي تمير أحد روافد نهر سبو وهو وادى فاس ، وحولها الأشجار من الطرفاء والطخش والعرعار والكلخ وغيره (٩٨) • ولم يكن الموضع مهجورا بل كانت فيه مضارب لقبيلتين زناتيتين هما : زواغة — وتعرف ببنى الخير — (حول عدوة القرويين) وبنو يزغتن (حول عدوة الاندلسيين) (٩٩) ، كل واحدة منهما على ضفة من

---

(٩٥) انظر القرطاس (الذي ينقل رواية ابن غالب) ، ص ١٥ •

(٩٦) انظر ليفي بروفنسال ، تاسيس مدينة فاس (بالفرنسية Islam d'Occident, La Fondation de Fès, Paris, 1948 ص ٦ وهامش ١٤ ، والترجمة العربية ، طبعة إدارة الثقافة ، الإلف كتاب ، ص ٨ هامش ٢ • وانظر لتورنو الذي يلخص بحث بروفنسال في دراسته عن مدينة فاس :
R. Le Tourneau, Fès avant le Protectorat, Casablanca, 1941, p. 31 et suiv.

(٩٧) القرطاس ، ص ١٥ •

(٩٨) القرطاس ، ص ٢٥ — ٢٦ •

(٩٩) القرطاس ، ص ١٦ (حيث نجد قراءتين : بنو يزغتن وبنو يرغش • ونفضل القراءة الأولى لانها أكثر استعمالا في النص • وكذلك فعل بروفنسال في « تاسيس مدينة فاس » (الأصل ، ص ٢٦ والهامش ٤٧ ص ٤٠ والترجمة ص ٤١ والهامش ٢) • وذلك

ضفتي النهر الصغير* وعاد الوزير يخبر الامام بالموضع الممتاز الذى تتوفر فيه كل مزايا موضع المدينة النموذجية : من الماء الجارى ، والمحرث الطيب ، والمحطب القريب (١٠٠) • ووافق الامام واشترى الموضع بستة آلاف درهم نال منها بنو يزغتن ٢٥٠٠ (الفي وخمسمائة) درهم وزواغة ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) درهم ، وأشهد عليهم بذلك • ويفهم من رواية القرطاس أن شراء موضع بنى يزغتن تم أولا ، وكان محرر العقد أبا الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي ، كاتب الامام (وذلك فى سنة ١٩١ هـ/٨٠٦ـ٨٠٧م) - (١٠١) •

وكان مجيء الامام الى مضارب القبيلتين خيرا وبركة عليهما ، اذ انه صالح بينهما بعد أن كانت بينهما نزاعات وحروب • وهنا نلاحظ ان الرواية تبالغ ـ من غير شك ـ عندما تذكر ان البربر فى ذلك الموضع كانوا على النصرانية واليهودية وعلى المجوسية أيضا ، وانه كان لبنى يزغتن ـ (أصحاب موضع عدوة الاندلس) بيت نار هناك (١٠٢) • والرواة هنا يقصدون نسبة أعمال باهرة وخدمات جليلة الى بانى مدينة فاس (١٠٣) ، الذى ادخل فى الاسلام أشتاتا من أصحاب الديانات والعقائد المختلفة •

---

* لقرب هذا الاسم من اسم القبيلة المشهورة حاليا فى جنوب فاس ، وهى قبيلة بنى يزغة • أما ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٢) فنجد القراءة فيه يوغش ويرغش • هذا بينما يرى الفرديل فى ترجمته لزهرة الآس (النص ص ١٤ والترجمة ص ٤٠) انه لم يكن من المعلوم لديه وجود قبيلة مراكشية باسم « يرغس او برغش » ـ حيث يوجد فى نص الجزنائى ـ فانه يحبذ قراءة الاسم فى شكل « بنى يزغى » الذى هو اسم قبيلة فى جنوب فاس •

(١٠٠) القرطاس ، ص ١٦ ـ ١٧ •

(١٠١) القرطاس ، ص ١٧ (وزهرة الآس ، ص ١٤) •

(١٠٢) القرطاس ، ص ٢٦ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٢ ، وانظر البكرى (ص ١١٦) الذى يجعل احد ابواب فاس ، وهو الباب الشرقى ، يحمل اسم باب الكنيسة •

(١٠٣) وفى مقام مولانا ادريس فى نفوس اهل المغرب ، يقول احمد بن ابى الضياف (اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تونس ١٩٦٣م ، ج ١ ص ٢٦) : « والمغرب يسلم الكرامة لهذا البيت حيا او ميتا حتى ان عامتهم يعتقدون ان سلطان المغرب حقيقة هو مولانا ادريس بمقتضى ما فيهم من الخير والسذاجة الاسلامية ، من تعظيم الاشراف والعلماء والصالحين ... » •

البناء : عدوة الأندلس :

وعلى أساس تلك الروايات التي جمعها ابن أبي زرع ، تكون مدينة فاس قد بنيت على دفعتين الأولى ابتداء من سنة ١٩١ هـ/٨٠٧ م . عندما اشترى الامام موضع البرغتنيين ، وبنى فيه الجزء من المدينة الذي سيعرف بعدوة الأندلس ، على الضفة الشرقية لنهر فاس . في غرة ربيع الأول من السنة التالية ١٩٢هـ/٤ يناير ٨٠٨ م (١٠٤) . ووضع الامام حجر الأساس بنفسه ، بعد أن دعا لمدينته الحديدة بأن يجعلها الله دار علم وفقه يتلى بها كتاب الله ، وتقام بها حدوده ، ولأهلها بأن يجعلهم الله مستمسكين بالسنة والجماعة طالما بقيت المدينة (١٠٥) . وبدء ببناء الاساس ثم دور الامام والمسجد الجامع الذي عرف بجامع الأشياخ ، كما نصبت الخيام ، واحيط كل ذلك بأسوار (جدر) من الخشب والقصب ، وذلك في الموضع من المدينة الذي عرف بجرواوة (كرواوة) والذي مازال يحتفظ بهذا الاسم الى اليوم (١٠٦) . وبناء المدينة بهذا الشكل يدل على أنها كانت بسيطة أشبه ما تكون بقرية من قرى الجبال الفقيرة فعلا . كما يقول بروفنسال (١٠٧) .

عدوة القرويين :

أما الجزء الثاني من المدينة فبدأ ببنائه في غرة ربيع الآخر من السنة

---

(١٠٤) القرطاس ص ٩ البكري ص ١١٥ وص ١٢٣ ؛ ياقوت معجم البلدان — فاس ، ابن خلدون ج ٤ ص ٣

(١٠٥) القرطاس ص ١٩ - ٢٠ ، زهرة الآس ص ١٧

(١٠٦) القرطاس ص ١٦ ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٢ (كرواوه) وفي تفسير اسم جرواوة يقول الجزنائي ، زهرة الآس ص ١٤ « الامام ادريس بعد أن ضرب اخبيته وقبابه بالموضع ... ، دور عليه جرواوة من الخشب فسمى الموضع جرواوة لأستعمال هذا » . مما يعني ان جرواوة باللغة المحلية كانت تعني السياج . وهو ما ينص عليه الجزنائي بعد ذلك ، ص ١٩ ، اذ يقول ان الامام مر بالسور المعروف بالجرواوة . وانظر دراسة بروفنسال (عن تاسيس مدينة فاس) الذي يقبل تفسير كلمة جدر (جمع جدار) على انها تعريب للاسم البربري الفينيقي اجادير وانها تعني المخازن الجماعية ، او المجلس ومنها اشتقت كلمة اجراو ، التي اطلقت على بعض مجالس اقليم الريف والتي اشتق منها اسم جرواوا — موضع فاس الأولى — الذي يعني المعسكر (الأصل الفرنسي ، ص ٢٢ وهامش ٤١ ، ٤٤ ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، والترجمة ص ٣٤ وهامش ١ وص ٣٥ وهامش ١) .

(١٠٧) انظر بروفنسال ، تأسيس مدينة فاس ، الأصل الفرنسي ، ص ٣٢ ، والترجمة العربية ، ص ٣٢ — ٣٣ .

التالية (١٩٣ هـ/٢٢ يناير ٨٠٩ م) (١٠٨) ، على الضفة التالية المقابلة لنهر فاس في موضع رواغة ، وهو الحى الذى سيعرف بعدوة القرويين . والذى يفهم من رواية القرطاس هو أنه على عكس عدوة الأندلس التى كانت أشبه بقرية رعوية ، اتخذ بناء عدوة القرويين هذه شكل المدينة فعلا . فقد ترك الامام الموضع الأول واتجه الى الضفة المقابلة لكثرة العيون والأشجار ، ونزل في موضع يعرف بالقرمدة . وبدأ ، كما هى العادة في بناء المدن الجديدة . باقامة المسجد الجامع الذى عرف فيما بعد بجامع الشرفاء (١٠٩) ، ثم بنى دار الامارة التى عرفت بدار القيطون . اى دار الفسطاط لان الامام ضرب في موضعها قيطونه أي فسطاطه أو قبته أول ما نزل . والى جانب المسجد بنى القيسارية . وهى سوق المدينة المركزى كما أقيمت الأسواق والحوانيت حوالى الجامع من كل جانب(١١٠) .

وحول هذا المركز الذى يمثل المدينة الحكومية ، اتسعت المدينة الناشئة بسرعة ، بفضل تشجيع ادريس بن ادريس الذى أمر الناس بالبناء واعمار الأرض ، فوعد بأن من ابتنى موضعا واغترسه قبل تمام السور بالبناء كان هبة له . ولقد ساعد على سرعة عمران المدينة كثرة الأشجار التى وفرت للناس كل ما يلزمهم من الخشب للبناء (١١١) ، كما ساعد على سرعة نموها جماعات الوافدين على الامام من المشرق ومن الأندلس . فمن القادمين من المشرق جماعة من العراقيين الذين أنزلهم بناحية عين علون (١١٢) ، وربما كان هؤلاء هم الثلاثمائة بيت من أهل القيروان ، الذين أسكنهم ادريس معه فأعطوا اسمهم لهذا الجزء من المدينة أى عدوة القرويين(١١٣) .

الأسوار والأبواب :

ويمدنا ابن أبي زرع بتفصيلات مطولة عن أسوار المدينة وأبوابها ،

---

(١٠٨) القرطاس ، ص ٢١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ (وفي سنة ٣ « ثلاث » بعدها « ١٩٣ ») ، البكرى ، ص ١١٥ ، ياقوت ، المعجم ، فاس) .

(١٠٩) يصف البكرى (ص ١١٦) جامع القرويين الذى بناه ادريس بن ادريس على أنه يحتوى على « ثلاثة بلاطات طولها من الشرق الى الغرب ... وله صحن كبير فيه زيتون وشجر وله سقايف » .

(١١٠) القرطاس ، ص ٢٠ .

(١١١) نفس المصدر .

(١١٢) انظر نفس المصدر .

(١١٣) القرطاس ، ص ١٧ .

فيجعل لعدوة القرويين ٦ ستة أبواب هي : باب افريقية ، وباب سعدون ، وباب الفرس ، وباب الفصيل ، وباب الفرج وباب الحديد • ويجعل لعدوة الاندلس ٥ (خمسة) أبواب هي : باب الفوارة ، وباب مقابل باب الفرج ، وباب أبي سفيان ، وباب الكنيسة ، وباب عدوة الاندلس (١١٤) • والحقيقة اننا لا نعرف أن كانت هذه التفصيلات خاصة بفاس الأولى التي بناها ادريس ابن ادريس ، أم بفاس العاصمة المغربية الكبرى ، بعد أن اتسعت على مر العصور • ومع أنه مما لا شك فيه أن المدينة ازدادت نموا على أيام الامام فنحن نميل الى الرأى الأخير • ويرجع ذلك اختلاف أسماء الأبواب وعددها عند البكرى وعند ابن أبي زرع ، كما يرجحه ما يذكره ابن أبي زرع نفسه عما أصاب هذه الأبواب من الهدم والتجديد وتغيير الأسماء على عهود أمراء فاس حتى أيامه (١١٥) •

خطط المدينة :

وبعد الفراغ من بناء الأسوار قسم ادريس الأرض المحيطة بالمدينة ، مما يلي الابواب مباشرة على قبائل العرب والبربر • ويحدد ابن أبي زرع موضع قبائل العرب ، اذ نزلت القيسية بازاء الأسوار الجنوبية لعدوة القرويين ، ما بين باب افريقية وباب الحديد ، ونزل اليحصبيون على حذائهم بازاء الأسوار المقابلة من الجهة الاخرى ، بينما نزلت الازد فيما بينهما على طول الاسوار الغربية (١١٦) • أما عن قبائل البربر من صنهاجة ولواتة وأشيخان فلا يحدد مواضعها ، ويقول ان كل قبيلة منها نزلت بناحيتها (١١٧) •

---

(١١٤) القرطاس ، ص ٢١ • وقارن البكرى (ص ١١٦) الذي يجعل لعدوة القرويين خمسة أبواب هي : باب الحصن الجديد (قبلي) باب السلسلة (شرقي) ، باب الفنادق (شرقي) ، باب سياج يحيى بن القاسم (جوفي) ، باب سوق الأحد (غربي) • ويجعل البكرى لعدوة الاندلسيين ستة أبواب هي : باب الفتوح (قبلي) ، باب الكنيسة (شرقي) ، باب ابي خلوف (شرقي) ، باب حصن سعدون (جوفي) ، باب الحوض (غربي) ، باب سليمان (غربي) • وقارن لتورنو (Le Tourneau) الذي يسجل تخطيطا لجيار (Gaillard) عن المدينة في اول ايامها فيضيف بابا سابعا لعدوة القرويين هو باب جيسة (Fès, p. 42) والمعروف ان هذا الباب يحمل اسم الأمير الزناتي عجيسة الذي بناه ، وانه تغير مع مرور الوقت من باب عجيسة الى باب جيسة (القرطاس ، ص ٢٤) •

(١١٥) القرطاس ، ص ٢٢ ، وانظر ص ٢٣ : حيث رواية ابن غالب التي تصدم بعض الابواب فاس القديمة مع النص على ان بعضها مثل باب حصن سعدون من بناء ادريس الثاني •

(١١٦) انظر القرطاس ، ص ٣٦ •

(١١٧) القرطاس ، ص ٣٦ •

والظاهر ان البربر كانوا قد نزلوا من قبل على الضفة الشرقية فى عدوة الأندلسيين ، فابن ابى زرع يذكر أن ادريس بن ادريس أنزل جميع أحباده وقواده ، وكذلك عدده وعتاده من الخيل والابل والبقر فى عدوة الاندلس ، ولم ينزل معه بعدوة القرويين غير مواليه وحشمه ، وسائر رعيته من التجار والصناع والسوقة • وعلى هذا الأساس يفسر صاحب القرطاس بقاء مدينة فاس فى شكل مدينتين طيلة أيام ادريس وعلى أيام ولده وحتى ملـــك الزناتيين (١١٨) •

ما بين العدوتين وفاس :

والحقيقة ان بقاء فاس فى شكل مدينتين تحمل كل منهما اسمها الخاص أمر غريب يسترعي الملاحظة • ولقد نبه بروفنسال ، فى دراسته عن تأسيس مدينة فاس ، الى أنه ينبغي توضيح فكرة المدينتين المتجاورتين اللتين اتحدتا نتيجة لعملية تمثيل تاريخية طويلة ، كما انه ينبغي التفرقة بين المعلومات الخاصة ، بكل منهما ـ وهما فى دور النشاة ـ على حدة ، بدلا من مزجها أو خلطها جميعا بحجة ان العاصمة المغربية الكبيرة من بناء الامام ادريس الأصغر (١١٩) •

وبروفنسال يرى أن المدينة الأولى أى عدوة الأندلسيين من بناء ادريس الأول فى سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ ـ ٧٨٩ م ، وليست من بناء ادريس الثانى فى سنة ١٩٢ هـ /٨٠٨ م • وهو يستند فى ذلك الى بعض الروايات الجانبية، من الكتب التى لا تعالج مدينة فاس أو تاريخ المغرب نفسه(١٢٠)، ويرى أنه من السهل أن تكون كلمة « سبعين » قد حرفت الى « تسعين » (١٢١) ، والذى دفع بروفنسال الى تبنى هذا الرأى هو وجود عملة مضروبة فى فاس يظن

---

(١١٨) القرطاس ، ص ٢٧ •

(١١٩) انظر تاسيس مدينة فاس ، الأصل الفرنسى ، ٩ ـ ١٠ والترجمة العربية ص ١ ـ ١٣ •

(١٢٠) انظر تاسيس مدينة فاس لبروفنسال الأصل الفرنسي ص ١٣ ـ ١٧ والترجمة العربية ، ص ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ (حيث يورد بروفنسال نصا للمؤرخ الأندلسى الرازى المتوفى ٣٣٤ هـ/٩٥٥ م ، نقلا عن ابن الابار فى « الحلة السيراء » (انظر تحقيق مؤنس ، ج ١ ٥٢) ، وفى هذا النص يجمع الرازى دخول ادريس الأول المغرب فى سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ م ، فى موضع وليلى ، واستجابة القبائل اليه ، وبناء مدينة فاس جنبا الى جنب •

(١٢١) نفس المصدر ، الأصل الفرنسى ص ١٩ والترجمة ص ٢٩ •

انها ترجع الى سنتي ١٨٥ و ١٩١ هـ أي قبل سنة ١٩٢ هـ ، وهو التاريخ المتواتر لبناء فاس (١٢٢) ، بينما تحمل النقود التي ضربها ادريس الثاني اسم مدينة « العلية » وليس اسم فاس (١٢٣) • وقد حمل ذلك بروفنسال على القول بان المدينة الثانية اى عدوة القرويين هي التي بناها ادريس الثاني ، وأنها كانت تحمل في أول الأمر اسم « العلية » (١٢٤) • وبناء على ذلك تكون « فاس » الحقيقية هي عدوة الأندلس وهي من بناء ادريس الأول •

والحق ان رأى بروفنسال مقبول ، رغم انه ليس نهائيا ، فالمعروف ان مدينة الادارسة (أى عاصمتهم) قبل سنة ١٩٢ هـ/٨٠٨ م كانت وليلى ، وان المدينة التي كانت في موضع فاس لم تكن باكثر من قرية فقيرة • ولو صح أنه ضربت فيها السكة قبل سنة ١٩٢ هـ/٨٠٨ م ، فهذا لا يعني بالضرورة ان ادريس الأول بناها ، وأنه اتخذها عاصمة ، اذ كان يمكن لنائبه فيهـا مثل غيره من النواب أن يضرب السكة • واذا كان وجود اسم فاس قبــل سنة ١٩٢ هـ يمكن أن يعني ان الاسم سابق على بناء المدينة الجديدة ، لهذا ما تقوله احدى روايات القرطاس فعلا من ان الامام الأصغر قال : سموها باسم المدينة البائدة التي كانت في الموضع ، غير أنه أمر بقلب الاسم الذى كان « سماف » فاصبح « فاس » ،(١٢٥) •

والذى نريد أن نخرج به من هذا ، هو أنه على فرض أن ادريس الأول هو الذى بنى قرية فاس الاولى ، وهذا أمر صعب خلال فترة امامته القصيرة ، فان ذلك لا يقلل من أصالة وعظمة العمل الذى قام به ادريس الثاني ، بانى مدينة فاس الحقيقية ، مثله في ذلك المنصور العباسي بانى مدينة بغداد • والاشارة هنا الى بغداد لها مغزاها البعيد ، اذ ان موضعها واسمها لا يرجع اختيارهما الى مزاج المنصور نفسه ، فقد كان الموضع عامرا به قرية قديمة تحمل اسم بغداد •

---

(١٢٢) نفس المصدر ، الأصل الفرنسى ص ١١ والترجمة ص ١٥ ، ١٧ •
(١٢٣) نفس المصدر ، الأصل الفرنسى ، ص ١١ والترجمة ص ١٧ (الحالية) •
(١٢٤) نفس المصدر ، ص ١٣ والترجمة ص ١٩ •
(١٢٥) هناك روايات أخرى عن أصل التسمية ولكنها تتطبع بالطابع الأسطوري ، من ذلك ما يقال من ان الامام كان يعمل بنفسه مع الصناع والفعلة تواضعا ، فصنع له فاس من ذهب وفضة كان يبتدىء به حفر الأساسات ، كلما كثر ذكر هذا الفاس على السنة الفعلة ، سميت المدينة « فاس » لذلك ، ومنها الرواية التي تقول انه عندما بدء حفر الأساس وجد فى

ومع ان المنصور بنى مدينته على الضفة الغربية لدجلة ، فان المدينة عندما امتدت عبر النهر الى الضفة الشرقية التى اطلق عليها اسم الرصافة ، ظلت مدينة واحدة تحمل نفس الاسم ، رغم ان النقود المسكوكة فيها حملت اسم « دار السلام » ، وظلت تنسب الى بانيها الحقيقى وهو المنصور ، رغم ازدياد العمران فى الضفة الشرقية • وبناء على هذا القياس حق لكتاب المغرب ان ينسبوا فاس الى بانيها الحقيقى ادريس بن ادريس ، فهى من ابتكاره ، لا يقلل من ذلك ان الموضع كان مسكونا ببعض قبائل البربر أو ان قرية بائسة كانت تحمل — على أيام ادريس الأول — اسم العاصمة السعيدة •

ووجه التجديد والابتكار ، من جانب ادريس الاصغر ، هو أنه أنشأ عاصمة عربية فى بلاد البربر ، تماما كما فعل عقبة بن نافع فى أفريقية ، فأصبحت فاس قيروان المغرب الاقصى • ومن هذا الوجه كانت فاس العربية فى عدوة القرويين ، حيث أنزل الامام العرب معه ، كما رأينا ، ولكن الحى الآخر لم يلبث أن تعرب بدوره ، بعد ذلك بقليل ، عندما وصل أهل ضاحية الربض من مدينة قرطبة بعد أن طردهم أمير الأندلس الحكم بن هشام حوالى سنة ٢٠٢ هـ/٨١٧ م • فلقد وصل هؤلاء فى نحو ثمانمائة بيت نزلوا فى عدوة الأندلس ، وشرعوا بها فى البناء يمينا وشمالا ، فسمى الجزء الشرقى بهم (١٢٦) ، وأغلب الظن أنهم عمروا هذا الحى على الطريقة الأندلسية • وتبالغ الروايات فى المدينة واتساعها بسرعة ، وتريد أن تجعل منها مدينة عالمية عقب بنائها مباشرة : فلقد أطعمت الاشجار والكرم من سنتها ، وذلك ببركة الامام (١٢٧) • وكثرت خيراتها فكان الطعام (الزرع) لا يباع بها ولا يشترى

= جهة القبلة فاس كبير طوله ٤ اربعة اشبار ، وسعته شبر وزنته ستون رطلا ، فسميت المدينة به • ومنها ان المدينة سميت باسم أول رحل من بها واسمه فارس ، ولكنه لما كان الرجل الثغا فانه نطق اسمه عندما سئل عنه « فاس » • وآخر تلك الروايات ان المدينة سميت باسم جماعة من الفرس نزلوا بها اثناء بنائها وسقط عليهم جرف فماتوا ثم حذف الناس الاسم فقيل فاس بدلا من فرس (انظر القرطاس ، ص ٢٦ ، وقارن زهرة الآس ، ص ١٨ — حيث يرفض الجزنائى أن يكون قد عمل للامام فاس من ذهب وفضة على اساس « ان الامام رضى الله عنه لا يجهل ان استعمال الذهب محرم على الرجال ») •

(١٢٦) القرطاس ، ص ٢٧ (النص يقول « ثمانية بيت » ورأينا ان صحته ثمانمائة بيت ») ، وعن مهاجرى الربض — انظر فيما سبق ، ص ٤٤٢ • ويشير ابن حيان فى حوادث سنة ١٩٦ هـ ، الى أن الحكم بن هشام أمير الأندلس صالح ملك الفرنجة الذى يسميه « قارله ابن حقفش » — ولو انه يبرر ذلك بطريقة عكسية ، اذ ينص على ان الفرنجة — بدلا من المروانيين فى قرطبة — للقوم الذين نزعوا بسبب ظهور ادريس بن عبد الله الحسنى فى اوطن العدوة • المقتبس : مخطوط كلية الآداب المصور بجامعة الاسكندرية ، ص ٢٥ •

(١٢٧) القرطاس ، ص ٢٦ •

أيام الامام وذريته ، فكان وسق القمح بدرهمين ونصف ، ووسق الشعير بدرهم ، والكبش بدرهم ونصف ، أما الفاكهة فلم يكن لها سعر لرخصها(١٢٨) ٠

والمدينة لم تحو المسلمين من العرب أو البربر الذين دخلوا حديثا فى الاسلام فقط ، بل حوت اليهود أيضا ٠ فيقول ابن أبى زرع انه اجتمع بالمدينة خلق كثير من اليهود الذين أنزلهم الامام بناحية أصلان الى باب حصن سعدون، وفرض عليهم الجزية التى بلغت ثلاثين ألف دينار سنويا (١٢٩) ٠ وهذا يعنى عددا كبيرا من اليهود يكونون حيا باكمله ، وهذا ما لم تعرفه فاس ـ مثلها مثل كثير من المدن العربية ـ الا بعد مرور فترة الانشاء ، وعندما أصبحت عاصمة كبيرة ٠ والحقيقة ان هذه الرواية لا تتفق مع الرواية الأولى التى ذكرناها بمناسبة تاسيس المدينة ، والتى نسبت الى الامام فخر ادخال جماعات البربر التى كانت تعتنق النصرانية واليهودية والمجوسية فى الاسلام ٠

ونشير الى أنه لا ينبغى المبالغة فى عظم مدينة فاس الفتية على أيام ادريس بن ادريس ٠ فمن الصحيح أن ادريس بن ادريس عاش عشرين سنة بعد ان وضع حجر الأساس لمدينته العربية (اذ توفى سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨م)، وان تلك المدة كانت كافية لكى تتسع المدينة وتكبر ، ولكنها لم تكن كافية لكى تصبح على الصورة التى يصفها بها صاحب روض القرطاس ، الذى يكتب فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، فى الوقت الذى كانت فاس انتهت الى ما لم تبلغه مدينة فى المغرب ، كما يقول هو نفسه (١٣٠) ٠

والحقيقة انه لن يمكن تنظيم المعلومات المتنوعة ، والتفصيلات المختلفة، التى يمزجها صاحب القرطاس مزجا ، الا اذا سمحت الظروف بمعرفة المصادر التى نقل عنها بشىء من الدقة ٠ ونحن اذا وافقنا على نسبة أمجاد مدينة فاس ـ العاصمة الكبرى ـ الى بانيها ادريس الاصغر فانما نفعل ذلك لانه مبتكرها ، وصاحب فكرتها ٠ أما عن فاس على أيامه فلا نعتقد انها زادت كثيرا عن حدود مدينة ملكية ناشئة ، لم يزد عمرها على عشرين سنة فى أواخر أيام الامام ٠ ويرجح هذا الرأى ان بعض الروايات تؤكد أن وفاة ادريس بن ادريس لم تكن فى مدينة فاس بل فى مدينة ادريس الاكبر :

---

(١٢٨) روض القرطاس ، ص ٢٩ ٠

(١٢٩) روض القرطاس ، ص ٢٧ ٠

(١٣٠) روض القرطاس ، ص ٢٨ ٠

وليلى (١٣١) ٠

اهمية بناء مدينة فاس : تأكيد سلطان الادارسة فى المغرب :

وهنا ينبغى الاشارة الى أن أهمية فاس لا تتلخص فى بناء المدينة العجيبة نفسها ، بمساجدها وأرحائها وأسواقها وقصورها وغناها ، بل فى العمل الحضارى الذى قامت به والذى يمثل رسالة الادارسة العلويين فى بلاد المغرب الأقصى ٠ والظاهر ان بناء المدينة استغرق ما بين ثلاث سنوات أو أربعة ٠ فبعد أن أقام ادريس الثانى بها الى سنة ١٩٧ هـ/٨١٢ — ٨١٣م ، خرج فى المحرم من نفس السنة لغزو بلاد المصامدة فأخضع قبائلهم ، ووصل فى غزوهم حتى السوس الأقصى ، حيث أخضع مدينة نفيس — التى دخلها عقبة بن نافع سنة ٦٢ هـ — ثم عاد الى فاس (١٣٢) ٠ وأقام ادريس ما يقرب من العام ، ثم انه عزم على تأكيد سلطانه فى أقاليم المغرب الأوسط الغربية ، فخرج فى أواخر سنة ١٩٨ هـ/يونيه — يوليه ٨١٤ م لغزو قبائل نفزة ، ونجح فى اخضاعهم ، ودخل مدينة تلمسان حيث أتاه محمد بن خزر الزناتى وبايعه ٠ وأقام ادريس فى تلمسان مدة ثلاث سنوات واصل خلالها أعمال والده هناك : فأصلح أسوار المدينة ، ورمم جامعها الذى بناه والده ، وأقام فيه منبرا جديدا (١٣٣) ٠ وعاد الامام الى فاس ، وقد اطمأن الى انتشار سلطانه من تلمسان الى نفيس ٠

---

(١٣١) انظر فيما بعد ، ص ٤٥٦ وص ١٣٧ ٠ وعن أبواب العدوتين ، انظر الجزنائى ، زهرة الآس ، ص ١٩ — ٢٠ : حيث يعدد فى عدوة الأندلس ٧ (سبع) أبواب ، هى أبواب : الفيلة ، وجرواوة ، والمخفية ، والشيبوبة ، والفصيل ، وابى سفيان ثم باب الكنيسة ، كما يعدد فى عدوة القرويين ٥ (خمسة) أبواب ، هى أبواب ٠ افريقية ، الفصيل ؟ ، الفرج ، الحديد ثم باب القلعة ٠

(١٣٢) البكرى ، ص ١٢٣ ، روض القرطاس ، ص ٢٩ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٢ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ (الذى يجعل غزو بلاد المصامدة بعد غزوة نفزة) ٠

(١٣٣) انظر القرطاس (ص ٢٩ وتلخيصه فى زهرة الآس ، ص ٢٢) الذى ينقل رواية عبد الملك الوراق الذى يقول ٠ « دخلت مسجد تلمسان سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م ، فرأيت فى =

والحقيقة أن اقامة ادريس مدة ثلاث سنوات في تلمسان ونواحيها كان القصد منها تامين حدود دولته الشرقية ازاء خطر الخوارج بالمغرب الأوسط ، وكانت قبائل نفزة التى هزمها - بمعاونة ابن عمه داود بن القاسم بن إسحق ابن عبد الله بن جعفر (١٣٤) - من أقوى عصبيات امامة تاهرت ، كما رأينا . وهذا ما يشير اليه ابن خلدون عندما يقول انه بعد ان أخضع البربر وزناتة، قوى أمره ، وتمكن من القضاء على الخوارج منهم « واقتطع المغربين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى الى شلف »(١٣٥) . وهذا ما يصر عليه جوتييه ، عندما يقول : ان قضاء أدريس الثانى على الخوارج يعبر عن خوف أهل الحضارة والمدنية (رعية الدولة الادريسية) من تخريب الخوارج (الزناتية البدو) . وهذا يمثل النتيجة التى وصل اليها ، والتى تتلخص فى أن الحركة الخارجية التى بدأت فى المغرب الأقصى سنة ١٢٢هـ ، على يدى ميسرة ، انقلبت الى ضدها : الى حكومة نظامية ، هى الدولة الادريسية (١٣٦) .

وفاة ادريس الأصغر وبداية سمات تصدع الدولة الادريسية :

ويقول صاحب القرطاس ان ادريس لم يزل بفاس الى أن توفي في

= راس منبرها لوحا من بقية منبر قديم ، قد سمر عليه هنالك ، مكتوب فيه : « هذا ما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على - رضى الله عنهم - فى شهر المحرم سنة ١٩٩ هـ/اغسطس ٨١٤ م » . وبناء على هذا التاريخ رأينا تعديل خروجه من فاس نحو تلمسان الى أواخر سنة ١٩٨ هـ/يونية ٨١٤ م ، بدلا من سنة ١٩٩ هـ كما يقول البكرى (ص ١٢٣) وصاحب القرطاس (ص ٢٩) وابن خلدون (انظر فقط الترجمة ج ٢ ص ٥٦٢ اذ لا نجد هذا التاريخ فى النص ولا اسم ابن خزر كذلك) . ونلاحظ هنا ان ابن خلدون (ص ١٣) يذكر ان الامام أصلح المنبر ولم يصنع منبرا جديدا حسب رواية القرطاس . وفيما يتعلق بدخول الوراق الى تلمسان فى سنة ٢٥٥ هـ فلاحظ ان الوراق هذا يكتب فى أواخر القرن السادس الهجرى . ولهذا السبب وجد هذا التاريخ فى بعض النسخ للقرطاس سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م (انظر بروفنسال ، تأسيس فاس ، النص ص ٢١ والهامش ٣٨) . ولقد رجحنا نحن ان تكون سنة ٢٥٥ هـ خاصة بالمؤرخ ابن غالب الذى نسخ الوراق كتابه (انظر التعريف بكتاب روض القرطاس فى دراسة المصادر السابقة ، ج ١ ص ٤٤) .

(١٣٤) انظر البكرى (ص ١٢٣) حيث يقول ان داود بن القاسم خرج للقتال الخوارج مع ادريس بن ادريس فاعجبه منه (اى من ادريس) ثلاث خصال : اجتماع قلبه ومتعه وحركته وقلة قراره الذى يعنى الزمع الى القتال وليس الرعب .

(١٣٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٢ (حيث قراءة السوس فى شكل « السوس ») .

(١٣٦) انظر جوتييه ، ماضى شمال افريقيا .. (بالفرنسية) ، ص ٣١٥ - ٣١٦ .

سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م ، وهو ابن ست وثلاثين سنة ، وانه دفن بمسجده (جامع الشرفاء) بازاء الحائط الشرقي ، أو الحائط القبلي . هذا ولو أن رواية البرنسي – التي يوردها بعد ذلك – ربما كانت أقرب الى الحقيقة من حيث التاريخ ، اذ تحدد وفاة ادريس الثاني بليلة ١٢ جمادى الثاني من سنة ٢١٣ هـ/٢٨ اغسطس ٨٢٨ م ، وسنه يومئذ ثمانية وثلاثون عاما ؛ وهذه الرواية تتفق مع رواية البكرى التي لا تجعل وفاة ادريس في فاس بل بمدينة وليلى ، في بلاد زرهون ، وتقول انه دفن الى جانب قبة ابيه هناك (١٣٧) . وتحيط بوفاة ادريس الثاني الشاب ، مثله مثل والده ، قصة روائية تقول انه توفي بسبب أكله عنب ، شرق أو «غص بحبة منها »(١٣٨) ، أو انه مات مسموما في حبة العنب تلك (١٣٩) . هذا ، كما يمكن أن يفهم انه كان للاغالبة، وبالتالي خلافة بغداد ، يد في هذا الأمر . يستشعر ذلك من الشعر الذى ينسب قوله الى ابراهيم بن الاغلب والذى ينص على أن الأغلبي هو الذى دبر اغتيال راشد ، الذى كان قد استفحل أمره وعلا حتى أنه هم بغـــزو أفريقية ، وانه كان يتربص بادريس ليتخلص منه هو الآخر (١٤٠) . ولا يمنع من ذلك ما تقوله بعض الروايات من أن ابراهيم بن الأغلب كان قد ألب الزعيم المدغرى « البهلول بن عبد الواحد » على ادريس بن ادريس ، وان هذا الأخير كتب الى بهلول يخطب وده ، ويدعوه الى الرجوع الى طاعته ، ويحذره من مكر ابن الأغلب (١٤١) . وما تضيفه الرواية بعد ذلك عندما تقول

---

(١٣٧) البكرى ، ص ١٢٣ . والنص يقول ان ادريس بن ادريس توفى وعمره ٣٣ سنة ، وهذا خطأ من النساخ اذ ينبغى أن يكون ٣٨ سنة بما انه ولد سنة ١٧٥ هـ/٧٩١ م وتوفى سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م ، وقارن الحلة السيراء لابن الابار » ج ١ ص ٥٤ ، حيث تنطق نفس الملاحظة .

(١٣٨) البكرى ، ص ١٢٣ ، القرطاس ، ص ٣٠ (زهرة الآس ، ص ٢٣)

(١٣٩) الحلة السيراء ، ترجمة القاسم بن ادريس رقم ٤٩ ، ج ١ ص ١٣١ .

(١٤٠) انظر الحلة السيراء لابن الابار ، ج ١ ص ٩٨ حيث يقول ابراهيم بن الأغلب .

الم ترني اورديت بالكيد راشـــدا ... وانى باخرى لابن ادريس راصـــد
تناوله عـــزمى عـــلى نأى داره ... بمختـــومة فى طيهن المـــكائد

(١٤١) انظر الحلة السيراء لابن الابار ، ج ١ ص ٥٥ ، حيث ينسب الى ادريس شعرا فى هذا الأمر ، يقول فيه .

كأنك لم تسمع بمكر ابن اغلب ... وما قد رمى بالكيد كل بلاد
ومن دونك ما منتك نفسك خاليا ... ومناك ابراهيم شرط قتـــاد

وانظر نفس المصدر ، ترجمة بهلول بن عبد الواحـــد المدغرى رقم ٤٠ ص ١١١ حيث النص على انه بعد أن أفسد ابراهيم بن الأغلب بين بهلول وبين صاحبه ادريس بن ادريس=

ان ادريس بن ادريس كتب الى ابراهيم بن الاغلب يدعوه الى طاعته ، ويطلب منه الكف عن ناحيته ، ويذكره بقرابته من النبي(١٤٢) - أو أنه صالح ابن الأغلب ، وسكن من غربة ، مما كان سببا في اشتداد ساعد الدولة الادريسية التي عجز الاعالبة عن مدافعتها بعد ذلك (١٤٣) ·

والغريب في أمر الدولة الادريسية الفتية أنها لم تكد تبلغ العقد الرابع من عمرها حتى بدأت تصيبها عوارض الشيخوخة والاضمحلال · وكانت العلة هي التفتت والتقسيم — آفة ذلك العصر — الذي ترتب على الصراع بين أفراد الأسرة ، من أجل الطمع في عرش المملكة · فلقد حرص العلوي المحروم من الاخوة ، الوحيد في أقصى المغرب، على أن يترك — وله الحق في ذلك — عددا كبيرا من الذرية ، فخلف ١٢ (اثني عشر) ولدا ، ما بين راشد وقاصر (١٤٤) ·

٣ — محمد بن ادريس بن ادريس :

وآلت الامامة الى أكبر ولد ادريس بن ادريس ، وهو محمد · وتتفق الروايات على أن كنزة والدة ادريس الأصغر وجدة محمد واخوته ، كان لها

= جرت مكاتبات بين الأغلبي والمدغري ، فكان مما كتبه الأحمر الى ابن الأغلب :

لئن كنت تدعوني الى الحق ناصحا	لتكشف عن قلبي ضمير خلاف
لقدما عهدتك أنك ناصح	لمن قال بالصلح الخلافة كاف

(١٤٢) الحلة السيراء ، ج ١ ص ٥٥ ، حيث تقول الرواية ان ادريس كتب في هذا المعنى شعرا جعله في أسفل الكتاب ، ومنه :

اذكر ابراهيم حق محمد	وعترته والحق خير مقول
وادعوه للأمر الذي فيه رشده	وما هو لولا رأيه بمجهول
فان آثر الدنيا فان أمامه	زلازل يوم للعقاب طويل

(١٤٣) انظر ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٤ (حيث يضيف الى ذلك ان الأغالبة لم يستطيعوا الاعتذار للخلفاء ببغداد عن عجزهم امام الأدارسة الا « بالغض من ادريس والقدح في نسبه الى أبيه ادريس بما هو اوهى من خيوط العناكب ») ·

(١٤٤) أبناء ادريس بن ادريس ، كما يوردهم الكتاب دون ترتيب منهجي ، هم : محمد والقاسم وعمر وداود وعيسى ويحيى وعبد الله وحمزة وأحمد وعلي وادريس وجعفر · انظر ابن عذارى (ج ١ ص ٢١١) الذي يكرر عبد الله بدلا من ذكر علي ، وقارن القرطاس (ص ٣٠) · والظاهر انه ينقل نفس رواية البكري (ص ١٢٤) الذي يذكر عبيد الله بدلا من علي ، وكذلك الأمر في الحلة السيراء (ج ١ ص ١٣١) ، وانظر زهرة الآس (ص ٢٣) الذي لا يذكر عليا ويضيف « الحسن » و « الحسين » ·

نفوذها في سير أمور الدولة ، أو أنها كانت أشبه ما تكون بالوصية على محمد . فلقد أشارت على حفيدها الامام بأن يجعل اخوته على رأس أقاليم الدولة وولاياتها المختلفة . ومع أن الكتاب يذكرون صراحة أن هذا الأمر كان تقسيما للدولة ، أو توزيعها لها على اخوة محمد(١٤٥) ، الا أن الهدف منه كان ـ بطبيعة الحال ـ هو العمل على تقوية الأسرة ، بأن تكون الولايات والقيادات العسكرية بين أيدي أفرادها ، ولنا في قيام الدولة العباسية خير مثل لذلك ، عندما نحى أبو العباس السفاح كبار قواده ورجال دولته من الدعاة ، وعهد بولاياتهم الى اخوته وعمومته وقرابته من بني العباس. واستجاب محمد بن ادريس الى نصيحة جدته ، كما تقول الرواية ، فجعل البالغين من اخوته وهم ثمانية على رأس الولايات المختلفة . وأبقى القصر الثلاثة في كفالة جدتهم ، معه في مدينة فاس . وكان تقسيم البلاد على الاخوة كالآتي(١٤٦) .

١ ـ القاسم وله ولاية طنجة ، وتشمل سبتة وتطوان وقلعة حجر النسر وبلاد مصمودة وما الى ذلك من البلاد والقبائل (١٤٧) .

٢ ـ داود : وله بلاد هوارة وبلاد تسول وتازا ومكناسة وجبال غياثة وتامليت (١٤٨) .

٣ ـ عيسى : وله مدينة شالة وسلا وأزمور وبلاد تامسنا . وما والى ذلك من القبائل (١٤٩) .

---

(١٤٥) انظر القرطاس ، ص ٣٠ (قسم المغرب بين اخوته) ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٣ (قسم البلاد بين اخوته) ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢١١ (فرق البلاد على اخوته) ، البكري ، ص ١٢٤ ، والاستبصار ، ص ١٩٦ (فرق البلاد على اخوته) .

(١٤٦) اتخذنا توزيع القرطاس (ص ٣٠) اساسا ، واشرنا الى الاختلافات بينه وبين ابن خلدون وابن عذارى والبكري ، كما استعنا بهم في تعديل قائمة الولايات في بعض المواضع .

(١٤٧) يزيد البكري (ص ١٢٤) ، والحلة السيراء ، ج ١ ص ٣١ ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ١ ص ٥٦٣) على ذلك مدينة البصرة التي يجعلها القرطاس في ولاية يحيى .

(١٤٨) لا يذكر القرطاس (ص ٣٠) تازا ، ويضيف ابن عذارى (ج ١ ص ٢١١) تامليت ، وكذلك البكري ، ص ١٢٤ (تاسلمت) .

(١٤٩) قارن البكري ، ص ١٢٤ (وازقور وسلا) ، وابن عذارى (ج ١ ص ٢١١) الذي لا يذكر أسماء البلاد التي كانت لعيسى .

٤ — يحيى : وله مدينة البصرة وأصيلا ومدينة العرايش وأعمالها ، وبلاد ورغة (١٥٠) .

٥ — عمر : وله مدينة تيجساس (تيكساس) وترغة ، وقبائل صنهاجة الهبط وغمارة ، فيما بينهما (١٥١) .

٦ — أحمد : وله مدينة مكناسة وبلاد فازاز ومدينة تادلا(١٥٢) .

٧ — عبد الله : وله مدينة اغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدةوالسوس الأقصى وبلاد لمطة (١٥٣) .

٨ — حمزة : وله مدينة وليلى وأعمالها ،ومدينة تلمسانوأعمالها(١٥٤).

خلاف عيسى في سلا وتامسنا وعصيان القاسم في طنجة :

هزيمة عيسى وتجريده من أملاكه :

ولقد كانت النتيجة الطبيعية لمثل هذا التفتيت أن دب الخلاف بين الاخوة ، فمنهم من استجاب لاغراء الأطماع الأنانية ، فخرج على سلطان الأخ

---

(١٥٠) لا يذكر ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٣) البصرة ضمن بلاد يحيى بل يضعها في بلاد القاسم .

(١٥١) يذكر القرطاس تمجنساس بدلا من تيجساس التي يسجلها في الهامش (ص ٣٠) ، وهو لا يذكر مدينة ترغة ، اما ابن عذارى (ج ١ ص ٢١١) وكذلك البكرى (ص ١٢٤) وابن الأبار في الحلة السيراء (ج ١ ص ١٣٣) فلا يذكر سوى صنهاجة الهبط وغمارة .

(١٥٢) لا يذكر ابن خلدون ولا ابن عذارى ولا البكرى ولاية احمد . وهذا مما يشكك في رواية القرطاس ، خاصة وان مدينة مكناسة مذكورة ، كما راينا ، بين البلاد التي اعطيت للأمير داود . وللتوفيق بين الروايات المختلفة هذه لا بأس في ان يكون احمد قد ولى مكناسة وغيرها من الاقاليم بعهد اخيه داود وتحت امرته .

(١٥٣) انظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٣ ، وقارن القرطاس ، الذى يجعل بلاد مصمودة مع القاسم ، كما نرى .

(١٥٤) انظر القرطاس ، ص ٣٠ ، الذى يقول ان تلمسان فقط كانت له ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٣) الذى يقول انه كانت له مدينة وليلى واعمالها فقط ، كما في البكرى (ص ١٢٤) . اما ابن عذارى فلا يجعل حمزة بين الولاة اى انه يجعله بين القصر . والظاهر ان حمزة كانت له الولاية الشرقية فقط ؛ لان تلمسان كانت اقطاعا لابن سليمان بن عبد الله ؛ وسليمان هذا كان اخا لادريس الاول ، كما سبق ان اشرنا . (انظر فيما سبق ، ص ٤٤٧ وبعد ٨٢) ، وهذا ما يقوله ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٤ .

الأكبر ، ومنهم من رأى التمسك بأهداب الطاعة ، وانتهى الأمر بسلسلة من المنازعات والحروب بين الاخوة • افتتح ذلك عيسى بالتمرد فى سلا وتامسنا ، وهو أمر مقبول بالنسبة لتلك الأقاليم التى عرفت باتجاهاتها الانفصالية ، وحركاتها الاستقلالية التى تمثلت فيما عرف عند الكتاب باسم زندقة برغواطة تحت قيادة بنى طريف الذين كونوا مملكة لهم عاشت منذ ثورة ميسرة (قرن ٢هـ/٨ م) ، وحتى قيام دولتى المرابطين والموحدين (قرن ٥ ، ٦ هـ/١١ ، ١٢ م) • وأمر الامام محمد أخاه القاسم ، صاحب طنجة ، بمحاربة عيسى بسبب مجاورة بلاده لبلاد عيسى ، لكنه امتنع• وفى ذلك تقول رواية الحلة السيراء ان القاسم كتب الى أخيه الامام محمد معتذرا عن توقفه عما أمره به ، فى أبيات شعر يفهم منها أن القاسم كان زاهدا فى أرض المغرب رغم ما كان له بها من مركز مرموق ، راغبا فى العودة الى المشرق ، وهو الأمر الذى يسترعى الانتباه ، بعد أكثر من اربعين سنةمن استقرار الادارسة فى المغرب (١٥٥) • واستجاب عمر ، صاحب بلاد غمارة ، لامر أخيه الامام ، وجمع بربر غمارة — من ريف طنجة — وأوربة وصنهاجة ، كما أمده محمد بألف فارس من زناتة ، عندما اقترب من أحواز فاس ، فهزم عيسى واخرجه من سلا وغيرها مما كان بيده من البلاد ، وذلك قبل وصول المدد ، وضمها الى أملاكه بأمر محمد(١٥٦) •

تاديب القاسم واعتزاله الولاية :

ثم سار عمر — حسب أوامر الامام — لمحاربة القاسم ، ونجح فى هزيمته بعد مواقع عديدة ، وانتهى أمر القاسم الى اعتزاله الحياة العامه ، واقباله على الزهد والتعبد — فى رباط بناه لنفسه على ساحل البحر ، مما يلى مدينة أصيلا (١٥٧) •

---

(١٥٥) انظر ج ١ ص ١٣١ — ١٣٢ حيث يقول القاسم فى بيتين من الشعر :

ساترك للراغب الغرب نهبا   وان كنت فى الغرب قيلا وندبا

واسمو الى الشرق فى همة   يعز بها رتبا من احبا

(١٥٦) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٣٣ •

(١٥٧) القرطاس ، ص ٣٠ ، البكرى ، ١٢٤ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٣٣ ، (رباط القاسم بأصيلا بموضع يعرف بتامداوت ، حيث قام يتعبد فيه الى ان مات — القرطاس ص ٣١ • لم ملك اصيلة عقبه الى ان صار امرها الى حسن الحجام ثم ابن ابى العافية — البكرى ص ١١٢)•

عمر يضم الى املاكه اقاليم سلا وتامسنا وطنجة :

وهكذا ضم عمر بلاد أخويه القاسم وعيسى الى أملاكه فاصبحت مملكته تمتد من طنجة شمالا الى سلا وبلاد تامسنا وأزمور ، نحو الجنوب الغربي ، حيث مصب وادي أم الربيع ، كما امتدت شرقا من سبته الى منطقة قبائل غمارة نحو مليلة ، فكان مملكة عمر امتدت على طول سواحل المغرب الأقصى الشمالية على البحر المتوسط وعلى معظم سواحل المحيطة الشمالية الغربية ٠ واستمرعمر فى خدمة أخيه محمد الى أن مات فى سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٥ م ، فى بلاد صنهاجة فى موضع يعرف بفج الفارس ، شمال مدينة فاس فى أرض غمارة ، وحمل الى مدينة فاس حيث دفن الى جانب أبيه ، وصلى عليه أخوه محمد الامام(١٥٨) ٠ وسيكون لأبناء عمر بن ادريس هذا شأن ، اذ أنهم سيرثون أملاك والدهم بموافقة الامام ، فقد خلف على بن عمر والده (١٥٩) بمعنى تأكيد انقسام الدولة ٠ وعلى بن عمر هو جد الحموديين من الادارسة الذين سيدخلون الأندلس بعد سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م ، عند انهيار الدولة الأموية (١٦٠) ٠

أما عن الامام محمد الذى تقول عنه رواية للرازى انه « اخلد الى اللهو والشراب والنساء » ، وان ذلك كان السبب فى أن خلعه اخوته (١٦١)، فلم يقدر له ان يعيش بعد أخيه عمر الا سبعة أشهر فقط ، اذ توفى بمدينة فاس ، ودفن بشرقى جامعها مع أبيه وأخيه ، وذلك فى شهر ربيع الثانى من سنة ٢٢١هـ/مارس سنة٨٣٦م ، بعد ٨(ثمانية) أعوام منالحكم(١٦٢) ، وخلفه ابنه على ٠

٤ ـ على بن محمد بن ادريس (٢٢١ هـ/٨٣٦ م ـ ٢٣٤ هـ/٨٤٩م) :

اعتلى على بن محمد عرش المملكة الادريسية بعد وفاة والده ويبهليو «

---

(١٥٨) القرطاس ، ص ٣١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ (حيث الموضع : « فج الفرس ») ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ ٠

(١٥٩) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٥٦٤ ٠

(١٦٠) القرطاس ، ص ٣١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ ، البكرى ص ١٢٥ ، الاستبصار ، ص ١٩٦ ٠

(١٦١) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٣٣ ٠ ولو ان هذه الرواية تقول خطأ انه لم يعقب حاله ولى بعده اخوه القاسم ٠

(١٦٢) القرطاس ، ص ٣١ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ ٠

وبذلك صار اماما للحسنيين في المغرب ، وهو بعد غلام لم يجاوز السنة التاسعة من عمره الا بعدة أشهر (١٦٣) • والظاهر أن صغر سن الأمير ، مما يجعله من وجهة النظر القانونية غير مؤهل لولاية أمور المسلمين ، هي التي جعلت البكري يقتصب الكلام في عهده اقتضابا ، فيكتفي بالاشارة الى ولايته ثم الى وفاته (١٦٤) ، بينما أسقط ابن عذارى عهده كلية فلم يذكر امامته (١٦٥) •

أما المعلومات التي جمعها عنه صاحب روض القرطاس فتشير الى أن أم علي هي رقية بنت اسماعيل بن عمير بن مصعب الأزدي ، وأن الامير الصغير كان له من العمر عندما ولي ٩ (تسع سنوات) و ٤ (أربعة) أشهر فقط (١٦٦)• وتقرير أن والدة الامام الجديد عربية خالصة من أزد اليمن يعني أن مسألة تعريب المغرب الأقصى والدولة الادريسية ، وهو الأمر الذي كان من أهداف الأدريسيين الأولين ، كان يسير نحو تحقيق أغراضه بخطى حثيثة • ومن الناحية الأخرى فان وصول الصبي الصغير الى منصب الامامة ، دون وصاية راشد جديد أو أبي خالد ، تعني أن الامامة الادريسية كانت قد مدت جذورها قوية في أرض فاس ، وانها كانت تستطيع الوقوف وحدها بعد نصف قرن من قيامها بين قبائل أوربة ، رغم الصراعات التي قامت بين أمراء الأدارسة انفسهم ، ورغم ما أخذ على الأمير محمد ، والد علي ، من الانصراف الى الشراب واللهو ، وانشغاله بالنساء نتيجة لذلك •

وفي تقييم عهد الأمير علي بن محمد ، الذي توفي وهو في ريعـــــان الشباب ، في الثانية والعشرين من عمره ، بعد ملك استمر ١٣ (ثلاثة عشر) عاما فقط ، نعتقد أنه لم يمارس ، حقيقة ، السلطان الا في أخرياتها ، لقول الرواية : انه « ظهر منه من الذكاء والنبل والعصل ما يقتضيه شرفه ونسبه الصحيح » (١٦٧)• وفي تفسير ذلك لا يتعدى الأمر الاشارة الى أنه : «سار بسيرة

---

(١٦٣) انظر القرطاس ، ص ٣٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤ ، والاستقصا (ط• الدار البيضاء) ، ج ١ ص ١٧٤ (حيث يقول انه لقب بحيدرة على لقب علي بن أبي طالب) •

(١٦٤) البكرى ، ص ١٢٤ •

(١٦٥) ابن عذارى ج ١ ص ٢١١ : حيث يجعل الذى يلي بعد محمد بن ادريس هو ابنه يحيى بن محمد أخو علي ووريثه في الملك •

(١٦٦) القرطاس ، ص ٣٢ •

(١٦٧) القرطاس ، ص ٣٢ •

أبيه وجده ، في : العدل والفضل ، والدين ، والحزم واقامة الحق ، وتاسيس البلاد ، وقمع الأعداء ، وضبط البلدة والثغور »(١٦٨) . والمقصود بتاسيس البلاد هو عمرانها وزيادة تحضرها . أما عن ضبط البلدة فالمقصود بها مدينة فاس قاعدة الدولة ، وما كان اليها من الأعمال ، مما يقع تحت الحكم المباشر للامام . بينما يقصد بالثغور أقاليم الدولة الادريسية المحيطة باعمال فاس مما كان يقع عبء ادارتها ، واقرار الامور فيها ، وحمايتها ، على من كان في حكمها من عمومة علي وأبناء عمومته من أمراء الأدارسة ، الذين اطلق عليهم اسم « الحسنيين » ، كما عرفوا أيضا « بالقرشيين » (١٦٩) .

وهكذا عرفت البلاد في عهد علي نوعا من الاستقرار لم تعرفه من قبل ، وتمتع الناس بالأمن والدعة ، الى أن وافته منيته في شهر رجب من سنة ٢٣٤هـ/ يناير ٨٤٩ م ، وولي أخوه يحيى بن محمد بعد ملك دام ١٣ (ثلاثة عشر) عاما (١٧٠) .

٥ – يحيى بن محمد بن ادريس (٢٣٤ هـ/٨٤٩ م – بعد ٣٤٥ هـ/٩٥٦م) :

رغم أهمية رواية البكري بالنسبة لتاريخ الدولة الادريسية ، فمن الواضح أن البكري يخطيء عندما يقول ان الذي خلف علي بن محمد ، في ملك فاس هو ابن أخيه يحيى بن يحيى بن محمد (١٧١) ، اذ المعروف ان الذي خلف عليا هو أخوه يحيى بن محمد ، وان ابن هذا الأخير ، وهو يحيى بن يحيى بن محمد ، خلف والده فكان سادس الأدارسة ، وهذا ما يتضح من رواية القرطاس الذي يلخصه ابن خلدون(١٧٢) . أما ابن عذارى فانه الى جانب اسقاطه علي ابن محمد ووضعه بدلا منه يحيى بن محمد ، فانه يضع أحداث ابن هذا الأخير وهو يحيى بن يحيى بن محمد ، في موضع والده ، فكأنه أسقط أيضا عهد

---

(١٦٨) القرطاس ، ص ٣٢ .

(١٦٩) عن تسمية الأدارسة بالقرشيين ، انظر البكري ، ص ١٢٢ .

(١٧٠) القرطاس ، ص ٣٢ . وقارن ابن خلدون ، ج٤ ص ١٥ الذي يلخص القرطاس فيما يتعلق بتاريخ الأدارسة فيقول في عهد علي بن محمد : فقام بأمره الأولياء ، والحاشية من العرب ، وأوربة ، وسائر البربر ، وصنائع الدولة وبايعوه غلاما مترعرعا ، فقاموا بأمره وأحسنوا كفالته وطاعته فكانت أيامه خير أيام » .

(١٧١) البكري ، ص ١٢٤ .

(١٧٢) القرطاس ، ص ٣٢ (العبر ، ج ٤ ص ١٥) .

يحيى بن محمد ، وهذا ما سنشير اليه في موضعه(١٧٣) .

وهكذ عهد علي بن محمد لأخيه يحيي بن محمد بن أدريس الذى صار الامام الخامس . وفي عهده تقول رواية القرطاس انه سار بسيرة أخيه وأبيه وجده (١٧٤) بمعنى انتهاج طريق العدل والفضل والدين واقامة الحق ، الى جانب الحزم في ادارة البلاد وحماية الثغور . أما أكثر ما يستقطب اهتمام ابن أبي زرع في أيام يحيى بن محمد ، فهو ازدياد تحضر فاس ، وكثرة عمارتها ، وبناء ضواحيها الجديدة . فقد « قصد اليها الناس ، من : الأندلس، وافريقية ، وجميع بلاد المغرب ، فضاقت بسكانها ، فبنى الناس الأرباض بخارجها » (١٧٥) . ولقد اهتم الأمير يحيى بتزويد عاصمته بالمباني ذات المنافع العامة ، وبخاصة الحمامات التى زهت بها مدينة فاس ، وكذلك الفنادق التي أقيمت لخدمة الوافدين على المدينة من التجار وغيرهم (١٧٦) .

بناء جامع القرويين (٢٤٥ هـ/٨٦٠م) :

أما أشهر المباني التى أقيمت في فاس على عهد الأمير يحيى بن محمد ابن ادريس ، والتى ظلت مفخرة العاصمة الادريسية حتى أيامنا هذه ، فهو جامع القرويين . والحقيقة أنه مع اتساع المدينة المزدوجة بعدوتيها ، ونشاة الأرباض الجديدة حواليها ، كان من الطبيعي أن يزداد اتساع كل من جامعيها العتيقين ، وهما جامع عدوة القرويين المعروف بجامع الشرفاء ، وجامع عدوة الأندلسيين المعروف بجامع الأشياخ . بل وان تظهر الحاجة الى بناء مساجد محلية جديدة تلبى حاجة المصلين الذين كانت أعدادهم تزداد مع ازدياد حجم المدينة وكثرة الوافدين على أحيائها من كل انحاء المغرب ، ومن الأندلس . وهكذا تم بناء جامع القرويين في سنة ٢٤٥ هـ/٨٦٠ م على عهد يحيى بن محمد ، ولكن على أنه جامع « محلى » صغير (١٧٧) .

صاحبة البناء : فاطمة القيروانية :

وفي بناء الجامع يقول ابى زرع صاحب كتاب القرطاس ان موضعه ، حين بنيت مدينة فاس ، كان « فضاء : يعمل بها أصناف الجبى ، وبها

---

(١٧٣) أنظر فيما بعد ص ٤٦٨ (عن يحيى بن يحيى) .
(١٧٤) القرطاس ، ص ٣٢ .
(١٧٥) القرطاس ، ص ٣٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ .
(١٧٦) القرطاس ، ص ٣٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ .
(١٧٧) نفس المصدر ، وقارن زهرة الآس ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .

أيضا أصناف من الشجر ، لرحل من هوارة عن والده ، وعندما أتى وفد أهل القيروان الى الامام ادريس بن ادريس ، بعيالهم وأولادهم ،أنزلهم حول ذلك الموضع من عدوة القرويين (١٧٨) ، التى نسبت اليهم • وينسب بناء الجامع الى سيدة قيراوية من هؤلاء الوافدين ، توصف بالبركة والصلاح ، هى أم القاسم فاطمة بنت محمد الفهرى القيروانى • وكانت السيدة فاطمة قد استقرت فى ذلك الموضع من عدوة القرويين بصحبة زوجها وأخت كانت لها• وواضح من النص أن العائلة القرشية الأصل كانت موسرة ، وأنها كانت قد حملت معها ثروتها من القيروان • فعندما توفى زوج السيدة فاطمة ،وكذلك أختها « ورثت منهما مالا جسيما ، حلالا طيبا ، ليس فيه شبهة ،لم يتغير ببيع ولا شراء ، فأرادت أن تصرفه فى وجوه البر وأعمال الخير ، فعزمت على بناء مسجد » (١٧٩) •

المال الحلال الصرف :

ونلاحظ أن اصرار النص هنا على أن المال الذى استخدم فى بناءجامع القرويين كان حلالا طيبا ، لا تشوبه شائبة حتى من بيع أو شراء ، مما يسترعى الانتباه فعلا • اذ الحقيقة أن أهل المغرب ، وكذلك الأندلس ، كانوا متشددين فى أمر سلامة الأموال التى تخصص لبناء المساجد عندهم ، بشكل لا نجد له نظيرا فى المشرق • وكانت أحسن الأموال التى تبنى بها المساجد عندهم هى أموال المغانم المأخوذة فى الجهاد ، مما طهرته سيوف الشجعان وزكته دماء الشهداء فى ميادين القتال • وهذا ما سيحدث عندما شرع فى توسيع نفس الجامع ، عند ما غلب عبد الرحمن الناصر على بلاد العدوة (المغرب) ، فبعث « بمال كثير من أخماس غنايم الروم » لهذا الغرض(١٨٠) •

---

(١٧٨) القرطاس ص ٣٢ — حيث يفرد ابن أبى زرع فصلا كاملا عن تاريخ جامع القرويين منذ بنائه سنة ٢٤٥ هـ/٨٦٠ م ، الى أيام تاليفه لكتابه سنة ٧٢٦ هـ/١٣٢٦ م ، ينتهى فى ص ٤٦ ، وقارن تلخيص ابن خلدون ، ط• بيروت ، ج ٤ ص ٢٩ — ٣٠ •

(١٧٩) القرطاس ، ص ٣٢ — ٣٣ • ويضيف صاحب القرطاس رواية أخرى ، تقول ان أخت السيدة فاطمة — التى عرفت أيضا بأم البنين — كانت تسمى مريم ، وانه كان لها فضل بناء « جامع الأندلس » ، هو الآخر ، « من مال حلال طيب موروث عن والدها واختيهما (نفس الصفحة) ، مما يحملنا نظن ان تلك الرواية الأخيرة ، ما هى فى حقيقة الأمر الا تحوير للرواية الأولى ، قصد بها تكريم جامع الأندلس أيضا ، ولا نريد أن نشير الى أنها ربما شككت فى صحة الرواية الأولى الخاصة بالسيدة فاطمة وجامع القرويين •

(١٨٠) القرطاس ، ص ٣٤ • وفى التشدد والتدقيق فى طهارة الأموال اللازمة لأعمال التجديد والزيادة فى المسجد ، ما تذكره الرواية من رفض قاضى فاس الفقيه أبى عبد الله =

والمهم ان السيدة فاطمة اشترت موضع الجامع بذلك المال الموروث حلالا طيبا ، وشرعت في حفر الأساس والبناء في يوم السبت مستهل رمضان المعظم سنة ٢٤٥ هـ/٣٠ نوفمبر ٨٥٩ (١٨١) ، أى فى السنة الثانية عشرة من امامة يحيى بن محمد بن ادريس •

مواد البناء الحلال الصرفة :

وفى نطاق فكرة استخدام المال الحلال الطيب ، الذى لا تشوبه شائبة، ولا تناله شبهة ، تقول الرواية ان حجارة الكدان التى استخدمت فى البناء ، وكذلك الطابية (الملاط) أتت من نفس أرض الجامع ، حيث « حفرت (السيدة) فى وسطه فصنعت كهوفا ، واقتطعت منها الكدان ، وأخرجت منها التراب والحجر والرمل الأصفر الطيب ، فبنت به الجامع المذكور كله حتى تم ، ولم تدخل فيه من تراب غيره » (١٨٢) • والأمر كذلك بالنسبة للماء الذى استخدم فى البناء فقد حفرت السيدة الصالحة فى أرض الجامع بئرا ، هى الموجودة حاليا فى الصحن ، « فكان البناؤون يسقون منها الماء لبناء الجامع المكرم ••• لم تصرف فيه سواه ، احتياطا منها ، وتحريا من الشبهة» • وظلت فاطمة القروية صائمة الى أن تم تشييد الجامع (١٨٣) •

حجم الجامع الأول واقسامه :

وبطبيعة الحال كان الجامع الذى بنته فاطمة القروية صغيرا ، اذ احتوى على أربع بلاطات أى أروقة عرضية موازية لحائط القبلة وصحن صغير . وذلك حسب رواية أبى القاسم بن جنون فى تفسيره فى تاريخ مدينة فاس (١٨٤) • أما عن درع الجامع فيورد صاحب القرطاس رواية تقول ان طول حائط القبلة، وهو طول البلاطات ، ما بين الحائط الغربى والحائط الشرقى للجامع ، كان يبلغ ١٥٠ (مائة وخمسين) شبرا ، وأن محراب الجامع كان فى الموضع

= محمد بن داود ما عرضه عليه أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أن تكون النفقة من بيت المال ، اذ قال القاضى : « سأل الله أن يغنيها عنه من مالها الذى يجمع من احباسها (أوقافها) بأيدى الوكلاء » ـ القرطاس ، ص ٣٦ •

(١٨١) القرطاس ، ص ٣٣ (زهرة الآس ، ص ٣٥) •

(١٨٢) القرطاس ، ص ٣٣ (زهرة الآس ، ص ٣٥) •

(١٨٣) القرطاس ، ص ٣٣ •

(١٨٤) القرطاس ، ص ٣٣ •

الذى تطل عليه الثريا ، على أيام المؤلف (١٨٥) ، فى أوائل القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ، بمعنى أنه كان فى موضع منتصف بين الصلاة حينئذ • وتضيف نفس الرواية أن السيدة فاطمة بنت فى الجامع صومعة غير مرتفعة ، أى مناسبة لحجم البناء ، وذلك فى الموضع الذى كانت توجد فيه القبلة « التى على رأس العنزة » ، على عهد صاحب روض القرطاس (١٨٦) •

الزيادة فى الجامع على عهد زناتة :

وبقى جامع فاطمة محليا الى أن انقضى ملك الادارسة فى فاس • وعندما آل حكم المدينة الى زناتة تحت رعاية الأمويين فى الاندلس ، وضاق مسجد الشرفاء الجامع بالمصلين زيد فى جامع القرويين زيادة كبيرة ونقلت اليه الخطبة ، بعد أن « صنعوا به منبرا من خشب الصنوبر ، وذلك فى سنة ٣٤٥ هـ ،/٩٥٦م (١٨٧) ، وهذا ما سنعود اليه فى موضعه (من الجزء الثالث) ان شاء الله •

وبعد بناء القرويين لا نجد ذكرا للأمير يحيى بن محمد الذى يمكن تلخيص عهده ، فى حسن السيرة ، وانتشار الأمن والدعة بين الناس ، مما أدى الى نهضة عمرانية طيبة شهدتها فاس التى زهت بمساجدها ، وفنادقها ، وحماماتها • وكان للامير نصيبه فى هذه النهضة • وكذلك أرباب الدولة والمتيسرين من الناس • وعندما توفى يحيى بن محمد بن ادريس خلفه فى الامامة ابنه وسميه : يحيى بن يحيى فى تاريخ لا تحدده لنا المصادر الأساسية •

---

(١٨٥) القرطاس ، ص ٣٣ (زهرة الآس ، ص ٣٥) — ونلاحظ هنا ان الرواية اهتمت بمقياس بلاطات الجامع التى تعادل طول صفوف المصلين ، وأهملت ذرع عمق بيت الصلاة الذى يعادل مقياس عرض البلاطات الأربعة ، مما كان يسمح بمعرفة عدد المصلين الذين كان يمكن للمسجد احتواءهم فى ذلك الوقت عن طريق حساب عدد صفوفهم •

(١٨٦) ابن أبى زرع ، ص ٣٣ •

(١٨٧) القرطاس ، ص ٣٣ — وتقول نفس الرواية ان الزناتية زادوا أيضا فى جامع الأندلس زيادة كبيرة ، « حدودها ظاهرة باقية الى الآن » وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ (حيث النص على بناء الصومعة فى سنة ٣٤٥ هـ ، بعد مائة سنة من اختطاط الجامع ، وذلك « حسبما هو منقوش فى الحجارة فى الركن الشرقى منها » • أما عن نقل الخطبة فنجد رواية أخرى تقول ان ذلك تم فى سنة ٣٢١ هـ/٩٣٣ م ، على عهد حامد بن يحيى الهمدانى ، عامل عبيد الله الشيعى على المغرب ، الذى نقل الخطبة أيضا من جامع الأشياخ بعدوة الأندلس الى جامع الأندلس الذى تنسبه بعض الروايات الى السيدة مريم الفهرية أخت السيدة فاطمة ، كما سبقت الاشارة ، هـ ١٧٩ ص ٤٦٥ •

٦ - يحيى بن يحيى بن محمد بن ادريس :

نظرة فاحصة فى المصادر :

والحقيقة انه مما يسترعى الانتباه أننا لا نفتقد - منذ الآن - التوقيت الدقيق ، الخاص بولاية الأئمة وبوفاتهم ، وبتحديد عهد كل أمير بالسنوات والأشهر والأيام ، وهو الأمر الذى اهتم به المؤرخون كثيرا ، بل اننا نفتقد أية اشارة الى التوقيت أو التأريخ فيما يتعلق بوفاة يحيى بن محمد ثم بولاية ابنهيحيى بن يحيى ، وهو الأمير الادريسى السادس وكذلك من أتى بعدهم من الأمراء • وغياب التحديد التاريخي هذا يدعو ، فى أغلب الظن ، الى الشك فى صحة ترتيب أمراء الأدارسة الذين يلون على بن محمد ، وهو الأمر الذى يؤيده اختلاف كل من البكرى وابن عدارى وابن ابى زرع فيمن أتى بعد على بن محمد ، كما سبقت الاشارة • ونحن نظن أن الأمر اختلط على البكرى عندما ذكر ولاية يحيى ن يحيى بن محمد بعد ولاية على بن محمد ، بدلا من وضعها فى موضعها الصحيح هنا ، ولهذا حاول تبرير هذا اللبس ، فقال : ان يحيى بن يحيى بن محمد الذى قصده هو ابن اخى على ابن محمد ، والصحيح انه أخوه يحيى بن محمد ، كما رأينا •

ولقد سرى اللبس الى ابن عذارى عندما أسقط عهد على بن محمد ، ووضع مكانه أخاه يحيى بن محمد ، ولكن الأمر اختلط عليه ، مرة أخرى ، عندما سجل أحداث المملكة الادريسية فى عهد يحيى بن يحيى بن محمد ، على أنها جرت فى عهد والده يحيى بن محمد(١٨٨) ، وهذا ما يتضح من المقارنة مع البكرى وصاحب روض القرطاس الذى يأخذ عنه ابن خلدون •

تقسيم المملكة :

والذى يسترعى انتباه كل من البكرى وصاحب القرطاس هو النهاية القصصية التى ختم بها يحيى بن يحيى حياته السياسية فى بعض حمامات فاس • وهكذا لا نجد اشارات الى الحياة السياسية فى عهد الأمير الا فى ابن عذارى • ففى بداية امارة يحيى بن يحيى ، قسم المملكة الفاسية الى ثلاثة أقسام ادارية عهد بها الى أعمامه وأخواله على الوجه التالى :

---

(١٨٨) انظر ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢١١ •

١ ـ القبلة من مدينة فاس الى أغمات ، وعهد بها الى حسين ، منهم ·

٢ ـ المشرق من مدينة فاس الى مكناسة وهوارة وصريته ، وولى عليها داود ·

٣ ـ المغرب من مدينة فاس الى لهانة وكتامة ، وعهد بها الى القاسم (١٨٩) ·

٤ ـ وبذلك تبقى المنطقة الرابعة الى الجوف أى الشمال من قصبة الديار الادريسية فاس ، ونظن انها كانت تابعة لادارة يحيى بن يحيى ، أى لحكم الحكومة المركزية مباشرة ·

وتضيف رواية ابن عذارى الى ذلك ان يحيى بن يحيى : « تشاغل عما كان يحق عليه من سياسة أمره » ، وأن اخوته انتهزوا الفرصة ، فملكوا انفسهم واستأثروا بحكم ولاياتهم ، واستمالوا القبائل ، وقالوا لهم : انما نحن أبناء اب واحد » · وانتهى الأمر فعلا باستقلالهم عن فاس ، اذ « قدمهم البربر على أنفسهم ، تقديما كليا » ، كما تقول الرواية (١٩٠) ·

نهاية يحيى بن يحيى فى مغامرة نسائية فى بعض حمامات فاس :

وواضح من النصوص ان حياة اللهو التى أخذت تعرفها فاس ، نقلا عن عاصمة الخلافة بغداد فى المشرق ، أو عن طريق قرطبة عاصمة الأندلس ، استبدت بالأمير يحيى بن يحيى ، فانصرف الى التمتع بمباهج الحياة ، من الانهماك فى الشراب ، والهيام بالنساء (١٩١) · والظاهر ان الحمامات فى فاس ، مثلها مثل الحمامات فى العواصم العربية الأخرى ، كانت قد أصبحت من المؤسسات الهامة فى حياة المدينة · فقد كانت تقوم بدور رئيسى فى نظافة أهل المدينة والمحافظة على صحتهم ، كما كان لها دورها كمراكز اجتماعية وثقافية يستفيد منها الجميع رجالا ونساء من مسلمين وأهل ذمة · وهكذا كانت هناك أوقات معينة تخصص فيها الحمامات لاستقبال النساء ، وكانت تلك فرصة يحاول فيها العابثون من الشباب ، ممن تستهويهم المغامرات النسائية ، تحقيق بعض مآربهم الخبيثة ، وكان بعضهم لا يتورع

---

(١٨٩) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ ·

(١٩٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ ·

(١٩١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ ـ ٢١٢ · وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ (حيث فاساء السيرة وكثر عبثه فى الحرم) ·

عن استخدام أساليب غريبة من التمويه كالتخفى فى زى النساء مثلا ـ وهو الأمر المعروف ٠

والظاهر أن أميرنا يحيى بن يحيى بن محمد تشاغل عن سياسة دولته بالاستغراق فى اللهو والشراب والغرام بالنساء الى حد العبث فعلا ،والخروج عن المألوف ٠ فلقد أساء السيرة ، كما تقول رواية القرطاس ، وهام بفتاة من بنات اليهود ، اسمها حقة ، توصف بأنها كانت من أجمل نساء عصرها ٠ وتهور يحيى فى هيامه بالفتاة حتى دخل عليها الحمام ، فى غفلة من المشرفين عليه ٠ وفشلت المحاولة الحمقاء فى الوصول الى جمال اليهودية الفاتنة ، اذ استغاثت فبادر اليها الناس ، ولم يفلت الأمير العابث الا بشق الانفس ، بعد أن انكر الجميع هذا الفعل الفاضح ، وتغير عليه أهل مدينــة فاس (١٩٢)٠

تحرك اهل فاس :

ما بين الثورة والأمر بالمعروف :

وكانت المغامرة النسائية المشئومة سببا فى هلاك يحيى بن يحيى ٠ فلقد استغل موجة السخط الشعبى فى فاس أحد زعماء العرب ، وهـــو عبد الرحمن بن أبى سهل الجذامي ، الذى سار على رأس العامة نحو القصر الأميرى ، وهم يزمعون التخلص من أميرهم الفاسق ٠ والظاهر أن يحيى الذى جلله العار ، لم يجد من يدافع عنه من جنده أو أصحابه ، حتى أن زوجته التى غرر بها وهى قريبته : عاتكة بنت على بن عمر بن ادريس ، اشفقت عليه من القتل ، ونصحته بالفرار الى عدوة الأندلس (١٩٣) ٠

واذا كانت الروايات تجمع على أن يحيى بن يحيى مات فى عـــدوة الأندلس فى نفس الليلة التى فر فيها ، مما يمكن أن يفهم منه أنه مات أسى ،امة ، كما يظن صاحب روض القرطاس (١٩٤) ، فاغلب الظن أنه مات متأثرا

---

(١٩٢) القرطاس ، ص ٥١ ، البكرى ، ص ١٢٤ (حيث نجد اسم اليهودية « حنة ») ، عذارى ، ج ١ ص ٢١٢ (حيث ينسب الرواية خطا ، كما اشرنا ، الى يحيى بن محمد) ٠

(١٩٣) القرطاس ، ص ٥١ ، البكرى ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ : حيث تقول الرواية انه فر ، تخرج معه زوجته عاتكة ٠ وبارب ابن خلدون (ج ٤ ص ١٥) الذى يتورع عن التفصيل تلا : « وثارت به العامة لمركب شنيع أتاه » ٠

(١٩٤) انظر القرطاس ، ص ٥١ ، البكرى ، ص/١٢٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٢ ، ابن خلدون، ج ٤ ص ١٥ (حيث نجد اضطرابا على النص اذ يقول : « فتوارى ليلتين ، ومات أسفا لليلته ») ٠

بجراحة ، وهو يفر أمام مطارديه من أهل عدوة القرويين ٠

عبد الرحمن بن أبى سهل يتغلب على فاس :

وبموت يحيى بن يحيى فى عدوة الأندلس سقطت فاس ، ثمرة ناضجه ، بين يدى عبد الرحمن بن أبى سهل ، الذى بدأ آمرا بالمعروف وصار ما بين ليلة وضحاها متغلبا على عاصمة الحسنيين فى المغرب ٠ ولكن عاتكة زوجة يحيى بن يحيى لم تقف مكتوفة الأيدى ، بعد أن فشلت نصيحتها لزوجها بالفرار أمام خصومه ، فكتبت الى أبيها على بن عمر بن ادريس ، والى بلاد صنهاجة وغمارة فى اقليم الريف ، تخبره بما حدث فى فاس : من الثورة على زوجها ، وتغلب عبد الرحمن بن أبى سهل على المدينة ٠

انتقال الملك الى بيت عمر بن ادريس :

٧ ـ على بن عمر بن ادريس اماما :

وكانت فرصة استغلها على بن عمر ، فجمع جيوشه وحشمه ، وقصد الى مدينة فاس ٠ والظاهر أن عبد الرحمن بن ابى سهل اكتفى بتسليم العاصمة للأمير الادريسى دون مقاومة ، اذ لا تشير النصوص الى اعمال حربية بين الطرفين ، مما يعنى أن الثائر الجذامى لم يعدل فى مطالبه ، الى أكثر من : اقامة العدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠ وهكذا فتحت عدوة القرويين أبوابها الى على بن عمر ، كما رحبت به عدوة الأندلس بعد ذلك ، فأصبح سيدا لمدينة فاس بشقيها على ضفتى النهر (١٩٥) ٠ وباستقرار على بن عمر فى فاس دانت له كل بلاد المغرب ، وخطب له على جميع منابرها ، وبذلك انتقلت امامة الأدارسة من بنى محمد بن ادريس الى بنى عمهم عمر ابن ادريس (١٩٦) ٠

وللأسف تغفل مصادرنا الرئيسية كالبكرى وابن عذارى الاشارة الى

---

(١٩٥) انظر البكرى ، ص ١٢٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٢ (حيث يقول النص انه دخل عدوة القرويين) ، وقارن القرطاس ، ص ٥١ ، (حيث ينص على دخول عمر عدوة القرويين والأندلس) ٠

(١٩٦) القرطاس ، ص ٥١ ، البكرى ، ص ١٢٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٢ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ (حيث يقول ان الذى استدعى على بن عمر هم أهم الدولة من العرب والبربر والموالى) ٠

تواريخ تلك الاحداث ، كما لم يستطع صاحب روض القرطاس ، عندما حاول تحديد ولاية علي بن عمر ،الاالقول : انه بويع بعد وفاة يحيى بن يحيى ابن محمد ، مع أنه كانت قد حدثت أحداث مهمة فيما بين وفاة يحيى وقدوم علي الى فاس • بينما نجد بياضا في موضع التاريخ في عبر ابن خلدون . مما يعني أن المؤرخ كان يرجو أن تسنح له الفرصة ، فيما بعد ، لمعرفة التاريخ وتسجيله • وسيظل الحال على هذا المنوال من افتقاد التواريخ والتحديدات الزمنية الى سنة ٢٩٢ هـ/٤ ـ ٩٠٥ م ، وهي السنة التي هلك فيها يحيى بن القاسم ، المشهور بالعوام ، الذي خلف علي بن عمر في أمامة فاس ، أثر الثورة الخارجية الجامحة التي عصفت بملكه •

الأندلس والفكر الخارجي :

عبد الرزاق الفهري الصفري ، واستمرار هبوب رياح الخارجية من الأندلس الى المغـــرب ،

فاذا كان علي بن عمر قد وصل الى الملك عبر الثورة الشعبية التي ترعمها أحد رؤساء العرب من الجذاميين ، وهو عبد الرحمن بن أبي سهل ، احتجاجا على سوء سلوك يحيى بن يحيى بن محمد ، فان ملكه هذا قد ضاع في ثورة عارمة أخرى ، قام بها البربر من الخوارج بقيادة أحد زعماء العرب من الفهريين ، هو عبد الرازق المشهور بالخارجي • والذي يلفت النظر في تلك الثورة ، هو ما يقوله الكتاب ، من : أن صاحبها عبد الرزاق أصله من بلاد الأندلس ، من مدينة وشقة (١٩٧) ، في اقليم الثغر الأعلى ، فيما وراء سرقسطة وحوض الابره • فذلك يعني أن بلاد الأندلس اذا لم تكن أرضا صالحة لنمو مذاهب الخوارج ، تماما كما كان حالها بالنسبة لمذاهب الشيعة ، فانها نجحت منذ وقت مبكر في بذر بذور الخارجية في أرض المغرب ، بل وكذلك المذاهب المنحرفة التي سميت بالزندقة والكفر •

هكذا يشير الكتاب الى علاقة وثيقة بين طريف ، أول فاتحي الأندلس بن ميسرة المدغري الصفري ، أول كبار ثوار الخوارج في المغرب ، ثم الى علاقة بين زندقة برغواطة في اقليم تامسنا وبين رجل برباطي أى من وادى برباط بجنوب الأندلس ، وذلك قبل مجيء ثائرنا عبد الرزاق الوشـــقي الأندلسي • والذي نريد أن نخرج به من ذلك هو أنه ، اذا كان التشيع لآل

(١٩٧) القرطاس ، ص ٥١ ، البكري ، ص ١٢٥ •

البيت من الحسنيين قد حل بين بربر المغرب الأقصى محل الفكر الخارجي الصفري ، بفضل هجرة ادريس الأول ، وما تلاها من استمرار هجرة العلويين من اقاربه ، ومن شيعتهم ، فان ذلك لم يعن اندثار الحركة الخارجية والفكر الصفري تماما من بلاد فاس • فقد كانت الحياة تدب فيه خفية كالجمر تحت الرماد ، وكانت هبة نسيم من هنا أو من هناك تكفي لاشعال جذوته من جديد ، وكانت بلاد الاندلس ، وهي المالكية المتعصبة لمذهبها ، تشارك في اشعال نار الخارجية في المغرب ، كما نرى •

دعوة عبد الرزاق في جبال فاس :

واذا كنا لا نعرف الظروف التي أدت الى هجر عبد الرزاق بلاده في ثغر الأندلس الأعلى في النصف الثاني من القرن الثامث الهجري (٩م) ، فمن المعروف أنه استقر في الاقليم الجبلي الواقع في قبلي مدينة فاس حيث كانت قبائل مديونة (١٩٨) ، وهو الاقليم الذى كان تابعا للعاصمة الادريسية ، على مسيرة يوم ونصف يوم منها ، ويسميه صاحب القرطاس بجبال وبلاو(١٩٩)• وأغلب الظن أن عبد الرزاق بدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما جرت العادة عند الخوارج ، بل وعند غيرهم من دعاة الاصلاح ، ومن المرجح أن تكون سيرة أمراء الادارسة في فاس وفي غيرها من البلاد ، تسمح بالاصغاء لمثل تلك الدعوة ، بعدما استهوتهم عيشة الترف وانصرفوا للتمتع كلية بمباهج الحياة •

دار هجرة او ثغر اندلسي في بلاد الادارسة ، وشقة الجديدة :

والمهم أن دعوة عبد الرزاق لقيت نجاحا في جبال مديونة ، كما تبعه خلق كثير من بربر غياثة ، وغيرهم من القبائل • وعندئذ بنى قلعة منيفة كما يقول صاحب القرطاس بجبل سل بجوار بلاد مديونة ، وسماها وشقة(٢٠٠) ، تعبيرا عن حنينه الى بلاده ، ومسقط رأسه في الثغر الأعلى بالأندلس ، وإعلانا عن أن جهاد الفساق من المسلمين لا يقل قدرا عن جهاد الأعداء من المسيحيين •

---

(١٩٨) البكري ، ص ١٢٥ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ : حيث القسر « عبد الرزاق » التي احذنا بها بدلا من « عبد الرازق » ، وفي ط• بيروت • ١٩٦٨ ، ص ٣٠ « بحال لمتونة » خطا ، بدلا من جبال مديونة •

(١٩٩) القرطاس ، ص ٥١ •

(٢٠٠) انظر القرطاس ، ص ٥١ — حيث يقول ابن ابي زرع انها كانت باقية بتلك الناحية على أيامه ، في اوائل القرن ٨ هـ/١٤ م •

الزحف من وشقة على فاس :

وعندما اشتد ساعد عبد الرزاق وكثر اتباعه راودته فكرة القضاء على دولة الحسنيين الادريسية ، فسار بقواته نحو الشمال في اتجاه قاعدة الديار ، مدينة فاس • ونجح عبد الرزاق في دخول مدينة صفروا ، على بعد حوالى ٣٠ ك • م من فاس ، دون صعوبة ، مما شجعه على مواصلة المسيرة • وعندما استشعر على بن عمر بخطورة الثورة الصفرية المقبلة من الجنوب كالعاصفة ، قرر الخروج للقاء عبد الرزاق ، بعد أن حشد له عسكرا عظيما • ودارت الحرب سجالا ، بين الجيوش الادريسية وبين حشود الثوار الصفرية، في عدة لقاءات عظيمة • وانتهت المعارك الدامية بخسائر جسيمة في صفوف القوات الفاسية ، وبهزيمة شائنة لعلى بن عمر الذى فر ناجيا بحياته الى بلاد أوربة (٢٠١) ، مهد الدولة الادريسية الأول ومادة وجودها •

الصفرية يدخلون عدوة الأندلس ، وعدوة القرويين تستنجد بيحيى العوام :

والحقيقة انه اذا كان دخول عبد الرزاق الصفرى مدينة فاس ، بعد انتصاره على الأمير علي بن عمر ، يبرر عدم التجاء هذا الأخير الى عاصمته ، وهروبه الى بلاد أوربة ، فان امتناع القسم الملكى من فاس وهو عدوة القرويين على الثائر الخارجى الذى لم يتمكن الا من دخول عدوة الأندلس حيث خطب له ، يبرر النظر في أن على بن عمر لم يكن موفقا فى قراره بعيدا عن قاعدة ملكه • فلقد أصبح تقاعسه عن مواصلة النضال فى فاس بمثابة استسلام أمام خصمه ، وتسليم بالعجز أمام رعيته • وذلك أن أهل عدوة القرويين ، عندما نجحوا فى رد الخارجى عن مدينتهم لم يفكروا فى عودة أميرهم الهارب ، بل راسلوا أميرا ادريسيا آخر ، هو يحيى بن القاسم بن ادريس ، المعروف بالعوام ، ودعوه الى تسلم مقاليد أمورهم • ووصل يحيى بن القاسم الى فاس ، ودخل عدوة القرويين حيث تمت له البيعة بالامامة ، ووقع على عاتقه اطفاء نار الفتنة الخارجية (٢٠٢) •

---

(٢٠١) انظر القرطاس ، ص ٥١ ، البكرى ، ص ١٢٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٢ •

(٢٠٢) انظر القرطاس ، ص ٥٢ ، البكرى ، ص ١٢٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٢ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ (حيث القراءة « الصرام » خطأ بدلا من « العوام ») •

٨ ـ يحيى العوام بن القاسم بن ادريس :

استعادة عدوة الأندلس ، والقضاء على ثورة مديونة وعبد الرزاق :

كانت مبايعة يحيى بن القاسم فى عدوة القرويين ، وبقاء عدوة الأندلس موالية لعبد الرزاق الخارجى ، تعنى نوعا من تكريس الانفصال بين كل من الحيين الكبيرين اللذين يكونان مدينة فاس • ويمكن تفسير وقوف عـدوة الأندلس الى جانب عبد الرزاق عـلى أنه نوع من تعاطف أهلها الأندلسيين ، أصلا ، مع ابن بلدهم ثائر وشقة ، فكان قسمى مدينة فاس ظلا ، بعد حوالى قرن من بنائها متشبثين بعصبيتهما الاقليمية ، من : أندلسية وقيروانية • ومن الواضح أن العصبية الأندلسية كانت تمثل المزاج الثورى الحاد ، بينما مثلت العصبية القيروانية المزاج الهادىء الذى يميل الى الدعة ويركن الى الاستقرار •

وهكذا قاد يحيى العوام أنصاره من أهل عدوة القيروان فى صراع مرير ضد جيرانهم أهل عدوة الاندلس ومن معهم من خوارج مديونة ، ونجح فى هزيمة عبد الرزاق الصفرى واخراجه من المدينة ، وذلك « فى خبر طويل » رأى ابن عذارى ـ للأسف ـ أن يعفينا من سرده (٢٠٣) •

بيعة أهل عدوة الأندلس ، وتركيبهم العنصرى :

وتقول رواية ابن أبى زرع انه عندما دخل يحيى العوام عدوة الأندلس بايعه أهلها وجميع من بها من الاندلس الذين نزلوا بها «من الربضيين»(٢٠٤) مما يفهم منه أن أهل عدوة الأندلس لم يكونوا جميعا أندلسيين أصلا ظلت جمهرتهم من المغاربة البربر ، مما يزيد فى تفسير استجابتهم لعبدالرزاق ومن كان معه من بربر مديونة وغياثة وغيرهم • ولكنه رغم وجود المغاربة

---

(٢٠٣) البيان ، ج ١ ص ٢١٢ ، البكرى ، ص ١٢٥ ، وأنظر القرطاس ، ص ٥٤ •

(٢٠٤) القرطاس ، ص ٥٢ ـ حيث القراءة الفرضيين » بدلا من الربضيين » •

فقد كان التفوق فى العدوة للأندلسيين من غير شك - يؤيد ذلك ما تقوله الرواية من أن يحيى بن القاسم استعمل على عدوة الأندلس ثعلبة بن محارب أبو عبد الله ، الذى تصفه بأنه : « من أهل الربض من شذونة »(٢٠٥) •

ولما كان المعروف أن أهل الربض الذى استقروا فى فاس عند انشائها، هم قرطبيون ، فان ذلك يعنى أن ثعلبة بن محارب كان اندلسيا ، وفد على فاس من شذونة فى فترة لاحقة وهو الأمر المقبول ، اذ كان نشاط الوافدين من الأندلسيين فى المغرب وخاصة فى سواحله وفى جزر البحر ، مستمرا منذ مطلع القرن الثالث الهجرى (٩م) ، كما يتضح من النصوص وخاصة فى كتاب البكرى •

اسرة اميرية اندلسية ، مهلبية الاصل ، لعدوة الأندلس :

والمهم أن يحيى بن القاسم عندما اطمأن الى استقرار الأمور فى عدوة الأندلس بفضل ثعلبة بن محارب ، خرج من فاس متتبعا أثر عبد الرزاق الخارجى ، الى أن قضى عليه فى حروب عظيمة ووقائع كثيرة ، كما يفهم من رواية ابن أبى زرع (٢٠٦) • ولم يزل ثعلبة بن محارب واليا على عـــدوة الأندلس فى فاس الى أن توفى فى تاريخ لا نعرفه ، وعندئذ عهد الأمير يحيى ابن العوام بحكم العدوة الى ابنه عبد الله بن ثعلبة ، الذى خلفه فى الولاية ولده محارب بن عبود بن ثعلبة (٢٠٧) ، مما يعنى أن عبد الله بن ثعلبة كان يعرف بعبود (٢٠٨) ، حسب الطريقة المغربية فى تحوير الأسماء •

ولما كان ولاة عدوة الأندلس هؤلاء من عرب الأزد الذين ينحدرون من صلب المهلب بن أبى صفرة ، كما ينص على ذلك الكتاب ، فان هذا الأمر يعنى أن يحيى العوام كان يدبر لاقرار الأمور فى عدوة الأندلس عن طريق

---

(٢٠٥) القرطاس ، ص ٥٢ • وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ ، الذى ينص على أن ثعلبة كان من أهل الربض بقرطبة •

(٢٠٦) القرطاس ، ص ٥٢ •

(٢٠٧) القرطاس ، ص ٥٢ •

(٢٠٨) انظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ •

صـطها بأيدى أفراد من الأسرة العربية الشهيرة التى كان لها شأنها فى محاربة الخوارج فى المشرق وفى المغرب . فقد توالى هؤلاء فى تسلسل يمكن أن يشبه بأسرة أميرية أشبه بتلك التى كونوها فى افريقية ، على أوائل ايام العباسيين والتى كان من ابرز أمرائها : عمر بن حفص المعروف بهزار مرد (الالف رجل) ، ويزيد بن حاتم الذى ضرب به المثل فى الكرم (٢٠٩) .

وطالت أيام يحيى بن القاسم فى امارة فاس ، وما والاها من البلاد والاقطار والقلاع ، الى سنة ٢٩٢ هـ/ ٤- ٩٠٥ م (٢١٠) ، حيث مات فى الحرب التى شنها عليه ربيع بن سليمان ، والتى لا يمدنـــا الكتاب بشىء مـــن تفصيلاتها (٢١١) ، وخلفه فى الامامة قريبه يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس الامام ، حفيد عمه.

عودة الامامة الى بنى عمر بن ادريس ، ودخول فاس فى طاعة الفاطميين :

٩ - يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس (٢٩٢ هـ/٩٠٥م - ٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م :

ويمر الكتاب سريعا على تلك الفترة الأخيرة من تاريخ الدولة الادريسية، فلا نعرف عن الظروف التى ولى فيها يحيى الرابع بن ادريس الا أنه تقدم ، بعد مقتل بن عمه العوام ، من مدينة الزيتون (مكناسة) التى كانت قاعدة ملكه (٢١٢) ، الى فاس حيث بايعه أهل المدينة بشاطئيها : عدوة القرويين وعدوة الأندلس ، وتمت له الخطبة على منبريهما . وعن هذا الطريق أصبح يحيى الامام الادريسى التاسع ، ودانت له أعمال المغرب بالطاعة(٢١٣) .

---

(٢٠٩) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٥١ .

(٢١٠) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٢ ، البكرى ، ص ١٢٥ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ ، وقارن القرطاس، ص ٥٢ ، الذى اخطأ فى نسخ هذا التاريخ فجعله فى سنة ٢٧٢ هـ - ٨٨٦ م .

(٢١١) نفس المصادر .

(٢١٢) البكرى ، ص ١٢٥ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ .

(٢١٣) انظر القرطاس ، ص ٥٣ .

تقييم يحيى الرابع :

واذا كان البكري وابن عذاري يمران مرورا خاطفا على عهد يحيى ابن ادريس فيكتفيان بالاشارة الى بدء ملكه سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، ثم الى زوال سلطانه بقدوم مصالة بن حبوس قائد عبيد الله المهدي الى فاس سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م ، فان الفضل يرجع الى ابن أبي زرع صاحب كتاب روض القرطاس ، في جمع بعض المعلومات ، التي لخصها ابن خلدون ، عن شخصية يحيى بن ادريس • وتصور تلك المعلومات يحيى الرابع على أنه أعظم ملوك الأدارسة ، فقد جمع بين : علو القدر ، وبعد الصيت وطيب الذكر ، وقوة السلطان ، كما جمع بين : البطولة والشجاعة والحزم ، والصلاح ، والدين ، والورع ، بشكل : « لم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه » • وفوق هذا وذاك : « كان فقيها حافظا للحديث ذا فصاحة وبيان ولسان (٢١٤) » •

وصول الفاطميين الى المغرب الأقصى :

واذا صح ذلك فلا شك أن بلاد الأدارسة لم تكن حسنة الحظ اذ قدر لها مثل هذا الامام المثالي في تلك الفترة الحرجة من تاريخ المغرب ، حيث كان الفاطميون على وشك القضاء على دول المغرب القائمة وقتذاك ، ابتداء من دولة الأغالبة ، وختاما بدولة الأدارسة ، وتوحيدها تحت راياتهم المظفرة ، في ظل آل البيت من « الحسينيين » ، هذه المرة •

هكذا حكم يحيى بن ادريس في فاس من سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥م الى سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ، حينما قدم مصالة بن حبوس المكناسي الى بلاد الأدارسة ، فخضع له بعض الطامعين في ملك الأدارسة من زعماء زناتة ، مثل : موسى بن أبي العافية الذي قدم له المعونة وحارب الى جانبه(٢١٥) ، وضعف أمامه البعض ، مثل : بني صالح الذين جلوا عن ديارهم في بلد نكور (٢١٦) ، ودافعه البعض دون جدوى ، مثل : يحيى بن ادريس الذي انهزم أمامه واضطر الى الاعتراف

---

(٢١٤) القرطاس ، ص ٥٣ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ •

(٢١٥) القرطاس ، ص ٥٣ •

(٢١٦) البكري ، ص ١٣٥ •

بامامة عبيد الله (٢١٧) ، فلم تقم له قائمة بعد ذلك (٢١٨) ، وان كان قد استمر في الحكم الى سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م • وهى الأمر التى سنعود اليها عندما نعالج تاريخ الدولة الفاطمية •

أما عن قيام الفاطميين فنرى ان يكون المدخل الطبيعى له هو رسم صورة لبلاد المغرب قبيل مطلع القرن الرابع الهجرى (١٠م) ، تبين فيها الدروس المستفادة من البحث فى تاريخ الاغالبة والرستميين والمداريين والأدارسة على المستويين السياسي والحضاري ، مما يمكن أن يوضح الظروف التى أدت الى سقوط دول عصور الاستقلال الأولى ، وتوحيد المغرب تحت رايات الفاطميين وفوق أسنة رماح الكتاميين • وهي الدروس التي يمكن أن تكون مفيدة أيضا بالنسبة لمرحلة ما بعد الفاطميين من عصور الدول المغربية حقا والمستقلة تماما •

---

(٢١٧) القرطاس ، ص ٥٣ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٦) •
(٢١٨) البكري ، ص ١٢٥ •



الفصل السادس

الخريطة السياسية الحضارية لبلاد المغرب
في أواخر القرن الـ ٣ هـ / ٩ م



من ذلك العرض الذى قدمناه لتاريخ بلاد المغرب خلال القرن الثالث الهجرى /٩ م يتضح لنا ما يأتى :

أ ـ الواقع السياسى :

كانت خريطة البلاد السياسية تشتمل ، اساسا ، على أربع دول هى :

من المشرق إلى المغرب ـ دولة الأغالبة فى افريقية (أى البلاد التونسية)، ودولة الرستميين في المغرب الأوسط أو اقليم تاهرت (من البلاد الجزائرية)، وامارة المدراريين فى سجلماسة (تفللت) ووادى درعة (فى صحراء المغرب الجنوبية) ، ودولة الأدارسة فى المغرب الأقصى فى منطقة فاس ووادى سبو . والى جانب هذه الدول الأربعة لا ينبغى أن نغفل كلا من مصر الطولونية فى المشرق ، والأندلس الأموية فى أقصى المغرب . فقد كانت لمصر حدودها المشتركة مع مملكة الأغالبة فيما بين برقة وطرابلس ، وكان للاندلس حدودا بحرية مشتركة مع الأدارسة عبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) الذى كان يربط بين العدوتين (الشاطئين) : الافريقية والأوربية . والذى يمكن ملاحظته هو أنه رغم استقلال كل من دول المغرب الأربعة فان الاوضاع السياسية فى كل منها كانت رهنا بأوضاع البلاد الأخرى ، اذ كانت لأحداث كل اقليم آثارها المباشرة فى الاقليم المجاور : كرد فعل طبيعى لتلك الأحداث . هذا كما كان لتدخل خلافة بغداد ، بصفتها صاحبة السلطة الشرعية فى كل ولايات الدولة ـ المطيعة منها والعاصية ـ آثارها التى لا تنكر فى مسار الأحداث السياسية التى عرفتها البلاد : بشكل ملموس أو بطريقة خفية ،

حسب مقتضى الظروف والأحوال • وهذا ما نحاول الاشارة اليه ، في كل من تلك الدول •

١ ـ دولة الأغالبة :

فقد كانت دولة الأغالبة في افريقية امارة شرعية تابعة لدولة الخلافة • وعن هذا الطريق كان لها السلطان المطلق على كل بلاد المغرب ، ابتداء من طرابلس التي كانت تبدأ بها الحدود الادارية الفاصلة بين ولاية مصر الطولونية وبين ولاية المغرب الأغلبية التي كانت تمتد الى آخر الشمال الافريقي ، بل والى بلاد الأندلس أيضا من الوجهة الشرعية أو النظرية • أما عن مظاهر تبعية الدولة الاغلبية للخلافة وارتباطها بالحكومة المركزية في بغداد فقد تمثلت ، كما جرت العادة في الرابطتين التقليديتين وهما : رابطة الولاء الروحية للخليفة أمير المؤمنين ، والتعبير المادي عن ذلك الولاء بدفع أموال الخراج السنوية الى ديوان الخلافة في بغداد • وكانت تلك الرابطة المزدوجة في طبيعتيها الروحية والمادية بين الخلافة وأمير القيروان تقوى وتضعف تبعا لأحوال كل من خلافة بغداد وامارة القيروان •

فعند تعيين ابراهيم بن الأغلب واليا على افريقية تعهد الأغلبي للخليفة الرشيد بأن يعدل عن تلقي المساعدة التي كانت ترسلها مصر سنويا وقدرها مئة ألف دينار ، كمعونة لافريقية ، بل وتعهد ـ على العكس من ذلك ـ بأن يدفع أربعين ألف دينار سنويا الى بيت المال ببغداد (١) ، مما يعني تبعيته الواضحة للخلافة ، بصرف النظر عن كون ذلك نوعا من الاغراء من جانب ابن الأغلب للرشيد حتى يعهد اليه بأمرة البلاد أو الاستقلال بها • ولقب « الأمير » الذي حمله الاغالبة يؤيد تلك التبعية للخلافة : فالامارة كما عرفها الفقهاء الذين كتبوا في نظم الحكم ، مثل الماوردي صاحب الاحكام السلطانية ، تعني السلطة الدنيوية التي تشمل اختصاصات عسكرية وقضائية ومالية وادارية ، يعهد بها الخليفة لنائب عنه في الاقليم الذي يجعله أميرا عليه (٢) • كما كان الخليفة يمارس بعض تلك الاختصاصات بنفسه مثلما فعل الرشيد عندما ولى ابن غانم ، مباشرة من قبله ، قضاء افريقية فجعله ندا لابن الأغلب (٣) •

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٢٩ ـ ٣٠ وص ١٢ •
(٢) انظر الاحكام السلطانية ، الباب الثالث في تقليد الامارة على البلاد •
(٣) انظر ما سبق ، ج ١ ص ٣٧٥ وص ١٠٧ •

وبذلك كان الأمير الأغلبي يستمد سلطانه مباشرة من الخليفة ، فكان كل خليفة جديد يجدد العهد للأمير ، كما كان على الامير ، بدوره ، ان يجدد البيعة للخليفة : فيحلف له يمين الولاء والاخلاص • وتجديد البيعة هو الذى كان يعطى طابع الشرعية لحكم الأمير الذى يستمد سلطانه ، بطبيعة الحال ، من امير المؤمنين •

هكذا كان شعار أمراء القيروان الرسمى هو اللون الأسود ، شعار العباسيين : لون الألوية او الرايات والبنود ، ولون الخلع أى الملابس الرسمية للأمير ولكبار موظفى دولته ، من : الوزراء والقضاة وكبار القواد • ولهذا السبب كان أول ما يفعله الثوار فى افريقية هو التخلص من لبس السواد ، كما فعل خريش الكندى الذى ثار على ابراهيم بن الاغلب (٤) ، تماما كما فعل المعارضون للخلافة فى المشرق ، اذ كانوا يلبسون البياض ويسمون بالمبيضة — على عكس العباسيين الذين لبسوا السواد وسموا بالمسودة(٥) •

أما عن الأموال السنوية التى تعهد بها ابراهيم بن الأغلب ، وهـذا ما يمثل الرابطة المادية الاقوى ، فمن الواضح أنها لم تكن تدفع بانتظـام • فابراهيم بن الاغلب نفسه كان ينتظر من الخليفة ان يدفع أرزاق (مرتبات) الجند العربى ، كما حدث عندما قامت الثورة ضده فبعث اليه الرشيـد بالأموال التى فرقها فى الجند وهزم الثوار (٦) • هذا ولا بأس من الاشارة هنا الى أن ابراهيم بن الأغلب كان يضرب — بعد ذلك — نقود الخراج هذه خصيصا باسم الخلافة • فهذا ما يفهم من الدينار الذى عثر عليه باسم ابراهيم ابن الأغلب ، والذى ضرب فى سنة ١٩٦ هـ ، ونقش على أحـد وجهيـه « للخليفة الامام » (٧) •

والحقيقة انه فيما عدا رابطة الولاء ودفع الأموال المقررة سنويا ع افريقية ، لم يكن للخلافة اشراف فعلى على أمراء الاغالبة • وهكذا تمت

---

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٣٥ وص ٣٧ •

(٥) انظر ملهوزن ، تاريخ الدولة العربية واضمحلالها ، ترجمة محمد عبد الهبد ابو ريدة ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٥٠٣ — ٥٠٤ وهامش ٣ فى الصفحتين • وكما فعل الأمو فى الاندلس أيضا اذا اتخذوا اللون الأبيض شعارا لهم • (انظر ليفى بروفنسال ، تار اسبانيا الاسلامية (بالفرنسية) ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ •

(٦) انظر فيما سبق ، ص ٣٨ •

(٧) انظر حسن حسنى عبد الوهاب ، الورقات ، قسم ١ ص ٤٢٨ •

افريقية بادارة مالية مستقلة ، كما حدث في مصر على أيام الطولونيين ، فلم تتدخل الخلافة في أمورها الادارية ، ولا في نظام توريث الامارة ، الا في بعض الظروف الاستثنائية . فلقد توارث أمراء الأغالبة ملك افريقية ، كما رأينا ، بطريقة تلقائية دون انتظار أوامر بغداد التي كانت تجعل ديوان افريقية والمغرب لولاة العهد بها ، وقام بعضهم باصلاحات مالية وأعمال تأديبية دون انتظار موافقة الخلافة ، رغم ماأثارته من السخط بين الناس (٨) .

ولكن هذا الاستقلال الذى تمتع به الأغالبة لم يمنع الخلافة من التدخل في شئونهم في بعض الأحيان ، كما حدث على عهد ابراهيم الثاني بن أحمد عندما استبد بالرعية وأنزل بالثوار من أهل تونس عقوبات غاشمة سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦م . فلقد تدخل الخليفة المعتضد في الأمر ، وعنف ابراهيم بن أحمد ، بل وهدده بالخلع (٩) .

وهكذا ، رغم استقلال الأغالبة فانهم لم ينسوا اظهار ولائهم لبغداد وارتباطهم بالخلافة حتى آخر أيامهم . فقد كانت الانتصارات الكبيرة للجيوش الاغلبية تبلغ أولا بأول الى بغداد ، كما كان للخليفة نصيبه من المغانم والسبي في بعض الاحيان . وذلك كما حدث عند الاستيلاء على قصريانة (كاستروجيوفاني) ، اذ بعث الأمير أحمد بالنبأ الى الخليفة ، كما أهدى اليه بعض الجاريات الصقليات (١٠) . وكذلك ظهر الامتثال لطاعة الخلافة في وقت الشدة ، عندما أحس آخر أمراء الأغالبة زيادة الله الثالث ، بخطر الفاطميين فأرسل هدية للخليفة العباسي فيها عشرة آلاف من المثاقيل الكبار التي تحمل أبياتا من الشعر تعلن الولاء والطاعة لأمير المؤمنين (١١) . هذا كما استخدمت الخلافة المداراة ، بدورها ، والحذر في اعلان سلطانها على المملكة الأغلبية . والمثل لذلك أنه عندما تعرضت افريقية في سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م ، الى زلزلة أرضية هدمت الكثير من الحصون والقرى أمر الخليفة المتوكل بتوزيع ثلاثة ملايين درهم على المنكوبين (١٢) . ولقد أدت التنقيبات

---

(٨) أنظر فيما سبق ، ص ٤٠ (عن عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب) ، ص ١٢٧ (عن ابراهيم بن) .

(٩) أنظر فيما سبق ، ص ١٤٥ وبعد ٤٧٠ .

(١٠) انظر فيما سبق ، ص ١٠٠ ، ٣٥١ .

(١١) انظر فيما سبق ، ص ١٦٦ .

(١٢) ابن الأثير سنة ٢٤٥ ج ٧ ص ٣٣ ، ج مارسيه ، ص ٦٣ ، وقارن الطبري (ذخائر العرب) ، سنة ٢٤٥ ج ٩ ص ١١٢ حيث القراءة « ثلاثة آلاف درهم » خطأ .

الأثرية الى اكتشاف نقش في داخل قبة جامع الزيتونة بمدينة تونس يسجل ان ذلك الجزء من المسجد الجامع بنى سنة ٢٥٠ هـ/٨٦٤ م بأمر الخليفة المستعين • ولما لم يكن هناك ذكر للأمير الاغلبى زيادة الله الثانى أو أبى الغرانيق فى هذا النقش ، الأمر الذى ربما كان نتيجة طبيعية لعداء أهل تونس لأمراء القيروان ، فان جورج مارسيه يرجح أن ذلك يعنى أن البناء تم على نفقة الخليفة كاعلان عن سيادة بغداد على المغرب ، واهتمام الخلافة بمصالح الاسلام فى تلك البلاد (١٣) •

هكذا تمتعت الدولة الاغلبية بالاستقلال مع استمرار ارتباطها بالخلافة بعلاقات معنوية قوية ، الى جانب روابط مادية لا بأس بها وان كانت محدودة• ويرى جورج مارسيه أن نظام استقلال الولايات فى ظل دولة الخلافة ، الذى كانت الدولة الأغلبية أول نماذجه فى تاريخ الدولة الاسلامية يمكن أن يشبه بنظام « الدومنيون » (أو « الكومان ولث ») الذى طبق حديثا (فى الأمبراطورية البريطانية) ، بل ويرى مارسيه أن الامارة الأغلبية ، فى اطار دولة الخلافة هذا – الذى كان يشبهه استاذنا الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة بالنظام الاتحادى « أو الفيدرالى » كانت تتمتع بوضع أحسن حالا من وضع بلاد الدومنيون الحديثة (١٤) •

والحقيقة ان هذا « النظام الاتحادى » كان حلا سعيدا لمشاكل كل من دولة الخلافة وامارة افريقية الأغلبية • فمن ناحية انزاح عن كاهل الخلافة ما كانت تعانيه من المتاعب فى بلاد المغرب مما وقع على عاتق أمير القيروان ، ومن ناحية أخرى كان استقلال الاغالبة دافعا للولاية المغربية على التقدم العسكرى والسياسى الذى أدى بدوره الى الازدهار الفكرى والحضارى •

ولكنه اذا كان فتح صقلية وجنوب ايطاليا وضمهما الى أملاك الولاية الافريقية يمثل ذروة ما بلغته دولة الأغالبة من القوة السياسية والعسكرية، فمن الواضح أن الأغالبة لم ينجحوا تماما فى اقرار الأمور فى داخل حدود

---

(١٣) انظر له ، بلاد البربر (المغرب) والمشرق الاسلامى فى العصر الوسيط (بالفرنسية)، ص ٦٣ • وعن نقش قبة الزيتونة ، انظر له هامش ٢٤ من المجمل فى الفن الاسلامى (بالفرنسية) ، باريز ١٢٩٦ ، ج ١ ص ١٣ ، وكرسويل ، العمارة الاسلامية المبكرة (بالانجليزية) ، ج ٢ ص ٣٢٣ •

(١٤) ج مارسيه ، بلاد البربر (المغرب) والمشرق الاسلامى فى العصر الوسيط (بالفرنسية) ص ٥٩ •

مملكتهم ، بصرف النظر عما كانوا يواجهونه من أخطار منافسيهم في شرقي البلاد أو في غربيها — اذ الحقيقة ان الحرب فيما وراء البحار في أرض الروم لم تستوعب ، بشكل كامل ، كل الحماس العسكرى الذى كان يضطرم في نفوس أهل القبائل من العرب والبربر • وذلك أنه اذا كان الجهاد في صقلية فرصة للأمراء لكى يتخلصوا من العناصر المضطربة والثائرة في البلاد ، فان ذلك لم يمنع الاضطرابات الخطيرة التى كادت تودى بالأسرة الأغلبية ، كما حدث في ثورة الطنبذى التى شملت البلاد جميعا ، فلم يبق بين أيدى الأغالبة الا الشريط الساحلى الممتد من سوسة الى طرابلس (١٥) • هذا ، واذا كانت صقلية وجنوب ايطاليا قد ظهرت وكأنها أرض المغانم والسبى ، أو كأنها مورد لا ينضب بما كانت تمد به بيت المال الاغلبى من خراج المدن والأقاليم الجديدة ، فمما لا شك فيه أن الحرب المكلفة فيما وراء البحر طوال العصر الأغلبى أرهقت البلاد والعباد الذين كانت تضربهم المجاعة والقحط في كثير من الأحيان ، مما شكل أسبابا اضافية لاثارة السخط والثورة • ولا شك أن توالى الاضطرابات من جانب الجند ، وتتابع العصيان من جانب القبائل ، كان وراء الاستبداد الذى ظهر من جانب عدد من الأمراء ، وهو الذى يفسر سياسة العنف والقسوة التى لجأ اليها عدد كبير منهم والتى خرجت عن حدود المعتاد ، فشوهت تاريخ الأغالبة في كثير من الأحيان ، وكانت السبب فيما ظهر منهم من العجز في مدافعة ثورة قبائل كتامة الفاطمية • وهكذا يمكن القول ان عوامل القوة والضعف تشابكت فيما بينها ، وكانت من أسباب ضعف الدولة الأغلبية — سنة الحياة ، وقانون الطبيعة الثنائى الذى يجعل الوجود السوى رهنا بذلك التوازن العجيب : القائم بين الموجب والسالب ، أى بين القوة والضعف ، أو ما يسمى بالخير والشر •

٢ — دولة الرستميين :

اذا كانت دولة الأغالبة ، بفضل روابطها الروحية والمادية بالخلافة ، هى صاحبة السيادة الشرعية على كل ولاية المغرب من الناحية النظرية على الأقل ، واذا كانت قد وسعت أملاكها فيما وراء البحر في صقلية وجنوب ايطاليا ، فمن الغريب حقا أنها رضيت بأن تزاحمها في قلب بلادها ، افريقية وما يتبعها من أعمال طرابلس ، دولة منافسة هى دولة الرستميين • ولكن الحقيقة هى أن دولة الرستميين الاباضية في تاهرت كانت أقدم من الدولة الاغلبية ، بل ولا شك أن قيامها نتيجة لثورات الخوارج في المغرب هو الذى

---

(١٥) انظر فيما سبق ، ص ١٣٦ — ١٣٧ •

أدى الى قيام الأغالبة • وهكذا كانت الدولة الرستمية الاباضية امامة خارجية أو جمهورية شعبية مستقلة ، ذات نظام وراثي كالخلافة ، يقرر وجودها الأمر الواقع - من قبل قيام الأغالبة - المعروف عند الفقهاء « بامــــارة الاستيلاء »(١٦) ، ويحدده قانونيا علاقة التعايش السلمي مع الامارة الاغلبية الشرعية •

والغريب في أمر الدولة الرستمية أنها كانت دولة بدوية صحراوية شبه هلامية لا تعرف الحدود الواضحة • فمع أن قلب الدولة كان في اقليم تاهرت ، فانها ظلت محتفظة بعلاقات وثيقة بمنطقة جبل نفوسة واقليم طرابلس في شرق المملكة الأغلبية ، وباقليم الصحراوات الجنوبي الغربي في منطقة سجلماسة (تافللت الحالية) ، جنوب المملكة الادريسية ، حيث المدراريين الصفرية الذين ارتبطت بهم بعلاقات قربى وشيجة • وبذلك تكون الدولة الرستمية قد فرضت وجودها خلال كيان كل من دولتي المغـــرب الكبيرتين : الأغلبية والادريسية ، وهذا ما دعانا الى وصفها بدولة هلامية أي متميعة الحدود •

ولقد استقر واقعها القانوني في منطقة طرابلس بالاتفاق الذي تم سنة ١٩٦ هـ/٨١٢ م بين عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب وبين عبد الوهاب ابن عبدالرحمن رستم (١٧) ، وتأكد هذا الواقع بالمجهودات المشتركة التي قام بها الاباضية والأغالبة ضد غزوة العباس بن أحمد بن طولون للمنطقة سنة ٢٦٥ هـ/٨٧٨ م (١٨) •

ولا شك أن قيام علاقات وثيقة بين الرستميين وبين الأمويين في الأندلس - بعد فترة من الترقب (١٩) ، حتى أنه عندما قام ثلاثة من أبناء عبدالوهاب ابن رستم بزيارة قرطبة في سنة ٢٠٦هـ/٨٢٢م لتهنئة الأمير الأموي عبدالرحمن الثاني بن الحكم بالامارة ، تكلف الأمير ، من أجل استقبالهما وتقديم المال

---

(١٦) أنظر الماوردي ، الأحكام السلطانية ، باب ٣ : تقليد الامارة على البلاد ، فصل امارة الاستيلاء •

(١٧) أنظر فيما سبق ، ص ٣١٣ •

(١٨) انظر فيما سبق ، ص ١٢٤ •

(١٩) نقصد بفترة الترقب عهد عبد الرحمن الداخل حيث كانت كل من الامارتين تجتهد في تثبيت أقدامها في بلادها : فعقب وفاة عبد الرحمن الداخل وثورة ابنيه سليمان وعبد الله على أخيهما الأمير هشام ، لجأ سليمان الى طنجة بينما ساح عبد الله في المغرب فزار افريقية ثم نزل على عبد الوهاب بن رستم في تاهرت قبل عودته الى بلنسية (ليفي بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الاسلامية ، ج ١ ص ١٥٢ ، وأنظر المقتبس لابن حيان ، مخطوط كلية الآداب المصور بجامعة الاسكندرية ، ص ٢ ، ٣ ، ٤) •

والهدايا والعطايا اليهما .. حوالي مليون دينار(٢٠) ، لمما كان يثبت قواعد المملكة الرستمية ، ويزيد في تأكيد واقعها القانوني في نظر الأغالبة .

هذا ، واذا كانت قد قامت بين الأغالبة وآل رستميين صراعات خفية ، مثل : ما يمكن أن يكون قد ساهم به الاباضية في الثورات التي عرفتها الدولة الأغلبية وخاصة في أقاليمها الصحراوية ، أو علنية ، مثل : اللقاء الدامي في وقعة مانو سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦ م الذي انتهى بكارثة القبائل نفوسة (٢١) . فان تلك الصراعات لم تؤثر بشكل حاسم على ميزان القوى بين الدولتين أو

---

(٢٠) أنظر بروفنسال ، تاريخ اسبانية الاسلامية ، ج ١ ص ٢٤٤ — حيث المؤلف (عن المقتبس بن حيان ومغريب بن سعيد) على أن أبناء عبد الوهاب بن رستم الثلاثة كانوا : عبد الغني ودحيون وبهرام . وان الاثنين الأخيرين غرقا وهما في طريق العودة الى المغرب بينما وصل عبد الغني الى تاهرت بعد وفاة والده بسبعة أشهر وولاية أخيه أفلح للامامة . (أنظر نفس المرجع ، ج ٣ ص ٢٧٢) . وانظر المقتبس لابن حيان ، مخطوط كلية الآداب المصور بجامعة الاسكندرية ، ص ١٧٣ . وكانت العلاقات دائما حسنة بين أمراء قرطبة وبين أئمة تاهرت الاباضية وبجلماسة الصفرية بفضل العداء المشترك للعباسيين أو عمالهم الأغالبة في افريقية . وفي ذلك يقول ابن حيان . ان رسل الأمير محمد بن عبد الرحمن (الأوسط) كانت « وكتبه تتردد الى هذه الطوائف في البحث عن أخبار بني العباس بدار مملكتهم وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشام ومصر وافريقية فلا نكاد نقف عليه شيء من حلائلها » . وهكذا ظلت علاقة الحذر والتوجس بين قرطبة والقيروان الى أن تحسنت العلاقة بين محمد بن عبد الرحمن وابراهيم الثاني الأغلبي فتبادلا الهدايا والطرف بفضل وساطة محمد بن موسى الرازي : والد أحمد وجد عيسى ، المؤرخين الأندلسيين (أنظر المقتبس ، تحقيق محمود مكي ، ط . دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٧٣ ، النص . ص ٢٦٥ وما بعدها والهوامش) . وسيظل الرستميون يعملون على توثيق علاقاتهم بالأمويين في الأندلس الذين كانوا يتبشرونهم بانتصاراتهم على المجوس النورمنديين في الوادي الكبير سنة ٢٢٩ هـ/٨٥٣ م ، كما كانوا يقدمون لهم الهدايا في المناسبات مثلما حدث عند ولاية الأمير محمد الأول حيث تلقى الامام أفلح هدية كبيرة من المال . هذا ، وظلت العلاقات الوثيقة على عهد أبي اليقظان خليفته ثم أفلح ، كما لوحظ وجود قواد من الرستميين في خدمة أمراء قرطبة ، مثل ـ محمد بن سعيد من عبد الرحمن بن رستم ، وأخيه عبد الرحمن أو ابنه الذي كان من وزراء عبد الرحمن الأوسط (الثاني) — أنظر نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

ولا شك ان العلاقات الوثيقة بين الأندلس والامامة الرستمية سواء على المستوى السياسي أم التجاري كانت تسمح لأهل كل من البلدين بالتنقل في البلد الآخر ، وهذا ما يفسر كيف قيل ان الثائر الأندلسي المشهور بعمر بن حفصون سار في بداية أمره الى تاهرت حيث عمل في خدمة أحد الخياطين هناك الى ان واحدا من مواطنيه هناك هو الذي نصحه بالعودة الى بلده ، فرجع عمر بن حفصون الى الوطن في سنة ٢٦٧ هـ/٨٥٠ م حيث بدأ عمله كرئيس لعصابة من قطاع الطرق . انظر نفس المرجع ، ج ٢ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

(٢١) أنظر فيما سبق ، ص ١٤١ .

ـ التعايش الاجبارى الذى فرضه الواقع على كل منهما . والحقيقة ان ـكل الداخلية التى عانت منها كل من دولتى الأغالبة والرستميين، والتى ـت فى الثورات القبلية والنزاعات المذهبية ، شغلت كلا منهما عن التدخل ـشئون الاخرى ، وقادتهما معا الى نفس المصير المحتوم ، من التفكك والوهن، ـكل الواحدة منهما بخير من الأخرى فى مواجهة الخطر الفاطمى .

* ـ دولة المدراريين :

واذا كان الأمر كذلك بالنسبة لامامة الاباضية فى تاهرت ، كان من ـطبيعى ألا يكون مصير امامة الصفرية الصغيرة فى سجلماسة ووادى درعة ، ـى امارة الاستيلاء الصحراوية التى ارتبطت بتاهرت بصلات من القربى ـمذهبية وعلاقات من المصاهرة العائلية ، بأحسن حالا .

وهذا ما يفسر كيف أن امارة سجلماسة حاولت أن تقف موقفا وسطا ـ القوى المتصارعة فى المغرب . فرغم العلاقات الوثيقة مع تاهرت اعترف ـمدراريون بسلطان الخلافه . فعملوا على مداراة الأغالبة حتى قيل ان صاحب ـسجلماسة عندما ألقى القبض على عبيد الله المهدى ، وهو لاجئ فى بلدته ، ـكى ذلك استجابة لاوامر القيروان او بغداد(٣٢) . ورغم ذلك فقد كانت ـمدينة واحدة ، من . الانقسامات المذهبية والصراعات القبلية . ولكل ذلك ـ سجيع سجلماسة رغم اعتصامها بصحراء المغرب الجنوبية فى طريق السودان، ـ موازنه سياستها مع كل من تاهرت والقيروان ، من ملاقاة نفس مصير ـصحبيها على أيدى الفاطميين .

٤ ـ دولة الأدارسة :

ما عن دولة الأدارسة الحسنية فى فاس والمغرب الأقصى ، فقد كانت ـمة هاشمية (علوية) . يقرر وجودها الأمر الواقع ــ أى نفس نظام الاستيلاء ـتى قامت على أساسه كل من دولتى تاهرت وسجلماسة . اما الذى كان ـيحدد وجودها القانونى فكانت العلاقات المثلثة مع كل من دولتى الاستيلاء ـالناصبتين ، فى تاهرت بالمغرب الاوسط ، وقرطبة فيما وراء البحر بالأندلس ـحيث الامارة الأموية المروانية ، الى جانب العلاقة مع دولة الاغالبة الشرعية ـفى القيروان .

لقد كمنت قوة الدولة الادريسية فى المغرب فيما كان يتمتع به الامام من الاجلال والشرف بصفته سليل بيت النبوة ، مما جعل قبائل أوربة ثم قبائل المغرب الأقصى تلتف حوله وتكون جميعا عصبية دولته ، التى ترامت أطرافها ما بين تلمسان وسواحل المغرب الأوسط حتى بلاد السوس الأقصى

(٣٢) أنظر فيما بعد ، فى قيام الدولة الفاطمية ، ص ٥٩٢ .

ووادى نفيس ، مرورا بسواحل بلاد الريف حيث امارة الصالحين فى نكور(٢٣) والبحر المحيط حيث مملكة البرغواطيين(٢٤) ، وانتشارا فوق الجبال والصحراوات الى تخوم سجلماسة ووادى درعة • ولكن الالتفاف حول شخص الامام وحده لم يكن كافيا للحفاظ على وحدة الدولة وحفظ الاستقرار فيها •

حقيقة ان وجود امام علوى فى المغرب أزعج الخلافة وأمير افريقيه حتى صار التخلص منه ، بطريقة أو بأخرى ، من أعز الامانى فى قلوب المسئولين فى بغداد ، ولكن الأمر انتهى باستقرار الأدارسة فى البلاد ، كما سبق أن استقر الرستميون فى تاهرت ، ومن قبلهم الأمويون فى الأندلس الذين انزعجوا بدورهم من قيام امامة علوية مجاورة ، وهذا ما يفسر ظهور تلك الرواية المصطنعة التى تقول بقيام تحالف هجومى بين شرلمان (شارل الأصلع) وبين الأمير الحكم الأول لمواجهة احتمال توسع العلويين نحو أوروبا الغربية(٢٥) • وهو ما يعلل أيضا سعى امراء قرطبة الدائب فى سبيل توثيق علاقات الصداقة مع امارات الخوارج المتاخمة للادارسة فى المغرب ، سواء فى تاهرت أو نكور وغيرهما • ومع مرور الوقت استتبت الأمور واستقرت الحدود فى الشمال الشرقى بين امامة الرستميين وامامة الادارسة عند تلمسان التى تعتبر الحد الفاصل بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، ولو أن الحدود مع صفريه سجلماسة لم تكن واضحة فى صحراوات الجنوب • ولم تدم فترة الاستقرار طويلا اذ سرعان ما هبت رياح الفتن المذهبية والعصبية وعصفت بالدولة العلوية ففتتتها بين افراد الأسرة الادريسية الى عدد عديد من الولايات ، ما بين مطيعة لفاس وعاصية لها • وهكذا انتهى الأمر فى أواخر القرن الثالث الهجرى بتمزق الامامة الادريسية بين أفراد الأسرة المالكة ، وكان على صاحب

---

(٢٣) عن امارة بنى صالح بن منصور فى مدينة نكور التى أقيمت سنة ١٤٣ هـ/٧٦١ م بمقربة سعيد بن ادريس احد حفدة صالح وأشهر امراء نكور على عهد الادارسة هو صالح ابن سعيد بن ادريس الذى ولى سنة ١٨٨ هـ/٨٠٤ م وعمر طويلا حتى سنة ٢٥٠ هـ/ ٨٦٤ م • وخلال ولايته الطويلة كان على علاقة طيبة بامراء الأندلس ، فشارك فى الجهاد على عهد الأمير عبد الله الثانى ، وكان من الأحداث التعسة التى عاصرها فى أواخر أيامه : نزول النورمنديين المجوس فى سنة ٢٤٤ هـ/٨٥٨ م على نكور ونهبها وسبى عدد من الأميرات الصالحيات ممن افتداهن أمير الأندلس محمد الأول بن عبد الرحمن الثانى ، مما يعنى علاقات وثيقة وتبعية مخلصة للأندلس من جانب أمراء نكورة ، كما يقول بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ، ج ٦ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ •

(٢٤) انظر فيما بعده ص ٤٣٠ — ٤٣٣ ، ص ٥٠٠ وص ٦٧٠

(٢٥) انظر بروفنسال تاريخ اسبانيا الاسلامية ، ج ١ ص ٢٤٩ ، ٢٨٢ — ٢٨٣ • وانظر المقتبس ، مخطوط كلية الآداب المصور بجامعة الاسكندرية ، ص ٢٥ •

فاس ان يواجه وحده ثورات الخوارج التى هددت العاصمة نفسها ، مثلما حدث فى ثورة عبد الرزاق الوشقى (٢٦) ، كما نجحت قبائل زناتة بقيادة ابن أبى العافية ، فى اقتطاع مملكة لها ، كانت منافسة لامامة فاس وحليفة للامويين فى الأندلس ، ثم ظهيرا للفاطميين عندما تقدموا الى المغرب الأقصى (٢٧) ، قبل أن تعود الى التحالف ضدهم مع الامويين ، فيما بعد .

خلاصة الموقف السياسى :

هكذا كانت دول المغرب الأربعة تعانى فى أواخر القرن الثالث الهجرى/ ٩ م ، بشكل عام ، من نفس الآفات التى عانت منها دولة الخلافة ، والتى تمثلت فى الصراعات المذهبية والعصبية ، والانقسام بين أفراد الأسرة الحاكمة . حدث ذلك رغم أوجه التباين فيما بينها :

١ — من حيث شرعية الحكم الذى تمتع به الاغالبة ، أو واقع التغلب والاستيلاء الذى أقام عليه الرستميون والمدراريون والأدارسة ملكهم .

٢ — ومن حيث المذاهب الدينية التى اعتنقتها والتى تراوحت ما بين السنة على مذهب مالك وابى حنيفة ، والتشيع المعتدل على المذهب الزيدى ، والخارجيه ، من : اباضية مقبولة وصفرية متعصبة .

٣ — وأخيرا من حيث التركيب الاجتماعى الذى كان يضطرد فيه ظهور العصبية المغربية (البربرية) كلما اتجهنا من الشرق الى الغرب ، من مملكة القيروان الى مملكة فاس .

ولكنه رغم ذلك التباين فى التركيب العرقى لدول المغرب هذه ، مما كان له أثره فى مسار الأحداث التاريخية فى ذلك القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، بل وفى كل تاريخ المغرب العربى ، فقد جمعت الدول الثلاث الكبرى ، فى : القيروان ، وتاهرت ، وفاس ، أوجه شبه أساسية تمثلت بشكل خاص ، فى كون أسرها المالكة مشرقية الأصل — وهذا ما شاركتها فيه بلاد الأندلس الأموية .

---

(٢٦) انظر فيما سبق ، ص ٤٧٢ .

(٢٧) انظر فيما سبق ، ص ٤٧٩ .

والحقيقة ان وجود أسر حاكمة مشرقية الأصل ، في : القيروان ، وتاهرت ، وفاس ، كما كان الحال في قرطبة ، كان له أهمية خاصة في تاريخ المغرب في ذلك الحين ، فقد كان هؤلاء الحكام المشارقة عاملا من عوامل الربط بين بلاد المغرب المتطرفة وبين قلب العروبة والاسلام في المشرق • فكانت كل أسرة حاكمة بمثابة عامل جذب تشد الأعوان والأتباع من المشرق، على المستويين العرقي والفكري ، نحو موطنها الجديد في المغرب • هكذا سار العرب من بني تميم نحو افريقية حيث بنو عمومتهم الأغالبة ، وسار الفرس أو العجم ، من عرب ومستعربة ، من افريقية ومن العراق نحو بني جلدتهم الرستميين ، كما شد العلويون الحسنيون رحالهم الى فارس والمغرب الأوسط حيث اخوتهم من الادارسة ، وكذلك فعل محبوهم من الشيعـــة الزيدية • وبذلك كان تيار الهجرة من المشرق الى المغرب عاملا على اقامة نوع من التوازن الذي عدل من خطورة القطيعة السياسية بين الخلافة ودول المتغلبين ، ، حفظ الوحدة بين جناحي دولة العروبة والاسلام ، على المستويين: العرقي ، باستمرار عملية التعريب ، والفكري ، بانتشار ثقافة المشرق العربي وحضارته على وجه العموم — وهو الأمر الذي يتطلب شيئا من التفصيل •

ب — الواقع الحضاري :

أدت الأوضاع السياسية في بلاد المغرب ، خلال القرن الثالث الهجري/ ٩ م اذن ، الى نوع من القطيعة مع المشرق العربي ودولة الخلافة ، ولكن تلك القطيعة كانت محدودة على المستوى الرسمي • وذلك أن العلاقات ظلت ، على المستوى الشعبي ، وطيدة بين جناحي دولة الخلافة والاسلام بفضل تيار الهجرة المتصل من المشرق الى المغرب ، بوجه عام ، وبفضل قوافل الحجاج السائرة من المغرب الى المشرق ، وما كان يصحبها من قوافل التجار في طريق الذهاب والعودة • وكل ذلك ساعد على سرعة نقل الأفكار والعلم والثقافة بين عواصم المشرق وعواصم المغرب ، مما هيأ وحدة حضارية كانت أواصرها تقوى ، مع مرور الوقت وتشتد ، على طول الطريق ما بين بغداد وقرطبة •

هذا ، ولا شك في أن تشجيع أمراء دول المغرب لذلك التبادل الاقتصادي والثقافي مع المشرق وعاصمة الخلافة ، عمل على دفع عجلة التقدم في بلادهم، وعجل بالازدهار الحضاري في أمهات مدنهم ، فكأنهم عملوا ، من حيـــث لا يدرون ، على تأكيد الروابط المادية والمعنوية بين شعوب بلادهم وشعوب دولة الخلافة ، وبالتالي الحفاظ على وحدة تلك الشعوب وتقوية أواصرها •

فمن الناحية الاقتصادية أي المادية عرفت الدول الأربعة ، بعد أن تمتعت

الاستقلال عصر نهضة وازدهار ، تمثل في : العناية بالزراعة وتنظيم وسائل الري ، وتشجيع التجارة والعناية بتأمين طرق القوافل ، مما ترتب عليه : زيادة الدخل ، ونمو المدن ، واتساع الأسواق ، وانتعاش الحرف والصناعات ٠

افريقية الأغلبية :

ازدهار الزراعة :

ففيما يتعلق بافريقية (٢٨) يقرر اليعقوبي ، الذي ساح في المغرب وافريقية على عهد ابراهيم الثاني بن أحمد ، أن المنطقة الممتدة بين قمودة (سيدي بوزيد) والساحل كانت تزهو بخضرتها وأشجارها ٠ ويعلق جورج مارسيه على ذلك قائلا : وهي المنطقة التي تمتد لمسافة ١٥٠ ك.م والتي ما زالت الى اليوم ، رغم التقدم العظيم الذي تحقق في غراسة الاشجار في منطقة صفاقس ،صحراوية الى حد ما (٢٩) ٠ فقد انتشرت في تلك المنطقة المعروفة بسهولها الرملية أشجار الزيتون ، وكذلك في كل اقليم الساحل، كما انتشرت البساتين والقرى التي كادت تلامس بعضها البعض من كثرة ازدحامها ، وكان لكل منها معصرة (طاحونة) الزيت الخاصة بها (٣٠) ٠ والى جانب الزيتون عرفت المنطقة أشجار الفاكهة المختلفة والكروم التي كان عنبها يؤكل طازجا أو يجفف لعمل الزبيب أو صنع النبيذ الذي كان شربه مباحا في القيروان على أيام اليعقوبي والامير ابراهيم بن أحمد ، كما سبق ان رأينا في شعر بعض الظرفاء (٣١) ٠

---

(٢٨) انظر الدراسة الممتازة التي قام بها جورج مارسيه في كتابه عن بلاد البربر الاسلامية (المغرب) والمشرق في العصور الوسطى (بالفرنسية) ، فصل الحياة الاقتصادية ص ٧٦ — ٨٧ ٠

(٢٩) بلاد المغرب والمشرق الاسلامي في العصر الوسيط ، ص ٧٧ — ٧٨ ٠

(٣٠) ج مارسيه ، بلاد البربر ٠٠٠ ، ص ٧٨ (عن المالكي في رياض النفوس) ٠

(٣١) انظر فيما سبق ، ص ١١٧ ٠ وفي ذلك يقال ان كثيرا من مشاهير فقهاء القيروان كانوا يحلون النبيذ ويشربونه ، مثل عبد الله بن فروخ الذي قال فيه مالك بن انس « هذا فقيه المغرب » (الرقيق ، ص ٨٠ — ١٤٩) ، وابي محرز القاضي ، واسد بن الفرات القاضي ومعمر بن منصور العقيلي ، الذي الف كتابا في تحليل النبيذ ، يصفه الرقيق بأنه كتاب حسن ، كما يقول ان معمر بن منصور اخذ تحليل النبيذ من عبد الله بن فروخ (انظر قطب السرور في اوصاف الخمور ، ص ٤٨٦ — ٤٨٩) ٠

وفى جنوب قمودة كانت احواز مدينة نفصة تزهو ببساتينها المثمرة ، وكانت شجرة الكرم معروفة أيضا في بلاد الجريد التى اشتهرت بكثرة تمرها ونخيلها الذى اخذت منه اسمها ، فهى بلاد الجريد وبلاد التمر وبلاد النخل . وفى شمال قمودة امتدت بلاد الحبوب فكانت القيروان تفخر بمحاصيلها الوفيرة .

رقى الصناعة والتعدين :

وفى ميدان التعدين اشتهرت مدينة مجانة ، على أربع مراحل من القيروان ، على الحدود التونسية الجزائرية الحالية ، بأنها مدينة المعادن (المناجم) دون منازع ، حتى سميت بمجانة المعدن ، فمن مناجمها كانت تستخرج الفضة والكحل والحديد والمرتك والرصاص وغيرها (٣٢) . ولم يكن من الغريب ، اذن أن تتقدم الصناعات المعدنية فى المملكة الاغلبية بشكل لم تعرفه البلاد فى العصور السابقة على الاسلام . كما يقرر ذلك جورج مارسية (٣٣) .

هكذا ازدهرت المصنوعات المعدنية المختلفة ، من حديدية كانت تمد الجيش والأسطول بما يلزمه من السلاح الثقيل والخفيف وفضية كانت تمد أسواق الصياغ بالحلى الرقيقة وقصور الأمراء بالآنية الثمينة . كما ازدهرت المصنوعات الزجاجية الدقيقة والفخارية الرقيقة من اوانى الشرب، وصنع الموازين ، وبلاطات الخزف التى كانت تكسو الحيطان وتزين الأرض وتضفى الكثير من البهاء على النافورات ومواجل الماء (٣٤) .

تقدم النسيج :

ولقد اشتهرت افريقية كذلك بصناعة البسط التى كان لها قدرها الجليل في المشرق حتى أنه كان على أمير القيروان ان يقدم منها - مع ما كان مرسوما عليه من المال السنوى - ١٢٠ (مائة وعشرين) بساطا الى بغداد ،

---

(٣٢) البلدان لليعقوبى ، ص ٣٤٩ .

(٣٣) بلاد البربر والمشرق الاسلامى ... ، ص ٧٦ والهوامش .

(٣٤) هذا ولو ان العثور على صنجة زجاجية من أواخر ايام الأمويين تعنى أن ولاة المغرب لم يهتموا العناية باستغلال ثروات البلاد الطبيعية قبل الاغالبة . ج. مارسيه ، بلاد البربر ... ، ص ٧٦ والهامش ٥٠ .

كما يذكر ابن خلدون (٣٥) ، فكأن بلاد الاغالبة كانت منافسا اشارة للمشرق الايراني العريق فى تلك الصناعة العتيدة • ومازالت البلاد التونسية معتمدة بحمراتها القديمة فى صناعة البسط ، ولكل اقليم ما بين القيروان والساحل ومدن الجنوب أساليبه الفنية الخاصة به من حيث طريقة النسيج ، وشكل القطع ، ونوع الزخرفة ، وتحديد الألوان وتوزيعها •

واذا كانت افريقية الأغلبية قد اشتهرت بصناعة البسط ، فاغلب الظن أن ذلك ينطبق على صناعة النسيج أيضا التى سينوه بها الكـــتاب والجغرافيون فيما بعد العهد الأغلبى ، حيث كانت الطرز التى تنسج أنواعا من الثياب الفاخرة منتشرة فى كثير من المدن ، مثل : قابس وسوسة (٣٦) واذا صح ما يسجله رفون جست (R. Guest) من أنه عثر على قطعة من النسيج المصنوعة فى طراز افريقية والتى تحمل اسم الخليفة الأموى مروان (بن محمد ؟) (٣٧) ، فان ذلك يعنى اهتمام العرب بصناعة النسيج فى افريقيه منذ وقت مبكر ويفسر ازدهار تلك الصناعة المستمر مع مرور الوقت . واكتساب الخبرة على عهد الأغالبة ثم على عهد الفاطميين والصنهاجيين •

وبذلك أرسى الأغالبة قواعد تلك الفنون الحرفية ــ وخاصة الزجاج والخزف ــ التى أينعت فى القرنين التاليين (٤ ، ٥هـ/١٠ ، ١١ م) ، على عهد الفاطميين ـ الصنهاجيين وهى متأثرة بمؤثرات مشرقية مستجلبة من العراق ومن مصر (٣٨) •

الازدهار الاقتصادى :

وبفضل نشاط أمراء الأغالبة ، وعملهم على استقرار ذلك الازد

---

(٣٥) المقدمة ، ج ٢ ص ٦٧٤ (فصل فى ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى اص حيث الاشارة الى ما وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عما كان يحمل الى بيت بيغداد أيام المأمون من جميع النواحى • فقد كان المقرر على افريقية ، هو : ثلاثة عشر ألف درهم مرتين (١٣ مليون درهم) ، ومن البسط مائة وعشرون (١٢٠ بساطا) ، ج مار بلاد البربر ••• ، ص ٨١ •

(٣٦) انظر كتاب الاستبصار ، ص ١١٣ ، ١١٩ •

(٣٧) ج . مارسيه ، بلاد البربر ••• ، ص ٨١ •

(٣٨) انظر مارسيه ، بلاد البربر ••• ، ص ٨٠ ، وعن المؤثرات الشرقية والأناضـ فى سجاد (بسط) شمال افريقية البدوى مما يمثل التوافق بين البدوى والمدنى ، أ بوركارت ، الفن الاسلامى : لغته ومعناه (بالانجليزية) ، ص ١٠٨ •

الاقتصادى الذى ظهر أيضا فيما قاموا به من اصلاحات مالية ، مثل تحسين العملة ورفع مستوى سبيكتها الذهبية ، وتحديد الضرائب المنظمة التى تدخل الخزانة العامة سنويا بصرف النظر عن حالة المحصول ، وتأمين شبكة الطرق التى كانت تمر بالقيروان . أصبحت القيروان أهم مركز تجارى فى الشمال الافريقى على المستويين الداخلى والخارجى • فلقد زاد نشاط أسواقها ، واتسعت حوارها ، وعمرت بمختلف السلع الواردة والصادرة • فكأن تجارها يجمعون الزيت من منطقة الساحل (صفاقس) ومن طرابلس ويبيعونه فى الأسواق المختلفة ، وكانوا يصدرون القمح الى الاسكندرية ، كما كانت تأتيهم خيرات بلاد السودان ، من الذهب والعاج والرقيق • هذا ولقد شاركت القيروان ، فى هذا الازدهار الاقتصادى ، كثير من المدن ، مثل قابس وصفاقس وسوسة كما انتعشت عواصم الاقاليم ، مثل . قفصة وطبنة والأربس وغيرها •

ولا شك فى أن ما عثر عليه من العملات الأغلبية الموجودة فى المتاحف المختلفة ، من الدنانير الذهبية التى حافظت على جودة سبيكتها ، وعلى سلامة وزنها (٢٠ر٤ جرام) طوال عهد الاغالبة ــ باستثناء عهد الأخير منهم زيادة الله الثالث ــ هو خير دليل على تأكيد ذلك الرخاء الذى عرفته افريقية الأغلبية رغم الأزمات السياسية وبعض النوازل الطبيعية التى مرت بالبلاد ما بين وقت وآخر (٣٩) ، مما سبق ذكره •

تاهرت الرستمية :

العناية بالزراعة :

وفيما يتعلق بتاهرت والمغرب الأوسط فقد عرفنا ، هما أيضا ، عهد ازدهار اقتصادى بفضل نشاط الائمة الرستميين ، ومن لاذ بهم من بنى جلدتهم من الفرس الذين كونوا جماعة مرموقة كان لها كيانها الخاص ، كما كان لها نشاطها فى كل من ميدانى السياسة والاقتصاد ، فى منطقة العاصمة

---

(٣٩) انظر ج. مارسيه ، بلاد البربر •••• ، ص ٨٢ •

(٤٠) وفى زراعة تاهرت يقول اليعقوبى انه « لم يكذب زرع البلد قط الا ان يصيبه جريح أو برد (البلدان ، ص ٣٥٨) • هذا ، كما ان السهل الواقع جنوبى تاهرت وشرقها ، وهو الذى ما زال محليا بخرائب القرى التى يرجح أن يكون كثير منها من العهد الرستمى ، يشهد على ازدهار المنطقة وقتئذ (انظر ج. مارسيه ، بلاد البربر الاسلامية •••• ص ١١٠) •

تاهرت . واذا كانت امامة تاهرت قد عانت من الإنقسامات المذهبية التى انتهت بالصراعات السياسية والعسكرية التى رأيناها ، فان الجماعات الخارجية التى شقت عصا الطاعة على أئمة تاهرت كان لها دورها الحضارى فى الأقاليم البعيدة حيث نشطت فى أعمار البلاد ، وتبارت مع الأئمة فى الأهتمام بالتجارة والثقافة ، فكان الجميع عملوا جنبا الى جنب ، وان عمل كل طرف لحسابه الخاص ، على نشر الحضارة والعمران .

فبفضل نشاط عبد الرحمن بن رستم وخلفائه الذين اعتنوا باقليم تاهرت ذى المناخ القاسى فاحسنوا استخدام الأمطار ، ونظموا أعمال الرى فاجروا الإنهار ، عمرت المنطقة وعرفت الزراعة وغراسة الأشجار بعد ان كانت منطقة رعوية فقط (٤٠) . كذلك ازداد عمران مدينة تاهرت نفسها وأصبحت تسمى عراق المغرب ، كما يقول اليعقوبى (٤١) ، بفضل المهاجرين اليها من المشرق وخاصة من العراق ، من : الكوفة والبصرة ، ممن اقتنوا وبنوا الدور والمساجد والقصور ، كما يذكر ابن الصغير(٤٢) .

الاهتمام بالتجارة :

والحقيقة ان ازدهار تاهرت هنا لا يرجع الى عملية الاحياء الزراعية وحدها ، وذلك ان أهمية تاهرت الرستمية تمثلت بشكل خاص فى أنها كانت الوسيط فى تبادل السلع بين الأقاليم الزراعية فى شمال المغرب الأوسط حتى الأقاليم الساحلية حيث كان مرسى فروخ معروفا بانه مرس مراكب تاهرت ، كما يقول اليعقوبى (٤٣) ، وبين أقاليم الرعى الجنوبية وما يليها من الأقاليم الصحراوية وبلاد السودان .

وبلغ اهتمام الأئمة بتجارة السودان حتى قيل ان أفلح بن عبد الوهاب كاد يسافر الى جوجو (كوكو) للتجارة أيام امامة والده ، ولم يمنعه من ذلك الا توقفه فى مسألة من مسائل الربا التى امتحنه بها والده ، رغم ما عرف به من العلم (٤٤) .

---

(٤١) اليعقوبى ، البلدان ، ص ٣٥٣ .
(٤٢) انظر فيما سبق ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ .
(٤٣) اليعقوبى ، البلدان ، ص ٣٥٣ .
(٤٤) انظر الوسيانى ، كتاب السير ، مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ورقة ٢٥ وجه .

وهكذا كانت تاهرت ، مثلها مثل القيروان من أعظم أسواق المغرب . ولا شك في أن الثروات التي جمعها الكوفيون والبصريون والقيروانيون ، وغيرهم من أصحاب الدور والقصور في تاهرت ، كانت ثمرة عملهم في التجارة، وخاصة مع بلاد السودان التي كانت بحق في ذلك الزمان بلاد الذهب (٤٥) .

والى جانب هؤلاء التجار من المشارقة ، من عرب وفرس كان للمغاربة (البربر) من أهل البلاد جهودهم في تنشيط تجارة تاهرت ، مثل :المزاتيين الذين سكنوها وأصبحت أموالهم احدى دعامات الدولة الرستمية الى جانب جند نفوسة (٤٦) ، والهواريين الذين أتوا من افريقية وسكنوا في أحد الأودية غربي المدينة ، وغيرهم من : اللواتيين والمطماطيين والزواغيين ، أو من الصنهاجيين والزناتية ممن سكنوا تاهرت (٤٧) .

حراسة القوافل :

واذا كانت بعض القبائل المغربية المناوئة لأئمة تاهرت ، كانت تحاول العيش السهل عن طريق اعتراض قوافل التجار ، كما فعلت زناتة على عهد أبي اليقظان الذي ارسل ابنه أبا حاتم لحماية بعض القوافل الآتية من المشرق ، فان كثيرا من القبائل التي دانت بالطاعة ، بل ومن التي رفعت راية العصيان ، عملت على تقدم العمران في بلادها .

العمران خارج تاهرت :

فعلى مسافة أيام قليلة شرق تاهرت كانت بلاد بني دمر وهم من بربر زناتة ، تليها بلاد أقاربهم من بني برزال ، وكانوا كلهم خوارج أو شراة ، كما يسميهم اليعقوبي ، وكانت بلادهم : « بلد زروع ومواشي »(٤٨) . أما عن الزاب التي كانت في حكم الأغالبة وتتنذ ، فلا شك أن الجماعات الخارجية كانت منتشرة فيها ، رغم عدم اشارة اليعقوبي الى ذلك (٤٩) . وهذا ما يفسر كيف صارت بلاد الزاب أهم معاقل الاباضية بعد العهد الرستمي . كما

---

(٤٥) انظر فيما سبق ، ص ٤٠٦ .

(٤٦) انظر فيما سبق ، ص ٣٨٧ .

(٤٧) انظر مارسيه ، بلاد البربر ، ص ١١٢ — ١١٣ .

(٤٨) البلدان ، ص ٣٥٢ .

(٤٩) انظر البلدان ، ص ٣٥٠ .

كانت جماعات الخوارج مزدهرة فى قلب الصحراء فى اقليم ورجله حيث قبائل مدراتة : أنصار الرستميين الأوائل منذ عهد عبد الرحمن بن رستم (٥٠) . ومثل هذا يقال عن جماعات الخوارج فى جبل أوراس ، جنوب هضبة قسطينة حيث أقامت جماعات من هوارة كانت تحيط بمدينة باغاية (٥١) .

ومن جماعات الاباضية المخالفين لامامة تاهرت الذين يذكرهم اليعقوبى ، تلك الجماعة التى كان يرأسها ابن مسالة الهوارى الذى كان يسكن مدينة تسمى الجبل غير بعيد من البحر ، وكان « لها مزارع وقرى وعمارات وأشجار » . وكانت مملكة ابن مسالة هذه تتاخم مملكة محمد بن سليمان العلوى ، كما يقول اليعقوبى (٥٢) .

عمران جبل نفوسة :

أما أكثر مواطن الخوارج ازدهاراً واستقراراً خارج تاهرت فكان ، من غير شك ، جبل نفوسة ، معقل الاباضية دون منازع . فعلى عهد امامة تاهرت عرف جبل نفوسة عصر ازدهار حقيقى . فقد زها بضياعه وقراه ومزارعه وعماراته الكثيرة (٥٣) ، وأثرى تجاره الذين نافسوا تجار تاهرت فى نشاطهم الى قلب الصحراء وحتى بلاد السودان (٥٤) .

وحول جبل نفوسة ، شرقا فى منطقة سرت الداخلة فى نطاق اقليم برقة ، وجنوبا فى اقليم ودان ، انتشرت قبائل مزاتة الذين عرفوا بأنهم كلهم اباضية ، وان كان اليعقوبى يعلق على ذلك قائلا : « على أنهم لا يفقهون ولا لهم دين » . وفيما وراء ودان جنوبا كان أهل زويلة أيضا كلهم من الاباضية ، وكانت لهم تجارتهم مع السودان ، وان كانوا قد تخصصوا فى تجارة الرقيق حيث كانوا يأتون بأصنافهم المختلفة ، من : المريين ، والزوغاويين ، والمرويين ، وغيرهم من أجناس السودان (٥٥) .

---

(٥٠) انظر ج . مارسيه ، بلاد البربر الاسلامية ... ، ص ١٠٣ .
(٥١) انظر اليعقوبى ، ص ٣٥٠ .
(٥٢) البلدان ، ص ٣٥٦ .
(٥٣) اليعقوبى ، ص ٣٤٦ .
(٥٤) انظر فيما سبق ، ص ٤٠٥ .
(٥٥) انظر اليعقوبى ، البلدان ، ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

سجلماسة المدرارية :

وهكذا كانت الجماعات الاباضية فى أواخر القرن الثالث الهجرى مزدهرة فى صحراوات المغرب ما بين تاهرت وبرقة بفضل اشتغالها فى الزراعة باحياء الأرض ، وفى التجارة ما بين الشمال وبلاد السودان • ومثل هذا يقال عن جماعات الصفرية فى سجلماسة الذين كانوا مرتبطين بتاهرت بطريق تجارى يصفه اليعقوبى : بأنه يخرج من تاهرت فى اتجاه بين القبلة والغرب ، ويمر بعد ٣ (ثلاث) مراحل بمدينة أوركا التى كانت لبعض قبائل زناتة المعروفين ببنى مسرة ، ثم ينحرف غربا الى أرض زناتة ، قبل أن يصير الى مدينة سجلماسة بعد ٧ (سبع) مراحل تقريبا • واذا وصف اليعقوبى بعض الطريق بأنــه مفازة أى صحراء قاحلة ، فان معظم مسيرته كانت فى قرى ، وان وصفت بأنها غير آهلة •

أما مدينة سجلماسة نفسها ، فكان لها نهر يقال له زيز وكانت زراعة اهلها ، وأكثرهم من صنهاجة ، الدخن والذرة • واذا كان اليعقوبى يعرف أن وادى درعة يدخل فى قرى سجلماسة ، فانه يشير الى أن احدى مدن درعة ، وهى تامدلت ، كانت تابعة لأحد الأدارسة وهو يحيى بن ادريس العلوى • واذا وصفت تامدلت بأنها لم تكن بالمدينة الكبيرة ، فمن المهم أنه كان « حولها معادن ذهب وفضة ، يوجد كالسلات ويقال ان الرياح تسفيه »(٥٦) • ولا بأس أن يكون استقرار الأدارسة بعيدا فى وادى درعة من أجل استغلال تلك المعادن الثمينة •

والذى يلفت النظر هنا هو أن العلويين من الأدارسة كانوا يزاحمون الخوارج الصفرية فى العمل الحضارى فى صحراوات سجلماسة الجنوبية ، كما زاحموا اباضية تاهرت فى تلمسان وسواحل المغرب الاوسط، فكان الرستميين ولأدارسة عملوا جنبا الى جنب فى النهضة المدنية لبلاد المغرب، فى القرن الثالث الهجرى/٩م ، وان كان عن غير قصد •

فاس الادريسية :

وكما كان للاغالبة والرستميين دورهم فى الاخذ بيد النهضةالاقتصادية التى عرفتها افريقية والمغرب الأوسط ، كان للأدارسة نصيبهم فىانعاش

---

(٥٦) اليعقوبى البلدان ، ص ٣٥٩ ، وانظر فيما بعد ، هـ ٢٢٩ -ص ٥٩٦ ، ص ٥٩٧ (عن احمال التبر التى خرج بها عبيد الله من سجلماسة) •

كل من المغربين : الأقصى ، والأوسط • فقد كان وجود امام علوى فى منطقة فاس سببا فى وصول فيض من المهاجرين العرب ، من : الأقارب العلويين الوافدين من المشرق ، والقيروانيين القادمين من مملكة الأغالبة ، والأندلسيين الباحثين لهم عن موطن جديد • ووجد كل هؤلاء بغيتهم المنشودة فى عاصمة الأدارسة التى تضخمت عدوتاها ، حتى أصبحت فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، على أيام اليعقوبى وعلى عهد يحيى بن يحيى بن ادريس : « المدينة العظمى التى يقال لها مدينة افريقية ، على النهر العظيم الذى يقال له فاس »(٥٧) •

وحق لليعقوبى أن يخطىء ويسمى مدينة فاس « بمدينة افريقية » ، فكأنها صارت أختا « لمدينة القيروان العظمى (٥٨) » ، وهو الأمر المقبول من حيث العمل الحضارى ، كما نرى • فمدينة فاس ، كما يصفها اليعقوبى فى أواخر القرن ٣ هـ/٩م : « جليلة ، كثيرة العمارة والمنازل » • وهو يعد فى الجانب الغربى من نهر فاس ، أى فى « مدينة أهل الأندلس» ثلاثة آلاف رحا تطحن بماء النهر الجارى (٥٩) • فكأن مدينة فاس الادريسية كانت فى أقصى المغرب ممثلة حقيقية لحضارة العرب الناهضة فى ذلك الوقت المبكر ، ومنافسة حقيقية لعواصم المشرق التى لم تأل جهدا فى استخدام القوى المائية والهوائية لادارة الطواحين بدلا من الدواب والماشية • والى جانب الطواحين كان على نهر فاس : « عمارات جليلة ، وقرى وضياع ومزارع من حافتيه » ، منذ منابعه من العيون القبلية الى أن يفيض فى نهر سبو (٦٠) •

شمال فاس ، وبلاد الريف :

أما عن بقية مملكة فاس التى قسمت منذ عهد محمد بن ادريس ، فكان نهر سبو على أيام اليعقوبى ، اقطاعا لحمزة بن داود بن ادريس • والى الشمال منه كانت « حصون وعمارات وبلد واسعة » ، لواحد من ولد داود بن ادريس ، يلى ذلك قلعة صدينة التى كانت لمحمد بن عمر بن ادريس • وكان آخر حدود مملكة بنى ادريس بن ادريس ، فى بلاد الريف شمالا ، بلد يسميه اليعقوبى « منحاص لخانة » حيث يجتمع حاج السوس الأقصى وطنجة ، وكان لتلى

---

(٥٧) البلدان ، ص ٣٥٨ •
(٥٨) البلدان ، ص ٣٤٧ •
(٥٩) البلدان ، ص ٣٥٨ •
(٦٠) البلدان ، ص ٣٥٨ •

ابن عمر بن ادريس ، ثم بلد غميرة ، الذى نظن أنه غمارة ، وكان لعبد الله ابن عمر بن ادريس (٦١) .

تلمسان واحوازها :

بلاد بنى محمد بن سليمان :

وتأتى بعد فاس مدينة تلمسان ، المدينة العظمى المشهورة بالمغرب ، كما سميها اليعقوبى بمعنى العاصمة ، وكانت أول معاقل العلويين من بنى محمد بن سليمان ، من حيث انتشروا فى سواحل المغرب الأوسط وبواديه . فتلمسان التى يصفها اليعقوبى كانت مدينة حصينة عليها سوران من حجارة ، مثل بغداد ، وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة ، وحولها قبائل من بربر مكناسة . أما صاحبها فى ذلك الوقت ، فكان محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان (٦٢) .

ما بين بنى محمد بن سليمان والاباضية :

وفى شرق تلمسان كانت هناك مملكتان لبنى محمد بن سليمان ، أولاهما متاخمة لمملكة ابن مسالة الهوارى الاباضى ، وعاصمتها مدينة تمطلاس ، وأكثر أهلها من بربر مطماطة (٦٣) ، وثانيتهما عاصمتها مدينة مدكرة ، المتاخمة من جهة الشرق لبلد متيجة . وكانت للحسنيين من بنى محمد بن جعفر . ومملكة متيجة هذه كانت بلدا واسعا ، « فيه عدة مدن وحصون ، وهو بلد زرع وعمارة »(٦٤) . والى الغرب من مدينة مدكرة ، اتصل ملك بنى محمد بن سليمان فى مدينة الخضراء بما كان يتبعها من « مدن كثيرة وحصون وقرى ومزارع » . وينص اليعقوبى على أن كل رجل من بنى محمد بن سليمان كان مقيما متحصنا فى مدينة وناحية ، « وعددهم كثير حتى أن البلد يعرف بهم ، وينسب اليهم . وآخر المدن التى فى أيديهم ، قرب ساحل البحر ، يقال لها سوق ابراهيم وهى : المدينة المشهورة ، وكان صاحبها هو عيسى بن ابراهيم ابن محمد بن سليمان (٦٥) .

---

(٦١) البلدان لليعقوبى ، ص ٣٥٧ .
(٦٢) البلدان ، ص ٣٥٦ .
(٦٣) البلدان ، ص ٣٥٦ .
(٦٤) البلدان ، ص ٣٥٢ .
(٦٥) البلدان ، ص ٣٥٣ .

ما بين بني محمد بن سليمان وزناتة :

واذا كان بنو عمومة الأدارسة قد اعتصموا بالأقاليم الواقعة في شرق تلمسان حتي صارت تعرف ببلاد بني محمد بن سليمان ، فانهم فقدوا في غرب تلمسان مدينة هامة حملت اسمهم ، هي « مدينة العلويين » التى تركوها لجماعة من زناتة ، بقيادة رجل يقال له علي بن حامد بن مرحوم الزناتى (٦٦) . وفيما وراء مدينة العلويين من جهة الغرب كان لبنى محمد بن سليمان مدينة ثمالتة ، وفى غربيها كانت تنتهى مملكتهم بمدينة فالوس المتاخمة لمدينة نكور ، قاعدة ملك صالح بن سعيد النفزى • ويصف اليعقوبى فالوس بأنها « مدينة عظيمة أهلها من البربر من مطماطة وترجة وجزولة وصنهاجة » • أما مملكة صالح بن سعيد ، وهى نكور ، فهى : « مسيرة عشرة أيام فى عمارات وحصون وقرى ومنازل وزرع وضرع وخصب » ، وذلك الى حدود مملكة بنى ادريس بن ادريس (٦٧) •

الادارسة في وادي درعة والسوس الأقصى :

والى جانب مملكة فاس ومملكة بنى محمد بن سليمان كان للأدارسة اماراتهم في وادى درعة فى منطقة سجلماسة ، كما كانت لهم ممالكهم فى السوس الأقصى حيث نزل بنو عبد الله بن ادريس بن ادريس ، وكذلك فى البلاد الممتدة ما بين السوس الأقصى وأغمات ، التى يصفها اليعقوبى بأنها : « بلد خصب فيه مرعى وزروع وسهل وجبل ، وأهله قوم من صنهاجة(٦٨) » •

وهكذا انتشر الادارسة فيما بين المغرب الاوسط وأقصى المغرب الاقصى الى صحراء سجلماسة وبلاد السوس ، وعملوا على تمدين البلاد وبناء المدن والأسواق ، مثل : مدينة العلويين وسوق ابراهيم فى المغـــرب الأوسط ، واستغلوا مناجم الذهب والفضة ، كما فعلوا فى تامدلت بوادى درعة ، فضلا عما قاموا به في سبيل اعمار منطقة وادى فاس ومدينة فاس ـ مدينة افريقيا العظمى ، كما يسميها اليعقوبى •

خلاصة الموقف العمراني :

وهكذا تكون بلاد المغرب قد عرفت نوعا من الازدهار الاقتصادى والمادى

---

(٦٦) البلدان لليعقوبى ، ص ٣٥٦ •
(٦٧) البلدان لليعقوبى ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ •
(٦٨) البلدان ، ص ٣٦٠ •

فى القرن الثالث الهجرى/٩م بفضل مجهودات كل من الاغالبة والرستميين والأدارسة ، وذلك بعد فترة الاضطراب التى شهدتها البلاد على عهد ولاة دمشق والعباسيين الأوائل . فقد كان استقلال كل أسرة بمملكتها حافزا لها على تنمية مواردها المالية ، فأنفقت دخلها فى العناية بالزراعة وأعمال الرى ومد المدن بالمياه ، وتأمين طرق المواصلات اللازمة للتجارة ، مما عاد على أهل البلاد بالرخاء ، وعلى الحكام بالتمكن من الأمر واستفحال الملك .

ولقد اضطردت هذه القاعدة عندما دب دبيب الفتنة فى كل من الدول الثلاث فاختلف أمراء الأسر الحاكمة فيما بينهم ، وقام المتغلبون فى المدن والأقاليم ؛ اذ نشط كل متغلب منهم فى تنمية موارد اقليمه ، وعمل على أن تكون مدينته منافسة للمدينة العظمى أى العاصمة ، وهذا ما يفسر انتشار « المدن العظمى » فى وصف اليعقوبى للبلاد على طول الطريق من افريقية الى اقصى المغرب . والمدن التى توصف بالعظمى ١٢ (أثنتا عشرة) مدينة هى : القيروان ، وتونس (٦٩) ، وسبيطلة (٧٠) ، وتوزر (عاصمة قسطيلية) ، وبشرة (عاصمة نفزاوة) ، وطبنة (عاصمة الزاب) (٧١) ، وميلة (٧٢) ، وتاهرت (٧٣) ، وتمطلاس (٧٤) ، وتلمسان (٧٥) ، وفالوس (٧٦) ، وأخيرا فاس (٧٧) .

هذه المدن — دون ذكر غيرها من العواصم المحلية التى كان ينزلها الولاة ، والمتغلبون من القواد ورؤساء القبائل — التى زهت بأسواقها ، ومتاجرها وحرفييها ، وحماماتها ، وقصورها ، ومساجدها الجامعة والمحلية ، والتى جمعت أخلاطا من الناس ، من عرب المشرق : الصرحاء والموسومين بالفرس وبالخراسانية ، عرب المغرب : الوافدين من افريقية والأندلس ومن المغاربة

---

(٦٩) مدينة عظيمة . البلدان ، ص ٣٤٨ .

(٧٠) المدينة القديمة العظمى . البلدان ، ص ٣٤٩ .

(٧١) البلدان ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٧٢) مدينة عظيمة جليلة : البلدان ، ص ٣٥١ .

(٧٣) البلدان ، ص ٣٥٣ : المدينة العظمى ، عراق المغرب .

(٧٤) من عواصم بلاد بنى محمد بن سليمان المتاخمة لمملكة تاهرت غربا : البلدان ، ص ٣٥٦ .

(٧٥) البلدان ، ص ٣٥٦ .

(٧٦) من عواصم بنى محمد بن سليمان غرب تلمسان . البلدان ، ص ٣٥٧ .

(٧٧) المدينة العظمى التى يقال لها مدينة افريقيا . البلدان ، ص ٣٥٧ .

(البربر) على اختلاف قبائلهم : الصرحاء منهم والمنتسبين الى عرب اليمنية والقيسية ، عرفت أيضا ازدهارا ثقافيا وروحيا ، مما كان نتيجة طبيعية لهذا الازدهار المادى ، وذاك التنوع فى الاجتمـــاع البشرى ٠

الازدهار الثقافي والحياة الروحية :

الاطار المادى :

والحقيقة ان كل عاصمة سياسية كانت على قدر اهميتها ـ كبرت أم صغرت ـ سوقا تجارية ومركزا علميا فى نفس الوقت ٠ وهنا نجد ازدهار التجارة وثيق الصلة بتقدم العلوم والثقافة ٠ فعلى قدر تراكم المال والثروة يكون الاهتمام بالمدنية والحضارة ٠ فتكدس الثروات فى كل من العواصم أو (المدن العظمى) هى التى تفسر بناء الدور والقصور ، وتشييد الجـــوامع والمساجد التى صارت معارض للفنون التشكيلية ومراكز للعلوم والثقافة ، من : دنيوية ودينية ٠

فى افريقية :

متحف جامع القيروان :

ففى افريقية الأغلبية كان جامع عقبة ـ مفخرة مدينة القيروان ومتبع زهوها الى اليوم ، الذى كان أعيد بناؤه أكثر من مرة بمعرفة ولاة الأمويين والعباسيين ، قبل أن يجدده بالشكل الذى وصل الينا الآن زيادة الله الأول ومن أتى بعده من أمراء الاغالبة ـ متحفا للفن الاسلامى فى افريقية ، كما كان مركزا للعلوم الدينية ٠ فهو ، بفضل اتساع مقاييسه ، وبساطة خطوطه ، وزخرفته الضخمة القديمة ، وتخطيطه المعمارى العربى الأصيل ، المستوحى من تخطيط مسجد النبى فى المدينة ، يعتبر آية من آيات الفن الاسلامى المبكر ٠ واول ما يشد النظر عند الدخول الى المسجد الجامع هو الصحن الفسيح ، الذى يوحى للزائر بانه فى ميدان رئيسى لبعض المدن الفخمة ، بفضل مجموعات السقائف البديعة المحيطة به ، التى ترفعها الأقواس نصف الدائرية الجميلة ، المحملة على رؤس الأعمدة الرشيقة ذات النقوش المختلفة والأصول المتنوعة مما تم صنعه بأيدى الفنانين المعاصرين من أهل البلاد ، ومن الوافدين ، ومما يرجع الى ما قبل الاسلام ـ الأمر الذى يجعل من عناصر الجامع متحفـــا حقيقيا ٠

وينفتح على الصحن الواسع بيت الصلاة الذى تقسمه صفوف من الأعمدة

الرائعة ، ذوات التيجان الثمينة المأخوذة من العمائر القديمة ، الى : ٦٧ (سبعة عشر) رواقا عمودية على حائط القبلة ، و ١٠ (عشرة) أروقة عرضية موازية لحائط القبلة ، مغطاة بسطح مستقف تحمله حوائز خشبية مزخرفة بأنواع الزواق · والرواق الاوسط ، كما هي العادة في المساجد العربية الطراز ، أكثر اتساعا وأعلى ارتفاعا من بقية الأروقة على الجانبين (٧٨) ، وعلى كل من طرفيه تقوم قبتان رشيقتا الأضلاع · وفي مقابل الرواق الأوسط ، وعلى سمت قبتيه المضلعتين ، تقوم — في طرف الصحن — منارة الجامع العريقة ، بشكلها المربع وهيكلها المهيب ·

ويكاد الأثريون يتفقون على أن الأثر الشامي يظهر في تخطيط هذه المنارة وفي موقعها من الجامع ، بينما تدل هيئة السواري وكذلك شكل الأقواس على أنها منقولة من مصر · والى جانب ذلك فانهم يجدون في بعض تفصيلات القباب تقليد للعمائر العراقية المعاصرة · أما عن الزخارف المنحوتة في الحجر أو في الرخام فهم يرون أنها تتفق مع تقاليد المصانع المحلية ·

والمهم في كل ذلك هو أن اختلاف المؤثرات ، هذا ، لا ينفي تناسق المجموع : فالعناصر الوافدة من العراق ، والمستجلبة من مصر ، وكذلك العناصر الافريقية المحلية القديمة وهي التي تكاد تمثل أخلاط الناس من سكان المدن ، من : العرب والخراسانية والمغاربة أو البربر ، اشتركت جميعا في التعبير الكلي الجميل ، وهو ما يمثل عبقرية الفن العربي الاسلامي ·

وأخيرا فان ما قيل عن مسجد عقبة الجامع يمكن أن يقال عن جامع الزيتونة بتونس ، وعن رباطات سوسة والساحل ، التي جمعت في مبانيها

---

(٧٨) وهذا الأمر جعل الأثريين الاوربيين يشبهونه بالرواق الرئيسي في البازيليكية (الكنيسة) المسيحية ويقولون انه مستوحى منها — انظر ج· مارسيه ، الفن الاسلامي ، ط· لاروس (بالفرنسية) ، ص ٥ ، وقارن كرسويل ، الفن الاسلامي المبكر ، ط· بليكان (بالانجليزية) ، ص ٢٥٦ — ٢٥٨ (حيث يقرر فقط أن الرواق الأوسط كان في البداية أوسع مما هو عليه الآن بأربعة أقدام) ، وانظر أحمد فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٢٥ : حيث يفسر اتساع الرواق الأوسط بالحاجة الوظيفية لهذا الرواق الذي يقابل المحراب والمنبر حتى يسمح لأكبر عدد من المصلين المتجمعين فيه ، من رؤية الامام وهو يخطب أو وهو يؤمهم في الصلاة ، هذا ولقد طور الدكتور احمد فكري نظريته في الأهمية الوظيفية لاتساع الرواق الأوسط في المساجد الاسلامية في كتابه « المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها » انظر ص ٣٠٠ — ٣١٢ ·

ما بين الحصن والجامع ، كما يظهر في رباط المستير الشهير والحقيقة ان هذه الآثار الى جانب ما بقي لنا من المناظر والمواجل وبعض الفنون الصغرى ، يؤكد مولد فن حسن التناسق ، قوي التعبير ، ويثبت تجسام مدنية حسنة ، وهي في سبيلها الى مزيد من التقدم والازدهار ، مع ازدياد انصهار ذلك الخليط المبرقش من اخلاط الناس ، الذين عبر ذلك الفن عن شخصيتهم المركبة في ذلك العصر •

في تاهرت :

خصائص ذاتية : حياة البساطة وانعكاساتها في المجتمع :

واذا كانت بقايا الآثار الأغلبية ـ وهي قليلة ـ تسمح باعطاء فكرة عما كانت عليه العمارات الدينية ، وخاصة المساجد ، ومسجد عقبة على وجه الخصوص ، فان الأمر ليس كذلك بالنسبة لتاهرت الرستمية • فمن الأمور المتفق عليها ، أنه رغم ازدهار تاهرت المادي بفضل تنوع عناصر سكانها ، من : العرب ، والفرس ، والبربر ، الذين كان لهم أثرهم من غير شك فيما اقاموه هناك من المباني ، فان ائمة تاهرت ظلت محافظة على تقاليد الخوارج التي تتمثل في حياة التقشف والاقلال من التمتع بمباهج الحياة • حقيقة ان التجارة والحياة الاقتصادية كانت مزدهرة في تاهرت التي تكدست فيها الثروات وبنيت فيها الدور والقصور ، ولكن مسار الحياة المادية هناك كان ينساب بايقاع رتيب ، يختلف عن ذلك الذي عرفته افريقية • فالمسالة هنا لا تتعلق فقط بتكدس الثروات ، عصب الحضارة ـ وهذا قانون عام سرى في القديم ، كما يسري في عصرنا الحديث ـ بل هو وثيق الصلة بما تقتضيه أحـوال البيئة : والبيئة الرعوية أو البدوية ، المختلفة اذا لم نقل المتخلفة عن بيئة افريقية المدنية ، كانت السائدة في بلاد تاهرت • •

امتداد حضاري افقي :

واذا لم يكن هناك مجال للمقارنة بين أئمة تاهرت المتقشفين المتمسكين باهداب الدين ، وبين ملوك وقادة المتحررين ، المنغمسين في مباهج الحياة ، كذلك يمكن القول ان المسافة ظلت بعيدة بين ما كان عليه جامع القيروان الأغلبي وجامع تاهرت الرستمي ، أو غيره من جوامع الاباضية المعاصرة التي لم يبق لنا من آثارها ما يسمح بمثل هذه المقارنة • وكذلك كان الحال بالنسبة لغير المساجد من المباني المدنية أو الحربية : حقيقة ان كتب السير الاباضية تتحدث عن كثير من المساجد والزوايا والمصليات التي بناها شيوخ المذهب

فى كل من قرى جبل نفوسة ، أو اقليم نفزاوة ، أو بلاد الزاب ، أو اقليم تاهرت ، ولكنه من الواضح ان تلك المساجد كانت متواضعة تمثل تواضع المجتمعات الاباضية القاطنة فى تلك البلاد وبساطتها .

هذا ما يمكن أن نفهمه عندما ندقق النظر فى كتب الاباضية مثل : كتاب السير لأبى الربيع الوسيانى (٧٩) ، حيث نجد أنه كان لمدينة قنطرارة ، المتاخمة لجبل نفوسة ، مسجدا جامعا كانت تقام فيه صلاة الجمعة على أيام الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وهو الأمر الذى لم يكن معمولا به فى الجبل من قبل : لأن أهل الجبل « قرى متباينة » يصعب تجمعهم كما يقول المؤلف . أما بقية قرى الجبل فكانت لها مساجدها المحلية ، غير الجامعة مثل : أو سلم التى تعتبر أول موضع أذن فيه المؤذنون فى جبل نفوسة (٨٠) ، ووارجلان الذى يعتبر موضع منبر جامعها أول موضع سجد فيه لله فى وارجلان (٨١) ، وآجلو التى كان لها مسجد كبير ، يحتوى على مصلى للنساء (٨٢) ، وجغراف : من قرى الزاب (٨٣) ، وقابس التى عرف مسجدها بمسجد الوهبية (٨٤) ، الى غير ذلك من المساجد التى عمرت بها قرى جبل نفوسة والأقاليم المجاورة ، بعد العهد الرستمى — دون اشارة الى ما كانت عليه تلك المساجد من مظاهر العمران أو الزخرف .

هذا ، واذا كانت بقايا مدينة سدراتة ، فى اقليم ورجلة ، التى صارت عاصمة للخارجية بعد سقوط تاهرت ، قبل انتقال الاباضية الى الزاب ، قد كشفت عن وجود أصداء لفخامة المبانى العباسية فى المدينة الصحراوية ، فان أثر تلك الفخامة العباسية كان ضعيفا على كل حال (٨٥) . فكان أخذ امامة تاهرت من حضارة المشرق العباسى كانت بقدر يتناسب مع بساطة مجتمعها الاباضى ، وهذه البساطة هى ما يميز حضارة الرستميين عن حضارة كل من الأغالبة والأدارسة .

---

(٧٩) مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ح/٩١١٣ .
(٨٠) الوسيانى ، كتاب السير ، المخطوط : ص ١٢ — أ .
(٨١) الوسيانى ، السير ، المخطوط ، ص ١٢ — أ .
(٨٢) الوسيانى المخطوط ، ص ٣٥ — أ ، ٩٠ — ب .
(٨٣) الوسيانى المخطوط ، ص ٩٠ — أ .
(٨٤) الوسيانى ، المخطوط ، ص ٩٨ — أ .
(٨٥) انظر ج. مارسيه ، بلاد البربر الاسلامية ... ، ص ١١٥ — ١١٦ .

في فاس :

حضارة وسط بين القيروان وتاهرت :

أما عن تراث الأدارسة الذى لم يبق لنا منه الشئ الكثير ، من : الآثار المادية أو الشواهد الكتابية ، سواء فى تلمسان والمغرب الأوسط أو فى فاس والمغرب الاقصى ، فأغلب الظن أن حضارتهم المادية كانت وسطا ، بين حضارة القيروان التى تكاد تمثل حضارة بغداد بكل مظاهرها ، وبين حضارة تاهرت التى لم تأخذ من العباسيين الا بقدر . فمدينة فاس عند بدء بنائها فى أواخر القرن الثانى الهجرى/٨م كانت أشبه بقيروان عقبة الأول قبل ذلك بأكثر من مائة عام ، كما أن كلا من جامعى عدوتيها : الأشياخ فى عدوة الأندلس الشرقية، والشرفاء فى العدوة الغربية ، كان يذكر ببساطته وصغر حجمه جامع عبد الرحمن بن رستم فى تاهرت الذى بنى قبلهما بحوالى نصف قرن .

حقيقة انه بمشاركة المهاجرين ، من الأندلس ومن بلاد القيروان فى بناء مدينة ادريس بن ادريس ، تمدنت عدوتى فاس بفضل ما حمله معهم هؤلاء : من تراث أهل الأندلس الشامى الأصل ، الذى كان قد بدأ يتأثر بحضارة بغداد ، ومن تراث أهل افريقية الذى ظهرت فيه مؤثرات بلاد مصر والشام والعراق ، ولكن تمدن العاصمة الادريسية الجديدة ، كان محدودا فى ذلك الوقت . على كل حال .

جامع القرويين الادريسى :

فحتى جامع القرويين الذى ما زالت تعتز به مدينة فاس الى اليوم ، كما اعتزت به على طول العصور ، على زعم انه من بناء الأئمة الشرفاء ، رغم ما هو معروف من أنه من بناء الوافدين على فاس من أهل القيروان ، فانه عندما بنى فى سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م كان صغير الحجم ومتواضع البناء — على ما يظهر — هذا ما يفهم من قصة بنائه التى تنص باصرار شديد على أن المال الذى أنفق على البناء كان مالا حلالا لم تدخله شبهة ربح غير حلال من تجارة أو غيرها ، بل ومن الإصرار أيضا على أن مواد البناء ، من : حجر ورمل وماء ، اتت حلالا صافيا من نفس أرض الجامع وليس من غيرها ، مما يترتب عليه بحكم الضرورة ، أن يكون البناء بسيطا بما يتناسب مع تلك الموارد المحدودة .

ومثل هذا يمكن أن يقال أيضا عن جامع الأندلس الذى ينسب بناؤه الى

نفس الأسرة القروية (٨٦) التى يظهر أنها كانت مالكية متشددة ٠

وهذا ما يذكرنا بتشدد اباضية تاهرت وبساطتهم ، وهو الأمر المقبول، اذا ما تذكرنا ان المنطقة كانت منطقة خوارج المغرب الأوائل ، وان الامام ادريس ابن عبد الله عندما نزل على اوربة كان زعيمهم من الواصلية أو المعتزلة ،وهم بعض فرق الاباضية هناك ، ولا بأس أن يكون ذلك الاصرار فى مسألة الحلال وطهارة المال قد أتى من جانب البنائين القيروانيين المالكية كما قلنا ٠ وهنا قد لا يفسر تزمتهم الدينى هذا الا ما عرفوه من تساهل أمرائهم السابقين فى افريقية ٠ فكان تعصب أهل القيروان فى فاس كان رد فعل مقبول لتحرر الأغالبة فى القيروان ، وهذا يعنى أنهم ، وان كانوا قد حملوا معهم حضارة بلادهم الأغلبية ، فانهم لم يكونوا ليسرفوا فى التعبير عن مباهجها ٠ وبذلك يمكن القول أن جامع القرويين الادريسى كان وسطا بين جامع القيروان الأغلبى، الذى عبر عن حضارة افريقية كانت فى سبيلها الى المزيد من التفتح والازدهار، وبين جامع تاهرت الرستمى الذى ظل محتفظا ببساطته المناسبة لتقشف رواده، رغم المؤثرات الحضارية التى وفدت على المدينة من افريقية والعراق ، ومن الأندلس ٠

جامع القرويين الزناتى وتسمية العدوة باسمه :

أما عن جامع القرويين الذى صار مفخرة حقيقية لمدينة فاس فيرجع الى عهد الزناتيين الذين خلفوا الأدارسة ، والذين ارتبطوا بالأندلس - رغبة منهم أو رهبة - بعلاقات وثيقة ، فكان الأثر الأندلسى فيه أوضح من غيره من المؤثرات ، وهو الأمر الطبيعى ٠ وأغلب الظن أن مدينة الضفة الغربية لوادى فاس اشتهرت باسم عدوة القرويين نسبة الى جامعها الذى صار أشهر مساجد المغرب الأقصى وأعرقها ، بعد أن طغى بشهرته على جامع الأدارسة الحقيقى فى المدينة ، جامع الشرفاء ، وحتى دار فى خلد البعض أن جامع القرويين هو جامع ادريس بن ادريس (٨٧) ٠

---

(٨٦) انظر جذوة الاقتباس لابن القاضى ، ص ٢٩ حيث يقدم أن فاطمة أم البنين شرعت فى بناء جامع القرويين ، وان أختها مريم شرعت أيضا فى نفس الوقت ، وهو سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م ، فى بناء جامع الأندلس ، وانظر سده عن جامع الأندلس ، ص ٤٣

(٨٧) انظر عبد الهادى التازى ، جامع القرويين بفاس ، رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة (قدمت لجامعة الاسكندرية سنة ١٩٧١ ، وطبعت فى بيروت ولكننا لم نطلع على المطبوع) ص ٤٧ حيث يشير المؤلف الى العثور على لوحة تذكارية خشبية كبيرة الحجم فيها ذكر لبناء =

فاس الادريسية :

والحقيقة ان هذا لا يتعارض مع تحول فاس ، على عهد الادارسة ، الى مركز حضرى مرموق . واذا كانت كتب التاريخ أو بقايا الآثار لا تجعل من مسجد القرويين أو قصور العدوتين منافسة لجامع القيروان الاغلبى أو لقصور رقادة ، فقد زهت عاصمة الأدارسة بحماماتها وبطواحين مائها ، كما ظهر بعض من أمراء الأسرة الشرفاء بمظهر المتحررين الذين لا يتورعون ، فى سبيل ملاذهم ، عن القيام بالمغامرات الفاضحة ، فى الأماكن العامة (٨٨) .

أما ما يقوله ابن القاضى بمناسبة سكنى ادريس بمدينة فاس من أنه اتتها التجارات واهل الصناعات من كل صقع ، حتى تكامل بها كل متجر ، وسيقت اليها خيرات الأرض . وجمعت فيها طرف الدنيا وتكاملت فيها حتى صار لأجل ذلك . لا عالم أعرف من عالمهم ولا راوية أثبت من راويتهم ، ولامتكلم أجزل من متكلمهم ، ولا قارئ أتقى من قارئهم ... ولا نحوى أعرف من نحويهم ، ولا شاعر أحذق من شاعرهم ، ولا قوال أطرب من مغنيهم ... ، فيبدأ ما حدث فيما بعد منذ أيام زناتة ـ الذين جعلوا من العدوتين مدينةواحدة ـ ومن أتى بعدهم من لمتونة والموحدين ، كما يذكر المؤلف عقب أنشودة الأناشيد هذه (٨٩) .

تلمسان العلوية وغيرها من حواضر الادارسة :

أما عن الأدارسة خارج فاس ، فى تلمسان والمغرب الأوسط ، وفى بلاد الريف أو السوس الأقصى ، فانهم بنوا مدنا وحواضر جديدة ، مثل مدينة العلويين وسوق ابراهيم ، ولكنها لم تبلغ مبلغ فاس فى الكبر والعظمة . واذا كان الأدارسة فى تلك البلاد قد اهتموا بتحقيق الرخاء الاقتصادى عن طريق

= « هذا المسجد » فى سنة ٢٦٣/٨٧٦ م على عهد الامام داود بن ادريس . ومع أن المؤلف يميل الى الأخذ بأنها خاصة بجامع القرويين ، وأنها ليست منقولة من مكان آخر ، وهو الأمر الذى لا تشير اليه المصادر التاريخية ، فالمهم أنه كانت هناك محاولات لنسبة الجامع الى الأدارسة ، سواء كانت اللوحة خاصة بالقرويين أم لا . وانظر ص ٤٨ وهامش ٤ حيث يشير المؤلف الى أن بعض المشارقة من معاصرينا كان يظن أن القرويين من تأسيس الامام ادريس بن ادريس ، ويتضح ذلك بالاشارة الى انه وقف على مخطوطة تفيد أن نسبة القرويين لأم البنين أمر ليس محل اتفاق بين المؤرخين .

(٨٨) انظر فيما سبق ص ٤٦٩ .

(٨٩) أنظر جذوة الاقتباس ، ص ٢٥ .

العناية بالزراعة والتجارة ، فاغلب الظن أن سلطانهم كان روحيا أولا وقبل كل شيء ، وأن أول اهتماماتهم كان نشر الاسلام بين أهل البلاد من البربر ، وهو الأمر الذى شاركهم فيه أئمة تاهرت • أما فى القيروان فقد وقعت تلك الرسالة الروحية على عاتق فقهاء القيروان ، ومرابطى افريقية من الزهاد والعباد •

المحتوى المعنوى :

فى هذا الاطار الذى يمثل مظاهر الحضارة المادية الناشئة فى بلادالمغرب، فى أول عصور استقلالها ، تفتحت براعم الثقافة الاسلامية التى عرفها المشرق العباسى ، وازدهرت الحياة الروحية بشكل فريد• ففى مساجد العواصم ورباطات السواحل ، عقدت حلقات العلم والمناظرة فضلا عن الأسواق التى لم تعدم بين أهلها أجلة المشايخ من الفقهاء والصالحين ، من رجال الدولة ومن العاملين فى سبيل الله • وكذلك كان كثير من بيوت العلماء معاهد حقيقية لطلاب العلم ، بينما كانت قصور الأمراء ودور الخاصة من الناس ، فى عاصمة الأغالبة على وجه الخصوص ، بلاطات ملوكية أو مجالس خلافية مصغرة ، يجتمع فيها أخلاط من الناس ، من العلماء ، والفضلاء ، والأطباء ، والشعراء ، والمنجمين ، والمهرجين ، والمغنيين ، والموسيقيين ، وغيرهم من أهل البلاد ومن الوافدين من المشرق ومن الأندلس •

الحياة الدينية :

فى افريقية :

ولكنه اذا كانت سوق الشعر والأدب والغناء قد نفقت فى بلاد الأغالبة، فان المسائل الدينية كانت الشغل الشاغل لأهل افريقية خلال ذلك العصر ، وخاصة فى القيروان ، مدينة عقبة المستجاب • ومع أن مذهب مالك بن أنس كان هو المذهب السائد فى البلاد عند قيام الدولة الاغلبية ، فان مذهب أبى حنيفة كان قد بدأ يثبت أقدامه فى البلاد ، وخاصة على المستوى الحكومى بصفته المذهب الرسمى لخلافة بغداد • وكان من بين فقهاء القيروان المتبحرون فى كل من المذهبين المالكى والحنفى ، مثل : قاضى افريقية الشهير أسد بن الفرات ، فاتح صقلية (٩٠) •

---

(٩٠) انظر فيما سبق ، ص ٢١٤ وما بعدها •

ما بين المالكية والاعتزال :

وعندما أثار المعتزلة الجدل حول مسالة أسماء الله وصفاته ، وهو الأمر الذى شغل الخلافة في بغداد فى « محنة خلق القرآن » التى امتحن بها فقهاء السنة فى عهد المأمون ثم المحنة المضادة على أيام المتوكل ، كان لذلك الجدل أثره القوى فى افريقية • وفى ذلك يقال ان رجلا أتى من المشرق فسأل بعض شباب القيروان عما كان يتكلم فيه أهل المدينة من العلم ، فقالوا له : « أسماء الله وصفاته » ، مما يعنى أن علوم الدين والبحث عن الحقيقة كانت من أحب الاهتمامات الى قلوب أهل المدينة •

ما بين العلم والجهاد :

وفى الحض على التعلم وتقدير أهل العلم ، ينسب الى البهلول بن راشد (توفى سنة ١٨٣ هـ/٧٩٩ م) ، زاهد القيروان وعالمها فى زمانه ، انه قال : « اذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى العلماء فضرب عليهم بسور من نور ثم يقول : انى لم اضع حكمتى فيكم وانا أريد أن أعذبكم • تعالوا وادخلوا الجنة » • وينسب اليه انه قال أيضا : « ما اعمال البر كلها عند الجهاد فى سبيل الله تعالى الا كبصقة فى بحر ، وما أعمال البر كلها والجهاد عند طلب العلم الاكبصقة فى بحر » (٩١) •

وهكذا كان الجهاد والعلم يمتزجان امتزاجا ، وهذا ما تمثل بشكل رائع فى اسناد حملة صقلية الى أسد بن الفرات الذى كان الى جانب علمه وفقه واحدا من الشجعان • كذلك ظهر الارتباط الوثيق بين العلم والجهاد فى رباطات السواحل ومحارسها ، وأشهرها رباط المنستير قرب سوسة ، حيث انصرف المرابطون الى أعمال الزهد والعبادة ، واخذ العلم عن المشايخ الذين كانوا يلجأون فى أوقات معينة الى ربطهم ، وذلك فى وقت فراغهم ،وهم فى انتظار مجاهدة العدو اذا ما فكر فى النزول فى ثغرهم •

القيروان مهدا ثانيا للمالكية :

ولكنه رغم انتشار فقه أبى حنيفة بصفته المذهب الرسمى للاغالبة ، ورغم شغف الناس والأمراء بالجدل والمناظرة فى مسائل المعتزلة ، وهو الأمر الذى عمل على انشقاق جماعات الاباضية الذين انتشروا فى صحراوات افريقية

---

(٩١) المالكى ، رياض النفوس ، ج ١ ص ١٤٠ •

والذين كان لهم ممثلوهم بين علماء القيروان من غير شك ، فان جل علماء العاصمة الأغلبية كانوا متمسكين بالسنة على مذهب الامام مالك . وهكذا صارت القيروان مهد المالكية الثاني بعد المدينة ، وقبل قرطبة .

وفي ذلك يقال ان بعض العلماء انصرفوا الى دراسة الفقه المالكي وحده ، ولم يحاولوا دراسة شيء غيره . والمثل لذلك أحمد بن نصر الهوارى البربرى ، الذي سمع على محمد بن سحنون ، والذى « كان لا ينظر ولا يتصرف في شيء من العلم غير مذهب مالك ومسائله ، فاذا تكلم فيها كان فائقا » ، وكانت مدونة سحنون هى المرجع الأول والاخير بالنسبة له (٩٢) . ومن النكت التى تعبر بشكل لاذع عن اهتمام المغاربة بالفقه المالكى دون غيره ، تلك الرواية التى تقول : ان اسحق بن نعمان ، الذى كان مالكى المذهب ثم أصبح شافعيا، كان يناقش أحد البغداديين فى الحجاز ، وأراد البغدادى أن يؤيد وجهة نظرة الشرعية فقال : (روى عن النبي صلعم كذا ، فقال له ابن النعمان : فيما ذكر ، مالك لا يرى ذلك) . ودهش الرحل المشرقي لهذا الأمر الغريب ، وقال :شاهت وجوهكم يا أهل المغرب ، تعارضون قول النبى بقول مالك ! (٩٣) .

مالكية القيروان :

دعامات المذهب فى كل المغرب :

ولكن الغالبية من رجـــال المذهب المالكى كانوا من ذوى العقول النيرة وأصحاب الأفق الواسع ، ومن أبرز شخصياتهم التى دكرناها فى ذلك العصر سحنون بن سعيد (توفى سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م) : فعنه يقول أصحاب طبقات علماء افريقية : « اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت فى غيره : الفقه البارع ، والورع الصادق ، والصرامة فى الحق ، والزهادة فى الدنيا ، والتخشن فى الملبس والمطعم ، والسماحة ... وكان لا يقبل من أحد شيئا سلطان أو غيره »(٩٤) . والحقيقة ان كتب الطبقات تلك تعطينا صورة حية عن أحوال هؤلاء العلماء . فمنهم من كان مشرقى الأصل ، ومنهم من وفد من الأندلس ، ومعظمهم رحل الى المشرق للدرس والتعلم . وأصحاب الطبقة الأولى من قدمائهم أخذوا الحديث والفقه على مالك بن انس نفسه ، بينما اخذ أبناء الأجيال

---

(٩٢) انظر الدباغ ، معالم الايمان ، ط. تونس ، ص ٣ - ٥ .

(٩٣) أبو العرب ، طبقات علماء افريقية ، ص ٢١٤ ، وعن معارضة المالكية للاعتزال ، انظر ج ١ ص ٣٦٩ .

(٩٤) انظر المالكى ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٢٤٩ .

التالية عن هؤلاء الأخيرين ، فى تسلسل مضطرد ، حتى صارت القيروان حقا مدينة العلم فى كل بلاد المغرب . وبفضل أعمال هؤلاء العلماء ، وخاصة مدونة سحنون ، التى صارت بعد الكتب الاسدية ـ لاسد بن الفرات ـ أكبر مجموعة فقهية فى المغرب ، تأكد المذهب المالكى فى كل الشمال الافريقى .

ومعظم علماء القيروان هؤلاء الذين كانوا من أهل الزهد والورع والعبادة، كانوا يقومون ، الى جانب ذلك ، بدور تاريخى هام في الرقابة على أمراء الاغالبة ، وذلك حسب مبدأ الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الأمر الذى صار تقليديا فى دولة الاسلام . فحفص بن عمر لم يتردد في الدخول مع جماعة الصالحين على الأمير عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب ، ليطلب منه تخفيف الضريبة الثابتة على الأرض الزراعية بدلا من ضريبة العشر (٩٥) . والشيخ أبو الأحوص أحمد بن عبد الله المكفوف كان شديدا فى كتابه الذى وجهه الى الأمير ابراهيم الثانى بن أحمد الذى عرف باستبداده (٩٦) .

والذى لا حظناه هو أن أمراء الأغالبة أعطوا الأمثولة الطيبة ـ على وجه العمـــوم ـ فاجتنبوا التعرض لهؤلاء الشيوخ ، بل وعملوا على مـــداراتهم واكتساب رضاهم ، كما كان من تقاليدهم التكفل بتجهيز من يموت مـــن المشايخ ، وتكفينه ، وحضور صلاة الجنازة عليه .

فى فاس :

ازدهار المذهب المالكى فى الدولة الزيدية :

واذا كان المذهب المالكى قد ازدهر فى بلاد افريقية والقيروان فى القرن الثالث الهجرى/٩ م ، فاغلب الظن أنه كان المذهب السائد فى بلاد الأدارسة، وخاصة فى عاصمتهم فاس ، وذلك بفضل سكان عدوتيها الوافدين من كل من قرطبة والقيروان . واذا كان علماء فاس لم يحظوا بمثل كتب الطبقات التى حظى بها علماء القيروان وتتشد ، فان كتب الطبقات الأندلسية أعتنت بتسجيل سير كثير من علماء فاس ومناقبهم ، وان كان ذلك فيما بعد العصر الادريسى . واذا كان المفهوم من الروايات الخاصة بقيام دولة الأدارسة ان الامام الاول كان زيدى المذهب (٩٧) ، فان الثابت تاريخيا هو أن الدولة العلوية الادريسية

---

(٩٥) أنظر فيما سبق ، ص ٤١ .

(٩٦) انظر فيما سبق ، ص ١٤٤ .

(٩٧) انظر فيما سبق ، ص ١ ه عن الرجل الذى اغتال الامام ادريس الأول ، وكيف تقرب اليه لانه كان من ... الزيدية ... عبد الهادى التازى فى رسالته عن جامع

كانت سنية المذهب ، ولهذا السبب سماها ابن عذارى بالدولة الهاشمية — تماماً كما هو الأمر بالنسبة لدولة الأشراف الأردنية الهاشمية ، حاليا ٠

وعن اعتداد الامام ادريس الأول بالسنة وبان تكون فاس منارة لها ،قال المتأخرون أنه عندما عزم على بناء مدينة فاس رفع يديه الى السماء ودعا قائلا ، « اللهم اجعلها دار فقه وعلم يتلى بها كتابك ، وتقام بها حدودك ، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتهم »(٩٨) ٠ ومن ذلك ما قيل من أن كاتب الامام ادريس الثاني ، وهو أبو الحسن عبد الله بن مالك كان يلقب بالمالكي الانصاري (٩٩) ٠ وفي ذلك يذكر البكرى أنه كان من جلساء الامام يحيى بن ادريس (٣٠٨ هـ/٩٢٠ م) الفقيه أبو أحمد الشافعي الذى كان يتكلم عنده في العلم (١٠٠) ٠

أما عن تلمسان الادريسية فانها لم تزل على أيام البكرى دارا للعلماء المحدثين وحملة الرأى على مذهب مالك بن انس — رحمه الله(١٠١) ٠ هذا ، كما كان بنو صالح أمراء نكور قـــد نشروا في منطقتهم — فيما بين تلمسان وطنجة — المذهب المالكي (١٠٢) ٠

= القرويين من انه اذا كان الامام مالك قد ناصر دعوة محمد النفس الذكية ٠٠ ، فلم لا يدعو الامام ادريس اليوم الى الاقتصار على مذهب مالك ، وهكذا جاءهم بالموطا فنشره بينهم ٠٠٠ الخ » (انظر جامع القرويين بفاس ، بالآلة الكاتبة ، ص ١٣٩٠) ، فهذا ما لا تؤيده النصوص الخاصة بالامام ادريس الأول ، وان كان بعضها يشير الى ان ذلك كان من أسباب ميل أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط ثم ابنه هشام بعد سنة ١٧٠ هـ الى مذهب مالك وتشجيع علماء الأندلس على دراسته ونشره في بلاده — أنظر الجزنائي زهـــرة الآس ، ص ١٥ ، وقارن دوزى ، تاريخ المسلمين في أسبانيا (بالفرنسية) ، طبعة بروفنسال ، ج ٢ ص ٢٨٧ والهامش ٠

٠وعن انتشار المذهب المالكي في المغرب الأقصى ، فيفهم من رواية الجزنائي انه تم في القرن الرابع الهجرى بفضل الفقيه « دراس بن اسماعيل » الفاسى ، المعروف بابى ميمونة (زهرة الآس ، ص ١٤ ، ١٦) ، الذي كان قد درس في الاسكندرية حوالى سنة ٣٣٩ هـ على يدى الفقيه علي بن أبى مطر (زهرة الآس ، ص ١٥) ٠

(٩٨) ابن القاضى ، جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، طبع حجر ، ص ١٨ ٠

(٩٩) ابن القاضى ، جذوة الاقتباس ، ص ٧ ٠

(١٠٠) البكرى ، ص ١٣٢ ٠

(١٠١) البكرى ، ص ٧٧ ٠

(١٠٢) البكرى ، ص ٩٢ ، ٩٧ ٠

وهكذا يمكن القول أنه بفضل نشاط امراء الادارسة ومن دار في فلكهم من حكام الأقاليم ، أخذ الاسلام السني ، وخاصة على مذهب مالك بن انس - مذهب أهل الحجاز - في الانتشار في اقاليم المغرب الاقصى ، بين الريف والسوس ، وهي الأقاليم التي كانت بالأمس القريب ارضا خصبة لبذر بذور مذهب الخوارج الصفرية ، والتي ظلت بيئة صالحة لنشأة عدد من المذاهب المحلية المنحرفة التي سماها الكتاب بالزندقة ، مثل : زندقة برغواطه ، في تامسنا ، وزندقة حاميم في بلاد الريف • فرغم أن بلاد تامسنا (الشاوية حاليا) كانت قد ضمت الى المملكة الادريسية على عهد الامام الأول ، فان زندقتها ظهرت بقوة منذ سنة ٢٢٧ هـ/٨٤١ م على أيام يونس بن الياس ، أى على أيام الأدارسة واستمرت الى أيام المرابطين والموحدين (١٠٣) ، بينما ظهرت زندقة حاميم في جبال تطوان في أواخر القرن الثالث الهجرى /٩ م الذى نتحدث عنه ، وان لم يقدر لها البقاء ، الا الى نهاية صاحبها حاميم الذى قتله في سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م عسكر عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس(١٠٤)•

واذا كان صحيحا ما يراه جورج مارسيه ، من : أن كلا من حركتي يونس ابن الياس وحاميم بن من الله - بما قامتا به من تحريف للنصوص الاسلامية التي نقلت الى اللهجات البربرية المحلية ، وما صاحب ذلك من ابتعاد عن تعاليم الاسلام - كانت تعبر عن معارضة المغاربة (البربر) لصبغ البلاد بالصبغة المشرقية ، التي ستزدهر عندما يستقل المغرب عن المشرق (١٠٥) . وهو الأمر المقبول ، فانه يعنى أنه يكفي الأدارسة فضلا أنهم اهتموا بنشر الاسلام السني الصحيح بين أهل البلاد المتحصنين بمواطنهم النائية • وتلك كانت القاعدة الصلبة التي شيدت عليها المالكية صرحها العالي ، في المغرب الأقصى : في فاس على وجه الخصوص ، وفي القرويين بخاصة - لا يضير الأدارسة أن يكون بناء المالكية قد اكتمل بعد عصرهم ، ولا أن يكون قد شارك في اقامته فقهاء القيروان أو علماء الأندلس •

في تاهرت :

والى جانب الأدارسة ، كان لأئمة تاهرت الاباضية نصيبهم في الرار

---

(١٠٣) انظر البكرى ، ص ١٣٤ وما بعدها ، الاستبصار ، ص ١٩٨ وما بعدها ، ج• مارسيه بلاد البربر الاسلامية ••••• ، ص ١٢٦ •

(١٠٤) انظر البكرى ، ص ١٠٠ ، الاستبصار ، ص ١٩١ - ١٩٢ • ج• مارسيه بلاد البربر الاسلامية ••••• ، ص ١٢٨ •

(١٠٥) بلاد البربر الاسلامية ص ١٢٨

دعائم الاسلام بين قبائل المغرب الأوسط وصحراوات المغرب الأقصى ، بمشاركة اخوتهم وأصهارهم المدراريين صفرية سجلماسة • ويكفي النظر في كتب السير المنقبية لمشايخ الاباضية ، وخاصة سير مشايخ جبل نفوسة ، مثل كتب أبي زكريا والدرجيني وأبي الربيع الوسياني ، التي تظهر بشكل المنافس لكتب أبي العرب والمالكي والدباغ في علماء القيروان ، لنرى الى أي حد عظيم ازدهرت مذاهب الخوارج الاباضية في طول بلاد المغرب وعرضها ، لا يقلل من ذلك ما أصابهم من انشقاقات أو خلافات كانت تعمل – في حقيقة الأمر – على اثراء الفكر الديني عن طريق جدية البحث عن حلول مقبولة لما كان يجد من مشاكل الحياة اليومية العارضة •

الأئمة : قادة قدوة في العلم والعمل :

فالأئمة الرستميون كانوا المثل الطيبة والقدوة الحسنة لأتباعهم وأبناء شعبهم ، في العلم وفي العمل جميعا ، على المستويين العام والخاص • فهم أئمة مجاهدون يعيدون سيرة السلف الصالح قبل أن يكونوا حكاما ، ويقضون أوقاتهم ما بين العبادة والنظر فيما يعود بالخير على العباد والقضاء فيما ينجم بينهم من خصومات •

والامامة عندهم هي الرئاسة الدينية التي تضع نصب عينيها تحقيق مصالح الرعية الأخروية والدنيوية • فالامام هو القائد ، سواء في الصلاة أو الجهاد ، وفي كليهما لا يرجو الا ثواب ربه : فهو عابد متقشف ، متقلل من الدنيا ، ليس له منها ، فضلا عن مصحفه وأدوات حربه ، ألا ثيابه وفراشه • وهو يعمل بنفسه في قضاء حاجاته ، لا يعاونه في ذلك – حسبما تقضي الضرورة – الا بعض خدمه أو عبيده (١٠٦) •

ورغم ما وصف به الأئمة من العدل والعلم ، فهم لا يستغنون عن مشورة المشايخ من أهل العقد والحل ، لا ينقص من أهمية هذا الأمر ما ثار من النزاع بين الامام عبد الوهاب وبين النكارية الذين أرادوا اشتراط ألا يقضي في أمر الا بعد مشوره • ورغم ما ظهروا به من التقشف والاقلال من الدنيا ، لقد كانوا مضرب المثل في الجود على المحتاجين والعطاء للفقراء ، وخاصة في أوقات المحل والشدة • أما عن تمسكهم بآداب الدين فتمثل ، أكثر ما تمثل ، في

---

(١٠٦) أنظر فيما سبق ، ص ٣٠٣ عن الامام الأول عبد الرحمن بن رستم •

أمرهم بالمعروف ، نهيهم عن المنكر ، فكأنهم في تشستهم هذا مبدأ اقتربوا من المعتزلة الذين جعلوه أصلا من الأصول ، وأغلب الظن ان هذا كان من أسباب معرفة بعض فرقهم بالمعتزلة وبالواصلية (١٠٧) • وعلى الجملة كان الرستميون أصحاب تاهرت ، في نظر رعيتهم من أهل البوادى والصحراوات أئمة العدل القائمين بالحق •

مشايخ المذهب معلمون للشعب :

هكذا اختلفت صورة أئمة تاهرت عن صورة أئمة فاس : فبينما شرف الأدارسة بانتمائهم الى البيت العلوى العظيم ، علا شان الرستميين بفضل تمسكهم بآداب الدين وعملهم بتعاليم الكتاب والسنة ، وانتصارهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر • فكان الدين حسبهم ، والعمل فى سبيل الله سببهم ، مما جعلهم فى نظر اتباعهم الائمة المثاليين حقا • فأبو الربيع الوسياني عندما يعرض لسيرة الشيخ أبى مسور يصلتن ، ويسجل رواية تنسب الى الشيخ وهو يقول فيها ناعيا : « عشت حتى لم أجد فى الامام ما أريد ، ولا فى نفسى ، ولا فى الاولاد ، ولا فى الاخوان ، ولا فى القبيل ، قولوا للمسلمين يدعون على » يشكك فى صحة هذه الرواية : على أساس أن أبا مسور كان يعيش زمان الامام عبد الوهاب • هذا ، ولو أن البعض رأى أن هذه الرواية متأخرة عن عهد أبى مسور وليست له (١٠٨) — فكأنه من غير المقبول انتقاد المجتمع المثالى أيام الأئمة •

ومثل الأئمة بالنسبة لمشايخ المذهب كمثل المشايخ بالنسبة لعامة الشعب ، فقد كانوا يجسدون المثل الأعلى للاباضية فى الفترة التى نعالجها ، كما فيما بعدها من العصور • فقد كان المشايخ هم القدوة الحسنة لعامة الناس ، فى العلم والجهاد والتجارة والزراعة ، وعلى الجملة فى كل المعاملات ، تماما ، كما كان الحال بالنسبة لمشايخ القيروان •

اصول المذهب الاباضى وتطوره :

الوهبية الاباضية والخوارج ومسمياتهم :

وفيما يتعلق بالحياة الروحية وأصول المذهب ، فالمعروف ان الاباضية

---

(١٠٧) وانظر فيما سبق ، ص ٣٢٤ •

(١٠٨) كتاب السير ، المخطوط ، ص ٢ — ب ، وعن ابى مسور انظر : ابو زكريا المخطوط ، ص ٢٥ — ب •

في تاهرت كانوا قد طوروا أفكارهم حتى اقتربت من أفكار أهل السنة ، وبذلك لم يعودوا يحبون الانتساب الى الخوارج الذين اعتبروهم من الصفرية ، وان لم يستنكفوا الانتساب الى « المحكمة » (١٠٩) . أما عن التسميات التي أحبوا أن يصفوا أنفسهم بها ، فهي : المسلمون ، والمؤمنون ، والموحدون ، وأهل الحق والعدل ، أهل الاسلام . وبمناسبة الانشقاق الأول الذي حدث على عبد الامام عبد الوهاب فقد تسمى من بقي الى جانبه « بالوهبية » ، في مقابل خصومهم الذين أنكروا امامته ، فسموا بالنكار ثم يأتي من انشق بعدهم من الخلفية والنفاثية ، كما رأينا (١١٠) ، ممن أطلقوا عليهم تسميات جارحة أخرى ، مثل : « المذبذبون » و «المخالفون» و «المخادعون» و «الحلالون» ، مما نجده في كتب السير .

أصول الوهبية المذهبية :

والذي يفهم من النظر في سير المشايخ - كما في كتب الوسياني - وأقوال العلماء وفتاوى الفقهاء ان المذهب الاباضي الوهابي كان يرتكز على عدد من الأصول والتقاليد ، المتمثلة في :

١ - القرآن الكريم ، رواية عبد الله بن مسعود .

٢ - الاحاديث النبوية والسنن ، رواية عبد الله بن عباس بصفة خاصة .

٣ - أقوال الراشدين باستثناء عثمان بن عفان الذي وقفوا منه موقفا شديد العداء (١١١) .

٤ - أقوال علماء المذهب الأوائل من أهل البصرة ، مثل : أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة .

٥ - مآثر أئمة تاهرت من الرستميين .

٦ - وأخيرا تأتي سير وأقوال مشايخ أهل الدعوة على طبقاتهم ، فهم الذين يعرفون «مكنون العلم» الذي لا يقال لقوم جهال »(١١٢) .

---

(١٠٩) الوسياني ، المخطوط ، ص ٤٢ - ب ، وعن اعتبار الخوارج من الصفرية انظر ص ٤١ - ب .

(١١٠) انظر فيما سبق ، ص ٣٢٠ ، ٣٣٣ ، ٤٧٣ وغيرها .

(١١١) السير الوسياني ، ص ٤١ - ب .

(١١٢) السير للوسياني ، ص ٣ - ب .

افكارهم السياسية :

أما عن فكرهم السياسى وهو وثيق الصلة بالفكر الـ ... ، فقد كان يقوم على الأسس التالية :

١ ـ الاعتراف بامامة أبى بكر وعمر ، وكذلك علي : وهو الأمر الغريب على الخوارج . ولا بأس من أن ننظر الى ذلك على أنه نوع من التقية التى لم يأخذوا بها الا فى وقت متأخر ، كما يظهر فى سير القرن الخامس والسادس (١١٣) . ودلك أن أباضية أواخر القرن الثالث الهجرى /٩م كانوا يقفون من علي موقفا معاديا مثل موقفهم من عثمان أو أكثر ، وهذا ما تنص عليه الروايات الخاصة بوقعة مانو (١١٤) .

٢ ـ رفض امامة عثمان رفضا باتا ، وعدم الاعتراف بامامة علي أو الوقوف منها موقفا غامضا ـ على الأقل .

٣ ـ أئمة تاهرت هم النموذج المثالى لحكم الجماعة ، بصرف النظر عن آراء فرق المنشقين منهم .

٤ ـ حكم الأئمة أو حكم الجماعة ، بشكل أعم ، له ٤ (أربعة) أدوار ، هى :

(أ) حالة « الكتمان » أو «السكوت» ، وهى حالة التخفى والاعتزال ، والمثل لها « هو الأمر السابق الى النبى عليه السلام فى مكة » ، وليس على الجماعة فيها « الأمر والنهى» ، ورئيس الجماعة فى هذه الحالة يسمى « امام أحكام» (١١٥) .

(ب) حالة « الظهور » ، والمثل لها حين هاجر النبى الى المدينة (١١٦) ، وهى نفس حالة الرستميين بعد بناء تاهرت . هذا ولو أن بعض مشايخ جبل نفوسة كان يقول أن أهل الجبل فى حالة ظهور بعد سقوط امامة تاهرت ، لأنهم غير مستخفين ولا مقهورين ، وهو الأمر الذى كان له معارضوه(١١٧) .

---

(١١٣) انظر الوسيانى ، ص ٤١ ـ ب .
(١١٤) أنظر فيما سبق ، ص ١٤٢ .
(١١٥) انظر السير للوسيانى ، ورقة ١٩ ظ ، ٢٠ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ١٣٦ ظ .
(١١٦) السير للوسيانى ، ص ١٩ ـ ب .
(١١٧) السير للوسيانى ، ص ٧٠ ـ أ .

(ج) حالة «الدفاع» ، مثل « دفاع أهل النهروان للراضي بحكم عمرو ابن العاص وعبد الله بن قيس بغير انابة الى الحق ، ولا اجابة الى العدل ، ولا اقامة الى امرة ، فدافعوا الراكنين الى الدنيا والملك (١١٨) » .

(د) حالة « الشراء » (١١٩) : والمفهوم أنها حالة جهاد ذوى الاهواء . وهى الأولى من حالات الجهاد ـ تبعا لتصنيفهم لطبقات الجهاد ـ عملا بمبدأ الأمر بالمعروف . واذا كانت حالة « الشراء » قريبة من حالة « الدفاع » فالغالب الظن أن المقصود بالدفاع هو القتال لأغراض سياسية فى سبيل الحفاظ على كيان الجماعة ، وأن المقصود بالشراء هو الجهاد من أجل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو من الأعراض الدينية الأساسية المعروفة عندهم .

ويضيف فقهاء الاباضية ، فيما بعد سقوط امامة تاهرت الرستمية ، حالة خامسة هي :

(هـ) حالة « السائبة » وهى قريبة من حالة الكتمان الاولى ، السابقة على حالة الظهور ، وهى فى الحقيقة تعنى حالة تفسخ الجماعة واضمحلالها ، وذلك « لتضييع الناس القيام بالحق » (١٢٠) حتى لو كان فيهم الامام . وذلك حسبما روى عن الشيخ أبى مسور يصلتن من أنه قال : « عشت حتى لم أجد فى الامام ما أريده . ولا فى نفسى ، ولا فى الاولاد ، ولا فى الاخوان ، ولا فى القبيل . قولو للمسلمين يدعون على »(١٢١) ، مما يعبر عن عدم الرضاء عن سيرة الجماعة ـ جماعة أهل الحق ـ التى انحرفت عن تعاليم المذهب ، ولم تعد تحقق الغرض من قيامها .

اعمال المشايخ من قواعد المذهب :

المثل الاخلاقية :

وفى سبيل تحقيق المجتمع المثالى عمل مشايخ الاباضية ـ مثلهم مثل مشايخ

---

(١١٨) السير للوسيانى ، المخطوط ، ص ١٩ ـ ب .

(١١٩) الوسيانى ، المخطوط ، ص ١٩ ـ ب .

(١٢٠) السير للوسيانى ، المخطوط ص ١٩ ـ ب

(١٢١) انظر ما سبق ص ٥١

القيروان — على سيادة الأخلاق الفاضلة ، و نشر الآداب الاسلامية ، التقاليد الحميدة في المعاملة بين الناس ، سواء في الحديث أو في تجنب المحرمات ففي ذلك كانت لهم أقوال ما ثورة ، مثل . « يموت الرجل ولا يقاتل ، و يموت الرجل ولا يتعرى » (١٢٢) • هذه الآداب الاباضية كانت قد اكتسبت عراقتها منذ أيام الرستميين ولدينا المثل الرائع لذلك في نهاية قاضي جبل نفوسة عمروس بن فتح الذى أسر في وقعة مانو ، فرفض أن يطلب العفو ، ولم يخش التنكيل والتعذيب ، وكان كل ما طلبه من آسريه آلا يعروه من سراويله بعد أن يقتلوه (١٢٣) • هذا ، وكان من آدابهم ذم البخل والحض على الجود ، واخفاء الصدقة ، كما حرصوا على البعد عن الريبة فيما يتعلق بالمال والطعام • فقد كان من المتعارف عليه عندهم ان المال المريب يوقع الفتنة بين أبناء الجماعة(١٢٤)، وأن المتاجر المريبة تفسد الشراء في السوق لمدة ثلاثة أيام •

اجلال العلم وتقديسه :

علوم الدين :

ولقد حرص المجتمع الاباضي على نشر العلم ، ليس بين الرجال فقط بل وبين النساء أيضا ، حتى بلغت بعض النساء درجة من العلم بحيث أصبحت أقوالهن من المأثورات المقررة عند أهل المذهب • وفي ذلك يقال ان بنت أبي مسور يصلتن ، معاصر الامام عبد الوهاب كانت تجادل والدها في العلم ، وكان مما أثر عنها ان أقوال المسلمين أفضل منهم . « لأن المسلمين يموتون . وتبقى أقوالهم وعلمهم ، وينتفع بها بعدهم • ومن جهة الجسم والعرض • الجسم أفضل ، ومن جهة الاسلام والعلم فالاسلام خير الخلق »(١٢٥) •

واذا كان ذلك اهتمام مشايخ جبل نفوسة بالعلم ، فلا شك أن اهتمام أئمة تاهرت بالعلم كان أعظم • فالامام الأول عبد الرحمن بن رستم كان يقضي ليله ساهرا مع سراجه يقرأ العلم ويدون الكتب في المذهب • وبلغ اهتمام ابنه الامام عبد الوهاب بالعلم الى حد انه كان لا يبخل في دفع الثمن الباهظ في شراء كتب المشايخ من المشرق ، رغم انه لم يستفد منها الا بالقليل من

---

(١٢٢) الوسياني ، المخطوط ، ص ١٢٨ — ب •
(١٢٣) أنظر فيما سبق ، ص ٣٩١ ، الوسياني ، ص ٣ — أ •
(١٢٤) الوسياني ، ص ٤ — أ ، ٤ — ب ، ١٢ — ب ، ١٣ — أ •
(١٢٥) الوسياني ، المخطوط ، ص ٦ — ب •

المسائل الجديدة التي كان يستطيع ان يدركها باجتهاده وحده ٠ ولقد بلغ حرص عبد الوهاب أيضا في الاطمئنان على تحصيل أبنائه العلم ، بالقدر الذي يتناسب مع بيت الأئمة ، الى درجة أنه منع ابنه أفلح من الذهاب الى جوجو للتجارة في بلاد السودان بعد أن امتحنه في مسائل الربا فغابت عنه مسألة واحدة منها (١٢٦) ٠

علم النجوم والحساب :

ولم يكن أئمة الرستميين متفقهين في أصول المذهب فقط ، بل كانوا على دراية تامة ببعض العلوم النافعة لأمور الحكم والدين ، مثل الحساب والنجوم ٠ وفي ذلك يقال ان الامام افلح بن عبد الوهاب كان لايباريه في علم النجوم الا أخته التي كانت تسهر الليل معه في حساب ما سوف يدخل خزانته من الأموال الواردة من أسواق تاهرت (١٢٧) ٠

وهكذا كانت تاهرت في المغرب الأوسط ، كما كانت القيروان في افريقية ، مدينة العلوم ٠ وفي ذلك يقال ان الشيعة الفواطم عندما استولوا على العاصمة الرستمية ، وجدوا بها مكتبة (برجا) مليئة بالمخطوطات التي لم يحفظوا منها الا بكتب سياسة الملك والحساب ٠

الخلاصــــة :

من هذا العرض الملخص للواقع السياسي والحضاري لبلاد المغرب في القرن الثالث الهجري ٩م ، أي في الفترة التي تمثل لب تاريخ ممالــــك الأغالبة والرستميين والأدارسة ، يتضح الآتي :

١ ـ ان البلاد من أدناها الى اقصاها كانت تتقدم نحو عصر نهضة حقيقية ، على المستويين : المادي والفكري ٠

٢ ـ ان مادة تلك النهضة الوليدة كانت مستجلبة من المشرق ، مهد العروبة والاسلام ومركز دولة الخلافة ، وذلك مع سيل الوافدين من هناك على الأسر الحاكمة المشرقية الأصل في بلاد القيروان وتاهرت وفاس ، حيث اتخذوا أوطانا جديدة ، أو مع المغاربة والأندلسيين العائدين الى بلادهم من المشرق ، من رحلة الحج أو طلب العلم ٠

---

(١٢٦) انظر فيما سبق ، ص ٤٩٨ ٠

(١٢٧) انظر فيما سبق ، ص ٣٢٨ ٠

٣ ـ ان تلك النهضة المغربية وهى تتفتح فى دور التكوين ، كانت أشبه ما تكون بفسيفساء مبرقشة تعبر ـ فى اختلاف أشكالها والوانها ـ عن كل المتناقضات التى عرفها المشرق ، وخاصة على مستوى الفكر الدينى والسياسى المناهض لدولة الخلافة .

٤ ـ ان ذلك الازدهار الفكرى كان ينمو بالتالى فى حضانة دول المغرب الكبرى الثلاث كنتيجة طبيعية لاستقلال تلك الدول عن الخلافة ، مما جعل حركة التطور تتقدم طرديا : مع زيادة الاستقلال ، وتبلور الشخصية الذاتية لكل قطر من تلك الأقطار .

٥ ـ كنتيجة عكسية لذلك الازدهار المعنوى فى كنف الاستقلال السياسى ، عانت دول المغرب من حركة التجدد الفكرى ذات الايقاع السريع ،وخاصة على المستويات الدينية السياسية ، وبدأت هى الأخرى تعانى من آفة التفتت والانقسام الداخلى التى فتت فى عضدها وهدت من قواها .

٦ ـ وبناء على ذلك تظهر الصورة السياسية الحضارية الحقيقية لبلاد المغرب فى أواخر القرن الثالث الهجرى /٩م ، وهى تتطابق بشكل عجيب مع نظرية ابن خلدون الشهيرة فى العمران ، التى تقول ان الحضارة هى قمة العمران والمؤذنة بفساده وانها تمهد لاضمحلال الدول حتى تفسح المجال لدول جديدة ، تحل محلها (١٢٨) .

فكان الحضارة الناشئة التى لم تكن قد أخذت سماتها المميزة بعد ، لا ماديا ولا معنويا ، كانت قد استنفدت أغراضها بعد ان أخذت تتآكل ذاتيا، بفضل الصراعات السياسية الداخلية التى أضعفت كلا من دول المغرب الثلاث . كما أن مراكز تلك الحضارة فى افريقية وفى المغربين الأوسط والأقصى كانت ـ رغم العمل الاحيائى الكبير الذى قامت به ـ قد أظهرت التناقض الواضح بين المترفين من أهلها وبين أهل الخشونة من سكان البوادى والصحـــراوات المحيطين بها ، ممن كانوا يتطلعون اليها بشىء من النهم ويتربصون بها الدوائر ، بشىء من نفاد الصبر . وهذا من نظريات ابن خلدون ، أيضا ، فى كيفية سقوط الدول وقيامها (١٢٩) .

---

(١٢٨) انظر المقدمة ، فصل فى انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة .

(١٢٩) انظر المقدمة ، فصل فى حدوث الدولة وتجددها كيف يقع .

وهكذا يمكن القول انه اذا كان التفتت السياسى قد عمل على الازدهار الحضارى المحلى ، فان هذا الأخير قد أدى الى نوع من الانفصام بين الأسر الحاكمة وبين جماهير الرعية ، الأمر الذى ادى بحكم الطبيعة الى صراعات اقليمية وعصبية أنهكت كلا من الممالك الثلاث • فكان الموقف فى بلاد المغرب، فى أواخر ذلك القرن الثالث الهجرى/٩ م كان يتطلب عملية تجديد فى هيكل البناء السياسى والحضارى ، وهى العملية التى قام بها الفاطميون بمعاونة قبائل كتامة ، اهل الجبال الأشداء ، والتى عجز الأغالبة عن مواجهتها كما راينا ، فكان من الطبيعى أن يعجز بالتالى كل من الرستميين والأدارسة عن الوقوف أمامها • وبذلك وقع على عاتق الفاطميين ، ابتداء من أوائل القرن الرابع/١٠ م ، العمل على تحقيق وحدة المغرب تحت راياتهم من جديد — وهو الأمر الذى سنحاول ايضاحه بشىء من التفصيل فى حديثنا عن الظروف التى ادت الى قيام دولة الفاطميين •

الفصل السابع

قيام الدولة الفاطمية

وإعادة الوحدة إلى بلاد المغرب تحت رايات آل البيت من الحسينيين

(٢٨٠ هـ/٧٩٧ م - ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م)



نهاية الدول المستقلة الأولى وقيام الدولة الفاطمية :

صراع الأغالبة من اجل البقاء : « المطاولة » :

يعتبر قيام الدولة الفاطمية فى بلاد كتامة جزءا من تاريخ الدولة الأغلبية المتأخر . فلقد رأينا كيف أنفق أواخر أمراء الأغالبة الثلاثة ، وهم : ابراهيم (الثانى) بن أحمد وابنه أبو العباس ثم حفيده زيادة الله (الثالث) ، ، نشاطهم وأموال بلادهم فى كفاح الداعية الفاطمى أبى عبد الله الشيعى ، وكيف انتهى ذلك الكفاح بعد حوالى اثنتى عشرة سنة ، من ٢٨٥ هـ/٨٩٨م الى ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م ، بمقتل الأغالبة ، وهروب زيادة الله الثالث نحو المشرق ، تاركا عاصمته وقصوره مفتوحة على مصاريعها لاستقبال قوات الداعى الفاطمى المظفرة .

وفترة الاثنتى عشرة سنة هذه التى تحسب ضمن تاريخ الأغالبة (١) ، تدخل أيضا فى تاريخ قيام الدولة الفاطمية ، وهذا أمر طبيعى يحدث فى فترة الصراع بين الدول المنهارة وبين القوى الناهضة لها . وهذه الحقبة الزمنية يطلق عليها ابن خلدون ، بالنسبة للدولة المستجدة ، مصطلح (المطاولة) بمعنى الصبر فى الكفاح ، وهى تطول وتقصر تبعا لصمود كل من الطرفين

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ١٤٦ وما بعدها .

المتصارعين في حلبة القتال (٢) • ونظرية ابن خلدون في (المطاولة) تعني في حقيقة لأمر عدم وجود فواصل حدية في التاريخ ، وهو الأمر المعقول : طالما أن الزمن هو مجرى الأحداث التاريخية ، وطالما كان الحدث التاريخي وليد تفاعل عدد عديد من العوامل التي تتراوح في طبيعتها ما بين مادية محسوسة . ومعنوية ليس من السهل ادراك كنهها • واذا كان من المعروف — في نظريات قيام الدول وسقوطها — أن الدولة الناشئة تبدأ حياتها ، مثلها مثل الأفراد ، وهي تحمل جراثيم ضعفها في ثنايا أسباب وجودها . يمكن القول ان فترة المطاولة هذه يجوز أن تطول على المستوى الداخلي الى أكثر من زمن الصراع الفعلي الأخير من أجل البقاء •

وفي هذا المجال يمكن القول انه رغم الانجازات السياسية والحضارية الكبيرة التي حققها الأغالبة ، فان سلطانهم لم ينجح في أن يمد جذوره بعمق في أرض افريقية • وربما كان الدليل القوي على ذلك أن الأغالبة لم يكونوا محبوبين في القيروان نفسها ، حيث واجهوا كثيرا من الانتفاضات ، حتى أنهم تركوا منذ وقت مبكر قصر ولاة افريقية فيها ، وبنوا لأنفسهم — على بعد عدة كيلومترات نحو الجنوب — قصر العباسية ، قبل أن يبنوا على مسافة أبعد — قصور الرقادة • وفي مدينتهم الملكية الخاصة هذه أقاموا بعيدا عن الناس يحيط بهم حرسهم ، من : السودان ، والصقالبة ، وبعض المخلصين من الجند العربي ، فكان ذلك أشبه ما يكون بانفصال روحي بينهم وبين اهل العاصمة • أما عن الصراعات مع قبائل البربر ، ومع الجند العربي فانه يدرج حقيقة في فترة (المطاولة) حيث كانت الدولة الأغلبية في بعض الاحيان قاب قوسين من الضياع أو أدنى •

والحقيقة هي أن قيام قبائل كتامة ، تحت رايات الداعي وباسم المهدي ، لم يكن أكثر من انتفاضة من تلك الانتفاضات الكثيرة التي واجهها الأغالبة ، لا يفرقها عنها الا بعد أرض كتامة عن قاعدة ملك الأغالبة ، ثم التفاف الكتاميين بعزم صادق ونية خالصة حول الداعي الذي أحسن تنظيمهم وتدريبهم عسكريا وروحيا ، في الوقت الذي بدأت أرض افريقية تميد تحت أقدام زيادة الله الأخير وأهل دولته ، الأمر الذي توج الثورة الكتامية الفاطمية بالنجاح •

---

(٢) مقدمة ابن خلدون ، فصل في أن الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة ، تحقيق علي عبد الواحد ، الفصل ٥٠ ج ٢ ص ٨٧٣ وما بعدها •
وانظر محمد عبد الهادي شعيرة في تاريخه لدولة المرابطين حيث طبق النظرية باستاذية فذة •

نجاح الدعوة الفاطمية فى ارض كتامة

جذور التشيع فى المغرب :

بناء على ما تقدم يمكن القول انه اذا كان قيام الدولة الفاطمية فى المغرب، بمعونة قبائل كتامة ، يعتبر - على المستوى السياسى - أمرا من الأمور الدارجة، فى البلاد التى حوت فى القرن الثالث الهجرى/٩م ، ثلاثة دول مستقلة كبيرة الى جانب عدد عديد من الامارات المحلية فان نجاح الدعوة الفاطمية فى المغرب، وقتئذ ، كان من الأحداث المستغربة حقا . فمذهب الفاطميين كان من مذاهب الشيعة الغلاة ، بينما كانت المذاهب السائدة فى البلاد سنية خالصة تتراوح ما بين المالكية المتشددة والاباضية المتعصبة ليس فى بلاد القيروان وتاهرت فقط ، بل وفى بلاد الأدارسة العلويين أيضا .

ومما يزيد فى الأمر غرابة أن بربر كتامة ، فى أحواز جبل أوراس ، أحد معاقل الخوارج شرق بلاد الجزائر حاليا ، كانوا اباضية ، ولكن على مذهب النكار الذين رفضوا استبداد أئمة تاهرت بالحكم ، ونادوا بالمشاورة فى الأمر ، وهو ما يناقض مع الفكرة الرئيسية لدى الشيعة الاسماعيلية ، ومنهم الفاطميون . التى تقول بعصمة الامام المهدى ، والتى تجعل من التشيع - سياسيا على الأقل - مذهب تسلط واستبداد .

وهكذا تتضح حقيقة أن المغرب كان أرضا صالحة لبذر بذور الدعوات الناهضة للخلافة ، كما كان ملجأ أمينا لكل الخارجين على الدولة ، سواء كانوا من الخوارج أو من الشيعة . حقيقة ان المذهب الخارجى الذى ازدهر فى المغرب ، كما لم يزدهر فى غيرها من البلاد ، ظهر فى الفترة التى نعالجها وكأنه المذهب القومى لأهل البلاد من البربر ، ولكن نجاح المذهب الاسماعيلى ،المضاد له من حيث الأصول السياسية والدينية ، يدل على أن المسألة لم تكن مسألة أفكار أو عقائد اختص المغاربة باعتناقها . فكأن المغرب كانت له ميوله الانفصالية وآماله فى الاستقلال عن دولة الخلافة ، وأنه كان من بين وسائله لتحقيق ذلك اعتناق المذاهب السياسية الدينية الناهضة للدولة ، لا فرق فى ذلك بين المالكية المعتدلة أو الاباضية المتزمتة أو الشيعية الغالية .

بداية الدعاية الشيعية فى كنف عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (ت ١٦١هـ / ٧٧٨ م) فى افريقية :

والحقيقة ان الشيعية وان لم تحقق نجاحا كبيرا فى المغرب حتى أواخر القرن الثالث الهجرى/٩ م ، فانها كانت قد بدأت دعايتها فى وقت مبكر ، ربما

مع بداية الدعوة الخارجية عقب أعمال القمع الشديدة التي قام بها الأمويون في المشرق . وان نشاطها كان قد وصل الى أقاصي المغرب، وحتى بلاد الأندلس. فبعد فترة لاضطرابات الخارجية في افريقية التي أدت الى قيام الدويلات الخارجية في تاهرت وفي سجلماسة ، اضطربت نفوس الناس في المغرب ، وترددت ما بين التشاؤم والتفاؤل . يفهم ذلك من أقوال قاضي افريقية ،المحدث المؤرخ المعروف ، عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (توفي سنة ١٦١ هـ/٧٧٨م)، اذ يعبر عن القلق والاستسلام للأمر الواقع ، في قوله . « سينقطع الجياد من كل البلاد وسيعود الى افريقية (٣) ، وهي المقالة التي ستتحور ، مع مرور الوقت الى حديث ينسبه البعض الى النبي(٤) . وهو بعد ذلك يعبر عن الأمل في نهاية الاضطرابات ، كما نرى ، وحلول الأمن والسلام في ربوع البلاد ، عندما يفكر في الامام العادل الذي ينشر الأمن والرخاء ، وهي فكرة الامام المعصوم التي تبلورت حولها كل الأفكار السياسية الشيعية ، فيما بعد .

فتنسب الروايات الى نفس قاضي افريقية عبد الرحمن بن انعم أنه كان يقول : « ولتضربن القبائل من الآفاق الى افريقية ، لعدل امامهم ، ورخص أسعارهم ، وفتح فيهم » ويستطرد النص فيقول ، ان ابن أنعم قال : « ان الامام الذي ينشر العدل بافريقية يليهم سبعا وثلاثين سنة » ، مما كان موضوع جدل الكتاب فيما بعد ، اذ قال البعض . ان ذلك الامام العادل يلي افريقية ثلاثا وعشرين سنة (٥) ـ وكأن القائل محقق تاريخي .

بداية الدعاية الشيعية في المغرب الأقصى :

هكذا تكون فكرة المهدي المنتظر قد ظهرت في افريقية ، أول ما ظهرت ، في شكل سني ، فكانت تمهيدا لظهورها في شكلها الغالي ليس في افريقية فقط ، بل وفي أقاصي المغرب . ففي بلاد السوس الأقصى ، في منطقة نفيس ـ حيث بنى عقبة بن نافع أول مسجد ظل مصونا مكرما ، كما يقال ، الى أيام البكري (٦) ، وحيث استقر فرع من فروع الادارسة (٧) ـ نزل رجل من أهل مدينة نفطة من قسطيلية من بلاد الزاب ، اسمه محمد بن ورستد ، عند قبيل من

---

(٣) أبو العرب ، طبقات علماء افريقية ، ص ٦ .
(٤) أنظر كتاب الاستبصار ، ص ١١٢ .
(٥) أنظر أبو العرب ، طبقات علماء افريقية ، ص ٦ .
(٦) البكري ، ص ٦٣ .
(٧) البكري ، ص ١٦٠ .

البربر يعرفون ببني لماس ، وذلك قبل دخول ابي عبد الله الشيعي افريقية . ودعا هذا الرجل هؤلاء البربر الى سب الصحابة ، كما يقول البكرى ، وأحل لهم المحرمات ، وزعم أن الربا بيع من البيوع ، وزادهم في الأذان ، بعد أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا خير البشر ثم بعد حي على الفلاح ، حي على خير العمل ، آل محمد خير البرية .

ويستطرد البكرى فيقول ، انهم على مذهب هذا الرجل الى أيامه . ولكنه يضيف أنهم يعتقدون أن الامامة في ولد الحسن ، لا في ولد الحسين . ولما كان أمير الجهة ادريسيا ، هو ادريس بن محمد بن جعفر ، فان الجغرافي الأندلسي يقول : « فان صح الحديث الذى ذكرنا ، فانه المراد به هؤلاء (أى الأدارسة) ، والله اعلم »(٨) .

الدعاية الشيعية في تخوم افريقية والمغرب الأوسط :

وأغلب الظن أن البكرى وقع على بعض كتب الشيعة الفاطميين ، مثل كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان الذى يؤرخ للدعاية الفاطمية قبل أبى عبد الله الداعي ، فيقول ان الامام جعفر الصادق كان قد أرسل الى المغرب في سنة ١٤٥ هـ/٧٦١ م داعيين من رجاله ، هما : أبو سفيان ، والحلواني ، « وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة من آل محمد » ، وأن أبا سفيان نزل بمرماجنة وانه صاحب الفضل في تشيع من تشيع من أهل مرماجنة (قرب الحدود الشرقية للجزائر) والاربس (قريب القيروان) ونفطة (في بلاد الجريد) (٩) . أما الحلواني فنزل في سوجمار في جبال بجاية ، وعلى يديه تشيع كثير من قبائل كتامة ونفزة وسماتة (١٠) قبل أبي عبد الله بـ١٣٥ سنة . وبذلك لم يكن من الغريب أن يتأثر قاضي افريقية ابن أنعم ، الذى كان معاصرا لابى سفيان والحلواني ، بفكرة المهدى المنتظر التى كانا يدعوان اليها سرا ، فتظهر بين فقهاء أهل السنة في القيروان نفسها ، كما لم يكن من الغريب أن تنتشر في المغرب الأقصى قبل ظهور أبى عبد الله ، كما ينص البكرى .

---

(٨) البكرى ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٩) افتتاح الدعوة ، ص ٥٥ ، وانظر الهوامش ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٠٣ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٤١ والهامش ، ص ٥٠ .

(١٠) افتتاح الدعوة ، ص ٥٧ ، وتضيف رواية النعمان الى ذلك (ص ٥٨) ان الحلواني كان يقول : بعثت انا وابو سفيان فقيل لنا : اذهبا الى المغرب فانما تأتيان أرضا بورا فاحرثاها واكرباها وذللاها الى ان يأتيها صاحب البذر فيجدها مذللة فيبذر حبه فيها .

وليس من الغريب أن يكون أمراء الأدارسة ، في هذه الجهات ، قد استغلوا تشيع البربر هناك لآل البيت واعتناقهم للمذهب الاسماعيلي ،تحولوا هذا التشيع الى صالحهم وقالوا ان الامامة في ولد الحسن ، لكي يثبتوا مركزهم الذي كان قد زعزعه الفاطميون ٠

وهكذا ، فاذا كان نجاح الشيعية الفاطمية في المغرب يمثل نقلة عنيفة على المستوى المذهبي ، فمن المقبول أن يكون ذلك النجاح قد سبق التمهيد له بزمن طويل ٠

واذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي أن نعطي هذه الدعاية الشيعية السابقة على قيام الدولة الفاطمية أكبر من حجمها الحقيقي ، فقد كانت لا جنة في المناطق المعزلة البعيدة ، كما كانت تتستر خفية في دوائر أهل السنة ، تماما كما كانت نشأة الدعاية الخارجية في بداية أمرها في القيروان (١١) ٠ ولكنه اذا كانت الخارجية قد لاقت من النجاح ما جعلها مذهبا قوميا في المغرب ، فان الشيعية الفاطمية وجدت ، في مقابل ذلك ، أن بقاءها في المغرب مؤقت ولا شك ٠ وبناء على ذلك فانها وجهت أنظارها نحو المشرق ، الى أن نجحت في النقلة الى مصر ٠ وكما كان قيام الفاطميين في المغرب حدثا خطيرا في تاريخه ، كان انتقالهم الى مصر حدثا لا يقل خطورة بالنسبة للمغرب أيضا اذ ترتبت عليه نتائج سياسية واقتصادية وبشرية تردد صداها حتى المغرب الأقصى ٠ ولكل ذلك اعتبر الكتاب قيام دولة الفاطميين نقطة تحول حاسمة في تاريخ افريقيا الشمالية ، مما دعا جورج مارسيه الى تسميتها بالأزمة الفاطمية (١٢)٠

الفاطميون ، نسبهم وشيء عن مذهبهم :

التسمية:

ينتسب الفاطميون الى فاطمة الزهراء بنت الرسول وزوج علي بن أبي طالب ، ومن اسمها اتخذوا لقبهم ٠ وبناء على ذلك فهم شيعة علويون، ولكنهم عندما انتسبوا الى فاطمة ارادوا أن يؤكدوا شرعية وراثتهم لخلافة النبي، على

---

(١١) وهنا نشير الى أنه لا يجب أن تؤخذ مأخذ الجد مقالة القاضي النعمان التي تسجل ان ابراهيم بن احمد كان لا يرغب في قتال أبي عبد الله الداعي لأنه كان يتشيع وكثير من "أهل بيته" ـ انظر فيما سبق ، ص ١٤٦ وص ٤٧٣ ٠

(١٢) بلاد البربر الاسلامية - ص ١٣٢ وما بعدها

عكس غيرهم من العلويين الذين ينتسبون الى على ولكن من زوجة اخرى غير فاطمة ، مثل محمد بن الحنفية صاحب الشيعة الكيسانية . كذلك اراد الفاطميون أن يحددوا وراثة الخلافة فى هذا الفرع الفاطمى السوى فى مقابل من أرادوا أن تكون الخلافة مشاعة فى آل النبى ، ومن ثم تصبح من حق أقرب الرجال الى النبى ، وذلك كما فعل العباسيون عندما بدأوا دعوتهم للرضا من آل محمد ثم استخلصوا الخلافة لأنفسهم ، باعتبارهم حفدة العباس ، عم النبى وأحق الناس بوراثة تركته ، لا ينافسهم فى ذلك العلويون ، حفدة ابن العم .

والغريب فى أمر التسمية أن مؤسسى دولة كتامة العلوية الشيعية لم يكونوا أول من تلقب بلقب الفاطميين ، فلقد سبقهم الى حمل اللقب أحد الأدعياء من ثوار البربر فى اقليم شنتبرية بوادى الحجارة فى الأندلس فيما بين سنة ١٥١ هـ/٧٦٨م و ١٦٠ هـ/٧٧٧ م على عهد عبد الرحمن بن معاوية الداخل . فلقد أراد الرجل الذى كان يسمى بـ « شقيا » ، والذى عرف بعراقة نسبه فى البربر ، أن يعطى لثورته نوعا من الشرعية فاستغل كون اسم والدته فاطمة ونادى ، بين أعوانه ، بانه فاطمى علوى ، ولهذا السبب سماه الكتاب بـ « الدعى الفاطمى » (١٣) .

هذا ، كما ظهر اسم الفاطميين بين قرامطة الشام فى نفس الوقت الذى كان يدعو فيه أبو عبد الله الشيعى للامام المهدى ، وذلك عندما تسمى به سنة ٢٨٩ هـ/٩٠٢ م جماعة من بنى الأصبغ اثر انضمامهم الى حركة القرمطى زكرويه ابن مهرويه(١٤) .

اصول التشيع :

والحقيقة ان أصول الشيعية الرئيسية سياسية بشكل عام ، والأساس الشيعى فى السياسة هو مبدأ شرعية الحكم . فعلى وبنوه هم الخلفاء حقا ، او الأئمة بوجه أصح ، أما غيرهم فمغتصبون . وذلك أن الامام — عندهم — هو وريث بعثة النبى ، ويتم تعيينه بتوجيه الهى عن طريق وصية سرّية تنتقل

---

(١٣) انظر ليفى بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، بالفرنسية ؛ ج ١ ص ١١٢ - ١١٤ .

(١٤) ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٣ .

من امام الى امام ، وهؤلاء الأئمة معصومون (من الخطأ) (١٥) • وبناء على ذلك جمعت الشيعيه مبدأ الوراثة الملكي ، ومبدأ النبوة مما ترتب عليه أن أصبح وجود الامام ضروريا لكل زمان ومكان (١٦) •

ولما كان التشيع موضع اضطهاد الخلافة فقد أصبحت له حياة مستترة تمثلت على عدم الكشف عن معتقداته ، والتسامح في عدم تنفيذ تعاليمه فى وقت الخطر ، وهذا ما عرف بـ « التقية » • ومع مرور الوقت أصبحت التقية ، مثل الكتمان الذى رأيناه عند الخوارج من الاباضية (١٧) ، من أهم سمات فرق الشيعة الغلاة (١٨) • ولما كان وجود الامام ضروريا لكل زمان ومكان فان

---

(١٥) انظر النعمان بن محمد ، دعائم الاسلام ، تحقيق آصف فيضى ، القاهرة ١٩٦٣ ، حيث يعرض رأى الفاطميين فى الامامة ، فينقد آراء أهل السنة والمرجئة والمعتزلة والخوارج المبنية على مبدأ الاختيار ، الذى يجعل من أهل الاختيار هم الأئمة عـــلى ظاهر هـــذا المعنى (ص ٤٠) • ويقول ان الامامة يجب أن تكون « بالنص والتوقيف » • تمـــاما كالنبوة التى انتقلت بالنص من آدم الى نوح حتى عيسى ومحمد فكل نبى مضى قد أوصى الى وصى يقوم بأمر أمته من بعده ثم يضيف أن الناس أحوج ما كانوا الى الاوصياء والأئمة لارتفاع الوحى وانقطاع النبوة (ص ٤٣) • وأول الهداة بعد النبى هو على بن أبى طالب ثم الأوصياء من بعده ، واحد بعد واحد (ص ٢٢) •

(١٦) انظر النعمان بن محمد ، دعائم الاسلام ، حيث نجد أن « معرفة امام الزمان والتصديق به والتسليم لامره » أصبح أصلا من أصول الايمان (ص ٤) ، وان ولاية على ابن أبى طالب تعتبر « آخر الفرائض » (ص ١٥) ، وان الأئمة بعده هم آل البيت الذين يؤدى الأول منهم الى الامام الذى يكون بعده الكتب والعلم والسلاح (ص ٢٠ — ٢١) ، وان عليا والأوصياء من ولده هم أعراف الله بين الجنة والنار ، لا يدخل الجنة الا من عرفهم وعرفوه ، ولا يدخل النار الا من أنكرهم وأنكروه (ص ٢٥) • وهكذا فلو « أن الرجل عمل أعمـــال البر كلها ، وصام دهره وقام ليله ، وأنفق ماله فى سبيل الله ، وعمل بجميع طاعات الله عز وجل عمره كله ، ولم يعرف نبيه الذى جاء بتلك الفرائض ، فيؤمن به ويصـــدقه ، وامام عصره الذى افترض الله عز وجل عليه طاعته فيطيعه ، لم ينفعه الله بشىء من عمله » (ص ٥٣ — ٥٤) • وبناء على كل ذلك فـ « من مات لا يعرف امام دهره حيا ، مات ميتة جاهلية » ، كما رووا عن النبى (ص ٢٥) • وانظر هنرى ماسيه ، الاســـلام (بالفرنسية) ، مجموعة ارمان كولان ، باريس ١٩٤٥ ، ص ١٥١ •

(١٧) انظر فيما سبق ، ص ٥٢٢ •

(١٨) انظر النعمان بن محمد ، دعائم الاسلام ، حيث يقول جعفر الصادق لبعض أصحابه : « اكتم سرنا ولا تذعه ، فانه من كتم سرنا فلم يذعه ، أعزه الله به فى الدنيا والآخرة ، ومن أذاع سرنا ولم يكتمه ، أذله الله به فى الدنيا والآخرة ، ونزع النور من بين عينيـــه » (ص ٥٩) • وفى ذلك ينسب الصادق الى والده محمد بن على انه كان يقول « ان التقيـــة من دينى ودين آبائى ، ولا دين لمن لا تقية له ، وان الله يحب أن يعبد فى السر ، كما يحب أن يعبد فى العلانية ، والمذيع لأمرنا كالجاحد له » (نفس الصفحة) •

آخر الأئمة لم يمت ، كما يرون ، بل هو غائب ، وينبغي أن يعود في يوم ما ، وهذا ما يعرف عندهم بـ «الغيبة » و بـ «الرجعة»(١٩) . وفكرة عودة الامام هي التي تمخضت عن الحركات المهدية ، اذ أصبح « المهدى » الذى يملأ الدنيا عدلا ، قبيل آخر الزمان ، هو أحد افراد البيت العلوى وسليل فاطمة ، وهو « المنتظر » . وعلى أساس هذه الأصول الشيعية أقام المهدى عبيد الله دولته الفاطمية فى المغرب ..

التشيع الفاطمي الاسماعيلي :

وحقيقة المذهب الفاطمى انه من مذاهب الشيعة الغلاة ، أى الذين يخلعون على الامام صفات الهية ، تضعه فوق مستوى البشر . فهم يقولون ان روح الله تحل فى الأئمة حلولا شبه كلى ، وذلك على عكس جمهرة الشيعة الامامية الذين يقولون بأن هذا الحلول جزئى ، أو المعتدلين من الزيدية الذين يقولون بأن الامام لا يتمتع الا بتوجيه الهى فقط .ولهذا رأى الأخيرون أن الامامة . بعد امامهم الخامس زيد بن على زين العابدين بن الحسين ، تجوز لاى علوى — وهو المبدأ الذى سيأخذ به الحسنيون من العلويين بعد أن استأثر أشقاؤهم الحسينيون بالأحقية فى الامامة (٢٠) .

والفاطميون فرقة من فرق الشيعة الاسماعيلية — مثلهم مثل القرامطة والحشاشين — الذين يتمسكون بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو السابع فى سلسلة الأئمة ، ولهذا عرفوا أيضا بـ « السبعية » . وهم يقولون فى ذلك أن الامام اسماعيل يختم قائمة الأئمة الشرعيين الظاهرين ، وذلك على عكس غالبية الشيعة الامامية الذى يضعون مكان اسماعيل اخاه الأصغر موسى الكاظم ثم خمسة من الأئمة الظاهرين بعده ، آخرهم محمد بن الحسن ابن على العسكرى ، فهو الامام الثانى عشر ، ولهذا تعرف الامامية أيضـــا

---

(١٩) انظر ابن خلدون ، المقدمة ، فصل ٢٧ — مذاهب الشيعة ، فى حكم الامامة ، ج ٢ ص ٧٠٠ — ٧٠١ ، ماسيه ، الاسلام ص ١٥٣ .

(٢٠) وفى احقية الحسينيين من الفاطميين فى الامامة دون الحسنيين ، يقول النعمـــان ابن محمد . « فكان الحسن اسبق من الحسين ، ثم نقل الله عز وجل الامامة الى ولد الحسين ، كما نقل النبوة من ولد اسحق الى ولد اسماعيل ، وعليهم اجماع الأمة بالشهادة لهم ، وانها جارية فيهم ، ولم يجمعوا بمثل هذه الشهادة لأحد سواهم » (دعاء الاسلام ، ص ٣٥ — ٣٦) . ومن قانونية خروج الامامة من ولد الحسن الى ولد الحسين ، على أساس انه ما كان يجوز للحسين : « ان يردها الى ولد اخيه دون ولده » ، لأن ولده أقرب أليه رحما من ولد اخيه (انظر ص ٣٧) .

ـ « الاثنا عشرية » . والامام الثاني عشر الذي تغيب في سرداب دارهم بسامرا (سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م) هو المهدي عندهم ، وهو الامام المنتظر (٢١) . وهي النظرية التي عدلها احد متكلميهم وهو النوبختي ، بحيث تصبح أكثر منطقية ، فجعل المهدي المنتظر من سلالة الامام الثاني عشر وليس هو نفسه (٢٢)

العلاقة بالقرامطة :

وسبب توقف الاسماعيلية عند الامام السابع ، وانكارهم الأئمة الخمسة الباقين ، هو ما حدث حوالي سنة ١٤٣ هـ/٧٦٠ م عندما وجد الامام السادس جعفر الصادق ان ابنه الأكبر اسماعيل غير جدير بالامامة فأوصى بها لابنه الأصغر موسى الكاظم ، فلم يقبل اتباع اسماعيل خلعه ، وظلوا مخلصين له رغم ذيوع وفاته (٢٣) ، كما قام الدعاة منهم بنشر الدعوة لحساب أبنائه الذين انتشروا في بلاد فارس والشام . ولقد ظل نشاط الاسماعيلية خلال قرن من الزمان دينيا فقط ، ولكن أحد الدعاة تمكن من توجيهه نحو أغراض سياسية ، وعن هذا الطريق تمكن الداعي قرمط (٢٤) من أن يجمع حوله جماعات من العمال والفلاحين في أسفل العراق ممن كانوا قد شاركوا في ثورة الزنج (٢٥٥هـ / ٨٦٨ م — ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م) ، واستغل طموحهم نحو المساواة التي كانوا يطالبون بها ،ونظمهم — باسم الامام المستور — في طبقات من أهل المعرفة (٢٥) . ونجحت الحركة وانتشرت من العراق الى جريرة العرب ، وانقلبت

---

(٢١) أنظر ابن خلدون ، المقدمة فصل ٢٧ — في مذاهب الشيعه ... ، ج ٢ ص ٧٠١ .

(٢٢) أنظر ابن النديم ، الفهرست ، فصل متكلمي الشيعة ، طـ. التجاريه ، ص ٢٦٥ .

(٢٣) كانوا يدعون الى الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وانه حي لم يمت — اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٢٩ .

(٢٤) واسمه حمدان بن الأشعث ، اما عن لقبه قرمط فقيل لأنه كان يقرمط في سيره اى يقارب بين خطواته ، وقيل لأنه كان احمر البشرة تشبيها له بالقرمد اى الطوب الأحمر ، كما قيل ان الاسم مشتق من التدليس (فهو المدلس) ، وهو اصل الكلمة الآرامي (انظر المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ٢٩) . هذا ، ويورد ابن الاثير رأيا يقول ان أصل هذا الاسم هو اسم رجل نبطي كان قد لجأ اليه الداعي في الشام وهو « كرميتة » التي خففت الى قرمط (ابن الأثير ، سنة ٢٧٨ ، ج ٧ ص ١٧٨) .

(٢٥) ماسيه ، الاسلام ، ص ١٥٧ . وفي درجات المعرفة ، أنظر ما يقوله القاضي النعمان في دعائم الاسلام ، في فصل ذكر الايمان ، حيث يقول : ان الايمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل ، فمنه التام المنتهي تمامه ، ومنه البين نقصانه ، ومنه الراجح رجحانه ، كما يقول ان الايمان مقسّم على الجوارح ، مثل : القلب والسمع واللسان والعينين واليدين والرجلين وغيرها (ص ٤) . وبتمام الايمان يدخل المؤمنون الجنة ، وبرجحانه وبالزيادة فيه يتفاضل =

حزئيا الى نوع من الشيوعية البدائية ، انتهت باعمال متطرفة ديما بما ـ كما حدث عندما أغاروا على مكة وأخذوا الحجر الأسود الى هجر ، الا سماء ، في موسم سنة ٣١٧هـ/٩٢٨ م ، ولم يعيدوه الا بعد أن تدخل امام الفاطميين في افريقية عبيد الله المهدى الذى آنكر عليهم ما فعلوه (٢٦) ٠

هكذا كانت الصلة وثيقة بين الفاطميين وبين القرامطة ، وان كان الفاطميون قد رفضوا استغلال القرامطة لمذهب الامام المكتوم من أجل ثورتهم الاجتماعية، فانهم استفادوا من الدعاية القرمطية من أجل تحقيق أهدافهم السياسية (٢٧) ~ فبينما كان قرمط يدعو في العراق الى مذهب الامام المستور ، كان هناك داع آخر في المغرب الأوسط يثير حماس بربر كتامة باسم المهدى الفاطمى ، هو : ابو عبد الله الشيعى ٠

الكتمان وظهور الأدعياء :

والذى يستحق الملاحظة هنا هو أن مطالبة الشيعة بأن تكون الامامة أى الخلافة في آل البيت من العلويين ثم التجاؤهم الى ستر الامام وكتمان العقيدة ، كل ذلك ، كان سببا في دخول كثير من المغامرين والأدعياء في المذهب ،ومنهم من انتهز الفرصة فعلا ونجح في استغلال الدعوة لصالحه ، ومنهم من انحرف عن مبادىء المذهب أو حرفها مما جلب النقمة والسخط على الأئمة (٢٨) ٠

= المؤمنون في الدرجات عند الله ٠٠٠ (ص ٩) ٠ وفي الفرق ما بين الايمان والاسلام يقول : الاسلام هو الظاهر ، والايمان هو الباطن الخالص في القلب (ص ١٢) ٠ والاسلام هو الاقرار من العبد بينما الايمان أشمل فهو الاقرار والمعرفة التى هى من الله (ص ١٣) ٠ والمعرفة من الله حجة ومنة ونعمة ، فمن لم يجعله الله عارفا فلا حجة عليه ٠ وعن علي بن أبي طالب : « أدنى مايكون (المرء) مؤمنا أن يعرفه الله حجته في أرضه وشاهده على خلقه فيعتقد امامته فيقر له بالطاعة » (ص ١٣) ٠ فكان معرفة الامام من درجات المعرفة العالية ٠

(٢٦) أنظر ابن الأثير ، سنة ٣١٧ ، ط٠ بولاق ، ج ٨ ص ٧٧ ٠

(٢٧) عن الصلة بين الحسين الأهوازى ، أحد مشاهير الدعاة لمذهب محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق وبين حمدان قرمط الذى استجاب لدعوته ، انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، وعن القرامطة أنظر (ط٠ ١٩٦٧ ، ص ١٥١ وما بعدها) ٠ وعن الصراع بين القرامطة وبين الفاطميين على أيام المعز وكيف قدح القرامطة في نسب الفاطميين فقالوا انهم أولاد القداح ـ أنظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، سنة ٣٦٢ ج ٤ ص ٧٤ ٠

(٢٨) انظر النعمان بن محمد الذى يتخصص في دعائم الاسلام فصلا يهاجم فيه أولئك الذين ضلوا ومرقوا وهلكوا « من أهل هذا الأمر » ممن استحلوا المحارم وادعوا النبوة والبوا الأئمة فنالوا سخطهم والبراءة منهم (ص ٤٨ وما بعدها) ٠ وفي ذلك ينسب الى أبى =

الجدل حول صحة النسب :

واذا كان الأمر كذلك فليس من المستغرب أن تكون صحة نسب الفاطميين أنفسهم موضع شك أثار الكثير من الجدل بين الكتاب ، حتى قال بعضهم انهم أصلا من المجوس أو الثنوية (٢٩) • ومن الطاعنين من يقول بأنهم يهود أصلا ، على زعم أن سعيدا (المهدى) كان فى الحقيقة ابنا لحداد يهودى من أهل سلمية من منطقة حمص ، وأن الحسين بن أحمد الذى تزوج أمه ، عندما استقر فى سلمية اثر فراره من العراق ، رباه وأدبه • ولما لم يكن للحسين ولد فانه عهد الى ابن امرأته سعيد هذا (٣٠) ، فكأن الفاطميين جمعوا بين المجوسية واليهودية جميعا • ولقد وجد هذا الطعن آذانا صاغية من العباسيين فى بغداد ، والأمويين فى الأندلس فعملوا على اذاعته ونشره فى طول بلادهم وعرضها ، وذلك كسلاح حاولوا النيل به من خصومهم الفاطميين، ومواجهة دعوة الامام المعصوم التى كانت قد استهوت قلوب الكثيرين ممن

جعفر محمد بن على قوله . « رحم الله عبدا حببنا الى الناس ولم يبغضنا اليهم ، أما والله لو يروون محاسن ما نقوله ولا يحرفونه ولا يبدلونه علينا برأيهم ما استطاع أحد أن يتعلق عليهم بشىء ، ولكن أحدهم يسمع الكلمة فيحط اليها عشرا ويتأولها على ما يراه ••• » (ص ٦١) •

(٢٩) انظر آراء الطاعنين فى نسب الفاطميين وكيف يذكرون انهم أصلا من مجوس فارس الذين ينتسبون الى ديصان الثنوى والديمون القداح جدهم ، وأنهم ادعوا الانتساب الى والد محمد بن اسماعيل الامام ، كما ادعوا أنهم من ولد عقيل بن أبى طالب وأصحاب هذا الرأى يقولون ان عبيد الله المهدى ، هو فى حقيقة نسبه • سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن ميمون القداح بن ديصان الثنوى الأهوازى • المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ط• القاهرة ١٩٦٧ ، ج ١ ص ٢٢ ـ ٣٣ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ (عن النسب اليهودى) ، ص ٤١ (عن النسب الى ولد عقيل) ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، وانظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، سنة ٣٦٢ هـ ، ج ٤ ص ٧٥ وما بعدها - وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٩٠ : حيث الرواية الأندلسية المنسوبة الى مؤرخ الأندلس الرازى ، وفيها أن عبيد الله هو بن محمد بن عبد الرحمن بن البصرى ، من سلمية ، وهى نفس التسمية التى يطلقها عليه الطبرى • « ابن البصرى » - والظاهر أنها نفس التسمية التى اطلقها عليه صاحب تاريخ بغداد (انظر الحلة السيراء ، ١ ص ١٩٠ وهـ ٤ ، ص ١٩١) • وانظر الفصل الخاص برأى الطاعنين فى صحة النسب تاريخ الدولة الفاطمية ، لحسن ابراهيم حسن ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٥٩ بعدها •

(٣٠) اتعاظ الحنفا ، ط• ١٩٦٧ ، ص ٤٢، وقارن النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٧٩ ما بعد (ما قيل فى نسب المعز وآبائه) -

تاقت نفوسهم الى زوال عهد الجور وحلول عهد العدل الموعود (٣١) •

ومع أننا لا نميل الى الدخول في ذلك الجدل الذى أورده ابن الاثيروموقفه منه موقف المتأمل المتعاطف مع صحة النسب ، نكتفي بالاشارة الى أن الشيعة أنفسهم ، ممن اعترفوا بصحة نسب الفاطميين ، اختلفوا فى تسلسل هذا النسب (٣٢) • والواضح أن مثل هذا الجدل لا طائل وراءه ، ولذا فنحن نفضل الأخذ بنظرية ابن خلدون الذى يتحرج ، رغم سنيته المالكية المعروفة ، من جرح زعماء الأمة وأعلامها التاريخيين حتى من أولئك الذين زعموا العصمة والهداية ويحكم بعدالتهم • فالذى نراه أن ابن خلدون وان كان قد ساق ، فى معرض الدفاع عنهم ، بعض الأدلة أو القرائن التى ليست فوق مستوى النقد ، فهو يريد ، في الحقيقة ، أن يقرر أن نجاح الدعوة — وهو الأمر الواقع باذن الله — يعنى الكفاية والعدالة ، وبالتالى صحة النسب (٣٣) •

---

(٣١) عن جمع عضد الدولة البويهى سنة ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م — ٣٧٢ هـ/٩٨٢ م للعلويين فى بغداد وتوقيعهم على أن المعز لدين الله ليس منهم ، أى ليس علويا ، أنظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ١٩٦٧ • ج ١ ص ٣٠ • وعن المحضر العباسى الاول الذى كتب فى بغداد سنة ٤٠٢ هـ/١٠١١ م على عهد الخليفة القادر فى القدح فى نسبهم ، أنظر اتعاظ الحنفا ، ص ٣٢ — ٣٣ (وعن ابن الأثير ص ٣٦ — ٣٧) ، ص ٤٤ (نص المحضر) ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ط• بولاق ، ج ٨ ص ١٠ • وعن طعن خليفة الأندلس الأموى الحكم المستنصر فى نسب العزيز أنظر ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٤٩ •

(٣٢) فقد قيل عن المهدى انه • محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن اسماعيل ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي أبي طالب (ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ حيث يذكر نسبا علويا ثانيا) • وتذكر بعض الروايات المغربية انه : محمد بن اسماعيل بن الحسن ابن علي بن جعفر بن علي بن موسى بن جعفر (بن محمد) الصادق بن علي (زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبى طالب (الاستبصار ص ٢٠٣) • ويقول ابن حماد الصنهاجي ، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، انه : عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن اسماعيل ابن جعفر بن محمد بن علي (بن أبى طالب) (ط• الجزائر ١٩٢٧ ، ص ٦) ، أما ابن خلدون ، فيقول انه : عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن اسماعيل بن محمد المكتوم (اول الأئمة المستورين) ، العبر ، ج ٤ ص ٦٢ — ٦٣ (طبعة بيروت ، ١٩٦٨) • المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ط القاهرة ١٩٦٧ ، ج ١ ص ١٦ ، ص ٣٥ حيث يأخذ المقريزى بصحة النسب ، وكذلك ص ٥٢ — ٥٣ وص ٥٠ (حيث ينقل هذا النسب عن ابن خلدون) •

(٣٣) انظر المقدمة ، ط• التجارية ، فصل فى علم التاريخ وما يعرض للمؤرخين من المغالط — فى الدفاع عن الادارسة ، ص ٢٣ ، وعن الفاطميين ، ص ٢١ ، وكذلك التاريخ ، ج ٤ ص ٣١ ، وعن مهدى الموحدين ص ٢٦ • وانظر ما ينقله عنه المقريزى فى اتعاظ الحنفا ، ط ١٩٦٧ ، ص ٤٤ — ٤٩ •

والحقيقة ان الفاطميين أنفسهم لم يعودوا يهتمون كثيرا بمسألة صحة النسب تلك ، بعد أن اصبحت مسألة الشرعية ثانوية عندهم . فلقد استخدموا التأويل واستعانوا بنظرية الحلول ، وأصبحوا يرون أن الامامة عهد اختياري يعطى للمختار من بين العارفين بالعلم الالهي (اللدني) عن طريق استنارة العقل اى تلقى حصته العناية الالهية بالوراثية(٣٤) . وما ينسب الى المعز لدين الله ، بعد أن دخل القاهرة ، من أنه استقبل وفود المهنئين وقال لهم ، وهو يسل سيفه من غمده وينثر عليهم دنانير ذهبه « هذا حسبي وهذا نسبي »(٣٥) ، يؤكد مقالة شرعية الأمر الواقع ، ويثبت أن الجدل في صحة نسب الفاطميين الذى بدأ به ابن الأثير ، وبلوره ابن خلدون ، وأخذ بسه المقريزى (٣٦) كان قد استنفد أغراضه ولم يعد ذا موضوع .

تنظيم الدعاية الفاطمية ، وبداية أبى عبد الله الشيعى :

تبين بداية الدعوة التى قام بها أبو عبد الله الشيعى (٣٧) كيفية التنظيم السرى للحركة الفاطمية . هذا ما يتضح من الرواية المغربية المفصلة التى يقدمها كتاب الاستبصار منسوبة الى الداعى نفسه (٣٨) ، ومنها يفهم أن وصول أبى عبد الله الى منصب الداعى تم بمحض الصدفة ، ولكنها كانت صدفة مرسومة . على كل حال . حدث ذلك فى العراق مركز الحركة ، ومن حيث كان يوجه الدعاة الى خراسان واليمن والمغرب . ولم يكن أبو عبد الله غريبا عن التشيع ، فهو يمنى من مدينة صنعاء (٣٩) ، أخذ العلم فى بلاده التى كانت

---

(٣٤) أنظر ماسيه (عن ما سينيون) ، الاسلام ، ص ١٥٨ . وفى التأويل انظر دعائم الاسلام ، فصل ولاية الأئمة ، ص ٢١ وما بعدها . وفى مسألة الحلول يقول ابن خلدون ، المقدمة ، فصل ٢٧ فى مذاهب الشيعة فى حكم الامامة ص ١٩٨ « وهو ما يوافق مذهب النصارى فى عيسى صلوات الله عليه » .

(٣٥) أنظر ابن خلكان ، ترجمة المعز ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، سنة ٣٦٢ ، ج ٤ ص ٧٧ .

(٣٦) أنظر عرض هذه الآراء فى اتعاظ الحنفاء ، ط. ١٩٦٧ ج ١ ص ٤٣ وما بعدها .

(٣٧) الحسين بن احمد بن محمد بن زكريا الذى اشتهر بالمحتسب أيضا ، وكذلك بالمعلم المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ط. القاهرة ١٩٦٧ ، ج ١ ص ٥٥ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣١ — ٣٢ . وقارن افتتاح الدعوة للقاضى النعمان ، ص ٥٩ ، وابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد ، ص ٧ .

(٣٨) الاستبصار ، ص ٢٠٣ ، وقارن افتتاح الدعوة للقاضى النعمان ، ص ٣٥ : حيث نجد نفس القصة تقريبا ، منسوبة الى داعى اليمن ابن حوشب ، وأنظر رواية الوراق فى ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٤ ، والمقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٥ — ٥٩ .

(٣٩) افتتاح الدعوة ، ص ٦١ ابن عذارى ج ١ ص ١٣٤ .

من معاقل الشيعة على أئمة المذهب ، وكان يعتقد في وجود الامام المهدي ولكنه كان يجهل زمنه •

وذات يوم ، بينما كان صاحبنا يصلي ويقرأ القرآن على ضفاف «دجله» حضر رجل مهيب الطلعة ،عليه مظاهر النبل والوقار ، واستقر فوق بساط فرشه له غلامه بجواره على ضفة النهر • وبطريقة ماهرة دخل الشيخ الجليل في نقاش مع أبي عبد الله حول تفسير ما كان يقرأه من آيات القرآن ، وتمكن بفضل علمه ودرايته بالجدل والمناظرة من الاستحواذ على قلبه حتى سأله المزيد من علمه • وحسب الأساليب الفنية التي يعرفها الدعاة تركه الشيخ — وهو في ذروة التعطش — مؤجلا ذلك الى فرصة أخرى ، وامتطى ظهر دابته منصرفا ، وخلفه غلامه • وعندما علم أبو عبد الله — من الغلام — أن الشيخ ليس الا محمد (بن اسماعيل بن الحسن ••) الطالبي تعلق بركابه ، وضرع اليه أن يعلمه السبيل الى معرفة الامام •

التنظيم السري الاثنا عشري :

وبفراسة الشيخ وثق من اخلاص هذا التابع المتعطش الى المعرفة ، وأشار عليه بأن يسير معه الى منزله • وفي الدار وجد أبو عبدالله الشيعي شابا هو ابن الشيخ ووصيه . وهو عبيد الله المهدي ، ومعه أحد عشر رجلا من الدعاه ، فضمه الشيخ اليهم ، وبذلك أصبحوا اثنى عشر نقيبا (٤٠) • هؤلاء الدعاة

---

(٤٠) انظر كتاب الاستبصار ، ص ٢٠٣ — والذي يفهم من هذه الرواية ان محمدا الحبيب والد عبيد الله كان يقوم بدعوته في العراق ، وهذا لا يتعارض مع ما تكاد تجمع عليه الروايات من ان عبيد الله عندما سار نحو المغرب ، فيما بعد ، كان خروجه من مدينة سلمية بالشام ، اذ لا بأس أن يكون قد ترك العراق عند ملاحقة رجال الخلافة له واستقر بالشام حيث كان للعلويين شيعتهم المخلصون • واذا كانت ملاحقة رجال الخلافة له ولوالده قد تمت بعد وصول انباء نجاح أبي عبد الله الشيعي في المغرب ، كما تقول الروايات المقبولة (انظر اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٢ : حيث تقول الرواية انه بعد أن شاع خبر دعاته باليمن والريقية طلبه المكتفي ، وكان يسكن عسكر مكرم ، فانتقل الى الشام) بأن المولود في سلمية لا يكون عبيد الله المهدي بل ابنه القائم (أبو القاسم محمد) الذي ولد هناك سنة ٢٧٧ هـ/٨٩٠م أو ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م (انظر المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٧٤) وكان غلاما حدثا عندما خرج به والده الى المغرب (اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٢ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ٢٤٥ : حيث يقول القاضي النعمان ان القائم حين استقل في سجلماسة كان قد طر شاربه) • ولهذا السبب قيل أيضا في القائم انه لم يكن ولد المهدي بل كان ربيبة أي ابن لزوجته ، فكانه المقصود بابن عبد الله سلمية اليهودي) من مقالة ان محمدا القائم كان ربيب « سعيد » المهدي ، انظر اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٣٩ • وفي اختلاف اسم القائم ما بين • محمد وعبد الرحمن وحسن » وفي اختلاف كنيته ما بين أبي القاسم وأبي جعفر انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٩٨) •

الاثنا عشر يذكرون بنقباء الدعاة العباسيين الاثنى عشر الذين تم اختيارهم بين السبعين داعية الأوائل ، وهم الذين مهدوا خراسان ، بقيادة أبى مسلم ، للثورة الرائعة التى قامت باسم آل البيت (الرضا من آل محمد) . وهم يذكرون أيضا بنقباء القرمطى الاثنى عشر الذين اتخذهم كحوارى عيسى بن مريم ، كما تقول رواية ابن الأثير(٤١) . فكأن ذلك التنظيم الاثنى عشرى كان أساس الدعوات السرية التى عرفتها دولة الخلافة ابتداء من العباسيين ثم من أتى بعدهم من الاسماعيلية ، مثل : القرامطة والفاطميين ثم الخشاشين .

الدعوة فى المغرب تبدأ من اليمن :

والمهم أنه تم انعقاد مجلس دعاتنا الفاطمى هذا برئاسة الشيخ فى العراق قبل سنة ٢٧٧ هـ/٨٩٠ م ، وهو التاريخ المقترح لمولد محمد القائم بن المهدى فى سلمية بالشام (٤٢) . وفيه أعلن الامام محمد الحبيب أن وقت ظهور الامام قد حان ، وأمرهم بالانتشار فى الأقطار ، والتبشير بقرب حلول عهد العدل والاصلاح ، ودعوة الانصار لدولة المهدى العلوى الفاطمى . ووقع الاختيار على أبى عبد الله ليقوم بالدعوة فى المغرب بأرض قبائل كتامة (٤٣) .

وواضح من الرواية أن الدعوة الشيعية فى المغرب الأوسط كانت قد بدأت قبل ذلك بوقت طويل منذ أيام جعفر الصادق أى حوالى سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م . فى الوقت الذى كان يتكلم فيه قاضى افريقية عبد الرحمن بن أنعم فى الامام الذى يملأ الارض عدلا ، ويعم الرخاء فى عهده ، وهو ما كان يبشر به الحلوانى وأبو سفيان فى نفس الوقت تقريبا (٤٤) .

وحسب الأسلوب الفنى الذى كان يسير عليه الدعاة لم يتوجه أبو عبد الله مباشرة الى المغرب بل سار الى اليمن ، التى كانت قد صارت معقل الدعوة العلوية منذ أيام الامام الصادق وخلافة أبى جعفر المنصور ، ليتدرب على أساليب الدعاية الراقية . وكان كبير دعاة الامام محمد الحبيب فى ذلك الوقت هو ابن حوشب (أبو القاسم رستم بن الحسين بن فرج ح النجار ، الكوفى الأصل ، الذى كان مقيما فى عدن يلزم العبادة والزهد ، ويدعو للظهور

---

(٤١) الكامل ، سنة ٢٧٨ ، ج ٧ ص ١٧٨ .

(٤٢) انظر الهامش السابق .

(٤٣) الاستبصار ص ٢٠٣ .

(٤٤) انظر فيما سبق ، ص ٥٣٥ .

المهدى فى هذا الزمان (٤٥) • ولذلك تقول رواية ابن الاثير ان ابن حوشب هو الذى قال لابى عبد الله : ان أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلوانى وابو سفيان ، وقد ماتا وليس لها غيرك (٤٦) ، فكان كبير دعاة اليمن أو«صاحب اليمن» (٤٧) هو الذى وجه أبا عبد الله الى المغرب ، وليس الامام — وهو الأمر المقبول بالنسبة لنظام الدعاية السرية المعقدة • والحقيقة انه كان على أبى عبد الله الشيعى ، بعد أن لزم ابن حوشب ، وشهد مجالسه وأفاد من علمه (٤٨) ان يبدأ بالمسير الى مكة أيام موسم الحج ليتصل بحاج كتامة هناك، ويعرف أخلاقهم ، ويطلع على مذاهبهم ، وذلك بعد أن زود بمبلغ كبير من المال (٤٩) •

الالتقاء مع حاج كتامة فى مكة :

وهكذا ، وصل ابو عبد الله الشيعى الى مكة فى يوم من أيام موسم الحج سنة ٢٨٠ هـ/٨٩٤ م ، وبدأ البحث عن حاج المغرب الى أن اهتدى الى عدد من أعيان قبيلة كتامة يبلغون عشرة رجال ، ملتفين حول شيخ منهم (٥٠) • وكما فعل معه الامام فعل هو مع هؤلاء المغاربة فجاذبهم أطراف الحديث • وبفضل فصاحته وسحر بيانه ، فضلا عما كان يظهره من العبادة والنسك ، تمكن من سلب عقولهم (٥١) • وبطبيعة الحال سألهم عن بلادهم ،وعن مذهبهم، ولم يكن منهم الا أن أجابوه بصراحة عن صفة بلادهم ، وعن علاقتهم بأمير القيروان ومدى استقلالهم عنه (٥٢) •

---

(٤٥) انظر افتتاح الدعوة للقاضى النعمان ، ص ٥٩ — ٦٠ ، وقارن المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٤٠ ، هـ ٢ : حيث مقارنة اختلاف اسمه فيما بين ابن الأثير (سنة ٢٩٦ ، ج ٤ ص ١٢) والمقريزى ، بل وفيما بين خطط المقريزى (حيث الاسم ابو القاسم الحسن ابن فرج) واتعاظ الحنفا •

(٤٦) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٤ ص ١٢ ، وقارن اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٥ •

(٤٧) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥١ •

(٤٨) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥١ •

(٤٩) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٥ •

(٥٠) انظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢ حيث النص على بعض أعيان وفد كتامة من الحجاج، ومنهم : ١ — موسى بن حريث (كبير بنى سكتان) ، ٢ — ابو القاسم الورفجومى (من أحلافهم)، ٣ — مسعود بن عيسى بن ملال المسالتى ٤ — موسى بن تكاد •

(٥١) الاستبصار ، ص ٢٠٣ ، وقارن اتعاظ الحنفا ، ص ٥٥ •

(٥٢) قالوا : ماله علينا طاعة ، وبيننا وبينه عشرة أيام، وأن صناعتهم هى حمل السلاح — انظر اتعاظ الحنفا ، ص ٥٥ — ٥٦ :

وفيما يختص بمذهبهم أحس الداعي ان شيخهم يميل الى مذهب الاباضية النكار ، ومن هذه « الثلمة » دخل عليه ، وأخذ يستدرجهم فى الحديث بفضل علمه وخبرته بالجدل والمناظرة (٥٣) ·

وتوثقت الصلة بين أبى عبد الله الشيعى وجماعة الحاج الكتاميين الى أن حان وقت عودتهم الى بلادهم ، فسألوه عن أمره وعن مقصده ، فأجابهم ، وهو يظهر الورع الشديد : أنه عراقى من رجال الدولة ، وأنه وجد أن خدمة السلطان ليست من أعمال البر ، وبعد التروى رأى ان كسب المال الحلال لا يأتى الا عن طريق تعليم القرآن للصبية ، فوهب نفسه لهذا العمل المبرور ، وأن أهل المعرفة نصحوه بالمسير الى مصر حيث يروج تعليم الصبيان (٥٤) ·

الرحلة الى المغرب :

ولم يكن من الغريب أن يصطحبه الكتاميون معهم الى مصر ، فهى فى طريقهم ، وأثناء المسيرة صار يحدثهم فى الدين ، ويستميلهم شيئا فشيئا الى مذهبه · ونجح فعلا فى اكتساب محبتهم له ، واعتزازهم به حتى عرضوا عليه أن يواصل الطريق معهم الى بلادهم ليعلم صبيانهم · ورغم اعتذاره ببعد الشقة الا أنه لم يخيب رجاءهم تماما ، فأظهر أنه قد يسير معهم الى القيروان فقط ، اذا لم يجد بغيته فى مصر . وهذا ما فعله (٥٥) · وخلال أحاديثه معهم عرف

---

(٥٣) الاستتار ، ص ٢٠٣ ، وقارن المقريزى (اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٥) الذى يلخص افتتاح الدعوة للقاضى النعمان (ص ٦٣) · حيث يقول ان الداعى سمعهم يتحدثون بفضائل آل البيت ، فاستحسن ذلك منهم · والحقيقة ان القاضى النعمان ينص على ان رجلين من حاج كتامة ، وهما . حريث الجيملى ، وموسى بن مكارمة ، كانا يذكران فضائل على بن أبى طالب · وهكذا يسلسل القاضى النعمان الأحداث بحيث تظهر متكاملة مع ما سبقها من الحديث عن تمهيد أرض المغرب لدعوة الامام المهدى بمعرفة الحلوانى وأبى سفيان ، فكان دعوة الأخيرين فى منتصف القرن الثانى الهجرى (٨ م) كانت تمهيدا حقيقيا لدعاية أبى عبد الله الشيعى فى أواخر القرن الثالث (٩ م) ، وكأن دعاية أبى عبد الله كانت استمرارا لدعوة الأولين ، رغم بعد الشقة ·

(٥٤) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٣٥ ، وقارن المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٥٦ - افتتاح الدعوة للقاضى النعمان (ص ٦٥ - ٦٦) : حيث يقول ان كتامة كانوا يعظمون المعلمين فيستفتونهم فى أمور دينهم ويتحاكمون اليهم فيما يكون بينهم . ويعظمونهم فلا يخالفون لهم حكما ·

(٥٥) ابن عذارى ، ص ١٣٥ ·

منهم بعد بلادهم عن عاصمة الأغالبة ، وأن طاعتهم للقيروان طاعة شكلية ، وأنهم قوم معتزون بأنفسهم . يملكون السلاح والخيل ولا يرضون بالضيم(٥٦). وفي القيروان أعادوا الالحاح عليه ولكنه أصر على أن يقيم بالعاصمة الأغلبية ، بعد أن وعدهم باللحاق بهم في بلادهم اذا لم يطب له المقام بها (٥٧) .

ولم يضيع أبو عبد الله وقته في القيروان سدى ، فأخذ يستقصي أخبار القبائل ويتعرف أحوالها . وعندما تأكد من كثرة عدد كتامة ، وشدة شوكتها بين قبائل البربر ، وعدم استكانتها للسلطان ، قرر ان يبدأ العمل الايجابي . فلم يمض على فراق رفقائه الا وقت يسير حتى لحق بهم (٥٨) وذلك في منتصف ربيع الأول سنة ٢٨٠ هـ/٥ يونيه ٨٩٣ م (٥٩) .

ونزل أبو عبد الله على الشيخ الكتامي في المنطقة الجبلية التي عرفت حاليا بالقبائل الصغرى ، والتي تمتد بين سهل سطيف والبحر ، بين قسنطينة شرقا وبجاية غربا (٦٠) . ومع أن المعروف ان أبا عبد الله نزل في قرية من قرى الجبال التي تعرف بايكجان (٦١) ، والتي سميت بها القرية ، كما نسب اليها أبو عبد الله الداعي فعرف عند بعض الكتاب بالايكجاني ، كما سبق ،

---

(٥٦) افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ، ص ٦٤ - ٦٦ . وما سبق ، ص ٥٤٧ وهـ ٥٢ .

(٥٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥ . وقارن رواية القاضي النعمان (افتتاح الدعوة ، ص ٦٨) : حيث تقول ان طريق الجماعة الى بلدتهم لم يكن على القيروان بل على قسطيلية من بلاد الجريد) وانهم نزلوا في موضع يعرف بسوجمار من ارض سماتة حيث يلقيهم ثلاثة رجال من الشيعة ، هم . ابو المفتش وابو القاسم الورفجومي ، وابو عبد الله الأندلسي ، وعند الاخير كان نزول أبي عبد الله . وهذا ما أخذ به ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢ (حيث الاشارة الى العدول عن طريق القيروان ، والوصول الى بلد سوماتة حيث كان محمد بن حمدون ابن سماك الأندلسي ، وكان قد ادرك الحلواني واخذ عنه ، وان ابن حمدون سار معهم الى بلد كتامة) .

(٥٨) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٨ .

(٥٩) افتتاح الدعوة ، ص ٧١ ، وانظر ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٢ . وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢ (حيث الوصول الى كتامة في سنة ٢٨٨ هـ) . الاستبصار ، ص ٢٠٣ . ورواية ابن الاثير ، مثل غيرها ، تقول انه وصل الى ارض كتامة برفقة جماعة الحجاج . ولقد رأينا الاخذ برواية الوراق التي ينقلها ابن عذارى لما يظهر فيها من الاحتياط في التصرف مما يمكن ان يختفى عيون الدولة الذين كانوا يتتبعونه ، وهو الأمر الذي كان يحذقه دعاة مثل هذه الدعوة السرية .

(٦٠) انظر مارسيه ، بلاد البربر الاسلامية .... ، ص ١٣٣ .

(٦١) افتتاح الدعوة ، ص ٧٣ .

فاننا نميل الى الأخذ برواية صاحب الاستبصار التى تقول ان الداعى نزل على الشيخ الكتامى فى جبل زلدوى (٦٢) . ولا بأس أن يكون جبل زلدوى واحداً من سلسلة جبال هضبة ايكجان الكبيرة ، التى عرفت بأنها موطن كتامة الصعب المنال ، والتى تمتد عمارتها من حدود جبل أوراس جنوبا حتى سيف البحر ما بين بجاية وبونة شمالا ، كما تمتد شرقا حتى القيروان وغربا حتى المسيلة (٦٣) . هذا ، ولا بأس أيضا أن يكون فى جبل زلدوى هذا ، الموضع الذى عرفه كتاب الشيعة بفج الأخيار : حيث تقيم جماعة بنى سكتان الكتامية التى استضافت الداعى (٦٤) ، وبذلك يكون فج الأخيار هو نفس قرية ايكجان .

واتخذ أبو عبد الله مجلسه فى مسجد القرية مكرسا وقته للعبادة واعمال الورع الى جانب تعليم الصبيان ، ومن هنا عرف بالمعلم . وفيما بين هذا وذاك كان يلقن سكان المنطقة من البربر تعاليم مذهبه ، ويكشف لهم شيئا فشيئا عن الامام المهدى المنتظر ، صاحب الدعوة ، وأن زمانه قد آن (٦٥) ، وذلك حسب الأصول الفنية التى كان يعرفها الدعاة ، والتى كان قد تدرب عليها فى اليمن ، وذلك ابتداء بالحديث فى ظاهر فضائل على بن أبى طالب (٦٦) ، وانتهاء بذكر المهدى وما يمكن أن يدور حوله على السنة ابناء الشعب من الكرامات ، مثل : احياء الموتى ورد الشمس من مغربها (٦٧) .

بدء العمل الايجابى :

وكان من الطبيعي أن يبدأ أبو عبد الله بدعوة الشيخ ،رئيس الجماعة . فبعد أن اطمأن اليه تماما كشف له ذات يوم عن حقيقة أمره ، فقال له — بعد أن صب فى حجره ٥٠٠ (خمسمائة) دينار : « لست بمعلم الصبيان ... انما نحن أنصار أهل البيت ، وقد جاءت الرواية فيكم يا أهل كتامة انكم

---

(٦٢) الاستبصار ، ص ٢٠٣ .

(٦٣) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ٥٧ وهامش ٤ لمحققة النص وداد القاضى .

(٦٤) افتتاح الدعوة ، ص ٧١ — ٧٣ : حيث يقول القاضى النعمان ان أبا عبد الله نزل هناك بصحبة أبى عبد الله الأندلسى وأبى القاسم الورفجومى ، وأنه وعد الناس ، الذين تشاحنوا من أجل نزولهم عندهم ، بزيارة كل قوم فى بيوتهم — وانظر هامش ٤ ص ٧٢ : حيث الاشارة الى ان اسم الجماعة فى كامل ابن الأثير هو بنو سليمان .

(٦٥) الاستبصار ، ص ٢٠٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٦٦) افتتاح الدعوة ، ص ٧٣ .

(٦٧) انظر ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ .

انصارنا ، والمقيمون لدولتنا ، وأن الله يظهر بكم دينه ، ويعزبكم أهل البيت، وأنه سيكون امام منهم أنتم أنصاره ، والباذلون مهجهم دونه ...» (٦٨) . ورد عليه الشيخ قائلا : «أنا أرغب فيما رغبتني فيه ، وابذل فيه مهجتي ومالي، أنا ومن اتبعني ، وأنا أطوع لك من يدك ، فمر بما شئت أمتثله ..»(٦٩) .

شخصية الزعيم الكتامي :

واذا كانت رواية ابن عذاري الملخصة لم تكشف عن شخصية الشيخ الكتامي ، فان رواية القاضي النعمان في افتتاح الدعوة ، بتفصيلاتها المسهبة في ذكر الأشخاص والقبائل ، لم تحدد لنا هي الأخرى اسم الشيخ ، وبالتالي ظل التعرف عليه من الصعوبة بمكان (٧٠) .

والذي يلفت نظرنا في قائمة القاضي النعمان للزعماء الذين دخلوا في الدعوة ثلاثة رجال ، هم : هرون بن يونس بن موسى المسالتي ، والحسن بن هرون الغشمي — من غشمان تازروت — وأبو يوسف ماكنون بن ضبارة الأجاني (عم أبي زاكي تمام بن معارك) (٧١) . فهرون بن يونس المسالتي كان يحمل لقب « شيخ المشايخ »(٧٢) ، والحسن بن هرون الغشمي هو الذي دعا أبا عبدالله الى المسير الى بلدته « تازروت » عندما تأزمت الأمور في منزله الأول ، في جبل زلدوي . فعظم شأنه (٧٣) ، كما يأتي . وبذلك يمكن الظن أن أيا من الرجلين يمكن أن يكون هو الشيخ الذي ناصر أبا عبد الله ، بصرف النظر عما تقوله الرواية من أنهما كانا من الوافدين على أبي عبد الله مما يفهم منه أنهما لم يكونا ضمن جماعة الحاج الكتامي . واذا كان الحسن بن هرون قد عظم شأنه في مقر أبي عبد الله الثاني « تازروت » فانه مما يرجح أن يكون هو الشيخ المقصود، ما تذكره الرواية من أن أخاه الأكبر محمود « وجد في نفسه من عظم شأنه »، وأنه كاد يشترك في مؤامرة للقبائل على الداعي ، وان الرئاسة خلصت للحسن بعد مقتل أخيه محمود في الحرب الى جانب أبي عبد الله (٧٤) . وهي الرواية

---

(٦٨) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٦٩) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٧٠) انظر افتتاح الدعوة ، ص ٧٤ — ٧٦ .

(٧١) افتتاح الدعوة ٧٣ — ٧٤ .

(٧٢) نفس المصدر ، ص ٧٤ .

(٧٣) نفس المصدر ، ص ١٠١ .

(٧٤) نفس المصدر ، ص ١٠٢ — ١٠٦ . والحقيقة ان افتتاح الدعوة يذكر انه عندما احتدمت الحرب بين بني غشمان قبيلة الحسن وبني لهيصة بقيادة زعيمها البطل مهدى =

التى تكاد تشبه ما يقوله ابن عذاري من أن الشيخ الكتامي لم يتردد فى قتل اخيه عندما وقف ضد الداعي (٧٥) ·

يبقى بعد ذلك من الزعماء الثلاثة : أبو يوسف ماكنون بن ضبارةالأجانى · والذى يجعلنا نفكر فى أنه ربما كان الشيخ المطلوب ثلاثة أشياء : أولها ، أنه عم أبى زاكى تمام بن معارك الذى تقرب قربا شديدا من أبى عبد الله لخفته ونباهته وحرصه على الخدمة (٧٦) ، والذى صار نائبا للداعي فى رقادة عندما سار لاستنقاذ الامام فى سجلماسة (٧٧) · أما الشيء الثانى فهو أن ماكنون صار رئيس جماعة المؤمنين فى تازروت بعد أن صارت دار الهجرة(٧٨)· أما ثالثها الذى نريد أن نرجح به أن يكون ماكنون هو الشيخ المقصود فهو لقبه « الاجانى » نسبة الى قبائل آجانة التى ينتسب اليها · فنحن نريد أن نقترح أن تكون كلمة « الاجانى » هى نفس كلمة الايكجانى مكتوبة بشكل محور ، وهو الأمر المقبول · واذا صح ذلك فان جبال ايكجان (او اجان) تكون نسبة الى سكانها قبائل اجانة ، ويكون احتمال أن يكون أبو يوسف ماكنون الاجانى عم أبى زاكي هو « الشيخ الكتامي » أرجح الاحتمالات · واذا كان « ايكجان » هو اسم القبائل ، فان ذلك يمكن أن يكون تفسيرا لما تقدمه الروايات من أن الداعي نزل فى جبل « زلدوى » أو فى « فج الأخيار » أو بشكل عام فى ايكجان (آجان) ، وبذلك يمكن فهم ما يقوله القاضي النعمان من أن دار هجرة أبى عبد الله كانت «تازروت» التى انتقل اليها من ايكجان(٧٩) كما يلى ·

ـ ابن ابى كماوة ، بعد انتقال أبى عبد الله الى تازروت ، قرر أخوه ابو مدين قتله غيلة ، مما ـو الى التفكير ، فى ان يكون أبو مدين اللهيعى هو شيخنا المقصود ، لولا انه لا يذكر بين لبن · وانظر ابن خلدون، ج ٤ ص ٣٢ (حيث تلخيص رواية النعمان ، وفيها أن عبد الله الشيعى ولى الحسن بن هرون على حروبه ، وظهر (الداعي) بعد أن كان مختفيا ، ظهر الى جانب محمود أخى الحسن صديقه مهدى بن أبى كمارة الذى كان معارضا للداعي حتى قتله أخوه أبو مدين وتزعم قبيلة لهيعة) ·

(٧٥) أنظر فيما بعد ، ص ٥٥٥ وهـ ٨٧ ·

(٧٦) افتتاح الدعوة ، ص ٧٤ ·

(٧٧) انظر فيما بعد ، ص ٥٩٤ ·

(٧٨) افتتاح الدعوة ، ص ١١٧ ·

(٧٩) افتتاح الدعوة ، ص ١١٧ ·

تنظيم الدعوة في كتامة :

دعوة سرية . وان كان هدفها الأمر بالمعروف :

والمهم ان الشيخ الكتامي كان له أثره في دخول أتباعه فيما كان يدعو اليه ابو عبد الله كما كان للداعي أثره هو الآخر في زيادة هيبة الشيخ الذي رواه بفضل حسن تنظيم « الأولياء » الذين كانوا يزدادون عددا مع مرور الوقت • وفي ذلك يقول القاضي النعمان ان الدعوة كانت سرية ، فكان الرجل منهم اذا سئل عن الأمر الذي دخل فيه قال : « أبلغ توقن » ، « وكانت كلمة علمهم اياها أبو عبد الله » •

الاخوان والمشارقة :

اما عن سبب نجاح الدعوة ، فيقول : ان أبا عبد الله جعلهم يقبلون على الصلاة والصيام وأعمال الخير وأفعال البر وتجنب المعاصي ، فأقبلوا اليه من كل جهة • وتسمى الداعي اتباعه ب « الاخوان » ، فكان الواحد منهم ينادي الآخر « يا أخانا » • أما عن اسم « المشرقي » الذي عرف به الداعي ، واسم « المشارقة » الذي عرف به « اخوانه » ، فان الذين أطلقوه ، كما نرى ، هم خصوم الدعوة من كتامة (٨٠) • ويصف النعمان هؤلاء الخصوم بأنهم : من لم يطاوعه نفسه على ترك المعاصي فنسبوا الى « الأولياء » الكفر والخروج عن الملة ، وقالوا : « لو كان هذا الأمر فيه خير ما ستر ، وما هو الا خلاف دين الاسلام » (٨١) •

الخلاف بين قبائل كتامة :

وهكذا كان النجاح الذي تحققه الدعوة السرية للمهدي ، والتزام الداخلين فيها بالطاعة الصارمة لأبي عبد الله والشيخ الكتامي ، سببا في اثارة خلافات خطيرة في قبائل المنطقة ، من : كتامة وغيرها (٨٢) •

---

(٨٠) افتتاح الدعوة ص ٧٦ ، ٩٣ ، ص ٩٨ حيث قال بعض خصوم أبي عبد الله عندما عرض عليه مناظرته هذا رجل من أهل المشرق وهم كذا علمت شياطين ، وعلماؤنا برابر وقوم ليست لهم تلك الأذهان ، وان ناظروه ظهر عليهم •

(٨١) افتتاح الدعوة ، ص ٧٧ •

(٨٢) انظر ابن الأثير الكامل سنة ٢٩٦ ج ٨ ص ٢٢ — ١٤ : حيث ينقل مقالة خصوم الفاطميين من ان ابا عبد الله صنع من الحيل والمكيدات والمخرقات ما أذهل عقولهم ، وأثناه البربر • • • وان الأمر انتهى بتفرق كلمة البربر وكتامة بسببه ، كما كان يذكر لهم كرامات

تحريض ولاة الأغالبة :

ويضيف القاضي النعمان الى أسباب الخلاف في كتامة تآمر ابراهيم ابن أحمد الأغلبي ، الذى حاول ، بعد أن فشل في ضربهم بقواته ، أن يضربهم بغيرهم من كتامة فلم يتجح (٨٣) ، مما جرأ الداعي على ابراهيم ، فقال لرسوله : ما أنا ممن يروع بالوعد والوعيد ... انى في أنصار الدين وحماة المؤمنين .. (٨٤) .

وتقدم رسالة افتتاح الدعوة معلومات تفصيلية مذهلة عن الخلافات التى قامت بين القبائل بسبب دعوة أبي عبد الله ، وهى المعلومات التى نجد أصداءها فى كتب المتأخرين بعد أن مسخ النساخ الكثير منها . فمن أهم الخلافات التى قامت بين قبائل ايكجان : تلك الانتفاضة التى قام بها عدد كبير منها ضد أبى عبد الله ، وذلك بتحريض من أمراء : ميلة (ورئيسها موسى بن عياش) ، وسطيف (ورئيسها على بن عسلوجة) ، وبلزمة (ورئيسها حى بن تميم) . فلقد شاركت فيها قبائل : كتامة (بقيادة فتح بن يحيي المسالتى) ، ولهيصة (بقيادة مهدى بن أبي كناوة) ، واجانة (بقيادة فرج بن جيران) ، ولطاية (بقيادة أبي تميم فحل بن نوح) ، ومتوسة (بقيادة زيادة المتوسى) ، ولقد كتب زعماء القبائل هؤلاء الى الزعيم الكتامي بيان بن صقلان يقولون أنه من أجل هذا الرجل (أبى عبد الله) : عادى الأخ أخاه والابن أباه والقريب قريبه. ولكن بيان – الذى لم يكن قد دخل فى الدعوة – رفض تسليم الضيف الذى حماه أصحابه من بنى سكتان بالسلاح ، رغم ما تقوله الرواية من أن الداعى كان قد استخفى عندما استشعر الخطر المحدق بشخصه (٨٥) .

ولا بأس أن يكون استخفاء أبي عبد الله هذا في « تازروت » . اذ يقول

= المهدى من احياء الموتى ، ورد الشمس من مغربها ، كما سبق . وقارن ابن عذارى (ج ١ ص ١٣٧) : حيث يشير الى موافقة الشيعي على الغاء صلاة التراويح في رمضان ، مما كان له رد فعل عنيف بين أهل الموضع .

(٨٣) انظر افتتاح الدعوة ، ص ٧٨ .

(٨٤) افتتاح الدعوة ، ص ٨٠ – ٨١ .

(٨٥) افتتاح الدعوة ، ص ٩٤ – ٩٨ . وانظر ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ، ص ١٣ : حيث يشير الى انه عندما اختلفت القبائل اراد بعضهم قتل أبى عبد الله فاختفى . وقارن ابن خلدون (ج [illegible] ، ص ٣٢) (ج ٦ ، ص ٣١) ، حيث الاشارة الى ان أبا عبد الله الداعى كان لاجئا في بنى سكتان» ولذا الفضل في حمايته يرجع الى قبيلة جيملة (جميلة) التى [illegible] الى مظاهرته فلزموا هؤلاء الثائرين عليه وردوهم خائبين) .

القاضي النعمان ان أبا عبد الله ترك فج الاخيار أو ايكجان في جبل زلدوي ، بعد انتفاضة القبائل تلك ، وسار الى تازروت حيث دعاه شيخ الموضع ،الحسن ابن هرون العشمي الذي صارت اليه الرئاسة هناك (٨٦)٠ ولا بأس في ان يكون تارروت قد حلت محل فج الاخيار أو ايكجان ، كما يقول القاضي النعمان، بعد مؤامرة ثانية تزعمتها قبيلة لهيصة بقيادة مهدي بن كناوة الذي تمادى في عدائه لأبي عبد الله حتى أن أخاه أبا مدين دبر قتله غيلة وشارك في ذلك (٨٧) ، ثم حرب ثالثة مع مزاتة بقيادة يوسف الغاطشي وتحـــريض لامير ابراهيم بن أحمد ، انتهت بتحالف القبائل بقيادة مزاتة (٨٨) ٠ عندئذ قرر أبو عبد الله العودة بـ « أوليائه » الى تارروت حيث نجح في الانتصار على خصومه في حرب رابعة وأخيرة (٨٩) ٠ هكذا تطلب الأمر (٧) سبع سنوات من العمل الجاد والكفاح الصعب ٠ انتهت عند موت الشيخ سنة٢٨٧هـ ، ٩٠٠ م بخضوع سكان المنطقة بالترغيب حينا وبالترهيب أحيانا (٩٠) ٠

بمدين تازروت واتخاذها (دار هجرة) :

تحقق الهدف اذن ، ودانت كتامة بمختلف قبائلها بالطاعة لأبيعبد الله الشيعي ٠ كما دخلت في دعوته قبائل كثيرة من أهل منطقة بجاية ، فقرر ان ينشىء « دار هجرة » للمهدي ـ شبيها بما فعله النبي بالمدينة ـ وقرر أن يكون معسكره بتازروت « دار هجرة » ، حسبما يقرر القاضي النعمان في روايته بتفصيلاتها المسهبة (٩١) ٠

واذا كان ابن الأثير يجعل دار الهجرة في ايكجان (٩٢) ، فالحقيقة أن رواية افتتاح الدعوة لا تخالف ذلك اذ تقرر أن ايكجان كانت معسكرا لأبي

---

(٨٦) انظر فيما سبق ، ص ٥٥١ ٠

(٨٧) انظر فيما سبق ، ص ٥٥٤ ٠

(٨٨) افتتاح الدعوة ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ٠

(٨٩) افتتاح الدعوة ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ٠

(٩٠) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٨ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ١١٧ ٠

(٩١) انظر افتتاح الدعوة ص ١١٧ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ (الذي ينقل من القاضي النعمان في افتتاح الدعوة ، ولكن كلمة تازروت تحورت الى ناصرون ، كما يشير الى رئاسة الحسن بن هرون) ٠

(٩٢) المكتوبة في شكل « الكحان » (سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٣ ؛ ١٧) ، وقارن ابن حماد (أخبار ملوك بني عبيد ، ص ٧) الذي يحملها في شكل الكحان ، هـ ٢ حيث صححها المحقق الى « يكجان » ٠

عبدالله يحتفظ فيه بالذخائر والأموال منذ قدومه الى بلد كتامة ، بل ان ايكجان ستعود مرة ثانية قاعدة لأبى عبد الله عندما يتضح له أن تازروت أقل حصانة منها(٩٣) • وبذلك ستكون ايكجان حاضرة الدعوة . ليس الى دخول أبى عبدالله رقادة ، بل وحتى وصول المهدى الى عاصمة الأغالبة(٩٤) •

ولما كان أبو عبد الله قد استقر فى تازروت قبل ذلك بوقت غير قصير حيث استقبله أهلها من بنى غشمان ، كما استقبلوا من كان معه من بنى سكتان من أهل أيكجان بالترحاب ، فقاسموهم أموالهم وأحلوهم محلهم (٩٥) ، تماماً كما فعل المهاجرون بالانصار ، فان المقصود باتخاذها « دار هجرة » هو الاستقرار المدنى فيها بانشاء المبانى ، بمعنى اتخاذها حاضرة أو عاصمة لأبى عبد الله • وتحقق له ذلك بعد الحرب الرابعة ضد تحالف القبائل بزعامة مزاتة مع أهل مدينتى ميلة وسطيف وعساكرهما • فلقد تمكن أبو عبد الله ، الذى صار يباشر الحرب بنفسه منذ الحرب الثانية ، ومعه ٧٠٠ (سبعمائة) فارس و ٢٠٠٠ (ألفا) راجل من ملاقاة أعدائه على التوالى خلال أربعة أيام ، بداها بالعصاة من كتامة ، وثنى فيها بعسكر سطيف الأغلبى ، وختمها بتشتيت مزاتة والاستيلاء على مخيمهم (فيطونهم) وجميع أموالهم (٩٦) •

مغانم الحرب هى مادة تحضير دار الهجرة فى تازروت :

والمهم أن أبا عبد الله ورجاله خرجوا من تلك الحرب بمغانم هائلة •وفى ذلك يقول القاضى النعمان : انهم « غنموا من الخيل ما لا يحصى عدده » ، وانهم « أصابوا من أموال أهل المدائن ، من السروج واللجم المحلاة والخيل ، والغنائم ، والخلع والأموال ، والسلاح والبنود والطبول ، ما لا يحصى عدده كثرة »(٩٧) • وكان ذلك الغنى هو سبيل الجماعة الى الاستقرار فى تازروت

---

(٩٣) افتتاح الدعوة ، ص ١٣٨ — ١٣٩ •

(٩٤) افتتاح الدعوة ، ص ٢٤٦ •

(٩٥) افتتاح الدعوة ، ص ١٠٠ — ١٠١ •

(٩٦) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١١٢ — ١١٦ ؛ حيث يذكر انه كان من أبطال تلك الحرب يوريو [illegible]) بن يوسف الذى أبلى بلاءا حسنا ، وجرح جرحا انقطع منه صوته •• (وقارن ابن [illegible] ص ٣٣) •

(٩٧) افتتاح الدعوة ، ص ١١٦ — ١١٧ : حيث يضيف الى ذلك بيان ما أخذ من مزاتة من الماشية ، كان من الكثرة بحيث « يبيعون الجمال بوشيكم عشرين يوما بدينار ، ويبيع الجمل بخمس صلات • أما الغنم والأمتعة فما أطاقوا حملها ، ولا كيف يسوقون السائمة » وأنه صار الى « الأولياء » من الغنم والأموال ما لا يحصى عدده » •

وتحضيرها .

فبعد العودة الى تازروت بدأ أبو عبد الله في بناء قصر اتخذه مسكناً لنفسه ، وأقطع الأرض حوله وأعطاها لقواده ليبنوا دورا لهم . ولقد ازداد عمران المدينة بمن ارتحل اليها من أهل الدعوة الذين وفدوا من كل ناحية . حسنوا الدور واتخذوا تازروت موطنا (٩٨) ، حيث أصبحت عاصمة الدعوة ، وحلت محل القاعده الأولى ايكجان التي لم تفقد أهميتها .

تنظيم اهل الدعوة :

طبقات المؤمنين :

وشكل أبو عبد الله أتباعه في هيئة جند نظامي : فالزمهم العسكرية ، وسماهم « المؤمنين » بعد أن كانوا اخوانا ، وآلت رئاستهم الى أبي يوسف ماكنون بن ضبارة الاجاني (٩٩) . وكان « المؤمنون » مقسمين الى طبقات بعضها فوق بعض ، فالمعروف أن الداخلين في الدعوة كان منهم : من أراد وجه الله ، ومن أراد الدين والدنيا ، ومن أراد الفخر والشرف ، ومن أراد الكسب والفائدة ، ومن أراد الحسد والمنافسة ، وأخيرا من دخل في الدعوة خوفا ورهبة (١٠٠) . ورغم اختلاف طبقات المؤمنين فقد ألزمهم أبو عبد الله جميعا باتباع مبادىء الاسلام ، وكان صارما في جعل الدين الأساس الذي بنى عليه امره ، فاثاب الملترمين وعاقب المخالفين ، فانزل بهم العقوبات الشديدة . وكانت عقوبة المخالف هي الاقصاء عن الجماعة والنبذ حتى يخلص التوبة(١٠١) .

وقسم الداعي قبائل كتامة سبعة اقسام ، وجعل لكل سبع منها عسكرا قدم عليه مقدما (١٠٢) ، كما وزع الدعاة على مختلف الأقاليم فجعل لكل

---

(٩٨) افتتاح الدعوة ، ص ١١٧ .

(٩٩) افتتاح الدعوة ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣ (حيث كانت الرئاسة لماكنون ولي حباسه أبو زاكي تمام بن معارك) .

(١٠٠) افتتاح الدعوة ، ص ١٢٣ .

(١٠١) افتتاح الدعوة ، ص ١٢٤ .

(١٠٢) افتتاح الدعوة ، ص ١٢٧ — ولا بأس أن يكون ذلك التقسيم السباعي متفقا مع التقاليد الاسماعيلية التي تحمل للرقم سبعة معنى مقدسا ، اذ كان الامام اسماعيل هو السابع مما جعل المعنى يطلق عليهم اسم السبعية ، كما أن أهل المعرفة عندهم ينقسمون الى سبع طبقات وغير ذلك من افكارهم التي يدخل فيها الرقم سبعة ، انظر حسن حامد ، الاسلام بالفرنسية ، ص ١٥٨ — ١٥٩ .

موضع داعيا • وكان اختياره لمقدمى العساكر التى نظمت فى سبعة جيوش ودعاة المواضع الذين أطلق عليهم اسم « المشايخ » مبنيا على الاخلاص فى خدمة الدعوة ، دون نظر الى مسالة السن التى كان لها اعتبارها فى القبائل • فقد كان بين المشايخ من لم يبلغ السن من الشباب (١٠٣) •

تنظيم الجيوش وشعاراتها :

وجعل أبو عبد الله لكل جيش من جيوشه السبعة ديوانا أى بيت مال للحرب تاتيه الأموال التى ينفق منها على الجيوش عن طريق المغانم والزكاة ، وبذلك جعل الأموال بين أيدى المشايخ ، وظل الحال على هذا المنوال الى أن قدم المهدى فدفعوها اليه (١٠٤) • وهكذا أصبح لأبى عبد الله جيوش نظامية يدبر أمرها كرئيس دولة ، ويسيرها الى الحرب كقائد أعلى . بعد أن يكتفى بضرب موعد اللقاء مع شيوخ القبائل ، ويحذرهم من التخلف • وفى ذلك تقول النصوص انه كان يأمر مناديه فيصرخ فيهم : « حرام على من تخلف »(١٠٥) • وأصبح الداعى عندما يقود جيوشه للحرب ، ينادى مناديه فى الرجال : « ياخيل الله اركبوا » ، كما اتخذ لقواته شعارات تتناسب مع دعوته الدينية ، فكتب على أفخاذ الخيل « الملك لله » ، وكتب فى بنوده : « سيهزم الجميع ويولون الأدبار » ، وآيات كثيرة من القرآن • ونقش فى خاتمه الذى يتختم به : فتوكل على الله انك على الحق المبين » ، وفى خاتمه الذى يختم به على السجلات : « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » (١٠٦) وهى تقريبا نفس الشعارات التى سيحافظ عليها عندما يدخل عاصمة الأغالبة (١٠٧) •

اخضاع القبائل :

بفضل هذه التراتيب العسكرية والحماسة الدينية أخضع أبو عبد الله

---

(١٠٣) افتتاح الدعوة ص ١٢٧ — وفى اختيار أبى عبد الله لثقاته هؤلاء يقول القاضى النعمان : انه كان يمتحنهم بالمحن الكثيرة ، كالأسفار البعيدة سرا ، ومنهم الأموال الكثيرة فى ثياب الفقراء والحجيج (ص ١٢٨) • هذا ، كما يسمى النعمان عددا من المخلصين للدعوة ، رجالا ونساء ممن بذلوا جهدهم وبذلوا أموالهم لخدمة الدعوة وأوليائها ، فى الحرب والسلام (ص ١٢٨ — ١٣٣) •

(١٠٤) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ١٢٨ •

(١٠٥) انظر فيما سبق ، ص ١٦٨ وص ٥٤٩ •

(١٠٦) ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد ص ٧ — ٨ •

(١٠٧) انظر فيما بعد ص ٥٨٤

البقايا الباقية من القبائل ، فشن الغارات على بنى عبد — نقل يوم الا ولهم فى وقعة بموضع — حتى سلم أكثر الناس اليهم ، ودخلوا فى الدعوة رغبة ورهبة (١٠٨) . وتطلبت هذه العمليات الحربية مدة سنتين (الى سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م) ظهر فى نهايتها دعاة أبى عبد الله فى كل ناحية ، وغلب أمره على كل كتامة ، ولم يبق أمامه غـــير مدائن المنطقة ، ومن فيها من أمـــراء الأغالبة (١٠٩) .

الصراع مع الأغالبة :

وهكذا ، بعد أن أصبح أبو عبد الله السيد المطلق على منطقة القبائل الصغرى الحالية ، خرج من دار الهجرة بايكجان على رأس « المؤمنين الجدد » ليطأ افريقية ، كما يقول ابن حماد ، ويملكها عنوة (١١٠) ، حسبما رأينا فى السنوات الاخيرة من حكم الاغالبة ، وخاصة منذ اعتزال ابراهيم بن أحمد الملك سنة ٢٨٩ هـ/٩٠١ م .

أخذ ميلة لأول مرة :

ففى نفس تلك السنة وبعد اعتزال ابراهيم مباشرة نجح أبو عبد الله فى الاستيلاء على مدينة ميلة التى كانت ملجأ لخصومه من الزعماء الكتاميين ، مثل: فحل بن نوح ، وفرج بن حيران ، ويوسف بن محمد - وتم للداعى الانتصار على والى المدينة موسى بن عياش وحلفائه هؤلاء ، بفضل مخامرة جماعة عرب

---

(١٠٨) فلقد تمكن سبع (جيش) اجانة بقيادة ماكنون بن ضبارة من اخضاع جميع قبائل : عشمان تازروت ، وملوسة ، ولهيصة ، ولطاية ، ومسالتة ، وعجيسة ، وزوارة . أما زعماء القبائل الذين أنفوا من الخضوع فقد غادروا المنطقة ، مثل : فرج بن جيران الذى سار مع عدد من رؤساء اجانة الى ميلة . وكذلك فحل بن نوح فى جماعة لطاية . وغادر أيضا جماعة بنى عفنيت لانهم كانوا يذهبون الى مذهب الإباضية . كما غادر من مسالتة الآية الذين كرهوا أمر أبى عبد الله . أما فتح بن يحيى الزعيم المسالتى — الذى كان تزعمهم — فقد سار الى ناحية سطيف ثم عاد وطلب الأمان ، ولكنه بسبب المنافسة مع هرون بن يونس ، عاد واعتصم ببعض قلاع عجيسة حيث حاصره أبو عبد الله ثم انه لحق بافريقية ، فقدم على ابن العباس ابن ابراهيم بن احمد بتونس ، وهرب هناك من شأن الداعى . انظر افتتاح الدعوة ، ص ١١٧ — ١٢٣ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٣٢ — ٣٤ (حيث يجعل لجوء فتح بن يحيى الى الأمير ابراهيم بن احمد ، ولكن قبل ذلك بينما ينص على أن ابراهيم بن موسى بن عياش ، ابن صاحب مسالتة الذى قتله الداعى ، هو الذى لحق بأبى العباس بتونس بعد خروج أبيه الى صقلية) .

(١٠٩) افتتاح الدعوة ، ص ١٢١ — ١٢٢ .

(١١٠) اخبار ملوك بنى عبيد ، ص ٨ .

السناجرة (نسبة الى سنجارة) الربعيين الذين كانوا من وجوه أهل ميلة ، ورئيسهم حسن بن أحمد الذى كان قد راسل ابا عبد الله وسار اليه فى تازروت . وبعد أن اطمأن ابو عبد الله على أحوال المدينة التى كان قد زارها فى أول مرة وهو يعانى من الحصاة ، فاستشفى بحمامها التى كان تولى موسى بن عياش غادرها بعد أن عهد بولايتها الى أبى يوسف مكنون بن ضبارة الاجانى (١١١) .

استعادة ميلة وتخريب تازروت :

وكان رد أبى العباس بن ابراهيم على مغامرة أبى عبد الله فى ميلة سريعا ، اذ سير ابنه محمد المشهور بالأحوال وبأبى حوال - رغم سوء الاحوال الجوية - على رأس جيش مكون من ١٢ (اثنى عشر) ألف رجل ما بين فارس وراجل . وكان خروج محمد الأحول من مدينة تونس وبصحبته الزعيم المسالتى فتح بن يحيى ، خصم ابى عبد الله الداعى ، وأبو ابراهيم بن موسى بن عياش الذى كان قد خرج من ميلة أثناء الحصار طلبا للمعونة ، فى ذى القعدة من سنة ٢٨٩ هـ/أكتوبر ٩٠٢م . وسار الجيش الأغلبى فى هيئة الحرب مخترقا بلاد الزاب ، مارا بسطيف ، وبلزمة وباغاية ، حيث تضخمت قواته . وأخيرا تم اللقاء بأبى عبد الله وأصحابه فى بلد ملوسة ، وانتهى القتال الشديد بانهزام أبى عبد الله وأصحابه . وتبعهم الأحول وهزمهم مرة ثانية ، فلم ينجهم منه الا الثلج العظيم الذى جاء فحال بين الفريقين . وعاد الداعى الى قاعدته فى تازروت ، ولكنه لم يستقر فيها طويلا اذ لما عرف أن القوات الأغلبية تتبع أثره غادرها لعدم حصانتها ، وعاد الى قاعدته الأولى فى ايكجان (١١٢) .

وعندما تحسنت الأحوال الجوية سار الأحول فعلا الى تازروت فوجدها خاوية فأحرقها وأحرق القصر الذى كان قد بناه أبو عبد الله ثم انه عرج على ميلة ، التى وجدها خالية هى الأخرى بعد أن جلا عنها أصحاب الداعى(١١٣) . والظاهر أن الأحول اكتفى بذلك النجاح الذى حققه فعاد الى تونس رغم ما يقوله

---

(١١١) انظر افتتاح الدعوة ص ١٣٤ - ١٣٦ ، حيث تفصيلات القتال الذى انتهى بمقتل موسى بن عياش وكذلك رؤساء كتامة المذكورين . وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٣ .

(١١٢) افتتاح الدعوة ، ص ١٣٧ - ١٣٨ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ . وعن أبى حوال انظر فيما سبق ، ص ١٥٧ والهامش ٨ منه .

(١١٣) افتتاح الدعوة ١٣٨ - ١٣٩ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ (الذى يجعل ذلك على عهد ابراهيم بن أحمد) ، وابن خلدون ج ٤ ص ٣٤ .

القاضي النعمان من أنه كان ينوى متابعة أبى عبد الله فى ايكجان ، لولا تورط بعض رجاله ، وهو ابراهيم بن موسى بن عياش ، فى قتال غير موفق مع قبيلة لطاية قرب ميلة مما اضطره الى الرحيل (١١٤) .

ايكجان تستعيد مركزها كدار هجرة :

بعد الهزيمة أمام الأحول التى انتهت بانتهاك الجند الاغلبى لحرمة تازروت باحراقها رأى أبو عبد الله أن يستقر من جديد فى ايكجان بجبل زلدوى الحصين ، وكان الحاج يتى سكتان فى أن يبقى بين اظهرهم مما جعله يتخذ هذا القرار . وكان من الطبيعي أن يقوم أبو عبد الله ببناء قصر لسكنه ، كما ابتنى كبار أصحابه بالقرب منه ، وأتى اتباعه فى أعداد وفيرة لكى يقيموا حوله فى القرية الجبلية التى صارت « دار هجرة » أى حاضرة لأهل الدعوة (١١٥) .

عود الى اعداد « المؤمنين » معنويا ، وعناية بجهاز الأخبار :

والظاهر أن الهزيمة المؤلمة أمام جند الأحول التى لم يحل دون تحولها الى كارثة كاملة الا سوء الأحوال الجوية جعلت أبا عبد الله يتروى بعض الشيء قبل أن يعاود مناجزة الجند الأغلبى من جديد . فلقد عاود الداعي سيرته الأولى فى ايكجان ، فعقد مجالس العلم لأصحابه « المؤمنين » ، فكان يحدثهم ويشرح لهم أصول الدعوة ، كما أمر الدعاة بان يفعلوا مثل ذلك فى مواضعهم ، « فحسنت نيات المؤمنين وزادت بصائرهم وصلحت أحوالهم (١١٦) . وهذا يعنى أن الداخلين الجدد فى الدعوة من « المؤمنين » كانوا من الكثرة بحيث أنهم لم يكونوا قد دربوا ونظموا فى طبقات أهل الدعوة ، مثل « الاخوان الأوائل ، مما تطلب هذه « الدورات التدريبية » الجديدة — أو ان الامر تطلب نوعا مما يسمى بـ « التوجيه المعنوى » أو « الثورة الثقافية » فى أيامنا هذه .

والى جانب ذلك اعتنى أبو عبدالله بتنظيم جهاز الأخبار لديه ، فارس رجاله الى افريقية يأتونه بما يجرى فى عاصمة الأغالبة ، وفي ذلك قيل انه « كان لا يمر يوم الا وعنده خبر » . ولم تنته حالة الانتظار والترقب هذه

---

(١١٤) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٣٩ ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٤ (حيث : مسيلة بدلا من ميلة) .

(١١٥) افتتاح الدعوة ، ص ١٤٠ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٤ .

(١١٦) افتتاح الدعوة ، ص ١٤٠ .

الا عندما بلغه الخبر بوفاة ابراهيم بن أحمد فى صقلية (ذو القعدة سنة ٢٨٩هـ/ أكتوبر ٩٠٢ م) (١١٧) ٠

الانتصار على محمد الأحول (أبو حوال) :

والظاهر ان خلود أبى عبد الله الى السكينة جرأ أبا العباس على القيام بمحاولة ثانية قد تخلصه من الثورة الكتامية ، فعهد من جديد بقيادة الحملة الى ابنه محمد الأحول الذى كان قد قوى جنانه بعد انتصاراته الأولى ٠ وسار الجيش الكبير الذى انضم اليه خصوم الداعى من كتامة الى بلاد الراب متخذا نفس طريق الحملة الأولى ، فمر بسطيف وانتهى به المسار الى بلد مبوسة حيث خندق على عسكره ٠ وعندما علم أبو عبد الله بمقدم الأمير الأغلبى حشد رجاله وزحف اليه من ايكجان نحو بلد لهيصة ونزل فى موضع يعرف بـ « سدوسه » ٠ وبدأ القتال عندما بعث أبو عبد الله خيله لمهاجمة الجند الأغلبى فى معسكره ٠ وتحقق ما كان يهدف اليه أبو عبد الله اذ تمكن رجاله من هزيمة جند الأغلبى فى الميدان المفتوح بعد أن خرجوا من خندقهم ، فارتدوا اليه ٠

والظاهر أن الأحول خشى أن تحيط به القبائل وهو فى خندقه ، فقرر الانسحاب فى نفس الليلة على ضوء المشاعل الى سطيف ٠ وفى الصباح كان رجال أبى عبد الله يضربون فى ساقته ، ويغنمون ما كان قد بقى من رجاله فى معسكرهم ٠ وهكذا انتهى اللقاء الثانى بانهزام الأحول ، وعودة أبى عبد الله مظفرا الى ايكجان (١١٨) وأتى اغتيال أبى العباس (آخر شعبان سنة ٢٩٠هـ/ ٢٨ يوليه ٩٠٣ م) وولاية زيادة الله اللاهى ، الذى قتل أخاه الأحول فى شعبان التالى ، لكى تقوى من جنان أبى عبد الله وتطمعه فعلا فى هدم الدولة الأغلبية (١١٩) ٠

الاستيلاء على ميلة وسطيف :

هكذا تمكن أبو عبد الله فى سنة ٢٩١ هـ/٩٠٤ م من الاستيلاء على

---

(١١٧) افتتاح الدعوة ، ص ١٤٠ - ١٤١ ٠ وعن تاريخ وفاة ابراهيم « السبت ١٣ من ذى القعدة/١٩ أكتوبر » (ص ٩٢) ٠

(١١٨) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ : الذى يجعلها اللقاء الثالث للأحوال مع الداعى ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٤ ٠

(١١٩) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ١٤١ - ١٤٦ ، ١٤٨ - ، وقارن ابن الأثير سنة ٢٩٦ وعن خطورة مقتل أبى حوال الذى اعتبره النويرى أعظم فتح عند الشيعى ، انظر فيما سبق ص ١٦٢ ٠

ميلة بسهولة : حيث لا نجد في افتتاح الدعوة التي يلخصها ابن الاثير تفسيلات عن ذلك ، كما حدث في الاستيلاء عليها لأول مرة (١٢٠) . وبعد أن اطمأن أبو عبد الله الى استقرار الأمور في منطقة ميلة ، كان من الطبيعي أن يوجه انظاره الى سطيف التي كان واليها الاغلبي ، وهو علي بن حفص المعروف بابن عسلوجة الذي شارك الأحول في حملتيه ، والذي عرف في الناحية بالبطولة والنجدة ، يهدده دائما . ومما زاد في اشفاق أبي عبد الله من صاحب سطيف : أنه كان على علاقات طيبة بخصوم الداعي من زعماء كتامة الذين كانوا يقدمون له المعونة والجند في قتاله لأهل ايكجان .

بناء على ذلك لم يكن من الغريب أن تطاول مدينة سطيف حشود أبي عبد الله لمدة ٤٠ (أربعين) يوما حتى اضطر الداعي الى العودة الى ايكجان حيث أقام شهرا يدعو «الأولياء» الى الانضمام الى قواته . ورغم ذلك فعندما عاد الى سطيف في عسكر لا يحصى ، قاتله علي بن عسلوجة خارج المدينة قتال الأبطال ، وكان من الطبيعي أن ينتهي الأمر بالتجائه الى حصن المدينة حيث مات هو وأخوه حبيب ، متأثرا بجراحه — كما نظن — فانحل أمر سطيف ، كما يقول القاضي النعمان . ورغم ذلك فلم تذعن المدينة الا بالأمان الذي فاوض عليه الزعيم داود بن حباسة اللهيصي ، لأهل المدينة ولنفسه . وبر أبو عبدالله بأمانه فلم يقتل الا من يستحق القتل ، كما أمر بهدم سور المدينة ، قبل عودته الى ايكجان ، بعد أن عهد بولايتها الى بعض رجاله (١٢١) .

الدفاع عن منطقة القبائل والانتصار على ابن حبشي قرب قسنطينة :

لا شك أنه كان لسقوط سطيف وقع أليم في عاصمة الأغالبة ، وخاصة بين أولئك اللاجئين فيها من زعماء كتامة الذين حرضوا زيادة الله على معالجة الأمر قبل أن يفوت الأوان . وقام زيادة الله في سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م بحشد جيش عظيم يعتبر أكبر جيش سيره الأغالبة حتى ذلك الوقت ، ضد الداعي : اذ بلغت عدته ٤٠ (أربعين) ألف رجل ما بين فارس وراجل ، مسلحين أحسن تسليح ومزودين بالأموال والعتاد ، وعهد بالقيادة الى قريبه ابراهيم بن حبشي .

---

(١٢٠) انظر فيما سبق ، ص ٥٥٩ .

(١٢١) انظر افتتاح الدعوة . ص ١٥٤ — ١٥٦ ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ (حيث اسم علي بن عسلوجة : علي بن جعفر بن عسكوجة ، كما يوجد ذكر ايضا للزعيم اللهيصي (من تسار لهيصة) الذي كان لاجئا الى سطيف مع غيره من زعماء كتامة) . وقارن فيما سبق ، ص ١٦٨ .

ورأى العارفون بشئون الحرب أن يسير الجيش هذه المرة فى طريق يخالف الطريق الذى سار فيه الأحول من قبل ، فأخذ مباشرة على طريق «قسنطينة» فى طرف بلاد كتامة حيث نزل فى موضع لا يبعد الا مرحلتين فقط عن ايكجان . وعلى طول الطريق كان يستميل القبائل بالمال ، ويضرب العصاة . والظاهر أن ابن حبشى كان ينتظر أن ينزل أبو عبد الله اليه من معقله فى الجبل ، وهذا ما لم يفعله الداعى . وطال انتظار ابن حبشى فى قسنطينة لمدة ستة أشهر تضخمت فيها قواته برجال القبائل وبعسكر طبنة ، عاصمة الزاب ، بقيادة القائد شبيب بن ابى الشداد حتى وصل عسكره الى ١٠٠ (مائة) ألف رجل ، كما تقول الرواية بشىء من المبالغة على ما نظن (١٢٢) .

ولما لم ينزل أبو عبد الله من معقله ، ولما كان من الصعب على القائد الأغلبى أن يحتفظ بهذا الجيش الكبير ، الذى كان يتصخم مع مرور الوقت من أجل الأرزاق ، كما نظن ، قرر ابن حبشى أن يسير بقواته تلك للدخول فى عرين الداعى نفسه . فتقدم فعلا الى بلد اجانة (ايكجان) حيث نزل فى موضع يعرف عند القاضى النعمان بـ « كنونة »(١٢٣) .

ورغم ما يقوله القاضى النعمان من أن ابراهيم بن حبشى كان لا يعرف الحرب ، اذ نازل الخيالة المنتقاه التى أرسلها أبو عبد الله للتعرف على موضع نزوله، فالأرجح أن أبا عبد الله دبر تلك المفاجأة لابن حبشى الذى تهور فى مسالك الجبال الوعرة ، ففاجأ ساقته حيث أحمال الجيش وعتاده على الدواب والجمال ، فتشتت أمام فرسان الجبل المدربين . وقبل أن يفيق الجند الأغلبى من صدمة المفاجأة ، زحف اليهم أبو عبد الله بقواته الرئيسية فتمت الهزيمة على الجيش الجرار ، ولم ينج ابن حبشى الذى جرح الا بشق الأنفس . وهكذا تشتت الجند الأغلبى فى اتجاه باغاية من بلاد الزاب وسقطت أمتعة الجيش الكبير وأمواله وعتاده بين أيدى أصحاب أبى عبد الله (١٢٤) .

---

(١٢٢) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ . وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٥ ، فى فصل ذكر استيلاء أبى عبد الله على افريقية . حيث يقول انه انضم الى حبشى مثل جيشه ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ .

(١٢٣) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ١٥٨ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٨ : حيث القراءة فى المتن كينونة وفى الهامش كنونة ، كما فى احدى المخطوطات ، مما جعلنا نرجح قراءة المحققة وداد القاضى . أما قراءة ابن الأثير فهى كرمة (وكرمة فى احدى المخطوطات) .

(١٢٤) افتتاح الدعوة ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ، وانظر تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ٣٥ حيث الاشارة الى أن الوقعة كانت قرب مدينة بلزمة .

مغانم هائلة كان للمهدي نصيبه منها ، وهو في بسجلماسة :

وانتهت الملحمة الكبرى ، التي يصفها ابن عذارى وصفاً رائعاً ، بمقتل الكثير من الجند الأغلبي ، ووقوع الغنيمة العظيمة بين أيدى كتامة ، من : الأموال والسلاح والسروج واللجم وضروب الأمتعة . فاغتنوا بعد فقر ولبسوا الحرير وركبوا بسروج الفضة واللجم المذهبة (١٢٥) .

وأمام جسامة الكارثة التي ألمت بجيشه ، لم يتوقف ابراهيم بن حبشي الا ريثما يكتب الى زيادة بما حدث ، ولم ينتظر الجواب فرجع الى افريقيــة . بينما عاد شيب بن أبي الشداد قائد عسكر طبنة الى بلدته (١٢٦) .

وكان من الطبيعي أن يسعد أبو عبد الله بهذا النصر الكبير فكتب الى الامام بسجلماسة يخبره به ، كما أرسل اليه بأموال وذخائر مما غنمه ، من : الدنانير الذهبية وفاخر الثياب (١٢٧) .

فتح بلاد الزاب : طبنة :

شعر أبو عبد الله بقوته ، وقوى جنان أصحابه بعد اندحار العسكر الأغلبي الكبير ، وكان من الطبيعي ان يواصل المسيرة المظفرة الى آخر الشوط ، وكان من الطبيعي أن تكون طبنة هي هدفه التالي . فطبنة الى جانب كونها عاصمة الزاب كان بها حامية أغلبية كبيرة هي التي كانت قيادتها الى شيب بني أبي شداد القمودي المعروف بشيب الصغير ويعاونه خفاجة العبسي . كما كانت ملجأ لعدد من زعماء كتامة المناهضين لأبي عبد الله منذ بداية دعوته مثل : فتح بن يحيى المسالتي ، ولو أنه كان يعاني من جرح جائف أصيب به في حرب ابراهيم بن حبشي الخاسرة .

نادى أبو عبد الله في القبائل ، وحشد حشوده التي زحف بها ، وهو تحت مظلته ، الى طبنة وطوقها . وهال والى المدينة حسن بن أحمد بن نافذ المعروف بأبي المقارع كثرة قوات الداعي ، فاكتفى بالاعتصام بأسوار المدينة ، ومعه أعوانه ، من صاحب الخبز : محمد بن قرهب ، وصاحب العطاء: يحيى بن

---

(١٢٥) انظر البيان ، ج ١ ص ١٣٨ ، وما سبق ، ص ١٦٩ .

(١٢٦) افتتاح الدعوة ، ص ١٥٩ .

(١٢٧) إفتتاح الدعوة ، ص ١٦٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٩ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ (حيث تقول الرواية . وكتب الشيعي بالفتح الى المهدى مع رجال من كتامة اخفوا أنفسهم حتى وصلوا اليه وعرفوه بالخبر) .

القسرلي . وكانت قوات أبي عبد الله قد تقدمت في العسكرية فاصبحت تعرف من الحصار ،وتستخدم الآلات اللازمة له ، فتقدم «الأولياء» بدبابة من دباباتهم ، ونقبوا برجا من أبراج السور ، وألجأوا المدافعين عنه الى الهرب . وبذلك نجحوا في الدخول الى المدينة التي كان عامة أهلها من التجار ، فأمنهم الداعي . أما الوالي أبو القارع ومن معه من الزعماء الكتاميين والعمال الأغالبة ، فانهم اعتصموا بالقلعة ، ولكنهم لم يلبثوا ان استسلموا بالأمان أمام ابى زاكي تمام بن معارك ، وبموافقة أبي عبد الله نفسه . ومع أن أبا عبد الله قتل عدوه القديم الفتح بن يحيى ، فانه عفا عن الوالي أبي القارع ، وصحبه معه الى ايكجان حيث قربه منه ، وذلك بعد أن عهد بولاية طبنة الى أبي عبد الله يحيى بن سليمان (١٢٨) .

فتح بلزمة :

وبعد طبنة أتى دور بلزمة التي فشل أبو عبد الله في احدها في ثلاث حملات متتالية في ثلاث سنوات متعاقبة ، اذ كانت المدينة ذات الأسوار الحصينة تدافع عن نفسها بما يصنعه أهلها من المجانيق والعرادات وآلات الحروب ، فكان أبو عبد الله يكتفي بافساد زروعها . وأمام استعداد بلزمة هذا في حرب المطاولة الآلية ، أتى أبو عبد الله هذه المرة مزودا بآلات الحصار القوية ، من : الدبابات والأبراج ، ولكن أهل بلزمة الخبراء في حرب الحصار نجحوا في احراقها . ولكنه مع اشتداد الحصر جاع أهل المدينة الذين أكلوا الجلود والدرق ، واضطروا الى الاستسلام بعد أن مات واليهم يحي بن تميم . فيئسوا من الاستمرار في المقاومة .

وهكذا فتحت بلزمة عنوة ، فقتل من كان قد بقي من مقاتلتها . واذا كان القاضي النعمان يقول : ان عسكر الداعي لم يعرضوا لامرأة حرة ، فهو ينص على انهم غنموا ما وجدوه في المدينة من : الأثاث والأمتعة وغيرها ، مما عادوا به الى ايكجان ، بعد أن هدموا سور المدينة بأمر الداعي (١٢٩) .

---

(١٢٨) انظر افتتاح الدعوة ص ١٦٠ – ١٦٣ وقارن ابن الأثير (الذي يلخصه ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٦ (ابن خلدون ج ٤ ص ٣٥) وانظر فيما سبق ص ١٧٢ وما بعدها .

(١٢٩) انظر افتتاح الدعوة ص ١٦٤ – ١٦٥ ، ابن خلدون ج ٤ ص ٣٥

هزيمة الجند الأغلبي في دار ملول :

كان لسقوط عاصمة الزاب وبعدها بلزمة بين أيدي الايكجانيين وقع عظيم في قلب زيادة الله الذي أعد جيشا عظيما بلغ اثني عشر ألف رجل من الفرسان والرجالة الذين أوسع عليهم في العطاء حتى يحسنوا القتال هـذه المرة ، وجعل قيادتهم الى هرون بن الطبني ، وأمره بالمسير الى باغاية حيث كان واليها أخوه زيادة الله الطبني ، ووفى باغاية وفد عليه كثير من رجال القبائل الذين أجزل لهم العطاء مما كان يحمله من الأموال .

والظاهر أن وجهة هرون كانت بلزمة ، ولكنه عرج في الطريق اليها على بلدة تعرف بدار ملول ، كانت قد دخلت في طاعة أبي عبدالله ، فدخل عليهم بكل قواته فهدم حصنهم ، وقتل من وجده فيه • ولكن الجيش الكبير انتابه الهلع فجأة عندما واجه جريدة لأبي عبد الله كانت قد خرجت بقيادة عروبة بن يوسف لتستطلع أخبار الجند الأغلبي ، فتصايح الرجال وفروا نحو الجبل القريب للتحصن فيه • وعندما تأكد عروبة أن ليس في الأمر مكيدة، تبعهم يقتلهم ويغنم عتادهم • وهكذا انهزم الجند الأغلبي نحو باغاية دون قتال ، بعد أن ترك قائده هرون في أرض المعركة ، وأمواله وعتاده غنيمة سهلة بين أيدي أصحاب أبي عبد الله • وأتت انباء الهزيمة الى زيادة الله من قبل عامل باغاية فزادته غما على غم (١٣٠) •

فتح تيجس :

والظاهر أن هزيمة دار ملول ، وما لقيه العسكر الأغلبي قبلها من الهزائم ، شجع أعوان أبي عبدالله في المنطقة على أن يجربوا حظهم في الاستيلاء على بعض مدائن الأغالبة • فقد انتهزت جماعة من هوارة الفرصة وسارت الى أبي عبد الله في ايكجان وعلى رأسها حمزة الملزي الذي استأذن الداعي في الغارة على نواحي بلده • ونجح حمزة فعلا في الغارة على البريد الآتي من القيروان الى باغاية ، فقتل صاحبه وحمل ما كان معه من الكتب الى أبي عبد الله •

وتشجع أصحاب حمزة الملزي فصاروا يضربون في النواحي حتى جاوزوا مدينة تيجس التي كان بها رابطة اغلبية من ٥٠٠ (خمسمائة) فارس تحت قيادة

---

(١٣٠) افتتاح الدعوة ، ١٦٤ ـ ١٦٦ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ (حيث القراءة : مدينة ازمول بدلا من دار ملول) •

الوالي ابن ركاب ، ويعاونه أحد غلمان زيادة الله • وأمام غارات الهوآريين مستمرة يرى والي تيجس أن الحكمة تقتضي الدخول في حماية ايكجان ، فراسل أبا عبد الله وأعلن خضوعه له ، وسأله أن يرسل اليه جيشا لمواجهة الحامية الأغلبية • وتطلب الأمر من الداعي ارسال جيشين الى تيجس لكي تستسلم المدينة ، ولكن على أن تخرج الحامية الأغلبية من الحصن باسلحتها وعتادها • وهكذا سقطت تيجس بالأمان وعاد جندها الأغلبي الى زيادة الله ، بينما دخل ابن ركاب في الدعوة (١٣١) •

وكان لوفاء أبي عبد الله لرابطة تيجس أثره الحسن في قلوب اهل افريقية ، فبعد أن كانوا يخشون غدر أصحابه مالت نحوهم قلوبهم ، كما نزل النعمان • وبذلـــك اضطربت البلاد وتوقعوا وصـــول ابي عبد الله اليهم (١٣٢) •

حرب الدعاية ضد أبي عبد الله وفشلها :

أمام فشل زيادة الله في حرب الايكجاني بالمساكن قرر ان يجرب ضده حرب الدعاية النفسية ، كما نقول الآن ، فكتب كتابا ضد أبي عبد الله وأمر بنشره في مختلف البلدان • نسب زيادة الله في كتابه هذا الى أبي عبد الله : الكفر ، وتبديل الدين ، وارتكاب المحارم ، وأنه يلعن الصحابة ويستحل دماء المسلمين ، الى جانب انصرافه الى اللهو والعبث وشرب الخمر • كما حذر الناس من ارجاف المرجفين و « تهويل المهولين امر الفاســـق اللعين »(١٣٣) • ويشكك القاضي النعمان في كتاب الخليفة المكتفي في أمر الداعي الذي كتبت منه نسخ قرأت على المنابر ، والذي يصف أبا عبد الله بما يشبه الأوصاف السابقة ، ويضيف الى ذلك ثقة الخلافة بزيادة الله ، ويطلب من أهل افريقية الوقوف الى جانبه(١٣٤) •

واتت تلك الدعاية بعكس ماقصدمنها • فكتاب زيادة الله أثار السخرية

---

(١٣١) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٦٧ — ١٦٩ ، وقارن ابن الاثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ١٦ ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ (حيث القراءة : يتجبت بدلا من يخشى) •

(١٣٢) افتتاح الدعوة ، ص ١٧٠ • وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ (حيث النص على ان قائد الشيعي المظفر هو يوسف الغساني) •

(١٣٣) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٧٠ — ١٧٣

(١٣٤) افتتاح الدعوة ص ١٧٤ — ١٧٧ •

بذكره مفاسد الداعي وذكر الناس بمفاسده هو نفسه ، كما لم يزدهم « الا خوفا وارجافا ، وتهاونا بامره واستخفافا » (١٣٥) . وفيما يتعلق بكتاب الخلافة فقد أثار مثل هذه المشاعر في نفوس الناس ، أما عن تحريضه الناس للوقوف الى جانب أميرهم زيادة الله ، فكان ردهم : « وما عسى أن يصنع الرعية له ؟ انما الرعية لمن غلب » (١٣٦) .

تظاهرة الخروج الى الأربس :

ولكي تؤتي حرب الدعاية التي شنها زيادة الله على الداعي ثمارها ، رأى الأمير الأغلبي أن يصحبها بعمل ايجابي ملموس فقرر الخروج بنفسه لملاقاة خصمه . فأخذ يعد العدة للحرب ، فجهز السلاح والأموال ، وبالغ في شراء الناس بالمال فأجزل لهم العطاء الذي بلغ خمسين دينارا : كان يفرقها فرقا بالصحاف ، حتى أنفق الكثير مما كان في خزائنه من الذخائر والحلي والخلع . وفي أول سنة ٢٩٤ هـ/نوفمبر سنة ٩٠٤ م خرج يتقدمه شيوخ أهل القيروان الى مدينة الأربس القريبة ، التي أصبحت وكأنها ثغر افريقية مع الداعي . ولكنه بعد أن أقام فترة في الأربس حيث وافته العساكر ، نصحه مستشاروه بعدم المغامرة بنفسه فاستحسن ذلك ، ورجع الى قصره برقادة بعد أن عهد بقيادة العسكر في الاربس الى قريبه ابراهيم بن أبي الاغلب ، الذي كان معدودا من الشجعان (١٣٧) .

فتح باغاية :

بعودة زيادة الله من الأربس ، توجس الناس خيفة في القيروان فأقاموا المحارس على أبوابها ، وأقاموا بها ليلا ونهارا . وعندما بلغت هذه الأخبار الى أبي عبد الله بدأ حملته الكبرى التي انطلق فيها كـ « رصاصات الرحمة » كما يقال الآن ، بالنسبة للمملكة الأغلبية المضمحلة . فلقد انتهز الداعي مكاتبة عدد من زعماء باغاية ، ممن رأوا الدخول في طاعته برغبتهم بدلا من الدخول فيها قسرا ، فزحف الى المدينة في جيش كبير . وجزع عامل باغاية الأغلبي وفضل الهرب بنفسه فسار الى الأربس ، بينما دخل أبو عبد الله

---

(١٣٥) افتتاح الدعوة ص ١٧٤ .

(١٣٦) افتتاح الدعوة ، ص ١٧٨ .

(١٣٧) افتتاح الدعوة ، ص ١٧٨ - ١٨١ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٦ ؛ حيث يجعل الخروج الى الأربس سنة ٢٩٥ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥) .

المدينة بالأمان • وبعد أن أقام فيها أياما عهد بولايتها الى أبى يوسف ماكنون ابن ضمارة الأجانى (عم أبى زاكى) ، وترك له حامية • كتامية من خمسمائة رجل ، بينما عاد هو الى ايكجان (١٣٨) •

وعندما وصلت هذه الأخبار السيئة الى زيادة الله ، جمع ثقاة مستشاريه ، وطلب منهم النصح والمشورة • واختلفت الآراء : فبينما نظر البعض فى ضرورة ارسال ابن أبى الأغلب من الأربس الى الزاب لاستعادة باغاية ، رأى الوزير عبد الله بن الصائغ أن ذلك يعرض الجيش لخطر قوات أبى عبدالله نفسها ، وأن الأوفق لابن أبى الأغلب هو البقاء فى الأربس متربصا ، فاذا حاول الداعى الخروج الى غير باغاية من المواضع لحق به ، ومنعه من تحقيق مأربه (١٣٩) • ومع وجاهة رأى الوزير هذا ، فهو يعنى فى حقيقة الأمر أن القوات الأغلبية كانت أعجز من أن تلاقى قوات أبى عبد الله سواء فى باغاية أو غيرها •

وهذا ما تعبر عنه الرواية ، عندما تقول : ان زيادة الله استمع بعد ذلك لنصحاء السوء ، الذين أغروه بالانصراف الى اللهو والشراب ليخفف عنه هموم أبى عبد الله ، وأن هذا ما فعله (١٤٠) . ولو أنه ظل يمد ابن أبى الأغلب بالاموال والرجال (١٤١) •

عمليات جس نبض محدودة :

اخذ مجانة :

عندما تأكد أبو عبد الله من أن عسكر زيادة الله مقيم بالأربس لا يتحرك منها ، قرر مواصلة العمل فى اقتطاع المملكة الأغلبية قطعة بعد أخرى •

---

(١٣٨) افتتاح الدعوة ، ص ١٨١ - ١٨٢ •

(١٣٩) افتتاح الدعوة ، ص ١٨١ - ١٨٢ •

(١٤٠) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٨٣ حيث يقول النعمان ان بعض ندمائه نصحه بذلك وهون عليه أمر ضياع باغاية ، ورتب له دورا غنائيا يسمعه فى مجلس الشراب قوامه ذلك البيت الذى يقول : « اشرب واسقينا من القرن يكفينا » ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، وانظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٣ • حيث يقول ان زيادة الله هو الذى كان يقول لندمائه اذا فكر فى زوال ملكه « املأ واسقنى من القرن يكفينى » • وانظر فيما سبق ، ص ١٧٥ وص ٥٧٣ •

(١٤١) افتتاح الدعوة ، ص ١٨٥ •

وكانت مجانة هي هدفه في هذه المرة اذ سير اليها ألف فارس انتقاهم من خيرة فرسانه ، وعلى رأسهم أبو مدين ابن أبي كناوة اللهيصي ، وسارت كتيبة الفرسان الى باغاية ، ومنها خرجوا نحو مجانة ، وعندما رأى واليها الأغلبي ، خفاجة العبسي ، اقترابهم ظهر لهم حيث قاتلهم طيلة النهار الى أن حل الليل فدخل المدينة • والظاهر أن خفاجة وجد الا قبل له بمقاتلة أصحاب أبي عبد الله ، فاكتفى بالبقاء خلف الأسوار ولما كانت كتيبة الفرسان غير مستعدة لحرب الحصار فان رجالها اكتفوا بنهب المنازل القريبة من قلعة مجانة ، قبل أن يعودوا الى ايكجان •

وتطلب الأمر عودة أبي مدين مرة ثانية الى مجانة عن طريق باغاية ، وتبسا • ونجح أبو مدين هذه المرة في مفاجأة خفاجة وخيالته ، وانتهى القتال الدامي بمقتل خفاجة وعدد كبير من رجاله ، بينما نجا عدد منهم الى القلعة (١٤٢) • ومع أن القاضي النعمان يتبع ذلك بقوله : أن عسكر أبي عبدالله عاد برأس خفاجة الى ايكجان ، فالأغلب الظن أنهم فعلوا ذلك بعد أن سقطت قلعة مجانة بين أيديهم ، كما ينص على ذلك ابن الاثير (١٤٣) •

اخذ قصر الافريقي ، وتيفاش ، وقالمة :

هكذا فرض أبو عبد الله سلطانه على المنطقة ، فكان له الحكم بين القبائل المتصارعة هناك ، كما عرف كيف يستفيد من تلك الصراعات • فعندما استنصرت به قبيلة كزناية اثر خلاف نشب بينهم وبين أهل قصر الافريقي انتهز الفرصة وسير عسكراً بقيادة أحمد بن سليمان السكتاني ، هزم مقاتلة أهل قصر الافريقي حتى جلوا الى بلدة طبرشق ، كما أثخن في قبائل المنطقة ونهبهم ، قبل العودة الى ايكجان (١٤٤) •

ولما رأى الوالي الأغلبي لبلدة تيفاش ، وهو اسحاق بن أبي سلامى ، جولات عسكر أبي عبد الله في المنطقة وصولاته دون أن يتحرك لذلك جند الأربس وطلب الرجال العافية فسار بنفسه لاجئاً الى ايكجان (١٤٥) • وعندما

---

(١٤٢) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٨٦ - ١٨٧ •

(١٤٣) الكامل ، أحداث سنة ٢٩٦ هـ/ج ٨ ص ١٦ ، وانظر ابن خلدون ج ٤ ص ٣٥١
- حيث القراءة : قرطاجنة بدلا من مجانة •

(١٤٤) انظر افتتاح الدعوة ص ١٨٧ - ١٨٨ •

(١٤٥) افتتاح الدعوة ، ص ١٨٨ - والقاضي النعمان لا يذكر سببا لذلك ، وربما كان مسيره بسبب خلاف بينه وبين أعوانه أو عسكره •

شرف ريده الله بذلك كان من الصعب عليه أن يجد بين أصحابه من يرضى بالمغامرة بعيدا فى متناول أبى عبد الله وان كان من أهل الولاية ، وأخيرا وصف له رجل من وجوه أهل تيفاش ، هو حبيب بن ليفة ، « فكتب اليه بالولاية ، وبعث اليه بصلة وخلعة ، فقبل وتولى أمر تيفاش »(١٤٦) .

ولما كان أهل تيفاش على صلة بأبى عبد الله ، فانهم أخبروه بأحوال البلد وسألوه أن يوجه اليه عسكرا ليأخذه . وكان على رأس كتيبة الفرسان التى سيرها أبو عبد الله أحد الدعاة ، هو صولات بن القاسم السكانى . وما كاد فرسان كتامة يقتربون من تيفاش حتى خرج حبيب بن ليفة هاربا الى ابن أبى الأغلب بالأربس . وهكذا دخل صولات تيفاش بالأمان ، وتولى أمرها (١٤٧) .

وكان لوجود العسكر الكتامى فى تيفاش فعل السحر فى دخول أهل الناحية فى الدعوة .

فالى تيفاش وصل خلفون بن مهدى قائد عسكر قالمة وسأل صولات الأمان لأهل البلدة والدخول فى الدعوة . ووافق صولات على أن يبعث اليه بعض رجال المدينة ، ومنهم صاحب السكة ، ابراهيم بن البروح ، وسير معه ثلاثمائة فارس (١٤٨) .

وتبع ذلك أن وصل الى صولات وفود من بنى ورديم يطلبون الأمان وكذلك من بنى هراش ، فأجابهم ، وطلب الى رجال الوفود هؤلاء بالانتقال الى ايكجان ، دار الهجرة (١٤٩) .

وهكذا كانت سيطرة أبى عبد الله تتأكد فى المنطقة ، لم يضعف من شأنها ما قام به ابراهيم بن أبى الأغلب ، بتحريض حبيب بن ليفة ، من استعادة تيفاش لفترة من الوقت . اذ لم تستطع الحامية الكتامية الصغيرة ،

---

(١٤٦) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٨٨ .

(١٤٧) افتتاح الدعوة ، ص ١٨٩ ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ٣٥ . حيث اسم قائد الشيعى . صواب بن ابى القاسم بدلا من صولات بن القاسم .

(١٤٨) افتتاح الدعوة ، ص ١٨٩ .

(١٤٩) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٠ .

المكونة من مائتي فارس من الوقوف طويلا أمام الجيش الأغلبي الجرار (١٥٠) .

وفي مقابل ذلك النجاح الذي حققه الأغالبة في تيفاش بتكاليف باهظة، مد أبو عبد الله الشيعي نفوذه الى بونة . فلقد استغل صراعا قام بين قبيلة أوربة هناك ، وسير قبائل كتامة الى تلك الجهة حيث قسموا المنطقة الى ثلاثة أثلاث ، ما بين ساحل البحر وقلب الفحص ، فشنوا الغارات عليها وقتلوا وغنموا ، ثم تجمعوا قرب باب المدينة المعروف بزانة ، وعادوا سويا محملين بالمغانم الى أيكجان (١٥١) .

الاجتياح الأخير ، ومحاولات الأغالبة في الصمود :

بفضل هذه العمليات العسكرية المحدودة ، عرف أبو عبد الله الشيعي أن جيش الأربس الأغلبي لا يكون في الحقيقة ، حائلا بينه وبين تحقيق هدفه النهائي ، وهو انهاء حكم الأغالبة في أفريقية ، فقرر أن يأخذ أزمة الحرب بين يديه ، وأن يباشرها بنفسه . فقد خرج الداعي في سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٨ م ، من ايكجان في جيش نظامي كبير ، واتجه الى باغاية ، ومنها وصل الى مسكيانة ثم خرج منها على تبسا .

وواضح من رواية القاضي النعمان أنه لم يكن أمام تلك المدن الا أن تفتح أبوابها لأبي عبد الله . فلم يقف أمامه الا أهل ميدرة الحصينة (حيدرة الحالية) ، حيث كان قد لجأ اليها المعاندون من بقايا أهل قصر الافريقي ، ومجانة ، وتبسا ، ومرماجنة ، وغيرهم : ممن ظلوا كارهين لدعوة أيكجان . فقد تحصن هؤلاء بأسوار البلدة ، وبينما كان العسكر الكتامي يضرب الحصار على ميدرة عاودت علة الحصاة أبا عبد الله فانشغل بنفسه عن القتال . وهكذا عندما أطل أهل البلدة من أعلى الأسوار وسألوا الكتاميين الأمان ، أجابهم هؤلاء ، ولكنهم ما ان فتحوا باب المدينة حتى فوجئوا بالكتاميين يضعون السيف في رقابهم وينهبون ما تقع عليه أيديهم ؛ مما اغتم له أبو عبد الله حتى انه خرج بنفسه رغم ما كان يعانيه من الألم ، لكي يستنقذ ما أمكنه استنقاذه من أيدي العسكري .

---

(١٥٠) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٠ — حيث تقول الرواية ان حبيبا بن ليلة قتل الرجل الذي دعا أبا عبد الله لدخول تيفاش وهو عبد الله بن كليب ، اللذين كان شيخيا قائدا . وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ (حيث النص على ان الذي اقتحم تيفاش أهل العسكر الكتامي هو القائد ابراهيم بن أبي الأغلب الملقب خلف أبا حوال) .

(١٥١) افتتاح الدعوة ، ص ١٩١ .

وحق لأبي عبد الله أن يغتم لذلك ، فلما وصل الخبر القيروان حتى قام رجال زيادة يشنعون عليه وعلى أصحابه ، وينسبون اليهم الغدر وعدم الوفاء بالعهد (١٥٢) ، وكتب زيادة الله في ذلـــك الكتب التي قرئت من على المنابر (١٥٣) .

ومن حيدرة رحل أبو عبد الله الشيعي ، وأخذ بلدة القصرين من اقليم قمودة في جنوب بلاد القيروان بالأمان ، ومنع عسكره من دخول المدينة ، فكان أهلها يسايعون من الكتاميين من فوق الأسوار (١٥٤) .

انتصار محدود للأغالبة :

وظهر لابراهيم بن أبي الأغلب ، وكان أبا عبد الله قد قرر الصعود نحو رقادة حيث زيادة الله في عسكر قليل ، فترك الأربس واتجه نحـــو أبي عبد الله ، الذي كان في القصرين ، ونزل في موضع يعرف بـ « دار مدين » (١٥٥) . وتم اللقاء بين الجيشين الأغلبي والكتامي فيما بين دار مدين والقصرين ، والظاهر أن القتال الذي بدأ بانتصار مبدئي لعسكر ابن أبي الأغلب على مقدمة عسكر أبي عبد الله انتهى ، عند حلول الليل ، بانسحاب هــــذا الأخير نحو القصرين ، من حيث عاد الى ايكجان . واكتفى ابن أبي الأغلب بذلك ، فلم يحاول متابعته وكتب الى زيادة الله بالنصر ، فكتب بدوره السجلات التي قرئت في البلدان على المنابر (١٥٦) .

موقف تردد وحيرة من جانب اهل الاقليم بين الجانبين المتصارعين :

والظاهر أن ذلك النصر المحدود الذي حققه الجيش الأغلبي ، والدعاية الكبيرة التي روجها زيادة الله حول جيشه المنصور ، كان له الاثر في نفوس أهل المنطقة الذين احتاروا في احتيار الطرف الذي تقضي المصلحة بالوقوف الى

---

(١٥٢) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٢ ، وانظر ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٦

(١٥٣) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٣ .

(١٥٤) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٣ ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٧ .

(١٥٥) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ١٩٣ ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٧ : حيث القراءة «دودمين» .

(١٥٦) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٣ — ١٩٤ ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٧ .

جانبه . وكانت نتيجة ذلك انزال العقوبة بهم من هذا الجانب أو ذاك . وتلك سمة فترات مثل تلك الأزمة التي قد لا يعرف فيها ، حتى أولي الأمر أنفسهم ، من أين تهب الرياح المضطربة .

فلقد تصورت بعض قبائل منطقة قصر الافريقي وطبرشق أن الرياح غيرت اتجاهها وأصبحت تسير نحو الأربس وليس ايكجان ، فسارت وفود منه الى ابن أبي الأغلب يعلنون الطاعة ، مثل : بني وشنو ، وبني هراش . ولم يسلم التعساء من انتقام أبي عبد الله الذي سير اليهم عسكرا بقيادة عروبة ابن يوسف ، فاجأهم على حين غرة فقتلهم ، ونهب ديارهم قبل أن يطلق فيها النيران (١٥٧) . وكذلك فعل أبو عبد الله ببني ماجن (من هوارة) عندما خرجوا على طاعته .

اما عن أولئك الذين بقوا على ولائهم لأبي عبد الله ، فانهم وقعوا بدورهم فريسة لانتقام الأغالبة . فبينما كان فرسان الداعي يعاقبون أهل قصر الافريقي وطبرشق ، كانت بعض قوات ابراهيم بن أبي الأغلب تجول في المنطقة بقيادة ابن الهمداني ، لمعاقبة قبيلة بني ورديم ، لدخولهم في طاعة ايكجان . وتم اللقاء في أرض بني ورديم بين قوات أبي عبد الله وقوات ابن أبي الأغلب . ووجد سيئو الحظ من بني ورديم أنفسهم بين شقي الرحا ، كما يقال ، بين القوتين المتنافستين على سيادتهم ، وكانت كل قوة منهما قد عسكرت على الجبلين المشرفين عليهم ، وهـــم في الوادي بين الجبلين محصورون .

ولم يطل تردد بني ورديم طويلا ، وذلك ان خوفهم من عقاب أبي عبدالله اذا ما استسلموا للعسكر الأغلبي ، دفعهم الى الاستبسال في قتال ابن الهمداني ورده عن بلدهم (١٥٨) .

الاستيلاء على اقليم قسطيلية من بلاد الجريد :

واستمر أبو عبدالله في تنفيذ خطته التي تلخصت في اقتطاع اقالي

---

(١٥٧) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٥ . وانظر ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ/ج ٨ ص ١٧ ، الذي أهمل تلخيص هذه الأعمال التي اعتبرها ثانوية قليلة الأهمية (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥) .

(١٥٨) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٥ — ١٩٦ . ولقد أهمل ابن الأثير تلخيص هذه الأحداث هي الأخرى — سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٧ .

المملكة الأغلبية المحيطة ببلاد القيروان ، قطعة بعد أخرى • فبعد شهرين أوقف خلالهما غاراته حتى قيل انه مريض ، وحتى ظن الأغالبة انه مات (١٥٩) ، خرج من دار الهجرة بايكجان على رأس قوات عظيمة ، وقد قرر أن يضم قسطيلية ، هذه المرة ، الى بلاده • وكان عليه أن يسير الى باغاية التى أصبحت قاعدة العمليات فى المنطقة •• وفى باغاية وافاه واليه على طبنة ، عاصمة الزاب بعسكره ،وقدم اليه كتبا كان قد أرسلها المهدى من سجلماسة مع بعض الرجال الذى تعرضوا لقطع الطريق عليهم من قبل جماعة من زناتة فلم ينج حامل الكتب وحده الى طبنة الا وهو فى الرمق الاخير (١٦٠) • وهال أبو عبد الله جرأة زناتة على رسل المهدى وفكر فى تغيير مسيرته لمعاقبتهم فى بلادهم البعيدة ، ولكن مشايخ كتامة أقنعوه بارجاء ذلك الى الوقت المناسب، تحسبا لمفاجأة قد تقع فى بلادهم من قبل الجند الأغلبى •

أخذ « توزر » وقفصة :

وهكذا صارت القوات الكتامية الى قسطيلية • والملاحظ أن رواية القاضى النعمان التى يلخصها ابن الأثير ، تجعل من قسطيلية ، وهى الاقليم الكبير مدينة قاتل أهلها أبا عبد الله ساعة من نهار قبل أن يستسلموا بالأمان • وهذا لا بأس به ، فالمفروض أن مدينة قسطيلية تعني ، فى هذا المقام ، قاعدة الأقاليم كما هى العادة فى تسمية العواصم باسم البلد أو العكس ، وذلك يعنى أن المقصود هو مدينة توزر العاصمة (١٦١) • وهذا ما يتضح فى رواية ابن عذارى التي تقول ان قائدى زيادة الله ، وهما : منصور بن اسماعيل وشبيب بن الصارم ، انهزما الى توزر تتبعهما خيل الداعى وهى تحـــرق القرى (١٦٢) •

وبعد أن استولى أبو عبد الله على ما كان فى بيت المال ، سار من عاصمة قسطيلية الى قفصة التى استسلمت هى الأخرى بالأمان ، وبعد أن أخذ ما كان فى خزانتها من المال رجع الى باغاية ••وبعد اقامة قصيرة ترك أبو عبد الله حامية من ٥٠٠ (خمسمائة) رجل فى باغاية بقيادة أبى مكدول

---

(١٥٩) انظر فيما سبق ، ص ١٧٩ وهـ ٥٦٠ •
(١٦٠) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٩٧ •
(١٦١) الاستبصار ، ص ١٥٥ •
(١٦٢) انظر فيما سبق ، ص ١٧٨ وهـ ٥٨٩ •

يعاونه عروبة بن يوسف ،وعاد الى قاعدته فى ايكجان (١٦٣) ٠

محاولة اخيرة لاثبات الوجود من جانب الأغالبة :

وعندما بلغ خبر عودة أبى عبد الله الى بلده تنفس ابراهيم بن أبى الأغلب الصعداء ، وذلك أنه كان يخشى أن يكون هدف الداعى التقدم من الجنوب التونسى نحو القيروان ، حتى أنه أعد العدة لترك الأربس والعودة الى زيادة الله اذا ما حدث ذلك ٠ ولكنه عاد وتشجع عندما عاد الداعى الى بلده وعلم بضعف حامية باغاية ، فسار اليها بكل عساكره ٠ واستغاث أبو مكدول ، قائد الحامية ، بأبىعبد الله الذى دعا كتامة ففاضت اليه من كل جانب ٠ وانتخب أبو عبد الله ١٢ (اثنى عشر) الف فارس من خيرة رجاله ، وقدم عليهم ابا مدين بن فروخ اللهيصى وأمره باللحاق باخوانه فى باغاية للدفاع عنها ضد الأغالبة ، اذا لم يكونوا قد انسحبوا من المنطقة ٠

وعندما وصل أبو مدين الى باغاية وجد أن اخوانه بها ، رغم قلة عددهم، كانوا قد قاتلوا الجند الأغلبى قتالا عنيفا حتى يأس هؤلاء الاخيرون من هزيمتهم وخشوا أن يأتى المدد الى الحامية من أبى عبد الله ، فارتدوا على أعقابهم نحو الأربس ٠ وحسب أوامر أبى عبد الله لم يتبع أبو مدين الجند الأغلبى الا الى موضع يعرف بفج العرعار (١٦٤) ٠

الانتصار الفاصل لأبى عبد الله فى الأربس :

عندما تحسنت الأحوال الجوية عبأ إبو عبد إلله حشوده وخرج من ايكجان فى أول جمادى الأخرى من سنة ٢٩٦ هـ/٢٥ فبراير ٩٠٩ م ، وهو ضد الجيش الأغلبى المعسكر فى الأربس ٠ وعرج الداعى ، كما هى العادة، على مدينة باغاية التى أصبحت القاعدة الحقيقية لعملياته العسكرية ، حيث عرض جيوشه التى بلغت ٢٠٠ (مائتى) ألف رجل ما بين فارس وراجل ، كما يقول القاضى النعمان الذى ينص على أنه اجتمع فى مقابل ذلك فى الأربس من الجند الأغلبى أعداد لا يحصيها الا الله ٠ وبعد العرض العسكرى سار أبو عبد الله فى اتجاه مسكيانة ، من حيث سار بحذاء واديها الى أن

---

(١٦٣) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٨ ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٧ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ ــ حيث القراءة : ابى مكدولة الجيل بدلا من ابى مكدول)٠

(١٦٤) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٩٩ ــ ٢٠٠ ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ١٧ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥) ٠

وصل الى وادى مجانة ، ومنه الى وادى مرماجنة ثم وادى الرمل ، على أربعين ميلا من القيروان ، حيث أقام معسكره (١٦٥) ٠

وقبل أن يتجه الى الأربس رأى أبو عبد الله أن يتعرف أحوال المنطقة وما يمكن أن يكون فيها من الجند الأغلبى ، وما يمكن أن يقوم به من المقاومة٠ ففى يوم الخميس ٢١ من جمادى الآخرة / ١٦ مارس بعث سرية من خيالته نيبت بلدة منيولة ٠وفى يوم الجمعة التالى وسع أبو عبد الله نطاق جولات فرسانه الى : شقبنارية (الكاف حاليا) التى خضعت بالأمان ٠ وارض بنى جودان حيث التقت بسرايا ابن أبى الأغلب وتقاتلت معها ٠

خطة المعركة :

وبعد أن اطمأن الى حالة المنطقة ٠ عبأ رجاله يوم السبت ٢٣ من جمادى الأخرى / ١٨ مارس بعد أن عرضهم فى هيئة الحرب ميمنة وضع فيها بنى نيطاش ٠ وميسرة جعل فيها بنى يناوة وقلبا وضع فيه قبيلتى ملوسة ومسالتة ٠ أما هو فقد وقف على رأس عشرة آلاف فارس انتقاهم من الدعاة ورؤساء القبائل وأصحاب المعرفة بمكائد الحروب(١٦٦) ٠ وعلى هذه التعبئة زحف الى ابراهيم بن أبى الأغلب بالأربس الذى كان بدوره قد عبأ عساكره للحرب ٠

حرب الكمائن تقرر مصير المعركة :

وعندما التحم القتال فى سهل الأربس كان أبو عبد الله يقف فى مقدمة فرسانه على تلة مشرفة على المدينة يشاهد القتال الدامى ، الذىسقطت فيه أعداد كثيرة منالفريقين ٠ وظهر لأبى عبد الله خلال الحرب التى استمرت من الصباح الى وقت العصر أن الجند الاغلبى يقاتل آخر معاركه باستماتة أشفق منها على رجاله ٠ وعندئذ قرر انتخاب حوالى ستمائة رجل من أشداء رجاله ، ورسم لهم أن يعبروا المخاضة (المسيلة) المتاخمة لميدان المعركة ، وأن يدبروا كمينا للخيالة الأغلبية التى لا تريد أن تنهزم ٠ والظاهر أن الموقف الحربى وقتئذ كان يقضى على كل من الجانبين المتحاربين أن يحاول

---

(١٦٥) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ٢٠١ والهوامش ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٧ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦) ٠

(١٦٦) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣ ٠

مثل تلك المحاولة ، اذ التقى رجالة كتامة ، وهم عراة فى المخاضة ، برجالة الأغالبة · وانتهى ذلك اللقاء البرمائى العجيب بتفوق الكتاميين الذين خرجوا برماحهم ودرقهم ، يفاجئون الخيالة الأغلبية ويرجحون كفة فرسان كتامة عليها (١٦٧) ·

وهكذا انكسرت مقاومة القوات الأغلبية فجاة ، وتفرق العسكر فى اتجاه بلادهم : فأخذ ابراهيم بن أبى الاغلب ومن معه من رجال الدولة الطريق على جبل الحراقين ، وانهزم من كان من قبائل : لواتة وكزناية ومكلاتة على طريق « جثيرمس » ، وهرب الهواريون والنفزيون على طريق بنى يشير.. بينما انهزم العبيد واخلاط الناس من أهل الريقية فى اتجاه القيروان · كل هذا والكتاميون فى أعقابهم يقتلون ويأسرون ويغنمون ، ووصلت جماعات منهم فى متابعتها للمنهزمين حتى مدينة الأربس ، ثم انهم عادوا الى معسكرهم عندما جن الليل (١٦٨) ·

أما عن الأربس نفسها فانها تعرضت للعاصفة الكتامية فى يوم الأحد التالى وهو ٢٤ من جمادى الآخرة /١٧ مارس · فقد دخل رجال أبىعبدالله المدينة عنوة ,وقتلوا بها من الخلقمالا يحصى» كما يقول القاضىالنعمان(١٦٩)· مما يرجح أن مسجدها الجامع كان مسرحا لمذبحة مروعة ، سال فيها الدم انهارا ، كما تقول رواية ابن عذارى (١٧٠) · وقضى الجند الكتامى يومهم فى الأربس ثم خرج بهم أبو عبد الله يوم الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة/١٨ مارس فى طريق قمودة ، وهو يريد قسطيلية (١٧١) ·

العودة الى رقادة ونهاية الدولة الأغلبية :

اذا كان مؤرخو الأغالبة يقولون ان أبا عبد الله لم يتبع انتصاره الكبير فى الأربس بالزحف على رقادة العاصمة ، خشية أن يحشد زيادة الله الجند

---

(١٦٧) افتتاح الدعوة ، ص ٢٠٢ — ٢٠٤ ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٧ ·

(١٦٨) افتتاح الدعوة ، ص ٢٠٥ ·

(١٦٩) افتتاح الدعوة ، ص ٢٠٥ ·

(١٧٠) البيان ، ج ١ ص ١٤٦ — ١٤٧ ، ابن الأثير ، سنة ٢٩ هـ ·

(١٧١) افتتاح الدعوة ، ص ٢٠٥ ، ابن الأثير سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٧ ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٧ : حيث يقول انه انصرف الى باغاية ·

الأغلبى المبعثر من جديد فلا يقدر عليهم ، فالحقيقة ان ابا عبد الله واصل المسير على نفس النهج الذى اتبعه فى حرب الأغالبة منذ البداية ، والذى يتلخص فى ترهيب عدوه بصدماته المفاجئة ، واكتساب ما يمكن اكتسابه من الأرض والغنيمة ، بأقل قدر من الخسائر • وحرص أبى عبد الله على تقليل خسائره على قدر الامكان هو الذى يفسر كيف أنه كان يفضل انسحاب عدوه على أن يتخطف من ساقته ما قدر عليه ، وهو ما يفسر أيضا كيف أنه كان يفك الالتحام بخصمه عقب اللقاء مباشرة ، سواء كانت الوقعة له أم عليه ، معتمدا على معاودة الالحاح على العدو فيما بعد • فكان خطته الحربية فى حرب الأغالبة كانت حربا متقطعـــة أشبه بحرب الصوائف والشـــواتى السنوية التى طبقها العرب فى فتوح الاسلام الأولى •

فى اطار هذه السياسة الحربية السليمة ، ما ان علم أبو عبد الله بهروب زيادة الله وفشل ابراهيم بن أبى الأغلب فى القيام مقامه ، حتى ارتد على عقبيه قبل أن يصل الى سبيبه ، ومر بسكتانة ، عائدا الى معسكره فى وادى الرمل ، وذلك فى يوم الخميس ٢٩ من جمادى الآخرة / ٢٢ مارس ، وقضى فيه ليلته •وفى يوم الجمعة التالى آخر شهر جمادى الآخرة سير عروبة (غزوية) ابن يوسف وحسن بن أبى خنزير على رأس الف فارس الى رقادة • ووصل القائدان والناس ينهبون رقادة ، فامنوهم حسب أوامر أبى عبدالله وتركوا لهم ما أخذوه ، ولكنهم أوقفوا النهب ، مما دعا أهل القيروان الى الابتهاج عندما وصلهم الخبر (١٧٢) •

وفى يوم السبت التالى أول رجب سنة ٢٩٦ هـ/٢٦ مارس كان وصول أبى عبد الله الى رقادة • وخرج شيوخ القيروان وفقهاؤها للترحيب به فى موضع ساقية ممس حيث استقبلوه وسلموا عليه وأعلنوا طاعتهم له ،وسألوه الأمان فامنهم • ثم انهم سارزوا فى ركابه الى أن دخل رقادة ، والقارىء يقرأ بين يديه : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر » الخ الآية •ويقرأ : «كم تركوا من جنات وعيون» الى آخر السورة(١٧٣) •

---

(١٧٢) افتتاح الدعوة ، ص ٢١٢ •

(١٧٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ — حيث الاشارة الى أن فقهاء القيروان عندما علموا بمسيرة أبى عبد الله الى الاربس خرجوا مع وجوه الناس للقائه ، فســار بهم محبوب ابن خبد ربه الهوارى الى قصر باروقس ، بين مدينة جلولاء وحمام السرادق ، حيث وصلوا يوم ٢٧ جمادى الآخرة/٢٤ مارس ، ولكن الشيعى صرفهم الى انصراف ، ولم يسمح لهم =

وفي رقادة نزل أبو عبد الله في أحد قصورها المعروف بقصر البحر ، وفرق دور المدينة على زعماء كتامة وأنزل حشود عساكره حولها (١٧٤) . أما عن مدينة القيروان عاصمة البلاد العريقة ، فانه أمن من وجده فيها من أفراد البيت الأغلبي وقوادهم الذين آثروا البقاء على الفرار مع زيادة الله ، لم يستثن من ذلك الا ابراهيم بن بربر بن يعقوب التميمي ، المعروف بالقوس اذ قتله خنقا . كذلك أمر أبو عبد الله بالتخلص من رجال الحرس السوداني من موالي بني الأغلب ، فقتلوا . والظاهر أنهم استجابوا لمؤامرة التخلص من الداعي التي كان يدبرها ابراهيم القوس ، كما يفهم من رواية ابن عذاري، التي تنسب الى أبي عبد الله قـــوله : « ما أمنت افريقيـــة حتى قتلت القوس »(١٧٥) .

قيام الدولة الفاطمية ، في غيبة الامام :

وبذلك قامت دولة الشيعة الفواطم ودولة كتامة بعد حوالي ١٥ (خمسة عشر) عاما من ذلك اللقاء الذي تم بمكة بين الداعي الشيعي الشاب أبي عبد الله وبين جماعة الحاج الكتامي . وبدأ أبو عبد الله يقر الأمور في افريقية، ويثبت دعائم الدولة الفاطمية الفتية استعدادا لاحضار الامام الذي يدعو له ، وهو عبيد الله المهدي ، الذي كان حينئذ في سجلماسة ، بعيدا على حافة الصحراء في جنوب المغرب الأقصى .

العمل على استنقاذ أموال الأغالبة ، والمعتقلين في افريقية من أهل الدعوة :

ولقد تطلب انجاز هذه الأمور حوالي الشهرين ونصف الشهر . وكان أول ما بدأ به الداعي هو العمل على حفظ ما كان قد بقي في البلاد من كنوز

باللقاء في مسس الا بعد مكاتبات واستعطاف . ولا شك أن الرواية تبالغ هنا عندما تقدر أن عدد قوات الشيعي تبلغ ٣٠٠ (ثلاثمائة) الف فارس وراجل مرزعين على ٧ (سبعة) جيوش (قارن ابن حماد ، أخبار ملوك بني عبيد ، ص ٨) . وتذكر رواية ابن عذاري أيضا أن كتامة غضبت عندما بذل أبو عبد الله الأمان لأهل القيروان ، على زعم انه كان قد وعدهم بأن تكون طعمة ، ولو انهم قبلوا ما قاله لهم من أنها مدينة طيبة قد أحاطها الله برعايته .

(١٧٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٥ : حيث القراءة « قصر الصحن » التي صححناها الى « قصر البحر » ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦ .

(١٧٥) البيان ، ج ١ ص ٢٠٥ . والظاهر أن القائد الأغلبي القتيل لم يشتهر باسم « القوس » الا بعد خنقه بوتر قوسه ، بأمر الداعي ، الا اذا كان الرجل قد عرف بمهارته في الرماية بالقوس الذي صار لقبا له .

الأغالبة وذخائرهم ، وانقاذ كبار أهل الدعوة من المعتقلين فى البلاد • ولما كان أخوه أبو العباس المعروف بالمخطوم (لجرح أصيب به فوق أنفه) محبوسا فى سجن طرابلس فانه بعث من استنقذه وعـــاد به وبصحبته أبو جعفر الخزرى وكذلك أم عبيد الله المهدى التى كانت فى حراسة هذا الأخير (١٧٦) ، هذا يعنى ان المخطوم كان المسئول عن تأمين وصول والدة الامام الى المغرب ، وأن أمره انكشف فى طرابلس فقبض عليه ، وأن الداعى كان على علم بذلك عن طريق عيونه أو جواسيسه • وفيما يتعلق بالأموال فقد عرف أبو عبد الله بما كان مخزونا منها فى قصر الرباط بسوسة ، فأرسل قائده عروبة بن يوسف الى هناك حيث أمن أهل المدينة وعاد بالأموال التى بلغت ٢٨ (ثمانية وعشرين) حملا • كذلك أمر الداعى بجمع ما كان قد انتهبه الناس من الأموال بمدينة رقادة ، وضم عبيد زيادة الله الى رجاله ، ووقف جواريه ، أى أوقف التصرف فيهن (لحين عودة الامام من سجلماسة) ، وعهد بالنظر فى ذلك الى أحد ثقاته من الفقهاء ، وهو أحمد بن فروخ الطبنى المشهور بالأحدب (١٧٧) •

التراتيب الادارية :

وأخذ أبو عبد الله الداعى بعد ذلك فى ترتيب الدولة وارساء قواعد نظمها • فعهد بولاية مدينة القيروان الى أحد المخلصين من أنصاره ، وهو الحسن بن أحمد بن على بن كليب المعروف بابن أبى خنزير . كما آلت ولاية العاصمة الأغلبية السابقة ، مدينة القصر القديم ، الى أخى هذا الاخير ، وهو خلف بن أحمد بن على بن كليب (١٧٨) • وصدر الأمر الى الأخوين الواليين « بقتل من خرج ليلا أو شرب مسكرا ، أو حمله أو وجد عنده » (١٧٩) ، فكأن عهد العدل والاصلاح قد بدأ بتطبيق « الاحكام العرفية » أو « حالة الطوارىء » ، كما نقول الآن •

الاصلاحات الدينية :

وفيما يتعلق بالاصلاحات الدينية التى تطلبها المذهب الفاطمى أمر أبو عبد الله بأن يزاد فى الأذان بعد « حى على الصلاة » «حى على خير العمل »،

---

(١٧٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٦ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٥١٣ •

(١٧٧) البيان ، ج ١ ص ٣٠٦ •

(١٧٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٦ •

(١٧٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٦ •

واسقط من آذان الفجر « الصلاة خير من النوم »(١٨٠) .

والى جانب ذلك أمر بالصلاة على علي بن أبي طالب باثر الصلاة على النبي ، وكذلك على فاطمة والحسن والحسين (١٨١) . وقبيل حلول شهر رمضان أعلن أسقاط صلاة الاشفاع (التراويح) ، وتم ذلك بمعرفة محمد بن عمر بن يحيى بن عبد الأعلى المروزي ، الذي كان من جند خراسان ، عندما عين قاضيا للقيروان في ١٧ من شعبان/١٢ مايه سنة ٩٠٩ م (١٨٢) . والحقيقة ان ردود الفعل المتعلقة من جانب أبي عبد الله ضد المعارضين لهذا الاجراء ، من : أهل السنة أو الخلعاء من الفساق ، الذين أرادو استغلال الفرصة للتحرر من قيود الدين (١٨٣) ، لتشكك في صحة الاجراءات الصارمة التي قيل انه أمر ولاته باتخاذها ضد شاربي الخمر وتجارها .

وهكذا تبلورت أصول المذهب في « تفضيل آل علي والبراءة من سواه» كما يقول ابن عذاري ، وأمر وجوه كتامة بدعوة الناس الى الدخول فيه ، فدخل في ذلك معهم كثير من الناس . ولقد أطلق أهل السنة على المذهب الفاطمي « دعوة التشريق » ، لا تباعهم رجلا من أهل المشرق (١٨٤) .

شعارات الدولة :

أما عن شعارات الدولة الجديدة المأخوذة من الآيات القرآنية ، والتي

---

(١٨٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٦ .

(١٨١) ابن عذاري ج ١ ص ٢٠٧ . ويعلق ابن عذاري على ذلك فيقول انه اظهر التشيع في علي ومعاداة من قدم عليه من أصحاب النبي عليه السلام .

(١٨٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٧ حيث ينص ابن عذاري على ان القاضي المروزي احتج على فقهاء القيروان في المسجد الجامع ، وانكر عليهم - بمناسبة اعلانه اسقاط صلاة الاشفاع - الاقتداء بعمل عمر بن الخطاب في القيام وتركهم الاقتداء بفعل علي بن أبي طالب في زيادة حي على خير العمل في الأذان ، وقال لهم : اعملوا بمذهب أهل البيت ، واتركوا الفضول .

(١٨٣) أنظر ابن عذاري ج ١ ص ٢٠٧ : حيث تقول الرواية ان المروزي عندما رأى في اول رمضان في موضع جلوسه عند جدار القبلة بالجامع ، مكتوبا : « ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها » الى آخر الآية اكتفى بالأمر بمحوه ، وانتقل عن الجلوس بذلك الموضع . وعندما وقف عليه بعض الخلعاء ، وقال له : « قد لطفت لنا ، أصلحك الله ، في قطع قيام شهر رمضان فلو احتلت لنا في ترك صيامه لكفيتنا مؤونته كلها » ، اكتفى بأن قال له : « اذهب عني يا ملعون » ، وأمر بدفعه .

(١٨٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٧ ، وانظر فيما سبق ص ٥٥٣ وهـ ٨٠ حيث تنسب التسمية الى معلم الصبية الكتامي الذي حل أبو عبد الله محله عندما نزل على جماعة كتامة لأول مرة ، وكذلك المعارضين للداعي من الكتاميين .

كان قد بدأ برفعها فى دار الهجرة بايكجان ، فقد ظهرت أيضا على النقود ، التى عهد بخطة سكها الى أبى بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودى ، وعلى السلاح ، الى جانب خاتم أبى عبد الله ، وخاتم طبع السجلات ثم البنـــود والخيل •

وفيما يتعلق بنقش السكة تقول رواية ابن عدارى ان أبا عبد الله جعله: « الحمد لله رب العالمين » (١٨٥) ، بينما تقول رواية ابن الأثير بشىء مـــن التفصيل انه أمر بألا ينقش عليها اسم ، وجعل مكان الاسم من وجه : « بلغت حجة الله » ، ومن الوجه الآخر « تفرق أعداء الله » (١٨٦) • ومن استقراء هذه النقوش الثلاثة يمكن القول ان النقوش التى يشير اليها ابن الاثير والتى تعبر عن انتصار المذهب الشيعى وهزيمة أعدائه كانت سابقة على نقش الحمدلة الذى يعبر عن الراحة النفسية والاطمئنان بعد أن استقرت الأمور. أما عن السلاح فكان نقشه (عدة فى سبيل الله) (١٨٧) ، بينما ظل نقش خاتم الداعى : « فتوكل على الله ، انك على الحق المبين » ، ونقش خاتم طبع السجلات : « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم » • وبقيت كتابة الرايات : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » الى جانب : « قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » ، وغيرها من الآيات التى تحمل مثل هذا المعنى • كذلك ظل وسم الخيل فى أفخاذها بكلمتى : « الملك لله » (١٨٨) •

استحضار الامام من سجلماسة :

وبينما كان أبو عبد الله الداعى يقرر قواعد الدولة الفاطمية فى بلاد القيروان كان يعد العدة ، فى نفس الوقت من أجل استنقاذ الامام عبيد الله الذى كان لاجئا فى سجلماسة بصحبة ولده أبى القاسم ، بعيدا على حافة الصحراء الجنوبية للمغرب الأقصى •

---

(١٨٥) البيان ، ج ١ ص ٢٠٦ •

(١٨٦) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٨ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦) ، واتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٤ •

(١٨٧) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦) •

(١٨٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، وما سبق ص ٥٥٨ •

وصول المهدى الى سجلماسة :

اما عن كيفية وصول عبيد الله المهدى الى سجلماسة ، فقصتها أشبه ما تكون بقصة التجاء الامام ادريس الأول الى المغرب ، وان كانت أكثر منها غرابة • والظاهر أنه عندما اشتدت شوكة أبى عبد الله الداعى ، وانتشرت دعوته الشيعية بين قبائل كتامة ، ووصلت أنباء ذلك الى المشرق ، بدأت الخلافة تشتد فى طلب صاحب الدعوة ، وحامت الشبهات حول عبيد الله ، الذى كان قد لجأ الى سلمية من ارض حمص فى بلاد الشام (١٨٩) ، ففر بصحبة ابنه ابى القاسم نحو مصر . دون أن يكشف عن نفسه •

والروايات تختلف فى تحديد تاريخ فرار عبيد الله من سلمية الى مصر ، وهل وقع ذلك فى أواخر أيام الطولونيين ؟ أم بعد سقوطهم فى سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥ م ؟ ويظهر ذلك الخلط التاريخى فى الروايات التى جمعها المقريزى بشأن حادثة الهرب تلك : فهو عندما يختتم الفصل الخاص بمناقشة صحة نسب عبيد الله المهدى يسجل أنه ظهر بسجلماسة فى ذى الحجة سنة ٢٩٠ هـ/ أكتوبر – نوفمبر ٩٠٣ م (١٩٠) ، أى على عهد هارون بن خمارويه بن أحمد ابن طولون (٢٨٣ – ٢٩٢ هـ/٨٩٦ م – ٩٠٥ م) (١٩١) فى خلافة المكتفى (٢٨٩ – ٢٩٥ هـ/٩٠٢ م – ٩٠٨م) (١٩٢) ، ثم يعود ، فى كلامه عن خروجه الى المغرب ، لكى يقول • أنه وصل الى مصر أثناء ولاية عيسى النوشرى (٢٩٢– ٢٩٧ هـ /٩٠٤ – ٩١٠ م) فى خلافة المقتدر (١٩٣) الذى كان قد توفى قبل ذلك فى ربيع الثانى من سنة ٢٨٩ هـ/مارس ٩٠٢ م •

قضية تحديد التاريخ :

الخروج من الشام فى النصف الثانى من سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م :

وسبب هذا الخلط التاريخى ، فيما بين خلافة المقتدر وخلافة المكتفى وما بين ولاية الطولونيين فى مصر وولاية عيسى النوشرى ، يكمن فى عدم

---

(١٨٩) انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ط • ١٩٦٧ ، ص ٦٠ ، وانظر ابن الأثير سنة ٢٩٦ ج ٨ ص ١٤ ، وانظر فيما سبق ، ص ٥٤٥ وهـ ٤٠ •

(١٩٠) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٤ •

(١٩١) انظر الكندى القضاة والولاة ، ط• ليدن ، ص ٢٤٢ – ٢٤٦ •

(١٩٢) ابن الأثير ، احداث سنة ٢٨٩ ، سنة ٢٩٥ •

(١٩٣) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٠ •

التمييز بين ظهور الداعي أبي عبد الله في بلاد كتامة على أيام الخليفة المعتضد والطولونيين وبين ظهور عبيد الله المهدى في سجلماسة على أيام الخليفة المكتفي وواليه على مصر ، التي كان قد استعادها العباسيون سنة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥ م ، عيسى النوشرى (١٩٤) .

واذا كان الأمر كذلك فلا بأس في أن يكون خروج عبيد الله المهدى من سلمية الى مصر قد تم في بداية ولاية عيسى النوشرى (منذ ٧ جمادى الاخرة سنة ٢٩٢ هـ/١٧ أبريل ٩٠٥ م) ولا بأس أن يكون ذلك قد تم في فترة الاضطراب التي عرفتها مصر خلال سبعة أشهر ، فيما بين ٢٦ من ذى القعدة سنة ٢٩٢ هـ/٣٠ سبتمبر ، و ٨ رجب سنة ٢٩٣ هـ/٦ مايه ٩٠٦ م ، بسبب ثورة محمد الخلنجي الذى دعا للطولونيين (١٩٥) . فلا شك أن هذه الثورة التي عمت مصر وجنوب بلاد الشام والتي تنقل أثناءها عيسى النوشرى أمام مطاردة الخلنجي فيما بين الجيزة والاسكندرية والصعيد ، كانت مواتية لكي ينتقل المهدى من حمص الى مصر والمغرب خفية عن عيون الخلافة . هذا ، كما يمكن القول ان اضطراب الأحوال في مصر فيما بين سنتي ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، و ٢٩٣ هـ/٩٠٦ م ، هو الذى تسبب في ذلك اللبس الذى حدث بين تلك الفترة وبين فترة الاضطراب التي عرفتها البلاد على أواخر أيام الطولونيين ، قبل سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، كما كان سببا في ظهور تلك الروايات ذات الطابع الأسطورى ، التي أحاطت برحلة عبيد الله المهدى الى المغرب وجعلتها أشبه بمغامرة قصصية من النوع العجيب .

ويقوى ذلك الاحتمال ما تقوله الرواية الشيعية الخاصة بتلك الرحلة من أن المهدى كان موجودا في مدينة الرملة من فلسطين حوالى منتصف سنة ٢٩١هـ/٩٠٤ م ، بعد خروجه من سلمية أثناء الثورة المعروفة بثورة القرامطة في بلاد الشام ضد الأمير طغج والى دمشق ، والتي دارت فيما بين سنة ٢٨٩ هـ/٩٠٣ م وسنة ٢٩١ هـ/٩٠٤ م . والذى يفهم من تلك الرواية التي ترجع الى أيام المعز لدين الله الفاطمي أن تلك الثورة لم تكن قرمطية بل كانت

---

(١٩٤) انظر كتاب الاستبصار ، ص ٢٠٤ . حيث تحمل الرواية خروج عبيد الى مصر في أيام الطولونيين وعلى عهد الخليفة المعتضد . فكأنها وضعت عبيد الله المهدى في موضع أبي عبد الله الشيعي .

(١٩٥) انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، أحداث سنة ٢٩٢ ــ ٢٩٣ هـ ج ٣ ص ٢٤٧ وما بعدها .

شيعية فاطمية ، وأن الذين قاموا بها هم بعض المنشقين من الدعاة على اخي الدعاة ، وأن ذلك كان سبب خروج المهدى من سلمية ، وحسب تلك الرواية فان ما قام به دعاة المهدى الثوار من الاساءة الى الهاشميين الذين كان المهدى يتظاهر بالانتساب اليهم ، كان سببا فى شكوى هؤلاء الى الخلافة التى تنبهت عندئذ الى عبيد الله (١٩٦) .

الرحلة العجيبة :

هكذا يكون عبيد الله المهدى قد خرج فى النصف الثانى من سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م من بلاد الشام بعد فشل الثورة هناك ، فى الوقت الذى كانت تصله انباء نجاح داعيته أبى عبد الله فى المغرب ، وبعد أن أخذ رجال الخلافة من أصحاب الأخبار يلحون فى اماطة اللثام عن شخصية الامام الذى كانت كتامة تقاتل فى سبيل اظهار دعوته وكذلك قرامطة الشام .

وحسب الأساليب الفنية التى كان يتقنها أصحاب مثل هذه الحركة السرية ودعاتهم سار عبيد الله من الشام وبصحبته ابنه أبو القاسم (نزار)، وهو مستتر بزى التجار ، وخرج معهما بعض نساء بيته وعدد من خاصته ومواليه ، وعلى رأسهم أبو العباس (المخطوم) أخو الداعى الذى كان يراقبه عن كثب .

والظاهر أن تسلل عبيد الله خفية من سلمية أثار شكوك رجال الخلافة الذين خمنوا وجهة سيره نحو المغرب ، فأصدر ديوان بغداد أوامره الى عيسى النوشرى والى مصر ، والى أمير القيروان الأغلبى زيادة الله بأخذ الطرق عليه

---

(١٩٦) انظر مذكرات حركة المهدى الفاطمى ، استتار الامام ، وسيرة جعفر الحاجب ، نشر ايفانوف ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، ج ٢ ، ديسمبر ١٩٣٦ ، المقدمة ٩٠ — ٩١ (حيث تحديد الثورة فى الشام فيما بين سنوات ٢٨٩ — ٢٩١ هـ) ، ص ٩٦ — ٩٧ (حيث تحذير المهدى من غدر بنى أبى محمد الداعى ورحيله من سلمية الى حمص ، الى طرابلس الشام ، الى الرملة) ، ص ٩٨ (حيث حصر طغج فى دمشق) ، ص ١٠١ — ١٠٢ (حيث كتب الهاشميون الى الخليفة المعتضد يستنصرون به ، ووقوع الكتب بيد التاجر ابى مهزول الذى كان ينتظر قدوم المهدى عليه فى الأشهر الأولى من سنة ٢٩١ هـ)، ص ١٠٥ — ١٠٦ (حيث هزيمة أبى مهزول أمام محمد بن سليمان ثم القبض عليه واقراره على المهدى وصلته ، وخروج البريد من بغداد بطلب المهدى فى جميع الآفاق) ، ص ١٠٧ (حيث النص على ان المهدى كان يعيش فى سلمية مع الهاشميين ويتظاهر بانه عباسى) .

يقبضه ، بل وكذلك كل من يشبهه (١٩٧) . ونجح أعوان النوشرى فعلا فى القبض على عبيد الله فى بعض البساتين ، ولكن الأمر انتهى باطلاق سراحه ، بعد أن أنكر حاله ، وهو يظهر التقى والعبادة(١٩٨) .

وتضيف الروايات الفاطمية الأصل على تلك المغامرة لونا قصصيا مثيرا ، فتقول ان المهدى بعد أن خرج من مصر (العاصمة) عاد — رغم تعرضه للاخطار — يطلب كلبا كان هرب لهم ، فحمل الى الوالى الذى حقق معه ، ولم يطلقه الا عندما قيل له انه صائد قد هرب له كلبه فطلبه ، وشهدت له البينة بذلك (١٩٩) .

والى جانب الرواية ذات الطابع القصصي هذه نجد روايتين أخريين أكثر جدية اذ تقول الواحدة منهما ان عبيد الله اشترى الوالى فأعطاه مما كان معه من الأموال الكثيرة حتى أطلقه (٢٠٠) ، بينما تقول الأخرى أن عيسى النوشرى أطلقه لأنه كان يتشيع (٢٠١) ، مثله فى ذلك مثل واضح صاحب بريد مصر الذى ساعد ادريس بن عبد الله على الفرار الى المغرب منذ أكثر من مائة عـــام (٢٠٢) .

---

(١٩٧) أنظر اتعاظ الحنفا للمقريزى ، ج ١ ص ٦٠ — ٦١ ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ج ٨ ص ١٤ — ١٥ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٠٤ .

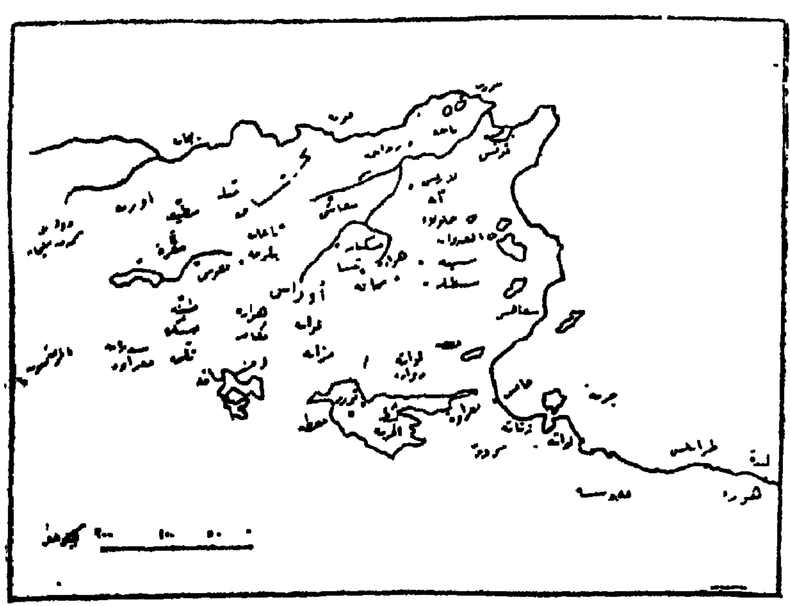
(١٩٨) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٠ .

(١٩٩) أنظر كتاب الاستبصار ص ٢٠٤ ، وقارن اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٦٠ — ٦١ : حيث تقول الرواية ان الكلب كان لابى القاسم بن المهدى ، وان هذا الأخير عندما عاد الى طلبه فى البستان الذى كان قد قبض عليه فيه كان ذلك سببا فى اطمئنان النوشرى الى أنه ليس الرجل المطلوب ، اذ كان أصحاب الوالى قد لاموه على اطلاقه . وأنظر هامش ١ ص ٦١ حيث يشير الى نص محمد بن محمد اليمانى الذى نشره ايفانوف (مجلة آداب القاهرة) ، عن رحلة المهدى من الشام الى المغرب ، والذى ترد فيه قصة القائم مع الجروة السلوقية التى [illegible] تشبث بشرائها مما كان سببا فى عودة المهدى الذى استبطأهم ، ولكن على انها حدثت فى الطريق من دمشق الى الرملة ، ودون المواجهة مع الوالى ، أنظر النص ، ص ١٠١ .

(٢٠٠) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٤ ، اتعاظ الحنفا للمقريزى ، ج ١ ص ٦٠ .

(٢٠١) ابن الأثير سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٤ ، وقارن نص محمد اليمانى ، مجلة كلية آداب القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١١٣ (حيث تقول الرواية ان المهدى نزل على سمر التاجر الذى يعرف بابن عياش . وأن هذا الأخير شهد لدى صاحب مصر بأن ضيفه لم يكن الا رجلا هاشميا من اشراف التجار ، وأنه معروف بالفضل واليسار)

(٢٠٢) أنظر فيه سبق ص ٥٢٥ — ٥٣٦



شكل رقم (٩)
بلاد افريقية

برقة :

ومن مصر سار المهدى وابنه وبصحبتهما أبو العباس أخو الداعي نحو الغرب مع بعض قوافل التجار الى طرابلس • وفي حيز مدينة برقة تعرضت الجماعة ، في موضع يعرف بالطاحونة لغارة قام بها عدة من المزاتيين من أهل الناحية ، وضاع فيها بعض متاع عبيد الله بعد أن تعرض للشتم واللطم ، ومنه كتب وملاحم كانت لآبائه عظم أمرها عليه • وفي تلك الغارة ضرب أبو العباس بالسيف على وجهه ، فكان الجرح الذى دعا الى تسميته بالمخطوم (٢٠٣) •

---

(٢٠٣) أنظر استتار الامام وسيرة جعفر ، مجلة كلية الآداب بالقاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ١٠٦ وسيرة جعفر الحاجب ، ص ١١٥ • وأنظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦١ ، وابن عذارى ج ١ ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦ حيث ترد القصة بمناسبة تنكيل القوات الفاطمية بأهل برقة وهي في طريقها الى مصر سنة ٣٠١ هـ/٩١٣ م ، كثار لتلك الاهانة التى لحقت بالامام عندما دخل بلدهم ، وهو قادم من مصر • وأنظر للمؤلف ، فترة حاسمة من تاريخ المغرب : موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في افريقية وانتقالهم الى مصر ، مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية ، المجلد الأول ، بنغازى ١٩٥٨ ، ص ٢٣٢ •

طرابلس :

وفى طرابلس استقر المهدى بعد أن انفصل عن قافلة التجار ، ولكن أمره كاد أن ينكشف بفضل عمال زيادة الله الأغلبى ، ولكنه لم يقبض الا على أبى العباس الذى حبس فى سجن المدينة (٢٠٤) • وعندئذ رأى عبيد الله أنه ليس من الحكمة المرور بالقيروان من أجل المسير مباشرة الى حيث أبى عبدالله فى بلد كتامة ، فاخذ طريق القوافل الصحراوى المؤدى الى سجلماسة عبر قسطيلية (٢٠٥) ، وبلاد الجريد والزاب حيث مر ، كما تنص الروايات الفاطمية التى نجد لها ذكر فى كتب الاباضية ، بكل من مدينتى توزر ووارجلان اللتين تعرض فيهما المهدى للسلب والاهانة من جديد ، كما حدث فى الطاحونة بحيز برقة •

توزر :

ففى مدينة توزر من بلاد الجريد التى كان يظن أنها ستكون قاعدة ملكه ـ حسبما كان عنده من العلم ، لولا أنه وجد رجالها باعة وأصحاب حوانيت ، ليس معهم زينة الملك ولا هيئة السلطان ـ تعرض لعبيد الله ومن كان قد بقى معه ، رجل من بنى جلتمين من قبيلة بنى واسين ، ونزع دابته النفسية ، مما دعا المهدى الى أن يكتب اسم الرجل واسم قبيلته وبلده ـ انتظارا للانتقام منه فيما بعد •

وارجلان :

أما فى وارجلان فقد تعرض له سفاؤهم وهزءوا به ، وقالوا : « هذا الذى جاء من الشرق يريد الملك فبصقوا فى وجهه » ، وكان أشد الناس فى ذلك أهل قصر بكر ، وشيخهم يسمى غيار ، ومنزله يعرف بتاغيارت • وفى ذلك قال عبيد الله : « غير الله ما بهم » •

وقصة مرور المهدى بتوزر ووارجلان وهو فى الطريق الى سجلماسة بعد اقامته فى مدينة طرابلس مقبولة • لا يضعف من شأنها الا ما تقوله

---

(٢٠٤) ابن عذارى ج ١ ص ٢٠٦ ـ حيث الاشارة الى ذلك بمناسبة دخول أبى عبد الله رقادة ، وانظر فيما سبق ، ص ٥٨٢ وهـ ١٧٦ ، وقارن ابن الاثير (سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٥) الذى ينقله المقريزى (اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٦١) : حيث يفهم من الرواية ان أبا العباس قبض عليه فى القيروان حيث كان المهدى قد أرسله لاستطلاع الأحوال ، والغلب الظن أنه اعيد الى طرابلس لكى يدل على المهدى •

(٢٠٥) انظر ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٥ ، وقارن اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦١ : حيث القراءة قسنطينة خطا وقسطنطينة بدلا من قسطيلية •

من ان عبده « الحجاني » الذي قد يقصد به أبو عبد الله الداعي الذي اشتهر بالايكجاني ، نسبة الى ايكجان دار الهجرة . كان معه وأنه سيره من توزر الى مدينة تاصروت (تاروروت ــ دار الهجرة) من أرض كتامة ، بعد أن عرف قمحها في سوق توزر ، ووجدها على الصفة التي توافق علمه (٢٠٦) ٠ والظاهر أن رحال زيادة الله عندما فشلوا في وجود عبيد الله في طرابلس عرفوا وجهته نحو سجلماسة فخرجت رسلهم الى صاحبها اليسع بن مدرار يطلبون المهدى ويعرفونه بأنه الرجل الذى يدعو اليه أبو عبد الله الشيعى ، ويطلب اليه القبض عليه (٢٠٧) ٠

سجلماسة :

والظاهر أن عبيد الله عاش ، وهو في زى التجار ، فيسجلماسةلفترة من الوقت ، اذ تقول بعض روايات المقريزى انه أهدى الى اليسع وواصله ، وان الأمير المدرارى قربه وأحبه (٢٠٨) ٠ هذا ، كما تقول بعض الروايات الشيعية المقبية التي بقيت اصداء لها في كتب الاباضية المعروفة ، ان عبيدالله نزل في دار لبعض وجوه أهل سجلماسة ، في طابقها العلوى ، وان صاحب الدار الذى سكن معه في الطابق السفلى رأى فيما يرى النائم كان ثعبانا عظيما يسكن معه في داره ، وأنه عندما قص الرؤيا على عبيد الله فسرها له بأن « الثعبان العظيم ملك يملك المشرق والمغرب » ، فما كان من الرجل

---

(٢٠٦) أنظر ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣د ــ ب (والدرجيني ، المطبوع ، ص ٩٢ ــ ٩٣) ، وقارن ، سيرة جعفر الحاجب ، مجلة آداب القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١١٦ ــ ١١٨ : حيث تقول الرواية انهم ساروامن طرابلس الى قسطيلية ومرواء بقبائل نفوسة ٠ ويظهر من تلك الرواية المنسوبة الى جعفر حاجب المهدى أن عبيد الله الام مدة لاباس بها في المدينة وان خدامه لقوا بعض المتاعب من عامة الناس الذين كانوا في معظمهم من الاباضية ٠ من ذلك ما تعرض له الحاجب جعفر من بعض الباعة الذى عرف أنه رافضى فأساء اليه ، ومنها مغامرة مثيرة تعرض لها عندما بعثه المهدى لشراءخروف صغير سمين ، فعرض عليه رجل من أهل توزر كلب سمين ، « فاذا القوم ياكلون الكلاب ويسمونها بأسماء الخرفان » ٠

(٢٠٧) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٥ ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦١ ــ ٦٢ ، وقارن سيرة جعفر ، ص ١١٩ ٠ حيث تقول الرواية انهم ما ان خرجوا من توزر حتى نزل الرسول في طلبهم ٠

(٢٠٨) اتعاظ الحنفا للمقريزى ج ص ٦٢ وقارن ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٥ ــ ب (حيث تقول الرواية ان عبيد الله ذكى الى اليسع فأعطاه بعض ما عنده ليرد عنه الناس ، الى ما انتشر في سجلماسة من انه هرب من بغداد باموال عظيمة لهاله والزعه) ٠

الا أن بجله وقبل يديه (٢٠٩) •

واذا كنا لا نجد فيما بقى لنا من سيرة جعفر الحاجب عن اقامة المهدى المنقبية فى سجلماسة الا كرامة جرى الماء بشدة فى عين الماء الراكدة فى البستان الملاصق للدار التى سكنوا فيها بعد أن وضع القائم رجليه فى الماء (٢١٠) . فان ما احتفظ لنا به أبو زكريا ، فى سير أئمة تاهرت ، يمكن أن يقدم لنا صورة لا بأس بها عما كانت عليه سيرة المهدى المنقبية فى سجلماسة ، مما كان متداولا فى المغرب على عهد الفاطميين •

من ذلك أن المهدى أقام فى سجلماسة حتى عرف بالفقه والعلم والقراءة، فصار الناس يختلفون اليه ويسألونه عن حوائجهم • وأن والى المدينة (اليسع) آثره على جميع أصحابه وجعله وزيرا فى جميع أموره الى أن انتهى أمره بأن أصبح المرجع الأول فى أمور السلم والحرب ، مما جعلهم يتيمنون به فى جميع أحوالهم ، بل وحتى انتهى الأمر بأن ولوه على أنفسهم بعد وفاة اليسع، وهو غير راغب فى ذلك ، وصار يأخذ القرى والمدائن حتى أخذ مدينة فاس ، كما تريد الرواية الشعبية التى يغلب عليها الطابع الأسطورى (٢١١) •

أما عن رواية جعفر الحاجب فهى لا تشير الا الى القبض على المهدى فى سجلماسة بعد أن وصلت الأوامر الى اليسع بن مدرار بذلك من قبل الخلافة أو زيادة الله الأغلبى ، وهو ما يأخذ به جمهور المؤرخين ، وان تميزت الرواية الشعبية — التى تظهر فى شكل مذكرات شخصية — بالمزيد من المعلومات التفصيلية (٢١٢) •

---

(٢٠٩) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٦ — أ (الدرجينى ، المطبوع ، ص ٩٣) ، وقارن سيرة جعفر الحاجب ،ص١١٩، حيث تقول الرواية انهم استأجروا دارا حسنة من رجل يعرف بأبى حبشة للمهدى •

(٢١٠) مجلة آداب القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ١١٩ — ١٢٠ •

(٢١١) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٦ — أ ، وقارن رواية القاضى النعمان فى افتتاح الدعوة (ص ١٥٣ — ١٥٤) حيث تقول ان كل من رأى المهدى بسجلماسة كان يقول • « ما هذا تاجر وما هذا الا سلطان أو ملك من الملوك » ، كما تقول ان المهدى وصل اليسع صاحب سجلماسة الذى « كان يوجب حقه وتعظيمه الى أن أتاه كتاب زيادة الله ••• يخبره انه هو الذى يدعو أبو عبد الله اليه » •

(٢١٢) أنظر سيرة جعفر الحاجب ، ص ١٢٢ — ١٢٣ : حيث الاشارة الى انه عند القبض على المهدى وابنه القائم وخدمه : جعفر وطيب وصندل وأبى يعقوب القهرمان ، خصصت دار لحبس الامام وأخرى لحبس ولى عهده ، بينما حبس الخدم فى بعض سجون المدينة • هذا الى =

والذى يمكن ان يطمان الى صحته من كل ذلك ، هو نجاح المهدى فى لافلات من مطاردة عمال الخلافة وزيادة الله ، والوصول الى سجلماسة فى واخر سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م حيث أقام متخفيا فى زى التجار • ومن ملجأه فى سجلماسة أخذ عبيد الله المهدى يتصل سرا بأبى عبد الله الشيعى (٢١٣) ، لذى كان يطلعه أولا بأول على مجريات الأمور حتى أنه عندما انتصرت قوات الداعى على جيوش زيادة الله فى نفس سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، أسرع ابو عبد الله فكتب الى المهدى « يعلمه بالفتح ، ووجه اليه بمال كثير مع قوم من كتامة سرا » (٢١٤) •

ولكنه رغم هذا التكتم لم تلبث الأنظار أن اتجهت الى عبيد الله الذى وضع تحت الرقابة ، الى أن أتت الأخبار من القيروان تؤكد لليسع بن مدرار ، صاحب سجلماسة ، أنه الرجل الذى يدعو اليه أبو عبد الله فى بلد كتامة ، لقبض عليه وحبس فى دار أخت اليسع ، كما قبض على ابنه أبى القاسم الذى حبس فى دار أخرى فى بعض أرباض المدينة (٢١٥) ، ولم يلبث الخبر

= حاسب ما تعرض له الخدم من التعذيب فى سبيل انتزاع اقرارهم بأمر المهدى ، وكيف انهار بعضهم بينما صمد جعفر للامتحان الصعب • الى جانب اشارات الى بعض من كان يتصل به فى سجلماسة من الأصدقاء والأتباع •

(٢١٣) انظر سيرة جعفر الحاجب ، ص ١٢١ (حيث تقول الرواية ان المهدى صادق رجلا مطلبيا من القيروان ، وأنه لما عاد المطلبى الى افريقية طلب اليه أن يعلم الداعى بأمره فى سجلماسة) ، ص ١٣٢ (حيث الاشارة الى أبى جعفر محمد بن أحمد البغدادى الذى صار من أكبر أعوان المهدى ، وكيف كان صعود نجمه بسبب انه سار الى سجلماسة حيث التقى بالمهدى الذى امره بالمسير الى الأندلس انتظارا لفتح أبى عبد الله افريقية) •

(٢١٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٧ : حيث تضيف الرواية ان المهدى أعطى لصديقه المطلبى الذى كان معه فى سجلماسة من الدنانير التى أرسلها اليه الداعى والتى لم يكن لها مثيل هناك ، وقرأ عليه كتابا بأبى عبد الله وأمره بكتمان الخبر ، والا يبدل من حاله خشية العيون والرقباء •

(٢١٥) كتاب الاستبصار ، ص ٢٠٤ (حيث تقول الرواية ان الذى نص على عبيد الله كان رجلا يهوديا • ولا بأس أن يكون قصد الرواية الشيعية من ذلك هو الرد على أولئك الذين اتهموا عبد الله بأنه يهودى الأصل) ، وقارن رواية القاضى النعمان (افتتاح الدعوة ، ص ٢٣٧) حيث تقول ان المهدى اعترف لليسع بنسبه العلوى ولكنه قال انه تاجر وأنكر صلته بالداعى ، وان اليسع جعله فى دار وجعل عليه حرسا ، وجعل ابنه القائم بأمر الله كذلك فى دار اخرى ليفرق بينهما ويختبر قول كل واحد منهما ، وقارن المقريزى ، ج ١ ص ٦٥ حيث تقول الرواية ان اليسع قبض على المهدى عندما اقترب أبو عبد الله فى جيوشه من سجلماسة •

أن وصل الى الداعي (٢١٦) . قبل دخوله القيروان . كما سبقت الاشارة(٢١٧) .

السير الى سجلماسة :

وهكذا ، بعد أن أقر أبو عبد الله الأمور في افريقية فوزع الولاة والعمال والقضاة على مختلف المدن ، أخذ يعد العدة لغزو سجلماسة واستنقاذ الامام . وفي منتصف شهر رمضان من سنة ٢٩٦ هـ/٨ يونيه ٩٠٩ م أي بعد شهر بن ونصف شهر من دخوله القيروان ورقادة ، سار على رأس قواته الكبيرة من كتامة ، التي يصفها ابن عذارى « بالدبى المنتشر » ، وابن حماد بأنها « ملء الأرض من الخيل والرجال » ، بعد أن استخلف أخاه أبا العباس على افريقية ، وبصحبته القائد أبو زاكي تمام بن معارك الاجانى واليا لرقادة(٢١٨) . وسار بصحبة الداعي حاشيته ، من وجوه رجاله وأهل دعوته ، مثل : ابراهيم بن محمد الشيبانى المعروف بأبى اليسر الكاتب ، وزيادة بن خلفون المتطبب مولى بنى الأغلب ، كما خرج معه من فقهاء العراق (الحنفية) أحمد بن محمد ابن سيرين الذى تعصب للمذهب الشيعى فسار راجلا : « يرى أنه محتسب للثواب في طلب الامام » ، مما كان سببا فى توليته قضاء مدينة برقة بعد ذلك (٢١٩) .

القضاء على دولة تاهرت الرستمية :

ولما لم تكن بلاد المغرب قد عرفت ، منذ وقت طويل ، مثل هذا الجيش الجرار المثقل « بجهازه وعدده وآلات السفن » (٢٢٠) ، كان من الطبيعي أن يتقدم الداعي دون أن يلقى مقاومة ، فتتبدد القبائل أمامه وتفتح له المدن أبوابها (٢٢١) . فعندما مر بطبنة ، عاصمة الزاب ، أتاه الزعيم الزناتى محمد

---

(٢١٦) الاستبصار ، ص ٢٠٤ ـ حيث تقول الرواية ان عبيد الله هو الذى كتب اليه ، واعلمه بحاله من الأسر والخوف ورغبته فى استنقاذه .

(٢١٧) انظر فيما سبق ، ص ٥٧٩ ـ ٥٨١ .

(٢١٨) ابن عذارى . ج ١ ص ١٥٢ . ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد ، ص ٩ حيث لم يصحح الناشر « وأبا زاكي » فتركها « ابارك » وقارن ابن الأثير سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٨ حيث لا يذكر أبا زاكي .

(٢١٩) البيان . ج ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(٢٢٠) ابن عذارى . ج ١ ص ١٥٢ .

(٢٢١) انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا . ج ١ ص ٦٥ حيث يقول ان المغرب اهتز لخروجه وحادثته باتة [illegible] القبائل عن طريقه [illegible] [illegible] فى طاعته .

ابن حزر طائعا(٢٢٢) • وعندما عرج فى الطريق على تاهرت ، لم يكن أمام عاصمة الرستميين سوى الاستسلام بالأمان • فالرستميون كانوا منقسمين على أنفسهم ، ما بين : أسرة الامام الحاكم يقظان بن ابى اليقظان ، وأسرة الامام المقتول السابق يوسف بن محمد بن أفلح الذى كانت ابنته دوسر ، كما تقول الرواية الاباضية ، تتحرق شوقا للأخذ بثاره ، كما كان مجتمع المدينة منقسما هو الآخر ، ما بين : وهبية مخلصين ، ومخالفين من : المالكية ، والواصلية والشيعة ، والصفرية ممن حرضوا أبا عبد الله على استئصال شأفة دولة العرس من الرستميين •

وهكذا أذعنت تاهرت وأمر الداعى بقتل الامام يقظان وبنيه ، وبعث برؤسهم الى افريقية حيث طيف بها فى شوارع القيروان قبل ان تنصب على أبواب رقادة (٢٢٣) • وعندما « دخل المدينة نهبها وانتهك حرمتها ، وأجلا كثيرا منها » ، وجعل أعزة أهلها آذلة » ، كما يقول أبو زكريا (٢٢٤) •

وبذلك انتهت دولة الرستميين ، بعد أن عاشت أكثر من مائة وثلاثين سنة ، وأقام على العاصمة الرستمية تاهرت واليا من قبله ، هو أبو حميد دواس بن صولات اللهيصى ،وجعل له معاونا ، هو ابراهيم بن محمد اليمانى المعروف بالهوارى الذى كان يلقب بالسيد الصغير (٢٢٥) •

القضاء على امامة سجلماسة المدرارية :

وواصل أبو عبد الله مسيرته المظفرة نحو الغرب دون أن يلقى مقاومة ، وانتهى به المطاف أمام سجلماسة فى ٦ من ذى الحجة سنة ٢٩٦ هـ/أغسطس ٩٠٩ م • وكان من الطبيعى أن تلقى امامة سجلماسة الصغيرة نفس المصير الدى لقيته مملكتا الأغالبة والرستميين •والذى يفهم من رواية ابن عذارى ان المدينة التى أحيط بها لم تستطع المقاومة الا يوما واحدا ، اذا أنهزم اليسع بن

= وانظر افتتاح الدعوة للقاضى النعمان الذى نظن أنه مصدر رواية المقريزى (ص ٢٣٦) وعمله ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦ •

(٢٢٢) افتتاح الدعوة ، ص ٢٣٦ ، حيث يقول القاضى النعمان عن ابن خزر : « وهو يومئذ أمير زناتة كلها وقبائل البربر بأسرها •

(٢٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٣ •

(٢٢٤) السيرة واخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ٣٦ ـ ب (الترجيلى ، المطبوع ، ص ٩٤) وانظر فيما سبق عن الامامة الرستمية ، ص ٢٨٩ •

(٢٢٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٣ •

هدرار فى آخر النهار ، وهرب خلسة تحت جنح الليل مع بعض أهل بيته(٢٢٦)، حيث انتهى نهاية غامضة (٢٢٧) • وبذلك دخل الداعى سجلماسة ، وسار مباشرة الى سجن سيده عبيد الله المهدى ، حيث استنقذه وهو يخر باكيا أمامه من فرط التأثر والفرح ، كما استنقذ أبا القاسم ولى العهد (٢٢٨) • وانتقم أبو عبد الله من أهل سجلماسة ، المدينة البغيضة التى جرأت على امتحان الامام ، فنهبهم وأحرق دورهم وأغرمهم مغارم ثقيلة ، كما أمر باجلاء الكثيرين منهم ، والظاهر انه خص اليهود بالحظ الأوفى من تلك النقمة (٢٢٩) •

والظاهر أن استقبال أبى عبد الله الداعى للمهدى عبيد الله ، بما يليق بالامام من التبجيل والاحترام ، لم يرق كثيرا لقواد كتامة • فقد هالهم ما فعله قائدهم الداعى من الترجل للمهدى وتقبيل يديه وركبتيه ، « فتحامت كتامة لذلك » ، كما يقول أبو زكريا (٢٣٠) • والواضح أنه رغم انفراد الرواية الاباضية بتقرير أنفة كتامة من خضوع الداعى للمهدى فان الروايات الأخرى تكاد تؤكد هذا الأمر ، عندما تقول : ان الداعى قال لكتامة « هذا مولاى

---

(٢٢٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠ ، وانظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٥ ، حيث يضيف الى ذلك ان الداعى حاول أول الأمر ملاطفة اليسع حرصا على حياة الامام ولكن اليسع قتل رسله ومزق رسائله •

(٢٢٧) وفى ذلك يورد ابن عذارى روايتين تقول أولاهما (ج ١ ص ١٥٣) أن أبا عبدالله طلبه لم يقدر عليه ، وتقول الرواية الثانية (ج ١ ص ١٥٤) انه أخذ بعد ذلك بحوالى شهر اذ غدر به قوم من البربر يعرفون ببنى خالد ، واستأمنوا به الى أبى عبد الله فامنهم وذلك فى مستهل المحرم/٣٠ سبتمبر ٩٠٨ م ، وانظر اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٥ ، حيث تقول الرواية ان خيل الداعى أدركت اليسع فأخذته وأتت به حيث ضرب بالسياط وقتل • وقارن رواية القاضى النعمان (افتتاح الدعوة ، ص ٢٣٨ — ٢٤٠) التى يمكن أن تكون أصلا لرواية المقريزى • وفيها يقول النعمان ان أبا عبد الله اراد أن يدارى اليسع خوفا على الامام فراسله ، ولكن اليسع رمى بكتابه وقتل رسله • وعن القتال يذكر ان اليسع فر ليلا فى بنى عمه وأهل بيته ثم انه يقول بعد ذلك ان عساكر أبى عبد الله أدركتهم فأخذتهم وأتت بهم ، وأن اليسع ضرب بالسوط وطيف به فى العسكر وفى سجلماسة قبل أن تستصفى أمواله ويقتل • بينما تقول رواية الاستبصار (ص ٢٠٤) انه فر فقتلته طائفة من رعيته لحقد كانوا يجدونه له • وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦ •

(٢٢٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٣ ، وافتتاح الدعوة للقاضى النعمان ص ٢٤٠ •

(٢٢٩) أنظر الاستبصار ، ص ٢٠٤ ، حيث تقول الرواية ان ما أخذ من أهل سجلماسة من التبر والحلى بلغ وقر ١٢٠ (مائة وعشرين) جملا • وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٣ •

(٢٣٠) السير وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ٣٧ — أ •

الامام فهو مولاكم »(٢٣١) ، وما تنص عليه من أن عبيد الله قال له عندئذ : « قل لهم هو المهدى بن المهدى سلالة الهـــداية(٢٣٢) ، حتى يخفف عليهم كما نرى ، من هول الصدمة التى أصابتهم فى امرهم الذى ما كانوا يظنون حتى ذلك الحين ، أن فوقه أميرا (٢٣٣) • وهكذا تطلب اقناعهم باستبدال زعامة المهدى بزعامة الداعي بعض الوقت • وكتب أبو عبد الله الى افريقية بما تم من نصر أولياء الله وذل أعدائه باستنقاذ الامام والظفر عـــلى صـــاحب سجلماسة (٢٣٤) •

هكذا أقام أبو عبيد الله بصحبة الامام وولى عهده فى سجلماسة مدة أربعين يوما (٢٣٥) الى أن انقضى شهر المحرم من سنة ٢٩٧ هـ/ آخر اكتوبر ٩٠٨ م ، أقر الأمور خلالها فى منطقة سجلماسة التى عين عليها واليا شيعيا ، هو ابراهيم بن غالب المزاتى(٢٣٦) ، وأعد العدة للعودة الى رقادة • وفى شهر صفر / نوفمبر خرج الموكب الملوكى العظيم من سجلماسة يتقدمه الامام عبيد الله المهدى ممتطيا صهوة فرس عتيق ، وعليه ثياب نفيسة فاخرة ، وقد تضمخ بالطيب الكثير(٢٣٧) والى جانبه ابنه أبو القاسم ، ويحف به فرسان كتامة ، وهم يحرسون احمال التبر والحلى التى أخذت من المدينة التى تعتبر

---

(٢٣١) انظر الاستبصـــار ، ص ٢٠٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٣ ، ابن الأثير سنة ٢٩٦ ج ٨ ص ١٩ ، وقارن رواية القاضى النعمان فى رسالة افتتاح الدعوة (ص ٢٤٥) التى يمكن أن تكون الأصل الذى نقل عنه المتأخرون حيث تقول ان الداعى قال لرجاله . « هذا مولاكم وولى امركم وامام دهركم ومهديكم المنتظر الذى كنت أبشر به » ، وانظر ايضا ص •

(٢٣٢) الاستبصار ص ٢٠٤ •

(٢٣٣) انظر ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٧ ـ أ ، حيث يقول : انه عندما قال الايكجانى (الحجانى) اى أبو عبد الله لكتامة عن عبيد الله · « انه مولاى وسلطانى وســـلطانكم ، ذرية على وفاطمة فقالوا لا نعرف لانفســنا سلطان غيرك » •

(٢٣٤) بعد مكاتبته وطلب عقد الأخوة بينهما فى سبيل اخراج المهدى من محبسه ، وخير اليسع ثم كيفية القتال والظفر ـ انظر نص الخطـــاب فى افتتاح الدعوة للقـــاضى النعمان ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ •

(٢٣٥) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٦ ، وانظر القاضى النعمان ، افتتاح الدعوة ص ٢٤١ ؟ الذى ينقل عنه المقريزى هذه الرواية •

(٢٣٦) ابن عذارى ج ١ ص ١٥٤ ، وانظر افتتاح الدعوة للنعمـــان (ص ٢٤١) حيث يقول انه استعمل عليهم عاملا دون أن يذكر اسمه •

(٢٣٧) ابن حماد اخبار ملوك بنى عبيد ص ٩ •

بأبا من أبواب السودان ، بلاد التبر والذهب (٢٣٨) ٠

وكان وصول الموكب الى افريقية بعد رحلة استغرقت حوالى الشهرين اذ كان دخولهم الى رقادة يوم الخميس ٢٠ من شهر ربيع الآخر٢٩٧/٧ يناير ٩١٠ م (٢٣٩) ٠ وخرج أهل القيروان مع أهل رقادة يرحبون بالامام الذى أحاط به أبو عبد الله الداعي ورؤساء كتامة مشاة بين يديه ، وخلفه ابنه أبوالقاسم٠ وبعد أن انفض الموكب نزل الامام بقصر من قصور رقادة حيث عرضت عليه جوارى زيادة الله ، « فاختار منهن لنفسه ولولده ، وفرق ما بقي على وجوه كتامة » (٢٤٠) ٠

عبيد الله المهدى اميرا للمؤمنين :

وفى يوم الجمعة التالى أمر عبيد الله أن يذكر اسمه فى الخطبة ، فى كل من رقادة والقيروان وان يكون لقبه فيها « خليفة » الله و « المهدى بالله أمير المؤمنين »(٢٤١) ٠ وبذلك قامت دولة الأئمة الفاطميين فى المغرب بشكل رسمى ، بعد حوالى ١٥ (خمسة عشر) عاما قضاها أبو عبد الله الشيعى فى أرض كتامة ، وهو يدعو للامام المنتظر ، ويقاتل فى سبيل اقامة دولته ، الى أن تكللت جهوده بالنجاح ، فقضىعلى ثلاث دول دفعة واحدة ، هى : دولة الأغالبة فى القيروان ، ودولة الرستميين فى تاهرت ، ودولة المدراريين فى سجلماسة ، قبل القضاء على دولة الادارسة الرابعة (٢٤٢) ٠ وهكذا حق لعبيد الله أن يبدأ حكمه « أميرا للمؤمنين » أى خليفة (٢٤٣) ، بترعه

---

(٢٣٨) هذا ما يفهم من روايات الاستبصار وابن عذارى السابقة ، اما روايه القاضى النعمان فى افتتاح الدعوة (٢٤٦) فانها تشير الى ان المال الذى دخل به عبيد الله رقادة هو المال الذى كان للدعاة والمشايخ فى ايكجان الـى مال اليها وهو فى الطريق فامر باحضاره ، مما كان سببا فى تحول أصحاب القلوب الفاسدة منهم (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦) ٠

(٢٣٩) افتتاح الدعوة ص ٢٤٧ ٠

(٢٤٠) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٦ ، وقارن افتتاح الدعوة للقاضى النعمان ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ١ ص ١٦ ٠

(٢٤١) انظر افتتاح الدعوة ، ص ٢٤٩ : حيث يقول نص الدعاء : « اللهم فصل على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك فى بلادك ، عبد الله أبى محمد الامام المهدى بالله أمير المؤمنين ٠٠٠ » وقارن اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٦ ٠

(٢٤٢) انظر فيما سبق ، ص ٤٧٧ ٠

(٢٤٣) ولا بأس من الاشارة هنا الى أن الخلافة كما وردت فى توقيع المهدى هى خلافة الله وليست خلافة الرسول ، كما هو الحال عند أهل السنة ٠ وهذا ما تكرر فى التوقيع من أن المهدى هو خليفة الله وأن آباءه هم خلفاء الله الراشدين المهديين (افتتاح الدعوة ، ص ٢٤٩) ٠

على عرش دولة كبرى مترامية الأطراف ، ما بين سواحل افريقية على المتوسط، وصحراوات المغرب الجنوبية على تخوم بلاد السودان ٠

وكان من الطبيعي أن يبدأ المهدى ممارسته لمهامه كرئيس للدولة الجديدة بالعمل على تأكيد مركزه كأمير للمؤمنين عن طريق جمع السلطة ، التى لم يكن له منها حتى وقتئذ شيء ، بين يديه ٠ ولكى يتحقق له هذا الهدف ، الذى يعتبر غاية لكل واصل جديد الى السلطة ، كان عليه أن يتبع سياسة دينية تضمن له حشد أكبر عدد ممكن من الأنصار ، يكونون له بمثابة العصبية أو القاعدة الشعبية التى يقوم عليها سلطانه ، وأن يتخلص من الزعماء أصحاب السطوة ممن يزاحمونه فى الملك وينقصون من سيادته وأهمهم الداعى ، وأن يواصل الفتح وتوسيع دولته نحو مصر ونحو المغرب الأقصى بما يشغل رجال الحرب ويوجه حماسهم العسكرى نحو الخارج ، كما يهيء موارد اضافية للدولة تزيد من قوتها ، وترفع من شأنه هو بين ملوك عصره ٠ أما عن اتخاذ مركز جديد للحكم فى مدينة « المهدية » فكان رمزا للنظام « الراشدى » الجديد الذى كان يسعى الى بسط سلطان آل البيت من الفاطميين فى المشرق بعد أن نجح فى نشر راياتهم على أسنة رماح أهل المغرب من الكتاميين ثم الصنهاجيين فى المغرب ، وهو ما نرجو أن يكون من موضوعات الجزء الثالث من الكتاب انشاء اللـــه ٠



فهرس المصادر والمراجع المذكورة في الهوامش

ابراهيم العلوى ، ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

ابراهيم رزقانة ومحمد صفى الدين ، الوطن العربى (فى : دراسات فى المجتمع العربى تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب والاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة سنة ١٩٦١ - ١٩٦٢) .

ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد القضاعى البلنسى ، توفى سنة ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م
- الحلة السيراء . تحقيق حسين مؤنس ، فى جزئين القاهرة ١٩٦٢ .

ابن أبى دينار محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى ، كتاب المؤنس فى اخبار افريقية وتونس . تونس ١٢٨٠ هـ .

ابن أبى زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . فاس ، طبع حجر .

ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، القاهرة (١٢ ج) .
- أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، ٥ أجزاء طبعة المعارف ، القاهرة ١٢٨٥ هـ .

ابن اسحق ، كتاب فتوح مصر واقاليمها ، القاهرة . ١٢٧٥ هـ (وانظر الواقدى ، فتوح مصر والاسكندرية) . طبعة ليدن . ١٨٢٥ .
- وانظر ابن هشام ، السيرة .

أبو زكريا : كتاب السيرة واخبار الأيمة ، ترجمة جزئية بمعرفة ماسكراى
(Masqueray, chronique d'Abou Zakaria, livre des Mizab), Alger, 1878.
- مخطوط دار الكتب ، رقم ٩٠٣٠ ح .

أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمى ، المتوفى سنة ٣٣٣ هـ) طبقات علماء افريقية ، نشر الشيخ محمد بن أبى شنب ، الجزائر ، ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤ م ، ط. بيروت ، ط. تونس .

أبو الفدا (اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماة المتوفى سنه ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م) ، المختصر فى أخبار البشر ، القسطنطينية ، ١٢٨٦ هـ .
- جغرافية أبى الفدا (كتاب تقويم البلدان ، نشر رينو ودسلان ، ١٨٩٠ م)

احسان عباس ، العرب فى صقلية ، القاهرة (المعارف) ، ١٩٥٩ م .

احمد بن ابراهيم النيسابورى ، استتار الامام ، نشر ايفانوف ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، ج ٢ ديسمبر ١٩٣٦ ، ص ٩٣ - ١٠٧ .

احمد النائب الأنصارى ، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ، القاهرة ، ١٣١٧ هـ .

احمد بن أبى الضياف ، اتحاف اهل الزمان

باخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تونس ، ١٩٦٣ .

احمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، القاهرة، ١٩٦٣ .

— خريطة القطر الجزائري ، طبعة كاربونيل ، الجزائر .

— المسلمون فى صقلية وجنوب ايطاليا .

احمد فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، طبع دار المعارف ، القاهرة . ١٩٣٦ م .

— مساجد القاهرة ومدارسها — المدخل ، الاسكندرية ، ١٩٦٢ م .

اخبار مجموعة (فى فتح الأندلس وذكر امرائها — رحمهم الله — والحروب الواقعة بهـا بينهم) ، نص عربي وترجمة اسبانية بمعرفة لافونت
(E. Lafuente)
مدريد ، ١٨٦٧ .

الادريسي ، كتاب نزهة المشتاق و الجزء الخاص بصفة المغرب وارض السودان ومصر والأندلس) نص عربي وترجمة فرنسية بمعرفة دفريه ودوزي . ليدن ، ١٨٦٤

الاستبصار : انظر كتاب الاستبصار .

الاصطخري ، كتاب المسالك والممالك ، نشر De Coeje ليدن ، ١٨٧٠ م .

السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، دار المعارف ، لبنان ، ١٩٦٢ م

الطاهر احمد الزاوي ، تاريخ الفتح العربي فى ليبيا ، طبعة دار المعارف بمصر (طبعة اولى) .

اماري
M. Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia
(الطبعة الثانية منقحة ومنشورة بمعرفة كارلو الفونسو نلليتو)
Catania, 1935 (Nollino)

— المكتبة العربية الصقلية
(Biblioteca Arabo-Sicula... Lipsia, 1855).

انجل جونثالث بالنثيا
Angel Gonzalez Palencia
تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

البارونى ، كتاب الأزهار الرياضية فى ائمة وملوك الاباضية . مطبعة الأزهار البارونية .

البخاري ، كتاب التاريخ الكبير طبع حيدر آباد الدكن ، ١٣٦١ هـ ، ج ٣ قسم ١ ، قسم ٢ .

بروكلمان Brockelmann
تاريخ الشعوب والدول الاسلاميه ترجمة فرنسية بمعرفه تزروت (M. Tazerout) باريز ١٩٤٩

بروفنسال
E. Lévi Provençal . ١٩٥٤
— Les Historiens de la chorfa, 1923.
— Histoire de l'Espagne musulmane, Paris, 1944.
(ترجمة عربية فى الاسلام فى المغرب والأندلس . بمعرفة السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح حلمي ، الألف كتاب ، رقم ٨٩) .
— Un recueil de lettres officielles Almohades, étude diplomatique......, Paris, 1944.

— اخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين (مذكرات البيدق) ، نص عربي وترجمة فرنسية تحت عنوان

(documents inédits)
وثائق لم تنشر
باريز ، ١٩٢٨ .

بريبيه
L. Bréhier, Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947.

البغدادي (أبو المنصور عبد القاهر بن طاهر ، المتوفى سنة ٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م)، الفرق بين الفرق ، القاهرة ، ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م .

البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ، المتوفى سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٧ م) ، كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، جزء من « كتاب المسالك والممالك » ، طبع دسلان (De Slane) الجزائر ، ١٩١١ .

ـ جغرافيـة الأندلس وأوروبا ، تحقيق عبد الرحمن حجي ، طبع بيروت .

بـل
A. Bel, Les Banou Ghania, derniers représentants de l'empire almoravide et leur lutte contre l'empire almohade, 1903.

— La religion musulmane en Berlérie, Esquisse d'histoire et de sociologie religieuse, Paris, 1938.

البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، المتوفى سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) ، كتاب فتوح البلدان ، طبع ليدن ١٨٦٦ .

البيذق ـ انظر بروفنسال (أخبار المهدي ابن تومرت) .

بيير سنيفال
Pierre de Cenival, le pretendu évêché de la Kalà de Beni Hammad, Hespéris, t 15, année, 1932, Fax, I.

التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن ابراهيم التجاني) ، الرحلة ، تونس ، ١٩٥٨ .

جاسبار ريميرا Gasper Remira
ـ انظر النويري

جروهمان Grohmann (Adolf)
Aperçu de papyrologie arabe (extrait des études de papyrologie, t. I, Le Caire (imp. inst. Fr...), 1932.

الجزنائي (أبو الحسن علي الجزنائي) ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، طبع الفرديل A. Bel الجزائر ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢ م ، مع ترجمة فرنسية مصحوبة بالهوامش تحت عنوان
La fleur du Myrte...
Zahrat El-As الجزائر ١٩٢٣

جسل
M.S. Gsell, la tripolitaine et le Sahara au 3èmes ère (extr. mém. Acadé. insc. B. Lettres, t. 43), Paris, 1926.

جمال الدين الشيال ، الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الاسكندرية (في العصر الاسلامي) ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ، المجلد ١٥ ، سنة ١٩٦١ .

ـ الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور ، الأطلس التاريخي ، المجلة التاريخية ، ١٩٤٩ .

جوتيية
E.F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscurs, Paris, 1942.

— Le Sahara, Paris, 1946.

جودفروا ديمومبين
Gaudefroy-Demombynes
Les institutions musulmans, Paris, 1946.

انظر العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (افريقية عدا مصر
L'Afrique moins l'Egypte

Ch. André Julien. Histoire de
ترجمة فرنسية مع مقدمة وهوامش ، باريز ، ١٩٢٧ .

جوزيف نسيم يوسف ، مجتمع الاسكندرية في العصر المسيحي . كتاب مجتمع الاسكندرية ١٩٧٥ .

جوليان Ch. André Julien
l'Afrique du Nord, 1931.

جيار
Gaillard, une ville de l'islam Fès, Paris, 1905.

الحبيب الجنحاني ، المغرب الاسلامي . الحياة الاقتصادية والاجتماعية (من ٣ - ٤ هـ/ ٩ - ١٠ م) طبع تونس .

حسن ابراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ .

حسن حسني عبد الوهاب ، خلاصة تاريخ تونس ، الطبعة الثالثة ، تونس .
— ورقات ، ط. تونس ١٩٦٥ .

حسن سليمان محمود ، ليبيا بين الماضي والحاضر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

— فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

حسين نصار ، نقد نشره عبد المنعم عامر لكتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ، مجلة « المجلة » العدد ٨٠ ، اغسطس (آب) ١٩٦٣ .

الحشائشي : انظر محمد بن عثمان .

ابن حجر (شهاب الدين بن علي العسقلاني . توفي سنة ٨٥٣ هـ/١٤٤٩ م) ، الاصابة في تمييز الصحابة طبعة ١٣٢٨ هـ .

ابن حزم (أبو محمد بن أحمد بن حزم الظاهري - توفي سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م) ، كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل القاهرة ١٣١٧ هـ .

ابن حماد . ابو عبد الله محمد بن علي بن حماد ، توفي سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م .
— اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم . تحقيق فوندرهايدن طبع الجزائر سنة ١٩٢٧ م .

الحميدي . جذوة المقتبس ، مجموعة تراثنا المكتبة الأندلسية . رقم ٣ ط. القاهرة. سنة ١٩٦٦ .

الحميري الروض المعطار في اخبار الأقطار (صفة جزيرة الأندلس) تحقيق بروفنسال . القاهرة ١٩٣٧ م .

ابن حوقل ، صورة الأرض . طبع بيروت (مكتبة دار الحياة) .
— وطبع ليدن بمعرفة دغويه
De Goeje
(المسالك والممالك) ليدن ١٨٩٩ م .

ابن حيان ، أبو مروان بن حيان القرطبي توفي سنة ٤٦٩ هـ/١١٧٦ م .

— المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي (المكتبة الأندلسية) ، بيروت ١٩٦٥ .

— وانظر القطعة التي حققها محمود علي مكي ، طبع دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٧٣ م

ابن حيون أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي ، توفي سنة ٣٦٣ هـ/ ٩٤٧ م .
ـ دعائم الاسلام ، تحقيق آصف فيضي القاهرة ١٩٦٣ .
ـ رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضي ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٠ .

ابن خرداذبة وابن الفقيه وابن رسته ، صفة المغرب وأوربا في القرن الثالث الهجري/ ٩ م ، مستخرجات من كتاب المسالك والممالك وكتاب البلدان وكتاب العلق النفيس ، المكتبة العربية الفرنسية تحت اشراف هنري بيريز

(Bibliothèque Arabe-Française H. Pérès

نص عربي وترجمة فرنسية لمحمد حاج صادق ، الجزائر ، ١٩٤٩ ، العدد رقم٦

ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس ، نشر بمعرفة احمد مختار العبادي ، مطبوعات جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ م
ـ كتاب اعمال الأعلام (الجزء الثالث) ، نشر أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني تحت عنوان : المغرب العربي في العصر الوسيط ، طبعة الدار البيضاء ، ١٩٦٤ .

ابن خلدون المقدمة (مقدمة كتاب العبر المشهورة بمقدمة ابن خلدون) ، طبعة التجارية ، القاهرة .
ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، طبع القاهرة .
ـ الترجمة الفرنسية للقسم الخاص بالمغرب بمعرفة دسلان

(De Slane). Histoire des berbères et des Dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale, Paris, 1925 (t. 1 et 2).

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس احمد ابن ابراهيم بن أبي بكر الشافعي ، المتوفى سنة ٦٨١ هـ/١٢٨١ م ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، طبعة محيي الدين عبد الحميد .

خليفة بن خياط ، توفي سنة ٢٤٠ هـ/ ٩٥١ م .
ـ تاريخ خليفة بن خياط ، نشر أكرم العمري ، في جزئين ، بغداد ١٩٦٨ .

الدباغ (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري ، ٦٠٥ ـ ٦٩٦ هـ) ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ، في جزئين ، تونس ، ١٣٢٠ هـ .

الدرجيني ، أبو العباس احمد ، من رجال القرن السابع الهجرة/١٣ م .
ـ طبقات الاباضية ، مخطوط دار الكتب المصرية (رقم ١٢٥٦١ ح مصورة عن المخطوط الأصل رقم ٢٦١٢ تاريخ تيمور) .
ـ طبعة الجزائر بمعرفة ابراهيم طلاي ، البليدة ، ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م .

دسبوا

J. Despois, Le Djebel Nefousa, Paris, 1935.
— La Tuinise orientale, Paris, 1940.

دوزي

R. Dozy, Histoire des musulmanes d'Espagne, Leyden, (1932 (t. 1).

(ترجم الجزء الأول الى العربية بمعرفة حسن حبشي تحت عنوان : تاريخ مسلمي اسبانيا ، القاهرة) .

ديل

Ch. Diehl et G. Marçais, Le monde oriental, de 365 à 1081, Paris, 1944.

(الجزء الثالث من مجموعة التاريخ العام
- جلوتز Glotz - قسم العصور الوسطى) .

الذهبي ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، مطبعة القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٣ .

ريسلر
Risler, la civilisation arabe, Paris, 1955.

الرقيق (ابراهيم بن القاسم ، توفى بعد سنة ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م) ، تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق المنجي الكعبي ، طبع تونس ، ١٩٦٧ .
- قطب السرور في أوصاف الخمور ، تحقيق أحمد الجندي .

الزاوي - انظر الطاهر أحمد

الزهري ، كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي بدمشق ، ١٩٦٨ .

السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، طبعة ١٣٢٤ هـ ، ج ١ .

سلرييه
J. Célerier, Le Maroc (Coll. L'union Française), Paris, 1948.
— Les conditions géographiques de développement de Fès, Hespéris, t. 19, année 1934. Fasc. 1-2.

سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية ، مجلة كلية الآداب بالاسكندرية ، ١٩٦٣ م .
- موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في افريقية وتنقلهم الى مصر ، مجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ، بنغازي ، ١٩٥٨ م .
- ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة ، مجلة كلية الآداب ، اسكندرية ، ١٩٥٤ .
- تاريخ الاسكندرية من الفتح العربي الى قيام الفاطميين ، في كتاب تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور ، الاسكندرية ، ١٩٥٤ .

- العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي ، مجلة كلية الآداب ، اسكندرية ، ١٩٥٣ .
- انظر كتاب الاستبصار .
- فتوح المغرب والأندلس في رواية ابن عبد الحكم ، بحث في كتاب « دراسات عن ابن عبد الحكم » ، المكتبة العربية ، ط . وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ١٥٣ - ١٦٦ .

- أهمية ابن تغري بردي لتاريخ المغرب والأندلس ، بحث في كتاب « المؤرخ ابن تغري بردي » ، مجموعة المكتبة العربية ، ط . وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٧٤ .
- الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري ، كتاب تاريخ المجتمع السكندري ، طبع جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ .
- هامش على مصادر تاريخ الاباضية في المغرب ، دراسة لكتاب السير للوسياني ، مطبوعات الجامعة التونسية ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، اشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته ، ج ١ ، سلسلة الدراسات التاريخية (من ص ٥١ - ٩٦) .

ابن سعيد ، علي بن موسى ، توفى سنة ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م .
- كتاب الجغرافيا ، طبع بيروت

السلاوي ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، طبعة الدار البيضاء :

سليمان الباروني ، الأزهار الرياضية في أيمة وملوك الاباضية .

سيدة اسماعيل الكاشف ، مصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

— مصر في فجر الاسلام (من الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونية) ، القاهرة ١٩٤٧ .

شعيرة ، أنظر محمد عبد الهادي .

الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ، المتوفى سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣ م) الملل والنحل طبعة ليبزج ١٩٢٣ م .

ابن الصغير اخبار الأيمة الرستميين نشر وترجمة موتيلينسكي
Chronique d'Ibn Saghir sur les imams Rostenides de Tahert, éd. et trad. par Motylinswki, dans Actes du 14e Congrès des Orientalistes, 3e partie, 1907

الطبري تاريخ الأمم والملوك طبعة القاهرة ، ١٣٥٨ — ١٩٣٩ وطبعة اوربا ، وطبعة دحائر العرب ٥ ج .

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري) فتوح مصر والمغرب والأندلس ، نشر شارل توري (Torrey) طبعة ليدن ، ١٩٢٠ .

— نشرة جزئية مع ترجمة فرنسية بمعرفة جاتو (Gateau) في مجموعة (المكتبة العربية الفرنسية) طبعة الجزائر ، ١٩٤٨ .

— نشرة جزئية بمعرفة ماسيه (H. Massé) ، القاهرة ١٩١٤ .

— نشرة جزئية حديدة بمعرفة عبد المنعم عامر ، القاهرة .

عبد الحميد العبادي ، المجمل في تاريخ الأندلس القاهرة ، ١٩٥٨ .

عبد السلام بن سوده ، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، تطوان ، ١٩٥٠ .

عبد العزيز الدوري ، علم التاريخ عند العرب ، بيروت ، ١٩٦٠ .

عبد العزيز طريح شرف ، جغرافية ليبية الاسكندرية ، ١٩٦٣ .

عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، طبعة ١٩٦٠ م .

— مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

— ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر (التاريخ السياسي) ، طبع دار المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٧ (طبعة ثانية) .

عبد الهادي التازي ، الامام داود بن ادريس (من خلال الوثائق التاريخية) ، مجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية ، المجلد ١٥ ، سنة ١٩٦١ .

— جامع القرويين بفاس ، رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة ، قدمت لجامعة الاسكندرية سنة ١٩٧١ .

عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، طبعة مصر ، ١٣٢٤ هـ .

عبيد الله بن صالح ، أنظر بروفنسال ، نص جديد .

ابن عذارى المراكشي (أبو عبد الله محمد) ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، نشر وتحقيق كولان وبروفنسال ، ليدن ١٩٤٨ (نشر دوزي ، وطبعة بيروت ، ٢ ج) .

عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، طبع ادنبره ١٩٧٥ .

علي يحيى معمر ، الاباضية في موكب التاريخ — الجزء الأول ، في : نشأة المذهب

الاباضى ، طبع القاهرة ، اكتوبر ١٩٦٤م
- الجزء الثانى ، فى : الاباضية فى ليبيا ، طبع القاهرة ، اغسطس ١٩٦٤ م

علوش
I.S. Allouche, deux épitres de théologie abadite, Hespéris (22 année, 1936, Facs. I).

العمرى ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، طبعة دار الكتب ، ١٣٤٢ هـ /١٩٢٤ م (ج ١) .
- ترجمة جزئية خاصة ببلاد المغرب والسودان ، بالفرنسية ، باريز ، ١٩٢٧
أنظر جودفروا ديمومبين
(Gaudefroy-Demombynes)

العياشى ، الرحلة ، مخطوط طرابلس ، مكتبة الأوقاف خزانة ص - ر - ا - رقم ٣٤٠ ، (٢ ج) .
- طبع حجر فاس .

عياض ، ابو الفضل بن موسى اليحصبى السبتى ، توفى ٤٦٧ هـ/١٠٨٣ م .
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك فى معرفة أعلام مذهب مالك ، طبع بيروت ١٩٦٥ .
- تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضى عياض ، تحقيق محمد الطالبى ، طبع تونس ١٩٦٨ .

الغبرينى ، أحمد بن أحمد ، توفى سنة ٧١٤ هـ/١٣١٥ م .
- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، نشر عادل نويهض ، طبع بيروت ، ١٩٦٩ .

ابن غلبون (ارتحل الى الأزهر وعاد الى بلده مسراتة سنة ١١٣٣ هـ) ، كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، نشر الطاهر أحمد الزاوى ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ .

ابن الفقيه (ابو بكر أحمد بن محمد الهمدانى) كتاب البلدان ، طبع ليدن ١٨٨٥ م .

فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٨ م .

فورنل
H. Fournel, Etude sur la conquête de l'Afrique par les arabes..., Paris, 1857.

فوندرهايدن ، الأغالبة ، بالفرنسية .

فيركوتية
J. Vercoutter, L'Egypte ancienne (Coll. que Sais — je?), Paris, 1947.

فيشل
W.J. Fischel, Ibn Khaldun and Tamerlane, Berkeley, Los Angeles, 1952.

القرطاس ، انظر ابن ابى زرع .

ابن القاضى ، جذوة الاقتباس فى أعلام مدينة فاس ، طبع حجر ١٣٠٩ هـ .

ابن قتيبة (ابو محمد عبد الله بن مسلم ، المتوفى سنة ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) ، الامامة والسياسة ، فى جزئين ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٨ هـ .
- القسم الخاص بفتح الأندلس ، من ملاحق كتاب افتتاح الأندلس لابن القوطية ، طبعة مدريد ، ١٨٦٨ م .

القلقشندى (ابو العباس أحمد ، المتوفى سنة ٨٢١ هـ/١١٨ م) ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، طبع القاهرة ، ١٩١٣ .

ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس طبعة مدريد ، ١٨٦٨ - نص عربى وترجمة

أسبانية بمعرفة ريبيرا ، (طبعة بيروت بمعرفة عبد الله انيس الطباع) .

كانيا

R. Cagnat, Le frontière militaire de la tripolitaine à l'époque romaine, Paris, 1912.

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب والسودان – ق ٦ هـ (١٢ م) ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، مطبوعات جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

كتاب السياسة في تدبير الرياسة ، فى الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الاسلام ، تحقيق عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ١٩٥٤ .

كتاب العيون والحدائق ، ج ٣ ، طبعة ليدن ، ١٨٧١ م .

ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، تحقيق مختار العبادى ، طبع مدريد ١٩٧١ .

كريسويل ، العمارة الاسلامية المبكرة ، طبعة بيكان ، بالانجليزية .

الكندي (ابو عمر محمد بن يوسف الكندى ، المتوفى سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م) ، كتاب الولاة والقضاة ، نشر رفن جست Rhuven Guest ، طبعة بيروت ، ١٩٠٨ ، مع مقدمة بالانجليزية ، طبعة ليدن ، ١٩١٢ .

(W.D. Cooley) ، بلاد السودان العربية ، بالانجليزية ، لندن ١٩٦٦ .

لارنود

H. Larnaude, Algérie (Coll. L'union française), Paris, 1950

لاوست

E. Laoust, L'habitation des transhumants du Maroc central, Hespéris t. 14, 1932, Fasc. 2.

المالكي (ابو عبد الله بن أبي عبد الله – رئس حوالى منتصف القرن الخامس الهجري) : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، نشر حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١ م .

مارتينو ماريو مورينو ، المسلمون فى صقلية .

و. مارسيه

W. Marçais, un siècle de recherches sur le passé de l'Algérie musulmane (R.H., 1931).

ج. مارسيه

G. Marçais, La berbérie musulmane et l'orient au moyen âge, Paris, 1946.

– المجمل فى الفن الاسلامى (بالفرنسية) طبع لاووس .

– أطلس شارل ديل وجورج مارسيه .

ج. مارسي

G. Marcy, Le dieu des abadites et des Bargwata, Hespéris, t. 22, année 1936, Fasc. 1.

الماوردي (أبو الحسن علي بن حبيب البصري المتوفى سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٧ م) الأحكام السلطانية ، طبعة القاهرة ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م .

مبارك بن محمد الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، جزءان ، الجزائر ١٣٥ هـ .

محمد بن محمد اليماني ، سيرة الحاجب جعفر ابن علي وخروج المهدى صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سلمية ووصوله الى سجلماسة وخروجه منها الى رقادة ، نشر ايفانوف ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ج ٢ ديسمبر ١٩٣٦ ، ص ١٠٧ — ١٣٣ .

محمد طالبي ، عن الاغالبة في تاريخ تونس — العصر الوسيط ، بالفرنسية ، باريز ١٩٦٦ .

— أنظر تراجم اغلبية .

محمد الطيب بن أحمد ادريس الأشهب ، برقة العربية أمس واليوم، القاهرة، ١٩٤٥ .

محمد عبد المنعم الشرقاوي ومحمد محمود الصياد ، ملامح المغرب العربي ، اسكندرية ، سنة ١٩٥٩ .

محمد القادري ، نشر المثاني (ترجمة فرنسية بمعرفة

Ed. Michaux-Bellaire, archives Mars Caines, Paris, 1917, Vol. 24.

محمد بن عثمان الحشائشي (التونسي ، توفي ١٣٤٠ هـ) ، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ، نسخه بالآلة الكاتبة عن مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بتونس ، مكتبة بلدية الاسكندرية ، رقم ٢٥٩١ ب .

محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الأندلس من الفتح الى نهاية مملكة غرناطة ، القاهرة ، ١٣٦٢ هـ/١٩٤٣ م .

— ابن خلدون (حياته وتراثه الفكري) ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .

محمد عبد الهادي شعيرة (بالاشتراك) ، تاريخ ليبيا والعالم الاسلامي ، طبعة القاهرة ، ١٩٦٢ م .

— الصراع بين العرب والبيزنطيين (بالفرنسية) .

La lutte entre arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947.

— ليبيا ، الاسم ومدلولاته التاريخية ، مجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ببنغازى ، المجلد الأول سنة ١٩٥٨ .

— تقسيمات اقليمية من العصر العباسي الأول ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٤٤ .

— المرابطون : تاريخهم السياسي (٤٣٠ — ٥٣٩ هـ) ، طبع القاهرة طبعة أولى ١٩٦٩ .

محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، المتوفى سنة ٣٤٥ هـ/٩٥٦ م) . مروج الذهب ومعادن الجوهر ، طبعة التجارية ، ١٣٧٧ هـ/١٩٥٨ م .

مصطفى محمد مسعد ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، طبع القاهرة ١٩٦٠ .

مصطفى عبد الله بعيو ، المجمل في تاريخ لوبيا من أقدم العصور الى العصر الحاضر ، الاسكندرية ، ١٩٤٧ .

مصطفى كمال عبد العليم ، يهود الاسكندرية في عصر البطالمة والرومان ، كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، طبع جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ .

مصعب الزبيري ، كتاب نسب قريش ، تحقيق بروفنسال ، سلسلة ذخائر العرب ، القاهرة ، ١٩٥٤ م .

المقدسي ، أحسن التقاسيم ، طبع بريل ١٩٠٦ .

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م) ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، جزءان .

— اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء ، نشر وتحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ م .

ميشو

M.E. Michaux, Conférences au Cours préparatoires de services des affaires indigènes, archives Marocaines, Vol. 27.

نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ١ مصر طبعة ١٩٦٣ م .

نص جديد عند فتح العرب للمغرب ـ انظر بروفنسال .

القاضي النعمان ، انظر ابن حيون .

النويري (شهاب الدين أحمد المتوفى سنة ٧٣٣ هـ/١٣٣٢ م) ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء الخاص بتاريخ المغرب والأندلس ، مخطوط مصور ، مكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية رقم ٢٢ م .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام ابن أيوب الحميري ـ توفي سنة ٢١٨ هـ /٨٣٤ م) ، السيرة النبوية ، ٤ أجزاء ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شلبي ، مصر ، ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦ م .

هوبالك

P. Hulac, Tunisie (Coll. L'union française, Paris, 1918).

هيرودوت

Herodotus, The histories (the penguin classics), 1935 (Book 3)

الواقدي فتوح افريقية ، طبعة تونس ١٣١٥ ، (مخطوط المتحف البريطاني القسم العربي ، رقم Add. 9572

ـ كتاب قصة البهنسا وما فيها من أصحاب الله عليهم أجمعين ، مصر ١٢٧٨ هـ (ومخطوط مدرسة اللغات الشرقية بلندن والغرائب وما وقع للصحابة فيها من فتح البهنسة رفيوم ـ القسم العربي ، ٢٦٣٨٦) .

ـ فتوح مصر والاسكندرية ، طبعة ليدن ، ١٨٢٥ .

الورجلاني (أبو يعقوب بن ابراهيم) كتاب الدليل لأهل العقول ، القاهرة ، طبع حجر .

الوسياني ، أبو الربيع سليمان بن عبد السلام من رجال القرن السادس الهجري/١٢ م ـ كتاب السير ، مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ح/٩١١٣ .

وهب بن منبه ، كتاب التيجان في ملوك حمير ، ط. حيدر اباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ .

ياقوت ، (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت ابن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م) ، معجم البلدان ، طبع القاهرة ، ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٦ م .

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ، توفي سنة ٢٨٤ هـ/ ٩٨٧) ، تاريخ اليعقوبي ، ٢ ج ، ليدن ١٨٨٣ م .

ـ كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩٢ م .

الفهرست

أسماء الأشخاص والقبائل والجماعات

(أ)

ابو العباس بن على : ٢٧٣ ٠

(ب)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

ب – الأماكن

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(و)

(ى)

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٥٨/ ١٩٩٣
الترقيم الدولى ٩ ـ ٢٠ ـ ٧٣٠٧ ـ ٩٧٧



